الدكتور محمّد سهيل طقّوش

تاريخ الفاطميّين

في شمالي إفريقية ومِصْر وبلادِ الشّام



دار النفائس

تاريخ الفاطميّين

في شمالي إفريقية ومِصْر وبلادِ الشّام

٢٩٧ ـ ٥٦٧ هـ/٩١٠ ـ ١١٧١م

تأليف

الدكتور محمد سهيل طقوش

دار النفائس

تاريخ الفاطميين في شمالي أفريقيا ومصر وبلاد الشام

تأليف: الدكتور محمد سهيل طقوش

الطبعة الثانية: ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 100 - 4

Publisher نشر



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

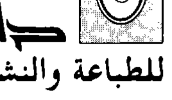
P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon



للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14

الرمز البريدي: 2020 ـ 1105

فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 ـ 009611810194

بيروت ـ لبنان

Email: alnafaes@alnafaes.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف: الجامع الأزهر في القاهرة

الإهداء

إلى حفيدي سهيل

هذه أنباء ما قد سبق،

أهديها إليك بكل الحب الذي أغمرك به.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعد:

يتناول هذا الكتاب التاريخ السياسي للدولة الفاطمية في شمالي إفريقية، ومصر والمشرق الإسلامي. والواقع أن تصوُّرَ الماضي وتمثُّلَه أمر تكتنفه الصعاب، ليس لمجرد تضارب المعلومات التاريخية أو قلَّتها، ولكن لأن إعادة بناء التاريخ هو عمل سياسي بالدرجة الأولى. فالجدل حول إمكانية كتابة التاريخ الفاطمي الذي قامت محاولات عديدة لاكتشاف جذوره، وكيفية نشوئه وارتقائه ثم هبوطه وسقوطه قد دأبت، بطبيعة الحال، على الصعاب التي جابهت تفسير الشواهد التاريخية، المتناقضة. وعلى الرغم من غزارة الأبحاث الي تناولت تاريخ الفاطميين، إن باللغة العربية، أو باللغات الأوروبية، فإن عدداً قليلاً منها يمكن الوثوق به والاعتماد عليه. ونقطة الضعف الرئيسية المشتركة لهذه الأبحاث، أن بعضها:

ـ قام على مرتكزات سياسية ومذهبية اتصفت بالأحادية.

ـ اعتمد على المصادر المتأخرة.

ـ قنع بتدوين معلومات ذات طابع عام دون مناقشة للأصول أو تفسير موضوعي للأحداث.

ـ لم يتطرق إلى التطورات السابقة ولا إلى الظروف الهامة في المناطق التي خضعت للفاطميين.

ـ تناول جانباً من التاريخ الفاطمي، واقتصر إما على المرحلة الإفريقية أو على المرحلة المصرية ـ الشرقية، وإذا تناول المرحلتين معاً فإن ذلك يأتي ضمن سياق التاريخ الفاطمي بشقيه السياسي والحضاري، فاتصف بالإيجاز الشديد الذي لا يروي غليل الباحث فضلاً عن القارىء العادي.

ـ اقتصر على تدوين سِيَر بعض الشخصيات الفاطمية.

وعليه، فقد أصبحت مهمة الباحث في التاريخ الفاطمي، مهمة صعبة، إذ عليه أن يتعرَّف على المصادر المبكرة والتي ترجع إلى العصر الفاطمي على الرغم من تضاربها. وقد يكون هذا التضارب مفيداً لو استطعنا التوفيق بين الآراء المتناقضة، ولكن كيف يمكن المقابلة بين نوعين من المصادر يستحيل التوفيق بينهما دون احتمال الوقوع في الخطأ؟ وهي المصادر السُنِّيَّة المناهضة صراحة للفاطميين، والنصوص الإسماعيلية التي تُقدِّم رواية رسمية للأحداث والوقائع. ومع ذلك فإن استعراض تلك النصوص، بالتسلح مسبقاً بأصول النقد التاريخي، والسعي إلى جمع المعلومات الصحيحة، والمدقَّقة وعدم الاكتفاء بالوقوف على جانب من القضية، وتحليل الظواهر الرئيسية التي أحاطت بتاريخ الفاطميين في الغرب والشرق؛ يؤدي بنا إلى استنباط الحقيقة التاريخية.

فالدولة الفاطمية تُعدُّ نموذجاً واضحاً للدولة المذهبية في التاريخ الإسلامي، وهي دولة شيعية قامت على أساس ادعاء انتسابها إلى الرسول عن طريق علي وفاطمة، على رأسها الإمام الذي يملك ويحكم بوصفه مرشداً روحياً، وزعيماً دينياً، وصاحب السلطة الزمنية المستمدة من الله وفقاً لنظرية الحق الإلَهي، وتميزت بمذهب خاص هو المذهب الإسماعيلي، نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، فهو (المذهب الإسماعيلي) الذي خطط سياستها وأعطاها أبعاداً ثورية متقدمة. وقد حقَّقت أحلام الشيعة، لأول مرة، وبخاصة بعد انتقالها إلى مصر وتوسعها في الشرق الإسلامي، مشكِّلَة دولة واسعة الأرجاء بلغت درجة عالية من الحضارة.

ذلك أن الشيعة، بعامة، الذين أُبعدوا عن الخلافة، وحُرموا من السلطة، وتعرَّض بعضهم للملاحقة في الشرق الإسلامي في عهد الأمويين والعباسيين، عمدوا إلى التقية والاستتار. وعليه يتصف تاريخ الحركة الإسماعيلية، طوال المائة عام الأولى التي أعقبت وفاة الإمام جعفر الصادق في عام (١٤٨هـ/ ٧٦٥م)، بالغموض، واعتمدت هذه الحركة على نشاط الدعاة السريين الذين انتشروا في مختلف أرجاء العالم الإسلامي يدعون إلى قرب ظهور الإمام المهدي من آل فاطمة. وأصبحت منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، بعد اختفاء الإمام محمد بن الحسن العسكري في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م)، الجناح الأكثر أهمية للشيعة بما تبنَّته من آراء ثورية. فاستبدلت التقية بالمجاهرة، والسلبية بالعمل العسكري، على أساس أن الانتظار جعل من الشيعة جموعاً سلبية لا تشارك في العمل السياسي وتعاني من اختلال الرابط السياسي بينها، وعملت على تأسيس دولة في إفريقية، وهو المكان

البعيد عن رقابة السلطات قي الشرق. وقد هدَّدت، بشكل بالغ، وضع الدول الإسلامية الموجودة في شمالي إفريقية لأكثر من نصف قرن قبل أن تنتقل إلى مصر لتهدد العالم الإسلامي الشرقي لأكثر من مائتي عام حيث عدَّ الأئمة الفاطميون، الخلفاء العباسيين مغتصبين لحقهم الشرعي في حكم العالم الإسلامي.

والملاحظ أن كتب الدعوة والسجلات الرسمية، أطلقت على الحركة اسم الدعوة الهادية أو دعوة الحق، ولم تتحدث مطلقاً عن الإسماعيليين أو الفاطميين، وهو المصطلح الذي تحدثت عنه كتب الفِرق والعقائد. وربما نشأ هذا المصطلح ابتداء من عهد عبيد الله المهدي بهدف تأكيد الانتساب إلى فاطمة بنت النبي ثم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

وأدرك الفاطميون، بعد أن استقروا في شمالي إفريقية، وأسسوا دولتهم في ربوعها، أن المنطقة، لا تؤمِّن لهم الهدف، وتُحقِّق أحلامهم. فقد كانت أنظارهم متجهة دائماً نحو الشرق للقضاء على الخلافة العباسية ووراثة العالم الإسلامي الشرقي، ولجأوا، في سبيل ذلك، إلى الدعاية ثم العمل العسكري. وقد حقَّق المعز أعظم إنجازاتهم على الإطلاق حين استولى على مصر في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م). إذ بفضل هذا الإنجاز تبوَّؤا مكاناً بارزاً في التاريخ، وأنشأوا عاصمة جديدة هي القاهرة، تُعبِّر عن اتجاهاتهم الفكرية والسياسية. وظلوا لمدة غير قصيرة، خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أكبر قوة في العالم الإسلامي. إذ بلغت دولتهم أقصى اتساعها في عهد المستنصر، وضمَّت مصر والشام وشمالي إفريقية وصقلية والشاطىء الإفريقي للبحر الأحمر والحجاز واليمن وعمان والبحرين، وإن كان الفضل في هذا الاتساع يعود إلى نشاط الدعاة، ولم يكن للقوة المسلحة غير دور ضئيل فيه.

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية هي دولة دينية، وهدفها بسط سيادتها على العالم الإسلامي، وبخاصة إقامة الدعوة لأئمتها على منابر الحجاز، فإننا نلاحظ أن أحداً من هؤلاء لم يؤدِّ فريضة الحج.

ودخلت الدولة الفاطمية في عصر جديد منذ أن تبوَّأ الوزير بدر الجمالي السلطة في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م) حيث برز دور الوزراء على حساب الأئمة. وأضحى أمير الجيوش، وهو اللقب الذي اتخذه وزراء التفويض أرباب السيوف، هو الحاكم الفعلي في الدولة، وتراجع نفوذ الأئمة حتى أضحوا مجرد رمز أو دمى في يد الوزراء.

وشهدت الدعوة الإسماعيلية انقساماً في أعقاب وفاة المستنصر في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) إلى مستعلية ونزارية، وانقساماً آخر، إلى حافظية وطيبية عقب وفاة الآمر في عام (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) دون وريث، حيث أعلن الحافظ نفسه إماماً في عام (٥٢٦هـ/ ١١٣٢م). وأضحى التاريخ الفاطمي، منذ ذلك الوقت، تاريخاً محلياً بعد أن فقد الفاطميون كل ممتلكاتهم خارج مصر، وطغى عليه الصراع الداخلي بين ولاة الأقاليم حول منصب الوزارة، ومحاولة هؤلاء الاستعانة بقوى خارجية، مما أدَّى إلى تطلع هذه القوى إلى الاستيلاء على مصر، حتى نجح صلاح الدين الأيوبي في وضع حد للدولة الفاطمية في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) وأعاد مصر مرة أخرى إلى الحظيرة السنيَّة.

ومن الملاحظ أن المكتبة العربية بحاجة إلى دراسة علمية متخصصة تعالج تاريخ الفاطميين السياسي بشكل متكامل، وهذا الذي حثَّنا على دراسة هذا الموضوع بحيث تتجلَّى للقارىء مرحلة مهمة من مراحل التاريخ الإسلامي.

استندتُ، في هذه الدراسة، على مصادر مهمة ومتنوعة لمؤرخين وجغرافيين ودعاة عاصروا الأحداث، واشتركوا في الشؤون العامة، فكتبوا ما شاهدوه، بالإضافة إلى مراجع حديثة لا بد منها لاستكمال شروط البحث العلمي، يراها القارىء في ثبت المصادر والمراجع.

وآمل بأن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد استوفت الحد الأدنى من شروط البحث العلمي.

أما تشكيل الموضوعات، التي يراها القارىء بعناوينها، فقد قسمتها إلى قسمين:

خصَّصت **القسم الأول** لتدوين أحداث التاريخ الفاطمي في إفريقية والمغرب الإسلامي، وقد قسمته بدوره إلى ستة فصول.

تضمَّن **الفصل الأول** شرحاً للوضع السياسي في شمالي إفريقية، قبل قيام الدولة الفاطمية من خلال تاريخ الدول التي كانت تحكم هذه المنطقة، وأوضاعها الداخلية وعلاقاتها الخارجية.

وعالجت في **الفصل الثاني** قيام الدولة الفاطمية، في شمالي إفريقية، وتطرقت إلى الجذور التاريخية للفاطميين، والحركة الإسماعيلية، وبيَّنت جهود الدعاة في نشر المبادىء الإسماعيلية، في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حتى نجحوا في تأسيس نواة في إفريقية تُعدُّ الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية.

وتطرَّقت في **الفصل الثالث** إلى تاريخ الدولة الفاطمية في عهد عبيد الله المهدي،

أول الحكام الفاطميين في شمالي إفريقية، الذي كان عليه أن ينظِّم الدولة المنشأة حديثاً ويتغلَّب على الصعوبات التي واجهتها، وبخاصة معارضة بعض الدعاة لحكمه بالإضافة إلى معارضة أهل السنَّة، كما كان عليه بناء عاصمة جديدة لدولته تُعبِّر عن تطلعات الفاطميين السياسية والدينية، فبنى المهدية لتكون رمزاً للدولة الجديدة. وتحدثت عن علاقاته الخارجية مع العالم الإسلامي بشقيه الغربي والشرقي، ثم علاقاته مع البيزنطيين في جنوبي إيطاليا، وبدأ في عهده تطلع الفاطميين للاستيلاء على مصر، وقام بعدة محاولات من أجل هذه الغاية لم تحقق الهدف.

وتضَّمن **الفصل الرابع** سجلاً بتاريخ الدولة الفاطمية في عهد أبي القاسم محمد القائم، الذي خلف عبيد الله المهدي. فتطرقت إلى أوضاع الدولة الداخلية حيث تعرَّض لثورة الخوارج الجامحة بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد. وتوفي القائم قبل أن يحقِّق هدفه بالقضاء عليها، وكان عنده متسع من الوقت للالتفات إلى الناحية الخارجية حيث انتهج سياسة سلفه.

وعالجت في **الفصل الخامس** تاريخ الفاطميين من خلال أعمال أبي طاهر إسماعيل المنصور الذي خلف أباه القائم، وقد تمكَّن من القضاء على ثورة الخوارج، ثم التفت إلى الخارج لاستكمال رسالة الفاطميين بالتمدد نحو الشرق الإسلامي، وإخضاع المغرب، وشهد عهده صراعاً مع البيزنطيين حول جزيرة كريت.

وخصَّصت **الفصل السادس** لتدوين أحداث التاريخ الفاطمي في شمالي إفريقية في عهد أبي تميم معد، الذي يلقَّب بالمعز، وقد خلف والده إسماعيل المنصور. واجه المعز ثورة الهواريين وقمعها، وتطلع إلى السيطرة على المغربين الأوسط والأقصى وتثبيت أقدام الفاطميين في ربوعهما مما أوقعه في نزاع مع الأمويين في الأندلس، وخاض صراعاً مع البيزنطيين حول جزيرة كريت، وجزيرة صقلية، وفي جنوبي إيطاليا.

وخصَّصت **القسم الثاني** لتدوين تاريخ الفاطميين بعد انتقالهم إلى مصر واتخاذهم هذا البلد قاعدة انطلاق للاستيلاء على الشرق الإسلامي وتأمين استمرارية الوجود الفاطمي في المغرب الإسلامي، وهو موزَّع بدوره على ثمانية فصول.

عالجت في **الفصل السابع** التمدد الفاطمي باتجاه الشرق الإسلامي بعد سيطرتهم على مصر بقيادة جوهر الصقلي على عهد المعز، وتطرقت إلى التنظيمات السياسية والمذهبية التي استحدثها وبخاصة تأسيس مدينة القاهرة، وعلاقة السلطة الفاطمية بفئات الشعب المصري، ثم استيلاء الفاطميين على بلاد الشام تمهيداً للوثوب إلى العراق. وبحكم وجود الفاطميين في بلاد الشام اصطدموا بالقوى

العربية الموجودة فيها. وقد تدخل القرامطة، الذين كانوا على عداء مع الفاطميين، في هذا النزاع. كما خاضوا صراعاً مريراً مع البيزنطيين للسيطرة على شمالي بلاد الشام. وبعد أن استقرت الأوضاع الداخلية في مصر للفاطميين، انتقل المعز إليها. وبدأ بانتقاله، عهد جديد تميز في إحكام السيطرة على بلاد الشام والتمدد باتجاه العراق. وتراجع اهتمام الفاطميين بالمغرب الإسلامي حيث قنعوا بالسيادة الاسمية عليه مما مهَّد لقيام الدول المحلية على يد البربر. وقد حرص المعز على السيطرة على بلاد الحجاز وإقامة الدعوة للفاطميين على منابرها.

وتطرقت في **الفصل الثامن** إلى تاريخ الفاطميين في عهد أبي منصور نزار، العزيز، الذي خلف أباه المعز. وقد اعتنى، كأبيه، بنشر المذهب الإسماعيلي وانتهج سياسة معادية لأهل السنَّة، وتعرَّضت سيادته على بلاد الشام للاهتزاز بفعل الصراع مع القوى الموجودة فيها من عربية وبيزنطية. وحاول العزيز اختراق جبهة الخلافة العباسية بالتقرب إلى البويهيين، الذين كانوا يهيمنون على مقدراتها، لكن جهوده باءت بالفشل بفعل اختلاف المذهب العقدي بين الفاطميين والبويهيين من جهة، ومن جهة أخرى حرص هؤلاء على استمرار سلطتهم على العراق والمناطق الشرقية في فارس. واستمرت السيادة الاسمية للفاطميين في إفريقية.

وتضمَّن **الفصل التاسع** سجلاً بأعمال أبي علي منصور، الحاكم، الذي خلف أباه العزيز. ويُعدُّ الحاكم نموذجاً فريداً بين الحكام الفاطميين نظراً لسياسته المتقلبة، وتصرفاته المتناقضة ونهايته الغامضة. إنه تدخَّل في صميم المجتمع المصري بما سنَّه من قوانين تُحرِّم أو تُحلِّل عادات السكان ومأكلهم ومشربهم، بالإضافة إلى نزعاته الدينية المتطرفة. وواجه الحاكم، على الصعيد الخارجي، أوضاعاً مضطربة في بلاد الشام نتجت عن الثورات المتكررة ضد الحكم الفاطمي، كما كانت له علاقات عدائية مع الخلافة العباسية، وخُطب له على منابر الحجاز، واستمر في عهده الصراع مع البيزنطيين في شمالي بلاد الشام. أما في شمالي إفريقية، فقد واجه الحاكم عدة انتفاضات ضد حكمه ونفَّذ في هذه البلاد سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض لإضعافها وسيادة النفوذ الفاطمي.

وعالجت في **الفصل العاشر** أحداث التاريخ الفاطمي في عهد أبي الحسن علي، الظاهر، الذي خلف أباه الحاكم. وتولت السيدة ست الملك، أخت الحاكم، إدارة الشؤون العامة في أوائل حكمه بفعل صغر سنه. كان الظاهر على النقيض من والده، إذ انتهج سياسة داخلية مغايرة لسياسته، فأبطل معظم الإجراءات التي اتخذها.

أما على الصعيد الخارجي، فقد واصل سياسة والده، فنشر دعاته في مختلف المناطق الشرقية الخاضعة للخلافة العباسية، وقد نجحوا في استقطاب البويهيين الذين أقاموا الدعوة له في البصرة والموصل وأعمال المشرق. كما استمر التنازع على شمالي بلاد الشام مع القوى المحلية والبيزنطية. أما في إفريقية فقد بدأ النفوذ الفاطمي يتراجع في ظل محاولات الزيريين للاستقلال عن القاهرة.

ودوَّنت في **الفصل الحادي عشر** أحداث التاريخ الفاطمي في عهد أبي تميم معد، المستنصر، الذي خلف أباه الظاهر وهو طفل، وامتد حكمه على مدى ستين عاماً، فهو أطول الحكام الفاطميين عهداً، وشهدت مصر في عهده أحداثاً جساماً وتقلبات اقتصادية وسياسية واجتماعية سريعة أثَّرت سلباً على قدرات الدولة، فتراجعت قوتها، نذكر منها صراع طوائف الجند، والأزمة الاقتصادية الكبرى التي سمِّيت بالشدَّة المستنصرية، ولم يُنقذ البلاد والعباد من الفوضى والفساد اللذين استشريا في أجهزة الدولة، سوى بدر الجمالي، حاكم عكا، الذي استدعاه المستنصر على عجل من أجل هذه الغاية. وفعلاً نجح بدر الجمالي في وضع حد لتدهور الدولة الداخلي، ثم طمع بالاستئثار بالسلطة وجعلها وراثية في عقبه، وفقد المستنصر كثيراً من اختصاصاته التي استأثر بها هذا الوزير. أما على صعيد السياسة الخارجية، فقد واجه الفاطميون في بلاد الشام قوة جديدة نامية هي قوة السلاجقة، فخاضوا صراعاً مريراً معها من أجل الاستئثار بحكم بلاد الشام، واستغلوا الفوضى التي سادت عاصمة الخلافة العباسية، ونجحوا، عن طريق القائد التركي البساسيري، في إقامة الدعوة للمستنصر على منابر بغداد لمدة عام تقريباً قبل أن يتمكَّن السلطان السلجوقي طغرلبك من وضع حد لهذه الظاهرة. وكان للمستنصر علاقات جيدة مع الصليحيين في اليمن. واتصفت علاقته بأشراف الحجاز بالتقلبات وفقاً لتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية. وتحسَّنت في عهده العلاقة مع البيزنطيين إذ رأت بيزنطية أن تتعاون مع الفاطميين للوقوف في وجه السلاجقة العدو المشترك لكليهما. واستمرت العلاقة مع الزيريين في إفريقية بالفتور قبل أن تتحول إلى عدائية. وأنهى الزيريون تبعيتهم السياسية والمذهبية للفاطميين، وخرج الفاطميون في عهد المستنصر من صقلية التي وقعت في أيدي النورمان.

وتناولت في **الفصل الثاني عشر** تدهور الدولة الفاطمية وتراجعها في ظل حكم الوزراء الذين استأثروا بالسلطات على حساب الأئمة، وتنافسوا على منصب الوزارة، مما أدى إلى ضعف الدولة الظاهر، وبدأ الإنهاك واضحاً على جسمها.

وعالجت في **الفصل الثالث عشر** أوضاع الدولة الفاطمية الخارجية في عهد الوزراء. وحاول الفاطميون في هذه المرحلة التعاون مع عدو جديد جاء من أوروبا إلى الشرق الإسلامي، وأعني به الصليبيين، وذلك للوقوف في وجه السلاجقة، لكن الفاطميين لم يتبيَّنوا حقيقة أهداف الصليبيين إلا في وقت متأخر. وبعد، أن سيطر هؤلاء على معظم بلاد الشام، أضحى الصراع على بيت المقدس ومدن الساحل الفلسطيني الواقعة تحت الحكم الفاطمي، سمة هذه المرحلة. وخسر الفاطميون في هذا الصراع كل ما كان لهم خارج حدود مصر.

واستكملت في **الفصل الرابع عشر** معالجة أوضاع الدولة الفاطمية الخارجية في عهد الوزراء من خلال الصراع بين نور الدين محمود الزنكي، أتابك دمشق وحلب، وعموري الأول، ملك بيت القدس، من أجل الفوز بمصر بعدما تبيَّن لهما مدى ضعفها وثرائها وأهمية موقعها وسهولة الاستيلاء عليها. وانتهى هذا الصراع لصالح نور الدين محمود، وتولى قائده أسد الدين شيركوه منصب الوزارة، وخلفه بعد وفاته ابن أخيه صلاح الدين، الذي أنهى دور الدولة الفاطمية في التاريخ في ظل حكم العاضد آخر الحكام الفاطميين.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة، كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

بيروت في ١/ ٧/ ٢٠٠٠

د. محمد سهيل طقوش

القسم الأول

الدولة الفاطمية في إفريقية

٢٩٧ ـ ٣٦٢هـ/ ٩١٠ ـ ٩٧٣م

الفَصْلُ الأوَلُ

الوضع السياسي في شمالي إفريقية[1]
قبل قيام الدولة الفاطمية[2]

تمهيد

تميز الفتح الإسلامي لشمالي إفريقية، الذي بدأ في عام (٢٢هـ/ ٦٤٣م) وانتهى في عام (٨٦هـ/ ٧٠٥م)، بكثرة الصعوبات التي واجهته. إذ لم يتمكَّن الفاتحون المسلمون من السيطرة على المنطقة إلا بعد أن تغلَّبوا على الجيوش البيزنطية، واستعادوا مدينة قرطاجنة في عام (٧٩هـ/ ٦٩٨م)، وأخمدوا المقاومة البربرية المستميتة إثر وفاة الكاهنة في عام (٨٢هـ/ ٧٠١م)[3]. وكوَّن البربر في شمال إفريقية نواة الجيوش الإسلامية التي أتمت فتح بلاد المغرب، وفتحت الأندلس.

وتناوب على حكم المنطقة ولاة أمويون ثم عباسيون بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية في عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، بنسق على غاية من السرعة مما استوجب تعيين ما لا يقل عن عشرين والياً لإقرار الأوضاع المتردية بفعل الصراعات الداخلية بين الولاة من جهة، ثم بين العناصر المشرقية والعناصر

---

(١) ينقسم شمالي إفريقية جغرافياً إلى أربعة أقسام هي:
أ ـ برقة وطرابلس.
ب ـ إقليم إفريقية: يقابل تقريباً تونس الحالية، ويُعرف بالمغرب الأدنى.
جـ ـ المغرب الأوسط: يقابل ما يُعرف اليوم بالجزائر.
د ـ المغرب الأقصى: يقابل المملكة المغربية في عصرنا.

(٢) الفاطميون هو اللقب الشائع للعبيديين، نسبة إلى عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة العبيدية (الفاطمية). وقد نسبوا أنفسهم إلى علي وفاطمة عن طريق إسماعيل بن جعفر الصادق، كما سيأتي في هذه الدراسة، فعُرفوا بالفاطميين. وقد آثرنا استعمال هذا اللقب الشائع.

(٣) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي: فتوح مصر والمغرب ص ٢٧١.
ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ١ ص ٣٥ـ ٣٩.

المغربية من جهة أخرى. وبلغ الصراع العنصري أشدَّه في عام (١٢٢هـ/ ٧٤٠م) فيما عُرف بالفتنة المغربية الكبرى، في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ـ ٧٤٣م)[١] نتيجة لسوء سياسة ولاة بني أمية، وعدم إدراك الأمويين لطبيعة البربر، وهم من سكان البلاد الأصليين، وإنكارهم للدور الكبير الذي قاموا به في عمليات الفتوح في المغربين الأوسط والأقصى والأندلس. وقد غابت عن أذهان كثير من الخلفاء الأمويين حقيقة إسلام أعداد ضخمة من البربر خلال عمليات الفتوح وما يستتبع ذلك من المساواة في المعاملة في الحقوق والواجبات. وتطلَّع البربر، من جانبهم، إلى الحصول على نصيبهم من العطاء ما داموا مسلمين يحاربون جنباً إلى جنب مع العرب، بالإضافة إلى حقوق كثيرة يعطيها لهم الإسلام، ورأوا أنهم لم يُكافؤوا على ما قدَّموه من خدمات، كما كانوا يأملون، ولم يعاملهم العرب معاملة النظير للنظير وهم في الوقت نفسه غير مستعدين للسماح للعرب بمشاركتهم خيرات بلادهم مشاركة كاملة، وينكرون عليهم الاستئثار بالسيادة فيها دون حساب.

استغل نفر من الخوارج[٢] الفارين من الشرق إلى الغرب، بعد الاصطدامات الدامية مع السلطات في الشرق، هذه الثغرة، فتغلغلوا في صفوف البربر، وأخذوا يحرِّضونهم على الثورة ضد ما يقع عليهم من ظلم، ويبيِّنون لهم حقوقهم في دولة الإسلام التي أصبحوا مواطنين فيها. ووجد الخوارج، في هؤلاء البربر النفوس المستعدة لتقبل تعاليمهم التي تلائم نزعاتهم، وفي شمال إفريقية الأرضية الصالحة لبذرها آملين أن ينجحوا في تأسيس دول تناهض السلطة في المشرق.

والواقع أنه لم تعكس صورة شمال إفريقية تحت الحكم العربي (أموي ـ عباسي) سوى الارتباك والاضطراب. فقد اندلعت ثورات دامية من أجل التنافس على السلطة، مثل ثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ضد حنظلة بن صفوان الكلبي[٣]، وضد عمه إلياس بن حبيب[٤]. وثار الجند أثناء الانتفاضات التي قام بها بعض قادة العناصر المشرقيين ولم يتمكَّن الولاة من إخمادها، نذكر منها: ثورة عيسى بن موسى

---

(١) ابن عذارى: ص ٥٤ـ ٥٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك جـ ٧ ص ١٩١.

(٢) الخوارج: أقدم الفرق الإسلامية. نشأوا بعد معركة صفين التي جرت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان (في شهر صفر ٣٧هـ/ تموز ٦٥٧م)، وانسلخوا من جيش علي بعد أن قَبِل مبدأ التحكيم لإنهاء النزاع، وخرجوا عليه، فسموا الخوارج. انظر دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٨ ص ٤٦٩ـ ٤٧٧.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ٦٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٦٩ـ ٧٠.

الخراساني ضد محمد بن الأشعث[1]، وثورة تمام بن تميم ضد محمد بن مقاتل العكي[2]. كما اندلعت اضطرابات سياسية واجتماعية ودينية أثارها البربر، والشيعة[3] والخوارج الذين واصلوا تمردهم الوراثي على العناصر المشرقية تحت غطاء النزاعات الدينية، أدَّت هذه الثورات والانتفاضات إلى حالة عدم استقرار.

والواقع أن العباسيين حرصوا على الاحتفاظ بولاية إفريقية بعدما فقدوا السيطرة على المغربين الأوسط والأقصى لصالح الجماعات الخارجية؛ لتكون سداً منيعاً أمام حركات الخوارج بخاصة. لكن هذه الولاية كانت تشهد هي الأخرى، اضطرابات ناجمة عن الخلافات بين الفئات الإسلامية المتعددة، ولم تستقر الأوضاع فيها إلا عندما تولى إبراهيم بن الأغلب الحكم فيها، واستقلَّ بها استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية.

والواضح أنه تمخَّض عن الثورات المتعددة التي شهدتها شمال إفريقية، وتراجع قوة السلطة المركزية المشرقية بروز وحدات سياسية استقلَّت، كل منها، بناحية من المغربين الأوسط والأقصى بالإضافة إلى ولاية إفريقية، قادها جماعات من الطامعين أو القادرين على الوصول إلى الحكم، من عرب وبربر، وذلك خلال القرن الثاني الهجري/ القرن الثامن الميلادي، أهمها: الدولة المدرارية أو دولة بني واسول، والدولة الرستمية، ودولة الأدارسة، والدولة الأغلبية.

الدولة المدرارية أو دولة بني واسول: ١٤٠ ـ ٢٩٦هـ/ ٧٥٧ ـ ٩٠٩م

هي دولة خارجية صفرية[4]، عاصمتها مدينة سجلماسة[5] الواقعة في جنوب

---

(١) المصدر نفسه: ص ٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٠ ـ ٩١.

(٣) الشيعة: الاسم الشامل لمجموعة من فرق إسلامية، ترجع نشأتها إلى القول بأن علياً بن أبي طالب هو الخليفة الشرعي بعد وفاة النبي محمد ﷺ، وأضحى هذا اللفظ اسماً خاصاً بهم، وأصله من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة. وعُرف الشيعة أيضاً بالطالبيين والعلويين، وسنستعمل اللفظ الشائع «الشيعة»، أينما ورد في هذه الدراسة، للدلالة على هذه الفرق مع التمييز بينها من حيث المذهب.

(٤) الخوارج الصفرية: أصحاب زياد بن الأصفر. والجدير بالذكر أن الخوارج انقسموا على أنفسهم في العهد الأموي خلال خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م) إلى عدة فرق نتيجة قيام صراعات داخلية في صفوفهم تعود في جوهرها إلى خلافات سياسية وعقائدية وقبلية. لعل أشهرها الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق، والأباضية أصحاب عبد الله بن أباض، والصفرية.

(٥) سجلماسة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب. الحموي، الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان جـ ٣ ص ١٩٢.

المغرب الأقصى. أسَّسها عيسى بن يزيد الأسود المكناسي، من موالي العرب[١]، والتفَّ حوله أهل تلك الصحراء من مكناسة[٢] بزعامة أبي القاسم سمكو بن واسول الملقب بـ «مدرار»، بالإضافة إلى جماعات بربرية ثائرة، وكانوا يدينون بالمذهب الصفري. والجدير بالذكر أن انتشار مذهبي الصفرية والأباضية الخارجيين كانا أكثر المذاهب الخارجية انتشاراً في شمال إفريقية عقب الفتح الإسلامي.

بايع الجميع عيسى بن يزيد بالإمامة في عام (١٤٠هـ/ ٧٥٧م)[٣]. ويبدو أن هذه البيعة كانت مرتبطة بتفوق العنصر السوداني على سائر العناصر الأخرى في هذا الإقليم.

وعندما استقرت الجماعة الصفرية في هذا المكان، استدعى أبو القاسم سمكو بن واسول قومه من المكناسيين للاستقرار فيه. ويبدو أنه كان ذا نزعات سلطوية، فتطلع إلى السلطة، وبخاصة أن هذه الهجرة منحت قومه مركزاً متفوقاً على سائر العناصر والقبائل الأخرى، ثم أخذ يتحين الفرص للتخلص من عيسى بن يزيد. ولما كانت الغلبة في هذه المجتمعات، دائماً للعصبية، فما لبث أبو القاسم أن عزل عيسى بن يزيد بعدما اتهمه بالاستئثار بالنفوذ والأموال. واشترك المكناسيون في قتله في عام (١٥٥هـ/ ٧٧٢م)[٤]. والراجح أنه كان يحقد عليه بسبب تشدده. وتولّى الأمر، وبايعه قومه، وحوَّل الإمامة إلى إمارة وراثية في أسرته. ويُعد أبو القاسم هذا المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التي سميت باسمه. ولم يحفل كثيراً بتطبيق مبادىء المذهب، كما لم يهتم بالصفرية خارج بلاده[٥].

واختط المدراريون مدينة سجلماسة في مكان حصين وسط الصحراء جنوب تِلِمْسان[٦] بعشرة مراحل على نهر صغير في وادي زيز حيث تستطيع الدولة أن تتوسع حتى ملوية، الغنية بموارد المياه. وبنى الصفرية المسجد الجامع ودار الإمارة، كما بنوا حصناً في وسط المدينة سموه العسكر. ثم أقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن، فاتسع العمران حتى جاوز المدينة، وأحاطوها بسور، واثني عشر باباً[٧]، واتخذوها

---

(١) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ ٥ ص ١٥٨ـ ١٥٩.

(٢) مكناسة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو الشرق. الحموي: جـ ٥ ص ١٨١.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر.. المسمى بتاريخ ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٠.

(٤) القلقشندي: جـ ٥ ص ١٥٩ـ ١٦٠.

(٥) مؤنس: حسين: تاريخ المغرب وحضارته جـ ١ ص ٣٤٠.

(٦) تلمسان: مدينة بالمغرب.

(٧) القلقشندي: جـ ٥ ص ١٥٩.

عاصمة لهم. والواضح أن المدراريين اختاروا هذا المكان لبعده عن سلطة العباسيين، في منطقة عدَّها هؤلاء خارج نطاق حدودهم، ولا شأن لهم بها في منطقة تافليلات.

وحوَّل الصفريون هذه المنطقة إلى منطقة زراعية، فشقُّوا القنوات واستكثروا من زراعة النخيل، والشعير، والقمح، وقصب السكر. وتحوَّل سكان المنطقة من حالة الرعي إلى وضع الاستقرار الزراعي. ونشطت التجارة، وازدهرت الحياة الاقتصادية. وأضحت سجلماسة، بفعل موقعها، سوقاً تجارياً كبيراً[1]. وقد أغرى الازدهار الاقتصادي الصفرية في أنحاء بلاد المغرب إلى الرحيل إليها والاستقرار فيها، فأضحت بذلك مركز دعوة إسلامية، ومستقر جماعة دينية على المذهب الصفري الخارجي.

حكم أبو القاسم سمكو اثنتي عشرة سنة، وتوفي في عام (١٦٨هـ/ ٧٨٤م)، وخلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير. ويبدو أن الناس لم يرضوا عن حكمه فخلعوه بعد مرور سنتين على ولايته وولوا مكانه أخاه اليسع[2].

اتصف اليسع بالحماس الشديد للمذهب الصفري. أتمَّ بناء سجلماسة فبنى سورها، وشيَّد بنيانها، واختط بها المصانع والقصور، وانتقل إليها في سنة (٢٠٠هـ/ ٨١٦م)[3]، ووسَّع نطاق الدولة، فشملت جزءاً كبيراً من وادي درعة، ولكنه فشل في التوسع على حساب دولة الأدارسة في إقليم تِلِمْسان، وأقام علاقات حسنة مع الدولة الرستمية الأباضية في تاهرت[4] توِّجت بزواج ابنه مدرار من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم أمير تاهرت[5].

توفي اليسع في عام (٢٠٨هـ-٨٢٣م)، وخلفه ابنه مدرار وتلقب بـ «المنتصر»، وبدأ في عهده تدهور الدولة. حكم أربعاً وأربعين سنة انتهت باعتزاله الحكم سنة (٢٥٢هـ/ ٨٦٦م)، وتوفي بعد ذلك بسنة واحدة[6].

كان للمنتصر ولدان اسم كل واحد منهما ميمون أحدهما من أروى الرستمية ويلقب بابن الرستمية، والآخر من زوجة أخرى تدعى بقية فعرف ابنها بابن بقية، كما

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٠. ابن عذارى: جـ ١ ص ١٥٦. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٠.

(٣) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٠ـ ١٣١.

(٤) تاهَرت: مدينة بأقصى المغرب بين تلمسان وقلعة بني حماد وهي على ست مراحل من المسيلة. الحموي: جـ ٢ ص ٧ـ ٨.

(٥) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣١.

(٦) القلقشندي: جـ ٥ ص ١٦٠.

عُرف بـ «ميمون الأمير». كان من الطبيعي أن ينشأ بينهما نزاع على السلطة، وقد دام ثلاثة أعوام، لم يستطع المنتصر حسمه على الرغم من أنه ساند ميمون بن الرستمية، واضطر أخيراً إلى طرد ميمون بن بقية. أغضب هذا التصرف شيوخ الصفرية الذين ساندوا ميمون بن بقية، وعدُّوا تصرف المنتصر انتهاكاً لتعاليم المذهب، كما انتابتهم الخشية من وقوع البلاد تحت سيطرة الأباضية، فخلعوا ابن الرستمية وولوا ابن بقية، وظل يحكم البلاد حتى وفاته في عام (٢٦٣هـ/ ٨٧٧م)[١]. خلف ميمون بن بقية، ابنه محمد، وكان أباضياً متشدِّداً، وتوفي في عام (٢٧٠هـ-٨٨٣م)، وخلفه اليسع بن المنتصر[٢]، واشتدت في عهده رياح الدعوة للفاطميين. وحدث أن وفد عليه عبيد الله المهدي وابنه أبو القاسم، لاجئين فقبض عليهما وسجنهما، وأخبر الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩- ٢٨٩هـ/ ٨٩٢- ٩٠٢م) بشأنهما، وبقي الرجلان في السجن حتى سنة (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، حتى حرَّرهما أبو عبد الله الداعي الشيعي، وأدخل سجلماسة في الدولة الفاطمية الناشئة[٣]. لكن العلاقات العدائية بين الطرفين لم تتوقف، وسنبحثها خلال الحديث عن السياسة الخارجية للدولة الفاطمية.

الدولة الرستمية: ١٤٤ - ٢٩٦هـ/ ٧٦١ - ٩٠٩م

تطلع الخوارج الأباضية إلى المغرب على إثر الملاحقات التي تعرضوا لها من قِبَل السلطات المشرقية، وأدركوا أنه لا مستقبل للخارجية الأباضية في المشرق. وكان المغرب آنذاك أرضاً صالحة تستقطب المعارضين للنظام العباسي بفعل بُعده عن مركز الدولة من جهة، وعداء البربر بعامة للعرب، واستنكارهم لأعمال بعض ولاتهم، من جهة أخرى.

وحدث أن أرسل أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وهو أحد دعاة الأباضية في المشرق، تلميذه سلمة بن سعيد الحضرمي، إلى المغرب لاستطلاع أوضاعه، ودرس إمكانات إقامة نظام خارجي أباضي فيه. وكان سلمة هذا داعية نشيطاً، استقر في جبل نفوسة في المغرب الأدنى وراح يدعو إلى مذهبه، واستقطب عدداً من الأتباع، بعث بهم إلى البصرة للاجتماع بأعيان المذهب، والتفقه في المذهب الأباضي، كان من بينهم عبد الرحمن بن رستم الفارسي الأصل، وانضم إليهم أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح المعافري، وكان أقدرهم على التحرك. فلما عاد الوفد إلى المغرب، بدأ

---

(١) القلقشندي: جـ ٥ ص ١٦١. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣١.

(٢) المصدران نفسهما. (٣) القلقشندي: المصدر نفسه.

أعضاؤه العمل الجدِّي لتحقيق الهدف. وبايع الأباضية أبا الخطاب بالإمامة في عام (١٤٠هـ/ ٧٥٧م)[١]، واشترطوا عليه أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنَّة رسوله وآثار الصالحين واتخذ جبل نفوسة الذي يبعد عن طرابلس ثلاثة أيام مركزاً لدعوته، وشملت سيطرته كل إقليم طرابلس الغرب بما في ذلك فزان[٢]، وعيَّن عبد الرحمن بن رستم قاضياً على طرابلس، ودخلت في طاعته، قبائل نفوسة، وهوارة، ولواتة، في نواحي طرابلس وجبل نفوسة وواحات فزان، ثم تطلع إلى ضمِّ القيروان[٣] بعدما استنجد به سكانها لإنقاذهم من مظالم قبيلة ورفجُّومة الصفرية التي عاثت فساداً في إفريقية، فأخرج رجال ورفجُّومة من القيروان، وبذلك امتدت سلطته فشملت إفريقية وبلغت وهران[٤] غرباً، وعيَّن عبد الرحمن بن رستم والياً على القيروان وعاد هو إلى طرابلس[٥].

أراد أبو الخطاب أن يوسِّع إمارته بضمِّ المغرب الأوسط، إذ رأى في هذا الإقليم امتداداً يحمي دولته الناشئة، فراح يراقب تطور أوضاعه السياسية عن كثب، ويغذِّي المذهب الأباضي بالكثير من الأنصار والأتباع.

ويبدو أن التوسع المفاجىء لهذه الجماعة أضعف كيانها، وأصبح مصدر خطر عليها؛ ذلك أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور (١٣٦ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ـ ٧٧٥م) لم يسكت على ضياع هذا القسم من دولته ورأى ضرورة القضاء على الدولة الأباضية في مهدها، فأرسل الجيوش إلى إفريقية من مصر، وقد انتصر الأباضيون في بادىء الأمر على الجيوش العباسية، لكن والي إفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي تمكَّن من هزيمة أبي الخطاب عند تاورغا في أرض سرت في عام (١٤٤هـ/٧٦١م) وقتله، واستعاد القيروان[٦].

انسحب عبد الرحمن بن رستم، الذي تسلم القيادة بعد مقتل أبي الخطاب، مع نفر

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١١٢.

(٢) فزان ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب، بها نخل كثير وتمر كثير، والغالب على ألوان أهلها السواد. الحموي: جـ ٤ ص ٢٦٠.

(٣) القيروان: مدينة في إفريقية بناها عقبة بن نافع في عام ٥٠هـ، تقع إلى الجنوب من قرطاجنة. المصدر نفسه ص ٤٢٠ـ ٤٢١.

(٤) وهران: مدينة على البر الأعظم من المغرب، بينها وبين تلمسان سرى ليلة، وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر، وأكثر أهلها من التجار. الحموي: جـ ٥ ص ٣٨٥.

(٥) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١١٢ـ ١١٥.

(٦) المصدر نفسه: ص ١١٢. وسُرْت: مدينة على ساحل البحر الرومي (البحر المتوسط) بين برقة وطرابلس الغرب. الحموي: جـ ٣ ص ٢٠٦.

من زعماء الأباضية إلى ناحية تاهرت في المغرب الأوسط، حيث أمل، بمساعدة أنصاره فيها، أن يعيد إنشاء الدولة على نسق دولة أبي الخطاب في طرابلس. والجدير ذكره أن المنطقة كانت مركز اصطياف قبيلة زناتة البترية، وكانوا بدواً رعاة يريدون التخلص من سلطان الحكومة المركزية وضرائبها ومظالم عمالها وموظفيها، وهذا يفسر لنا قبولهم لمبادىء الخارجية الأباضية حيث انتشر المذهب الأباضي في ربوع هذه المنطقة.

وأثمرت الاتصالات، التي أجراها عبد الرحمن بن رستم مع أباضية المغرب الأوسط، على تأسيس دولة تجمع شمل أباضية المغرب كله، وإنشاء مدينة تكون قصبة هذه الدولة ومركزاً للمذهب. وبايع الأباضيون عبد الرحمن بن رستم في عام (١٤٤هـ/ ٧٦١م) وتسمى هذه البيعة بيعة دفاع عن الأباضية، والإمامة إمامة دفاع[١].

وبنى عبد الرحمن بن رستم مدينة تاهرت[٢] الجديدة في مكان بعيد عن موضع القرية القديمة التي تحمل الاسم نفسه، وحصَّنها، وبنى المسجد الجا ع في مركزها وإلى ـ انبه دار الإمامة، ثم ابتنى الناس منازلهم.

انكبَّ عبد الرحمن بن رستم على تنظيم وتوطيد سلطانه وإرساء دعائم دولته. ولا شك بأنه استفاد من النظم الإدارية الفارسية، ومع ذلك فقد غلب الطابع الديني المذهبي على ما اتخذه من إجراءات في هذا الصدد. وبفضل قدرته على إيلاف العناصر والعصبيات المختلفة، داخل الدولة، ونتيجة لحكمه العادل، اجتذبت تاهرت الناس من كل مكان. ونصبَّه الأباضية، إماماً عليهم في عام (١٦٠هـ٧٧٧م) وتُسمى هذه البيعة الثانية، بيعة ظهور وإمامة ظهور، وقد حدثت بعد استقرار الأمور، وانتصار الجماعة وقيام أمرها[٣]. وشرع، بعد مبايعته، في العمل على مواجهة المشكلات المستجدة سواء فيما يتعلق بسياسة الدولة الداخلية، أو بسياستها الخارجية. ففي الداخل اختار أكفأ الرجال وعيَّنهم في المناصب الإدارية والعسكرية، في القضاء والشرطة، فاستتبَّت الأمور. وفي الخارج، اتبع سياسة المهادنة مع جيرانه، وحرص على موادعة عمَّال بني العباس في القيروان[٤].

ولما شعر عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله، اقتدى بعمر بن الخطاب، فاختار سبعاً من خيرة رجال دولته من رؤساء المذهب ممن توسم فيهم الزهد والصلاح، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب، ولكنه لم يخرجه من الشورى كما فعل عمر بن

---

(١) مؤنس: جـ ١ ص ٣٢٥.
(٢) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١١٢.
(٣) مؤنس: جـ ١ ص ٣٢٥.
(٤) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١١٣.

الخطاب. وتوفي عبد الرحمن بن رستم في عام (١٦٨هـ/ ٧٨٤م)[١].

اجتمع أهل الشورى في تاهرت، وبعد مناقشات طويلة استغرقت شهراً كاملاً انحصر الاختيار بين مسعود الأندلسي وعبد الوهاب بن رستم، ثم انسحب الأول وفاز الثاني، وتمت مبايعته في السنة التي توفي فيها والده.

وهكذا غلب مبدأ الاختيار عند هذه الجماعة التي كانت تُنكر مبدأ الوراثة في الحكم.

كان من الطبيعي في دولة دينية من هذا القبيل أن تتخذ الأزمات التي تتعرض لها، صورة الانقسام الديني، وقد حدثت أشد هذه الانقسامات في عهد عبد الوهاب بن رستم. فقد طالبت جماعة من الحانقين بتحريض أحد الذين عجزوا عن تولي الإمامة، وهو يزيد بن فندين، أن يحكم الإمام المنتخب بإشراف مجلس دائم. وعُرضت هذه الفكرة على فقهاء الأباضية بالمشرق، فرفضوا رفضاً قاطعاً الأخذ بهذا المبدأ. فانفصل دعاة الإصلاح عن بقية الجماعة وكوَّنوا فرقة عُرفت بـ «النكارية»، أي المنكرين، في حين سميت الجماعات التي ساندت عبد الوهاب بـ «الوهابية»[٢].

وهكذا أدَّى التنافس على الزعامة إلى انقسام مذهبي عند الأباضية نتج عنه وقوع اصطدامات انتهت بمقتل يزيد بن فندين على يد أفلح بن عبد الوهاب. وحاول عبد الوهاب، بعد هذه الضربة، التفاهم مع أتباع ابن فندين إلا أنه فشل في ذلك بفعل اتساع شقة الخلاف[٣].

أقام عبد الوهاب في جبل نفوسة، وساعدته الظروف الخارجية على تثبيت أقدامه في زعامة الأباضيين عن طريق اصطدامه بالأغالبة الذين يمثلون الدولة العباسية، فهاجم طرابلس وتغلَّب على إبراهيم بن الأغلب الذي اضطر إلى التفاهم مع عبد الوهاب على ترك الداخل للأباضية مقابل أن يتركوا له مدينة طرابلس والساحل[٤]. رضي الأباضية بهذا الاتفاق الذي رأوا فيه دليلاً على كفاءة قائدهم.

وحدث انقسام آخر داخل صفوف الأباضية في نفوسة وتاهرت بسبب اختيار إمام لأهل نفوسة. ذلك أن أبا عبد الأعلى السمح بن أبي الخطاب كان قد عُيِّن إماماً لأهل نفوسة على الرغم من معارضة عبد الوهاب، واختار الخوارج النفوسيون، بعد

---

(١) مؤنس: جـ ١ ص ٣٢٤.

(٢) المرجع نفسه: ص ٣٢٨. دائرة المعارف الإسلامية: جـ ١٠ ص ٩٤.

(٣) مؤنس: المرجع نفسه.

(٤) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٩٧.

وفاته، ابنه خلف بن أبي الأعلى، فرفض عبد الوهاب الاعتراف بهذا الاختيار، وعَيَّن إماماً من قبله هو أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني، فاشتد بذلك الخلاف بين أباضية نفوسة وأباضية تاهرت وانعكس على وضع أفلح بن عبد الوهاب الذي خلف أباه بعد وفاته في عام (٢٠٨هـ/ ٨٢٣م). فقد عارض خلف بن أبي الأعلى إمامته، وجرى قتال شديد بين الفريقين في عام (٢٢١هـ/ ٨٣٦م)، دارت الدائرة فيه على خلف بن أبي الأعلى، لكن فرقته ظلت قائمة، وعُرِف أتباعه بالخلفية[١].

حقَّق أفلح بن عبد الوهاب، خلال مدة حكمه، الأمن في البلاد ووصلت حضارة الرستميين في عهده إلى ذروتها، وتوفي في عام (٢٥٨هـ/ ٨٧٢م)، فتراجعت قوة الدولة بعد وفاته حيث توالى على الإمامة ولداه أبو بكر وأبو اليقظان محمد، ثمَّ أبو حاتم يوسف بن محمد، وآخرهم اليقظان بن أبي اليقظان بن محمد الذي سقطت الدولة الرستمية في عهده في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) على يد أبي عبد الله الداعي الشيعي[٢].

كان الصراع الداخلي على منصب الإمامة، والخلافات الدامية، بين الأباضيين، من أبرز الأسباب التي أدَّت إلى إضعاف هذه الجماعة، فوهنت قوتهم العسكرية، ولم يستطيعوا الصمود أمام الاندفاع الشيعي الذي قاده أبو عبد الله الداعي.

شهدت تاهرت في عهد الرستميين نهضة علمية وازدهاراً اقتصادياً كبيراً. فقد كرَّس أئمة الدولة حياتهم لنشر العلوم، وشاركوا فعلياً في الحركة العلمية، فكانوا يتداولون التدريس في جامع تاهرت، وكان عبد الرحمن من كبار علماء عصره، كما كان ابنه عبد الوهاب تواقاً للعلم، يشتري الكتب من بغداد، ولا يفتأ ينكبُّ على قراءتها، واشتهرت تاهرت بمكتبتها التي ضمَّت نحواً من ثلاثمائة ألف مجلد، وقد أحرقها الفاطميون.

وتوسع الرستميون في الإنتاج الزراعي بفعل توافر المياه وخصوبة الأرض، واعتمدوا على التجارة البحرية مع الأندلس، والبرية مع السودان وغانة وسجلماسة والمغرب الأقصى. واجتذبت الحياة المزدهرة الأجانب إلى تاهرت، جاء بعضهم من فارس وبعضهم من بلاد البربر، كما توافد عليها عرب إفريقية، وجنت الدولة بسبب التجارة مكاسب هائلة، فازدهر العمران، وقد ساعدت علاقات الرستميين الطيبة بجيرانهم على هذا الازدهار.

---

(١) مؤنس: جـ ١ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٩٧.

دولة الأدارسة: ١٧٢ ـ ٣٧٥هـ/ ٧٨٨ ـ ٩٨٥م

هي دولة شيعية حسنية، أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في المغرب الأقصى في عام (١٧٢هـ/ ٧٨٨م). والواقع أن معركة فخ[١] التي حدثت في عام (١٦٩هـ/ ٧٨٦م) في خلافة الخليفة العباسي الهادي (١٦٩ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ـ ٧٨٦م) كانت بعيدة الأثر في تاريخ الشيعة، فقد نجا منها اثنان هما يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي ذهب إلى بلاد الديلم[٢] في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ـ ٨٠٩م) وأخوه إدريس الذي يمَّم وجهه شطر شمالي إفريقية ونجح في الوصول إلى المغرب الأقصى بصحبة مولاه وأمينه راشد، في عام (١٧٠هـ/ ٧٨٦م) في إمارة يزيد بن حاتم والي إفريقية[٣]، واستطاع أن يؤسس دولة شيعية بمساعدة قبيلة أوربة البربرية.

كانت ظروف شمال المغرب الأقصى مهيأة لاستقبال زعامة سياسية بفعل التفكك الداخلي الناجم عن الصراعات بين القبائل البربرية، وبخاصة القبائل الصنهاجية المصمودية المتمسكة بأهداب السنَّة، وقبيلة برغواطة التي ابتدعت عقيدة دينية جديدة بعيدة عن العقيدة الإسلامية هي أقرب إلى الزندقة، وانتشر في بلاد المغرب القول بأن برغواطة ملاحدة كفار.

خشيت قبائل مصمودة من زندقة برغواطة، وتحملَّت مظالمها، لكن أوضاعها الداخلية المزعزعة كانت بحاجة إلى زعيم يجمع أفراد القبيلة تحت لواء واحد ليخلِّصهم من سلطان برغواطة، ويُنشىء لهم دولة على غرار دولة بني رستم في تاهرت.

وصل الرجلان، إدريس وراشد، إلى مدينة طنجة[٤] بعد رحلة استغرقت سنتين، وكانت آنذاك عاصمة المغرب الأقصى. وأخذ راشد يدعو لأمير علوي يحمل راية الإسلام، ويخلِّص الناس من الظلم والزندقة.

---

(١) فخ: وادٍ بمكة. الحموي: جـ ٤ ص ٢٣٧. انظر فيما يتعلق بأحداث المعركة: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: مقاتل الطالبيين ص ٣٦٦.

(٢) الديلم: الجزء الجبلي من جيلان، تسكنه قبيلة تُعرف بالديلم. يحده من الشمال جيلان نفسها، ومن الشرق طبرستان أو مازندران، ومن الغرب أذربيجان، وبلاد الران، ومن الجنوب نواحي قزوين وطَرْم وجزء من الري. دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٩ ص ٣٦٧.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ٨٢.

(٤) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهو من البر الأعظم وبلاد البربر. الحموي: جـ ٤ ص ٤٣.

كانت الدعوة لرجل من آل البيت كافية لاستقطاب الأنصار، فالتفَّ الناس حول راشد الذي واصل الدعوة بين أفراد قبيلة أوربة، وكثر مؤيدوه، ومناصروه في بلدة وَلِيلى[1]، وكانت مركزاً تجارياً، وسوقاً كبيراً للقبائل. ولما استوثق، قدَّم إدريس وحوَّل الدعوة إليه، وأيَّده شيوخ أوربة، إذ رأوا فيه خير منقذ لهم من سلطان برغواطة، ثم نزل وَلِيلى في (شهر ربيع الأول ١٧٢هـ/ شهر آب ٧٨٨م)، واختاره سكانها حاكماً عليهم، وزعيماً للجناح المغربي من قبيلة أوربة، وانضم إليه عدد كبير من فروع القبائل المقيمة في تلك النواحي مثل لواتة ومكناسة وزوارة وغيرهم ممن كان ينقم على برغواطة.

واصل إدريس توسيع سيادته، فخضعت له كل المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى، ثم راح يُخضع القبائل بالقوة وبالسياسة حتى امتد سلطانه، في أقل من عام من القيروان حتى المحيط الأطلسي[2]، مقتطعاً جزءاً من الأراضي الواقعة تحت السيطرة العباسية.

استاء الخليفة العباسي هارون الرشيد من إقامة دولة للأدارسة في المغرب الأقصى، قد تشكل خطراً على الوجود العباسي في إفريقية، وخشي من تفاقم خطر إدريس وبخاصة أنه نُمي إليه أنه يتجهز لغزو إفريقية.

والواقع أن قيام إمارة شيعية قوية في أي مكان من بلاد الإسلام، أمر لا يمكن أن يسكت العباسيون عنه، لذلك عمل الرشيد على القضاء على هذه الدولة الناشئة والتخلص من زعيمها الشيعي، وأشار عليه يحيى البرمكي، وهو أحد وزرائه، بأن يُرسل إليه رجلاً مشهوراً بالدهاء لاغتياله، فأرسل طبيباً يدعى سليمان بن جرير ويُلقب بالشماخ اليمامي، وكان من موالي المهدي، وزوَّده بكتاب إلى واليه على إفريقية إبراهيم بن الأغلب بتسهيل مهمته، فأذن له الوالي باجتياز حدود ولايته، ثم تابع طريقه إلى المغرب الأقصى، والتقى بإدريس، ودخل في خدمته، وكسب ثقته بعد أن تظاهر بالتشيع لآل البيت، وتحيَّن الفرص لقتله، فدسَّ له السم، وتوفي في (شهر ربيع الأول عام ١٧٥هـ/ شهر تموز عام ٧٩١م)[3]، وهرب الشماخ إلى إفريقية. وقصَّ الخبر على إبراهيم بن الأغلب الذي أخبر بدوره الرشيد.

---

(١) وَلِيلى: اسم لمدينة طنجة باللسان البربري. ابن عذارى: جـ ١ ص ٨٣.

(٢) السلاوي، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٦٨.

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ١٩٨ـ ١٩٩. ابن عذارى: جـ ١ ص ٢١٠.

حافظ راشد، المدبر الحقيقي لهذه الدولة، على استقرار الحكم في آل إدريس.
وكان إدريس قد ترك قبل وفاته جارية بربرية حامل تدعى كنزة، فاتفق مع زعماء القبائل على أن ينتظروا حتى تلد، فإن كان غلاماً فهو أميرهم. ووضعت كنزة ولداً ذكراً، بعد شهرين من وفاة إدريس، وسماه أتباعه إدريس. وظل راشد وصياً عليه حتى بلغ العاشرة من عمره، ثم ولاه الحكم في عام (١٨٦هـ/ ٨٠٢م)، وتوفي راشد نتيجة مؤامرة دبرها إبراهيم بن الأغلب الذي خشي على ملكه من دولة الأدارسة النامية، لكن ذلك لم يُضعف من قدرات هذه الدولة، وقام أحد زعماء البربر، ويدعى أبو خالد يزيد بن العباس العبدي، برعاية الغلام، فجدَّد له البيعة في السنة التالية[١]، واستمر ولاء القبائل له، كان من بينها زناتة، وأوربة، وصنهاجة، والمصامدة.

واستقل إدريس الثاني بالحكم في عام (١٩٢هـ/ ٨٠٨م)، وتنامت قوته بتوافد العرب عليه، فقرَّبهم من مجلسه، وجعلهم بطانته دون البربر[٢]، مما كان سبباً في تجدُّد الصراع القديم بين العنصرين. ويبدو أن إدريس الثاني كان يريد التخلُّص من سيطرة القبائل البربرية على مقدرات الدولة، واتجه إلى الخروج من وَلِيلى.

وحدث، آنذاك، أن قُتل إسحق بن عبد الحميد زعيم قبيلة أوربة، وربما كان للصراع العنصري أثر في ذلك، مما دفع إدريس الثاني إلى الخروج من وَلِيلى، واستقر في وادٍ يقع بين جبلين صغيرين يسمى وادي فاس، فأنشأ مدينة صغيرة في عام (١٩٣هـ/ ٨٠٩م) سُميت عدوة القرويين، لأنه أنزل فيها مهاجرة العرب من القيروان، ثم وفدت عليه جماعة من مهاجرة الأندلس، فأسس لهم قرية مجاورة عُرفت باسم عدوة الأندلسيين. ومن هاتين العدوتين تكوَّنت مدينة فاس، وانتقل إليها إدريس الثاني، وبني فيها مسجداً وسوَّرها. ومنذ عام (١٩٦هـ/ ٨١١م) أضحت فاس عاصمة دولة الأدارسة[٣].

قام إدريس الثاني، ابتداء من عام (١٩٧هـ/ ٨١٢م)، بسلسلة من الحملات العسكرية، وسَّع بنتيجتها سلطان الدولة من تِلِمْسان إلى ساحل المحيط الأطلسي. حارب الخوارج الصفريَّة في جبال الأطلس وهزمهم، ودخل مدينة نفوسة بعد أن تغلب على البرغواطيين ثم اتجه إلى الجنوب واستولى على مدينة أغمات[٤]، ثم

---

(١) ابن عذارى: المصدر نفسه ص ٢١٠ـ ٢١١. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن... الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٣٤٧.

(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣.

(٣) المصدر نفسه. الحموي: جـ ٤ ص ٢٣٠ـ ٢٣١.

(٤) أغمات: ناحية في بلاد البربر قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير، ومن ورائها إلى =

دخل تِلِمْسان صلحاً، وعقد هدنة مع الأغالبة أمِنَ بها جانبهم[1].

توفي إدريس الثاني في (شهر جمادى الآخرة عام ٢١٣هـ/ شهر آب عام ٨٢٨م)[2]، بعد أن ثبَّت دعائم الدولة. ويُعدُّ المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة، وهي أول دولة كبيرة تؤسس في المغرب منذ الفتح الإسلامي.

خلف إدريس الثاني ابنه محمد، وتمَّ في عهده تقسيم الدولة بين إخوته الإثني عشر بناءً على رغبة جدته كنزة. وما لبث الصراع الأسري أن نشب بينهم وأدَّى إلى إضعاف الدولة، ولم يلبث محمد أن توفي في (شهر ربيع الآخر عام ٢٢١هـ/ شهر نيسان عام ٨٣٦م)[3].

خلف محمداً ابنه علي، وكان في التاسعة من عمره «فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة، وبايعوه غلاماً مترعرعاً، وقاموا بأمره، وأحسنوا كفالته، وطاعته، فكانت أيامه خير أيام»[4]. والحقيقة أنه لم يذكر لنا المؤرخون كثيراً عن دولة الأدارسة في عهد علي الذي توفي في (شهر رجب عام ٢٣٤هـ/ شهر شباط عام ٨٤٩م)[5].

خلف علياً أخوه يحيى الأول، وشهدت الدولة في عهده امتداداً سياسياً ونهضة عمرانية. فَبُنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار، والأرباض، وتوافد الناس عليها من الثغور البعيدة. وكان ممن توافد على فاس امرأة من أهل القيروان تدعى أم البنين بنت محمد الفهري واسمها فاطمة، فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين في عام (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)[6].

خلف يحيى الأول بعد وفاته ابنه يحيى الثاني، ولم يكن أهلاً للولاية. فقد انغمس في اللهو، فثارت عليه العامة، واختفى بعدوة الأندلسيين ريثما تخمد الفتنة ومات من ليلته[7].

استدعى أهل الحل والعقد في فاس بزعامة عبد الرحمن بن أبي سهل الحزامي، ابن عمه علي بن عمر بن إدريس الثاني المعروف بعلي الثاني، وكان قد ورث عن أبيه

= جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل، ومن سجلماسة ثماني مراحل نحو المغرب. الحموي: جـ ١ ص ٢٢٥.

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣ ـ ١٤.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٥.

عمر النصف الشمالي من الدولة، فانقطع الملك، بذلك، من عقب محمد بن إدريس الثاني وانتقل إلى فرع عمر بن إدريس الثاني[١]. وخُطب لعلي على منابر المغرب، واستقرت قدمه في الملك، قبل أن يثور عليه عبد الرزاق الفهري، أحد زعماء الخوارج الصفرية، بمساندة بربر جبل مديونة، وكانوا خوارج[٢]. واتسمت هذه الثورة بالقبلية، لأنها قامت على أساس من العداوة بين قبيلتي مديونة وأوربة صاحبة السلطان الكبير في دولة الأدارسة. وعجز علي بن عمر عن مواجهتها، ففرَّ إلى قبيلة أوربة. ودخل الخوارج مدينة فاس واستولوا على عدوة الأندلسيين، وامتنعت عليهم عدوة القرويين. ونظم عملية المقاومة يحيى بن القاسم بن إدريس الثاني الذي اختاره أهل هذه العدوة لرئاستهم، ويُعرف بالمقدام أو العدّام. وتفرغ يحيى لحرب الصفريين وأجبرهم عى الخروج من عدوة الأندلسيين، فدخلها يحيى وبايعه الناس وجميع من نزل فيها من أهل الأندلس الربضيين. استمر يحيى أميراً على فاس وما يليها من بلاد المغرب الأقصى حتى قتله الربيع بن سليمان في عام (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م)[٣].

الواضح أنه تخلَّل المدة المنقضية بين عام ٢٣٤هـ، أي بعد وفاة يحيى الأول، وعام ٢٩٢هـ، أي إلى وفاة يحيى الثالث، أحداث جسام أثَّرت سلباً على قدرات الدولة التي تراجعت أمام ضغط الفاطميين. ذلك أن انتشار الفوضى خلال هذه المدة الناتجة عن الحروب الأهلية بين أبناء إدريس الثاني من جهة، وبينهم وبين الخوارج الصفرية من جهة أخرى، أدَّى إلى اختلال أوضاع البلاد الاقتصادية والاجتماعية. فقد انتشر القحط، وعدمت الأقوات، وغلت الأسعار، وفشا الموت لدرجة لم يعهد أهالي البلاد لها مثيلاً من قبل. ففي عام (٢٥٣هـ/ ٨٦٧م) عمَّ القحط بلاد العدوة، وقاسى السكان الشدائد والأهوال سبعة أعوام عجاف. وفي عام (٢٦٧هـ/ ٨٨٠م) حدثت زلزلة عظيمة، هدَّمت القصور، وانحدرت الصخور من الجبال وفرَّ الناس من المدن، وتساقطت السقوف والجدران، وفرَّت الطيور من أوكارها، وعمَّت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس، سهولها وجبالها، وجميع بلاد العدوة من تِلِمْسان إلى طنجة، ومن البحر الرومي إلى أقصى المغرب.

اختار رجال الدولة، بعد وفاة يحيى بن القاسم، يحيى بن إدريس بن عمر، صاحب الريف والقسم الشمالي من الدولة. فتولى الحكم في عام (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م)

---

(١) المصدر نفسه. السلاوي: جـ ١ ص ٧٨. (٢) مؤنس: جـ ١ ص ٣٩٠.
(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢١٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٥.

باسم يحيى الرابع[1]، وكانت الفتن قد هدأت. وقُدِّر ليحيى هذا أن يجمع «ملك الأدارسة كله كماكان في أيام إدريس الثاني، وكان أعلى بني إدريس مُلْكاً، وأعظمهم سلطاناً، فقيهاً، عارفاً بالحديث، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه من السلطان والدولة»، لكنه واجه في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) المدَّ الفاطمي المنطلق من القيروان باتجاه المغرب الأقصى مما سنبحثه في حديثنا عن تاريخ قيام الدولة الفاطمية.

الدولة الأغلبية: ١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م

قيام الدولة الأغلبية

يُعدُّ قيام الدولة الأغلبية في طرابلس وإفريقية وقسم من المغرب الأوسط، تجربة جديدة في نظم الحكم في الدولة الإسلامية، وهي تجربة التخلِّي عن حكم قسم من الدولة لصالح أسرة معينة من أهل الولاء والطاعة لقاء دفع مقدار سنوي معين من المال. وتتفق التجربة في روحها مع الحالة العامة للدولة العباسية، ووفَّرت الكثير من العناء على هذه الدولة مع الاحتفاظ بمظاهر السيادة المركزية مثل استعمال شعار الدولة، والخطبة باسمها، وسك العملة باسم خليفتها، وما إلى ذلك[2].

افتتح الخليفة العباسي هارون الرشيد هذه السياسة الجديدة لتحقيق عدة أهداف في الولايات الغربية البعيدة عن مركز الدولة في بغداد، لعل أهمها:

- تأديب البربر وغيرهم من الخارجين.
- الوقوف في وجه الأدارسة لمنعهم من مهاجمة أراضي الدولة العباسية. والجدير بالذكر أن الولاة الذين كان يُرسلهم خلفاء بني العباس من قبل، لم يحققوا أي إنجاز على صعيد إخضاع البلاد والعباد للحكم المركزي العباسي، واضطر العباسيون إلى الاكتفاء بالمحافظة على إفريقية حتى مجرى نهر شليف الفاصل بين ولاية إفريقية والمغرب الأوسط، وتركوا ما يلي ذلك غرباً لأهله دون أن يتدخَّلوا في شؤونهم.
- تأمين مصر، وهي ولايته الكبرى في الغرب.

كان طبيعياً، في ظل هذه السياسة،أن ينفصل المغربان الأوسط والأقصى، وتُقام فيهما الدول المستقلة.

روى البلاذري أن الرشيد هو الذي عرض على إبراهيم بن الأغلب تولي

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢١٢.

(٢) مؤنس: جـ ١ ص ٢٥٥.

حكم القيروان، وذلك عندما علم بحدوث اضطرابات في إفريقية، وعملاً بنصيحة هرثمة بن أعين[1]. وذكر ابن الأثير: «لما استقر الأمر لمحمد بن مقاتل ببلاد إفريقية، وأطاعه تمّام، كره أهل البلاد ذلك، وحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية إفريقية، فكتب إليه في ذلك، وكان على ديار مصر»[2]. ونجد الرواية نفسها عند ابن خلدون[3]. وأكَّد أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي من جهته، أنه بعد الهزيمة التي مُني بها تمّام أمام إبراهيم بن الأغلب، اشتد بُغض الناس للعكِّي وكاتبوا الرشيد، فعزله وأمَّر عليهم إبراهيم بن الأغلب[4].

ومهما يكن من أمر، وفي ظل هذه الظروف، جرى الاتفاق في (شهر محرم عام ١٨٤هـ/ شهر شباط عام ٨٠٠م)[5] بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب والي الزاب والطامح إلى إمارة إفريقية على ما يلي:

- يتولى إبراهيم بن الأغلب حكم طرابلس وإفريقية والزاب تحت سيادة الدولة العباسية، على أن:
- يتخلَّى عما كانت تُرسله مصر سنوياً من الأموال إلى عامل إفريقية لإنفاقها على الجند ومقدارها مائة ألف دينار.
- يرسل إلى بيت المال في بغداد، أربعين ألف دينار سنوياً.
- يظل على الولاء للعباسيين ويحارب أعداءهم[6].

وهكذا قامت دولة الأغالبة في إفريقية على يد إبراهيم بن الأغلب الذي اتخذ مدينة القيروان حاضرة لدولته. وتمتَّعت هذه الدولة باستقلال اسمي، ولكنها ما لبثت أن استقلَّت، مع مرور الزمن، استقلالاً يكاد يكون تاماً بحيث لم يبق للخليفة العباسي سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة، وظلَّت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون عليها في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م).

إبراهيم بن الأغلب: ١٨٤ ـ ١٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٨١٢م

كان إبراهيم بن الأغلب، «فقيهاً، أديباً، شاعراً، خطيباً، ذا رأي ونجدة وبأس

(١) البلاذري، الإمام أبو الحسن: فتوح البلدان ص ٢٣٥.

(٢) الكامل في التاريخ: جـ ٥ ص ٣١٨. (٣) تاريخ ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٩٦.

(٤) أبو المحاسن يوسف، جمال الدين بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ٢ ص ١١٠.

(٥) ذكر ابن عذارى أن عهد الرشيد وصل إلى ابن الأغلب في العشر الأوسط لجمادى الأخيرة من سنة ١٨٤هـ. جـ ١ ص ٩٢.

(٦) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣١٨.

وحزم وعِلم بالحروب ومكايدها، جريء الجنان، طويل اللسان، لم يل إفريقية أحسن سيرة منه، فطاعت له قبائل البربر، وتمهَّدت إفريقية في أيامه، وعزل العكِّي عنها، واستقامت الأحوال بها»[1]. وكان قد سمع الفقه والحديث من الليث بن سعد، إمام أهل مصر، الذي قال يوماً: «ليكونن لهذا الفتى شأن»[2].

تولى إبراهيم بن الأغلب الحكم في ظروف من الفوضى والاضطراب بعد فشل الولاة العباسيين في تحقيق الاستقرار والأمن، وانتهج سياسة عسكرية صارمة، وهو عازم على ضبط الأمور.

بدأ نشاطه في عام (١٨٥هـ/ ٨٠١م)، فبنى حصناً خاصاً به على بُعد ثلاثة أميال جنوب القيروان، سماه العباسية تعبيراً عن ولائه للعباسيين، أو القصر القديم[3]، نقل إليه أهله وعبيده وأهل ثقته. ولم تكن هذه الخطوة، من وجهة نظره، سوى حركة لتثبيت النظام الجديد، ومبايعة بني العباس، لكنه في الحقيقة خطا الخطوة الأولى لضياع دولته، إذ أنه فصلها عن أهل البلاد، لأن الاعتصام بهذا الحصن حال بين أسرة الأغالبة وبين أن تضرب جذوراً في التربة الإفريقية[4].

التفت إبراهيم بن الأغلب بعد ذلك إلى إنشاء قوة عسكرية يعتمد عليها في تحقيق أهدافه وتكون سنداً له، فكان جيشه يتكوَّن من الجنود المرتزقة وأعداد من الجنود العرب، واستكثرهم حتى زادوا عن الحاجة. ويبدو أنه اطمأن إلى العنصر العربي بوصفه عربياً تميمياً، وأسكن جنوده في معسكرات خاصة، واهتم بإنشاء أسطول بحري، فبنى دوراً لصناعة السفن في تونس وسوسة، وحصَّن الموانىء بما توافر له من السفن، ودرَّب مقاتلة البحر[5].

واهتم إبراهيم بن الأغلب بتأمين سبل الحياة الداخلية، فحفر الآبار، وأنشأ الصهاريج وأحواض المياه، واعتنى بالأسواق التجارية، فازدهرت الزراعة والصناعة، لكن الضرائب كانت مرتفعة، وتُنفق معظم إيرادات الدولة على الجنود الذين زادوا عن حاجتها، مما أفقد الازدهار التجاري والصناعي والعمراني من أن يأتي بفوائده المرجوة.

وشهد عهد إبراهيم بن الأغلب ثورات عاتية ضد نظام الحكم، نذكر منها:

- ثورة عبد الرحمن بن خريش الكندي، وأطلقت عليه المصادر اسم حمديش، وذلك في عام (١٨٦هـ/ ٨٠٢م)، وكان من العرب النازلين في مدينة تونس.

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٩٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص ٩٢ـ ٩٣.

(٤) مؤنس: جـ ١ ص ٢٦٦.

(٥) المرجع نفسه.

استقطب حمديش المناهضين للحكم العباسي من العرب والبربر في تونس، وألقى السواد شعار العباسيين، ودعا إبراهيم بن الأغلب إلى الخروج من البلاد والذهاب إلى بغداد. واجه إبراهيم بن الأغلب هذه الثورة بالحزم، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة عمران بن مجالد، اصطدم به وتغلَّب عليه وقتل عشرة آلاف من أتباعه، ودخل عمران تونس[1].

- حركة الاضطرابات الواسعة التي حدثت في طرابلس في عام (١٨٩هـ/ ٨٠٥م)، وكانت تابعة لأمير إفريقية. وتتميز هذه المدينة بوضع خاص، ومزاج سكانها المتقلِّب نظراً لوجود ثلاث عصبيات فيها كانت تتنافس للسيطرة على النفوذ وأعني بها، بني كنانة، وبني يوسف، وكانا يمثلان بطنَيْن من زعماء الوجوه المتعارضين في المدينة، والأبناء، وهم الذين يجمعون بين الدم العربي والدم الفارسي.

وبفعل هذا التركيب الاجتماعي، تعاقب على حكم طرابلس منذ عام (١٨٤هـ/ ٨٠٠م) ولاة كثر كانت مدة ولاية كل منهم قصيرة، إذ كانوا يعزلون بعد توليتهم بقليل، دون أن يظفر أي منهم بولاء السكان للبقاء على رأس الولاية. وازدادت الاضطرابات حدَّة في (شهر شعبان عام ١٨٩هـ/ شهر تموز عام ٨٠٥م) عندما حاول السكان طرد واليهم سفيان بن المضاء، وكان قد ولي هذه المدينة للمرة الرابعة، وأجبروه على العودة إلى القيروان، ولما يمضِ على ولايته سبعة وعشرين يوماً، وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي، لكنه لم يتمكَّن من ضبط الأمور بسبب التنافس الشديد بين العرب والأبناء. ومما لا شك فيه أن هذه الاضطرابات كانت من فعل العصبيات الثلاث المتنافسة والتي وصل بها الأمر إلى التقاتل، وإضفاء قدر من الخطورة من شأنه أن يخرِّب المدينة. وبلغت الأوضاع المتردية ذروتها في (نهاية عام ١٨٩هـ/ شهر تشرين الثاني عام ٨٠٥م) حتى فسدت طرابلس، عند ذلك قرَّر إبراهيم بن الأغلب وضع حد لها، فأرسل جيشاً إلى المدينة قبض على زعمائها وأحضرهم إلى القيروان، ولما اجتمعوا بالأمير طلبوا العفو منه، فعفا عنهم وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم. وبهذا انتهت الاضطرابات في طرابلس[2].

- عصيان الجند في عام (١٩٤هـ/ ٨١٠م)، بقيادة عمران بن مجالد الربعي، قائد

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ٩٣. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣١٨ ـ ٣١٩. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٩٦. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٢٤ ص ١٠٢ـ ١٠٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

حامية تونس الذي حاول القضاء على الأمير. والواقع أن علاقات إبراهيم بن الأغلب بقادته كانت تسير منذ البداية إلى الانحدار في جو من الالتباس وعدم الثقة، زادت السنون في وطأتها، وذلك بفعل نظرة كل طرف إلى الطرف الآخر. فقد كان إبراهيم بن الأغلب يرى أنه الأمير، وأن على أتباعه احترامه، وهو لم يفتأ يحاول التحرر من سيطرة قادته. أما هؤلاء فقد رأوا فيه الشخص الذي وصل إلى سدة الحكم، بفضلهم، فهو إذن أميرهم يتلاعبون به كيف شاؤوا.

استغل عمران حركة العصيان التي حدثت في القيروان في (شهر جمادى الآخرة عام ١٩٤هـ/ شهر آذار عام ٨١٠م)، ضد نظام إبراهيم بن الأغلب، فتحرك من طرابلس باتجاه المدينة واستولى عليها في (١٠ رجب/ ١٩ نيسان)، إلا أنه فشل في اقتحام العباسية التي تحصَّن بها إبراهيم، وانضم أغلب أهل البلاد إليه، وتلقب بالأمير. ويبدو أن هذا الالتفاف الجماهيري حوله كان مرحلياً ومصطنعاً، ذلك أن فقهاء القيروان اختاروا في النهاية أن يقفوا موقف الحياد بين الطرفين على الرغم من عدائهم المتزايد لإبراهيم بن الأغلب، وتمكَّن هذا الأخير، بفعل المساعدة المالية التي جاءته من الشرق، أن يستميل الجند إلى جانبه بما أغدق عليهم من الأموال والعطايا، وفرض سلطته في نهاية الأمر. وذكر ابن الأثير أنه «لما انهزم عمران سكن الشر بإفريقية، وأمن الناس»[1]. وقد دفعت حركة العصيان هذه إبراهيم بن الأغلب إلى فقدان ثقته بالجند العربي، فاستكثر من العبيد والصقالبة، واعتمد عليهم في حماية نفسه. وأما عمران، فسار حتى لحق بالزاب، فأقام به حتى مات إبراهيم بن الأغلب وولي بعده ابنه عبد الله فأمَّن عمران، فحضر عنده، وأسكنه معه، فقيل لعبد الله: إن هذا ثار بأبيك ولا نأمنه عليك، فقتله[2].

ـ تجدُّدُ عصيان الجند في طرابلس، في عام (١٩٦هـ/ ٨١٢م)، ذلك أن إبراهيم بن الأغلب عيَّن ابنه عبد الله على طرابلس، فلما قدم إليها ثار عليه الجند، وحاصروه في داره، ثم اتفقوا أن يخرج عنهم، غير أنه استطاع أن يستقطب كثيراً من الناس بما أغدق عليهم من الأموال، ومن بينهم قبائل البربر، فزحف بهم إلى طرابلس ودخلها عنوة. ويبدو أن والده لم يأمن عليه فعزله، وعين سفيان بن المضاء للمرة الخامسة وقد سبق له أن عادى أهالي المدينة من قبل، فعُدَّت تولتيه تحدياً لهم، فثارت قبيلة هوارة عليه بقيادة عياض بن وهب، واصطدم أفرادها بجند الوالي

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ ٥ ص ٣١٩. (٢) المصدر نفسه.

وهزموهم، ففروا هاربين إلى إبراهيم بن الأغلب. ودخل البربر المدينة وهدموا أسوارها، فسيَّر إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله في ثلاثة عشر ألف مقاتل اصطدم بهم وهزمهم وقتل كثيراً منهم، ثم دخل طرابلس وأعاد بناء سورها[1]. والراجح أن تجدُّد العصيان هذا هو استمرار لعصيان عمران بن مجالد بسبب تمادي الدولة في سياستها التقليدية بالاعتماد على الجند العرب في طرابلس مما أدى إلى مضايقة البربر وإثارتهم، ويجب ربطها أيضاً بالاضطراب الذي مرَّ به الجيش الذي أثاره التنافس العنصري والنقص في الأرزاق والأعطيات.

غير أن الأحداث اتخذت فجأة منحى آخر عندما دخل أمير تاهرت، عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، الميدان إلى جانب البربر وحاصر مدينة طرابلس التي امتنعت عليه. وكان الوضع على هذا النحو عندما توفي إبراهيم بن الأغلب (يوم الإثنين ٢١ شوال عام ١٩٦هـ/ ٥ تموز عام ٨١٢م)[2].

أما في الخارج، فقد واجه إبراهيم بن الأغلب قوة الأدارسة النامية، وقد بلغه أن إدريس الثاني قد كثر جمعه، فأراد قصده واستقطب القائم بأمره، ويدعى بهلول بن عبد الرحمن المظفر من زعماء البربر، لكن أتباعه نصحوه بالعدول عن رأيه، ثم تفاهم الطرفان على تحقيق سلم بينهما[3].

عبد الله بن إبراهيم: عبد الله الأول: ١٩٦ ـ ٢٠١هـ/ ٨١٢ ـ ٨١٧م

خلف أبو العباس عبد الله والده إبراهيم بعهد منه. وعندما توفي هذا الأخير كان عبد الله يحارب عبد الوهاب الرستمي في طرابلس، فقام أخوه زيادة الله بالأمر، وأخذ البيعة له، وبعث إليه بذلك، ولكن عبد الله لم يعد إلى إفريقية إلا بعد سنة بعد أن عقد صلحاً مع الثائرين مكَّنه من الاحتفاظ بمدينة طرابلس والسيادة على البحر، مقابل التخلي عن داخل البلاد للبربر[4]. ولما قُتل الخليفة العباسي الأمين في عام (١٩٨هـ/ ٨١٣م)، وولي المأمون الخلافة، أقرَّ عبد الله على إفريقية[5].

كان عبد الله أسير سيرته السيئة حتى مع أهل بيته. اشتط في جباية الضرائب لتعبئة خزائنه بالمال، وقرَّر أن يقوم بإصلاح جبائي من شأنه أن يضمن للدولة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦.
(٢) المصدر نفسه. ابن عذارى: جـ ١ ص ٩٥. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٩٧.
(٣) ابن خلدون: المصدر نفسه ص ١٩٦.
(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ٩٥. ابن خلدون: المصدر نفسه ص ١٩٧.
(٥) ابن عذارى: المصدر نفسه.

مداخيل ثابتة، كما أن معاملته للسكان كانت تنطوي على كثير من الجور. وحاول هؤلاء تقويم سيرته غير أنهم فشلوا في ذلك، وتجاهل نصيحة أهل الورع والدين بالكف عن الجور والظلم، وتوفي يوم الخميس في (٦ ذي الحجة عام ٢٠١هـ/ ٢٥ حزيران عام ٨١٧م) من أثر دمَّل تحت أذنه[١]، لكن عهده القصير كان زاهراً، فقال ابن الأثير: «.... وبقي أميراً رخي البال وادعاً، والدنيا عنده آمنة»، وكان «من أجمل الناس وجهاً، وأقبحهم فعلاً، وأعظمهم ظلماً»[٢].

زيادة الله الأول: ٢٠١ ـ ٢٢٣هـ/ ٨١٧ ـ ٨٣٨م

كان زيادة الله الأول من أطول حكام الأغالبة عهداً، إذ امتد حكمه اثنين وعشرين عاماً، وقد مال، كأخيه عبد الله، إلى الظلم والجور، لكنه كان، بطبعه، رجلاً هادئاً، حسن التفكير، ميالاً إلى العمارة والإنشاء. وشهد عهده نهضة عمرانية، فشُيِّدت المساجد، والقناطر، والأسوار، والربط، وصهاريج الماء. ويُعدُّ هذا الأمير واسطة عقد هذه الدولة، ورمز قوتها[٣]. ولعل أعظم ما قام به، خلال حياته، فتح جزيرة صقلية في عام (٢١٢هـ/ ٨٢٧م) وهو فتح أضاف إلى سلسلة فتوح المسلمين حلقة جديدة[٤].

لم يخلُ عهد زيادة الله الأول من الثورات. فبعد ست سنوات من الهدوء ثار عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصقلية، وهو أحد الموالي المنحدرين من العبيد المعتوقين، وذلك في عام (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م). والواقع أننا لم نعلم شيئاً عن دوافعه الحقيقية، غير أنه لم يشكل أي خطر جدِّي على الدولة ربما بسبب الصدى الضعيف الذي تركه في البلاد، والعطف الضئيل الذي حظي به[٥]، ولم يجد زيادة الله الأول أدنى صعوبة في القضاء عليه.

وخرج، في عام (٢٠٩هـ/ ٨٢٤م) والي طرابلس، منصور بن نصر الجشمي المعروف بالطَنْبَذي[٦]، غضباً لمقتل عمرو بن معاوية القيسي والي القصرين، الذي ثار هو الآخر على الدولة[٧]، فعزله زيادة الله الأول عن ولاية طرابلس وأمره بالعودة

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٩٦. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٨٦.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٩٥، ص ٤٨٦.

(٣) مؤنس: جـ ١ ص ٢٦٩.

(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٩٦. الطالبي، محمد: الدولة الأغلبية ص ١٨٩.

(٦) الطَنْبَذي، نسبة إلى بلدة طَنْبَذة في إفريقية وتقع على بُعد أربعة فراسخ جنوبي مدينة تونس، وتحمي الطريق الرئيسي المؤدي من إفريقية إلى إقليم الزاب. الحموي: جـ ٤ ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٧) ابن عذارى: جـ ١ ص ٩٧ ـ ٩٨.

إلى القيروان، فتدخل الأغلب بن عبد الله بن الأغلب (غلبون) شقيق زيادة الله، لصالحه، وحصل على أمر بإطلاق سراحه، فعاد إلى تونس، وأقام بقصره في طَنْبَذة، وراح يراسل قادة الجند لدفعهم على الانتفاضة ضد نظام زيادة الله الأول.

تصرَّف زيادة الله الأول على وجه السرعة لإخماد هذه الحركة قبل أن يستفحل خطرها، فأرسل قوة عسكرية مؤلفة من ثلاثمائة فارس، إلى تونس، بقيادة محمد بن حمزة، وأوصاه بمفاجأة منصور والقبض عليه وإحضاره مكبلاً. لكن هذا الأخير تغلَّب على القوة الأغلبية، وقبض على معظم أفرادها وذلك يوم الإثنين (٢٥ صفر/ ٢٧ حزيران)، وقتل إسماعيل بن سالم بن سفيان عامل زيادة الله الأول على تونس وولده محمد[١]، وهما من أقارب زيادة الله الأول.

وعندما علم زيادة الله الأول بأخبار تونس، قرَّر التدخل الواسع ضد الثائر، فجهَّز جيشاً كثيفاً عهد بقيادته إلى الوزير غلبون، وأمره بالقضاء على حركة منصور وهدَّد الجيش بالموت إذا أفلت من أيديهم. سار الجيش إلى تونس تتنازعه بواعث التمرد، وريح الثورة وذلك بفعل هذا التهديد. وجرى اللقاء بين الطرفين في جنوب سبخة تونس في (٢٠ ربيع الأول/ ٢٦ تموز)، وأسفر عن انهزام غلبون[٢]. وقد خشي أفراد جيشه سوء العاقبة بعد تهديد الأمير لهم، فقرروا عدم العودة إلى العباسية، ثم خلعوا طاعته وانضموا إلى منصور، واستولوا على كثير من المدن مثل باجة[٣]، وصطفورة[٤]، والأُرْبُس[٥]. ولم يبق بيد زيادة الله الأول من إفريقية كلها إلا قابس[٦]، والساحل، وتفزاوة[٧] وطرابلس، وضرب منصور السكة باسمه[٨]. وهكذا أدت هزيمة سبخة تونس إلى تفتُّت الإمارة، واضطراب أوضاعها، وكادت تخرج من يد زيادة الله الأول.

استفاد منصور بمن التفَّ حوله، وبما انضم إليه من الجموع، فسار إلى

---

(١) المصدر نفسه: ص ٩٨ ـ ٩٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٠.
(٣) باجة: بلد بإفريقية، تُعرف بباجة القمح، سميت بذلك لكثرة حنطتها، بينها وبين تَنَس يومان. الحموي: جـ ١ ص ٣١٤.
(٤) صطفورة: بلدة من نواحي إفريقية. المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٠٥.
(٥) الأُربُس: مدينة وكورة بإفريقية، وكورتها واسعة، وأكثر غلتها الزعفران وبها معدن الحديد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٣٦.
(٦) قابس: مدينة بين طرابلس الغرب وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر، فيها نخل وبساتين غربي طرابلس الغرب، بينها وبين طرابلس الغرب ثمانية منازل وهي ذات مياه جارية. المصدر نفسه: جـ ٤ ص٢٨٩.
(٧) نفزاوة: مدينة من أعمال إفريقية بينها وبين القيروان ستة أيام. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٢٩٦.
(٨) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٠١.

القيروان وحاصرها، واصطدم بزيادة الله الأول في عدة معارك لكن اللقاء الحاسم جرى في (١٥ جمادى الآخرة/ ١٣ تشرين الأول) وأسفر عن انتصار زيادة الله الأول، وهزيمة منصور الذي لجأ إلى قصره في تونس، تاركاً القيادة لعامر بن نافع، قائد الجيش، وأضحى هذا الأخير قائداً للمنشقين الذين أنزلوا هزيمة قاسية بجيوش الأغالبة بقيادة محمد بن عبد الله بن الأغلب شقيق زيادة الله الأول، في معركة سبيبة في (٢٠ محرم عام ٢١٠هـ/ ١٣ أيار عام ٨٢٥م)[١]، وفرَّ محمد من أرض المعركة تاركاً أفراد جيشه تحت رحمة سيوف الثائرين.

ذُعر زيادة الله الأول من هول الكارثة التي راح ضحيتها أفضل قادته وأمرائه وكثير من جنوده وفرسانه، وفي المقابل أثار هذا الانتصار شجاعة منصور، فحاصر القيروان من جديد، وأقلق بال زيادة الله الأول الذي ضعف أمره، وتضاءلت ولايته.

لم تنتهِ هذه الثورة، التي كادت أن تقوِّض الحكم الأغلبي إلا في عام (٢١١هـ/ ٨٢٧م)، وذلك بفعل النزاع الذي قام بين منصور الطَّنْبَذي وقائده عامر بن نافع الذي هاله ازدياد نفوذه، واتساع رقعة البلاد التي دخلت في حوزته. وانتهى هذا النزاع لمصلحة نافع الذي أرغم منصوراً على طلب الصلح مقابل الرحيل إلى المشرق، لكن هذا الأخير فرَّ إلى الأربس بدلاً من ذلك، ولما اكتشف أمره في الصباح طارده الجند وقبضوا عليه، فسجنه عامر ثم قتله واستولى على بلاده. غير أنه تعرَّض للانقسامات الداخلية في جيشه بسبب الصراع العنصري، على الأغلب، بين قيس ومذحج، حيث كان منصور الطَّنْبَذي من قيس وعامر بن نافع من مذحج، وأخذت قوة الثورة بالتقلُّص. ولم يطمئن زيادة الله الأول على أوضاعه إلا بعد وفاة عامر في (٢٩ ربيع الأول ٢١٣هـ/ ١٧ حزيران ٨٢٨م). وعبَّر عن سروره حين علم بوفاته بقوله: «اليوم وضعت الحرب أوزارها». وتوفي في (شهر رجب عام ٢٢٣هـ/ شهر حزيران عام ٨٣٨م)[٢].

أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب: ٢٢٣ ـ ٢٢٦هـ/ ٨٣٨ ـ ٨٤١م

خلف أبو عقال الأغلب أخاه زيادة الله الأول بعد وفاته، وهو ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب الذين تولوا الإمارة بعده على التوالي، وآخرهم. باشر الحكم يوم

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٠٠، وقارن بابن خلدون: جـ ٤ ص ١٩٨. وسبيبة: ناحية من أعمال إفريقية ثم من أعمال القيروان. الحموي: جـ ٣ ص ١٨٦.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣، ١٠٦.

الثلاثاء (١٤ رجب ٢٢٣هـ/ ١١ حزيران ٨٣٨هـ/ ، وتُعدُّ هذه السنة بمثابة الذروة التي بلغها تاريخ القيروان[1].

كان أبو عقال أحسن سيرة من أخويه، ويبدو أنه اتعظ بالأحداث التي مرَّت بها البلاد، وأراد الاستفادة من الظروف الملائمة، فشرع بفعل ما توفر له من إمكانات مادية وبشرية من دعم نفوذ الدولة وتحقيق الهدوء، ونفَّذ سياسة مرنة. عمل على إعادة الثقة إلى الجند، وبخاصة العنصر العربي، وهي السياسة التي ربطته بسياسة والده إبراهيم. واتجه إلى العامة، فاتخذ التدابير الكفيلة بحمايتهم من ظلم الولاة، الذين أُخضعوا لرقابة أشد صرامة، ومع ذلك فقد عامل هؤلاء الولاة باحترام، فأجزل لهم العطاء والأرزاق الواسعة والصلات الجزيلة. وحرَّم أبو عقال المشروبات الكحولية، فقطع النبيذ عن القيروان، وعاقب على بيعه وشربه[2].

وعلى الرغم من الإجراءات المهدِّئة التي اتخذها، فقد شهد عهده عدة انتفاضات قامت بها قبائل لواتة وزواغة ومكناسة البربرية الخارجية، بين قفصة[3] وقَسْطيلية[4] وذلك في عام (٢٢٤هـ/ ٨٣٩م). لكن هذه الثورات التي انفجرت بسرعة، أُخمدت بسرعة أيضاً. ويبدو أن ظهور الخوارج كان مرتجلاً، ودون استعداد منظم، فاصطدم بهم القائد عيسى بن ريعان الأزدي، وقضى عليهم[5].

توفي أبو عقال الأغلب في (٢٢ ربيع الآخر ٢٢٦هـ/ ١٨ شباط ٨٤١م)[6]، تاركاً السلطة لابنه محمد.

أبو العباس محمد الأول: ٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ/ ٨٤١ ـ ٨٥٦م

اتصف أبو العباس محمد الأول بأنه شاب عادي لا يميزه شيء. هادن الجند وسار على طريقة أسلافه. تخلَّلت عهده عدة حوادث كان أشدها خطراً الخلافات الأسرية. فقد ثار عليه أخوه أبو جعفر أحمد بهدف اغتصاب الحكم، فيما عُرف

---

(١) الطالبي: ص ٢٤٨.
(٢) ابن عذاري: جـ ١ ص ١٠٧. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢٠٠.
(٣) قفصة: بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام. الحموي: جـ ٤ ص ٣٨٢.
(٤) قَسْطيلية: في بلاد الجريد من أرض الزاب الكبير. وهي مدينة كبيرة عليها سور حصين وبها تمر، والقسْب بها كثير وهي مغوثة إفريقية بتمورها. ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: كتاب صورة الأرض، ص ٩٢.
(٥) ابن عذاري: جـ ١ ص ١٠٧. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٦١.
(٦) ابن عذاري: جـ ١ ص ١٠٧.

بثورة القصر وذلك في عام (٢٣١هـ/ ٨٤٦م) واستولى على مقدرات الدولة واعتدلت له الأمور إلا اسم الإمارة، غير أن محمداً الأول ظفر بأخيه في العام التالي وسجنه، واستعاد سلطته، ونفى أخاه أحمد إلى المشرق، فمات في العراق[١].

وواجه محمد الأول ثورتين أخريين لم تتَّسما بالخطورة. فقد ثار والي الزاب سالم بن غلبون في عام (٢٣٣هـ/ ٨٤٧ـ ٨٤٨م)، بعد أن عزله عن الولاية، وسار إلى القيروان، لكن محمداً الأول قضى عليه[٢]. وخرج عمر بن سليمان التُجيبي، المعروف باسم القويع، على حكم محمد الأول في تونس في عام (٢٣٤هـ/ ٨٤٨ـ ٨٤٩م)، ولم يتمكَّن هذا الأخير من قمع ثورته إلا في عام (٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) ودخل مدينة تونس واستولى عليها[٣].

ولما استقرت له الأوضاع في الداخل، تطلع محمد الأول إلى الخارج، فاستكمل فتح صقلية، وولَّى العباس بن الفضل الفزاري قيادة الجند، وأرسله إلى الجزيرة، وكتب إليه عهداً بولايتها، ففتح بين عامي (٢٣٧ـ ٢٤٧هـ/ ٨٥١ـ ٨٦١م) قصريانة، وقطانية وسرقوسة وغيرها، وحاصر مدينة بنيرة[٤]. ويبدو أن المسلمين لم يتمكَّنوا من الاستقرار في المدن المفتوحة، فهم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط القتال مع النصارى، فكانت الحرب بين الطرفين في هذه الجزيرة حرباً مائعة غير ثابتة[٥].

واتجهت دولة الأغالبة في عهده اتجاهاً مذهبياً سنياً بتعيين القاضي سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه، القضاء، وكان مالكياً وذلك في (٤ رمضان ٢٣٤هـ/ أول نيسان ٨٤٩م)[٦]. ويبدو أن هذا التطور المذهبي جاء لإشباع حاجة السكان على المذهب السني الذين ساندوا الدولة في صراعها مع الخوارج بعامة، وساندوا محمداً الأول في صراعه مع أخيه أحمد بخاصة، بالإضافة إلى أن الأغالبة، منذ أن صار مذهب الاعتزال مذهباً رسمياً لدولتهم، أرادوا المحافظة على توازن القوى في الداخل بفعل الاختلال العددي بين أهل السنَّة الأكثر عدداً والمعتزلة الأقل عدداً. وبذلك يكون محمد الأول قد تحوَّل تحولاً حاسماً في اتجاه السياسة الدينية للإمارة.

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٩.
(٣) ابن الأثير: جـ ٦ ص ١١٩.
(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ١١١.
(٥) حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: جـ ٢ ص ٢٢٢.
(٦) اسمه عبد السلام وإنما سُمِّي سحنون لحدة ذهنه. ابن عذارى جـ ١ ص ١٠٩.

توفي محمد الأول يوم الاثنين (٢ محرم ٢٤٢هـ/ ١١ أيار ٨٥٦م)[١].

أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب: ٢٤٢ ـ ٢٤٩هـ/ ٨٥٦ ـ ٨٦٣م

خلف أحمد بن محمد عمَّه محمداً الأول[٢]، وهو في العشرين من عمره. كان شاباً حسن الهيئة، أميراً مولعاً بالمنشآت. اهتم بإصلاح جامع تونس، فأدخل عليه تحسينات هامة، وأصلح قنطرة الربيع، ويُنسب إليه الماجل[٣] الكبير بالقيروان، ويسمى بفسقية الأغالبة، وبنى سور مدينة سفاقس[٤]. «حسن السيرة، كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الناس وأسمحهم وأرفقهم بالرعية، مع دين واجتناب للظلم، على حداثة سنه وقلَّة عمره. وكان يركب في ليالي شعبان ورمضان وبين يديه الشمع، فيخرج من القصر القديم، ويمشي حتى يدخل من باب أبي الربيع، ومعه دواب بالدراهم، فيُعطي الضعفاء والمساكين حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان، فيخرج الناس إليه، يدعون له»[٥].

والواقع أن أبا إبراهيم أحمد كان واحداً من سلسلة الأمراء الذين حكموا بين زيادة الله الأول وإبراهيم بن أحمد، وكلهم أمراء ذوو ملكات متوسطة، ولكنهم كانوا على عدالة وحسن سمعة واستقرار سياسي حتى يمكن أن يقال إن هذه المدة التي تقدَّر بثلاثين عاماً تُعدُّ العصر الذهبي لبني الأغلب. فقد ساد الهدوء النسبي، وتوقف العداء الشديد بين البيت الأغلبي والجند، وسارت المتاجر في الطرق والبحار، واستفادت إفريقية، بفعل موقعها البحري الممتاز كمعبر بين الشرق والغرب[٦].

توفي أبو إبراهيم أحمد يوم الثلاثاء في (١٣ ذي القعدة عام ٢٤٩هـ/ ٢٨ كانون الأول عام ٨٦٣م)[٧].

زيادة الله بن محمد بن الأغلب: زيادة الله الثاني: ٢٤٩ ـ ٢٥٠هـ/ ٨٦٣ ـ ٨٦٤م

ولي الحكم يوم وفاة أبي إبراهيم. كان عاقلاً، حليماً، حسن السيرة، جميل

---

(١) المصدر نفسه: ص ١١٢.

(٢) كان محمد الأول عاقراً، وكان له أخ يحمل الاسم نفسه. وكان والياً على طرابلس الغرب وتوفي فيها عام (٢٣٣هـ/ ٨٤٧م) وترك ابناً اسمه أحمد، وهو الذي خلف عمه. الطالبي: ص ٢٨٢.

(٣) صهريج أو خزان ماء.

(٤) سفاقس: مدينة من نواحي إفريقية جلُّ غلاتها الزيتون، وهي على ضفة الساحل، بينها وبين المهدية ثلاثة أيام، وهي على البحر ذات سور. الحموي: جـ ٣ ص ٢٢٣.

(٥) ابن عذارى: جـ ١ ص ١١٢.

(٦) مؤنس: جـ ١ ص ٢٨٣.

(٧) ابن عذارى: جـ ١ ص ١١٣.

الأفعال، ذا رأي ونجدة، وجود، وشجاعة. لم يطل حكمه إذ لم يتجاوز سنة هجرية وسبعة أيام. توفي يوم السبت (٢٠ ذي القعدة ٢٥٠هـ/ ٢٤ كانون الأول ٨٦٤م)[١].

أبو الغرانيق محمد بن أحمد: محمد الثاني: ٢٥٠ ـ ٢٦١هـ/ ٨٦٤ ـ ٨٧٥م

خلف أبو الغرانيق محمد عمه زيادة الله الثاني، وقد أُطلقَ عليه هذا اللقب بسبب ولعه بصيد هذه الطيور. كان مسرفاً في العطاء، مع حُسْن سيرة في الرعية، ثم غلبت عليه اللذات والاشتغال بها؛ فلم يزل كذلك طوال مدة حكمه، ولم تكن له همَّة في جمع المال، وكانت ولايته حروباً[٢]. استكمل فتح صقلية، وفتح جزيرة مالطة[٣].

توفي أبو الغرانيق في (٦ جمادى الأولى ٢٦١هـ/ ١٦ شباط ٨٧٥م)[٤].

إبراهيم بن أحمد: إبراهيم الثاني: ٢٦١ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٠٢م

في الوقت الذي بدت فيه دولة الأغالبة في ذروة قوتها، أخذت تظهر علامات تفكُّكها منذ عهد إبراهيم الثاني، وبدأت الأزمات التي ستؤول إلى زوالها، تتوالى عليها. ولعل أبرز أسباب ضعف سلطة إبراهيم الثاني، عيوبه وقسوته، وميله المَرَضي إلى العنف والقتل؛ ومع ذلك يظهر إبراهيم الثاني في صورة ملك عظيم، مثقف، قوي الشكيمة، محب للقتال، مما جعل جيرانه النصارى في صقلية وإيطالية يخشونه.

كانت السنوات الأولى من حكمه تتصف بالصلاح والإصلاح، فرضي الناس عنه وأحبُّوه، وبخاصة أنه صرف جهداً كبيراً في تشييد المنشآت الدينية، واكتملت في أيامه سلسلة من المحارس على طول ساحل بلاده من بجاية[٥] إلى طرابلس، فكانت النيران توقد فيه الواحدة تلو الأخرى لنقل الأخبار، وفي النهار كانت سحب الدخان تقوم مقام ألسنة اللهب في الليل، وقد وصفه ابن الأثير فقال: «كان عادلاً، حازماً في أموره، أمَّن البلاد، وقتل أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين يسمع شكوى الخصوم، ويصبر عليهم، وينصف بينهم»[٦].

بدأ إبراهيم الثاني، بعد مرور ستة أعوام على حكمه، يعاني مرضاً عصبياً حال بينه وبين النوم، فوهنت قواه الجسدية والعقلية. كان يستريح أحياناً في مدينة رقَّادة

---

(١) المصدر نفسه: ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ١١٤.
(٣) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢٠١.
(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ١١٤.
(٥) بجاية: مدينة على البحر بين إفريقية والمغرب. الحموي: جـ ١ ص ٣٣٩.
(٦) الكامل في التاريخ: جـ ٦ ص ٣٢٨.

التي بناها في عام (٢٦٣هـ/ ٨٧٧م) إلى الجنوب من القيروان[١]. وشيئاً فشيئاً بدأ مزاجه يتغير إلى رجل دموي، يحسد الناس من حوله. وانغمس في القتل الفردي والجماعي اللامبرَّر حتى خشيه الناس. واستمرت هذه الثورة النفسية مدة خمسة أعوام، أخذ الهدوء بعدها يعود إلى نفسه. ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي بلغه الخطران الطولوني والشيعي اللذان بدءَا يطرقان أبواب إفريقية. وقد كشفت الصدامات مع الطولونيين عن تراجع قوة الأغالبة القتالية.

واندلعت في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) ثورة الدراهم بسبب الإصلاح النقدي الذي حقَّقه إبراهيم الثاني، وأظهرت تلك الثورة نفور الناس من ذلك الأمير الذي أحبط هيجان العامة سلطته المعزَّزة بالحرس الأسود.

وربما أضحى النظام لا يستطيع فرض احترامه على الناس، وكان ذلك إشارة إلى حدوث اضطرابات اندلعت منذ عام (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)، وهي السنة التي بدأ فيها البناء الأغلبي يتزعزع قبل أن ينهار بعد ذلك على يد الشيعة بقيادة أبي عبد الله الداعي.

توفي إبراهيم الثاني في (١٣ ذي القعدة ٢٨٩هـ/ ١٩ تشرين الأول ٩٠٢م)[٢]، بعد أن حكم سبعة وعشرين عاماً، أي ثلث العصر الأغلبي تقريباً. وكانت وفاته إيذاناً بانهيار البناء الأغلبي وزوال الأسرة الأغلبية حيث فَقَدَ الأغالبة من بعده أي أمل في استعادة قوتهم في الوقت الذي اشتد فيه ساعد أبي عبد الله الداعي، وتمكَّن من إقامة أسس دولة شيعية في هذه البلاد.

أبو العباس عبد الله بن إبراهيم: عبد الله الثاني: ٢٨٩ ـ ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م

خلف عبد الله الثاني أباه في الحكم، وكان أضعف من أن يواجه التيارات السياسية العنيفة التي بدأت تهب على بلاده من الخارج، وحاول في الداخل أن يكسب رضى الناس بالتظاهر بالتقى والورع والتقشف، لكنه لم يبق في الحكم سوى تسعة أشهر وأحد عشر يوماً، فقد قُتل على يد غلمانه ليلة الأربعاء (٢٨ شعبان ٢٩٠هـ/ ٢٧ تموز ٩٠٣م)[٣].

---

(١) رقّادة: بليدة في إفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، وأكثرها بساتين. الحموي: جـ ٣ ص ٥٥.

(٢) انظر فيما يتعلق بسيرة إبراهيم الثاني: ابن عذارى: جـ ١ ص ١١٦ ـ ١٢٤، ١٣٢ ـ ١٣٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

زيادة الله بن أبي العباس عبد الله: زيادة الله الثالث: ٢٩٠ ـ ٢٩٦هـ/ ٩٠٣ ـ ٩٠٩م

كان زيادة الله الثالث آخر الأمراء الأغالبة في إفريقية. قضى أيامه في اللهو والترف دون أن يلتفت إلى مقاومة الخطر الشيعي الفاطمي الذي أخذ يزداد قوة واندفاعاً. وتقدمت قوات أبو عبد الله الداعي من إقليم الزاب إلى إفريقية تستولي على المدن والحصون. وكان وزراء زيادة الله الثالث لا يبالون إلا بنجاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظمهم، وساعدوا على إزالة سلطان الأغالبة، ومدِّ نفوذ الفاطميين إلى أكثر أجزاء البلاد. وفي عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م) أضحى الفاطميون أصحاب السلطان في جميع البلاد الواقعة إلى الغرب من القيروان، ثم تسارعت الأحداث التي سنتعرض لها عند حديثنا عن قيام الدولة الفاطمية في إفريقية. واستدعى زيادة الله الثالث أخاه أباحوال من منطقة القبائل الصغرى وأمر بقتله هو وعدد كبير من أفراد عائلته، ثم حاول عبثاً عرقلة زحف الكتاميين، وتسلَّى عن عجزه بتعاطي الفسق والفجور، وكان في ذلك وهن للأسرة الأغلبية وتضعيف لأمرهم[1]. وتكفي هذه العبارة للدلالة على المدى الذي تدهور إليه بنو الأغلب من الناحيتين الأخلاقية والسياسية، وهو تدهور كانت فيه نهاية هذ البيت. إذ رُعب الناس منهم، وتخلَّى عنهم أشياعهم، وثقلت وطأتهم على الناس حتى باتوا يتمنون الخلاص منهم، ولم يبقَ لهم من سند بعد ذلك سوى الجند المرتزقة، وهذا يفسر لنا السهولة التي تمكَّن بها أبو عبد الله الداعي من القضاء على البيت الأغلبي.

وتنازل زيادة الله الثالث عن الحكم ليلة الاثنين (٢٥ جمادى الآخرة ٢٩٦هـ/ ٢١ آذار ٩٠٩م) إثر كارثة الأربس، بعد أن استولت قوات الكتاميين عليه وانتشرت في البلاد. وأدرك زيادة الله الثالث أن ملكه زائل فلاذ بالفرار إلى المشرق تحت جنح الظلام. ودخل أبو عبد الله الداعي، عقب ذلك، مدينتي القيروان، ورقّادة في (شهر رجب/ شهر آذار)، فانتهت بذلك دولة الأغالبة وقامت الدولة الفاطمية وبدأ في تاريخ إفريقية والمغرب عصر الفاطميين[2].

---

(١) البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ ـ ٢٧.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٤٦ ـ ١٤٩.

الفصل الثاني

قيام الدولة الفاطمية في إفريقية

الجذور التاريخية

يتطلب البحث التاريخي عن الدولة الفاطمية، العودة إلى الجذور، ويقود إلى البدايات الأولى. وأبدأ بيوم السقيفة متجاوزاً الدخول في أحكام الدين والشريعة الإسلامية لأن الإشكال يومها كان يدور حول صراع الإرث السياسي، ولمن يُعقد لواء القيادة، وأي قبيلة تتولى السلطة، وأي بيت يحكم، حتى اتفقت كلمة المسلمين على اختيار أبي بكر الصديق في اليوم الذي توفي فيه النبي محمد ﷺ (١٢ ربيع الأول عام ١١هـ/ ٧ حزيران عام ٦٣٢م)[١] وانتصرت مقولة «الأئمة من قريش»، وأُقِرَّ مبدأ الحكم في الإسلام، وقف على قريش ومحصور بها.

لم يحضر علي بن أبي طالب، وبعض الصحابة، عملية الانتخاب التي تمَّت على عجل، إذ كانوا منهمكين بتجهيز النبي. وكانت فلتة باعتراف عمر بن الخطاب، وذلك بفعل الظروف التي كان يمر بها المسلمون في المدينة المنوَّرة بعد حادثة الوفاة مباشرة، لكن علياً لم يلبث أن بايع أبا بكر، بغض النظر عن المدة التي قضاها بدون بيعة.

وتولى عمر بن الخطاب منصب الخلافة في (شهر جمادى الآخرة عام ١٣هـ/ شهر آب عام ٦٣٤م) بعد وفاة أبي بكر الصديق وبعهد منه. وتطور في أيامه، المبدأ المشار إليه من قريش بعامة إلى أسر المبشرين بالجنة، وكانوا عشرة. ولكن عندما توفي عمر كانوا قد أصبحوا ستة. وخلال مناقشات أعضاء شورى الستة تطور المبدأ وانحصر الحكم في آل عبد مناف بن قصي، بني أمية وبني هاشم[٢].

وجرت نقلة نوعية فيما يتعلق باحتكار السلطة، حين اختير عثمان بن عفان لتولي منصب الخلافة في (شهر محرم عام ٢٤هـ/ شهر تشرين الثاني عام ٦٤٤م)،

---

(١) الطبري: جـ ٣ ص ٢٠٠ ـ ٢١١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤١٩، ٤٢٨. زكار، سهيل: الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٣٠.

وذلك عندما استقر الأمر لبني أمية، ووقف بنو هاشم على رأس المعارضة[1].

وانتخب علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين على أثر مقتل عثمان في (شهر ذي الحجة عام ٣٥هـ/ شهر حزيران عام ٦٥٦م)، من غير إجماع، في ظروف مضطربة كانت موضوعاً لنزاع كبير[2]. وأسفر الصراع المرير بعد الفتنة الكبرى، ومعارك الحروب الأهلية (الجمل وصفين) عن انتصار معاوية بن أبي سفيان، وتأسيس الدولة الأموية في عام (٤١هـ/ ٦٦١م)، وكان علي بن أبي طالب قد قُتل على يد الخوارج في (شهر رمضان عام ٤٠هـ/ شهر كانون الثاني عام ٦٦١م)[3].

وبعد وفاة علي بن أبي طالب، شعر أتباعه بالحرمان واليأس والمرارة، لأنهم لم يعرفوا كيف يساندونه، ولا كيف يدافعون عنه في الوقت المناسب، فنمت فيهم، منذ ذلك الوقت، وعلى امتداد تاريخهم، عقدة ذنب عظيمة دفعتهم إلى الالتفاف حول شهيد آل البيت، غذَّتها المصائب الجديدة باستمرار، وأضفت على حركتهم لوناً خاصاً، ومنحتها قوة، وعرفوا بالعلوية أو بشيعة علي، ورفضوا مختلف صيغ الحكم، وأكَّدوا أن القرآن والحديث تضمَّنا النصوص الموجبة لتولي علي، وذريته من بعده، خلافة النبي الزمنية والروحية، وأن حق آل علي بالسلطة قائم على وصية النبي لأبيهم وعلى شرعة الميراث، وأن الخلفاء الأمويين حين استولوا على الجانب الدنيوي (السلطة) لم يستطيعوا انتزاع الجانب الديني من الميراث النبوي. ودُعي هذا الجزء من الميراث باسم الإمامة، وأخذوا يطلقون على زعيمهم لقب إمام[4]، فهم أهل النص والتعيين[5].

ومع مرور الأيام غدت الإمامة ذات العلم الموروث، محور العمل الشيعي العلوي، والمعروف أن حركة التشيع العلوي بدأت حركة عربية إسلامية محضة، لكن ما لبث أن دخل فيها الكثير من غير العرب، وبخاصة من سكان أراضي الأمبراطورية الفارسية المنهارة، وجاء هذا الدخول، في كثير من المناسبات، نوعاً من أنواع المعارضة الأعجمية للعروبة والإسلام[6].

ومنذ أن تولى معاوية بن أبي سفيان مقاليد الخلافة، نظَّم الشيعة صفوفهم

---

(١) الطبري: جـ ٣ ص ١٩٣، ٢٢٧ ـ ٢٤٠. زكار: جـ ١ ص ٣٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤١٥، ٤٢٧. (٣) المصدر نفسه. ص ١٤٣.
(٤) زكار: جـ ١ ص ٤١.
(٥) انظر: صبحي، أحمد محمود: نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية ص ١٧٣ ـ ٢٥٧.
(٦) زكار: جـ ١ ص ٤٢.

ضمن حركة معادية للنظام الأموي بقيادة الحسن بن علي بن أبي طالب. ولكن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، ثم مقتل الحسين في كربلاء في (١٠ محرم ٦١هـ/ تشرين الأول ٦٨٠م)[١] الذي سيعيد استشهاده ما تميز به المذهب الشيعي من صلابة، دفع محمد بن الحنفية[٢] بن علي بن أبي طالب إلى المطالبة بالإمامة.

وعلى الرغم من اختلاف الآراء حول بداية التشيع العلوي[٣] إلا أن الفِرَق التي تندرج تحت اسم الشيعة، قد بدأ ظهورها بعقائدها عقب حادثة كربلاء، وتُعدُّ الفرقة الكيسانية[٤] أولى الفِرق التي ظهرت في التيار العام للحركة، وكان مذهب التشيع قبل ذلك مطلباً سياسياً لا غير.

واجتمع الشيعة المعتدلون حول أبناء فاطمة، وراحوا يعملون بحذر بما جاءت به السنَّة، في حين التفَّ المتطرفون حول محمد بن الحنفية. ومنذ ذلك الوقت بدأت الانقسامات بين صفوف الشيعة حتى أضحى تاريخهم، تاريخ الانقسامات والانشقاقات المتنامية، وقد كادت أن تكون متماثلة تارة، ومتناقضة طوراً. وهو أيضاً تاريخ الهزائم والرفض والتقية، والاختفاء والظهور، وانفجارات الإيمان الشديدة، والقمع العنيف[٥].

وعانت فئات في حركة التشيع، في الوقت نفسه، من تسرُّب الكثير من الأفكار والعقائد الغريبة إليها، مما أدَّى إلى مزيد من التمزق والانقسام. فظهرت فِرَق جديدة تطور بعضها إلى ثورات آلت إلى الإخفاق والفشل والدمار، بفعل وعي الأمويين وملاحقتهم لهم. والواقع أن التنكيل الأموي لم يوجَّه ضد آل البيت الهاشمي في الأساس، بل ضد حركات متطرفة أظهرت عداءً واضحاً أو باطنياً للعروبة والإسلام[٦].

وضعفت الحركة الشيعية بعامة، بسبب الانقسامات التي نشبت بين أتباع النزعة الفاطمية الخالصة من الحسنين والحسينيين، وبين أتباع محمد بن الحنفية، مما مكَّن الأمويين من القضاء على ثورة المختار الثقفي.

والواقع أن ثورة المختار اتسمت بمحتواها الديني والعقائدي، فنادى بفكرة

---

(١) انظر تفاصيل معركة كربلاء في الطبري: جـ ٥ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠، ٤٠٠.
(٢) أمه خولة، وكانت جارية من قبيلة أبي حنيفة.
(٣) انظر: صبحي: ص ٢٨ ـ ٥١.
(٤) الفرقة الكيسانية نسبة إلى أبي عمرو كيسان، قائد الموالي خلال ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي، أو إلى اسم المختار ذاته الذي ربما لُقِّب بكيسان.
(٥) الطالبي: ص ٦٣٦.
(٦) زكار: جـ ١ ص ٤٣.

المهدي المنتظر في شخص محمد بن الحنفية، الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً، فأطلق عليه لقب المهدي، وبايعه بالإمامة، كما استخدم فكرة البداء لتغيير آرائه عند الضرورة[١].

والحقيقة أن عقيدة المخلِّص، بابلية قديمة، نبعت من عبادة مردوخ، كبير الآلهة عند البابليين، والعقيدة الزروانية[٢]، وتفاعلت مع الغنوصية[٣] وبقية عقائد بلاد الرافدين، وقد تأثر بها اليهود أثناء السبي البابلي ثم تطورت مع النصرانية. ولم يعرف العرب قبل الإسلام ولا المسلمون في صدر الإسلام، هذه العقيدة حتى كانت حادثة كربلاء حيث جرى تطويرها إلى ملحمة قائمة على عقيدة الفداء[٤]. وقد عظم حجم المادة المتعلقة بالمهدي في القرن الثاني الهجري إثر نجاح الثورة العباسية، وتطورت فكرة الإمامة، وامتزجت بفكرة المهدي وبالعقائد التي تعلَّقت بشخصية المخلص والفداء[٥].

وبايع أتباع محمد بن الحنفية، بعد وفاته في عام (٨٠هـ/ ٦٩٩م) ابنه أبا هاشم بالإمامة، وأسهموا، إلى حد كبير، في تولِّي بني العباس السلطة. واستغل العباسيون الخلافات داخل صفوف الشيعة، وأقنعوا أبا هاشم بالاعتراف بحقهم في الإمامة، وذلك في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ـ ٧١٧م). وأنكر جعفر الصادق هذا التنازل، وكان من رأيه أن الإمامة تسير في خط الحسين بن علي بن أبي طالب دون أخويه الحسن ومحمد بن الحنفية. والواضح أن العباسيين وصلوا إلى السلطة عن طريق شرعية الثورة وحق الميراث[٦].

وتوفي أبو هاشم في عام (٩٨هـ/ ٧١٦م) دون أن يعقب، فاستغل العباسيون هذه الفرصة واندمجوا في الشيعة الكيسانية. وعمل محمد بن علي بن عبد الله

---

(١) الإمام أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ ٣ ص ١١٨. عيسى، رياض: الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ص ١٨٨.

(٢) الزروانية: إحدى الفرق الدينية المجوسية التي تعتمد على الثنوية. وتُنسب إلى زروان الذي يمثل الخير أو النور. انظر: الشهرستاني، محمد عبد الكريم: الملل والنحل جـ ٢ ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) الغنوصية: كلمة يونانية الأصل معناها المعرفة، غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحياً هو التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، فلا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية. وعدَّ الغنوصيون عقيدتهم أقدم عقيدة في الوجود. ويعتمد مذهبهم على الثنائية بين الله والمادة. وظهر أثر الغنوصية في الأديان الثنوية الفارسية المتأخرة. انظر: النشار، علي سامي: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٩.

(٤) زكار: جـ ١ ص ٤٧ ـ ٤٨. صبحي: ص ٣٩٨ ـ ٤٢٦.

(٥) زكار: المرجع نفسه.

(٦) المرجع نفسه: ص ٥٨.

العباسي على تحويل الحق الوراثي لصالحه بوصفه أكبر القوم سناً من الفريقين الهاشميين والمتكلم باسمهم، دون أن ينازعه أحد أو يشك في نواياه[١].

واستطاع بنو العباس إسقاط بني أمية والاستيلاء على الحكم على حساب المطالبين بالإمامة من الشيعة. وفَقَدَ الكيسانية وفروعهم الاتجاه الثوري، وزالوا عملياً عن مسرح الأحداث. وتحول المدُّ المذهبي الشيعي إلى اتجاه آخر تمثَّل بذرية الحسين الذين عُرفوا حتى ذلك الوقت باعتدالهم، وكانوا بقيادة جعفر الصادق الإمام الخامس لجده الحسين، في حين نحا الشيعة من ذرية الحسن منحى تصاعدياً عندما وجدوا أنفسهم، كغيرهم من الشيعة، مُبعدين عن الخلافة. وانتهت المحاولة التي قاموا بها بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ضد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م) نهاية مفجعة[٢]. وعزَّزت هزيمتهم صفوف الحسينيين الملتفين حول جعفر الصادق الذي استطاع، بفضل مهارته السياسية، اتقاء غضب المنصور، وأبقى الحركة الشيعية في حال ترقب، وتأسست حوله فرقة الشيعة الإمامية، وتوفي في عام (١٤٨هـ/ ٧٦٥م).

دخلت الحركة الشيعية مع أتباع جعفر الصادق منعرجاً حاسماً في تاريخها تمثَّل في انقسامها إلى قسمين، بفعل نظرية الحق الوراثي عند الشيعة، هما الإمامية الإثني عشرية[٣]، والإسماعيلية[٤] وربما كان للتوجهات السياسية، المغلَّفة بإطار ديني، دور في هذا الانقسام، إذ أن أتباع إسماعيل أرادوا المحافظة على مكتسباتهم السياسية نتيجة تأييدهم لإسماعيل، فساندوا ابنه محمد، كما دخل الفرس على الخط السياسي مستغلين هذا الانقسام ليوجهوا الحركة الإسماعيلية لصالحهم. وتشير أغلب المصادر إلى أن جعفر الصادق عيَّن ابنه إسماعيل خلفاً له بطريق النص، وهو الإمام السادس. غير أن إسماعيل توفي في حياة أبيه، فحوَّلت الفرقة، التي عُرفت فيما بعد بالإثني عشرية، الإمامة إلى موسى الكاظم، الابن الثاني لجعفر الصادق، وهو الإمام السابع في سلسلة الأئمة الإثني عشرية، في حين استمرت الفرقة الثانية

---

(١) ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٠٧ ـ ١٠٨. ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ١٤٣.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٥٩٦، ٦٤٦ ـ ٦٤٧.

(٣) سموا بذلك لأنهم اعترفوا باثني عشر إماماً كان آخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) ولن يظهر إلا في صورة مهدي آخر الزمان.

(٤) نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

على موقفها بالقول بإمامة إسماعيل، وتعدُّ البداية الأولى للحركة الإسماعيلية، وانقسمت بدورها إلى طائفتين. أنكرت الطائفة الأولى وفاة إسماعيل في حياة أبيه، وأكَّدت أنه الإمام الحقيقي بعده، وأنه سيعود كمهدي قائم، وحجتها في ذلك أن والده أعلن وفاته تقية لحمايته، وكتم أمره خوفاً على سلامته، وعُرفت هذه الطائفة بالإسماعيلية الخالصة والإسماعيلية الواقفة[١]. واعتقدت الطائفة الثانية بوفاة إسماعيل في حياة أبيه، واعترفت بإمامة ابنه محمد، إماماً سابعاً، وترى أن جعفر الصادق عيَّنه بنفسه مكان أبيه، وحجتها عدم جواز نقل الإمامة من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين، ولا تكون إلا في الأعقاب[٢].

ونادى الشيعة الإسماعيليون بنظرية الاستقرار والاستيداع بعد أن قام النزاع بينهم وبين الموسوية أتباع موسى الكاظم. فالإمام المستقر هو الذي يورِّث الإمامة من بعده، لأنها تستقر فيه، فهو إمام حقيقي. أما المستودع فيظل إماماً طيلة حياته فقط ولا يحق له نقل الإمامة إلى أبنائه من بعده، لأنه إمام مستودع فحسب ولا تستقر الإمامة فيه. وبناءً عليه يكون موسى الكاظم بن جعفر الصادق إماماً مستودعاً، أما أخوه إسماعيل فهو الإمام المستقر، وتنتقل الإمامة منه إلى ولده[٣].

نشأت الحركة الإسماعيلية كحركة اجتماعية، فلسفية وسياسية معاً، غير أن المرحلة المبكرة من تاريخها يكتنفها الغموض، وتمتد من عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م) إلى عام (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) وهو تاريخ قيام الدولة الفاطمية في إفريقية. ولعل السبب الأبرز في ذلك هو ندرة المعلومات عن التشيع العلوي خلال العصر العباسي الأول، عندما لجأت غالبية الفِرق الشيعية إلى التقية والعمل السري، في بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية، تجنباً لغضب ونقمة العباسيين. وتميزت نهاية هذه المدة بتوقف نشاط الإمامية الإثني عشرية في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) بفعل اختفاء الإمام الثاني عشر، وتوافق هذا التاريخ مع انطلاق نشاط الدعاة الإسماعيليين الذين أضحوا يتحمَّلون، دون سواهم، مهمة إذكاء الجذوة الحسينية، وتنبؤوا جميعاً بظهور المهدي في القريب العاجل، ودعوا الناس إلى القتال باسمه وتحت رايته[٤].

---

(١) الشهرستاني: جـ ١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار، السبع الرابع ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٣) انظر، فيما يتعلق بنظرية الاستقرار والاستيداع: لويس، برنارد، أصول الإسماعيلية. حسن، إبراهيم حسن وشرف، طه أحمد: عبيد الله المهدي: ص ٧٧ ـ ٩١.

(٤) الطالبي: ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣.

أصل الفاطميين[1]

تمهيد

إن لقب الفاطميين، الذي عُرف به خلفاء عبيد الله[2] المهدي، يدل، للوهلة الأولى، على أنهم من أولاد علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت النبي محمد ﷺ، فهم علويون. على أن قضية نسب الأسرة الفاطمية، كان ولا يزال، موضوعاً لم يتفق المؤرخون، لا في الماضي ولا في الحاضر، على رأي واحد فيه، وذلك بفعل واقعين:

الأول: التباين السياسي والمذهبي الذي ساد بين المسلمين بعد وفاة النبي.

الثاني: امتناع الفاطميين، مدة من الزمن، عن إعلان أنسابهم، بالإضافة إلى تعمُّدهم إخفاء أسماء أئمتهم من محمد بن إسماعيل حتى عبيد الله المهدي في المدة التي اتخذوا فيها مبدأ ستر الإمام.

وذهب كل مصدر مذهباً خاصاً في تحديد اسم ونسب عبيد الله المهدي قبل أن يكون مهدياً، وبعد أن صار كذلك. فبعض المصادر تنفي عنه النسب العلوي، وتعزوه

---

(١) يمكن للقارىء أن يطالع نسب الفاطميين، سواء من وجهة نظر المنكرين أو من وجهة نظر المؤيدين، وما يُثار حول ذلك من قضايا معقدة، لم يصل الباحثون فيها إلى نتائج موحدة في الأعمال التالية:
ابن النديم: الفهرست ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣. البغدادي، عبد القاهر بن طاهر: الفرق بين الفرق ص ٦٢ ـ ٦٣، ٢٥٥، ٢٨٢ ـ ٢٨٣. ابن ظافر، جمال الدين علي: أخبار الدول المنقطعة: ص ١، ٢٦ ـ ٢٧. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٣ ص ٨٢. ابن عذارى: جـ ١ ص ١٥٨. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٨٠ ـ ٥٨١. ابن فهد، النجم عمر بن محمد بن محمد المكي: نسب الخلفاء الفاطميين. تقديم حسين فيض الله الهمذاني. الداعي المطلق عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار، السبع الرابع ص٣٦٣ ـ ٤٠٤. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا جـ ١ ص ٢٢ ـ ٥٤. ابن أيبك الدواداري، أبو بكر عبد الله: كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٦ ص ١٤٦ ـ ١٤٧. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٣١. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٢٨ ص٦٣ ـ ٧٦. عنان، محمد عبد الله: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص ٤٧ ـ ٧٦. سيد، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ص٣٢ ـ ٣٩. حسن، حسن إبراهيم وشرف، طه أحمد: عبيد الله المهدي ص ١٤٤ ـ ١٦٩. لويس، برنارد: أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة.
Stern, S.M: Fatimid Decrees. London 1964.
Ivanov, V: - The Alleged Founder of Ismailism.
- The Rise of the Fatimids.
دي غويه، ميكال يان: القرامطة. ترجمة حسني زيني ص ١٥ ـ ٣٠.

(٢) عبيد الله تصغير عبد الله.

إلى الفرس أو المجوس، وتصفه أحياناً بأنه ابن يهودي، وترجع نسبه إلى ميمون القداح الفارسي الأصل. وهي وإن اختلفت في تحديد اسمه قبل استلامه رئاسة الدعوة الفاطمية، إلا أنها تتفق على أن اسمه بعد أن أصبح رئيساً للفاطميين هو عبيد الله، وعلى هذا الأساس دعت هذه المصادر الدولة الفاطمية باسم «الدولة العبيدية». وفي المقابل، تؤكد مصادر أخرى، معظمها شيعية، صحة نسب عبيد الله المهدي، وترجعه إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. ويواجه المؤرخ المعاصر صعوبات جمة لإدراك الحقيقة من خلال مصادر غزيرة بقدر ما هي متناقضة.

رأي المنكرين لنسب الفاطميين إلى علي وفاطمة

وفقاً لما ذكره إيڤانوف في بحثه عن تراث الإسماعيلية المتعلق بظهور الفاطميين، فإن اسم الفاطميين هو الذي أطلق على الإسماعيلية في بداية الأمر[(١)]. ويذكر الطبري أن بدو بني الأصبغ في بادية الشام، اتخذوا هذ الاسم تحت زعامة القرمطي الإسماعيلي يحيى بن زكرويه[(٢)]. ويمكن أن نلمس أصول الحركة الفاطمية التي أوصلت الفاطميين إلى السلطة في إفريقية بزعامة عبيد الله المهدي، في أصول العقائد الشيعية الإسماعيلية التي تمثل في الوقت نفسه أبعاداً سياسية وفلسفية ودينية واجتماعية، والتي يتوقع معتنقوها ظهور المهدي المنتظر من سلالة النبي محمد ﷺ من خلال علي وفاطمة مروراً بفرع إسماعيل بن جعفر الصادق»[(٣)].

والواضح أن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي توفي في حياة أبيه، كان أوسع نشاطاً من إخوته، وأعظمهم تأثيراً في بناء العمل السياسي للشيعة الإسماعيليين، واتبع مبدأ التقية، فعمل في خفاء تام، وأحسن اختيار دعاته وبخاصة محمد بن أبي زينب مِقلس الأجدع الأسدي المعروف بأبي الخطاب[(٤)]، الذي ادَّعى أن جعفر الصادق جعله قيِّماً ووصياً على ابنه. ووضع إسماعيل بمساعدته أسس المذهب الإسماعيلي، وهو أول من تصوَّر الإمامة الشيعية على أنها سيادة العالم الإسلامي،

---

(١) Ivanov: The Rise of the Fatimids PP 233 - 258.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: جـ ١٠ ص ٩٥.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٢٥ ص ٧٧٣٥. مركز الشارقة للإبداع الفكري. ط ١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

(٤) أبو الخطاب، هو من موالي بني أسد. كان مقرباً من محمد الباقر وجعفر الصادق، وظل أحد أتباعهما المخلصين حتى تبرَّأ منه جعفر الصادق بفعل آرائه المتطرفة والغالية. انظر: البغدادي ص ٢٥٥. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل جـ ٢ ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

أي أنه حوَّل الإمامة إلى معنى سياسي شبيه بالخلافة، ووضع الخطط السرية للوصول إلى الحكم[١].

وضبط محمد بن إسماعيل المذهب، ونظَّم الدعوة في عهد الخلفاء العباسيين، المهدي (١٥٨ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ـ ٧٨٥م) والهادي، وبداية عهد هارون الرشيد بمساعدة حجته ميمون القداح الديصاني الثنوي المذهب، الذي أسلم أو أظهر الإسلام مدفوعاً بعاملين، سياسي يتمثل في إعادة النفوذ إلى الفرس عن طريق الشيعة، وديني يهدف إلى هدم الدين الإسلامي عن طريق الفلسفة اليونانية وانتسب إلى الدعوة الإسماعيلية، وأضحى من كبار الدعاة. ويرجع الإسماعيليون نسبه إلى سلمان الفارسي[٢]. وطوَّر أسس المذهب، ووضع الخطط التي أوصلت الفاطميين إلى الحكم، ويُذكر أن ميمون القداح كان أحد تلامذة الفلسفة اليونانية، فاستغل التعاليم الأرسطاليسية والأفلاطونية، لوضع التعاليم الإسلامية في قالب جديد، وأسَّس حركة سرية لإحاطة الأئمة بستار كثيف[٣].

ويبدو أن الإقامة في المدينة أضحت مستحيلة بعد حملة الاعتقالات التي نفَّذها هارون الرشيد، فغادر محمد بن إسماعيل إلى فرغانة ثم نيسابور، وتزوج هناك، وأنجب ابنه عبد الله الرضي الذي تولى الإمامة من بعده، ونصَّب له حجباً وأمرهم بأن يتسموا باسمه للتستر عليه.

وخلف ميمون القداح بعد وفاته ابنه عبد الله، وكان حجة للإمام عبد الله الرضي بن محمد بن إسماعيل. فتابع عمل أبيه، واستطاع أن يجمع معظم الفرق العلوية المنقسمة على نفسها في جبهة واحدة، وضمَّ إلى جماعته كل العناصر الساخطة على العباسيين ليشكل منهم جماعة تُخلص لإسماعيل بن جعفر، مدفوعاً بكره بالغ للعرب، ثم نقل مقر الدعوة والإمام عبد الله الرضي وابنه أحمد إلى الأهواز[٤]. وعندما انتقل الإمام إلى سلمية[٥] في أواخر عهد الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ـ ٢١٨هـ/

(١) نصوص من كتاب التراتيب، لداعية إسماعيلي قديم: تحقيق سهيل زكار في كتابه الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٨٧.

(٢) فياض، نبيل: الطائفة الإسماعيلية جسر يربط الدين بالعقل. مجلة الموسم العددان ٤٣ و ٤٤، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ص ١٥٢.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الأهواز: اسم لكورة كبيرة بين البصرة وفارس. الحموي جـ ١ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦.

(٥) سلمية: بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين، وكانت تعد من أعمال حمص. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٢٤٠.

٨١٣ ـ ٨٣٣م)، خشية من ملاحقة العباسيين له، ظلَّ حجته عبد الله القداح يقيم في الأهواز تستراً عليه، ثم لحق به إلى سلمية التي أضحت مركز الدعوة الإسماعيلية.

اشتهر لعبد الله القداح ثلاثة أولاد هم أحمد والحسين وعلي، اعتمد عليهم في نشر الدعوة الإسماعيلية. فجعل ابنه الحسين في سلمية مع الإمام الحسين بن أحمد لزيادة التستر عليه. وكان أحمد الملقب بأبي الشلعلع مسؤولاً عن الدعوة في العراق والأهواز، فادَّعى أنه من نسل عقيل بن أبي طالب لاستقطاب الشيعة، وكان قد أحكم النسب في البصرة[1]. واختص الابن الثالث علي بنشر الدعوة في خراسان ونهايته مجهولة.

وعندما مات الحسين بن عبد الله القداحي في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م)، عهد أبوه عبد الله إلى ابنه أحمد برئاسة الدعوة في سلمية بالإضافة إلى العراق، ثم انتقلت إليه رئاسة الدعوة بعد وفاة أبيه في عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م)، وأصبح وصياً على ابن أخيه سعيد بن الحسين الذي تقلَّد وظيفة الحجة أو نائب الإمام عقب وفاة عمه أحمد في عام (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)، ولم يكن قد تجاوز العشرين من العمر، فأظهر إخلاصاً وتفانياً للمذهب الإسماعيلي، ولذلك كان موضع ثقة زعيمه الإمام المستور الذي قلَّده إمامة الإسماعيلية استيداعاً لا استقراراً، واتخذ اسم عبد الله، وادعى أنه من السلالة الشيعية، وأنه المهدي، وهو عبيد الله أول الحكام الفاطميين في إفريقية[2].

هذه رواية المصادر التي نسبت الفاطميين إلى القداحية، وأنكرت نسبهم إلى علي وفاطمة، وهي مستقاة من رواية أبي عبد الله محمد بن علي بن رزَّام الطائي الكوفي في ردِّه على الإسماعيلية في أواخر القرن الرابع الهجري، في أيام العزيز الفاطمي، التي تقف هذه الرواية عند ذكره. وقد نقلها ابن النديم في كتابه الفهرست، وكان معاصراً لابن رزّام، وأخذها عنه من جاء بعده من المؤرخين.

وهناك اعتراف صريح من شخص علوي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، هو الشريف أبو الحسين محمد بن علي بن الحسين المعروف بأخي محسن، ينفي فيه نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة، ويذكر أن مذهب الإسماعيلية لم يكن سوى غش لعبد الله بن ميمون القداح الذي استهدف، بفضل تعليم خفي تدريبي في سبع درجات، القضاء على الإسلام، ويُعدُّ محور الحركة التي ظهرت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[3].

---

(١) ابن النديم: ص ٢٣٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) النويري: جـ ٢٨ ص ٧٢ ـ ٧٣. ابن أيبك: جـ ٦ ص ٦ ـ ٢١.

رأي المؤيدين لنسب الفاطميين إلى علي وفاطمة

إذا كانت المصادر التي تُنكر نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة على هذا الشكل من وضوح الرؤية، فإن المصادر المؤيدة لهذا النسب يكتنفها الغموض والاختلاف والاضطراب، وهي ليست واحدة دائماً. إذ يوجد اختلاف في أسماء الأئمة، من ذلك أن اسم والد عبيد الله المهدي غير متفق عليه بين هذه المصادر. فثمة رواية واحدة تذكر أنه ابن أحمد وليس ابن الحسين، بل إن عبيد الله المهدي يظهر أحياناً بوصفه علي بن الحسين. ففي الرسالة التي أرسلها عبيد الله المهدي إلى اليمن، والتي كشف فيها النقاب عن نسب الفاطميين، وذكر أسماء الأئمة المستورين، يقدم لنا النسب الفاطمي بصورة مغايرة لما قدَّمه التراث الإسماعيلي المتعلق بأنساب الفاطميين[1]، فيذكر أن جدَّه الأعلى هو عبد الله أخو إسماعيل الأكبر، وأن جعفر الصادق عيَّن عبد الله وليس إسماعيل وريثاً شرعياً له. إذ أن جعفر الصادق خلَّف أربعة أولاد هم عبد الله وإسماعيل وموسى ومحمد، وصاحب الحق فيهم عبد الله، ولما أراد هؤلاء إظهار دعوة الحق خشوا من اضطهاد العباسيين، فتسمَّوا بغير أسمائهم، فكانوا يحملون ألقاباً، وأحياناً أسماء حركية تخفي حقيقتهم، وأطلقوا على أنفسهم ألقاب: مبارك وميمون وسعيد، وهي إشارة واضحة إلى مبدأ التقية عند الشيعة. فلقب ميمون الذي أُطلق على أحد أولاد جعفر الصادق هو الذي قاد إلى هذا الخلط. وقد أدرك الداعي المطلق إدريس عماد الدين خطورة هذا الخلط فعلَّل الأمر بقوله: «وكان الدعاة أيام الأئمة المستورين منذ استتار الإمام محمد بن إسماعيل، يسمونهم بغير أسمائهم، ويختلفون في الأسماء إخفاءً لأمر الله، وستراً لأوليائه لتغلُّب الأضداد، وقوة أهل العناد، لذلك وقع الاختلاف في الأئمة المستورين، وكثر خوض الخائضين وقول القائلين»[2]. وعليه فإن تسلسل الأئمة كالآتي: عبد الله بن جعفر الصادق، ثم عبد الله بن عبد الله، ثم أحمد بن عبد الله، ثم محمد بن أحمد، وتسمى كل واحد من هؤلاء بمحمد لأن المهدي سيكون محمد بن إسماعيل فكان كلما قام فيهم إمام تسمى بمحمد باستثناء عبد الله بن جعفر، فقد

---

(١) انظر نص الرسالة في كتاب نسب الخلفاء الفاطميين، أسماء الأئمة المستورين، كما وردت في كتاب أرسله عبيد الله المهدي إلى ناحية اليمن، لابن فهد، النجم عمر بن محمد بن محمد المكي، تقديم حسين فيض الله الهمذاني.

(٢) عيون الأخبار: السبع الرابع ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

تسمى بإسماعيل، إلى أن يظهر صاحب الظهور الذي هو محمد بن إسماعيل، فتزول التقية.

ويشير جعفر بن منصور اليمن الذي حفظ هذه الرسالة، أن الإمام محمد بن أحمد أوصى إلى ابن أخيه، وأعطاه باختيار الله، أمره كله، وتسمَّى بسعيد بن الحسين وصارت إليه الدعوة زماناً. فلما آن وقت الظهور، أظهر مقامه، وأظهر اسم عبيد الله وظهر معه كذلك أبو القاسم محمد (القائم) «فصحَّت الإشارة إلى القائم بن المهدي محمد بن عبيد الله أبي القاسم الإمام المنتظر لعز دولة الدين والجهاد برايات المؤمنين»[١].

وعندما نسب المهدي نفسه في الرسالة قال: «والولي علي بن الحسين بن علي بن أحمد بن عبد الله، بن عبد الله ثانية، بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب... واسمه الظاهر عبد الله بن محمد لأنه ابن محمد بن أحمد في الباطن، وعليه يكون محمد أبا المهدي الباطن ليس مثل المهدي بن إسماعيل[٢].

ويتوافق ذلك مع ما جاء في بعض كتب الأنساب والفِرق، فيذكر ابن حزم أن ولاة مصر الآن قد ادَّعوا، في أول أمرهم، إلى عبد الله بن جعفر بن محمد، فلما صحَّ عندهم أن عبد الله لم يعقب إلا ابنة واحدة اسمها فاطمة، تركوه وانتموا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد[٣].

ويذكر النوبختي والقمي أن عبد الله لم يخلف أولاداً، ولكن الثاني يذكر في مكان آخر أن عبد الله وُلد له ولدٌ من أم ولد اسمه محمد، وأنه أرسله إلى جهة اليمن، وانتقل بعد وفاة والده إلى خراسان، وأنه الإمام بعد أبيه، وهو القائم[٤].

ويذكر الداعي المطلق إدريس عماد الدين أن الإمام عبد الله الرضي بن محمد بن إسماعيل استخلف أخاه الحسين مكانه، وأمر أتباعه بطاعته، غير أن الحسين قُتل في حياة أخيه، فعهد إلى ابنه أحمد بالإمامة، وهو الإمام التقي أحمد بن عبد الله الذي رُزق بولد سماه الحسين، وهو الإمام الذكي ووالد المهدي. ولما شعر الإمام الحسين بدنو أجله، عيَّن أخاه محمداً الملقب بسعيد الخير وصياً على ابنه الإمام المهدي. وأراد سعيد الخير أن يجعل الإمامة في عقبه، ويحولها عن الإمام المهدي، لكنه فشل في ذلك[٥].

---

(١) نسب الفاطميين: ص ١٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠ ـ ١١.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ص ٥٩.

(٤) النوبختي: فرق الشيعة: ص ٦٥ ـ ٦٦. القمي: المقالات ص ٨٧ ـ ٨٨، ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٥) عيون الأخبار: ص ٣٦٣ ـ ٤٠٤.

واستناداً إلى كتاب التراتيب فإن أسماء الأئمة تختلف عن غيرها مما جاء في غالبية المصادر الإسماعيلية وغير الإسماعيلية، فذكر أن إسماعيل ستر على نفسه حجاباً لِعظم الفترة وتغلب الضد. وانتسب الإمام الحق بعد إسماعيل إلى ابن أخيه، وهو محمد. ولما حضرته الوفاة، سلَّم هذا الأمر إلى ولده الرضي، وهو أول الأئمة المستورين، فقام أحمد بالإمامة، وكان حجابه الذي احتجب به، وسِتْره الذي سَتَرَه، والذي نصَّبه وأقامه مقامه، ميمون القداح، وأمره الإمام أن يأخذ العهد لنفسه، يعني لميمون القداح، ففعل ما أمره به الإمام، ولم يزل قائماً بالأمر إلى أن توفي أحمد، فسلَّم الإمامة إلى ابنه محمد، وأمر عبد الله بن ميمون القداح أن يقوم مقامه، ويأخذ العهد لنفسه كفعل أبيه، فلم يزل قائماً بالأمر حتى توفي محمد، فسلَّم الأمر إلى ابنه أحمد، فعيَّن أحمد أخاه إماماً مستودعاً، على أن يقوم مقام ولده محمد المهدي ويكون حجاباً له، فقام المهدي بالإمامة، وقام عمه بالخلافة. وحاول هذا العم أن يحوِّل الإمامة إلى أولاده ففشل في ذلك[1].

وهناك أمر آخر غير مؤكد فيما يتعلق بصلة القرابة بين عبيد الله المهدي، وبين القائم الذي خلفه في الحكم. فقد يكون القائم ليس ابناً لعبيد الله المهدي، مع أن الأخير كان يعدُّه ابنا له من الناحية الرسمية. وكان تصرفه تجاهه عندما دخل رقّادة، يشير إلى أنه يعدُّه المهدي المنتظر، فقد عامله بتوقير شديد، ورفع مقامه عن مقامه هو شخصياً[2].

ففي حين تؤكد كتب الظاهر الموجهة للعامة أن الحاكم الفاطمي الثاني القائم هو ابن عبيد الله المهدي، تنفي بعض النصوص الباطنية الموجهة للخاصة، والمطلعين على الأسرار، بنوته إلى عبيد الله المهدي، وتنسب الأخير إلى أصل غير علوي بل ميموني[3]. وعليه، كان دور عبيد الله المهدي حمل الوديعة (الإمامة) ليردها إلى القائم بن الحسين بن أحمد، وبالتالي يكون عبيد الله المهدي الوحيد الذي لا ينتسب إلى علي بن أبي طالب، يؤكد ذلك انتفاض قرامطة السواد برئاسة حمدان بن قرمط على عبيد الله المهدي لأنه دعا إلى نفسه دون الأئمة المستورين، مما اضطره إلى الهرب إلى السلمية. ويستوقفنا في هذا الصدد أنه بعد تقلُّد عبيد الله

---

(١) كتاب التراتيب: جـ ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٢٥ ص ٧٣٨. Ivanov: Rise PP. 31, 37, 140.

(٣) لويس، برنارد: أصول الإسماعيلية ص ٣٣، ٣٧.

المهدي زمام السلطة، أثار أبو عبد الله الداعي الشك حول حقه في الإمامة، مع العلم بأنه كان من أكبر المناصرين له والمساهمين في وصوله إلى الحكم[1].

وثمة صعوبة أخرى نشأت عن التناقض بين النسب الرسمي والنسب الذي يربط الفاطميين بميمون القداح. وقد قام برنارد لويس بحل هذا التناقض الظاهري اعتماداً على النظرة الروحية أو التفسير الباطني، وذلك باعتماده على المقارنة بين المصادر الإسماعيلية. ويرتكز هذا الحل على مبدأ البنوة الروحية ونظرية الإمام المستقر والمستودع. واستناداً إلى رأي لويس، ظهرت بعد وفاة إسماعيل إمامة حقيقية في ذرية الحسين، وإمامة بالوصاية في أعقاب عائلة القداح. تبتدىء الإمامة الأولى مع محمد بن إسماعيل وتفضي إلى القائم، في حين تبتدىء الإمامة الثانية مع عبد الله بن ميمون القداح وتفضي إلى عبيد الله المهدي، على أن الإمام المستقر هو المؤهل لنقل الإمامة إلى ابنه الذي يحجبه الإمام المستودع إلى أن يأتي اليوم الذي يسلمها فيه إليه[2]. وبناءً على ذلك فإن عبيد الله المهدي، الذي هو الإمام المستودع، لم يكن سوى الوصي والأب الروحي للقائم الذي هو الإمام المستقر، وقد سلَّمه عبيد الله المهدي الإمامة المستودعة لديه. فالحاكم الأول المكشوف والإمام الفاطمي الشرعي هو القائم بأمر الله، أما عبيد الله المهدي، مستودعه، فهو ينتمي إلى أسرة القداح[3].

وأيد المعز نظرية الإمام المستقر والمستودع في تعليقه على كتاب وجهه إليه أحد الدعاة، ذكر فيه «أن الإمامة انتقلت عن بعض الأئمة إلى ميمون القداح، وإلى فلان، وإلى فلان، لقوم ذكرهم من أفناء الناس»، فدُهش المعز من هذا القول، وقال: «إذا كان ذلك كذلك فقد انقطع السبب، ونعوذ بالله، من أيدينا، فصار أخذنا لما أخذناه من الفضل من قِبَل غيرنا، وصاروا أحق به منا، ولن يجعل الله ذلك عند الضرورة عند من جعله في يديه من أهل البيت من غير الأعقاب المتصلة (ذرية الحسين) إلا مستودعاً عندهم غير مستقر فيهم إلى أن يستحق ذلك مستحقه فيأخذه من أيديهم.... فليس المستقر كالمستودع، ولا الوكيل كالموكل، ولا الوصي كالموصى له. فإذا كان هذا هكذا في أهل البيت الأقربين فكيف ينبغي أن يقطع

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذا الموضوع: حسن وشرف، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٢) أصول الإسماعيلية: ص ٣٣ وما بعدها وص ١٦٠ ـ ١٦٣.

(٣) المرجع نفسه. الدشراوي: ص ٦٧.

القول فيه بأنه قد سار بالحقيقة إلى الأبعدين كالذين ذكرهم من ميمون القداح وغيره؟» ثم قال: «نعم إن صاحب الحق لهو الميمون المبارك السعيد قادح زناد الحق، ومورى نور الحكمة، فإن ذهب من ذهب إلى هذا فنعم»[١].

ويمكن القول بأن المعز بتمييزه بين المستقر والمستودع، قد نقض الفكرة القائلة بأن الإمامة يمكن أن تكون قد انتقلت بصورة شرعية إلى فرع من فروع أهل البيت من غير الفرع الحسيني، وبالتالي إلى عائلة القداح، ولكن بإشارته إلى ميمون القداح أو المبارك مولى الإمام إسماعيل أو سعيد الذي قد يكون المهدي ذاته أو عمه سعيد الخير، قد التجأ إلى تأويل رمزي تابع لعلم الباطن. والواقع أن النص يقيم الدليل على أن الشك في نسب الفاطميين الذي كان قائماً منذ أواخر القرن التاسع الميلادي، لم يكن حكراً على الأوساط السنية، بل شمل أيضاً بعض الدعاة الإسماعيليين[٢].

ونقض إيڤانوف نظرية برنارد لويس، وقال إنها وُضعت في أيام الأئمة المكشوفين لتبرير انتقال الإمامة بالوراثة. وعلى هذا الأساس فإن الحكام الفاطميين، بما في ذلك عبيد الله المهدي، ينتمون إلى نسب علوي صحيح[٣]، ومع ذلك لم تستطع آراؤه إزالة التناقضات التي ظلت موجودة في النصوص الإسماعيلية[٤].

تعقيب على نسب الفاطميين

ومن وجهة النظر التاريخية التي تهمنا في هذه القضية عن أصل الفاطميين، نجد أن العباسيين والأمويين في الأندلس ينكرون النسب العلوي للفاطميين، علماً بأنهم لم ينكروا قط شرعية غيرهم من العلويين كأمراء طبرستان في المشرق، وأمراء فاس من الأدارسة في المغرب الأقصى. ولا يميل المؤرخون السنة بشكل عام للفاطميين، إذ لا نكاد نجد بينهم، باستثناء ابن خلدون والمقريزي، من يُقرُّ بصحة نسبهم العلوي، ومع ذلك، فإن الحجج التي ساقها هذان المؤرخان، مبني معظمها على مرتكزات عاطفية[٥].

---

(١) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ص ٣٧٥ ـ ٣٧٧.

(٢) الدشراوي: ص ٧٠.

(٣) Rise: PP 31, 37, 140.

(٤) الدشراوي: ص ٦٨.

(٥) تاريخ ابن خلدون: جـ ٤ ص ٣١. اتعاظ الحنفا: جـ ١ ص ٥٢ ـ ٥٣.

ولا بد لنا من التساؤل، بعد هذا العرض السريع للأراء المختلفة حول تحديد اسم ونسب عبيد الله المهدي، وبالتالي الفاطميين، وعن الترتيب الفعلي لتعاقب الأئمة خلال مرحلة الستر الطويلة التي امتدت قرناً ونصف، هل خرجت الإمامة فعلاً من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب لتنتقل إلى أسرة ميمون القداح؟، وهل ينتمي عبيد الله المهدي، أول الحكام الفاطميين، فعلاً إلى سلالة علي بن أبي طالب أم هو من أعقاب القداح؟. ويذكر في هذا الصدد أن الحكام الفاطميين تكتموا حول نسبهم باستثناء عبيد الله المهدي، ولم يحاولوا الرد على الحملات التي شنَّها عليهم أعداؤهم، حتى أن الحاكم الفاطمي الرابع المعز عندما دخل مصر ولقيه أشرافها وسألوه عن نسبه اكتفى بأن سلَّ نصف سيفه وقال: «هذا نسبي، ونثر عليهم دنانير وقال هذا حسبي»[1]. وإذا كان المعز أحرص من أن يقضي على اعتقاد آله في حقهم في الخلافة، فالراجح أن ذلك حصل في مقابلة سرية خاصة مع وجوه الشيعة في مصر[2]، وربما يكون قد وُجد شخصان أحدهما ينتمي فعلاً إلى أسرة محمد بن إسماعيل ويقوم بالدعوة لنفسه، والآخر يحمل الاسم نفسه وينتمي إلى الأسرة القداحية، ويعمل لنفسه ويترقب نشاط الأول كي يستغله في الوقت المناسب.

ومهما يكن من أمر، فإننا لا نود أن نذهب بعيداً في تقدير أهمية نسب الفاطميين، لأن النسب مسألة تشريف، وسواء أكان هؤلاء من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق ومن ثَمَّ من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة بنت النبي، أو كانت نسبتهم ترجع إلى عبد الله بن ميمون القداح، فإن ذلك لا ينقص من شأن أعمالهم السياسية والحضارية التي غذَّت مرحلة تاريخية هامة امتدت على مدى أكثر من قرنين ونصف القرن.

الرواد الأوائل

أبو سفيان الحسن بن القاسم ـ عبد الله بن علي بن أحمد، المشهور بالحلواني

كان شمال إفريقية أرضاً صالحة لنصرة المذهب الإسماعيلي، ذلك أن التشيع العلوي تركَّز منذ نشأته في الشرق، وظهر في بيئة الكوفة المتعددة الأجناس، وانتشر بين الموالي، ثم انتقل إلى الغرب بعد الملاحقات التي تعرَّض لها الشيعة من قبل

(١) ابن ظافر: ص ٢٧ ـ ٢٨. ابن خلكان: جـ ٣ ص ٨٢. ابن أيبك: جـ ٦ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) دي غويه: ص ١٥ ـ ١٦.

العباسيين، وكانوا جميعاً من فرع الحسن بن علي بن أبي طالب، وتمركزوا في شمال إفريقية في الأراضي التي ضعفت فيها السيطرة العباسية، ونشروا التعاليم المشتركة للمذهب الشيعي ومآثر العلويين مما أدَّى إلى انتشار هذا المذهب بين البربر الذين أدُّوا دور الموالي من الفرس في المشرق، على الرغم من وجود فوارق كبرى بين الفئتين في طبيعة دعمهما للعلويين بعامة، وفي مؤسساتهما ومنظماتهما، وفي أهدافهما وعقائدهما.

وربما كان العطف على آل البيت، والاعتقاد في فضائلهم، كبيراً في المغرب من أي مكان آخر، وقد أتاح للأدارسة السيطرة على المغرب الأقصى بدون مشقة وتأسيس دولة الأدارسة. كما اشتمل المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، باستثناء الأراضي التابعة لإمام تاهرت، على إمارات شيعية بلغ عددها تسع إمارات[١]، مما هيأ التربة الجيدة لزرع وتنمية الدعوة الشيعية. لكن المذهب الإسماعيلي دخل إلى إفريقية بصورة أكثر تنظيماً وسرية قبل نحو مائة وخمسة وثلاثين عاماً من قدوم أبي عبد الله الداعي[٢] وذلك في أواسط القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وتركَّز في ديار القبيلة البربرية كتامة في المغرب الأوسط، التي عرفت بأنها أكثر القبائل عدداً وأصعبها مراساً، إذ كانت تسكن جبل أوراس الوعر في جنوب إفريقية، وهي البلاد الممتدة من طرابلس الغرب إلى طنجة.

مرَّت الدعوة الإسماعيلية، في بداية انطلاقتها، بمرحلتين، مرحلة الإعداد العقائدي النظري، وتولاها إثنان هما أبو سفيان الحسن بن القاسم وعبد الله بن علي بن أحمد، المشهور بالحلواني، ومرحلة الدور العملي وقامت على أكتاف الداعي أبي عبد الله المحتسب المشهور بالشيعي الصنعاني.

ففيما يتعلق بالمرحلة الأولى، فقد بعثت القيادة في المشرق أبا سفيان والحلواني إلى شمال إفريقية في عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م)، وأمرتهما بأن:

- يبسطا ظاهر علم الأئمة، وينشرا فضلهم.
- يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر.
- لا يعملا في منطقة واحدة[٣].

---

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: كتاب البلدان ص ٣٥١ ـ ٣٥٢، ٣٥٦.

(٢) القاضي النعمان بن محمد: رسالة افتتاح الدعوة ص ٥٤.

(٣) المصدر نفسه. هناك ظاهرة ملفتة، ذلك أن عام ١٤٥ هـ كان مناسبة لإرسال الدعاة إلى المغرب =

والراجح أن جعفر الصادق هو الذي أرسلهما وزودهما بهذه التعليمات[1].

استقر أبو سفيان في قرية زراعية في ضاحية مرماجنَّة[2] يقال لها تالة، وتقع إلى الشمال الغربي من مدينة تونس الحالية، وتشغل مركزاً تجارياً هاماً، فابتنى فيها مسجداً وتزوج بامرأة واشترى عبداً وأمة، وعاش حياة مثالية زاهدة، واشتهر بالفضل والعبادة والذكر، مما لفت إليه الأنظار، فهرع إليه سكان المناطق المجاورة، يسمعون فضائل أهل البيت منه، ويأخذونها عنه. ودعا إلى الإمام الرضى من آل البيت، وبشَّر بقرب ظهوره ونعته بالمهدي المنتظر، وأضحت مرماجنَّة، بتأثيره، دار هجرة للشيعة. وبفضل موقع المدينة التجاري، استقطب السفياني التجار وأدخلهم في دعوته التي انتقلت بعد ذلك إلى مدينة نفطة[3]، وكثر فيها التشيع حتى غدت تُعرف باسم الكوفة الصغرى[4]، ثم انتشر المذهب الشيعي في الأربس شمالاً. وتوفي السفياني قبل وصول الداعي أبي عبد الله.

وتوغل الحلواني، في أرض البربر، بعد أن فارق السفياني عند مرماجنَّة، واستقر في الناظور[5] قرب سوجمار[6]، جنوب شرقي قسطيلية. وتُكوِّن تلك الجهات المشارف الخارجية لأرض كتامة البربرية، أقوى قبائل تلك الناحية. وسلك نهج السفياني، فاشتهر ذكره، وأقبل الناس عليه، وتشيَّع كثير منهم على يده وبخاصة من كتامة ونفزة وسماتة، وكان يقول لهم: «بُعثت أنا وأبو سفيان، فقيل لنا: اذهبا إلى المغرب فإنكما تأتيان أرضاً بوراً فاحرثاها وأكرباها[7]

= ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه توثبات العلويين في المشرق كان من بينها انتفاضة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، في المدينة والبصرة.

(1) الطالبي: ص ٦٥٦.

(2) مرماجنَّة: قرية بإفريقية لهوارة، قبيلة من البربر، بينها وبين الأربس مرحلة. الحموي: جـ ٥ ص ١٠٩.

(3) نفطة: مدينة بإفريقية من أعمال الزاب الكبير وأهلها شراة أباضية، بينها وبين قفصة مرحلتان. المصدر نفسه: ص ٢٩٦.

(4) البكري: ص ٥٧.

(5) الناظور: حصن في جبال بجاية المنيعة. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٧٦.

(6) أصاب التحريف هذا الاسم في المصادر. فهو في الكامل جـ ٦ ص ٥٨٣ سوق حمار، وكذلك في العبر لابن خلدون جـ ٣ ص ٣٦١، وفي العبر أيضاً جـ ٤ ص ٣١ صوف جمار. وفي حاشية الاتعاظ جـ ١ ص ٤١ سوق حماد. وقد حافظت نسخ الافتتاح على شكل سو جمار. ولم تحدد أي من المصادر المتوفرة موقعها. وانظر رأياً للطالبي، محمد: الدولة الأغلبية ص ٦٥٤ حاشية رقم ١.

(7) كرب الأرض: حرثها.

وذلّلاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة، فيبذر حبَّه فيها»[1]. وعاش الحلواني دهراً طويلاً، ومات في الناظور تاركاً ابنته أم موسى وعدداً من الأفراد من معارفه، عاش بعضهم طويلاً وحضروا وصول الداعي أبي عبد الله[2].

ولا شك بأن نشاط هذين الداعيين قد مهَّد السبيل أمام من جاء بعدهما ليقطف الثمار. ويبدو من خلال النص الذي حدَّد مهمتهما الإيحاء بأن المهمة التي أوكلت إلى الداعي أبي عبد الله بعد ذلك لم تكن سوى تتويج لمرحلة سبقت، خُطط لها بدقة قبل مائة وخمسة وثلاثين عاماً، وأن أبا سفيان والحلواني لم يقوما بدعوة بالمعنى المعروف في الاصطلاح الإسماعيلي، وإنما قاما بشيء أبسط تمثَّل في نشرهما محبة آل البيت وفضلهم الذي صاحبه الأصول العامة للمذهب الإسماعيلي وهو الذي أطلق عليه القاضي النعمان «ظاهر علم الأئمة». فيكون هذان الرجلان رائدين للتسلل العلوي الإسماعيلي، وهيَّئا التربة للداعي الإسماعيلي أبي عبد الله[3].

أبو عبد الله الحسين بن أحمد الداعي، المعروف بالشيعي

هو صاحب المرحلة الثانية للدعوة الإسماعيلية في المغرب، وانتقلت على يديه من الإعداد النظري إلى الدور العملي المادي لبناء دولة آل البيت. كان رجلاً صوفياً جاراً لأبي علي، الداعي في الكوفة، وتُعَدُّ هذه المدينة مهد الحركة الشيعية، ومركز تخريج الدعاة الذين انتشروا في جميع أنحاء العالم الإسلامي للتعريف بقضية آل البيت. فليس بدعاً أن يكون أبو عبد الله الداعي أحد الذين تخرَّجوا من هذه المدينة. ووصفه القاضي النعمان بقوله: «وكان ذا علم وعقل ودين وورع، وأمانة ونزاهة، أضاف أكثر علم الباطن، ونظر في علم الظاهر لم يبالغ فيه»[4]، وعُرِف بالمعلِّم، لأنه كان يعلِّم مذهب الإمامية الباطنية، وسمي بالمحتسب لأنه عمل محتسباً في سوق الغزل في البصرة، وعُرِف أيضاً بالصوفي لأنه كان يلبس الثياب الخشنة. كان على شيء من الذكاء والمهارة، استغلهما في الوصول إلى ما يريد[5]. أرسلته القيادة في سلمية إلى اليمن ليتدرَّب على يد الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان، أبرز الدعاة، فاستقبله، وقرَّبه منه، وكان قد تعرَّف عليه في الكوفة.

---

(١) القاضي النعمان: ص ٥٧ ـ ٥٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٨.
(٣) الطالبي: ص ٦٥٥ ـ ٦٥٦.
(٤) القاضي النعمان: ص ٥٩.
(٥) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٣١، ٦٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥١.

ولم تمضِ أكثر من سنة، حتى انضم أبو عبد الله إلى قافلة الحجاج اليمنيين، وخرج معهم إلى مكة[١] في عام (٢٧٩هـ/ ٨٩٣م). ذلك أن رؤساء الدعوة الإسماعيلية اتفقوا بعد مشاورات مستفيضة وتبادل الرسائل، على إرساله إلى المغرب لمتابعة العمل بعد وفاة أبي سفيان والحلواني، والاستيلاء على الحكم بمساعدة قبيلة كتامة.

وصل أبو عبد الله إلى مكة، واجتمع بحجاج كتامة في منى. وكانت الجماعة الكتامية تضمُّ شخصين ينتميان إلى بطن كبير من بطون كتامة هما حريث الجميلي وموسى بن مكارم[٢]، اللذين اعتنقا المذهب الشيعي بتأثير الحلواني، ودار حديث مطول بين الطرفين حول فضائل علي وبنيه. وتكرَّرت اللقاءات، وتزايد إعجاب الكتاميين بصديقهم الجديد الذي استقطبهم بالتأثير النفسي والإقناع والاستهواء.

ولما انتهى موسم الحج، واستعدوا للرحيل، سألوه عن وجهته، فذكر لهم مصر، فطلبوا منه الانضمام إليهم، واستقى منهم، أثناء الرحلة، بعض المعلومات المتعلقة بوضعهم السياسي والاجتماعي، وكل ما من شأنه أن يفيد مهمته، ولم يكشف لهم عن نواياه ودوافعه الحقيقية[٣]، بل كان يجتهد في تضليلهم.

ولما وصلوا إلى مصر، تظاهر بأنه يريد الإقامة فيها لتعاطي مهنة التعليم، فاقترحوا عليه أن يسير معهم إلى بلادهم ليعلِّم أبناءهم، ووعدوه بمساندته، ومنحه مزايا أكثر ملاءمة، فاعتذر ببُعد المسافة، ووعدهم باقتفاء أثرهم إن خابت آماله في الحصول على عمل كمؤدب في الكتَّاب، وكان ذلك دهاء منه لحفزهم على التمسك به مبرهناً عن حنكة سياسية، فغاب عنهم بعض الوقت ثم قال لهم: «لم أجد بهذه البلاد ما أريد»[٤]، فتمنوا عليه أن يصحبهم إلى بلدهم.

والواقع أنه خلال هذه الغيبة، التي كانت ضرورية لتقديم نتائج الاستطلاع الأول، وطلب تأكيد جديد لمهمته. فاتصل بنائب الإمام، وبعد أن قدم تقريره حصل على تأكيد لمهمته.

اغتبط الكتاميون بانتداب مثل هذا المعلِّم، وأحاطوه بكثير من التبجيل

---

(١) القاضي النعمان: ص ٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ٦٣. ابن خلدون: جـ ٤، ص: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) القاضي النعمان المصدر نفسه: ص ٦٤ ـ ٦٦. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٥.

(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٢٥.

والرعاية. ثم استأنفوا رحلتهم حتى وصلوا إلى سوجمار، فاستُقبلوا فيها بالترحاب. واجتمع حريث وموسى بعدد من الشيعة من أهل تلك البلدة، التي لا تزال تعاليم الحلواني حيَّة فيها، كان من بينهم أبو حيون بن المقش وأبو القاسم الوَرْفجُّومي، وأبو عبد الله محمد بن حمدون بن سماك الأندلسي(١).

وبعد أن استراحت القافلة في سوجمار استأنفت رحلتها باتجاه بلاد كتامة، وانضمَّ إليها كل من الوَرْفجُّومي والأندلسي، ووصلت إلى المنطقة يوم الخميس في (١٥ ربيع الأول ٢٨٠هـ/ شهر حزيران ٨٩٣م)(٢). ووقع اختيار أبي عبد الله على قلعة صغيرة يقال لها إيكجان، تقع في فج الأخيار قرب قسنطينة وتقيم بها قبيلة سكتان التي ينتمي إليها حريث وموسى(٣).

بدأ أبو عبد الله مهمته في ظروف ملائمة. كان عليه خلق مجتمع متماسك يستند إلى بنية سياسية متينة، لينطلق منه لنشر دعوته في البلاد. وتبيَّن له، بنظره الثاقب، أن الدين هو المدخل الذي يكفل له حشد الناس من حوله، فاتخذه قاعدة له، ومكَّن لنفسه في كتامة عن طريق الجلوس لتعليمه في المجتمع البربري. ويبدو أن أول ما قام به هو الاستفادة من جهود الدعاة الذين سبقوه، ولعله قام بإعادة تنظيم جهاز الدعوة، وأعدَّ الدعاة الجدد عقائدياً وعسكرياً، وبنى صداقات مع زعماء القبائل من خلال التعليم الذي اقتصر في البداية على أبناء شيوخ القبائل. ولا شك بأن الأفكار التي طُرحت كانت بسيطة تعلَّقت بحق آل البيت بالإمامة ثم بفكرة المهدي وقرب ظهوره، وشروط طاعته المطلقة، والإيمان به، وتقديسه. واجتهد أن لا يستعرض، في بادىء الأمر، من المذهب الذي كان يسعى إلى نشره سوى جانبه الظاهر، فأقبل عليه الناس والتفَّت حوله المجموعة الأولى التي ضمَّت عدداً من المريدين الذين سيساعدونه على الاضطلاع بمهمته، وسيكونون أخلص المساندين له، وهم هارون بن يونس، والحسن بن هارون، وأبو يوسف ماكنون بن ضبارة، وابن أخيه أبو زاكي تمام بن معارك، بالإضافة إلى حريث الجميلي وموسى بن مكارم وأبي عبد الله الأندلسي وأبي القاسم الوَرْفجُّومي(٤)، وسمَّاهم الإخوان أو المؤمنين،

---

(١) القاضي النعمان: ص ٦٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٨٤.
(٣) القاضي النعمان: ص ٧١ ـ ٧٣. وإيكجان: جبل بقرب سطيف، على مرحلة ونصف من بجاية، وبه قبائل كتامة، وبه حصن حصين ومعقل منيع. انظر: وصف إفريقية الشمالية والصحراوية للإدريسي مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ٦٣، ٧٠.
(٤) الدشراوي: ص ٨٩ ـ ٩٠.

كناية عن أنهم قبلوا الدعوة الإسماعيلية، ودخلت في قلوبهم. أما هو فإنه كان ينادى عليه «يا أخانا».

وأحرز أبو عبد الله من النجاح ما جعل شهرته تتعدى إيكجان وتازروت[1]. ويبدو أنه لقي معارضة داخلية، من قِبَل بعض زعماء القبائل الذين خشوا على سلطانهم ونفوذهم، إلا أنهم لم يشكِّلوا أي عقبة جدِّية في مسيرة الدعوة، ومعارضة دينية من قبل بعض المعجبين به. ذلك أن كلامه عن فضائل علي، وكشفه عن عقيدته الشيعية، فاجأ نفراً ممن كانوا قد أعجبوا به، وظنوه مجرد رجل صالح يدعو للدين والخير. وبدأ هؤلاء يستعرضون ما قاله لهم قبل ذلك. فقال له حريث الجميلي: «ما أطول سفرنا معك ونحن في غفلة عن مثل هذا منك»[2].

وهكذا أثارت دعوته ردود فعل مختلفة، لدى الكتاميين، لأن الدخول في الدعوة لم يبلغ آنذاك درجة الإجماع.

والواقع أن المجتمع الذي أقامه أبو عبد الله لم يكن مهدِّداً للنظام السياسي فقط، بل كان أيضاً مهدِّداً للنظام القبلي السائد بين كتامة وغيرها من قبائل البربر. ذلك أن هذا المجتمع يضع سلطة جديدة فوق سلطة مشايخ القبائل، مما يهدِّد سلطتهم، كما أنه يقسم ولاء الفرد بين قبيلته ومجتمعه الجديد، بالإضافة إلى أنه يحوِّل المصالح القبلية إلى مصالح عامة تنصرف إلى غير قبيلة داخل المجتمع الشيعي. من هنا كان الصدام بين مختلف بطون كتامة، المناوئة والموالية، منتظراً، وزادت احتمالاته إثر الصدام السياسي بين أبي عبد الله وأمير إفريقية الأغلبي.

أما في الخارج، ومع اتساع نطاق الدعوة وتكاثر عدد المنضوين إليها، كان من الطبيعي أن تتولد ردود فعل عنيفة لدى بعض أصحاب السلطان في بلاد كتامة، ولدى صاحب إفريقية. وعند هذه المرحلة بلغت مهمة الداعي أبي عبد الله الروحية ذروة الحسم، وأصبحت مقرونة بمهمة دنيوية خالصة. ذلك أنه لم يعد فحسب الزعيم الديني للمجموعة التي اجتهد في تكوينها في إيكجان، بل أصبح على أهبة التحول إلى زعيم سياسي يدعو بني سكتان إلى التمرد على صاحب ميلة[3]، ويسعى إلى بعث حركة ثورية في بلاد كتامة ضد السلطة الأغلبية[4].

---

(١) تازروت: من أعمال سجلماسة.

(٢) القاضي النعمان: ص ٧٣.

(٣) ميلة: مدينة صغيرة بأقصى إفريقية بينها وبين بجاية ثلاثة أيام. الحموي: جـ ٥ ص ٢٤٤.

(٤) الدشراوي: ص ٩٢.

وقف إبراهيم الثاني الأغلبي عاجزاً عن مقاومة هذه الحركة، فتظاهر بعدم الاكتراث، ذلك أنه لم يكن أي شيء يدعو آنذاك إلى العجلة، إذ أن الداعي لم يتمكَّن بعد من تحقيق إجماع الكتاميين حوله، ولم يقل رؤساء القبائل الكتامية كلمتهم الحاسمة، كما أن حصون ميلة وسطيف[1] وبلزمة[2] لا تزال في أيدي العائلات العربية الموالية للسلطة المركزية[3]. وقد أبدى بمواقفه هذه قصر نظر في الحقل السياسي، حين قلَّل من الخطر الإسماعيلي الداهم، كما أخطأ حين ترك لخصمه الوقت الكافي لتنظيم صفوفه، وإخضاع زعماء القبائل المناهضين له، واستمالة الكتاميين، واكتساب القدرة على اقتحام الحصون المجاورة والتصدي للجيوش الموجهة ضده.

والحقيقة أن الدولة الأغلبية، كانت تعاني آنذاك، من اضطرابات داخلية جعلتها عاجزة عن التصدي للقوة الإسماعيلية. وكانت إفريقية قد فَقَدت، إثر ثورة الجند في بلزمة، الحامية التميمية التي كانت تقف في وجه الكتاميين، وكانت قد قضت، منذ مدة قليلة، على الثورات التي اجتاحت قمودة[4]، والأربس، وباجة، وأرغمت إبراهيم الثاني على الاعتصام برقّادة مع حرسه الأسود.

وفي السنوات التالية، التي كان فيها الداعي يوسِّع سلطته، كان الأمير الأغلبي منهمكاً بقمع التمرد الذي قام به أعراب تونس، وقد أرسلوا بمطالبهم إلى بغداد. وردَّاً على الإنذارات التي وجهها إليه الخليفة العباسي المعتضد، زحف إبراهيم الثاني على طرابلس لقتل ابن عمه الذي عيَّنه الخليفة العباسي أميراً على إفريقية. ثم وجَّه ابنه الياس لقمع الثورات التي اندلعت في نفوسة في عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، وفي بسكرة[5]، وفي صقلية في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)[6].

وقد يئس زعماء القبائل وحكام المدن من تصرف إبراهيم بن الأغلب السلبي، ولاحظوا عجزه عن مقاومة المد الإسماعيلي، وتأكدوا من أنه لن يستطيع مساعدتهم

(١) سطيف: مدينة كثيرة الخير تقارب ميلة والمسيلة. ابن حوقل ص ٩٣.
(٢) بلزمة: تقع إلى الجنوب من سطيف على مرحلتين منها بالقرب من قسنطينة. المصدر نفسه: ص ٩١ ـ ٩٢.
(٣) الدشراوي: ص ٩٩.
(٤) قمودة: إقليم بتونس يقع إلى الشمال الشرقي من جبل سيدي عيش، وتقع قفصة على حدوده. ويُصحَّف هذا الاسم إلى حمودة وإلى قبودة. انظر: ابن حوقل ص ٩٢. الحموي: جـ ٤ ص ٣٠٨.
(٥) بسكرة: بلدة بالمغرب من نواحي الزاب، بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتان. الحموي: جـ ١ ص ٤٢٢.
(٦) الدشراوي: ص ٩٨ ـ ٩٩.

إذا تعرضوا لخطر الهجوم عليهم من قِبل أنصار الدعوة الجديدة، لذلك تنادوا إلى عقد حلف فيما بينهم، وحاولوا شق صفوف أبي عبد الله الداعي لإضعافه، ثم قرروا استعمال القوة للقضاء عليه، لكنهم انهزموا في اللقاء الذي حصل في وادي النجاة شرقي الجبل بالقرب من غابة تاكوت[1] أمام جموع المؤمنين بالدعوة الجديدة، ومع ذلك لم ييأسوا من تفريق بني سكتان، واستمالوا بيان بن صقلان، أحد زعماء سكتان، مثيرين فيه روح الحمية البربرية لمقاومة هذا الدخيل المشرقي، وفعلاً أضحى أبو عبد الله وجماعته في موقف حرج، فقرر مغادرة إيكجان إلى تازروت ليتجنَّب خطر انقسام بني سكتان. وبتخلِّي الجماعة البربرية العلوية عن أبي عبد الله في مركز الدعوة بإيكجان، دخلت دعوته في مرحلة مضطربة ستؤول به إلى إخضاع القبائل المناهضة بالقوة.

انفجر الصراع بين الأغالبة والداعي أبي عبد لله بسبب موقف حاكم مدينة ميلة من الدعوة الإسماعيلية في أرض كتامة. وكانت ميلة تحت حكم موسى بن عياش، وقد اشتهر بعدائه لأبي عبد الله الداعي، خشية على مركزه، وشارك في جميع المؤامرات التي استهدفت التخلص منه. وتشكل ميلة حضوراً عربياً في قلب بلاد كتامة[2]، لذلك كانت أول عائق أمام انطلاق الدعوة إلى الخارج، يجب تذليلها، فشنَّ عليها الداعي حرباً وانتصر على جيشها، واستسلمت المدينة إثر ذلك في (شهر ذي القعدة ٢٨٩هـ/ شهر تشرين الأول ٩٠٢م)، فدخلها وولَّى عليها أبا يوسُف ماكنون بن ضبارة الأجاني، وانصرف بعد ذلك إلى تازروت[3].

وهكذا، سقطت أول مدينة أغلبية محصَّنة في يد الداعي. وكان لهذه الحادثة أثر سيء في نفس الأمير الأغلبي عبد الله الثاني الذي خلف إبراهيم الثاني، وصمَّم على استعادتها فجهَّز جيشاً، من أجل هذه الغاية، تعداده إثنا عشر ألف مقاتل، وعيَّن ابنه محمد، المعروف بأبي حوال، على قيادته. واصطدم محمد بقوات الداعي في بلدة ملوسة[4] وهزمها. انسحب أبو عبد الله بعد الهزيمة مع أتباعه إلى إيكجان تاركاً تازروت تحت رحمة الأغالبة الذين أحرقوها وهدموا قصر أبي عبد الله. ومضى محمد إلى ميلة ودخلها أيضاً، وكان سكانها قد ارتحلوا عنها إلى إيكجان[5].

---

(١) تاكوت: نوع من الشجر ذو علك كعلك الصنوبر.

(٢) الطالبي: ص ٧٠٦.

(٣) القاضي النعمان: ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٤) ملوسة: تقع شمال غربي تازروت.

(٥) القاضي النعمان: ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

لم يبادر محمد بالزحف على إيكجان، التي كان من الصعب عليه الوصول إليها، وذلك بفعل:

- موقعها الجبلي الوعر.
- رداءة الأحوال الجوية التي عرقلت جهوده العسكرية، وبخاصة أن النشاط العسكري حصل في شهري كانون الثاني وشباط.
تعرضه لمشاكل داخلية صدَّعت صفوف قواته، تمثلت بوفاة إبراهيم الثاني وسيطرة زيادة الله الثالث على الحكم.
- عدم تماسك جيشه الذي تجمَّع معظمه بواسطة الحشد، كما افتقر عديده إلى الخبرة بفنون القتال.

وعاد إلى تونس، واضعاً حداً لحملته. استغل أبو عبد الله التراجع الأغلبي، فاستعاد ميلة، واستقر في إيكجان التي حلَّت محل تازروت كعاصمة له ولجماعته.

لم يركن الأغالبة إلى الهدوء، وهم يرون تزايد خطر أبي عبد الله. فأعدَّ الأمير عبد الله الثاني جيشاً، عهد بقيادته إلى أبي حوال، وأرسله للاصطدام بقوة أبي عبد الله. نزل أبو حوال في ملوسة، وخرج أبو عبد الله من إيكجان ونزل بـ «تاسدق» من بلد لهيصة. واشتبك الطرفان في رحى معركة قاسية في (شهر رجب ٢٩٠هـ/ شهر حزيران ٩٠٣م) حالف النصر فيها أبا عبد الله، وتراجع الجيش الأغلبي بعد الهزيمة إلى سطيف[(١)].

ويبدو أن الأحداث التي استجدت في تونس آنذاك، والتي نتج عنها مقتل عبد الله الثاني في شهر (شعبان/ تموز)، وتسلم زيادة الله الثالث الحكم، قد أثَّرت على معنويات أبي حوال، كما جاءه كتاب من أخيه الأمير يأمره بالعودة إلى إفريقية، فتسلم أبو حوال الكتاب وهو يحارب أبا عبد الله، فأوقف القتال فوراً وانسحب من المنطقة وعاد إلى إفريقية[(٢)].

انتهى عام (٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) في ظل هدوء حذر واستعدادات من كلا الطرفين. ففي الوقت الذي كان فيه أبو عبد الله يعيد تنظيم صفوف قواته بانتظار استئناف القتال، كان زيادة الله الثالث منهمكاً في تركيز سلطته. وما إن انتهى فصل الشتاء حتى استأنف الداعي عملياته العسكرية، وتمكَّن من الاستيلاء على سطيف في (أوائل عام

---

(١) القاضي النعمان: ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

٢٩١هـ/ أوخر عام ٩٠٣م)، وهي أقرب مدينة محصَّنة من إيكجان بعد ميلة، وكانت مدينة معرقلة لتحركاته العسكرية، وتمثل قاعدة لقوات العدو[١].

جاء رد فعل الأغالبة سريعاً على سقوط سطيف، فجهَّز زيادة الله الثالث جيشاً جراراً بلغ تعداده أربعين ألف مقاتل بقيادة إبراهيم بن حبشي، ودفعه للاصطدام بأبي عبد الله، لكنه مني بهزيمة منكرة على يد الكتاميين في كبونة، أفقدته هيبته، فاستغل أبو عبد الله هذا الانتصار واستولى على طُبنة[٢] في (آخر شهر ذي الحجة عام ٢٩٣هـ/ شهر تشرين الأول عام ٩٠٦م)[٣] التي تمثل قاعدة الزاب، وتُعدُّ من أغنى وأكبر المدن الأغلبية بعد القيروان، وعيَّن عليها عاملاً شيعياً هو يحيى بن سليمان[٤]، كما فتح بلزمة[٥].

وبسقوط هاتين المدينتين، يكون الكتاميون قد نجحوا في فتح ثغرة في الحصون الغربية التي تحمي إفريقية، ولم يبقَ منها سوى حصن باغاية[٦]، بين جبال قسنطينة وأوراس في الطريق إلى داخل البلاد، ولا بد أن يهاجموه، لذلك اتخذ زيادة الله الثالث الاحتياطات اللازمة للدفاع عن هذا الحصن، فجهَّز جيشاً بلغ تعداده إثنا عشر ألف مقاتل بقيادة هارون الطبني، وأرسله في عام (٢٩٤هـ/ ٩٠٦م) ليعسكر في باغاية، وهاجم أثناء زحفه دار ملول، وهي بلدة صغيرة تقع على بُعد مرحلة من طبنة، وتضم حصناً يحمي المنطقة، وكان سكانها قد دخلوا في طاعة أبي عبد الله، فقتلهم وهدم الحصن[٧]، ثم اصطدم بقوة عسكرية كتامية في مكان يدعى فحص الرياح، الواقع في شمال جبل أوراس، وتعرض لهزيمة قاسية قبل أن يُقتل مع عدد كبير من قادته وجنوده، واستولى أبو عبد الله على تيجس الواقعة شمال شرقي بلزمة[٨].

نتيجة لهذه الانتصارات المتوالية، قرَّر زيادة الله الثالث الخروج بنفسه لمحاربة الداعي، فجهَّز جيشاً آخر، وخرج على رأسه إلى الأربس ليقضي فصل الشتاء في انتظار الزحف على بلاد كتامة، وذلك في (مطلع عام ٢٩٥هـ/ تشرين الأول عام

---

(١) القاضي النعمان: ص ١٥٤ ـ ١٥٦.
(٢) طبنة: بلد في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب. الحموي جـ ٤ ص ٢١.
(٣) القاضي النعمان: ص ١٥٦ ـ ١٦٣ حيث تفاصيل وافية.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٦٣.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٦) باغاية: مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجّانة وقسنطينة. الحموي: جـ ١ ص ٣٢٥.
(٧) القاضي النعمان: ص ١٦٥ ـ ١٦٧.
(٨) المصدر نفسه: ص ١٦٧ ـ ١٧٠.

٩٠٧م)، لكنه عدل عن الاستمرار في ترؤُّس الجيش بنفسه، وعهد بالقيادة إلى ابن عمه إبراهيم بن الأغلب، وأمره بمراقبة تحركات العدو والدفاع عن إفريقية، وعاد هو إلى رقَّادة يراقب تطور الأوضاع[١].

وما لبثت الأنباء السيئة أن وردت على رقَّادة معلنة استيلاء الكتاميين على باغاية[٢] ومهاجمتهم مجانة ونواحيها في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م)، وتقويضهم خط الدفاع الأغلبي الذي كان يحمي الإمارة الأغلبية من بربر الغرب، وأضحى الطريق مفتوحاً إلى رقَّادة، ولم يبقَ سوى تذليل العقبة الأخيرة المتمثلة في وجود الجيش الأغلبي في الأربس. وبعد ثلاث محاولات نجح أبو عبد الله من كسب معركة الأربس ودخل المدينة عنوة[٣]. وكانت هزيمة الأغالبة هذه المرة قاصمة.

وصلت أخبار الهزيمة إلى زيادة الله الثالث، فأدرك أن نهايَته قد حانت، وقرَّر الهرب إلى المشرق، واستولى الهلع على رجاله الذين تخلفوا في رقَّادة والقصر القديم، والتجأ أهل بيته وكبار رجال دولته، وأصحاب الدواوين والموالي والعبيد، الذين لم يرافقوه، إلى القيروان وسوسة، وبعض المدن الأخرى[٤].

وحاول إبراهيم بن الأغلب، في هذه الفوضى، انتشال الدولة الأغلبية إلا أنه فشل، فهرب إلى القيروان والتحق بزيادة الله الثالث[٥].

وصلت أخبار هروب زيادة الله الثالث، وما حصل في دولته من الفوضى، إلى مسامع أبي عبد الله، فتحرك على وجه السرعة باتجاه القيروان ورقّادة واستولى عليهما[٦]، وأبطل ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة. وبهذا زالت الدولة الأغلبية وبالتالي سلطة العباسيين الاسمية والفعلية عن هذه البلاد ودخلت إفريقية في مرحلة جديدة من تاريخها.

إجراءات أبي عبد الله الداعي التنظيمية[٧]

التفت أبو عبد الله الداعي، بعد النجاح الذي حقَّقه، إلى العمل على إصلاح الوضع المتردِّي الناشيء عن انهيار الدولة الأغلبية، فحرص على إقامة نظام سياسي جديد، وإضفاء الصبغة الشيعية على مؤسسات الدولة الجديدة، وتركيز السلطة في

---

(١) القاضي النعمان: ص ١٧٨ ـ ١٨١.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٨١ ـ ١٨٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٠١ ـ ٢٠٥.
(٤) الدشراوي: ص ١٥٧.
(٥) القاضي النعمان: ص ٢٠٩ ـ ٢١١.
(٦) المصدر نفسه: ص ٢١٢ ـ ٢١٤. ابن عذارى: جـ ١ ص ١٤٩.
(٧) انظر الفصل ٣٤ من كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان.

يده، بغض النظر عما يخالج نفوس أهل إفريقية السنة من خشية، فاتخذ عدة تدابير سياسية وإدارية مناسبة منها:

- أمَّن كافة سكان المدن والقرى، وأقرَّ عدة إجراءات لتهدئة وتأمين كل خائف كان يتولى منصباً في الدولة الأغلبية، بالإضافة إلى من بقي من أهل بيت زيادة الله الثالث وعبيده ومواليه وموالي أبيه، ومن كان يتصل بأسبابهم، فاطمأن هؤلاء، وظهروا، واتصلوا برجاله، ودخلوا في خدمته، ولكنه أعدم بعض عبيد الأمير الأغلبي.
- وجَّه غزوية إلى سوسة لتأمين أهلها واسترداد المال المخزون في قصر الرباط.
- أوصى دعاته الكتاميين باستعمال الإقناع مع أهل السنَّة، وعارض اللجوء إلى الإكراه الذي كان ينادي به أخوه أبو العباس.
- عاش حياة متواضعة، متقشفة، بعيدة عن أبهة الملك، حتى أنه كان يقوم ليسلِّم على من يدخل عليه.
- لم يكترث بما تركه بنو الأغلب من ثروات طائلة، فأمر بجمع ما ظهر من أموال زيادة الله الثالث وعبيده وسلاحه ودوابه ومن بقي له من الجواري، ووضعهم تحت وصاية امرأة كانت عند الأمير الأغلبي إلى أن يأتي المهدي صاحب الحق.
- استعمل عاملاً شيعياً من وجوه أهل ميلة، على القيروان، هو الحسن بن أبي خنزير، وعيَّن أخاه حبيب على القصر القديم، وأسند منصب قاضي القضاة، إلى فقيه قيرواني من جند خراسان «له تشيع قديم» هو محمد بن عمر المرْورَّوذي.
- عيَّن خطيباً في جامع رقَّادة وخطيباً في جامع القيروان، وأمر بأن تتضمَّن الخطبة الصلاة على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين علي وعلى الحسن والحسين، وعلى فاطمة الزهراء، وأن يزاد في الأذان عبارة حي على خير العمل.
- ضرب السكة وولَّى عليها الفيلسوف المعروف بابن القمودي، وهو موظف أغلبي سابق، ونقش العلامات الشيعية على شعارات السيادة، كما تضمَّنت الأفكار الواردة في إعلانات الأمان، العلامات المتشبعة بالعقيدة الشيعية.

رحلة عبيد الله المهدي إلى إفريقية ـ قيام الدولة الفاطمية

حدثت، في منتصف القرن الثاني الهجري، تطورات سياسية دفعت عبيد الله المهدي إلى مغادرة مركز الدعوة في سلمية، لعل أهمها:

- انقسام الحركة الإسماعيلية، وانشقاقها على نفسها بفعل بعض التغييرات التنظيمية، وقد أدَّت إلى مهاجة القرامطة مركز الدعوة في سلمية.

- كَشْف شخصية المهدي من قِبَل العباسيين، فخشي على نفسه، وأدرك استحالة بقائه في سلمية، وقرَّر الخروج منها.
- إن رواج الدعوة الإسماعيلية الواسع في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، آذن بقرب زوال عهد سيادة السلمية، وكان لا بد للإمام المستور من أن يظهر، ولدور الستر من أن ينتهي، وللمذهب الإسماعيلي من أن ينهض على أكتاف أئمة خلفاء.
- أنفذ أبو عبد الله الداعي الرسل إلى سلمية، يخبر الإمام بما استولى عليه، ويدعوه للحضور إلى إفريقية.

وفعلاً خرج عبيد الله المهدي من سلمية في (شهر رجب ٢٨٩هـ/ شهر حزيران ٩٠٢م) واصطحب معه القائم، وهو يومئذٍ صبي ابن عشرة أعوام، وداعي الدعاة فيروز، وأبا العباس، أخا عبد الله الشيعي، وحاجبه المقبل جعفر بن علي صاحب السيرة، وبعض الأتباع الكتاميين، ويمَّم وجهه صوب المغرب، وقد سمع بخروجه الخاص والعام، فأصدر الخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ـ ٩٠٨م) الأوامر بالقبض عليه، إلا أنه نجح في الوصول إلى الرملة[١] بعد أن توقف قليلاً في دمشق، ولم ينزل بطبرية لأسباب أمنية[٢]، ومكث في الرملة زهاء سنتين إلى أن فشلت ثورة القرامطة الذين قتلوا أسرته وأهله في سلمية. ثم يمَّم وجهه صوب مصر في (منتصف عام ٢٩١هـ/ ربيع عام ٩٠٤م)، وأقام في الفسطاط[٣]. وحتى يتجنَّب رقابة السلطة وملاحقتها، عاش بعيداً عن الأنظار، لكن سرعان ما انكشف أمره من قِبل القائد العباسي محمد بن سليمان، وبذلت الخلافة العباسية جهوداً كبيرة للقبض عليه، إلا أنها لم تُفلح بسبب ما اتخذه من وسائل الحيطة والحذر.

وحملته هذه التطورات السلبية، على البحث عن ملجأ آخر أكثر أماناً خارج مصر، فخرج من الفسطاط في (أواخر عام ٢٩٢هـ/ منتصف صيف عام ٩٠٥م) متوجهاً إلى إفريقية[٤]، وقد فضَّلها على المشرق حيث كانت الحركة الإسماعيلية مضطرة إلى مواجهة الدولة العباسية التي ما زالت قوية، كما لم يذهب إلى اليمن، لأن

---

(١) الرملة: مدينة عظيمة في فلسطين، وكانت قصبتها كما كانت رباطاً للمسلمين. الحموي: جـ ٣ ص ٦٩.

(٢) جاء في سيرة جعفر أن العباسيين نجحوا في ترصُّد أخبار خروج المهدي من سلمية، وعلموا أنه مرَّ بدمشق، فأرسل الخليفة العباسي رسولاً إلى والي الرملة يأمره بالقبض عليه.

(٣) القاضي النعمان: ص ١٥٠. الأنطاكي، يحيى بن سعيد، تاريخ الأنطاكي ص ٦٢.

(٤) القاضي النعمان: المصدر نفسه.

هذه البلاد لم تكن قادرة على توفير المناخ السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي الملائم لقيام دولة إسماعيلية، وتوسعها، بالإضافة إلى ذلك، فإن دعاة اليمن مختلفين، وعلى العكس من ذلك، كانت الدولة الأغلبية تمر بمراحل شيخوختها وهي في حالة تفكُّك. وكان الداعي أبو عبد الله قد نجح في استقطاب كتامة إلى دعوته، وحقَّق بعض الإنجازات التوسعية على الأرض، فكانت دعوته تتدعَّم في المغرب[1].

سار عبيد الله المهدي وصحبه، وهم في زي التجار، حتى وصلوا إلى طرابلس في طريقهم إلى إيكجان، وأرسل أبا العباس وبعض الكتاميين إلى أبي عبد الله يبشره بقرب ظهوره، ويخبره أنه في طريقه إليه، وأمرهم بالمرور على القيروان لاستطلاع الأوضاع، لكن زيادة الله الثالث علم بأمرهم وألقى القبض عليهم[2].

كان عبيد الله المهدي يتقدم في غضون ذلك، باتجاه إيكجان، وبات قريباً من حدود كتامة، غير أنه عدل عن الذهاب إليها عندما علم بالقبض على أبي العباس واتجه جنوباً إلى سجلماسة. ويبدو أن التطورات العسكرية بين الأغالبة والكتاميين أجبرته على هذا التصرف، فهو بحاجة إلى ملجأ يستطيع أن ينتظر فيه، بأمان، نتائج الاشتباكات، ورأى أن إمارة بني مدرار توفر له مثل هذا المأوى المؤقت.

ولما دخل المهدي إلى سجلماسة اتبع طريقته المعهودة ليأمن الوقوع في أيدي الحكام، فأغدق الأموال على واليها اليسع، فاكتسب تقديره، وعامله معاملة حسنة[3]، واستأجر داراً تليق بشخصه أقام فيها، كما اتصل ببعض أهالي القيروان وأوفدهم إلى أبي عبد الله الداعي، واشترى بعض المماليك لخدمته، مما يدل على أنه أقام في سجلماسة حراً طليقاً.

استمر هذا الصفاء السياسي بين الرجلين حتى وصل إلى اليسع كتاب من زيادة الله الثالث يخبره فيه بحقيقة أمر ضيفه، ثم علم باقتراب جنود الداعي من المدينة، فاضطر إلى تغيير موقفه منه، فحدَّد إقامته، وفصله عن القائم، وسجن أنصاره وعذَّبهم[4].

والحقيقة أنه ما إن ركَّز الداعي أبو عبد الله سلطته في رقَّادة، حتى أخذ يتأهب للزحف نحو سجلماسة لاستقدام عبيد الله المهدي وتنصيبه على العرش، فخرج من رقَّادة يوم الخميس (١٥ رمضان ٢٩٦هـ/ ٧ حزيران ٩٠٩م)، على رأس جيش كبير، فمرَّ بتاهرت التي خضعت له، ومنحها الأمان، وقتل صاحبها مع عدد كبير من أهل

---

(١) الدشراوي: ص ١٧١ ـ ١٧٢.
(٢) القاضي النعمان: ص ١٥٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٥٤.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٥٤.

بيته، وبذلك يكون قد قضى على الإمارة الرستمية، ثم تابع زحفه، ووصل إلى سجلماسة يوم السبت (٦ ذو الحجة/ ٢٦ آب)[١].

وخشي أبو عبد الله من إقدام اليسع على قتل عبيد الله المهدي، فلاطفه مبدياً عدم رغبته في الحرب، وأنه قدم لحاجة وليس للحرب، لكن اليسع أمر بقتل الرسل الذين أبلغوه ذلك وأصرَّ على المواجهة، غير أنه لم يصمد أمام قوات الداعي، ولاذ بالفرار تحت جنح الظلام متوجهاً نحو الجنوب، لكن قُبض عليه وقُتل، وسَلَّم وجهاء المدينة، مدينتهم في اليوم التالي، إلى أبي عبد الله، فدخلها وأطلق سراح المهدي والقائم وخدمه[٢].

مكث عبيد الله المهدي مدة أربعين يوماً في سجلماسة[٣]، توجَّه بعدها إلى إيكجان «دار الهجرة ومستقر الإيمان»، وأقام فيها. كانت هذه الإقامة بمثابة إعلان عن بداية عهده. واسترجع، بوصفه أمير المؤمنين، الأموال التي جمعت على أيدي الدعاة، وكانوا قد دفنوها هناك، فأحضروها إليه. ثم خرج من إيكجان إلى رقَّادة، فوصل إليها يوم الخميس (٢٠ ربيع الآخر ٢٩٧هـ/ ٦ كانون الثاني ٩١٠م)، واستقر في قصر الصحن الذي كان الداعي قد أقام به من قبل. وذُكر اسمه على المنابر يوم الجمعة وتلقب بـ «المهدي أمير المؤمنين»، وكأنه يريد أن يظهر بذلك أنه أصبح منذ ذلك الوقت صاحب البلاد. ثم بدأ بتنظيم دولته، وأبطل ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة[٤].

وهكذا نجح الشيعة الإسماعيليون في إقامة الدولة الفاطمية في شمالي إفريقية بأقسامها الثلاثة: طرابلس، وإفريقية، والزاب.

---

(١) القاضي النعمان: ص ٢٣٦. ابن عذارى: جـ ١ ص ١٩٧. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٩٧.

(٢) القاضي النعمان: ص ٢٣٩.

(٣) الأنطاكي: ص ٦٥.

(٤) القاضي النعمان: ص ٢٤٥ ـ ٢٥٤.

الفَصْلُ الثّالِث

عبيد الله المهدي

(٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ/٩١٠ ـ ٩٣٤م)

الأوضاع الداخلية

تنظيم الدولة

بادر عبيد الله المهدي، عقب دخوله إلى رقّادة، ومبايعته بالإمامة من قِبَل أتباعه يوم الخميس في (٢٠ ربيع الآخر ٢٩٧هـ/ ٦ كانون الثاني ٩١٠م)، إلى وضع تنظيمات سياسية وإدارية ودينية تكفل لدولته الناشئة النمو والاستقرار، وربما كان مضطراً إلى تحمُّل أعباء مسؤولية قيادة الحركة الإسماعيلية. فقد كان حين تسلَّم منصب القيادة يتمتع بشيء من البراعة في ممارسة الحكم، وسيتمكَّن من تركيز سلطته المطلقة في البلاد، المبنية على أساس مذهب ينكره أهل السنَّة، وسيترك بعد وفاته نظاماً قوياً متماسكاً، ومملكة هادئة مزدهرة.

فمن حيث التنظيمات السياسية، فقد حدَّد عبيد الله المهدي، في خطاب التقليد، أنه سيكون معتدلاً في سياسته، إنما بصرامة، وأن رعايته ستشمل «أشياعه من المؤمنين وجميع المسلمين، وسيراعي أولياءه ورعاياه الأوفياء المخلصين، وسيقمع كل من ينكث عليه، ويخون أمانته، وينقض عهده». كما أشار بالدعم الذي حظيت به دعوته لدى «أوليائه وأنصار حقه أولي الأبصار النافذة من سادات العرب وأنجاد كتامة»، ثم دعا أهل إفريقية المعروفين بمناهضتهم للمذهب الإسماعيلي إلى «التمسك بحبل طاعته وأسباب ولايته، ومحبة آل البيت»[(١)].

وهكذا شرع الحاكم الفاطمي الأول، منذ اعتلائه الحكم، في الاضطلاع بنفسه بالمهام التي تكفل له تثبيت أقدامه في الحكم، وتأمين الهدوء، والتوسع في الخارج.

ومن حيث التنظيمات الإدارية، فقد اجتهد عبيد الله المهدي في إعادة تنظيم

---

(١) القاضي النعمان: ص ٢٥٠ ـ ٢٥٣.

المصالح الإدارية. فبدأ بتشكيل الهيئة الحاكمة وجماعة الحاشية ورجال القصر، فاختارهم كلهم من بطانته التي جاءت معه من بلاد الشام؛ وخصَّهم بتولي الأعمال الإدارية. كما استعان بنفر من الأغالبة الذين مالوا للعهد الجديد، وبجماعة من العرب الذين خدموا النظام السابق، ذلك أنه كان عليه أن يتخذ موقفاً متسامحاً تجاه من بقي من بني الأغلب ومواليهم ورجالهم وأتباعهم، فأعاد بعضهم إلى مناصبهم المدنية والعسكرية.

نذكر من بين مرافقيه وحجّابه: أبو الفضل جعفر بن علي، وأبو أحمد جعفر بن عبيد، وأبو سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلماسي. وخصَّ أبا جعفر الخزرجي بالإشراف على بيت المال، وأحيى ديوان الخراج الذي أُحرق إثر هروب زيادة الله الثالث، وعيَّن عليه أبا القاسم بن القديم. واختار أبا اليسر إبراهيم بن محمد البغدادي الشيباني للإشراف على ديوان الكتابة، وكان القضاء من نصيب أفلح بن هارون الملوسي، وهو من أشد المقربين لعبيد الله المهدي، وعلى القضاء محمد بن عمر المرْورّوذي، وكان يتشيع قبل مجيء الفاطميين[1]، وأكثر هؤلاء كانوا من رجال أبي عبد الله الداعي، وبعضهم من ترشيحه[2]، والسكة من نصيب أبي بكر الفيلسوف المعروف بالقمودي، وكان على العطاء عبدون بن حباسة، وأقرَّ على عمال القيروان الحسن بن أحمد بن أبي خنزير.

ومن حيث التنظيمات الدينية، فغداة دخول عبيد الله المهدي إلى رقّادة أخرج توقيعاً أمر بأن يُدعى به على المنابر برقَّادة والقيروان والقصر القديم، كما أمر بالدعاء بعد الصلاة لمحمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، والأئمة من ولده، الذي كان أبو عبد الله الداعي قد أمر به. وكتب كتاباً آخر أرسله إلى البلدان أشار فيه إلى تولِّيه الإمامة، وحمد الله الذي «أنجز وعده لرسوله بردِّ إرث النبوة ومقاليد الإمامة إلى عترة نبيه»، وتلقب بلقب «المهدي أمير المؤمنين»[3].

وضع عبيد الله المهدي لدولته نظاماً مذهبياً يشدُّ أزر التنظيمات السياسية والإدارية التي اتخذها. إذ أن الدولة الفاطمية قامت على أساس مذهبي، كما ذكرنا، في أن آل البيت هم أحق الناس بزعامة المسلمين، وفرض سيادتها انطلاقاً من هذا الأساس، وتحقيق المفاهيم الإسماعيلية الشاملة. واستتبع ذلك رفع شأن الحاكم

---

(١) القاضي النعمان: ص ٢٥٨. ابن عذاري: جـ ١ ص ١٥٨.

(٢) مؤنس: جـ ١ ص ٤٧٦.

(٣) القاضي النعمان: ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠. المقريزي: جـ ١ ص ٦٦.

الذي يمثل نواة هذا النظام بوصفه صاحب السلطة والإمام، ذلك أن سلطته الدنيوية والدينية تتجاوز الإطار الضيق لمملكته، وهو صاحب الخلافة الشرعي، ومن أجل ذلك فإن سلطته عامة تشمل جميع المسلمين. وأحاط شخصه بكل مظاهر التقديس والإجلال الذي يتخذ شكل عبادة لذاته ولكافة الأئمة السابقين، لأن الإمام الفاطمي المنحدر روحياً من الرسول هو خليفة الله في الأرض، بل هو نبي زمانه، وقد اختاره الله ليقيم شريعته، ويربط الصلة بينه وبين عباده. ويترتب على الحب اللامحدود الذي يكنُّه لأتباعه، وجوب الطاعة العمياء والإخلاص اللامشروط لشخصه.

وأظهر عبيد الله المهدي التشيع الغالي حين سبَّ الصحابة وأزواج النبي، وزعم أن أصحاب النبي ارتدوا من بعده[١]، ثم وضع لنظامه المذهبي تعاليم تميزه عن تعاليم مذهب أهل السنَّة منها:

- تفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة، وهو أحق بالأمانة بعد الرسول.
- قطع صلاة التراويح في رمضان حيث عدَّها بدعة.
- نادى بترك القياس، والتمسك بالقرآن، وحقَّهم في تفسيره وتأويله على طريقتهم.
- زاد في الأذان عبارة «حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر».
- أمر المؤذنين بأن يرددوا تلك العبارة: «أحياك الله يا مولانا يا حافظ نظام الدنيا آبائك الطاهرين وأبنائك الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»[٢].

وأخذ عبيد الله المهدي ينشر مذهبه عن طريق العنف، ولا سيما مع زعماء المالكية، وأسَّس في عام (٢٩٨هـ/ ٩١٠م) إدارة تُعرف بـ «ديوان الكشف» للتحري عن المخالفين لمذهب الدولة من الفقهاء والمفتين والقضاة والمؤذنين، وأسند رئاسة هذا الديوان إلى اثنين من أعوانه المقربين هما أبي جعفر محمد بن أحمد البغدادي وعمران بن أبي خالد بن أبي سلام[٣].

ويبدو أن التعاليم الإسماعيلية المتطرفة صادفت معارضة شديدة من جانب أهل السنَّة، فاضطر عبيد الله المهدي إلى تعديل تنظيمه المذهبي بإخفاء خصائص الدعوة الإسماعيلية عن عامة الناس، وتأسيس معاهد لتدريسها، ونشرها، أطلق عليها

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٥٩.

(٢) انظر فيما يتعلق بأشهر مبادىء الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي: حسن وشرف ص ٢٨٠ ـ ٣٠٤.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٦٢.

«مدارس الدعوة»، على أن تكون واسطة الاتصال بينه وبين أتباعه، وبذلك يظهر أمام رعاياه علوياً خالصاً على حين يبطن المذهب الإسماعيلي ومبادئه»[1].

الصعوبات التي واجهت عبيد الله المهدي

التخلص من أبي عبد الله الداعي

كان شمال إفريقية، عندما قدم إليه الفاطميون، منقسماً بين أهل السنَّة، وبخاصة أصحاب المذهب المالكي، والخوارج الأباضية والصفرية، وجاء المذهب الإسماعيلي ليضيف مصدراً جديداً للاضطراب في المنطقة. بالإضافة إلى ذلك، فإن وجود فريقين متنافسين من القبائل البربرية، زناتة في الغرب، وصنهاجة في الشرق التي تنتمي إليها كتامة، كان عنصراً مساعداً للاضطراب والقلاقل في المنطقة، وبخاصة أن عبيد الله المهدي كان يغذِّي نار التنافس والنزاعات القبلية لإضعاف قوة القبائل والسيطرة عليها.

ما إن استقر عبيد الله المهدي في رقَّادة حتى أمسك بمقاليد شؤون الدولة، وكان يميل بطبعه إلى الاستبداد بالأمور والاستئثار بها دون سواه. ويبدو أنه أدرك مدى ما يشكله أبو عبد الله الداعي من خطر على حكمه بسبب افتتان الناس به، مما يُضعف مركزه ويحدُّ من صلاحياته. ذلك أن نفوذ الداعي كان كبيراً في بلاد المغرب، ولا بد بأنه رغب في الاحتفاظ بنفوذه القديم بين الكتاميين، وبمركزه الممتاز من خلال القبض على زمام الأمور. وأدَّى أبو العباس، أخو الداعي، دوراً بارزاً في تأليب أخيه ضد حكم عبيد الله المهدي[2]. ويبدو أن المرتبة التي كان يحتلها في سلم الدعوة بسلمية كانت تكتسي بعض الأهمية بسبب معرفته الجيدة بالمذهب الإسماعيلي، ولا شك بأن بقاءه في سلمية، ضمن حاشية عبيد الله المهدي، أتاح له الاطلاع على الاضطرابات التي صاحبت، وأعقبت تولي المهدي مقاليد الإمامة، وعالماً بحقيقة نسبه ونسب القائم.

كان عبيد الله المهدي الأسرع إلى التحرك، فأهمل شأن نفر من كبار الكتاميين ممن كانوا على صلة وثيقة بأبي عبد الله الداعي، وأكبرهم هارون بن يونس المعروف بشيخ المشايخ. ويبدو أن هذا الرجل كان يتصور أن عبيد الله المهدي لا بد أن يأتي بالمعجزات ليكون المهدي حقاً، فلما رأى تصرفه وجشعه إلى المال، خاب ظنه

---

(١) الحمد: ص ٢١٩.

(٢) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

وصارحه بذلك، فهال ذلك عبيد الله المهدي وأمر به فقتل، وكان هذا خطأً جسيماً من عبيد الله المهدي، لأن هذا الرجل كان من دعائم الدولة، وكان من الممكن استرضاؤه[1]. ثم أقصى أبا عبد الله الداعي وأخاه أبا العباس ومشايخ كتامة الذين أزعجهم المهدي عندما استولى على الأموال التي كانوا يحتفظون بها في إيكجان، ثم ما لبث أن حطَّ من شأنهم بحكمه الفردي، وهم الذين عوَّدهم أبو عبد الله الداعي على الاشتراك معه في ممارسة السلطة، كما استاؤوا من سياسته القاضية بتجريد كتامة من شبابها بتجنيدهم وتفريقهم في البلاد. واستاء أبو العباس بخاصة من هذا التصرف، وكان ذا نزعات سلطوية ويميل إلى الزعامة، فداخله الحسد، وعظم عليه إبعاده عن مراكز الأمر والنهي بعد أن ذاق لذة الحكم أثناء انهماك أبي عبد الله الداعي في الحملة العسكرية ضد سجلماسة، فحمل لواء المعارضة، واستقطب جماعة من وجوه عامة كتامة، وأوقع الشبهة في عبيد الله المهدي.

بلغ حقد الناقمين حداً دفعهم إلى تشكيل حزب معارض، وتدبير مؤامرة للإطاحة بعبيد الله المهدي قبل انتهاء السنة الأولى من ولايته. ونسبت رواية ابن عذارى المبادرة بتدبير المؤامرة إلى أبي عبد الله الداعي نفسه، الذي تشاور مع مشايخ كتامة للإطاحة بعبيد الله المهدي، وأبدى شكوكاً حول صحة إمامته وكان يقول: «إن الدعاء لأهل البيت واجب، وأن الإمام المهدي حق، وأن الزمن مجهول عندي، وكنت ارتبت في والد عبيد الله، فكيف لا يرتاب فيه»[2]. ثم استغل نفور أهل كتامة من تصرفات عبيد الله المهدي تجاههم وقال لهم: «إن أفعاله قبيحة، وإنه قد يكون أخطأ فيه، وليس هو المهدي الحقيقي الذي جاءت به البشائر، بسبب ما ظهر من أعمال تبعده عن أن يكون إمام الزمان ومهدي العهد»[3].

أضحى موقف عبيد الله المهدي حرجاً بعد أن تخلى عنه كبار أنصاره الذين نصَّبوه على العرش. ومن جهتهم، فإن المتآمرين عقدوا اجتماعاً يوم الجمعة في (٢٦ ذي الحجة ٢٩٧هـ/ ٥ أيلول ٩١٠م) في مكان يسمى النور بجوار مدينة تنس[4] بالمغرب الأوسط، اشترك فيه غزوية بن يوسف الذي كشف لعبيد الله المهدي ما جرى فيه من تآمر ضده، وتعاهد الجميع على الثورة.

---

(١) مؤنس: جـ ١ ص ٤٨٣.
(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٦١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تنس: آخر إفريقية مما يلي المغرب، بينها وبين وهران ثماني مراحل، وتبعد عن البحر نحو ميلين. الحموي: جـ ٢ ص ٤٨.

ويبدو أن المتآمرين تردَّدوا في شن المعركة، وعلى الرغم من تعدُّد اجتماعاتهم وإجماعهم على قتل عبيد الله المهدي؛ إلا أنهم لم يقوموا بأي عمل لتنفيذ ما عزموا عليه، وكان هذا خطأً كبيراً لأن هذا التردُّد أتاح لعبيد الله المهدي فسحة من الوقت لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإحباط المؤامرة والتخلص من مدبِّري الفتنة. فبدأ بإقصاء أبي زاكي تمام بن معارك، أحد أبرز وجوه كتامة، وأحد كبار المتآمرين، وكانت الاجتماعات تُعقد في داره، وبعث به إلى طرابلس، وكان عمه أبو يوسف عاملاً عليها، فلما وصل إليها أرسل عبيد الله المهدي كتاباً إلى الوالي يأمره فيه بقتله، وتمَّ تنفيذ القتل يوم الاثنين في (١٥ جمادى الآخرة ٢٩٨هـ/ ١٨ شباط ٩١١م)، كما قُتل أبو عبد الله الداعي وأخوه في اليوم نفسه، وذلك بلا شك وفق خطة مدبرة. فقد أمر عبيد الله المهدي اثنين من أتباعه بقتلهما، فقتل غزوية أبا عبد الله وقتل حبر بن تماشت أبا العباس في مدينة رقّادة[١].

وبقتل أبي زاكي ثم الداعي وأخيه، فقدت المؤامرة زعماءها، ولم يلق عبيد الله المهدي عناء في مطاردة باقي أعضائها وقتلهم، وابتهج بتخلُّصه من عقبة كبيرة كانت تعترض مسيرة حكمه المطلق، وتُهدِّد عرشه.

المقاومة السنيَّة

واجه عبيد الله المهدي صعوبات كبيرة في بسط نفوذه المذهبي على المجتمع الإفريقي السنِّي، حيث جابهه أهل إفريقية وعلماؤها المالكية بالمقاطعة السلبية والإنكار أولاً ثم بالقوة ثانياً. ويُذكر أن المذهب المالكي استقرَّ في القيروان وغيرها من مدن إفريقية، وأنكر أتباعه المذهب الإسماعيلي، وعارضوا فرضه على أهل السنّة كما أنكروا مَظهر القداسة الذي أراد عبيد الله المهدي أن يحيط نفسه به، وساءهم ما أمر به خطباءه من سب الصحابة على المنابر، ولم يفهموا لماذا أمر بمنع صلاة التراويح، ولماذا غيَّر آذان المسلمين، كما ضايقهم الدعاء المبالغ فيه للإمام بعد صلاة الجمعة. وتمثلت ردود الفعل بثورات عاتية اجتاحت بعض المدن الإفريقية نذكر منها:

الثورة في القصر القديم

لم تعد العناصر الأغلبية تشعر بالأمن بعد قتل الرجل الذي لم يزل اسمه مرتبطاً بقيام الدولة، وخشي من بقي من بني الأغلب في القصر القديم على أنفسهم،

(١) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧. المقريزي: جـ ١ ص ٦٨.

فالتفُّوا حول زعيم لهم يدعى أبو الحسن بن أبي حجر، وأخرجوا جميع الكتاميين الموالين للنظام الجديد من المدينة، وأعلنوا العصيان، واستمروا على ذلك أياماً ثم تحلَّلوا وانصرفوا إلى دورهم، فتركهم عبيد الله المهدي مدة من الزمن، ثم أمر بالقبض على جماعة من وجوههم فقتلهم صبراً، وقبض بعد ذلك بمدة على مجموعة أخرى وقتلهم أيضاً ثم طارد بقاياهم في كل مكان من البلاد وقتلهم وتتبع من شذَّ منهم فحبس(١).

ثورة سكان القيروان

أعقبت ثورة القصر القديم ثورة أخرى اندلعت في القيروان، وهي تعبير عن هشاشة العلاقات بين العناصر الأغلبية والنظام الإسماعيلي، وحسن الجوار بين أولئك وبين الكتاميين. فقد أثار شجار بين بعض أهل القيروان وبعض الكتاميين حوادث عنيفة يوم الثلاثاء (٢٢ شعبان ٢٩٩هـ/ ١٣ نيسان ٩١٢م)، وقتل أهل القيروان زهاء سبعمائة رجل من الكتاميين الذين قاموا بأعمال التخريب، وأشاعوا جواً من الفوضى والاضطراب، ولم يتمكّن عامل الفاطميين على القيروان، وهو أحمد بن أبي خنزير، من القضاء على تلك الثورة إلا بشقِّ النفس. ولما علم عبيد الله المهدي بالخبر عاقب شيوخ القيروان، وعذَّب فقهاء المالكية بسبب مناهضتهم للمذهب الإسماعيلي(٢).

ثورة سكان طرابلس الغرب

أثار الهواريون البربر القلاقل في الجهات الجنوبية الشرقية من إفريقية في ناحية طربلس، ثم ثاروا بمساعدة بعض عناصر من زناتة ولماية بقيادة هارون الهواري، وحاصروا مدينة طرابلس، فتصدّى لهم واليها الأجاني ماكنون بن ضبارة. استغل سكان طرابلس هذه الانتفاضة البربرية وأعلنوا الثورة على الحكم الفاطمي في (أوائل عام ٣٠٠هـ/ خريف عام ٩١٢م)، فطردوا الوالي والقاضي الإسماعيلي أفلح بن هارون، وقتلوا عدداً من الكتاميين، وولوا عليهم عاملاً عربياً من أهل باغاية يُدعى أحمد بن نصر، ومعه رجل قرشي يُدعى محمد بن إسحاق ويُعرف باسم ابن القرلين(٣).

---

(١) القاضي النعمان: ص ٢٧١.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٦٦. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٦٠١. عماد الدين، إدريس: السبع الخامس ص ١٢٢.

(٣) ابن عذارى: المصدر نفسه. عماد الدين، إدريس: المصدر نفسه ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

لم يتأخر عبيد الله المهدي في الرد على أحداث طرابلس، فأرسل جيشاً في (أوائل جمادى الأولى/ منتصف كانون الأول) بقيادة القائم، وسانده أسطول صغير مؤلف من خمسة عشر سفينة، وحاصر الجيش الفاطمي المدينة من جهتي البر والبحر. قاومت طرابلس الحصار المضروب عليها، ويبدو أن الحصار البحري كان ضعيفاً مما سمح للهواريين بإمداد المدينة بالمؤن. استمر الحصار ستة أشهر تمكَّن القائم بعدها من اقتحام المدينة عنوة، فعفا عن العامة، لكنه غرَّمهم نفقات الحرب، وقتل قادة الثورة، وصادر أموالهم وممتلكاتهم، واستخلف على المدينة أبا مديني بن كناوة اللهيصي، وترك معه حباسة بن يوسف الملوسي وعدداً من القوات وعاد إلى رقَّادة[1].

ثورة سكان صقلية

إثر سقوط الدولة الأغلبية على يد أبي عبد الله الداعي، ثار سكان صقلية على واليهم السني الحسن بن رباح الذي كان يحكم الجزيرة باسم الأغالبة، وولوا عليهم علياً بن أبي الفوارس وذلك في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، وكتبوا إلى داعي الفاطميين يطلبون منه أن يقرَّهم على ما فعلوا، فأجابهم إلى ذلك، وأعطاهم الأمان، وأبدى تجاههم عطفاً خاصاً، إذ رأى أن الوقت لم يكن مناسباً لفرض النظام الإسماعيلي الشيعي الجديد على صقلية، كما فُرض على إفريقية، وبناءً على ذلك، اعترف الصقليون بسلطة حكام إفريقية الجدد دون معارضة.

وبعد بضعة أشهر من اعتلائه الحكم، أراد عبيد الله المهدي أن يكافىء الكتاميين الذين ساندوا الدعوة الإسماعيلية، فعيَّن الولاة منهم. فعزل ابن أبي الفوارس عن ولاية صقلية، وعيَّن الحسن بن محمد بن أبي خنزير الكتامي، وذلك في عام (٢٩٧هـ/ ٩١٠م)، وصحبه القاضي المتشيع إسحق بن أبي المنهال[2].

حكم الحسن صقلية بصرامة ما يناهز العامين، وأخضعها لنظام قائم على الإرهاب، وعارضه أهل السنَّة نظراً:

- لجوره، فقد ضايق أهل السنَّة، وأطلق يد عماله فاستبدوا بهم.
- لامتهانه إياهم، إذ أن كثيراً من زعماء العرب في صقلية أنفوا أن يتزعمهم كتامي بربري، لأنهم كانوا يرون أنهم أرفع منه قدراً. ومما زاد الأمور تفاقماً، أن الحسن أخذ يقرِّب البربر ويهمل شأن العرب، فولى أحد الكتاميين على قضاء الجزيرة، وأطلق يد أخيه علي بن أبي خنزير.

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٦٨. القاضي النعمان: ص ٢٧٤.
(٢) حسن وشرف: ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

- عزَّ على أهل السنَّة بصقلية أن يخطب على منابرهم لعبيد الله المهدي الفاطمي، وأن تنظم الدعوة فيها للمذهب الإسماعيلي الذي كان دعاته يعملون على استقطاب الناس وإدخالهم فيه، وهم الذين كرهوا هذا المذهب مثل سكان إفريقية.

وأخيراً ضجر أعيان الجزيرة من سياسة الحسن الجائرة، فقبضوا عليه وسجنوه، وأرغموا عبيد الله المهدي على دعوته إلى رقّادة، وولى مكانه علياً بن عمر البلوي، إلا أن تغيير العامل لم يضع حداً للاضطرابات التي اتخذت طابعاً موالياً للنظام السابق. كان البلوي أكثر تعسفاً من سلفه، على الرغم من لينه وضعف إرادته، ولم يلبث الصقليون أن تخلصوا منه في عام (٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، واختاروا أحمد بن زيادة بن قرهب والياً عليهم، وكان من العرب[١].

كان أحمد بن قرهب في بداية حكمه على وفاق مع الفاطميين، وأبدى نشاطاً ملحوظاً في المجال العسكري، غير أنه كان ذا نزعات استقلالية سلطوية، يحب الزعامة ويسعى إليها، فأخذ يعمل على الانفصال عن الدولة الفاطمية، ومقاومة أهل السنَّة في الجزيرة إذا اقتضت الضرورة ذلك. ولما كُشف أمره، وخشي من انتقام الفاطميين، ثار عليهم وأعلن ولاءه للعباسيين، وذلك في عام (٣٠٤هـ/ ٩١٦م)، فقطع الخطبة للمهدي وخطب للخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥- ٣٢٠هـ/ ٩٠٨- ٩٣٢م) واتصل ببغداد للحصول على إقرار من الخليفة يضفي الشرعية على حكمه[٢].

جاء اعتراف العباسيين بحكم أحمد بن قرهب سريعاً، فأرسل إليه المقتدر الخلع السوداء والألوية[٣]. وأعلن أحمد بن قرهب من جهته دخول صقلية في طاعة العباسيين، وأسرع إلى شن الحرب على الدولة الفاطمية في إفريقية قبل أن يأتي رد الفعل الفاطمي، وعمل على إثارة مخاوف الفاطميين كي لا يقوموا بطرده من الجزيرة؛ لذلك أرسل أسطوله القوي بقيادة ابنه محمد لمهاجمة سواحل بلاد المغرب، ففاجأ أسطولاً فاطمياً راسياً في لمطة[٤]، ودمَّره وقتل قائده ابن خنزير، وتغلب على قوة عسكرية فاطمية كانت في طريقها إلى لمطة، وخرَّب سفاقس، ثم عاد إلى صقلية.

نتيجة للانتصارات التي حقَّقها أحمد بن قرهب، ضاعف عبيد الله المهدي

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) لمطة: أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم. الحموي: جـ ٥ ص ٢٣.

جهوده لإعادة الحكم الفاطمي إلى الجزيرة. وكان إسراف أحمد بن قرهب بالاعتداد بنفسه أحد عوامل هزيمته. وشهد عهده تدهوراً، في أقل من عامين، بسبب انفلاشه العسكري ضد الفاطميين، كما أن سكان الجزيرة خشوا من تسلطه، ولما حاول الفرار إلى الأندلس أُلقي القبض عليه، وكبِّل بالسلاسل، وأُرسل إلى إفريقية حيث قُتل[١].

وأرسل عبيد الله المهدي أسطولاً إلى صقلية لتأديب أهلها وإعادة الجزيرة إلى الحظيرة الفاطمية. حاول الصقليون التصدي للقوة الفاطمية المهاجمة والدفاع عن أنفسهم، لكنِ القائد الفاطمي موسى بن أحمد، المعروف بأبي سعيد والملقب بالضيف، تمكَّن من دخول الجزيرة عنوة وأخضعها لحكم عسكري صارم، وفرض الغرامات على سكانها، ولم يعطهم الأمان إلا بعد أن عاقبهم بقساوة، وعيَّن سالم بن أبي راشد، وهو أحد مساعديه، حاكماً على الجزيرة، وترك معه قوة عسكرية وعاد إلى إفريقية. وما أن غادر القائد الفاطمي أرض الجزيرة حتى انتفض السكان على الحاكم الجديد، ولولا مساعدة الجند الفاطميين له لما استقر الوضع لحكم عبيد الله المهدي في هذه البلاد[٢].

المقاومة البربرية

ثورة الزناتيين

في الوقت الذي اعتلى فيه عبيد الله المهدي الحكم، رأى نفسه مضطراً للتصدي للثورات التي أثارتها القبائل البربرية الضاربة في الغرب وبخاصة زناتة. ويبدو أن الدافع لهذه الثورات هو العصبية القبلية، والروح الإقليمية، والتنافس بين زناتة وكتامة بعد انحياز أبي عبد الله الداعي إلى القبيلة الأخيرة.

ظهرت بوادر عداء زناتة للدعوة الإسماعيلية منذ أن قام الداعي أبو عبد الله في إيكجان، واشتد هذا العداء بعد إسقاط الإمارة الأغلبية. وحدث أن أرسل أبو عبد الله الداعي وفداً إلى سجلماسة في مهمة إلى عبيد الله المهدي، لكن أعضاء الوفد لقوا مصرعهم في طبنة الواقعة على مشارف منازل قبيلة زناتة، على يد جماعة من رجالها، ولم يتمكَّن أبو عبد الله الداعي آنذاك من الانتقام لأنه كان منهمكاً بتخليص عبيد الله المهدي من الأسر.

اشتدت حركة المقاومة الزناتية للوجود الفاطمي بعد استيلاء الداعي على

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٧٤.

(٢) المصدر نفسه.

رقّادة ثم دخوله تاهرت عاصمة الرستميين، وذلك نظراً لوقوع تلك المدينة في قلب مضاربهم، وشعروا بوطأة النفوذ الفاطمي عليهم، وبخاصة أن تاهرت تُعدُّ مركزاً هاماً على طريق قوافلهم وتجارتهم. ومن جهته، أدرك عبيد الله المهدي، بعد استلامه الحكم، أهمية تاهرت كمركز عسكري لحماية حدوده الغربية، لذلك عيَّن عليها أشهر قادته وأقدرهم، كان من بينهم أبو حميد دواس اللهيصي، ومصالة بن حبوس المكناسي، وأضحت تاهرت نتيجة هذا العداء مركز المقاومة الزناتية ضد الوجود الفاطمي في بلاد المغرب.

هاجم الزناتيون مدينة تاهرت أكثر من مرة، لكنهم فشلوا في اقتحامها، وقضى الفاطميون على المقاومة الداخلية بعنف بالغ حيث بلغ عدد القتلى ثمانية آلاف، واستتب الأمر لعبيد الله المهدي[١].

ثورة الكتاميين

برزت مظاهر الطبيعة القبلية المتقلبة بين أبناء قبيلة كتامة الذين بهرتهم انتصارات أبي عبد الله الداعي السريعة، وأسهموا بشكل بارز في قيام الدولة الفاطمية. واعترف عبيد الله المهدي بفضل هذه القبيلة، فعيَّن الولاة وحكام المدن والقضاة والدعاة وقادة الجند من بين أفرادها، وشجَّعهم على التخلِّي عن حياة البداوة الخشنة. وأدرك أبو عبد الله الداعي خطورة هذا التبدل في نمط حياة القبيلة، وخشي أن يفقد الكتاميون ميزتهم القتالية، وأفضى إلى عبيد الله المهدي بمخاوفه[٢]. استاء المهدي من مخاطبة الداعي له بهذه الجرأة، واستمر في سياسته تجاه أبناء قبيلة كتامة.

ويبدو أن عبيد الله المهدي هدف إلى صرف أبناء كتامة عن التفكير بالتمرد على حكمه نتيجة التدابير التي نفَّذها بحق القبيلة وحواضرها مما كنا قد أشرنا إليه، واتبع سياسة التفرقة بين الكتاميين، فقرَّب إليه نفراً من الرؤساء، واستعان بهم في القضاء على أبي عبد الله الداعي وأخيه أبي العباس وأنصارهما، ثم قرَّب آخرين واستخدمهم في القضاء على هؤلاء،، ورفع من شأن غزوية زعيم ملوسة، وأهمل شأن أبي زاكي زعيم أجانة.

أثارت تدابير عبيد الله المهدي التي نفَّذها بحق أبناء كتامة، وبخاصة قتله لأبي زاكي والداعي؛ موجة من الاستياء. واضطر إلى الاحتجاب عدة أيام ظهر بعدها

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢.
(٢) القاضي النعمان: ص ٢٦٠.

ليعلن منح الأمان لكتامة، لكن شكوكه فيهم استمرت على حالها، ولما استقبل وفداً من زعمائهم ألقى القبض عليهم وقتلهم، وشعر الكتاميون بالإذلال، وأحسوا بالألم من سياسة عبيد الله المهدي، فقاموا بعدة ثورات ضد النظام.

انطلقت أولى تلك الثورات من مدينة رقَّادة، انتقاماً لمقتل قادة كتامة ومصرع الداعي، واضطر المهدي إلى الخروج بنفسه لإخمادها والتنكيل بزعمائها. واندلعت الثورة الثانية في إقليم الزاب، وهو الجزء الغربي من ولاية إفريقية. وأعلن الكتاميون انفصالهم السياسي والمذهبي عن الدولة الفاطمية، فأقاموا غلاماً حدثاً من أخس أهل بيت فيهم يقال لهم بنو ماوطنت من أورسة يُعرف باسم كادو بن معارك، وزعموا أنه المهدي، واتخذوا من محل إقامته قبلة لهم، وزحفوا إلى ميلة واستولوا عليها، وسيطروا على أهم مدن إقليم الزاب منها قسنطينة التي أضحت مركزاً لمقاومة الدولة الفاطمية[1].

ذُعر عبيد الله المهدي من هذه الحركة الثورية، فبادر فوراً إلى إخمادها قبل أن تستفحل. فأرسل بنطاس بن حسن الملوسي على رأس جيش كبير، وجماعة من رؤساء كتامة ممن هم على عهده، اصطدم بالثائرين، لكنه انهزم أمامهم، مما دفع عبيد الله المهدي إلى إرسال القائم لقتالهم، فاستولى على مدينة قسنطينة من بلاد كتامة، وزحف إلى ميلة، ثم التقى بالماوطنتي يوم الأحد (٣ ذي القعدة ٢٩٩هـ/ ٢١ حزيران ٩١٢م)، في وادي الزيت، فهزمه وأرغمه على الفرار، وطارد أتباعه، ثم توجه إلى إيكجان وأقام معسكره فيها، وأرسل غزوية لمطاردة الماوطنتي، فألقى القبض عليه في وادي سهر. وعاد القائم إلى رقَّادة ومعه الماوطنتي وبعض أصحابه، فقُتلوا في إيكجان[2].

كان لحركة التصفية، التي قام بها عبيد الله المهدي ضد زعماء كتامة، أثر كبير في القضاء على الجيل الذي أنشأه أبو عبد الله الداعي، وضعف شأن كتامة وانهارت روح أبنائها المعنوية، وظل وضعها يتدهور حتى عهد الإمام الفاطمي المنصور[3].

بناء المهدية

كان من بين أهم الأعمال التي قام بها عبيد الله المهدي، وتركت أثرها في مستقبل الدولة الفاطمية في الدور الإفريقي، بناؤه مدينة المهدية. إن تاريخ هذه المدينة،

---

(١) القاضي النعمان: ص ٢٧٣. ابن عذارى: جـ ١ ص ١٦٦ ـ ١٦٧. عماد الدين، إدريس ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٢) عماد الدين، إدريس: المصدر نفسه ص ١٢٤. (٣) الحمد: ص ٢٣٨.

يسير جنباً إلى جنب مع قيام الدولة الفاطمية. لقد أدرك المهدي المخاطر التي أحاطت بدولته الناشئة والتي تهدف إلى تقويض حكم الأسرة الفاطمية، لذا عمد إلى البحث عن مكان يكون ملائماً لتأسيس عاصمة جديدة تكون تعبيراً عن سيادة أسرته، فاختار مكاناً على طرف الساحل الشرقي لإفريقية على بُعد ستين ميلاً جنوب القيروان.

كانت لدى عبيد الله المهدي من الدوافع السياسية والعسكرية والدينية والنفسية ما جعله يقدم على هذه الخطوة[1].

فمن حيث الدوافع السياسية، فقد تعذر على الفاطميين اتخاذ رقَّادة أو القيروان عاصمة لهم، نظراً لما تكنُّه من إخلاص لبني الأغلب المعادين للدولة الفاطمية، ورفض الإقامة في فج الأخيار بإيكجان التي اتخذها أبو عبد الله الداعي مقراً له، إذ كان هذا المكان منعزلاً ويصعب الاتصال منه بسائر أرجاء الدولة. أما المهدية فهي مؤسسة جديدة خالصة للفاطميين. وجاء بناؤها متوافقاً مع رغبتهم في الاحتفاظ بالسلطة والابتعاد عن المناوئين من أهل السنَّة، والانتقال إلى مرحلة الحكم الفاطمي الصرف.

ومن حيث الدوافع العسكرية، فقد رأى عبيد الله المهدي أنه بحاجة إلى مدينة ساحلية تُمكِّن الفاطميين من مواجهة البيزنطيين، الذين كانوا يغيرون على سواحل المغرب انطلاقاً من جنوب إيطالية وصقلية، وتتيح لهم بسط السيطرة الفاطمية على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ومدَّ النفوذ الفاطمي على كامل جزيرة صقلية، وتحييد دور الأمويين في الأندلس في صراعهم مع البيزنطيين. وتبدو المظاهر العسكرية جلية في موقع المهدية حيث يحيط بها البحر من ثلاث جهات، ويتعذر الدخول إليها إلا من جهة الغرب. بالإضافة إلى ذلك، فإن عبيد الله المهدي بنى البيوت من الصخر إمعاناً في تقويتها، وجعل للمدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما، وأقام على مدخل الميناء، الذي نقره في الصخر، برجين عظيمين للحراسة، ربط بينهما بسلاسل من الحديد لتحول دون دخول السفن الغريبة إلى الميناء، وحفر في الصخر أيضاً داراً للصناعة، كما بنى الإهراءات الكبيرة لخزن الحبوب والمؤن، ونظراً لندرة المياه فقد أكثر من بناء خزانات المياه التي تُملأ بمياه الأمطار.

وبنى عبيد الله المهدي لنفسه قصراً وآخر للقائم، كما بنى مسجداً كبيراً يختلف

---

(١) انظر فيما يتعلق بأسباب بناء المهدية: القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

طراز بنائه عن غيره من المساجد في المشرق والمغرب، ذلك أن له بوابة كبيرة قام على مقربة منها برجان في غاية الضخامة، ثم أبراج أصغر، مما جعل واجهة المسجد أشبه بواجهة إحدى القلاع.

ومن حيث الدوافع الدينية، فقد رفض أهل إفريقية أي مساس بسنيتهم المالكية، وأنكروا المظاهر الدينية التي ابتدعها عبيد الله المهدي. وفشل هذا الأخير في فرض معتقداته الدينية على السكان، فأراد أن يبتعد عن رقّادة والقيروان، مركز المقاومة السنَّية.

ومن حيث الدوافع النفسية، فعندما خرج عبيد الله المهدي إلى تونس يبحث عن مكان يبني فيه مدينته، وجد في المكان الذي اختاره راهباً في مغارة، ولما سأله عن اسم هذا المكان قاله له: «هذا يسمى جزيرة الخلفاء» فتفاءل خيراً، وارتاحت نفسه، وقرر اتخاذه موضعاً يبني عليه عاصمته.

ولم يشعر عبيد الله المهدي بالاطمئنان على بيته وملكه إلا بعد أن فرغ من بناء المهدية الذي بدأ في عام (٣٠٠هـ/ ٩١٢ـ ٩١٣م) وانتهى في عام (٣٠٦هـ/ ٩١٨ـ ٩١٩م)، وانتقل إليها مع أهله وأمواله وذخائره وجنده عام (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م) على الأغلب، ويؤثر عنه أنه قال عندما استقر فيها: «الآن أمنت على الفاطميات».

ويرى بعض المؤرخين أن سبب بناء المهدية هو انقلاب الزعماء الكتاميين الذين قامت الدولة على أكتافهم، على عبيد الله المهدي، بتحريض من أبي العباس وأخيه الداعي.

العلاقات الخارجية

العلاقات الخارجية مع المشرق الإسلامي

العلاقة مع القرامطة في البحرين

قيام الدولة القرمطية في البحرين

القرامطة طائفة سياسية ـ دينية عُرفت بذلك نسبة إلى أحد دعاتها حمدان بن الأشعث الملقب بـ «قرمط»[1] ظهرت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن

---

(١) كان حمدان قرمط رجلاً أحمر العينين يحمل على أثوار له، وكان أهل القرية يسمونه كرميتة، وهو بالنبطية أحمر العينين. ويبدو أن مرحلة الستر والتخفي التي كان يمارسها الدعاة فرضت على حمدان تلك المهنة لإخفاء مهنته الرئيسية. وفي رواية لابن العديم أن لفظة قرامطة إنما هي نسبة إلى مذهب يقال له القرامطة خارج عن مذاهب الإسلام. نيكون على هذه المقالة عزوه إلى مذهب باطل لا =

الثالث الهجري، وهي استمرار للدعوة الإسماعيلية على الرغم من الأطوار العصيبة التي مرت بها العلاقة بين الحركة الأم (الإسماعيلية) والحركة الناشئة (القرمطية)، ووصولها إلى حد المواجهة المسلحة، حين هاجم القرامطة مدينة سلمية مركز الدعوة الإسماعيلية. وكان النزاع بين حمدان قرمط وأسياده قد تفجَّر حول مسألة الإمامة. فقد كان حمدان وعبدان[١] قد تلقيا الأمر بتعليم أن الإمام محمد بن إسماعيل كان لا يزال حياً، وأن عودته في صورة المهدي باتت وشيكة. وادعى، في تلك الأثناء، عبيد الله الإمامة لنفسه وأنكر عودة محمد بن إسماعيل، فعدَّ حمدان وعبدان نفسيهما بأنهما خُدعا، وأوقفا الدعوة له[٢]، كما أن عصمة الإمام كانت مثار خلاف بين الطرفين، إذ لم تكن العصمة معروفة لأحد عند القرامطة.

نشأت الحركة في سواد العراق في عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م) في عهد الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ـ ٨٩٢م) ثم انتقلت إلى بلاد الشام والبحرين واليمن، وذلك في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية هي نفسها التي قامت في ظلها حركة الزَّنْج[٣]. والراجح أن الاتجاه الاجتماعي ـ الاقتصادي، قد غلب على اتجاهها الديني على الرغم من أن دعاتها كانوا متطرفين في آرائهم الدينية المتعلقة بالشريعة الإسلامية.

= إلى رجل، ويتوافق ذلك مع القول بأن كلمة قرمطة هي كلمة آرامية تعني العلم السري، والمعنى الذي تدل عليه كلمة قرامطة، وهو السري، يتفق مع لقب الباطنية، وهو القول بوجود علم ظاهري وعلم داخلي خاص. وعلى هذا يكون معنى القرامطة هو الباطنية. انظر: الطبري: جـ ١٠ ص ٢٣ ـ ٢٥. القاضي، أحمد عرفات: الفكر السياسي عند الباطنية، وموقف الغزالي منه ص ١٧.

(١) عبدان الكاتب: صهر حمدان وفيلسوف الدعوة، وقد ألَّف كتباً ومدونات كثيرة بينها عشرة كتب قيِّمة في المذهب. وكان صاحب مدرسة فكرية ظلت مخلصة لآرائه بعد مماته، لكن شيئاً من تراثها لم يصل إلينا.

(٢) كان أتباع قرمط يتلقون التعليمات من السلمية وينفِّذونها بشكل دقيق. وذات مرة أرسل قرمط رسوله إلى السلمية والتقى هناك بصاحب الدعوة الأول، فروى له حقيقة الموضوع، وأن الدعوة لأولاد عبد الله بن ميمون القداح. ولما عاد الرسول إلى سواد الكوفة ونقل الخبر إلى قرمط، أدرك حقيقة اللعبة وترك الصلة بسلمية، وبدأ العمل وحده منفرداً ولنفسه. انظر. شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي جـ ٦ ص ٨١ ـ ٨٢.

وينكر المستشرق الروسي إيڤانوف العلاقة بين القرامطة والإسماعيليين، ويؤكد بأن الفاطميين يبغضون القرامطة بقدر ما يبغضهم أهل السنَّة.

راجع برنارد لويس: أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية ص ٥٥.

(٣) انظر فيما يتعلق بالظروف المشار إليها كتابنا تاريخ الدولة العباسية ص ١٧٢ ـ ١٧٥.

ويُعد حمدان بن الأشعث، وهو من أهل الكوفة، أحد دعاة القرامطة الأوائل، وقامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزَّنْج، واتجهت إلى أولئك الذين نجوا في المناطق التي عمَّت فيها الحركة المذكورة، فصادفت رواجاً كبيراً بين صفوف الأعراب، الذين يتوقون إلى الغنائم، وفلاحي السواد، والطبقات الفقيرة.

وحدث أن خبت الحركة في العراق بفعل الخلاف الذي حصل بين قادتها والقيادة الإسماعيلية. وترتبط بدايات الدعوة القرمطية في البحرين بالحركة القرمطية في سواد الكوفة منذ أيام حمدان قرمط وعبدان. فقد جرى إرسال داعية إلى منطقة هجر[1] يدعو بين قبائلها. والراجح أن اسم هذا الداعية، أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي، وقد أرسل في عام (٢٨١هـ/ ٨٩٤م)[2]، ثم أُلحق، بعد مدة، بأبي سعيد الحسن بن بهرام الجنّابي[3]، وذلك بعد القضاء على حركة الزَّنْج.

قام أبو سعيد بتصفية الداعي الطمامي وتوسع في هجر والأحساء[4] والقطيف[5]، وسائر البحرين، وأنشأ دولة مستقلة عاصمتها المؤمنية، وذلك في عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م).

موقف القرامطة من عبيد الله المهدي

في عهد أبي سعيد: ٢٩٧ ـ ٣٠١هـ/ ٩١٠ ـ ٩١٤م

عمل عبيد الله المهدي، منذ أن اعتلى الحكم، بوصفه الإمام الفاطمي، على:

- الإشراف على الدعوة الإسماعيلية.
- تعيين الدعاة.
- ضمان اعتراف كافة أتباعه في مختلف جزر[6] العالم الإسلامي بإمامته،

---

(١) هجر: مدينة، وهي قاعدة البحرين. الحموي: جـ ٥ ص ٣٩٣.

(٢) زكار، سهيل: الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ١٤٧.

(٣) الجنّابي: نسبة إلى جنّابة وهي بلدة على ساحل الخليج العربي.

(٤) الأحساء: مدينة بالبحرين. الحموي: جـ ١ ص ١١٢.

(٥) القطيف: مدينة بالبحرين. المصدر نفسه جـ ٤ ص ٣٧٨.

(٦) الجزر: كانت الدعوة الإسماعيلية ذات أهداف عالمية ومقاصد أممية، لذلك أقدمت على تقسيم العالم إلى عدة قطاعات دعوية دُعي كل منها باسم جزيرة، وأُرسل إلى كل جزيرة أحد الدعاة الكبار، وارتبط دعاة الجزر جميعاً بداعٍ للدعاة يتصل مباشرة بالإمام، وقسمت كل جزيرة إلى عدة مراكز دعوية يتولى شؤون الدعوة في كل منها واحد من الدعاة كان ارتباطه المباشر بداعي الجزيرة الذي كان بمثابة داعي الدعاة في جزيرته.

وتوجيههم توجيهاً جديداً يتناسب مع التطور السياسي للحركة الإسماعيلية.

- استخدام الدعوة لصالح الدولة الفاطمية.

فأخذ يملي إرادته على أتباعه، ويُشعرهم بسلطته المطلقة، ويتدخل في تعيين رؤسائهم وعزلهم، بفعل أن سلطته الدينية والدنيوية تخوله ذلك. نتج عن هذه السياسة حصول نفور بين فروع الدعوة في المشرق وبين القيادة في المغرب.

لقد عزَّ على الجنَّابية في البحرين أن يُسلبوا بعض نفوذهم بسبب ظهور الإمام المستور في شخص عبيد الله المهدي، وضعف حماس أبي سعيد للدولة الفاطمية، وأخذ يعمل بشكل شبه مستقل مستوحياً مصلحته الخاصة، وكان ذلك يتعارض مع سياسة الفاطميين وزعامتهم.

والراجح أن أبا سعيد لم يكن راضياً عن زعامة عبيد الله المهدي للحركة الإسماعيلية وإن كان قد اعترف بسلطته بوصفه الرئيس الأعلى للطائفة الإسماعيلية[١].

وقف العباسيون على هذا التباعد بين الطرفين، فعملوا على توسيع الهوة بينهما، لكن الكراهية التي يكنُّها القرامطة للخلافة العباسية حالت دون ذلك التفاهم بين الطرفين، في ذلك الوقت، بدليل قيام القرامطة بشن غارة، ولو محدودة، على الأراضي العباسية في نهاية عام (٢٩٩هـ/ ٩١٢م)، إذ تتحدث المصادر التاريخية عن وحدة مقاتلة من ثلاثين رجلاً هاجمت البصرة[٢]. وشعر عبيد الله المهدي من جانبه بهذا الفتور من جانب أبي سعيد، فشكَّ في إخلاصه له، وعمل على التخلص منه، كما حاول في الوقت نفسه إلغاء مبدأ الوراثة في الحكم بين القرامطة كما أرادها زعماؤهم؛ تجنباً لاستبداد هؤلاء بالأمور دون الفاطميين، وهو ما لا يرضاه.

واغتيل أبو سعيد في الأحساء في عام (٣٠١هـ/ ٩١٤م) على يد خادم له صقلبي. ولا أستبعد أن يكون القتل مؤامرة عباسية أو فاطمية بفعل أن للدولتين مصلحة مشتركة في التخلص منه. والملفت للانتباه أن الغلمان الصقالبة كانوا غير منتشرين في المشرق، بل في المغرب والأندلس، وأن الرقيق الأبيض في المشرق كان معظمه من أصل تركي، فهل يعني هذا إرسال هذا الغلام من الشمال الإفريقي بطريقة ما، من قِبل الدولة الفاطمية[٣].

---

(١) حسن وشرف: ص ٢١١.

(٢) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٦١٤ ـ ٦١٥.

(٣) المصدر نفسه. زكار: ص ٤٦٧.

في عهد سعيد: ٣٠١ ـ ٣٠٥هـ/ ٩١٤ ـ ٩١٧م

كان أبو سعيد على معرفة بقدرات أبنائه واستعدادهم لتحمل المسؤولية من بعده، كما اتصف ببعد النظر السياسي، والحكمة، فأوصى أن يكون القيِّم من بعده ابنه الأكبر سعيد إلى أن يكبر ابنه أبو طاهر سليمان حيث يتسلم الحكم من أخيه، وجرى الأمر على ما أوصى به.

إذاً، خلف سعيد أباه، دون الحصول على موافقة عبيد الله المهدي. واستمرت في عهده حالة الفتور مع الدولة الفاطمية في شمال إفريقية، فاستغل العباسيون ذلك وحاولوا، مجدداً، استقطاب القرامطة وإبعادهم عن صاحب المغرب من جهة، واتقاء شرهم، ومنعهم من مهاجمة قوافل الحجاج من جهة أخرى، والجدير بالذكر أن بلادهم تقع على طريق الحج. وفعلاً ساد السلام بين الطرفين حتى عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م)، حيث جرى نقل هادىء للسلطة إلى أبي طاهر سليمان[١].

في عهد أبي طاهر سليمان: ٣٠٥ ـ ٣٢٢هـ/ ٩١٧ ـ ٩٣٤م

كان أبو طاهر سليمان قائداً شجاعاً، وتحت شعار «لا طاعة إلا لله والحرب غداً» بادر بشن حروبه متحدياً الخلافة العباسية. وقد توافقت مصالحه مع مصالح الفاطميين في شمال إفريقية مما استخدم كأساس للبرهنة على وجود اتفاق خاص ووثيق للقرامطة بقيادة أبي طاهر سليمان مع عبيد الله المهدي، إلا أنه بغض النظر عما يتطلبه أمر إخفاء الاتفاق السري بين مختلف فروع الحركة الإسماعيلية من جهد، فإن الإطاحة بالعباسيين يبقى الهدف الأسمى.

بدأ أبو طاهر سليمان نشاطه العسكري في عام (٣١١هـ/ ٩٢٣م) بعد هدنة طويلة، وتحرك متجهاً إلى البصرة في الوقت الذي كان فيه الفاطميون يهاجمون مصر مما عُدَّ اتفاقاً مسبقاً بين الطرفين، من جانب بعض المؤرخين، والجدير ذكره أن الحملات الفاطمية على مصر ابتدأت في عام (٣٠١هـ/ ٩١٣م)، واستمرت على شكل حملات شبه دورية.

وأغار أبو طاهر سليمان على العراق في عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)، وتقدم نحو بغداد، وكادت تقع في يده لولا دهاء مؤنس الخادم، قائد الخليفة العباسي المقتدر، الذي أجبره على الارتداد، لكنه هاجم المناطق الشمالية، ووصل إلى

---

(١) يذكر ابن الأثير أن سعيداً عجز عن الاضطلاع بأوضاع الحكم، فخُلع، وتولى أخوه الحكم مكانه. الكامل في التاريخ: جـ ٦ ص ٦٣.

الرحبة[١]، وخافه أهل قرقيسياء[٢] فصالحوه على جزية سنوية[٣]، ووصل في زحفه إلى مدينة سنجار[٤]، وبذلك أضحى نفوذ القرامطة كبيراً في شمال العراق. ويبدو أنه لم يكن ينوي الاستقرار في هذه المناطق الشمالية البعيدة نسبياً عن بلاده وآثر توطيد مكاسبه في الجنوب.

وترجع أهمية هذه الحملة، من وجهة نظر عبيد الله المهدي، إلى أن الزعيم القرمطي خرَّب مدن العراق، وبثَّ الرعب في قلوب السكان، وشجَّعت غاراته البيزنطيين الذين قاموا بشن الغارات على الأراضي العباسية، مما أربك العباسيين فعلاً وشغلهم عما كان يجري في المغرب.

وهاجم أبو طاهر سليمان قوافل الحجاج في عام (٣١٧هـ/ ٩٢٩م)، حين رفضت الخلافة العباسية شروطه التي وضعها من أجل الصلح، وكان من ضمنها أن يتنازل له الخليفة عن البصرة والأهواز، وأن يعترف بسيادته عليهما. ويبدو أن هذا المطلب يهدف إلى توحيد المناطق الموالية للقرامطة، فهم انطلقوا من الكوفة، وكانت البصرة في الطريق إلى الأهواز والبحرين، كما أنها منفذ بحري يريد أبو طاهر سليمان استخدامه في حال انقطاع الطريق البري، وهذا يثبت أنه كان يعمل لمصلحته الخاصة من دون القضية الإسماعيلية العامة، ومن دون تنسيق مع الفاطميين في شمال إفريقية. كما أغار في (شهر ذي الحجة ٣١٧هـ/ شهر كانون الثاني ٩٣٠م) على مكة، فعبث بالحجاج، وقتلهم في المسجد الحرام، ونهب أموالهم، وضايق أهل مكة، ثم اقتلع الحجر الأسود من الكعبة وحمله إلى هجر، مع ما يمثل ذلك من تحدٍ كبير لشعور المسلمين. واقتصرت ردود فعل الخليفة العباسي المقتدر على توجيه الإنذارات، وإطلاق التهديدات إلى الزعيم القرمطي، لعجزه عن التصدي له[٥]. وأدَّت هذه الأحداث، فعلاً، إلى التقليل من هيبة الخلافة العباسية، وأثبتت عجزها عن حماية

(١) الرحبة: رحبة مالك بن طوق، تقع بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل قرقيسياء. الحموي: جـ ٣ ص ٣٤.

(٢) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٣٢٨.

(٣) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٧٢٠ ـ ٧٢١.

(٤) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبلٍ عالٍ. الحموي: جـ ٣ ص ٢٦٢.

(٥) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٧٤٢.

نفسها ورعاياها وتأمين طريق الحج في الوقت الذي أخذ فيه نفوذ الفاطميين يتعاظم.

يتحمل أبو طاهر سليمان المسؤولية الكاملة عن هجومه على مكة وما ترتب عليه من نتائج، وبدا للعديد من الناس أنه يعمل بتوجيه من عبيد الله المهدي وبخاصة بعد أن عدَّ هذا الأخير الخليفة العباسي فاسقاً وسعى إلى الغضِّ من شأنه والقضاء على الخلافة العباسية. والمعروف أن شكوكاً واسعة الانتشار كانت تحوم، إبان تلك السنوات، مفادها أن الحركتين الشيعيتين في شمال إفريقية والبحرين كانتا تعملان معاً يداً بيد. وحتى يُبعد الشكوك التي ثارت حول تورطه في ذلك العمل الشائن، أظهر استياءه، وكتب إليه من القيروان مستنكراً ومحذراً، ويأمره برد الحجر الأسود فوراً، وإعادة كسوة الكعبة وما أخذه من الحجاج[١].

وأرسل أبو طاهر سليمان إلى عبيد الله المهدي رداً على كتابه قائلاً إنه غير قادر على إعادة الحياة إلى الذين قُتلوا، لكنه وعد بأنه سيعمل على إعادة الحجر الأسود إلى بيت الله الحرام. ولا يمكن تفسير هذه الرسالة، وذلك الرد على أنهما برهان على وحدة القرامطة والفاطميين أو على استمرارية هذه الوحدة، إذ لم تتم إعادة الحجر الأسود إلا في عام (٣٣٩هـ/ ٩٥١م)[٢]، أي بعد وفاة أبي طاهر سليمان بسنوات. وعرض بجكم، المتغلب على الدولة في بغداد في أيام الخليفة العباسي المستكفي (٣٣٣ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٥ـ ٩٤٦م)، مبلغ خمسين ألف دينار من الذهب على أن يردوه، فأبوا[٣].

الواضح أن معركة مكة كانت مواجهة بين القرامطة والدولتين العباسية والفاطمية. وكان العدوان على الحجاج أمراً رهيباً وعملاً مرفوضاً، ولكننا قد نجد له تفسيراً في:

- **الاعتقاد الديني**: فالقرامطة يشكلون إحدى الفرق الدينية الباطنية. والمعروف أن الباطنيين يتصفون بالتطرف الشديد في آرائهم الدينية ويعطِّلون الشرائع من خلال تفسيرها تفسيراً باطنياً، وإن اقتلاع الحجر الأسود من الكعبة وحمله إلى خارج مكة يعطل فريضة الحج، وهذا ما هدفوا إليه.
- **الحالة السياسية**: كانت الخلافة العباسية تمر آنذاك بمرحلة فوضى سياسية بفعل الصراع الداخلي بين القادة الأتراك، ثم بينهم وبين الخليفة. وتفشت في المجتمع

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٧٤٢.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٧ ص ١٩٠.
(٣) المصدر نفسه.

العباسي ظاهرة تكوين دول انفصالية في الأطراف على حساب الخلافة، كان من بينها دولة القرامطة في البحرين، وقد سعت إلى التوسع والقضاء على الخلافة العباسية ووراثتها في المشرق الإسلامي، ومجابهة الدولة الفاطمية في شمال إفريقية، التي بدأت ترنو ببصرها نحو الشرق.

- **الحالة الاقتصادية**: تردَّت آنذاك أوضاع القرامطة الاقتصادية بعد معارك العراق والخسائر البشرية والمادية التي تكبدوها في تلك الحروب، فكان لا بد من توفير المال اللازم لاستمرارية تلك الدولة، وتشكل ظاهرة سلب الحجاج غنيمة دسمة يمكن أن تسد حاجة اقتصادية ملحة.
- **الحالة النفسية**: إن الجرأة في التعدي على المقدسات الإسلامية وقتل الحجاج في مكة، المدينة الإسلامية المقدسة، يعطيهم هيبة ورهبة في نفوس المسلمين.

ومن هذا الواقع الديني والسياسي والاقتصادي والنفسي تمَّ ذلك العدوان. أما إعادة الحجر الأسود، فقد تمَّ تحت ضغط ظروف سياسية تمثَّلت باشتداد شوكة الفاطميين، ومن أجل تحقيق هدنة مع العباسيين، تحسباً لمواجهات مقبلة مع أولئك، هذا على الرغم من أنهم فسَّروا حادثة إعادته تفسيراً يتوافق مع اعتقادهم الديني، «أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئته»، «أخذناه بأمر ولن نعيده إلا بأمر»[1].

ويبدو أن جزم القرامطة بأنهم كانوا يعملون بأمر، لم يكن يعني إحالة مسؤولية تلك الأفعال ونقلها إلى شخص معين. ففي جذور هذا الأمر يكمن أحد معتقداتهم الأساسية، وهو أن كل شيء يحدث كان مقدَّراً له بالضبط أن يحدث، وأنهم وحدهم كانوا على معرفة، بوصفهم المؤمنين الحقيقيين، بهذا القدر. ويروي ابن خلدون أنهم اقتلعوه بأمر من إمامهم، عبيد الله، ولن يعيدوه إلا بأمر منه أو من خلفه[2]. وتتفرد هذه الرواية بتحديد اسم الشخص المسؤول، وتدل قرائن الأحداث على استبعاد ذلك.

العلاقة مع اليمنيين

كان لضعف الدولة الزيادية[3] في اليمن، وبُعد هذه البلاد عن مركز الخلافة

---

(١) الخليفة، مي محمد: من سواد الكوفة إلى البحرين، القرامطة من فكرة إلى دولة. ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) تاريخ ابن خلدون: جـ ٤ ص ٨٩. مادلونغ، ويلفيرد: الفاطميون وقرامطة البحرين. بحث في كتاب الإسماعيليون في العصر الوسيط. جمعه، فرهاد دفتري: ص ٥٣.

(٣) الدولة الزيادية أسسها محمد بن إبراهيم الزيادي في عام (٢٠٢هـ/ ٨١٧م)، وكان والياً للعباسيين على اليمن.

العباسية في بغداد، وتراجع عقائد المذهب الخارجي والمذاهب الشيعية، أثر كبير في نجاح الدعوة الإسماعيلية في هذه البلاد. ففي ظل هذ الظروف، بعث محمد الحبيب، إمام الإسماعيلية في سلمية، كلًّا من علي بن الفضل اليماني، وأبي القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي، إلى اليمن لينشرا الدعوة للمهدي من آل محمد، فلما وصلا إلى اليمن في عام (٢٦٨هـ/ ٨٨١م)، اتجه علي بن الفضل إلى جيشان(١) ويافع(٢) الجبلية المنيعة القريبة من الجند(٣)، في حين قصد ابن حوشب مدينة الجند الجبلية في الجنوب، وأخذا يبثان الدعوة الإسماعيلية في ربوع تلك البلاد.

وصل ابن حوشب في دعوته إلى لاعة(٤)، واتخذ من قلعة عدن لاعة القريبة منها مركزاً تحصَّن فيه وانطلق منه لنشر دعوته، واستقطب سكان هذه البلاد بفضل ما أظهره من التقوى والزهد والتقشف، وبنى الحصون والمعاقل، وأعدَّ جيشاً زحف به على صنعاء وأخرج منها بني يعفر، وبعث الدعاة إلى جميع أرجاء اليمن، فنشروا الدعوة الإسماعيلية بين سكانه، وتمكَّن بمعاونتهم من بسط نفوذه على معظم بقاع اليمن، وأضفت عليه انتصاراته لقب المنصور(٥).

أضحت اليمن، بفضل جهودهما، مركزاً رئيسياً لنشر الدعوة، وإرسال الدعاة إلى مختلف المناطق الإسلامية كمصر والمغرب وسواهما، وأملا في قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية على أيديهما في بلاد اليمن.

وعندما غادر عبيد الله المهدي سلمية في طريقه إلى بلاد المغرب، اصطحب معه داعي دعاته فيروز. فلما وصل إلى مصر، وشرع منها في الرحيل إلى المغرب، عارضه فيروز، الذي كان يأمل أن يقصد عبيد الله المهدي اليمن، ويقيم الدولة الفاطمية في ربوعها. ذلك أن الدعوة الإسماعيلية قامت على أكتافه في بلاد الشام واليمن ومصر، فتطلع إلى الاستمرار في زعامة تلك الجماعة الإسماعيلية في المشرق، فانفصل عنه، وتخلَّف عن السير معه إلى المغرب ثم يمَّم وجهه صوب اليمن، وذلك في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م)، فاستقبله ابن حوشب بمظاهر الحفاوة

---

(١) جيشان: مدينة وكورة في اليمن. الحموي: جـ ٢ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) يافع: موضع في اليمن. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٤٢٦.

(٣) الجند: أحد كور اليمن وأعظمها، بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٦٩.

(٤) لاعة: مدينة في جبل صبر من نواحي اليمن إلى جانبها قرية لطيفة يقال لها عدن لاعة. المصدر نفسه: ص ٧.

(٥) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٣٠ ـ ٣١.

والاحترام لما كان يتمتع به من مكانة خاصة عند عبيد الله المهدي[١].

وحاول فيروز خداع ابن حوشب، فتحدث معه عن مهمته فقال: «إن الإمام بعثه مشرفاً عليه إلى أن يقدم من المغرب بجنده إلى مصر، ويكتب إليه ليمده بالعساكر من أهل اليمن». على أن ابن حوشب ما لبث أن علم بالأسباب الحقيقية التي حملت فيروز على القدوم إلى اليمن، حين وصل إليه كتابان: الأول من عبيد الله المهدي، والثاني من الداعي أبي علي، صهر فيروز (زوج ابنته)، الذي كان قد أقامه على مصر قبل مغادرته إلى اليمن، يتضمنان كيف أن فيروزاً تخلَّى عن عبيد الله المهدي مغاضباً، وكان هذا الأخير يخشى عاقبة خروج فيروز عليه فأمر ابن حوشب بقتله[٢].

علم فيروز بما تضمنه كتاب عبيد الله المهدي، فهرب ملتجئاً إلى علي بن الفضل الذي كان يسعى إلى الزعامة والاستقلال بحكم اليمن، فأقنعه بالخروج على عبيد الله المهدي، ومحاربة ابن حوشب. وجرى بين الطرفين قتال طويل لم يؤدِّ إلى نتيجة حاسمة، لكن علي بن الفضل تمكَّن من الاستيلاء على المذيخرة[٣] وصنعاء في عام (٢٩٢هـ/ ٣٠٥م)، وأنكر سلطة الإمام[٤]، مما أضعف الحركة الإسماعيلية في اليمن، كما أن عبيد الله المهدي، على الرغم من حرصه على بسط سيادته على تلك البلاد، إلا أنه لم يتدخل، في بادىء الأمر، لوضع حد لهذا النزاع. ولعل انهماكه بتوطيد دعائم دولته في بلاد المغرب هو الذي حمله على الانصراف عنهما[٥].

ظل ابن حوشب على ولائه لعبيد الله المهدي، وتوفي في عام (٣٠٢هـ/ ٩١٤م) قبل أن يتمكَّن من إخضاع رفيقه السابق. ومن جهته، فشل علي بن الفضل في الاستئثار بالنفوذ، وتعرض لعداء أهل السنَّة وأنصار عبيد الله المهدي، فلم يستطع الصمود ومات مسموماً على أيدي الفاطميين ربما بإيعاز من عبيد الله المهدي، ولم يجد ابنه الذي تولَّى الأمر من بعده، من الأنصار ما يساعده على الاستمرار. وقضى عليه أهل السنَّة، وتتبعوا أعوانه حتى قضوا عليهم[٦].

---

(١) اليماني، محمد بن محمد: سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي من سلمية ووصوله إلى سجلماسة. ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المذيخرة: اسم قلعة حصينة في رأس جبل صبر في اليمن، وهي قرية من عدن. الحموي: جـ ٥ ص ٩٠.

(٤) اليماني: ص ١١٥.

(٥) سرور، محمد جمال الدين: سياسة الفاطميين الخارجية ص ٧٤.

(٦) الحمادي، محمد بن مالك: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٦ ـ ٣٩.

كان ابن حوشب قد أوصى قبل وفاته، بالأمر إلى ابنه الحسن وتابعه عبد الله بن عباس الشاوري، بانتظار قرار الإمام، وأمرهما بأن يستمرا في إقامة الدعوة لعبيد الله المهدي[1]. كان عبد الله بن عباس الشاوري يطمع في حكم اليمن والاستقلال بأمر الدعوة، فكتب إلى عبيد الله المهدي يعلمه بوفاة ابن حوشب، ويطلب منه أن يعينه والياً من قبله على اليمن، وعزْل الحسن بن حوشب. ولما كان هذا الأخير يرى نفسه أحق بالولاية، ذهب إلى المغرب، وقابل عبيد الله المهدي، وطلب منه أن يخلف والده، غير أن عبيد الله المهدي لم يجبه إلى طلبه، إذ رأى أن مصلحة الدولة تقضي بإقصاء الحسن بن حوشب، وتولية عبد الله بن عباس الشاوري مهمة الإشراف على الطائفة الإسماعيلية في اليمن. وعاد هذا الأخير إلى اليمن دون أن يحقق رغبته[2].

أثبت عبيد الله المهدي بتدخله في شؤون اليمن:

- ما كان يتمتع به من نفوذ في هذه البلاد.
- حرصه على اختيار من يثق به ليكون عوناً له على نشر دعوته، وبخاصة بعد أن ضعف أمر اليمن نتيجة النزاع الذي قام بين علي بن الفضل وابن حوشب.
- مقدرته على توجيه الدعوة لمصلحة الدولة الفاطمية.
- كما أراد أن يُشعر كبار دعاته وأبناءهم، أنه صاحب القرار.

لكن فاته أنه بعمله هذا إنما ألقى بذور الشقاق في ذلك البيت الذي ظل على ولائه له ولآبائه من قبله، وأضعف قوة الإسماعيليين في اليمن. ذلك أن قراره هذا لم يلقَ ارتياحاً في نفس الحسن بن حوشب الذي استاء من تصرفاته، فأضمر السوء والعداوة لعبد الله بن عباس الشاوري، وما لبث أن قتله وتولى الأمر من بعده[3]، وانقلب على المذهب الإسماعيلي، وأضحى معادياً للدولة الفاطمية، واعتنق مذهب أهل السنَّة، فأطاعه هؤلاء والتفوا من حوله، وعارضه أخوه جعفر، فغادر اليمن إلى المغرب للاجتماع بعبيد الله المهدي وإعلامه بمناهضة أخيه للدعوة الإسماعيلية، فوجده قد توفي.

وتتبَّع الحسن بن حوشب أنصار أبيه من الإسماعيلية، وأخذهم بالشدَّة، مما أدَّى إلى تفرقهم في البلاد. وحرص من استطاع النجاة من اضطهاده على كتمان أمرهم حتى لا يتعرضوا للمضايقة. ويبدو أن التفاف أهل السنَّة حوله كان مرحلياً، إذ

(١) الحمادي: ص ٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٠.

(٣) المصدر نفسه.

لم يلبث هؤلاء أن عدُّوه زنديقاً يجب قتله، فتآمروا عليه وقتلوه، وتعرَّض أهله وأتباعه للاضطهاد، واندثر عقبه[1].

تأثرت الدعوة الإسماعيلية بهذه الانشقاقات، والتطورات السلبية فاغتنمت العناصر السنيَّة هذه الفرصة لتقاوم، بنجاح، الإسماعيليين بعامة، وبقي الوضع غير محسوم إلى وفاة عبيد الله المهدي. لكن قوة الإسماعيليين تراجعت، وانحصرت في مجموعات قليلة العدد تعيش في سريَّة تامة في شمال غربي صنعاء وجنوبها[2].

العلاقة مع الخلافة العباسية

بُنيت الحركة الإسماعيلية على أسس متعارضة مع العقيدة السنيَّة والتطلعات العباسية السياسية، ونمت على فكرة تدميرها، وكوَّنت من أجل ذلك التنظيم السياسي الديني المعروف بالدعوة، فانتشر دعاة الفاطميين في أراضي الدولة العباسية يقومون بنشاط سياسي ومذهبي ليتمكنوا من القضاء على خلافة العباسيين السنِّيين[3].

وكان لظهور القرامطة في العراق الجنوبي، والتشابه بين دعوتهم والدعوة الإسماعيلية ، أثر كبير في استقطاب كثير من سكان الولايات العباسية إلى المذهب الإسماعيلي، فصارت بلاد السواد[4] تموج بأتباع الأئمة الإسماعيليين، كما أضحى لهم أنصار في بغداد نفسها، وأن عبيد الله المهدي اتخذ دعاة له في هذه المدينة، كانوا يزودونه بأخبار العباسيين[5]، واستطاع بفضلهم، وبفضل دعاة بلاد الشام؛ التغلب على الصعوبات التي واجهته وهو في طريقه من سلمية إلى إفريقية[6].

والواقع أن الدعاة في بغداد قاموا بنشاط ملحوظ في نشر دعوتهم، فجذبوا عدداً من كبار قادة ورجال الدولة العباسية، مثل يوسف بن أبي الساج الذي أفضى إلى كاتبه محمد بن خلف أنه متى جمع خراج واسط والكوفة وسقي الفرات عن عام (٣١٤هـ/ ٩٢٦م) سوف يشقُّ عصا طاعة الخليفة العباسي، ويظهر الدعوة لعبيد الله المهدي، ويدعو الناس إلى الدخول فيما دخل فيه. فكتب محمد بن خلف بذلك إلى نصر الحاجب، فأوصله إلى مسامع الخليفة العباسي، هذا على الرغم مما ذكره

---

(١) الحمادي: ص ٤٠ ـ ٤١.
(٢) الدشراوي: ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٣) سيد: ص ٦٠.
(٤) السواد: رستاق العراق وضياعها التي فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب، سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار. الحموي: جـ ٣ ص ٢٧٢.
(٥) سرور: ص ١٦٣.
(٦) حسن وشرف: ص ١٢٥ ـ ١٢٨، ٣٠٧.

ابن الأثير، أن محمداً بن خلف هو الذي اتهم يوسف بن أبي الساج بذلك طمعاً في اعتلاء منصب الوزارة[١].

والراجح أن يوسف بن أبي الساج كانت تحدوه مثل هذه الرغبة في الخروج على طاعة الخليفة العباسي، والانتماء إلى عبيد الله المهدي، وإن كانت الفرصة لم تحن بعد لتحقيق ذلك، بدليل أنه بعث برسالة إلى عبيد الله المهدي يعترف فيها بإمامته، ويعلن استعداده لمعاونته[٢].

إذن، كان من الطبيعي أن ينشأ العداء بين الدولة العباسية السنيَّة والدولة الفاطمية الشيعية، وبخاصة أن الفاطميين بدأوا، بعد أن ركَّزوا دعائم دولتهم في إفريقية، يتطلعون للتمدد نحو الشرق للقضاء على الخلافة العباسية، إذ كانوا يعتقدون أن العباسيين مغتصبين ولا يحق لهم بالزعامة الروحية والسياسية، بل أضحوافي نظرهم من الخارجين على الدين. وأراد عبيد الله المهدي أن ينتزع زعامة العالم الإسلامي من الخليفة العباسي المقتدر وأبدى عزم الفاطميين ورغبتهم الأكيدة في سحق العباسيين حين قال: «لنملكنَّ أنا وولدي ولدَ العباس، ولتدوسنَّ خيولي بطونهم»، على الرغم من أنه لم يكن يملك القوة العسكرية الضرورية للقيام بمثل هذه المغامرة في هذا الوقت المبكر من حياة الدولة[٣].

والواضح أنه أثار قيام الدولة الفاطمية في إفريقية مخاوف العباسيين لأن من شأن ذلك أن يمكِّن الفاطميين، في المستقبل، من بسط نفوذهم على مصر وبلاد الشام وفلسطين والحجاز، فتصبح عندئذٍ الطريق إلى بغداد مفتوحة أمامهم، لذلك عمل الخلفاء العباسيون جاهدين للقضاء على محاولات الفاطميين التمدد باتجاه الشرق. ولما كان الوصول إلى المشرق الإسلامي يمر في مصر الواقعة تحت السيطرة العباسية؛ قرَّر عبيد الله المهدي ضرب الدولة العباسية في هذا البلد، والاستيلاء عليه كخطوة أولى، وقام بمحاولتين من أجل ذلك.

الحملة الأولى على مصر: ٣٠١ ـ ٣٠٢هـ/ ٩١٤ ـ ٩١٥م

انطلقت العمليات العسكرية بعد أن عيَّن الخليفة العباسي المقتدر، أبا منصور

---

(١) مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم جـ ١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨، وقارن بالكامل في التاريخ جـ ٦ ص ٧١٤ ـ ٧١٥.

(٢) حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٣) سيرة جعفر الحاجب: ص ١١٢.

تكين، عاملاً على الفسطاط، فوجَّه تكين حملة عسكرية بقيادة نائبه أبي النمر أحمد بن صالح، إلى منطقة برقة[1] للسيطرة عليها، وتمركز في سُرت استعداداً لمواجهة القائد الفاطمي حباسة بن يوسف الملوسي الكتامي، الذي خرج بدوره من قاعدته في توزر[2]، وزحف باتجاه برقة أيضاً[3]، لكنه اضطر إلى تغيير وجهة زحفه باتجاه سُرت للتصدي للقوات العباسية، وحدث في هذه الأثناء، تغيير في القيادة العباسية، مما سمح لحباسة بالتقدم نحو برقة، وسيطر عليها، وأقام معسكره فيها. ذلك أن تكين عزل قائده أبا النمر، وعين مكانه خير المنصوري، يساعده عبد العزيز بن كليب الجراشي، ويبدو أنهما لم يكونا على وفاق، فاصطدم بهما حباسة وانتصر عليهما، وأجبرهما على التراجع إلى الفسطاط[4].

تواصلت العمليات العسكرية، بعد حملة حباسة الاستطلاعية، من دون أن تؤدي إلى نتيجة حاسمة حتى كان عام (٣٠١هـ/ ٩١٤م) حين جهَّز عبيد الله المهدي جيشاً جراراً، عهد بقيادته إلى ولي عهده أبي القاسم، القائم، ودفعه باتجاه مصر للسيطرة عليها[5].

خرج القائم من رقَّادة متوجهاً إلى مصر يوم الخميس (١٥ ذي الحجة ٣٠١هـ/ ١٣ تموز ٩١٤م)، فمر بقابس، وطرابلس، ولما وصل إلى سُرت، كتب إلى حباسة ألا يغادر برقة حتى يأتيه. ويبدو أن حباسة أراد أن يكون له شرف الاستيلاء على مصر، أو أنه نفر من أن ينتزع القائم منه القيادة ويخضعه لإمرته، فتعجل السير إلى هذا البلد، ونجح في دخول الإسكندرية في (٣ صفر ٣٠٢هـ/ ٢٨ آب ٩١٤م)[6]. أما القائم، فقد غادر سُرت إلى أجدابية[7] ثم برقة، والتحق بحباسة في الإسكندرية في (١٥ ربيع الآخر/ ٧ تشرين الثاني)، ثم خرج منها متوجهاً إلى الفسطاط، واصطدم بقوات الوالي العباسي، وتوغل في الوجه البحري حتى أصبح على مقربة من الجيزة، غير أنه اضطر إلى التراجع إلى الإسكندرية تحت ضغط

---

(١) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية. الحموي: جـ ١ ص ٣٨٨.
(٢) توزر: مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٥٧.
(٣) الكندي، محمد بن يوسف: ولاة مصر ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٤) عماد الدين، إدريس ص ١٢٥.
(٥) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٧١.
(٦) عماد الدين، إدريس: ص ١٢٦.
(٧) أجدابية: بلد بين برقة وطرابلس الغرب. الحموي: جـ ١ ص ١٠٠.

القتال الذي جرى في مشتول بالقرب من الجيزة، فوصل إليها في (٥ رجب/ ٢٤ كانون الثاني ٩١٥م)[١].

وفي الوقت الذي كان فيه القائم يستريح من عناء القتال في الإسكندرية، أرسل الخليفة العباسي المقتدر قوة عسكرية إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم. ومما لا شك فيه أن القائم لم يكن قادراً على مواجهة القائد العباسي الذي وصل إلى الفسطاط في (١٥ رمضان/ ٧ نيسان) واضطر للعودة إلى إفريقية[٢].

وهكذا فشلت الحملة الفاطمية الأولى في تحقيق الهدف الفاطمي بالاستيلاء على مصر.

تعقيب على الحملة الأولى على مصر

كانت الظروف السياسية والعسكرية مهيأة للفاطميين للاستيلاء على مصر إلا أنهم فشلوا في ذلك، ويمكن رصد الملاحظات التالية:

- كان بتصرف القائم قوة عسكرية كثيرة العدد تكفي للانتصار على عامل مصر أبي منصور تكين بإمكاناته المحدودة.
- كان للفاطميين أنصار في مصر. فقد استطاعت الدعاية الإسماعيلية، التي كان يقوم بها الداعي أبو علي، استقطاب عدد كبير من المصريين الذين أبدوا استعدادهم لنصرة القائم، بل إن جماعة منهم كاتبوه وحثُّوه على غزو مصر. وكان القائم على اطلاع على الوضع السائد في الفسطاط، وأنه يستطيع الاعتماد على مساعدة أنصاره في الداخل. وحاول والي مصر ذكا الأعور، الذي خلف أبا منصور تكين، أن يضع حداً لنشاط أنصار الفاطميين، فلاحقهم وسجن كثيراً منهم[٣].
- إن الذي دافع عن مصر هم العباسيون، إذ أرسل الخليفة، العباسي قائده مؤنساً الخادم بجيش لا يقل عن أربعين ألف مقاتل مما اضطر القائم إلى الانسحاب والعودة إلى الإسكندرية ومنها إلى إفريقية، كما أشرنا[٤].
- يبدو أنه حصل تنافس على القيادة بين حباسة والقائم، تطور إلى خلاف، وانعكس سلباً على أوضاع المقاتلين. فقد كان القائم على جفاء مع حباسة وأراد

---

(١) الكندي: ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩. عماد الدين، إدريس: السبع الخامس ص ١٢٨.

(٢) الأنطاكي: ص ٦٩. ابن الأثير: جـ٦ ص ٦٣٦. عماد الدين، إدريس: المصدر نفسه ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٣) الكندي: ص ٢٩١.

(٤) مسكويه: جـ١ ص ٣٦.

أن يستبدله بقائد غيره، فأدرك حباسة ذلك وراح يتصرف من تلقاء نفسه بمعزل عن أوامر القائم، فاستولى على الإسكندرية بمفرده، ورفض مساندة القائم في الفيوم[1]، وتركه أمام القوات العباسية في الجيزة فأحرج موقفه. ولقد ألقى عبيد الله المهدي القبض عليه عند عودته إلى المغرب في منطقة نفزاوة وأمر بقتله[2].

- كانت الحملة الأولى على مصر ذات نتائج هزيلة، وهي أقرب إلى استعراض القوة بهدف إرباك العدو، وإظهار حق الفاطميين في الخلافة، والتعبير عن مطامعهم في الدولة الإسلامية[3].

الحملة الثانية على مصر: ٣٠٦ ـ ٣٠٩هـ/ ٩١٩ ـ ٩٢١م

بعد عودة القائم إلى رقَّادة، ثار أهل برقة على الحكم الفاطمي، وقتلوا الحامية الكتامية المكلَّفة بالمحافظة على المدينة. وكان من الضروري أن يحافظ عبيد الله المهدي على سيطرته على تلك المدينة القريبة من الحدود المصرية لتنفيذ سياسته الشرقية، لذلك وجَّه إليها في عام (٣٠٣هـ/ ٩١٥م) أحد قادته، أبا مديني اللهيصي لقمع الثورة. واجه هذا القائد مقاومة عنيفة من جانب السكان، وهذا يدل على أنهم يرفضون الخضوع للحكم الفاطمي. ولم يتمكَّن أبو مديني من إخضاع المدينة إلا بشق النفس، بعد حصار دام ثمانية عشر شهراً. واضطر سكان لوبية[4] ومراقية[5] المجاورتين إلى النزوح إلى الإسكندرية خشية من أن يهاجم الجيش الفاطمي بلادهم، وقد أرسل والي مصر ذكا الأعور إمدادات عسكرية إلى الإسكندرية تحسباً من تعرضها لهجوم فاطمي جديد[6].

أرسل عبيد الله المهدي، بعد استرداد برقة، ولي عهده القائم إلى مصر للمرة الثانية للاستيلاء عليها، وأمده هذه المرة بقوة بحرية مساندة. خرج القائم من رقادة يوم الاثنين (أول ذي القعدة ٣٠٦هـ/ ٥ نيسان ٩١٩م)، وتوجَّه إلى الإسكندرية على

---

(١) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام. الحموي: جـ ٤ ص ٢٨٦.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٧١.

(٣) الدشراوي: ص ٢١٥. انظر نص الخطاب الذي ألقاه القائم في الإسكندرية والذي يبين فيه حق الفاطميين في الحكم، عند: عماد الدين، إدريس ص ١٢٩ ـ ١٣٢. وانظر أيضاً ص ١٣٥.

(٤) لوبية: مدينة بين الإسكندرية وبرقة. الحموي: جـ ٥ ص ٢٥.

(٥) مراقية: أول مدينة يلقاها القاصد من الإسكندرية إلى إفريقية. المصدر نفسه: ص ٩٤.

(٦) الكندي: ص ٢٩٢. ابن عذارى: جـ ١ ص ١٧٣، ١٧٥.

رأس جيش كبير. تملَّك الخوف سكان المدينة وخشوا على أنفسهم مما دفعهم إلى النزوح عنها، ودخلها القائم من دون مقاومة يوم الجمعة (٩ صفر ٣٠٧هـ/ ١١ تموز ٩١٩م)[١].

توقف القائم في الإسكندرية قبل متابعة الزحف على الفسطاط، وذلك لتجميع صفوف قواته، وانتظار وصول الأسطول الفاطمي القادم لمساعدته، واكتفى بإرسال طليعة من جيشه بقيادة سليمان بن كافي، استولت على الفيومَ والأشمونين[٢]. ويبدو أنه أراد تحقيق هدفين آنيين، الأول: تأمين حاجات جيشه على حساب العدو. الثاني: فرض حصار اقتصادي على الفسطاط وحرمانها من الإمدادات الواردة من الجنوب عن طريق النيل[٣].

كان رد الفعل العباسي على هذه الحملة سريعاً وقوياً. فقد أرسل الخليفة العباسي قوة بحرية بقيادة ثمال الخادم، اصطدمت بالأسطول الفاطمي في سواحل رشيد ودمرته في (١٨ شوال ٣٠٧هـ/ ١٢ آذار ٩٢٠م)، ودخل ثمال، على إثر ذلك، الفسطاط. وقد أثَّرت هذه الهزيمة على الوضع النفسي للجيش الفاطمي البري الذي كان لا يزال مرابطاً في الإسكندرية، مما دفع القائم إلى تمديد إقامته فيها، وأرسل العباسيون، في غضون ذلك جيشاً برياً إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم الذي وصل إلى الفسطاط يوم الخميس (٣ محرم ٣٠٨هـ/ ٢٥ أيار ٩٢٠م)، ونزل في الجيزة، وأرسل قوة عسكرية إلى الأشمونين اصطدمت بالقوات الفاطمية في المخايض وتغلبت عليها[٤]، كما استعاد الفيوم.

عند هذه المرحلة من التطور العسكري، قرَّر القائم الرحيل عن الإسكندرية بفعل تناقص المؤونة فيها من جهة، ولخوض المعركة الفاصلة مع مؤنس الخادم من جهة أخرى، وتوجَّه نحو الصعيد، واستولى مجدداً على الفيوم والأشمونين، وطرد منهما الحامية العباسية بقيادة إبراهيم بن كيغلغ. تجنَّب مؤنس الخادم الدخول في معركة سافرة مع خصمه تاركاً الوباء الذي بدأ يتفشى في الجيش الفاطمي، والركود، يقضيان عليه. واقتصرت المواجهات العسكرية بينهما على

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٨١.

(٢) الأشمونين: قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير. الحموي: جـ ١ ص ٢٠٠.

(٣) الدشراوي: ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٤) الكندي: ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٦٥٩، ٦٦٦.

بعض المناوشات، وعمد مؤنس الخادم إلى قتل الحامية الفاطمية في الإسكندرية بقيادة فتح بن ثعلبة[١].

تحرَّج موقف القائم من هذه التطورات السلبية، واضطر للرحيل إلى تهنامت، ثم الانسحاب إلى برقة، والعودة إلى إفريقية، ووصل إلى المهدية في (أوائل رجب ٣٠٩هـ/ تشرين الثاني ٩٢١م)[٢].

وهكذا فشل القائم للمرة الثانية أمام القائد العباسي نفسه، مؤنس الخادم، الذي استحق عن جدارة لقب المظفر الذي منحه إياه الخليفة العباسي المقتدر. وقبيل مغادرته مصر، اغتنم القائم الفرصة، مرة أخرى، ليؤكد حق أسرته في الخلافة، كما نظم القصائد دعا فيها المشرقيين إلى الثورة على الحكم العباسي، ومساندة القضية العادلة لذرية فاطمة، وكان يأمل في الحصول على النتائج التي فشل في إحرازها بقوة السلاح[٣].

تعقيب على الحملة الثانية على مصر

- على الرغم من هزيمة القائم في حملته الثانية على مصر، إلا أن تأثيرها كان قوياً على الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية. فقد ألقت الرعب في قلوب المصريين، واستولى القائم على جزء كبير من خراج مصر[٤]، ونهب الموظفون العباسيون باقي هذا الخراج مما أدى إلى خلل في الوضع الاقتصادي، وانتشر المذهب الإسماعيلي بين المصريين، وسوف يساعد ذلك، إلى حد كبير، الفاطميين للاستيلاء على مصر في المستقبل.
- استغرقت حملة القائم الثانية على مصر مدة سنتين وثمانية أشهر.
- حاول عبيد الله المهدي بسط السيطرة الفاطمية على الحجاز، فقد كتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى طاعته ويعدهم بحسن السيرة فيهم، وكان يأمل من وراء ذلك تقوية مركزه في مصر وتعزيز موقفه أمام العباسيين. إلا أن أهل مكة رفضوا دعوته آنذاك، وأجابوه أن لهذا البيت رباً يحميه، ولن نؤثر على سلطاننا غيره[٥].

---

(١) الكندي: ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٦٥٩. عماد الدين، إدريس: ص ١٣٣.

(٢) الكندي: المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٩٦. عماد الدين، إدريس ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٤) عماد الدين، إدريس: المصدر نفسه ص ١٣٦.

(٥) عريب بن سعيد: صلة تاريخ الطبري ص ٧٧.

ويبدو أن الحجازيين رفضوا دعوته لأن نشاط الدعاة الإسماعيليين كان ضعيفاً، ولم يكن أهل الحجاز يعرفون شيئاً عن الدولة الفاطمية الناشئة لبعد المسافة بينهم وبين المغرب.

وهكذا نرى أن عبيد الله المهدي، منذ أن أسس الدولة الفاطمية، وهو يبذل جهده للقضاء على العباسيين وتزعُّم العالم الإسلامي، وكانت خطوته الأولى الاستيلاء على مصر كوسيلة لتحقيق غايته، وعلى الرغم من فشله إلا أنه خطا الخطوة الأولى ومهَّد الطريق لخلفائه الذين سيحققون هذه الرغبة (الاستيلاء على مصر).

العلاقات الخارجية مع المغرب الإسلامي

التوسع الفاطمي في المغرب الأقصى

شكَّل قيام الدولة الفاطمية في إفريقية خطوة لامتداد نفوذ الفاطميين نحو المغرب الأقصى الذي عدَّه عبيد الله المهدي المجال الحيوي لدولته، وقد أدى ذلك إلى الاحتكاك بالأدارسة والأمويين في الأندلس. ونتيجة لفشل حملته الأولى على مصر، قرَّر عبيد الله المهدي تكليف عامله على تاهرت مصال بن حبوس المكناسي بالقيام بحملة عسكرية في المغرب الأقصى، حيث بدأ الصراع العنيف مع قبائل صنهاجة، فاستولى على حاضرتهم نكور[١] في عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م)، وقتل حاكمها سعيد بن صالح، ونهب المدينة وسبى النساء والذراري ثم عاد إلى تاهرت، وكتب بذلك إلى عبيد الله المهدي[٢].

خرج بنو صالح من عاصمتهم فارين بأنفسهم والتجؤوا إلى الأندلس، وساعدهم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الأموي، على استعادتها، وقتل صالح بن سعيد عاملها الشيعي ذلول[٣].

جاء رد الفعل الفاطمي سريعاً على أحداث نكور، وكان عبيد الله المهدي يقوم بحملته الثانية على مصر التي كانت فاشلة وأدت إلى تدهور نفوذه، فرأى أن يستأنف عملياته التوسعية في المغرب الأقصى لإنقاذ وضعه السيء الذي بات فيه.

وانطلق القائد مصال بن حبوس من جديد من تاهرت في (أوائل عام ٣٠٨هـ/ صيف عام ٩٢٠م)، فاسترد نكور من الصنهاجيين، ويمَّم وجهه صوب الأدارسة في

---

(١) نكور: مدينة ساحلية على ساحل مراكش.
(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٧٥.
(٣) المصدر نفسه.

فاس، فاستولى عليها، وأخرج منها يحيى الرابع الإدريسي، وعيَّن عليها ابن عمه موسى بن أبي العافية المكناسي الذي كان يحقد على الأدارسة، ثم اقتحم سجلماسة وقتل حاكمها أحمد بن مدرار، المعادي للدولة الفاطمية، وعيَّن مكانه المعتز بن محمد بن مدرار المخلص لعبيد الله المهدي، وضمَّ بلاد صنهاجة في المغربين الأوسط والأقصى إلى الدولة الفاطمية. وبعد أن أنهى مهمته عاد إلى المهدية في (شعبان ٣١٠هـ/ كانون الأول ٩٢٢م)[١].

لكن هذا التفوق الفاطمي في المغرب الأقصى كان قصير الأجل، حيث سيتدهور الوضع، وسيتيح الفرصة لتدخل عبد الرحمن الناصر. ذلك أن أحد أمراء الأدارسة ويدعى الحسن بن محمد بن قاسم المعروف بالحجام، استرجع فاس وطرد حاكمها الفاطمي، وحارب موسى بن أبي العافية وانتصر عليه وحكم فاس مدة سنتين. كما ثارت زناتة بقيادة محمد بن خزر، على سلطة الفاطميين مما استدعى مصال إلى القيام بحملة أخرى في (أوائل عام ٣١٢هـ/ ربيع عام ٩٢٤م) ضد المغراويين الذين يشكلون أقوى بطون زناتة، ولقي مصال مصرعه في الاشتباكات التي جرت بين الطرفين. واستثمر الزناتيون انتصارهم هذا، فهاجموا تاهرت نفسها، غير أن موسى بن أبي العافية نجح في استعادة فاس في عام (٣١٥هـ/ ٩٢٧م)، واستولى على المغربين الأوسط والأقصى. ويبدو أنه داخله الغرور، فتطلع إلى الاستقلال بالمناطق التي سيطر عليها، فخلع طاعة عبيد الله المهدي، وانتمى إلى الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر الذي كان قد ثبَّت أقدام الأمويين في سبتة، ولاحق أنصار الفاطميين، وعمل على القضاء على ما تبقَّى من الأدارسة الذين فروا إلى إقليم الريف[٢].

وحرصاً منه على إنقاذ ملكه، قرَّر عبيد الله المهدي، في عام (٣١٥هـ/ ٩٢٧م)، القيام بحملة ضد موسى بن أبي العافية والمغراويين، فكلَّف القائم بتنفيذ تلك المهمة، فخرج من المهدية على رأس جيش كبير يوم الخميس (٩ صفر/ ١٥ نيسان)، واستطاع بعد اصطدامات قاسية أن يعيد للفاطميين كثيراً من نفوذهم. كما انتصر عامل تاهرت حميد بن مصال، على موسى بن أبي العافية، لكنه اقتصر على استرجاع فاس وعاد إلى إفريقية. لم يركن موسى إلى الهدوء، وشجَّع الثوار في فاس

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٩، ١٩١، ٢٠٠، ٢١٣ ـ ٢١٤. عماد الدين، إدريس ص ١٣٩.

ضد حامد بن حمدان، الوالي الفاطمي الجديد، فقتلوه وحملوا رأسه إليه، فأرسله إلى عبد الرحمن الناصر[1].

وهكذا، على الرغم من الجهود المبذولة، أسفرت السياسة التوسعية في المغرب الأقصى عن نتائج هزيلة، فقد اعترضتها عقبتان هما سياسة عبد الرحمن الناصر وتمرد الزناتيين، واضطر عبيد الله المهدي، قبل وفاته، إلى قبول تمركز الخليفة الأموي في المغرب الأقصى، وبقاء محمد بن خزر في المغرب الأوسط.

العلاقة مع الأمويين في الأندلس

إعادة إحياء الخلافة الأموية في الأندلس

كان فتح إسبانيا متصلاً، في كثير من جوانبه، بسياسة الفتوح في شمال إفريقية، وأن الأسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق[2] تتصل مباشرة بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشتها إسبانيا قبل الفتح، ونوقشت خطة الفتح بين الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ـ ٧١٥م)، وقائده على شمال إفريقية، موسى بن نصير، وقد أقرَّها الأول.

ويبدو أنه كان لسياسة الدولة الإسلامية العامة وعلاقتها بالبيزنطيين، وتأثير الحملة على هذه العلاقات، وبخاصة في المجال البحري، والسيطرة على الجزر في الحوض الغربي للبحر المتوسط، تأثير على قرار الخليفة.

وبعد نضوج الظروف التي هيأت للمسلمين انتصاراً آخر، أرسل موسى بن نصير، طارق بن زياد، نائبه على طنجة، في (رمضان ٩٢هـ/ حزيران ٧١١م)، على رأس قوة عسكرية، لفتح إسبانيا، فعبر المضيق[3]، ونزل تجاه الجزيرة الخضراء حتى بلغ بحيرة خندة جنوب غرب إسبانيا. وعلم بواسطة جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها الملك الإسباني لذريق، والتقى الجيشان عند وادي لكة، وجرت بينهما رحى معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين الذين فتحوا قرطبة وطليطلة.

وكتب طارق إلى موسى بن نصير يخبره بما حقق من انتصارات، فشجعه ذلك على العبور على رأس جيش إسلامي آخر في (رمضان ٩٣هـ/ حزيران ٧١٢م)، وفتح

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٩١ ـ ١٩٤، ٢١٤. عماد الدين إدريس: ص ١٤٠ ـ ١٥١ حيث تفاصيل وافية.
(٢) هو مضيق صخرة الأسد الفاصل بين القارتين الأوروبية والإفريقية، إسبانيا والمغرب الأقصى.
(٣) سُمي بعد ذلك بـ «مضيق جبل طارق».

مدناً أخرى مثل قرمونة، وإشبيلية، وصالحته ماردة. وامتدت فتوحاته إلى برشلونة شرقاً وأربونا في الجوف وقادش في الجنوب، وجيليقية في الشمال الغربي، ثم عبر جبال البرينيية الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، وغزا ولاية سبتمانية، وفتح قرقشونة، وناربون، كما غزا وادي الرون في بلاد الفرنجة، ووصل إلى مدينة ليون، في حين اجتاز طارق بن زياد وادي الأبرو، وغزا جيليقية، واشترك القائدان في فتح سرقسطة في إقليم أراغون، وبرشلونة[١].

وخلال العصر الأموي، تولى حكم الأندلس[٢] عدد من الولاة، فيما سمي بعصر الولاة والذي استمر حتى عام (١٣٨هـ/ ٧٥٦م). وشهد هذا العصر أوضاعاً مضطربة داخلياً بفعل أن الفتح حمل في طياته البذرة الجنينية للخلافات الخطيرة بما انضوى تحته من عناصر ذات أهواء وميول متنافرة، من عربية، وبربرية، ومولدين، بالإضافة إلى سكان البلاد الأصليين.

وعندما زالت الخلافة الأموية في دمشق على أيدي العباسيين، كان الأندلس الولاية الأشد تأثراً بانتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين. فقد عانت من فوضى الصراعات الحزبية والإقليمية خلال مدة غياب السلطة المركزية بين عامي (١٢٤ـ ١٣٨هـ/ ٧٤٢ـ ٧٥٦م)، وأدَّت التحولات الثقافية والاجتماعية، التي غيَّرت ملامح الأندلس، دوراً في هذا التمزق السياسي لتدفع البلاد إلى مرحلة جديدة في مسار التاريخ الأندلسي.

وأخذ الولاة العباسيون في المشرق يتتبعون الأمويين ويقتلونهم، إلا أن أميراً أموياً استطاع النجاة من مطاردة هؤلاء، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، فيمَّم وجهه صوب المغرب، ثم عبر المضيق إلى الأندلس في (ربيع الآخر ١٣٨هـ/ أيلول ٧٥٥م)، بعد أن نجح خادمه بدر في تهيئة الأجواء له، وكوَّن نواة قاعدة أموية اعتمدت في بادىء الأمر على العصبية اليمنية.

كان حاكم الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري، لكن السلطة الفعلية كانت في يد الزعيم القيسي الصميل بن حاتم. واستعد عبد الرحمن

---

(١) انظر فيما يتعلق بأحداث هذه الفتوح كتابنا تاريخ الدولة الأموية ص ١١٧ ـ ١٢٥.

(٢) كانت إسبانيا تؤلف جزءاً من الممتلكات الرومانية، إلى أن أغارت عليها قبائل الوندال الجرمانية في القرن الخامس الميلادي، واستقرت في السهل الجنوبي، وأعطت المنطقة اسمها ڤاندلوسيا، وقدعرَّب المسلمون هذا الاسم إلى الأندلس.

للاصطدام بهما، ونجح في التغلب عليهما في معركة جرت عند المسارة في (ذي الحجة ١٣٨هـ/ أيار ٧٥٦م)، دخل على أثرها مدينة قرطبة، وصلى بالناس صلاة الجمعة في مسجدها الكبير، وخطب فيهم معلناً قيام دولته الجديدة.

تعاقب على حكم الإمارة الأموية الجديدة عدد من الأمراء، فيما سمي بعصر الإمارة، واستمر حتى عام (٣١٦هـ/ ٩٢٩م)، كانت الأندلس خلالها إمارة أموية مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في المشرق. إذ في ذلك العام استتب الأمر للأمير عبد الرحمن الثالث، وكانت الوحدة السياسية للأندلس قد قطعت شوطاً بعيداً بعد إخضاع القوى الثائرة على الحكم الأموي، فكان لا بد من رفع مكانة الأمير الأموي السياسية والدينية، وإعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية بحيث تشدد قبضتها على الأطراف.

ويبدو أن عبد الرحمن الثالث وجد أن اللقب الذي ورثه عن أسلافه، وهو الأمير، لم يعد يتسع لطموحاته الكبيرة، ورأى أنه أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلَّة هي الخلافة العباسية، ودولة طارئة هي الدولة الفاطمية في إفريقية، فاتخذ لنفسه لقب خليفة، وأمر في عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م) بأن تكون الدعوة له في مخاطباته، والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره فيه، بأمير المؤمنين، وتلقَّب بلقب الناصر لدين الله[١].

حالة العداء بين الفاطميين والأمويين

اتسمت العلاقة بين الفاطميين والأمويين في الأندلس بالعدائية، وهي استمرار للنزاع القديم الذي قام في الشرق بين العلويين بعامة والأمويين. وأخذ عبيد الله المهدي، منذ أن استقر حكمه في إفريقية، يبعث بدعاته إلى الأندلس لنشر الدعوة الفاطمية، وليمهد الطريق أمام الغزو الفاطمي، بالدعاية، والوقوف على أوضاع البلاد السياسية والاقتصادية والدينية، والتركيز على مواطن الضعف والقوة فيها.

نذكر من بين هؤلاء الدعاة: أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بالرياضي المتوفى في عام (٢٩٨هـ/ ٩١٠م)، وأبو جعفر بن أحمد بن هارون البغدادي الذي عاصر عبيد الله المهدي والقائم، وقد اطلع على أوضاع الأندلس السياسية والاجتماعية والدينية عن كثب، وقدَّم تقريراً إلى القيادة المركزية في المهدية، أفادت الدولة الفاطمية، ويرجع إليه الفضل في نشر تعاليم الشيعة الفاطميين

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٩٨.

في الأندلس، والرحالة ابن حوقل النصيبي الذي دخل الأندلس تحت ستار التجارة، بدليل اهتمامه الكبير بمسالك الأندلس وطرقها، واعتنائه في تقريره الموجه إلى الفاطميين، بإبراز خيراتها الزراعية والمعدنية، ووصف عسكرها بقلَّة الشجاعة، وأهلها بالضعف وعدم القدرة على الدفاع عن وطنهم، والراجح أن الهدف من هذا الوصف هو حثُّ الفاطميين وتشجيعهم على غزو الأندلس[١]. لكن هذه الجهود المبذولة لم تحقق الغاية المنشودة، فلم تستقطب تلك الدعوة إليها إلا عدداً قليلاً من رجال الفكر الأندلسيين[٢]، مثل الثائر ابن حفصون في جنوب الأندلس والقائد علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلسي.

ولا شك بأن قيام دولتين متجاورتين على أسس مذهبية مختلفة كان كافياً بأن يسبِّب صداماً بينهما. ونظر الفاطميون إلى الحكم الأموي في الأندلس على أنه امتداد لخلافة دمشق، لذلك كانت لهم أطماع جدِّيَّة في الأندلس، كما أن التوسع الفاطمي في المغربين الأوسط والأقصى، هدَّد بشكل خطر الأمويين في الأندلس. وأدرك عبد الرحمن الناصر أنه إذا لم يتصدَّ لهذا التوسع فسوف يطغى على دولته، لذلك وجَّه منذ أن تولى الحكم في عام (٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، اهتمامه للوقوف في وجه الفاطميين والقضاء على أطماعهم، واتخذ عدة تدابير من أجل ذلك منها:

- قرَّر التوسع في بلاد المغرب الأقصى لبسط نفوذه عليه، واتخاذه خطاً دفاعياً في وجه الفاطميين المتوثبين.
- استقطب الحلفاء والأنصار من رؤساء القبائل وأمراء المغرب لتكوين قاعدة موالية له، وحرَّضهم على التحرش بالفاطميين. فاستغل لجوء حكام المغرب المعادين للدولة الفاطمية إليه، واستمال قبائل زناتة، لا سيما مغراوة حلفاء بني أمية القدماء. فبادر زعيم زناتة محمد بن خزر إلى مبايعته، وساعد بني صالح الذين التجأوا إليه بعد خسارتهم أمام مصال بن حبوس، وأنزلهم في مرسى ملقَّة، كما انضم إليه موسى بن أبي العافية.
- بنى أسطولاً بحرياً قوياً بلغ عدد قطعه نحو مائتي مركب ليستعين به في صدِّ الأسطول الفاطمي.
- لقَّب نفسه بألقاب الخلفاء، وأخذ ينافس عبيد الله المهدي وخلفائه من بعده،

---

(١) صورة الأرض: ص ١٠٤ ـ ١١٢.

(٢) سالم، عبد العزيز: المغرب الكبير (العصر الإسلامي) ص ٦ ـ ٨.

في ألقابهم وفي نظم حكمهم. فأرسل إلى كافة ولاة الدولة يأمرهم بالدعاء له على المنابر باسم أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وعهد إلى صاحب الصلاة القاضي أحمد بن مخلد بن يزيد بالدعاء له في خطبة الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة في (مستهل ذي الحجة عام ٣١٦هـ منتصف كانون الثاني عام ٩٢٩م).

- استولى على بعض الثغور الواقعة على الساحل المغربي، المواجهة للشاطىء الأندلسي الجنوبي، التابعة للأدارسة، منها سبتة وذلك في (٣ ربيع الأول ٣١٩هـ/ ٢٤ آذار ٩٣١م)، وهي الحصن المنيع الواقع على الساحل في المغرب الأقصى، ومليلة[١] الواقعة على الطرف الشرقي للساحل الإفريقي وجزيرة أرشقول، وطنجة. فضمن بذلك نقطة ارتكاز متينة على السواحل المغربية للانطلاق منها للسيطرة على المغرب الأقصى[٢].

أثارت هذه التدابير عبيد الله المهدي التي عدَّها موجهة ضد مصلحة بلاده، فقرَّر التصدِّي لها، لكن إجراءاته التي نفَّذها بواسطة قائده حميد بن مصال، لم تعطِ النتائج المرجوة، واستمر الوضع في المغرب الأقصى لغير صالح الفاطميين حتى وفاة عبيد الله المهدي.

العلاقة مع البيزنطيين في جنوب إيطاليا

اتخذت العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين صورة القتال الذي دار في صقلية، وسردينية، وجنوب إيطاليا. وما كاد الفاطميون يوطدون حكمهم في صقلية وإفريقية، في عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م) حتى انتهجوا سياسة أسلافهم الأغالبة في علاقتهم مع كلابريا في جنوب إيطاليا، وأخذوا يغيرون على أملاك بيزنطية في جنوب إيطاليا بعد أن امتنعت عن دفع الجزية. والجدير بالذكر أنه عندما تعرَّضت بيزنطية لخطر التوسع البلغاري، اضطرت إلى عقد اتفاق مع الفاطميين في العام المذكور، لتبريد جبهة جنوب إيطاليا، على أن تدفع جزية سنوية للفاطميين قدرها اثنان وعشرون ألف قطعة ذهبية[٣].

---

(١) مليلة: مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر. الحموي: جـ ٥ ص ١٩٧.

(٢) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) لويس، أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٢٢٢.
Rambaud. A: L'Empire Grec au dixièm Siècle. Constantine porphyrogenète p .411.

والواقع أن بيزنطية لم تدفع الجزية مطلقاً مما دفع الفاطميين للإغارة على ممتلكاتها في جنوب إيطاليا، فتعرضت كلابريا لهجوم مفاجىء في (أوائل عام ٣٠٦هـ/ صيف عام ٩١٨م)، تركَّز على رجيو، ولم تلقَ القوات الفاطمية أية مقاومة، ثم غادرت المنطقة مع الغنائم والأسرى.

وانطلقت الغارة الفاطمية الثانية من المهدية في (أواسط عام ٣١٠هـ/ صيف عام ٩٢٢م). فقد أنزل القائد الفاطمي مسعود بن غالب الوسولي رجاله بالقرب من رجيو، واستولى على قلعة سانت أغات، وأسر بعض سكانها ثم عاد إلى المهدية[١].

وقرَّر المهدي، بعد مرور عامين، على القيام بحملة أخرى واسعة النطاق ضد كلابريا، فجهَّز عدة سفن، ووضعها تحت قيادة حاجبه جعفر بن عبيد، المعروف بالصعلوك، فأبحر إلى بلرم حيث قضى شتاء عام (٣١٢هـ/ ٩٢٤م)، ثم هاجم كلابريا في(أول محرم ٣١٣هـ/ ٢٩ آذار ٩٢٥م)، واستولى على برزانة وعدة مدن أخرى، ثم دفع أسطوله في خليج تارنت وأنزل جيوشه في أوريو التي جرى نهبها. عندئذٍ أدرك حاكم كلابريا أنه من الخير أن يتعهد من جديد، بدفع الجزية حتى يأمن غارات الفاطميين والتي قُدِّرت بإحدى عشر ألف قطعة ذهبية سنوياً[٢]، إلا أن تأخير دفعها أثار رد فعل عبيد الله المهدي الذي نقض الهدنة، ووجه جيشه للإغارة على كلابريا. وخرج أسطول فاطمي مكوَّن من أربع وأربعين سفينة، من المهدية في (ربيع الآخر ٣١٦هـ/ حزيران ٩٢٨م) بقيادة صابر الخادم في اتجاه أبوليا، فهاجم تارنتا في (١٥ جمادى الآخرة/ ٥ آب)، واستولى على عدة قواعد بحرية، وحاصر سالرنو ونابولي اللتين اضطرتا إلى دفع الجزية، وعاد إلى بلرم وبصحبته عدد كبير من الأسرى[٣]. واستمرت المدن الإيطالية الجنوبية تدفع الجزية للفاطميين طيلة عهد عبيد الله المهدي.

والواضح أن هذه الانتصارات الفاطمية من شأنها أن تقيم الدليل على مدى قوة الدولة البحرية. واضطرت بيزنطية التي كانت منهمكة بالسياسة البلغارية التوسعية، إلى إطلاق يد الفاطميين لإخضاع كلابريا حيث كانت سلطة البيزنطيين في تلك الربوع واهية[٤].

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨. وفي عيون الأخبار: مسعود بن غالب الرسولي. السبع الخامس ص ١٥١.
(٢) لويس: ص ٢٣٤. عماد الدين، إدريس: ص ١٣٩.
(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٩٣. عماد الدين، إدريس: المصدر نفسه ص ١٥٠.
(٤) الدشراوي: ص ٢٣٠.

وفاة عبيد الله المهدي

توفي عبيد الله المهدي في المهدية ليلة الثلاثاء (١٥ ربيع الأول عام ٣٢٢هـ/ ٣ آذار عام ٩٣٤م) إثر مرض قصير، وكان عمره ثلاثة وستون عاماً، وبايع الدعاة وكبار رجال الدولة ولي عهده أبا القاسم القائم الذي أخفى خبر الوفاة مدة مائة يوم حتى تمكَّن من تثبيت أقدامه في الحكم. والواضح أن عبيد الله المهدي نجح، بوصفه إماماً، في تأسيس دولة للفاطميين، وعرف كيف يواجه بشجاعة أعداء دولته في الشرق والغرب الذين رفضوا الاعتراف برئاسته. وخرجت الدعوة الإسماعيلية في عهده من دور الستر، وشهدت تقدماً في اليمن والمغرب. كان حاكماً حازماً وماهراً، واصل، طيلة مدة حكمه التي استغرقت أربعة وعشرين عاماً، تطبيق سياسة منتظمة بفرض سيطرته على شمال إفريقية، ووضع حداً لخطر الخوارج، وأخضع القبائل البربرية المناهضة لنظامه، وخاضت جيوشه غمار الحروب خارج حدود دولته، وبنى المهدية التي أضحت معقلاً له ولأسرته وعاصمة حصينة لدولته الناشئة، لكن لم يؤثر عنه أنه شيَّد مسجداً أو بنى ميناء خارج المهدية أو شق قناة، إلا أنه هيأ الدولة الفاطمية للدخول في تاريخها الطويل[١].

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٠٨. عماد الدين، إدريس: ص ١٥٥.

الفَصْلُ الرَّابع

أبو القاسم محمد: القائم بأمر الله

(٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ/٩٣٤ ـ ٩٤٦م)

الأوضاع الداخلية

تمهيد

خلف أبو القاسم محمد، الملقب بالقائم، عبيد الله المهدي. كانت شخصيته قليلة التألق في سلسلة الحكام الفاطميين بإفريقية، ولم يرتبط ذكره بأي عمل باهر، بل يشير إلى سلسلة من الهزائم تعرضت لها الدولة، وحجبته شهرة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي ثار عليه. ومرَّت المصادر مروراً عابراً على عهده الذي استمر اثني عشر عاماً، ولم تتعرض بإسهاب إلا للأحداث التي شهدتها ثورة الخوارج بقيادة أبي يزيد.

والواقع أن القائم لم يكن دون مستوى الأحداث الجسام التي شهدها عهده، أو المهام الملقاة على عاتقه. فقد تمرَّس على شؤون الحكم، واكتسب خبرة في الشؤون الإدارية بعد تعيينه ولياً للعهد في عام (٢٩٩هـ/ ٩١١م)، كما مارس المهام العسكرية من خلال الحملات التي قام بها في مصر والمغرب، وشهد قيام الدولة الفاطمية.

انتهج القائم سياسة عبيد الله المهدي تجاه العباسيين والأمويين في الأندلس. عاش حياته متقشفاً ومنعزلاً منتظراً ظهور الدجال، حسب رواية الإسماعيليين. وعكّرت ثورة الخوارج الهدوء الذي شهدته الدولة التي ستصبح خلال بضعة أشهر على قاب قوسين أو أدنى من الزوال، وستعاني شمال إفريقية في عهده من ثورات البربر ومن ويلات الحروب الداخلية[1].

(١) الدشراوي: ص ٢٣٩ ـ ٢٤١.

ثورة أبي يزيد مخلِّد بن كيداد

مقدمات الثورة

في الوقت الذي كانت فيه جيوش الفاطميين تقاتل في المغربين الأوسط والأقصى لإقرار الأمن، برزت ثورة الخوارج بزعامة أبي يزيد مخلِّد بن كيداد. والواضح أنه نتج عن سقوط الدولة الخارجية في تاهرت، فرار أتباع المذهب الأباضي إلى جبل أوراس وقسطيلية، وصحراء ورفلة وسدراتة، وتمكَّنت السلطات الفاطمية، في عهد عبيد الله المهدي، من مراقبة تحركاتهم. إلا أن وفاة عبيد الله المهدي، أتاحت الفرصة للمناهضين للدولة، بالثورة عليها، فلم تمضِ بضعة أشهر على تسلم القائم مقاليد الحكم، حتى ثار الخوارج في ناحية قسطيلية في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)، ذلك أن رجلاً بربرياً من قبيلة بني يفرن الزناتية، ويكنى بأبي يزيد، ويعتنق المذهب الخارجي؛ شرع في بثِّ دعوته علانية ضد النظام الفاطمي الإسماعيلي، ودعا إلى الخروج على طاعة الفاطميين وعاونه شيخ نكاري من الأباضيين في توزر يقال له أبو عمار الأعمى، والتفَّ حوله سائر الخوارج، وبايعوه على قتال الشيعة، واتفقوا معه أن يصير الأمر شورى بينهم إن هم تمكَّنوا من الاستيلاء على المهدية والقيروان[١]. فلما علم القائم بقيام هذه الحركة المناهضة أمر عامله على قسطيلية بالقبض على الثائر، فاعتُقل أبو يزيد، وزُجَّ به في السجن، إلا أن مساعده أبا عمار أخرجه بالقوة، وهرب معه إلى صحراء سماطة، فأقاما بها مدة سنة، ثم توجها إلى جبل أوراس حيث نزلا عند بني كملان من قبيلة هوارة[٢].

أدَّى لجوء أبي يزيد وأبي عمار الأعمى إلى جبل أوراس إلى هدوء الوضع الداخلي في قسطيلية. والواقع أن نواحي سماطة وأوراس لم تكن خاضعة للسلطة المركزية، وأن الحاميات الفاطمية المتمركزة في حصون طُبنة والمسيلة[٣] كانت مكلَّفة بمراقبة القبائل الأوراسية، ومنعها من الخروج من معاقلها. وقد تمكَّنت هذه القبائل، الحريصة على الإفلات من رقابة السلطة، من حشد عدد كبير من الأتباع، وانتظرت الفرصة للخروج على السلطة المركزية في المهدية. وبثَّ أبو يزيد دعوته

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٨.

(٢) عماد الدين، إدريس؛ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ الدشراوي: ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) المسيلة: مدينة بالمغرب تسمى المحمدية اختطها أبو القاسم محمد بن المهدي في عام ٣١٥ هـ وهو يومئذٍ ولي عهد أبيه. الحموي: جـ ٥ ص ١٣٠.

في تلك الربوع لإثارة قبائل أوراس ضد الفاطميين، فاستطاع بسهولة تحريض أولئك السكان الجبليين، الذين يعيشون حياة تقشف، على نهب مدن إفريقية الثرية، وأقنعهم بأنهم مدعوون إلى قتال فئة من الكفار، والإطاحة بالعلويين المغتصبين، أعداء الدين الإسلامي، وأنهم سيستحوذون على أملاكهم بصورة شرعية، وسيفوزون بنصيب وافر من الغنائم، ووعدهم بإقامة نظام إسلامي أساسه إجماع الجماعة البربرية وطبقاً لتعاليم المذهب الخارجي، واتخذ لقب شيخ المؤمنين، وكان عمره لا يقل عن ستين عاماً، ولم يكن له مظهر قائد ثورة، فهو يلبس ثوباً قصيراً ضيق الأكمام، ويركب حماراً أشهب أهداه إليه أحد أتباعه في مرماجنَّة، فسماه الناس بصاحب الحمار[1].

والملفت للنظر هو القبول الواسع الذي لقيته دعوته من سكان جبال أوراس والزاب. واستقطب أهل السنة عندما دعا لعبد الرحمن الناصر الأندلسي، وهذا يعني وجود معارضة قوية للوجود الفاطمي في شمال إفريقية بعامة.

وهكذا تسلَّحت حركته بمُثُل دينية وسياسية، وأنعشتها عصبية الكتلة الزناتية المعارضة تقليدياً لكتلة الكتاميين من أبناء جبال القبائل. وأعلن في عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م) الخروج على الدولة، إلا أنه ظل متربصاً في جبال أوراس منتظراً الفرصة المناسبة لبدء تحركه الفعلي.

مراحل الثورة

وما لبثت تلك الفرصة أن جاءت بعد وفاة عبيد الله المهدي وقيام خليفته القائم بأعباء الحكم، وكان قد قوي أمره، واشتدت شوكته، وراجت دعوته لدى بعض قبائل البربر في نفوسة والزاب والمغرب الأقصى، فانطلقت الثورة فعلياً في (أواخر جمادى الأولى عام ٣٢٣هـ/ منتصف أيار عام ٩٣٥م)[2]، ومرت بمرحلتين، تميزت المرحلة الأولى (٣٢٣ـ ٣٣٣هـ/ ٩٣٥ـ ٩٤٤م) بتقدم أبي يزيد العسكري حتى وصل إلى أسوار المهدية، وتراجع فاطمي، في حين تميزت المرحلة الثانية (٣٣٣ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ـ ٩٤٥م) بتعادل القوتين حيث أضحت الحرب سجالاً بين الطرفين.

المرحلة الأولى: ابتدأت بتنظيم غارات خارجية على باغاية التي تُعدُّ أقرب مدينة محصَّنة. واكتفى أبو يزيد بالحصول على الغنائم في بادىء الأمر، ثم محاولة اقتحامها بعد ذلك[3]، إلا أنه فشل بفعل المقاومة المستميتة التي أبدتها الحامية، ثم

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ١٨٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٤.
(٣) المصدر نفسه.

إن تعدُّد العمليات العسكرية الأخرى الناجحة التي قام بها ضد المدن، والتي اقتصرت على السلب والنهب، مما ضايق السكان فعلاً، بالإضافة إلى ازدياد عدد أتباعه الطامعين في الغنائم؛ لفت أنظار السلطة المركزية في المهدية التي بدأت تفكر بالقضاء عليه.

أمر القائم، عامل طبنة، كبون بن نصولا، بالتوجه إلى باغاية لنجدتها. وحاول هذا العامل، عبثاً، إثارة الشقاق بين أبي يزيد وأتباعه، فحثَّ رؤساء القبائل الأوراسية على تسليمه، لكنه كاد أن يقع في كمين نصبوه له، ولم يجد وسيلة للخلاص غير التحصن في باغاية في الوقت الذي جدَّد أبو يزيد هجماته عليها، غير أنه فشل في الاستيلاء عليها[1]. عندئذٍ أدرك أن تركيزه على باغاية، قد شلَّ حركته، وأخَّر زحفه على إفريقية، وكانت المهدية محط أنظاره، فتخلَّى عن حصار باغاية، واجتاح الزاب في عام (٣٣٢هـ/ ٩٤٤م)، واستولى على قواعده من تَبِسَّة[2] إلى حدود إفريقية. ودخل بنو كيداس المقيمون في تلك النواحي في طاعته وسلَّموه رجال الحامية الكتامية، فقتلهم وسبى نساءهم وأطفالهم، ووزَّع الغنائم على رجاله ثم استولى على مرماجنَّة ووصل إلى حدود إفريقية[3].

أثار زحف أبي يزيد الهلع في مدينة الأربس القريبة من مرماجنَّة، والتي تُعدُّ مفتاح القيروان، فغادرتها الحامية الكتامية، وتحصَّنت في دقة، إحدى ضواحيها، كما لاذ حاكمها إسحاق بن خليفة بالفرار، وانضم إبراهيم بن ثوبان بن أبي سلاس، أحد قادة الجند، إلى أبي يزيد، فسأله أن يمنح أهل الأربس الأمان فأجابه إلى طلبه، لكن ذلك لم يجنِّب المدينة الخراب والدمار، إذ دخلتها قوات أبي يزيد. وتعرَّض المشارقة الفاطميين، وأتباع السلطان للقتل، ونُهبت المدينة، وأُحرق جانب كبير منها بالنار، ودخلت فرقة من جنده مدينة سبيبة، في حين زحف هو على دقة فاقتحمها في (ذي الحجة ٣٣٢هـ/ آب ٩٤٤م) وأحرقها وقتل من احتمى بها من الفاطميين، ولما رأى تطور الأمر لصالحه، قرَّر اقتحام إفريقية[4].

كان رد فعل القائم بطيئاً في بادىء الأمر، ذلك أنه تخاذل بسبب بعض التكهنات القاتمة[5]، فاعتمد على حاميات المدن من الكتاميين لصد قوات أبي يزيد،

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) تبِسَّة: بلد مشهور من أرض إفريقية بينه وبين قفصة ست مراحل في قفر سبيبة. الحموي: جـ ٢ ص ١٣.

(٣) عماد الدين، إدريس: ص ١٧٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٥) اعتقد القائم أن أبا يزيد سوف يبلغ مُصلَّى المهدية. انظر المصدر نفسه ص ١٨١.

لكن سقوط الأربس أيقظه من غفلته، وحثَّه على اتخاذ إجراءات عسكرية سريعة، إلا أنها افتقرت إلى الحزم، ودلَّت على قصر نظره. فبدلاً من تجميع قواته لشن هجوم مضاد على قوات أبي يزيد، اتخذ موقفاً دفاعياً، ووزَّع قواته في مختلف النقاط المهمة، مما أدَّى إلى تجزئتها وإضعافها. فأرسل فرقة من الخيالة تمركزت في رقَّادة، وبعث بفرقة أخرى إلى القيروان بقيادة خليل بن إسحاق، ووجَّه بشرى الخادم على رأس قوة عسكرية ليعسكر في باجة، وقاد ميسور الفتى فرقة أخرى عسكرت على بُعد بعض المراحل من المهدية[1].

كان أبو يزيد آنذاك يتأهب للزحف على القيروان، لكن الإجراءات العسكرية التي نفَّذها القائم أجبرته على تغيير خططه والاصطدام ببشرى الخادم في باجة حتى لا يباغته من الخلف. وفي المعركة التي جرت بينهما، خسر الجيش الفاطمي الذي تملَّك أفراده الرعب، وانسحب بشرى الخادم باتجاه تونس، وسقطت باجة بأيدي قوات أبي يزيد في (محرم ٣٣٣هـ/ أيلول ٩٤٤م)[2].

كان من نتائج هذه المعركة أن أضحت الطريق إلى القيروان مفتوحة أمام قوات أبي يزيد. وكانت وسائل الدفاع عن المدينة ضعيفة، وارتكب حاكمها خليل بن إسحاق خطأً عسكرياً حين وزَّع قواته داخل المدينة للدفاع عنها بدلاً من الخروج منها لملاقاة العدو، كما لم يتخذ الاستعدادات الكافية للحرب، واقتصر نشاطه على التآمر، مع بعض الزويليين لاغتيال أبي يزيد[3].

زحف أبو يزيد نحو القيروان، وأرسل فرقة عسكرية، بقيادة منصور بن منصور الهواري، لملاحقة فلول جيش بشرى الخادم الذي التجأ أفراده إلى تونس. عجز حاكم القيروان الحسن بن علي، عن الدفاع عن المدينة، واضطُر إلى الفرار منها، فثار سكانها وخرجوا على طاعة الفاطميين، وارتحل الحسن بن علي وأخوه عمَّار، وبشرى الخادم إلى سوسة، وعسكروا فيها بناءً على أوامر القائم[4].

اقترب أبو يزيد، في هذه الأثناء، من القيروان، واستولى في طريقه على رقَّادة، فاقتحم المدينة، ووقع حاكمها خليل بن إسحاق في الأسر، فأمر أبو يزيد بقتله[5].

مثَّل سقوط القيروان انتصاراً باهراً لأبي يزيد، فانتشرت قواته في مختلف

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ١٨٢ ـ ١٨٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٣.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٤.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٨٦ ـ ١٩٢.

أرجاء الولايات الفاطمية، وأضحى في موقع يهدِّد المهدية. لكن هذا الانتصار وذاك الانتشار لم يكونا حاسمين، ذلك أن قوة الفاطميين التي تزعزعت ما زالت قوية بما فيه الكفاية بفضل حصانة المهدية، وجيش ميسور الفتى الذي بقي خارج إطار الصدامات.

وقرَّر أبو يزيد استغلال انتصاراته لتقوية موقفه قبل خوض المعركة النهائية. وحتى يستقطب سكان القيروان السنة، حاول التقرب من الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في الأندلس. فأرسل إليه وفداً يحمل إليه أخبار تغلُّبه على مدينتي القيروان ورقَّادة، وما جاورهما، وإيقاعه بأصحاب الشيعي فيهما، ويعلمه بأنه قرَّر الدخول في طاعته والاعتراف بإمامته[1]، ذلك أنه أدرك مدى ما يجنيه من فائدة من دعم عبد الرحمن الثالث خصم الفاطميين الألد، وزعيم أهل السنّة في المغرب الإسلامي، إذ يمكنه، بفضل ذلك الدعم، من بسط سلطانه على بلاد متمسكة بالمذهب المالكي، وضمان تحالف أهل السنَّة معه ضد العدو المشترك. ولا شك بأن نجاح هذه المساعي لدى الخليفة الأموي من شأنه أن يُحدث أثراً طيباً في نفوس القيروانيين، ويحثَّهم على مباركة الحرب ضد الشيعة. ولم يجد سكان القيروان صعوبة في مساندته، ولو كان خارجياً، طالما يحارب نظاماً مذهبياً معارضاً[2].

خرج أبو يزيد من رقَّادة يوم الأربعاء (١٢ ربيع الأول ٣٣٣هـ/ ٢ تشرين الثاني ٩٤٤م)، فاصطدم بميسور الفتى الذي كان يقود آخر جيش فاطمي منظم، وانتصر عليه، وقُتل ميسور في المعركة[3]، وأضحت الطريق إلى المهدية مفتوحة، وأوشكت حركته المظفَّرة على النهاية.

أخذت المهدية تستعد لحصار قاس، فأمر القائم بحفر خندق حول أرباض المدينة، وتعزيز تحصيناتها، ووجَّه رسائل إلى الكتاميين يأمرهم فيها بالقدوم لنجدته، وحثَّهم على الجهاد، كما حثَّ زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة على مساعدته، فلحق به في المهدية[4].

تباطأ أبو يزيد، في هذه الأثناء، في شنِّ هجوم سريع ومباغت على المهدية مرتكباً خطأً عسكرياً فادحاً، لأنه أتاح للقائم تحصينها وطلب المساعدات من الخارج، ومرتكباً خطأً سياسياً، لأن هذه الأعمال ضايقت السكان، وأتاحت لهم

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢١.
(٢) الدشراوي: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.
(٣) عماد الدين، إدريس: ص ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

الفرصة للخروج عليه. وأخيراً زحف إلى المهدية في (٣ جمادي الآخرة ٣٣٣هـ/ ٢١ كانون الثاني ٩٤٥م)، وعسكر على بُعد خمسة عشر ميلاً منها، وجرت عدة اشتباكات بين قواته والقوات المدافعة عنها، واستولت قواته على الأرباض، ووصلت إلى قرب باب المدينة عند مصلَّى العيد[١]. وعلى الرغم من أن القوة المدافعة عن المدينة لم يكن لها من القوة ما يكفي لإبعاد قواته عنها، فقد فشلت أربع محاولات لاقتحامها، مما أدَّى إلى تزعزع مركز أبي يزيد، ففقد السيطرة على قواته التي تعوَّدت على القتال من أجل الفوز والحصول على الغنائم، فتفرقت في البلاد تسلب وتنهب. وإذ بدأ نفوذه يضعف، انفضَّ عنه كثير من جنده، وانضموا إلى الفاطميين، ولم يبقَ معه غير أهل هوارة، وأوراس وبني كملان، كما حاول السكان الذين ضايقتهم تجاوزات قواته أن يثوروا عليه. ثم إن تصرفه الشخصي، بعد أن مال إلى البذخ والإسراف، أغضب الناس، وتبيَّن لهم أنه ليس رجل الموقف المطلوب، فتغير عندئذٍ ميزان القوى، واستغل القائم هذه الفرصة وقام بهجوم مضاد[٢].

بعد أن أصبح أبو يزيد عاجزاً عن كسب معركة المهدية، اضطر إلى مغادرة معسكره وعاد إلى القيروان ليعيد تنظيم صفوف قواته، فامتنع أهلها عليه وأجبروه على الارتداد مع قلَّة من أنصاره، وذلك خشية من انتقام الفاطميين، بل إن وجهاء المدينة كاتبوا القائم والتمسوا عفوه، كما شجَّع تراجعه، سكان سوسة وتونس وباقي المدن المحصَّنة على الخروج على طاعته[٣].

شكّل تراجع أبي يزيد عن المهدية نهاية المرحلة الأولى من الصراع.

المرحلة الثانية: استجاب أبو يزيد لنصائح مستشاره أبي عمار الأعمى، فأظهر التوبة مما ارتكب من تصرفات سلبية، وعاد إلى لبس الصوف، وركوب الحمار، وحياة التقشف التي عُرِف بها في بداية دعوته، فدبَّت الحياة من جديد في حركته، ووضع خطة عسكرية تقضي بعزل المهدية وقطع الطريقين المؤديين إليها مع جزيرة شريك ومنطقة القبائل الصغرى، وذلك بإعادة السيطرة على المدن المحصنة سوسة وتونس وباجة والأربس.

وسعى القائم، من جهته، إلى الدفاع عن المدن التي دخلت في طاعته، وتأمين الطريق المؤدي إلى حلفائه الكتاميين، وبذلك، بدأت المرحلة الثانية من الصراع

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٢٠٢ ـ ٢١٠. (٢) المصدر نفسه: ص ٢١١ ـ ٢١٢، ٢١٤.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢١٢ ـ ٢١٤.

للاستيلاء على المراكز الأساسية المفصلية. فاستولى أبو يزيد على تونس في (١٠ صفر ٣٣٤هـ/ ٢١ أيلول ٩٤٥م) وأبعد عنها القائد الفاطمي عمار بن علي[١]. توجَّه هذا القائد إلى نواحي باجة وصفطورة لحشد الجنود وعاد إلى تونس وأخرج أبو يزيد منها يوم الأربعاء (٥ ربيع الأول/ ١٥ تشرين الأول)، لكنه اضطر إلى الخروج منها مجدداً بعد أن هجرها سكانها، وتوجَّه إلى سوسة[٢].

لم تفتَّ هذه الهزيمة في عضد أبي يزيد الذي وجَّه الجيوش لاسترداد تونس وباجة، فنهبتهما، وعادت إلى القيروان محملة بالغنائم. وحاول سكان الأربس الخروج على حكمه والدخول في طاعة القائم، إلا أنه قمع الثورة، ونهبت قواته المدينة ثم أضرمت النار فيها[٣].

استمر القائم على خطته الدفاعية هذه، لإنهاك قوات عدوه، واقتصر نشاطه العسكري على القيام بتحركات محدودة في اتجاه سوسة وتونس لتأمين طريق المواصلات مع جزيرة شريك، وتأمين حماية قوافل التموين التي تمر فيها، إلى المهدية.

ومُني أبو يزيد بخسارتين متواليتين حين فشل هجومه على ضواحي تونس ومدخل جزيرة شريك، حيث تمكَّن القائد الفاطمي الحسن بن علي من الانتصار على أيوب بن أبي يزيد، واستعاد باجة وقطع الطريق المؤدي إلى تونس والمهدية على خصمه، ثم نقل الحرب إلى منطقة أبي يزيد، وقام بغارات ناجحة على هوارة وأوراس، واستولى على تيجس وباغاية، إلا أن أبايزيد أحرز بعض الانتصارات في النواحي الشرقية على طريق منطقة القبائل الصغرى ومدينة المسيلة. وحاصر سوسة في (جمادى الآخرة ٣٣٤هـ/ كانون الثاني ٩٤٦م) التي خرجت على حكمه[٤].

وفي الوقت الذي كان فيه أبو يزيد يواصل الحصار، توفي القائم في المهدية، في (رمضان ٣٣٤هـ/ نيسان ٩٤٦م) فانتهت بموته المرحلة الثانية من الصراع مع أبي يزيد.

وإذا كانت المرحلة الأولى التي انتهت أمام أسوار المهدية قد شهدت تقدماً لأبي يزيد ونجاحاً على الصعيد الشعبي، وتراجعاً من قبل الفاطميين، فإن المرحلة الثانية التي انتهت أمام أسوار سوسة بوفاة القائم، شهدت توازناً في ميزان القوى حيث نقل الفاطميون الحرب إلى قلب مناطق أبي يزيد، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء عليه.

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٢١٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢١٦ ـ ٢١٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢١٩.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٢١ ـ ٢٢٤.

العلاقـات الخارجيـة

العلاقة مع الخلافة العباسية

استئناف الهجمات الفاطمية على مصر: ٣٢٣ ـ ٣٢٤هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٣٦م

لم تحقِّق المحاولتان الفاطميتان للسيطرة على مصر في عهد عبيد الله المهدي شيئاً، بل نبَّهت الخلافة العباسية إلى أن استمرار هذه المحاولات يتطلب وجوداً عسكرياً قوياً في هذا البلد. فقد اكتشف مؤنس الخادم، الذي تصدَّى للفاطميين، أن لهؤلاء أنصاراً في مصر، لذلك عيَّن الخليفة العباسي أبو العباس أحمد الراضي (٣٢٢ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ـ ٩٤٠م)، محمد طغج الأخشيد والياً على مصر، بالإضافة إلى ولايته على الشام[١]، ولم يكن تعيينه في الواقع سوى عودة إلى النظام الطولوني الذي زال في عام (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م)[٢]. أراد محمد بن طغج أن يستفيد من مركزه في مصر، بين الفاطميين الطامعين في الاستيلاء عليه، والعباسيين الضعاف في المشرق، بتأسيس إمارة وراثية.

كان القائم حريصاً على الاستيلاء على مصر والتعويض عن فشله السابق، وقد سنحت له ظروف طيبة للقيام بمحاولته تمثَّلت في:

- حدوث اضطرابات في عاصمة الخلافة العباسية. فقد حدث في بغداد أن قُتل الخليفة المقتدر في عام (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) وخلفه أبو منصور محمد القاهر (٣٢٠ـ ٣٢٢هـ/ ٩٣٢ـ ٩٣٤م)، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه من الفوضى والإسراف في النفقات من جانب الحاشية والخدم، وتسلط الجند الأتراك. واستمر شغب الجند، وغدا منصب الخلافة مرة أخرى، هدفاً للازدراء. وحاول مؤنس الخادم الاتفاق مع الوزير ابن مقلة للخروج على حكم القاهر، لكن هذا الأخير استطاع أن يتخلَّص منه، غير أن الأتراك نجحوا أخيراً في القبض عليه، فخلعوه وسملوا عينيه، وبايعوا الراضي الذي بدأ في عهده عصر إمرة الأمراء، حيث كان الخلفاء مع هؤلاء كالمحجور عليهم[٣].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٦. كان جد محمد بن طغج، وهو جف، أحد الضباط الأتراك الذين أكثرت الخلافة العباسية من اقتنائهم. وقد برز والده طغج عندما اشتهر أحمد بن طولون. وأصل هذه العائلة من فرغانة. ومعنى الأخشيد بلغة أهل فرغانة «ملك الملوك» وقد منحه الخليفة الراضي هذا اللقب في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٩م).

(٢) سيد: ص ٥٨.

(٣) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن: مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٤ ص ٢٢١ ـ ٢٣٠. =

- مضايقة الخليفة الراضي للأخشيد، بعد أن أدرك الخليفة حقيقة أهدافه في مصر. فأرسل الوزير جعفر بن الفرات إلى مصر ليستطلع أحوالها، ثم شجَّع أمير الأمراء محمد بن رائق، الطامع في بلاد الشام ومصر، على الاصطدام بالأخشيد. ويبدو أن ابن رائق لم يُخفِ نواياه التوسعية، وسُرَّ بتشجيع الخليفة، فتقدم باتجاه بلاد الشام واستولى على حمص ودمشق، ثم سار إلى الرملة، فالعريش في محاولة لدخول مصر، وهناك اصطدم بالقوات الأخشيدية في عام (٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)، لكنه هُزم، وتمكَّن من النجاة[١].
- حدث في مصر أن ثار على حكم محمد بن طغج الأخشيد كلٌّ من علي بن بدر قائد الأسطول، وبجكم وهو أحد الأمراء، وقائد حامية الإسكندرية حبشي بن أحمد المغربي، فانسحبوا إلى برقة ودخلوا في طاعة القائم وراحوا يحرِّضونه على غزو مصر، فأرسل إليهم خادمه زيدان، وأحد ضباطه ويدعى عامر، المعروف بالمجنون، تعزيزاً لصفوفهم[٢].

في ظل هذه الظروف، وجَّه القائم في (أواخر عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) جيوشه المتمركزة في قاعدة برقة بقيادة القائدين الكتاميين يعيش وبوتزنيت، والمعزَّزة بعناصر قادمة من إفريقية بقيادة زيدان؛ إلى مصر، فاحتلت الإسكندرية في (٦ جمادى الأولى ٣٢٤هـ/ أوائل نيسان ٩٣٦م)[٣].

جاء رد فعل محمد بن طغج الأخشيد سريعاً، فأرسل أخاه حسن وأحد قادته، ويدعى صالح بن نافع، فاستعادا المدينة بعد قتال، وقُتل يعيش في المعركة، ووقع بوتزنيت في الأسر، وانسحب الجيش الفاطمي، وبجكم إلى برقة[٤].

وعلى الرغم من الظروف الطيبة التي قامت الحملة في ظلها، فقد فشلت في تحقيق الغاية، واضطر الجيش الفاطمي إلى الخروج مرة أخرى من مصر، ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى سببين:

= مسكويه: جـ ١ ص ٢٨٦ ـ ٢٩١. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٤. استُحدث منصب أمير الأمراء في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) في عهد الخليفة الراضي حين بُذلت محاولة أخرى لإنقاذ الخلافة من الوضع المتدهور الذي باتت فيه. وقد تناول هذا التطور مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك. وسيطر متقلده على مقاليد الحكم، وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة، وأزال نفوذ الوزراء، وهيمن على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز، وفَقَدَ صلاحياته في ممارسة الحكم.

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٨٦.
(٢) الكندي: ص ٣٠٥، وقارن بابن عذارى: جـ ١ ص ٢٠٩. ابن سعيد: ص ١٦١.
(٣) الكندي: ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧.
(٤) المصدر نفسه.

الأول: ظهور محمد بن طغج الأخشيد الذي استبد بأمور مصر، وأبدى صلابة كافية في صد الهجمات الفاطمية.

الثاني: كثرة الثورات والاضطرابات في شمال إفريقية ضد الحكم الفاطمي، كان منها ثورة ابن طالوت[(١)] القرشي في طرابلس، وثورة الخوارج بقيادة أبي يزيد.

بعد فشل حملته على مصر، رأى القائم أن من الأفضل لتحقيق أهدافه، أن يعيد النظر بسياسته القائمة على القوة، واستبدالها بسياسة ودية تجاه محمد طغج الأخشيد، إذ أن تدهور السلطة في بغداد منذ مقتل الخليفة العباسي المقتدر، قد ساعد على التقارب بين المهدية والفسطاط لا سيما وأن حاكم مصر نجح في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) في الاستقلال بحكم مصر وبلاد الشام وأسس الدولة الأخشيدية، فأرسل إليه القائم كتاباً قرأه على خاصته، وأرفق به رقعة بخطه، ولم يقرأها على أحد من مستشاريه، فكأنها رسالة خاصة، دعاه فيها إلى الدخول في طاعته[(٢)].

كان محمد طغج الأخشيد يخشى أن يخرج على الخلافة العباسية، فقد كان ضعفها يسمح له بأن ينعم بقسط وافر من الاستقلال، وفضلاً عن ذلك، فإن من المحتمل أنه كان يكره أن يتخلَّى عن مذهبه السنِّي ويُلقي بنفسه في أحضان الدولة الفاطمية[(٣)]، ولكن عندما لم تنصره الحكومة المركزية في بغداد، في عهد الراضي، على ابن رائق أمير واسط والبصرة، الذي كان يحاول، آنذاك، الاستيلاء على ممتلكاته؛ دفعه إلى التفكير في التقرب من الفاطميين. وكان على وشك الدعاء لهم في خطبة الجمعة، وقطْع صلته بالخليفة العباسي[(٤)]. ودعَّم هذا التقارب بمشروع زواج ابنته من إسماعيل ابن القائم فأرسل كتاباً بهذا المعنى إلى القائم.

قرأ القائم كتاب محمد بن طغج الأخشيد أمام مستشاريه، فأشاروا عليه بإجابة هذا الطلب، ومن ثمَّ بعث برده الإيجابي إلى حاكم مصر «وصل كتابك وقد قبلنا ما بذلت، وهي وديعة لنا عندك، وقد منحناها من بيت مالنا مائة ألف دينار، فتوصل ذلك إليها». لكن محمد بن طغج الأخشيد كان يظن أن القائم سيرسل إليه من الهدايا والأموال ما يفخر به، فلما خاب ظنه أوقف مشروع المصاهرة، واتخذ جانب الحياد

(١) انظر فيما يتعلق بثورة ابن طالوت: عماد الدين، إدريس: ص ١٧٢.
(٢) انظر نص الرقعة الخاصة عند: ابن سعيد، علي بن موسى المغربي: المغرب، في حلى المغرب، السفر الرابع القسم الخاص بمصر. ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٣) كاشف، سيدة إسماعيل: مصر في عصر الأخشيديين: ص ٣٦١.
(٤) ابن سعيد: ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

بين الدولتين بعد أن أدرك أن البقاء تحت السيادة العباسية يخدم مصلحته، ولعله كان مدفوعاً في ذلك بثلاثة عوامل هي:

الأول: اضطراب شؤون الدولة الفاطمية في المغرب وانهماكها بإخماد ثورة القبائل.

الثاني: لقد نصحه بعض أتباعه بالعدول عن سياسة التقارب مع الفاطميين.

الثالث: وضعت وفاة الخليفة العباسي الراضي في (٧ شعبان ٣٢٩هـ/ ٧ أيار ٩٤١م) حداً للتوتر بين بغداد والفسطاط بعدما عيَّنه الخليفة العباسي المتقي (٣٢٩-٣٣٣هـ/ ٩٤٠-٩٤٤م) على رأس الإمارة، فكان يُذعن للعباسيين ويُداري الفاطميين.

العلاقة مع المغربين الأوسط والأقصى

أشرنا فيما سبق إلى نفور سكان القيروان وبقية مدن إفريقية من المذهب الإسماعيلي الذي أعلنته الدولة الفاطمية منذ استقرار أبي عبد الله الداعي في القيروان، وإلى جهود عبيد الله المهدي في القضاء على الثورات التي قام بها أهل السنَّة في مختلف المدن في شمال إفريقية.

واستمرت المقاومة للوجود الفاطمي في المغربين الأوسط والأقصى في عهد القائم، ومحاولة دعاة الفاطميين فرض المذهب الإسماعيلي على السكان. واتسمت سياسة القائم الفاطمي بالتصلب، وسيتعرض هؤلاء لمزيد من الاضطهاد الديني والتعسف في الجباية.

لم يكد موسى بن أبي العافية يعلم بنبأ وفاة عبيد الله المهدي حتى أشعل نار الثورة في المغرب الأقصى، وقتل أحمد بن عبد الرحمن الجذامي، وهو أحد قادته، وحامد بن حمدان، عامل الفاطميين على فاس، فأرسل إليه القائم ميسور الصقلبي على رأس جيش كبير لمحاربته، وردِّه إلى طاعة الفاطميين. توجَّه ميسور إلى فاس في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) وحاصرها مدة سبعة أشهر قبل أن تسقط في يده، فعزل أحمد بن أبي بكر وأرسله إلى المهدية[1].

حاول موسى بن أبي العافية عبثاً استرداد المدينة، فتوجه إلى مدينة نكور واستولى عليها، ولما علم القائم بذلك أرسل صندل الفتى لاستردادها، على أن يلحق بميسور بعد ذلك. غادر صندل الفتى المهدية في (جمادى الآخرة ٣٢٣هـ/ أيار

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٠٩. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

٩٣٥م)، واستولى على المدينة في (شوال/ أيلول)، وقتل حاكمها إسماعيل بن عبد الملك، وولى عليها عاملاً كتامياً يدعى مِرْمازو، ثم لحق بميسور عند مدينة فاس[١].

واشتعلت الثورة، في ذلك الوقت، في مدينتي تاهرت ووهران بزعامة محمد بن خزر الزناتي ولم يستطع ميسور الفتى مغادرة فاس لينقذ المغرب الأوسط، ويحول دون سقوطه في أيدي الزناتيين، وذلك خشية من عودة موسى بن أبي العافية. واضطر القائم نتيجة هذا التطور السياسي والعسكري إلى اتخاذ عدة إجراءات لمواجهة الموقف منها أنه:

- عقد صلحاً مع سكان فاس، على أن يدفعوا عشرة آلاف دينار، ويدعوا له على منابرهم ويضربوا السكة باسمه[٢]، فأتاح بذلك لميسور الفتى، أن يتصدّى لموسى بن أبي العافية وهو مطمئن.
- عزَّز سلطة صاحب المسيلة علي بن حمدون، على بني كملان في ناحية الزاب لمنعهم من مساعدة الزناتيين.
- تحالف مع قبيلة تلكاتة الصنهاجية بزعامة زيري بن مناد ضد أعدائه المغراويين الزناتيين، وتعاونا في حرب ابن خزر.

غادر ميسور مدينة فاس، بعد عقد الصلح، للتصدي لموسى بن أبي العافية الذي حالف عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس، ودعا له على منابر بلاده[٣]. وانضم بنو محمد الأدارسة إلى الفاطميين، في هذا الصراع، ودعوا للقائم على منابرهم. ونتيجة للاشتباكات التي جرت بين الطرفين، حلَّت الهزيمة بموسى بن أبي العافية، وأُسر أحد أبنائه، وأُرسل إلى المهدية، ولاذ هو بالفرار إلى منطقة تازة الجبلية. وأمر القائم ميسوراً بأن يولِّي الأدارسة ما استولى عليه من البلاد[٤]. ثم يمَّم ميسور وجهه صوب إفريقية، واستولى في طريقه على مدينة أرشكول، وولَّى عليها يحيى بن إبراهيم، ثم سار إلى وهران فاستولى عليها، وأغار على تاهرت، وقضى على ثورة أبي القاسم بن مصَّالة، ثم عاد إلى القيروان في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)[٥].

---

(١) حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٨٩.
(٢) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٥.
(٣) السلاوي: جـ ١ ص ٨٢.
(٤) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٥.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

حدث ذلك، في الوقت الذي بدأ فيه الأدارسة يبسطون نفوذهم على المغرب الأقصى، فدخل الحسن بن أبي العيش الإدريسي مدينة تِلمسان في عام (٣٢٥هـ/ ٩٣٧م) واستولى على مدينة أصيلة في العام التالي[١].

العلاقة مع البيزنطيين في جنوب إيطاليا

استمرت العلاقات العدائية بين الدولة الفاطمية في إفريقية والدولة البيزنطية. فقد أرسلت بيزنطية في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) أسطولاً بحرياً إلى غرب المتوسط للتصدي للغارات الفاطمية على جنوب إيطاليا، مما أثار الفاطميين، فأرسلوا في شهر (رجب/ حزيران) أسطولاً ضخماً بقياد أمير البحر يعقوب بن إسحاق في اتجاه الشمال الغربي، ليعيد سيادتهم على البحر التيراني، فاستولى في طريقه على بعض السفن التجارية المعادية، ووصل إلى جنوة، فحاصرها ودخلها عنوة، وقتل من كان فيها من المحاربين وسبى النساء والأطفال. وأشعل الحرائق في عدة سفن بيزنطية، ثم أغار على سردينية وكورسيكا قبل أن يعود إلى المهدية حيث استقبله القائم بحفاوة بالغة[٢]، ثم حدث من الفتن الداخلية في صقلية التي شجَّعها البيزنطيون، ومن فشل الحملة الفاطمية الثالثة على مصر؛ ما صرف الفاطميين عن مهاجمة البيزنطيين.

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦، وأصيلة أول مدينة العدوة مما يلي المغرب، غربي طنجة بينهما مرحلة. الحموي: جـ ١ ص ٢١٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٣. النويري: جـ ٢٨ ص ١١٦.

الفصل الخامس

أبو طاهر إسماعيل: المنصور بنصر الله

(٣٣٤ - ٣٤١هـ/٩٤٦ - ٩٥٣م)

شخصية إسماعيل

كان إسماعيل بن القائم، الملقب بالمنصور، قد تجاوز الثلاثين من عمره عندما آلت إليه مقاليد الحكم، وهو أمير عربي - إفريقي، أمه أم ولد تدعى كريمة، كانت من بين النساء الإفريقيات الست اللاتي التحقن بحاشية عبيد الله المهدي، وكنَّ قبل ذلك من جواري الأسرة الأغلبية، فاصطفى عبيد الله المهدي بعضهن عندما دخل رقَّادة في عام (٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، ووهب بعضهن للقائم.

اتسم إسماعيل بالخصال الحميدة. كان حليماً، رؤوفاً، رزيناً، ثاقب الفكر، فصيحاً يؤثِّر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب، يقود الجيوش بنفسه[(١)]. عيَّنه والده ولياً للعهد منذ أن اعتلى سدة الحكم، وفقاً للتعاليم الإسماعيلية، وهو لم يكن يتجاوز العشرين من عمره. إذ يجب على من يعتلي العرش بعد الإمام الحاكم المتوفى أن يعين حجته، أي ولي عهده، في ظل من السرية التامة، قبل دفن الراحل، وأن يختار في الوقت نفسه، من سيحتفظ بذلك السر، وهو المستودع، لأنه لا يحل للحجة، بعد الإمام، أن يدفن الإمام حتى يقيم حجة لنفسه، وقد وقع اختيار القائم على ابنه إسماعيل، وأعلم بذلك جوذر الخادم الذي أضحى مستودع الإمام المقبل دون سواه، قائلاً له: «ولدي إسماعيل هو حجتي وولي عهدي، فاعرف له حقه، واكتم أمره حتى أظهره بنفسي في الوقت الذي يشاء الله ذلك ويختار»[(٢)]. وكان على كل واحد منهما أن يكتم السر إلى أن يحين الوقت الذي يراه الإمام مناسباً لإظهاره، وتعيين ولي العهد رسمياً[(٣)].

عاش إسماعيل، خلال مدة حكم والده، في قصر الخلافة بالمهدية، حياة

---

(١) القاضي النعمان: ص ٤٠٦ - ٤٠٧. ابن خلكان: جـ ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥. المقريزي جـ ١ ص ٨٨.

(٢) سيرة جوذر: ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) الدشراوي: ص ٢٧٤.

تقشف، وعزلة، وكرَّس حياته للعبادة والدراسة، وعمل بالتجارة لسد حاجات أسرته. لم يمارس أية سلطة، كما لم يضطلع بأية مهمة مدنية أو عسكرية، ولم تتح له الظروف للتدرب على مسؤوليات الحكم، فظلَّ بعيداً عن الأجواء السياسية.

تولى إسماعيل مقاليد الأمور رسمياً في (٧ رمضان ٣٣٤هـ/ ١٢ نيسان ٩٤٦م)، في اليوم الذي شعر فيه والده القائم بقرب دنو أجله. وخلافاً لما كان يُتوقع، لم يظهر أي رد فعل سلبي من جانب إخوته وأعمامه، وكتم خبر وفاة والده خشية من حدوث اضطرابات، وحتى لا يستفيد أبو يزيد من ذلك. لم يتلقَّب بلقب الإمام، ولم يغيِّر النقوش والنقود والبنود، وظلَّت الصلاة تُقام باسم القائم، كما استمرت الرسائل والكتب الرسمية تحمل عنوانه، إلى أن يأتي اليوم الذي سيتمكن فيه الحاكم الشاب من إخماد الثورة[١]. وجاء ذلك اليوم بعد القضاء على ثورة أبي يزيد في عام (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م)، في كتاب بعث به إلى جوذر[٢].

الأوضاع الداخلية

الوضع السياسي في إفريقية

كانت الدولة الفاطمية، يوم تسلَّم إسماعيل زمام الأمور، تمر في مرحلة صعبة، وبدا في الأفق أنها سائرة نحو الزوال، وذلك نتيجة الضربات المتكررة المسدَّدة من قِبل أبي يزيد وأتباعه من البربر، وانحصرت في دائرة ضيقة حول عاصمتها المهدية وأضحت البلاد تحت نفوذ أبي يزيد، ولم تتمكن سوى مدينة سوسة من الوقوف في وجه الحشود الخارجية الضخمة، فكان على إسماعيل أن يكافح ضد خصمه، وينتقل إلى النواحي الغربية لإعادة السلام إلى كامل أرجاء الدولة، من صنهاجة إلى تاهرت، ومن أوراس إلى تخوم الزاب الصحراوية، ويواجه الأمويين الأندلسيين في المغرب الأقصى، ويقاتل النصارى في كالابريا.

القضاء على ثورة أبي يزيد

معركة سوسة

أخذ إسماعيل يستعد للاصطدام بأبي يزيد في نواحي سوسة. وحتى يقوِّي

---

(١) سيرة جوذر: ص ٤٦ ـ ٤٧. المقريزي: جـ ١ ص ٨٩.

(٢) سيرة جوذر: المصدر نفسه: ص ٤٦ ـ ٤٧، ٥٥ ـ ٦٠. المقريزي: المصدر نفسه.

جبهته الداخلية، وثَّق صلته بصنهاجة في المغرب الأوسط بزعامة بلكين بن زيري بن مناد، وأمده بالأموال والسلاح، كما استقطب علي بن حمدون الملقب بالأندلسي عن طريق بذل المال، وتحوَّل المغرب الأوسط وبلاد الزاب وإفريقية، على إثر ذلك، إلى ميدان صراع رهيب بين الفاطميين من جهة، وأبي يزيد والساخطين على الحكم الفاطمي من جهة أخرى، وسيتحول القتال، إلى قتال مذابح لا مواقع.

وجهَّز إسماعيل حملتين عسكريتين: الأولى، بحرية مؤلفة من ستة مراكب بقيادة يعقوب بن إسحاق، أنزلت جنوداً على ساحل مدينة سوسة. والثانية، برية بقيادة كبون بن تصولا، بعد أن عدل عن الخروج بنفسه، بناءً على رغبة أركان حربه[1]. وعسكر أفراد الحملتين بالقرب من معسكر أبي يزيد، وساندهما أهل سوسة. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار القوة الفاطمية، وتراجَعَ أبو يزيد منهزماً إلى القيروان، ووصل إلى باب أبي الربيع، فوجده مغلقاً، فبات خارج المدينة[2].

والواقع أن سكان القيروان، الذين أرهقتهم مساوىء أتباع أبي يزيد، لم يعودوا يخشون التعبير عن غضبهم، فتظاهروا أمام دار أبي عمار الأعمى، وهتفوا باسم الفاطميين، بل إنهم هددوا أبا عمار وأصحابه بعد أن علموا بانهزام أبي يزيد، واضطر هذا الأخير إلى استعمال الحيلة لإخراج مستشاره من المدينة وتراجع إلى المكان المعروف بكدية الشعير على مسافة يومين منها، ونصب معسكره هناك[3].

معركة القيروان

ما إن علم إسماعيل بهذا الانتصار الذي أحرزته قواته أمام سوسة، حتى قرَّر الخروج بنفسه من المهدية لمطاردة عدوه. فسلم جوذر الحاجب مفاتيح الخزانة، وفوَّض إليه جميع السلطات، وجعله على رأس قصر الخلافة وسائر أنحاء المملكة[4]، ثم ارتحل إلى سوسة، حيث لحق به زيادة الله بن عبد الله بن قديم وجماعة من أهل القيروان، ملتمسين عفوه، وأشاروا عليه بالذهاب إلى مدينتهم لتقوية معنويات أنصارهم فيها، فأمر كبون بن تصولا أن يسبقه إليها، ويزف إلى أهلها أنه قد صفح عنهم وأمَّنهم. ولما وصل إسماعيل إليها يوم الخميس في (٢٣ شوال ٣٣٤هـ/ ٢٨ أيار ٩٤٦م))، خرج أعيان المدينة للقائه في المكان الذي سيبني فيه

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٦.
(٤) سيرة جوذر: ص ٤٤.

المنصورية، فعسكر فيه وخندق على قواته، فآنس الناس، وأمَّنهم على أموالهم وأنفسهم[1].

أدرك أبو يزيد أنه يواجه الآن خصماً قوياً، مندفعاً، تحدوه روح قتالية عالية، وهو على أتم الاستعداد للمخاطرة بحياته، وكان من قبل يقاتل جيوشاً بقيادة ضباط أو مساعدين، لذلك غيَّر خطته العسكرية، وشرع قبل استئناف الحرب في:

- القيام بغارات استطلاعية على القيروان، كما هاجم ابنه فضل، جماعة من الفاطميين في قرية الجزيرة، قتل منهم رجلين وأسر خادماً. وقُتل في إحدى هذه الغارات كبون بن تصولا نتيجة كمين أعدَّه أتباع أبي يزيد. وقد أثَّرت هذه الحادثة في معنويات القوات الفاطمية ورجال القبائل الموالين لها، فتوقفوا عن نصرة إسماعيل[2]، لكن هذا الإحجام، كان إلى حين.
- أرسل رسالة إلى الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمن الناصر يطلب فيها إرسال قوة عسكرية لمساعدته. وفعلاً، قدم أسطول أموي من المرية[3] من أجل هذه الغاية، إلا أنه اضطر إلى التوقف في ميناء بونة[4]، ولما علم قائد الأسطول محمد بن رماحس بهزيمة أبي يزيد أمام القيروان عدل عن التدخل، وعاد إلى الأندلس.

ثم حدث أن استأنف أبو يزيد هجماته على القيروان، فنصب معسكره في قرية حمس[5]، وشرع، في اليوم التالي، يهاجم خصمه. فوجىء الجنود الفاطميون، في بادىء الأمر، بهذا الهجوم المباغت، لكنهم تمكَّنوا من صدِّه. وجدَّد أبو يزيد هجومه في اليوم التالي، وضغط على القوات الفاطمية مستغلاً تفوقه العددي، فتراجع هؤلاء واحتموا بخندقهم، لكن إسماعيل قاد بنفسه هجوماً مضاداً، ووصل إلى معسكر أبي يزيد وأجبره على التراجع[6].

جرت بين الطرفين، بعد ذلك، معارك جانبية استمرت مدة شهرين ونصف لم تكن حاسمة، لعل أهمها:

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٢٣٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٨.

(٣) المرية: مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس وفيها مرفأ للسفن والمراكب. الحموي: جـ ٥ ص ١١٩.

(٤) بونة: مدينة بإفريقية بين مرسى الخرز وجزيرة بني مرغنَّاي، وهي على البحر، وهي عنَّابة الحالية المصدر نفسه: جـ ١ ص ٥١٢.

(٥) حمس: قرية بالمغرب. الحموي: جـ ٥ ص ١٩٨.

(٦) عماد الدين، إدريس: ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

- المعركة التي جرت يوم الاثنين في (٥ ذي القعدة ٣٣٤هـ/ ٨ حزيران ٩٤٦م).
- المعركة التي جرت يوم الأربعاء في (١٤ ذي القعدة/ ١٧ حزيران)، على أثر وصول بعض النجدات إلى معسكر إسماعيل، فتشجع هذا وخاض المعركة ضد خصمه أمام بابِ تونس الذي حاول أتباع أبي يزيد اقتحامه. وقد أسفرت المعركة عن انتصار إسماعيل المنصور[١].

أدرك أبو يزيد، بعد هذه السلسلة من المعارك، عدم جدوى هجماته على القيروان، فتخلَّى عن محاولة اقتحام معسكر إسماعيل، وأخذ يشن الغارات على ضواحي سوسة والمهدية لاعتراض قوافلِ التموين، وإثارة خوف الجنود الكتاميين على مصير عائلاتهم، لكن جوذر تمكَّن من تهدئة روع العائلات الكتامية، كما وجَّه إسماعيل جيشاً كثيفاً إلى جزيرة جمة[٢]، فضبطوا نواحيها، وعزَّزوا صمود السكان[٣].

وجدَّد أبو يزيد، بعد ذلك، هجماته على القيروان، لكن لم يحالفه النجاح في حرب الحصار، وصدَّت محاولاته المتكررة. وأخيراً جرت معركة ضارية بين الطرفين، يوم الجمعة في (٦ محرم ٣٣٥هـ/ ٧ آب ٩٤٦م)، فاحتدم القتال طيلة اليوم، واستمر طوال ليلة السبت على ضوء المشاعل، ولهذا سميت تلك المعركة بوقعة المشاعل، وتواصلت حتى يوم الخميس، ونتج عنها انتصار واضح لقوات إسماعيل، وفرَّ أبو يزيد من أرض المعركة، وانهزم جيشه، ولاذ أفراده باتجاه المغرب متخلين عن معسكرهم، فدخله الجند الفاطميون وقتلوا من وجدوا فيه من الرجال، وحازوا ما فيه من الغنائم، ونجت الدولة الفاطمية من الخطر، وأضفى هذا الانتصار، على إسماعيل لقب «المنصور بالله»[٤].

وتخليداً لذكرى انتصاره، بنى إسماعيل المنصور في موقع معسكره المحاط بخندق، مدينة، سماها المنصورية، وأمر بإحكام سورها، ورفع بنيانها، واستخلف عليها وعلى القيروان غلامه قدام الصقلبي «وأمر أن يأخذ في عمارة المنصورية وأن لا يني»[٥].

ويبدو أن الهزيمة التي لحقت بأبي يزيد، رغم فداحتها، لم تكن كافية لوضع حد لثورته. وكان على إسماعيل المنصور أن يطارد عدوه عبر المناطق الجبلية في

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٢٣٩ ـ ٢٤٤. حيث تفاصيل وافية.
(٢) جمة: الاسم القديم لجهة المهدية.
(٣) عماد الدين، إدريس: ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩.
(٥) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢١٩.

أوراس والزاب التي تشكل قلب مناطقه، وإخضاع أتباعه من بني كملان وهوارة وغيرهم من البربر الزناتيين، وسوف تستغرق هذه العملية مدة سنة.

نهاية أبي يزيد

خرج إسماعيل المنصور في (٢٠ ربيع الأول/ ١٠ تشرين الأول) لاقتفاء أثر أبي يزيد، الذي كان يحاول إعادة تنظيم صفوف قواته حول باغاية تمهيداً لمهاجمتها، والاستيلاء عليها، غير أن إسماعيل المنصور سبقه إليها، فاستقبله سكانها بالترحاب، واستقبل فيها مبعوثان من قبل محمد بن خزر، أمير مغراوة، يعلمانه بدخوله في طاعته، ثم استأنف طريقه باتجاه طبنة ليمنع أبا يزيد من محاصرتها. وبعدما توقف الجيش الفاطمي في نقاوس، سار في اتجاه مدينة الزاب الكبرى، فلاذ أتباع أبي يزيد بالفرار باتجاه الجنوب ليحتموا بالصحراء. واستقبل في طبنة بعض وجوه كتامة، ثم توقف في مدينة قسطيلية، ووافاه بها عامل المسيلة علي بن حمدون. ولما وصل إلى بسكرة، علم أن أبا يزيد غيَّر اتجاهه، وسار إلى ناحية المغرب ليتحصن عند بني برزات في جبل سالات. وأراد إسماعيل المنصور أن يقتفي أثره، غير أن أركان حربه نصحوه بالتوقف عن مطاردته حيث تفصلهم عنه مساحات واسعة من القفار والصحارى، فعاد إلى طبنة، لكنه استأنف عملية المطاردة عن طريق أخرى تمر في شمال الحضنة، ووجد نفسه قريباً من معسكر عدوه[1].

يبدو أن أبا يزيد كان على علم بتحركات إسماعيل المنصور، فغادر جبل سالات متوجهاً إلى الحضنة، وهو يعتزم مفاجأته والتغلب عليه، وتمركز في أعالي الجبال الواقعة غربي المسيلة، وأخذ ينتظر وصول الجيش الفاطمي. وعندما وصل إسماعيل المنصور إلى هذا المكان، نصب معسكره في المنخفض، وعبَّأ قواته استعداداً للقتال. واشتبك الطرفان في رحى معركة ضارية، تراجع أبو يزيد في نهايتها واعتصم بأعالي الجبال، وخسر إسماعيل المنصور عدداً كبيراً من أتباعه الكتاميين[2].

رحل إسماعيل المنصور بعد المعركة إلى المسيلة حيث استراح مدة أسبوعين قبل أن يستأنف عملية المطاردة. ووفد عليه محمد بن خزر لتهنئته بالنصر والإعراب له عن ولائه[3]. وفرَّ أبو يزيد من أمامه وتوغل في الصحراء إلى حدود بلاد صنهاجة.

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٣ ـ ٢٦٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

وعانى الجيش من عملية المطاردة التي تمَّت في ظروف طبيعية قاسية، وألمَّ المرض بإسماعيل المنصور نتيجة السير المتواصل والإرهاق[1].

ونشب في تلك الأثناء نزاع مسلح بين أبي يزيد ومحمد بن خزر، ووجَّه هذا الأخير رسالة إلى إسماعيل المنصور يعلمه فيها بالمكان الذي التجأ إليه عدوه[2].

والواضح أن انضمام مغراوة إلى المنصور، والتفاف صنهاجة حوله أثَّرا في سير الأحداث على حساب أبي يزيد الذي أضحى مضطراً إلى الاختباء في جبل سالات أو التوغل في الصحراء، والالتجاء إلى سدراتة وغيرها من القبائل الأباضية المقيمة في ورجلان. غير أنه استغل مرض إسماعيل المنصور، فحاصر المسيلة، وشفي المنصور آنذاك من مرضه، وعلم بأن خصمه يعسكر بالقرب من المسيلة. وجاء شتاء ذلك العام قاسياً، فتوقفت الأعمال العسكرية (من ٥ رجب إلى ١٠ شعبان/ من ٣٠ كانون الثاني إلى ٦ آذار)، واستؤنفت بعد انتهاء فصل الشتاء[3].

وجرت المعركة الأولى بين الطرفين في مدينة أدنة على بعد اثني عشر ميلاً من المسيلة. ومُني أبو يزيد بهزيمة نكراء، وأوشك أن يقع في قبضة إسماعيل المنصور، وفرَّ معتصماً بالجبال، فطارده زيري بن مناد الصنهاجي الذي كان يقاتل في صفوف الفاطميين، لكنه فشل في القبض عليه.

وجرت المعركة الثانية حول قلعتي شاكر وكيانة في شهر (محرم ٣٣٦هـ/ آب ٩٤٧م)، وقد تحصَّن أبو يزيد فيهما. ونجحت القوات الفاطمية في دخولهما وأرغمته على التحصن في قصر منيع من القصور الأثرية القديمة الموجودة في المنطقة[4]. وأحاطت القوات الفاطمية بالقصر، واستمات أبو يزيد في المقاومة، وأصيب بجروح بالغة غير أنه تمكَّن من الفرار وقُتل أبو عمار الأعمى أثناء القتال، وعُثر على أبي يزيد في صباح اليوم التالي في إحدى الوهاد، فجيء به إلى إسماعيل المنصور الذي أمر بوضعه تحت حراسة مشدَّدة، ومعالجة جروحه. ويبدو أنه كان ينوي الإبقاء على حياته والاحتفاظ به كرمز لانتصاره، إلا أن الأسير توفي ليلة الخميس في (٢٨ محرم ٣٣٦هـ/ ١٩ آب ٩٤٧م) متأثراً بجروحه[5].

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٢٧٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٨٠ ـ ٢٨١، ٢٨٤ ـ ٢٨٩، ٢٩٣ ـ ٢٩٨، ٢٩٩ ـ ٣٠٦، حيث تفاصيل وافية.

ذيول ثورة أبي يزيد

لم يضع القضاء على أبي يزيد حداً نهائياً لثورته، ذلك أن ابنه فضل تزعَّم الثورة مكان أبيه، فحشد عدداً كبيراً من الأنصار في جبل أوراس واستأنف القتال، وبسط نفوذه على سائر بلاد قسطيلية، وامتد نشاطه إلى النواحي القاحلة في جنوب أوراس والزاب، وهدَّد مدينة قفصة.

وهكذا، تجدَّدت الثورة التي كانت الدولة الفاطمية قد تغلَّبت عليها بشق النفس. وأدرك إسماعيل المنصور ضرورة إخمادها بسرعة حتى لا تستفحل، وفرض هيبة الدولة في الأماكن التي ظهرت فيها.

ولم يمضِ أقل من شهر على عودته إلى إفريقية في (مستهل شعبان ٣٣٦هـ/ منتصف شباط ٩٤٨م)، حتى خرج مجدداً لقتال الثوار، واصطحب معه ابنه وولي عهده معد، وتوجَّه إلى الجنوب الشرقي عبر قمُّودة، ولما وصل إلى قفصة كان الثائرون قد غادروها إلى ملاجئهم الجبلية في أوراس والزاب[(١)].

وهكذا اتبع فضل الأسلوب القتالي نفسه الذي نفَّذه والده من قبل معتقداً أنه يستطيع بذلك إرباك خصمه[(٢)]، لكن إسماعيل المنصور لم يتردَّد في مطاردة المتمردين، واشتبك معهم في عدة معارك وهزمهم، ثم عاد إلى المهدية، ووصل إليها يوم الثلاثاء (١٤ رمضان ٣٣٦هـ/ ٢٨ آذار ٩٤٨م)[(٣)].

تعقيب على ثورة أبي يزيد[(٤)]

- شكَّل أبو يزيد في التاريخ البربري، بمآثره الملحمية، ما يشبه الأسطورة، فهو الرجل الذائع الصيت، الذي أوشك أن يقضي على دولة قائمة، ويقيم مكانها دولة أخرى.
- الواضح أن أسباب اندلاع الثورة، ترجع إلى انفجار قوى العصبية الزناتية الوراثية التي ينتمي إليها أبو يزيد اليفرني، والمناوئة لعصبية الكتلة الكتامية.
- أدَّى العامل الديني دوراً مؤثراً في إذكاء الصراع، وتفاقم الثورة، ذلك أن الأمر يتعلق بصحوة المذهب الخارجي وانتشاره في قبائل البربر بقسطيلية، وسماتة والزاب وأوراس، مما أدَّى إلى استفاقة ترمي إلى مقاومة جيوش غازية، بل إلى

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٣١٧ ـ ٣١٩.
(٢) الدشراوي: ص ٣١١.
(٣) عماد الدين، إدريس: ص ٣١٩ ـ ٣٢٣.
(٤) الدشراوي: ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦.

القضاء على نظام «الكفار»، وتعويضه بنظام يتوافق مع تعاليم المذهب «العادل».

- لم يُخفِ أبو يزيد، طوال مدة الثورة، بوصفه مصلحاً تحدوه حمية عقيدته الصافية والصحيحة، أنه يثور على نظام جائر، واعترف بأنه «إنما قام للإسلام محتسباً».
- لا شك بأن الأمر يتعلق باختلاف مذهبي وحركة إصلاحية دينية قادها أبو يزيد، تنطوي على هدف سياسي واضح ألا وهو الحصول على السلطة، وسياسة الناس، والوصول إلى تحقيق مشاريعه الطموحة، بدليل أنه ضرب النقود باسمه عند استيلائه على القيروان، بوصفه صاحب مملكة، وأعلم الخليفة الأموي في الأندلس أنه دخل في طاعته. والراجح أن ذلك كان مناورة منه للحصول، في آنٍ واحد، على دعم العاهل الأموي، ومساندة أهل المذهب السنِّي المتفوق.
- كان أبو يزيد يرى نفسه أهلاً للاضطلاع بمسؤولية حكم دولة، فأظهر قيادة فذَّة، وكفاءة بوصفه قائداً عسكرياً، ودهاءً سياسياً، وقد ذهب تاركاً في تاريخ المغرب ذكرى مغامرة عجيبة.

الالتفات إلى المغرب الأوسط

في الوقت الذي كان فيه إسماعيل المنصور يستعد للعودة إلى القيروان بعد القضاء على ثورة أبي يزيد، جاءته أنباء مزعجة عن حصول اضطرابات في تاهرت، فقرر اغتنام فرصة وجوده في المنطقة، والذهاب إليها لإعادة الأمن إلى نصابه. والجدير بالذكر أن القائد المكناسي حميد بن مصال، حاكم تاهرت السابق، تحالف مع الخليفة الأموي في الأندلس، وحاول استعادة المدينة مستغلاً الفوضى التي سادت في المنطقة نتيجة ثورة أبي يزيد، فهاجمها وضرب عليها حصاراً مركزاً.

خرج إسماعيل المنصور من المسيلة ليلة الثلاثاء (١٧ صفر ٣٣٦هـ/ ٦ أيلول ٩٤٧م)، ووصل إلى تاهرت يوم الاثنين (أول ربيع الأول/ ٢٠ أيلول)، ولما علم القائد المكناسي بوصوله فك الحصار عن تاهرت، وغادر المنطقة باتجاه المغرب، ثم أبحر إلى الأندلس، ولم تسمح أوضاع إسماعيل المنصور العسكرية من مطاردته والتوغل في عمق المغرب الأقصى لبسط نفوذ الفاطميين في تلك الربوع، وذلك بفعل عدة عوامل لعل أهمها:

- كان جيشه منهكاً بفعل الحروب المتواصلة مع أبي يزيد.
- ألمَّ به مرض شديد شلَّ حركته، واضطر إلى البقاء في تاهرت مدة عشرين يوماً حتى شُفي.
- جهَّز حملة اتجهت إلى الجنوب لقمع حركة مناهضة لحكمه قامت في لواتة، فوجد الثائرين قد هربوا إلى الرمال والبراري المتصلة بأرض السودان.

أقام الجيش الفاطمي في لواتة زهاء اثني عشر يوماً قبل أن يعود إسماعيل المنصور إلى إفريقية حيث وصل إلى المنصورية يوم الخمس في (٢٧ جمادى الآخرة/ ١٣ كانون الثاني ٩٤٨م)، بعد أن قضى زهاء سنة وشهرين وسبعة وعشرين يوماً في حملة عسكرية طويلة الأمد ومشهورة[١].

العلاقات الخارجية

العلاقات مع المشرق الإسلامي

العلاقة مع الخلافة العباسية

لم يحدث، في عهد إسماعيل المنصور، أي تغيير في صورة العلاقات مع مصر، لكن لم يقم الفاطميون بأي عمل عسكري ضد هذا البلد. إلا أن إسماعيل المنصور لم يهمل أمر انتشار الدعوة في المشرق، لذلك استقبل مبعوثاً من أنصاره قادماً من بغداد لإعلامه بنشاط دعاته وبخاصة محمد بن علي. ولا شك بأنه كان يتابع بكل اهتمام الوضع السائد في ممتلكات خصمه العباسي، وقد كان يتصوره على نحو ملائم لرغباته[٢]. والجدير بالذكر أن الوضع الداخلي للخلافة العباسية كان يزداد تدهوراً مع تدخل البويهيين[٣]، حيث أضحى الخليفة العباسي المطيع (٣٣٤ـ ٣٦٣هـ/ ٩٤٦ـ ٩٧٤م) تحت نفوذ هذه الأسرة التي استأثر زعماؤها باختصاصات الخلفاء[٤].

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الفاطميين والبويهيين، فإنه لم تجرِ اتصالات بين معز الدولة البويهي وإسماعيل المنصور، وسوف يدخل الفاطميون، في المستقبل،

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٣١٣ ـ ٣١٦. (٢) الدشراوي ص ٣١٧.

(٣) سيأتي الحديث عن الأسرة البويهية في الفصل الثامن.

(٤) انظر فيما يتعلق بتأسيس الدولة البويهية وعلاقتها بالخلافة العباسية: كتابنا تاريخ الدولة العباسية ص ٢٢٠ ـ ٢٣١.

في نزاع سياسي مع أولئك الشيعة الزيديين الذين كانوا يرون أنه ليس من مصلحتهم تعويض خلافة ضعيفة وخاضعة لهم بخلافة قوية ستفلت لا محالة من قبضتهم[١].

العلاقة مع القرامطة في اليمن

استطاع إسماعيل المنصور أن يعيد إلى الإمامة شيئاً من الأهمية التي فقدتها لدى أتباعه القرامطة في اليمن بعد التدهور الذي شهده نفوذ الفاطميين في هذا البلد، إذ حدث بعد مقتل أبي الحسن بن حوشب على يد ابن العرجى أمير عين محرم، أن طمع نائبه إبراهيم بن عبد الحميد السباعي في مسور الواقعة جنوب صنعاء، في أن يتقلّد ما كان يليه من البلاد، فأعلن ارتداده عن المذهب الإسماعيلي، وأقام الخطبة لبني العباس، وسعى إلى إخماد الدعوة الإسماعيلية، ولم يزل يتتبع الإسماعيليين ويقتلهم حتى قضى على الكثيرين منهم. وما لبث أن اجتمع شمل الفريق الذي نجا من هذا الاضطهاد بناحية جبل مسور تحت زعامة ابن الطفيل. ولما علم إبراهيم بن عبد الحميد بذلك، طاردهم وقتل ابن الطفيل فتفرَّق أتباعه، وقصدت جماعة منهم نواحي عمان[٢]. اتخذت الطائفة الإسماعيلية في اليمن، بعد مقتل ابن الطفيل، ابن رحيم رئيساً لها، ويُعرف أيضاً بابن جفتم. وكان كثير التنقل خوفاً من تعقب السنيين له، كما كان على اتصال دائم بالمهدية.

العلاقة مع القرامطة في البحرين

شهدت الحركة القرمطية في البحرين انقساماً حاداً بعد وفاة أبي طاهر سليمان الجنّاني في عام (٣٣٢هـ/ ٩٤٤م) حين عيَّن القائم الفاطمي أخاه أحمد على رأس الحركة القرمطية بانتظار بلوغ سابور بن أبي طاهر السن القانونية لخلافته. وقد حاول أحمد أن يتخلَّص من ابن أخيه لينفرد في المستقبل بزعامة الحركة. وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة الفاطمية في إفريقية تواجه خطر ثورة الخوارج، انقسم القرامطة إلى قسمين. ضمَّ القسم الأول أنصار الإمامة الفاطمية الملتفين حول سابور، وضمَّ القسم الثاني الفئة المناهضة للفاطميين بزعامة أحمد الذي نادى بالتقارب مع العباسيين، وبالتحديد مع بني بويه المسيطرين على مقدرات الخلافة العباسية[٣].

حرص إسماعيل المنصور على تجنُّب تشتت الحركة، والسهر على فرض سلطته الروحية على أحمد وجماعته في الأحساء. والجدير بالذكر أن أحمد أعاد

---

(١) الدشراوي: ص ٣١٧ ـ ٣١٨.
(٢) الحمادي اليماني: ص ٤١.
(٣) الدشراوي: ص ٣١٩.

الحجر الأسود إلى مكة في عام (٣٣٩هـ/ ٩٥١م) كما أشرنا، إلا أن النزعة المناهضة للفاطميين ظَلَّت هي السائدة، ودخلت في نزاع سافر معهم منذ أن خلف الحسن بن محمد الأعصم أباه أحمد[١].

العلاقات مع المغرب

العلاقة مع الصقليين

عندما تولى إسماعيل المنصور الحكم، كانت صقلية في حالة فوضى عامة، فكثيراً ما كانت تقع النزاعات بين سكانها من المسلمين، فيعزلون ولاتهم، ويعيِّنون من يشاؤون. وكان الفاطميون يحرصون على الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الجزيرة لأسباب سياسية واقتصادية، بهدف إنشاء دولة كبرى على ساحل البحر المتوسط الجنوبي، واتخاذ صقلية قاعدة لأساطيلهم في البحر المذكور لصد الحملات التي يوجِّهها البيزنطيون نحو إفريقية. ووجد الفاطميون في صقلية أرضاً مثمرة تمدهم بالفواكه والخضار والمعادن، لذلك استمروا في إرسال ولاتهم إليها حتى قامت ثورة أبي يزيد.

ومنذ عودة عامل الجزيرة خليل بن إسحاق إلى المهدية في عام (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، اتضح عجز خلفه عطاف الأزدي عن حفظ الأمن في الجزيرة، وتفاقم الخلاف بين الحامية الفاطمية من ناحية وأهل صقلية، المسلمين والنصارى، من ناحية أخرى. وقاد بنو الطبري وهم إحدى الأسر البلدية الصقلية، الثورة على الحكم الفاطمي، واستولوا على بلرم من عطاف الأزدي، وتوقف النصارى عن دفع الجزية، وراح الثائرون يهاجمون السفن الفاطمية «فيأخذون كل سفينة غصباً، ويكثرون إظهار السلاح في المساجد»[٢].

وأقدم بنو الطبري على تنفيذ هجوم على العامل الفاطمي (يوم عيد الفطر ٣٣٥هـ/ ٢٤ نيسان ٩٤٥م)، وقتلوا عدداً من جنوده[٣]، مما دفع عطاف الأزدي إلى طلب المساعدة من إسماعيل المنصور. جاء رد الفعل الفاطمي سريعاً، إذ لم يجد إسماعيل المنصور بداً من النظر بعين الجدِّ إلى تطور الأوضاع في الجزيرة المضطربة، وشعر أن خير علاج لهذه الحالة المتردية هو أن يولِّي رجلاً خبيراً

(١) الدشراوي: ص ٣١٩.
(٢) سيرة جوذر: ص ٧٠ ـ ٧١.
(٣) المصدر نفسه.

بالشؤون السياسية والعسكرية، وَمَنْحه سلطات مطلقة، فاختار الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي، وهو أحد كبار قادة الجند، وأبلى بلاءً حسناً في قمع ثورة أبي يزيد، وأمدَّه بجند كثير ومال وفير، وأرسله إلى صقلية في عام (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م)، فدخلت الجزيرة بولايته في طور جديد[١].

ويبدو أن الأسر العربية ذات الجذور المضرية، نفرت من تعيين رجل من قبيلة كلب حاكماً على الجزيرة، فأرسلوا وفداً إلى المهدية لطلب استبداله بعامل آخر، غير أن إسماعيل المنصور زجَّ بأعضائه في السجن، وعاملهم بقسوة على الرغم من تشفع الحسن فيهم، وأوصى ابن الكلبي باستعمال الشدَّة. وتمكن هذا الوالي في آخر الأمر من توطيد سلطته، واستأنف غاراته على نصارى الجزيرة الذين لجأوا إلى الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (٣٣٢ـ ٣٤٨هـ/ ٩٤٤ـ ٩٥٩م) لنجدتهم، لكنهم اضطروا إلى الخضوع لإرادة الوالي، واستأنفوا دفع الجزية[٢].

أدرك ابن الكلبي أن سكان الجزيرة لن يكفُّوا عن إثارة القلاقل، فشغلهم بالحرب ضد البيزنطيين في جنوب إيطاليا.

العلاقة مع البيزنطيين

النزاع الفاطمي ـ البيزنطي حول جزيرة صقلية

التفت الفاطميون، بعد القضاء على ثورة أبي يزيد، إلى التوسع في جنوب إيطاليا على حساب البيزنطيين، فعادت العلاقات العدائية إلى سابق عهدها، وتجدَّدت الحرب بين الجانبين إذ أن الخصومة التقليدية بين الفاطميين والأمويين في الأندلس كانت أحد الظروف التي ساهمت في تجدُّدها.

لقد حرص الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع على أن يثير روح الحرب والقتال في نفوس رعاياه ضد المسلمين في الشرق وفي شمال إفريقية، إذ أن ما تعرضت له الدولة البيزنطية من هجمات المسلمين في الشرق ومصر، وما كان من نزاع وتنافس سياسي وديني بين الفاطميين من جهة والأمويين في الأندلس من جهة أخرى، أدَّى إلى التقارب بين بيزنطية والأندلس، وتبادل العاهلان البيزنطي والأموي السفارات لتنسيق المواقف.

---

(١) سيرة جوذر: ص ٧٠ ـ ٧١. ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٧٦ ـ ١٧٨.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.

والواضح أن أعمال الحسن الكلبي، حاكم صقلية الفاطمي، ضد النصارى في الجزيرة أثارت اهتمامات الأمبراطور البيزنطي، واستدعت تجهيز حملة عسكرية لمهاجة الممتلكات الفاطمية في صقلية بمساعدة حاكم كالابريا، فتجمَّعت الجيوش البيزنطية في ميناء أوترانت، وأرسل ابن الكلبي رسالة عاجلة إلى إسماعيل المنصور ملتمساً إمداده بالتجهيزات اللازمة لصد الغارات البيزنطية، فأرسل إليه وحدات من الأسطول الفاطمي بقيادة فرج الخادم الذي وصل إلى بلرم في (٢٤ محرم ٣٤٠هـ/ ٢ تموز ٩٥١م)، ثم زحف إلى مسينا، وحاصر رجيو، وأجبر سكانها على دفع غرامة باهظة وتسليم عدد من الرهائن، ثم فكَّ الحصار عنها وتوجَّه للاصطدام بالجيش البيزنطي، لكن القائد البيزنطي تخلَّى عن القتال وانسحب إلى باري، فحاصر الحسن الكلبي عندئذٍ كسانو التي استسلمت بعد شهر من الحصار والمقاومة، مقابل دفع الجزية، ثم عاد إلى مسينا ليقضي فيها فصل الشتاء[١].

وبحلول فصل الربيع، استأنف الحسن الكلبي نشاطه العسكري، فاجتاز المضيق، وزحف باتجاه الجيش البيزنطي المتمركز في جيراس، وحصل اشتباك بين الطرفين يوم عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة ٣٤٠هـ/ ٨ آذار ٩٥٢م)، هُزم فيه الجيش البيزنطي، وتراجع من ساحة المعركة. وضرب الفاطميون الحصار على مدينة جيراس، فاستسلمت ووافق سكانها على دفع الجزية. واستولى الحسن الكلبي أيضاً على مدينة بتريكوشيا عنوة، ولم يتوقف القتال إلا بعد أن طلب البيزنطيون الهدنة، وأعلنوا عن استعدادهم دفع الجزية[٢].

عاد الحسن الكلبي، بعد إبرام الصلح، إلى رجيو وبنى فيها مسجداً، وفرض على النصارى احترام ما يكتسبه ذلك المسجد والملجأ من صبغة مقدسة، وتعهد النصارى بتأمين من يلجأ إلى المسجد من أسرى المسلمين. وأرسل قسطنطين السابع مبعوثاً إلى المهدية لإبرام الصلح، وتقديم الهدايا إلى الحاكم الفاطمي، فوصل إلى العاصمة في (شهر محرم ٣٤١هـ/ حزيران ٩٥٢م)، فاستقبله إسماعيل المنصور بترحاب، وبعد إبرام الصلح حمَّله من الهدايا النفيسة، ما يصح أن يُبعث إلى الملوك[٣].

---

(١) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات: ص ٢٢٠. ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٧٨. الدشراوي: ص ٣٢١. Rambau: P. 406.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٧٩ الدشراوي: المرجع نفسه ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ Rambau: Ibid P. 414.

(٣) سيرة جوذر: ص ٦٠ ـ ٦١. ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٧٩.

النزاع الفاطمي ـ البيزنطي حول جزيرة كريت

كانت جزيرة كريت تحت حكم العباسيين، ونظراً لقربها من مصر، كان يُشرف عليها والي هذه البلاد، وقد استوطنتها منذ أوائل القرن الثالث الهجري جماعة من مهاجري الأندلس يُعرفون بأهل الربض، وكان هؤلاء قد ثاروا على الحَكَم بن هشام الأموي في الأندلس في عام (٢٠٢هـ/ ٨١٧م)، فانتصر عليهم في واقعة الربض المشهورة[١]، وقتل عدداً منهم، وأجلى من بقي عن الأندلس، فقصد بعضهم مدينة فاس في المغرب الأقصى، وتوجَّه بعضهم الآخر إلى الإسكندرية، ويبدو أنهم أثاروا الشغب في المدينة في عهد ولاية عبد الله بن طاهر (٢١١ـ ٢١٣هـ/ ٨٢٦ ـ ٨٢٨م)، فاصطدم بهم، وانتصر عليهم، وأجلاهم عن الإسكندرية، وطاردهم حتى جزيرة كريت، فاستقروا بها، وعمروها، وتولى قيادتهم أبو حفص عمر بن شعيب البلوطي.

ظلَّ الربضيون في جزيرة كريت زهاء قرن ونصف حتى طمع البيزنطيون في استردادها، وبدأوا، منذ منتصف القرن الرابع الهجري، سلسلة من الهجمات العسكرية عليها. والواقع أن الجزيرة تمتاز بموقع عسكري جيد بوصفها شديدة القرب من شبه جزيرة المورة، وجزر بحر إيجة، ومصر، وأضحى لها سيطرة على جزيرة ناكسوس التي أدت لها الجزية. وراح الربضيون يجوسون خلال بحر إيجة، وبفضلها جرى التقارب بين طرسوس وطرابلس الشام ومصر وصقلية وإفريقية، ولم يعد للبيزنطيين من نفوذ في البحر المذكور، والحوض الشرقي للبحر المتوسط[٢].

والواقع أن ما أحرزه الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع من الانتصارات على المسلمين في الجزيرة الفراتية وأرمينية، شجَّعه على أن يعيد جزيرة كريت إلى الحكم البيزنطي. فأعدَّ في عام (٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) أسطولاً بحرياً يتألف من مائة وسبع وثلاثين سفينة كبيرة وشحنه بتسعة آلاف وسبعمائة مقاتل من نخبة ما تحتويه ثغور أوروبا وآسيا البيزنطية، وأرسل قوات أخرى إلى سواحل إفريقية والأندلس ليمنع وصول النجدات إلى الجزيرة ولمراقبة المسلمين في هذين المنطقتين، وجعل على رأس هذه القوة العسكرية قسطنطين جونجل، وهو أحد كبار القادة السياسيين[٣].

نجحت القوات البيزنطية في النزول إلى البر لكنها لم تقم بالعمليات العسكرية الضرورية للحماية، فتعرَّضت لهجمات المسلمين، وكاد قسطنطين يقع في الأسر

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) Rambau: P. 428

(٣) Ibid: P. 430..

لولا أن أحاط به بعض غلمانه. وترتَّب على هذه الهزيمة أن تعرَّضت سواحل الأمبراطورية لغارات الكريتيين، وصار لزاماً على الأمبراطورية أن تواصل محاولاتها لاستعادة الجزيرة[١].

وفاة إسماعيل المنصور

بعدأن نجح إسماعيل المنصور في إعادة الأمن إلى بلاده، شعر بالحاجة إلى تغيير مكان إقامته في المهدية، فانتقل في (مستهل شوال ٣٣٦هـ/ منتصف نيسان ٩٤٨م) إلى مدينته الجديدة المنصورية التي بناها، كما أشرنا، في المكان نفسه الذي انتصر فيه على أبي يزيد، وحوَّلها إلى عاصمة، ونقل معه ولي عهده، وأفراد عائلته، وأغلب دعاته وأوليائه، وعيَّن على المهدية خادمه جوذر[٢].

استمر إسماعيل المنصور في توسيع عاصمته الجديدة وتحسينها، ثم نقل إليها مختلف المصالح الإدارية، وأسواق مدينة القيروان، وأرباب الصناعات، وتوافد إليها عدد كبير من التجار للإقامة فيها.

ولم تلبث المنصورية أن شهدت تطوراً كبيراً بوصفها عاصمة سياسية، ومدينة ترفيهية، ومركزاً إدارياً وتجارياً، وغدت حاضرة الفاطميين، ومقراً لانبعاث الدولة الفاطمية من جديد[٣]، إلى أن قدم المعز الفاطمي ابن المنصور إلى مصر في (٧ رمضان ٣٦٢هـ/ ١١ حزيران ٩٥٣م)، فأضحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية.

توفي إسماعيل المنصور يوم (٢٨ شوال ٣٤١هـ/ ١٨ آذار ٩٥٣م)[٤] من دون أن يتمكَّن من إعادة الهيبة التي اكتسبتها الدولة الفاطمية في عهد عبيد الله المهدي، على أنه منذ انتصاره على خصمه أبي يزيد، حرص على إعادة تنظيم شؤون الدولة في الداخل والنهوض بها من عثرتها، لكن القدر جاءه مبكراً فتوفي بعد أقل من خمسة أعوام على عودته إلى عاصمته.

---

(١) Rambau: P. 430.

(٢) عماد الدين، إدريس: ص ٣٢١ ـ ٣٢٤.

(٣) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢٢١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤٧.

الفصل السادس

أبو تميم معد: المعز لدين الله

(٣٤١ - ٣٦٥هـ/٩٥٣ - ٩٧٥م)

المرحلة الإفريقية

شخصية المعز

تولى أبو تميم معد، الملقب بالمعز، السلطة في (٢٩ شوال ٣٤١هـ/ ١٩ آذار ٩٥٣م) وعمره اثنان وعشرون عاماً، فأخفى موت والده إسماعيل المنصور إلى أوائل (ذي الحجة/ ١٩ نيسان) خشية حدوث اضطرابات في البلاد. وكان والده قد عيَّنه ولياً للعهد، ولم يتعرض لتلك الشدائد التي تعرَّض لها جده القائم ولا المهدي. عاش في المهدية والمنصورية، حاضرتي الفاطميين في إفريقية. أدرك ثلاثة من الحكام الفاطميين هم عبيد الله المهدي، والقائم وإسماعيل المنصور، وأمه أم ولد[١].

يُعدُّ المعز من كبار رجال عصره، فاق أقرانه ومنافسيه علماً وسياسة وحرباً. يجيد عدة لغات منها اللاتينية والصقلبية والسودانية، وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب، فضلاً عما عُرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور[٢]، وقد بلغ نفوذ الدولة الفاطمية في عهده أقصى مداه. ساهم في إنعاش الدولة في بلاد المغرب ومصر، واستولى على جميع شمال إفريقية باستثناء طنجة وسبتة، وتوغلت جيوشه في بلاد الشام، وهدَّدت بغداد، ونظَّم هذا الملك الواسع بما سنَّه من النظم الإدارية الحازمة. شجَّع النهضة العلمية والثقافة المذهبية، وعمل على تقدم النهضة الاجتماعية، فعظمت دولته، وتدفقت الأموال عليها ونعمت بالرخاء[٣].

ومع ذلك، فقد راودته الحيرة والخشية من المصاعب التي تنتظره. كان يخشى

---

(١) القاضي النعمان: ص ٤٩٩. ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٢١. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) حسن وشرف: المعز لدين الله ص ٩. (٣) المرجع نفسه.

من ردود فعل سلبية من قِبل إخوته وأعمامه وأعمام أبيه، وهذا دليل على أن الخلافات داخل الأسرة العبيدية قد بلغت من الحدَّة ما جعلته يتوقع حصول اضطرابات عند توليه الحكم. فقد كتب إلى جوذر يقول: «وعليك، فيما قِبَلك، بالاحتراس ما أمكنك، والضبط ما استطعت، ومنع هؤلاء القردة من الوصول إلينا والخروج من أبواب بيوتهم فضلاً عما سوى ذلك»[١].

ومما زاد في خشية المعز أن النظام السياسي الذي ورثه كان متداعياً. إذ فقدت الدولة الفاطمية أهميتها بما شهدته من اضطرابات داخلية، وما تعرَّضت له من أخطار خارجية؛ على الرغم من جهود جدِّه القائم ووالده المنصور في إعادة النفوذ إلى الفاطميِّين كما كان في أيام المهدي، وإعادة جو الثقة والأمن إلى ربوع البلاد، وقد كشفت رسالة المعز إلى جوذر عن القلق الذي أثارته في نفسه الظروف المضطربة التي تولَّى الحكم في ظلها[٢].

ومع ذلك، فقد أثبتت الأحداث السياسية أن هذا الحاكم كان يعيش حالة من الرهبة التي لا مبرر لها، فقد ساد الأمن داخل حدود بلاده وخارجها. وبناءً على ذلك لم ينتظر طويلاً ليعلن خبر وفاة والده، واعتلائه منصب الحكم، فقد أذاع الخبر بعد بضعة أسابيع في الخطبة التي ألقاها يوم عيد الأضحى بجامع المنصورية، وأعلن رسمياً عن بداية عهده[٣].

ويتضح، من خلال هذه الخطبة، أنه تمكَّن من تبديد القلق الذي ساوره غداة وفاة والده، وعقد العزم على مواصلة المهمة التي سيقوم بها بشجاعة وثبات حتى النهاية، وسيقتدي بمثال أبيه، كما أفصح عن برنامج عمله لتحقيق هدف أسلافه، داخل البلاد، من تحقيق الأمن، وإعادة الثقة إلى نفوس السكان، وفي الخارج، من خلال التوسعات في الغرب والشرق المرتكزة على العقيدة الشيعية المبنية على حتمية عودة الحكم الإسلامي إلى آل النبي محمد ﷺ أي ذرية ابنته فاطمة، وكان عبيد الله المهدي قد وضع أساسه من قبل، وإذا كانت ثورة أبي يزيد قد أعاقت المضي في تحقيقه، فإن هذه الثورة قد انتهت، وصفا الجو السياسي داخل الأسرة الفاطمية، ولا بد من استئناف عملية تحقيقه[٤].

---

(١) سيرة جوذر: ص ٧٤.
(٢) انظر نص الرسالة عند جوذر ص ٧٣.
(٣) المصدر نفسه: ص ٧٦. عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار، السبع السادس ص ٢٤.
(٤) سيرة جوذر: ص ٧٦ ـ ٨٤. الدشراوي: ص ٣٣٠.

إخضاع الهواريين

كان أول عمل قام به المعز هو إعادة بسط سلطة الدولة في جبل أوراس، معقل الهواريين الذين ساندوا ثورة أبي يزيد، فخرجت الجيوش الفاطمية في (أواخر عام ٣٤١هـ/ أوائل عام ٩٥٣م) من المنصورية بقيادة المعز نفسه ووصلت الأربس، فانفصلت قوة عسكرية بقيادة بلكين بن زيري الصنهاجي، اجتاحت بني كملان ومليلة المعتصمين بجبل غزالة جنوب باغاية، وفرَّقتهم، ونصب المعز معسكره في مليلة، وراح جنوده يجوبون أطراف الأوراس، وتمكّنوا من إخضاع القبائل الثائرة[١].

نتيجة هذا الضغط العسكري، استسلم الهواريون، وقرَّر رئيس مغراوة الدخول في طاعة المعز، ونُقِل رؤساء هوارة وزناتة، بعد استسلامهم، إلى المنصورية حيث استقبلوا استقبالاً لائقاً، وأُغْدِقت عليهم الهدايا[٢].

ابتهج المعز بهذا الانتصار الأول، وعاد إلى المنصورية، وعيَّن خادمه قيصر على باغاية، وعهد إليه بمهمة مواصلة تثبيت الأمن في جبل أوراس، ورفعت تلك الحملة الناجحة من شأن المعز سواء في أعين أهل إفريقية أو في أعين بربر المغرب[٣].

العلاقات الخارجية

العلاقة مع القوى الإسلامية في المغربين الأوسط والأقصى

الواضح أن الحملة الفاطمية على أوراس كانت خطوة تمهيدية للقيام بعمليات عسكرية واسعة النطاق لبسط سيطرة المعز في نواحي المغرب الأقصى، وانتهاج سياسة توسعية غربي مملكته على حساب الأمويين، حتى لا تفقد الدولة الفاطمية هيبتها في الأقاليم الغربية في الزاب وتاهرت، وفي المناطق المجاورة لمناطق النفوذ الأموي الأندلسي، وقد أثاره:

- ما كان يقوم به عبد الرحمن الناصر الأموي من إرسال جيوشه إلى المغرب الأقصى، فتجتاز إلى عدوة المغرب[٤]، وتقاتل من يخرج على سلطة الأدارسة

---

(١) سيرة جوذر: ص ٨٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الدشراوي: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.
(٤) العدوة: الأرض المرتفعة على ساحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وتسمى عدوة المغرب وتقابلها عدوة الأندلس.

من البربر، وتساعد الموالين له حتى ملك أكثر بلاد المغرب، وبايعته قبائل زناتة والبربر، وخطب له على المنابر من تاهرت إلى طنجة باستثناء سجلماسة، كما بايعه أهل فاس.

- استقطاب عبد الرحمن الناصر كثيراً من أمراء زناتة ورؤساء تاهرت ووهران وغيرهما، حتى أنه في عام (٣٤١هـ/ ٩٥٣م) «أُدْخِلت بين يديه رؤوس كبار القادة الفاطميين التي احتزَّها حلفاؤه في المغرب، مثل ميسور الخادم ومحمد بن ميمون وغيرهما، وعشرة من بنودهم، أُدخلت منكَّسة ومعها عدد من طبولهم، فرُفعت الرؤوس والبنود والطبول على باب قصر قرطبة[١].

وحتى يدعم موقفه، تقرَّب المعز من الصنهاجيين، فاستقبل رئيسهم زيري بن مناد في المنصورية، وأغدق عليه النِعم، وكلَّفه بمهمة حكم المناطق الشاسعة الممتدة من تخوم الزاب إلى حدود تاهرت، باسمه، فضمن بذلك ولاء هذه القبيلة البربرية المقيمة في ناحية تيتري في المغرب الأوسط.

دعا المعز المتطوعين للجهاد والانضمام إلى جيشه، مدركاً، في الوقت نفسه، بُعد المغرب الأقصى، وارتفاع جباله ووعورة مسالكه، فلبى شبان كتامة النداء مظهرين حماساً بالغاً، فابتهج بإقبالهم على خدمته، وحسن سلوكهم «فأوسع لهم العطاء، وأجزل لهم الحباء». ودخلوا عليه قبل انطلاقهم، فألقى فيهم كلمة تدل على مدى تصميمه على بسط سلطانه على الأراضي الواقعة غرب مملكته، وقد أشاد في بدايتها بما أبداه الجنود الشبان من حماس لنصرة الأسرة الفاطمية، ثم أوضح لهم المهمة التي تنتظرهم. فالغاية من مساهمتهم هو أداء واجب الجهاد المقدس في سبيل الله، إذ أن الدولة الفاطمية بلغت من الثروة والقوة ما يجعلها في مأمن من الاجتياح، فيجب عليهم جهاد مَنْ ادَّعى الخلافة وتلقَّب بلقبها وعارض سلطة إمامهم، وقتال من اغتصبها. وأوصى الكتاميين أخيراً بمؤاخاة الصقالبة في ساحة القتال، ثم أثنى على هوارة وبني كملان الذين قدَّموا شواهد الطاعة بعد خضوعهم له[٢].

واستناداً إلى ما ذكره القاضي النعمان فإن مدَّعي الخلافة، الذي أراد المعز محاربته، هو الأمير محمد بن الفتح بن واسول صاحب سجلماسة من بني مدرار،

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢١٨.

(٢) القاضي النعمان: ص ٢٠٠ ـ ٢٠٦، ٢٣٣ ـ ٢٣٦.

بيد أن المعز لم يذكر اسمه، وهو الذي ارتدَّ عن المذهب الخارجي واعتنق المذهب المالكي وخوطب بأمير بالمؤمنين وتلقَّب بالشاكر لله، وصك النقود باسمه، سميت بالشاكرية، إلا أن خطابه يشير أيضاً إلى عبد الرحمن الناصر الذي نسب إلى نفسه الحق بالخلافة ونعته بـ «اللعين الأموي»[1].

ولا شك بأن المعز حين أعدَّ تلك الحملة الكبيرة الرامية إلى إعادة سلطة دولته وهيبتها في المغرب الأقصى، وانتزاعها من النفوذ الأموي، قد فكَّر إما في غزو الأندلس أو تهديد عبد الرحمن الناصر، وجعل عرش قرطبة عرضة لخطر جسيم ماثل على أبواب الأندلس في انتظار توجيه الجنود الكتاميين في الوقت المناسب للقضاء عليه[2].

ومهما يكن من أمر، فإن المعز كان ينوي الاستفادة، إلى أقصى حد، من تلك الحملة بالسعي إلى انتهاج سياسة توسعية غربي مملكته على حساب خصمه الأموي، كما أشرنا، قبل أن يتوجه إلى مصر لمد النفوذ الفاطمي إلى المشرق الإسلامي. وكانت هذه السياسة محط أنظاره منذ اعتلائه العرش الفاطمي في المنصورية، ويكفي أن نشير إلى ما أبداه من عناية لتنظيم تلك الحملة، لنذكر أهمية الأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقها[3]. وعهد بقيادتها إلى أحد كبار رجال الدولة، وهو جوهر الكاتب الصقلي، ذلك المولى اليوناني الأصل، الذي أخلص في خدمة الدولة أثناء الحملة على أبي يزيد، ثم ارتقى إلى أن صار في رتبة الوزارة[4].

انطلقت الحملة في عام (٤٣٧هـ/ ٩٥٨م) في اتجاه تاهرت للانتقام من واليها يعلى بن محمد اليفرني الذي خلع طاعة الفاطميين وانضم إلى الأمويين في الأندلس. ويبدو أن هذا الوالي خشي من دخول جوهر الصقلي إلى المنطقة التي يشرف عليها، فرأى من الأفضل العودة إلى الحظيرة الفاطمية، واستقبال القائد الفاطمي بما يستحق من حفاوة. إلا أن التعليمات التي كانت بحوزة جوهر الصقلي تقضي بالتخلص من يعلى، لذلك قبض عليه وعلى أولاده وهدم حاضره ولايته، وأعاد السلطة الفاطمية إلى سابق عهدها في المغرب الأوسط. ويرى بعض المؤرخين أن يعلى ظلَّ على إخلاصه للناصر الأموي، وأنه كان نائبه في بلاد

(١) المجالس والمسايرات: ص ١٩٨ ـ ١٩٩، ٤٢٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٦.

(٢) الدشراوي: ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٣) المرجع نفسه: ص ٣٤٣.

(٤) حسن، علي إبراهيم: تاريخ جوهر الصقلي ص ٩ ـ ١٥.

المغرب، ولذلك قاوم الجيش الفاطمي فأسره جوهر الصقلي وقتله[1].

وسواء جهر يعلى بعدائه للفاطميين أو بإخلاصه لهم فإنه كان أموي النزعة، لذلك كان القضاء عليه من أهم عوامل نجاح جوهر الصقلي الذي وضع بلاد المغرب الأوسط في يد زيري بن مناد الصنهاجي. تُعدُّ نهاية يعلى بمثابة الضربة القاضية المسدَّدة إلى النفوذ الذي كان يسعى إليه الخليفة الأموي منذ عهد بعيد إلى إقراره في النواحي القريبة من بلاد المغرب الأقصى[2].

سار جوهر الصقلي بعد ذلك إلى فاس، وكان حاكمها أحمد بن بكر بن سهل الجذامي قد اعترف بالحماية الأموية، فتصدَّى للقوات الفاطمية، وأجبر جوهر الصقلي على فك الحصار عن المدينة، فعاد إلى تافليلات ليهاجم سجلماسة عاصمة الشاكر بالله محمد بن الفتح بن واسول. وعلى الرغم من استقلاله عن الأمويين، فقد كان بمثابة شوكة في خاصرة الفاطميين الذين رأوا أن نفوذهم لن يستقر في هذه البلاد مع وجود حكام ذوي نفوذ كالشاكر بالله.

ولما اقتربت الجيوش الفاطمية من المدينة، فضَّل ابن واسول الفرار منها. ويبدو أنه خشي من الحشود الفاطمية الضخمة وأنه لن يستطيع الوقوف في وجهها أو صدَّها، لكن سكان المدينة الذين كانوا يميلون إلى الحكم الفاطمي منعوه من الخروج، ثم قبضوا عليه وسلَّموه إلى جوهر الصقلي الذي دخل سجلماسة، بدون قتال[3].

الواضح أن الاستيلاء على سجلماسة قد حقَّق هدفين كان المعز يسعى إليهما:

الأول: سياسي، إذ أن هذا الانتصار قد وضع حداً، مرة أخرى، لوجود دولة بني مدرار، ويُعدُّ إنجازاً باهراً للمعز. ذلك أن فشل بعث خلافة سنية غير بعيدة عن الخلافة الأموية في الأندلس، تنافس الدولة الفاطمية الإسماعيلية المذهب، جعل المعز الحاكم الوحيد في شمال إفريقية، وامتدت مملكته من إيفكان غرب تاهرت بثلاث مراحل إلى زناتة التي دون مصر[4]، والمراد هنا بلاد برقة على الأغلب، في انتظار امتداد ملكه إلى سائر بلاد الإسلام، وحتى يؤكد هذه الحقيقة التاريخية، أسرع

---

(١) القاضي النعمان: ص ١٩٩، ٢٥١. عماد الدين، إدريس: ص ٨٤ ـ ٨٧. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٦. السلاوي: جـ ١ ص ٨٦.

(٢) الدشراوي: ص ٣٤٤.

(٣) القاضي النعمان: ص ٢٠٠، ٢٣٣، ٣٥٥ ـ ٣٥٦. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٣٦. الدشراوي: ص ٣٤٤.

(٤) ابن خلدون: المصدر نفسه ص ٤٦.

المعز إلى ضرب النقود باسمه في سجلماسة بدلاً من ابن واسول[١].

الثاني: اقتصادي، إذ أن سجلماسة التي كانت ممراً للقوافل، ومركزاً لتجارة العبيد والذهب بعد قسطيلية، التي تقع ضمن أملاك المعز؛ سيضيف إلى خيرات بلاده مصدر ازدهار جديد سيُحرم منه خصمه الأموي[٢].

توجَّه جوهر الصقلي بعد ذلك إلى فاس للاستيلاء عليها، فحاصرها أحد عشر شهراً قبل أن يدخلها عنوة في (٢٠ رمضان ٣٤٨هـ/ ٢١ تشرين الثاني ٩٥٩م)، وأسر صاحبها أحمد بن بكر وعدداً كبيراً من الأمراء الأدارسة[٣]، وما لبثت بقية المدن الكبرى في شمال المغرب الأقصى أن استسلمت لجوهر الصقلي باستثناء طنجة وسبتة، ولم يبقَ له سوى الاستيلاء على هذين الثغرين الأمويين ليستولي على المغرب الأقصى بأسره، ويهدِّد الأندلس مباشرة.

أثار هذا الامتداد المتواصل للزحف الفاطمي في عمق المغرب الأقصى، الهلع في الأندلس، واضطر الخليفة الأموي إلى التسليم بخضوع ذلك الإقليم للسلطة الفاطمية، ولكنه بادر إلى تكييف الاستعدادات الدفاعية في السواحل الأندلسية الجنوبية، لا سيما في ناحية المرية التي وجَّه إليها إمدادات هامة من الجند[٤].

ويبدو أن جوهراً الصقلي لم يغامر بالاستيلاء على الثغرين الأمويين، والانطلاق بعد ذلك نحو الأندلس بسبب ضعف إمكاناته المادية والعسكرية، وفضَّل العودة إلى إفريقية قبل (نهاية عام ٣٤٨هـ/ أوائل عام ٩٦٠م) مصطحباً معه مجموعة كبيرة من الأسرى في مقدمتهم عدد كبير من الأمراء الأدارسة وصاحبا فاس وسجلماسة[٥].

ذيول الحملة الفاطمية على بلاد المغرب الأقصى

الواقع أن حملة جوهر الصقلي لم تقضِ على متاعب الفاطميين في المغرب، وإنما نجح هؤلاء في إضعاف الأدارسة. إذ أن اليقظة التي أبداها الحكم الثاني

---

(١) Fournel, H: Les Berbères. I. pp. 264 - 265. II. P. 543.

(٢) الدشراوي: ص ٣٤٥.

(٣) القاضي النعمان: ص ٤٢٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٦.

(٤) الدشراوي: ص ٣٤٦.

(٥) القاضي النعمان: ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٧.

ابن عبد الرحمن الناصر، الذي خلف والده في حكم الأندلس في (٣ رمضان ٣٥٠هـ/ ١٦ تشرين الثاني ٩٦١م)، وبراعته في السياسة المغربية، بالإضافة إلى الظروف الخارجية التي كانت تمر بها الدولة الفاطمية من اشتباكات مع البيزنطيين[١]، والانتصارات التي أحرزها القرامطة في المشرق، وميلهم إلى إنكار إمامة المعز جهراً، والمحاولات الفاطمية، للاستيلاء على مصر؛ سوف تؤدي إلى تراجع الخطر الفاطمي على مر السنين وتلاشيه.

وتمكَّن الحكم الثاني من استقطاب الزناتيين بقيادة محمد بن الخير، حفيد أمير مغراوة محمد بن خزر، الذي كان قد انضم إلى الفاطميين، كما أشرنا، ودفعهم إلى الثورة على الحكم الفاطمي. إذ أن القبائل الزناتية المتأثرة بالمذهب الخارجي كان من الصعب عليها قبول الوصاية الفاطمية، وتنتظر الفرصة المناسبة للثورة على صاحب إفريقية والدخول في طاعة الخليفة الأموي في الأندلس. كما أن التطور الحاسم الذي شهدته آنذاك سياسة خصمه الفاطمي على الصعيد الخارجي، سيتيح له التوسع في المغرب الأقصى أكثر من ذي قبل.

وانتهز الزناتيون فرصة خروج جيوش المعز إلى مصر في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) فشنُّوا بعض الغارات الناجحة في ناحية باغاية، بقيادة أبي خزر الزناتي، فأسرع المعز إلى الخروج بنفسه للتصدي لهم. ولدى وصوله إلى باغاية، تفرَّق الزناتيون، واعتصموا بجبال أوراس. فاضطر للعودة إلى عاصمته، وكلَّف القائد الصنهاجي بُلكين بن زيري بمطاردة الخارجين. ونجح هذا القائد، بعد سلسلة من العمليات العسكرية، في مضايقة أبي خزر، وأجبره على التحول إلى المنصورية لالتماس عفو المعز وذلك في (شهر ربيع الآخر ٣٥٩هـ/ شهر شباط ٩٧٠م)[٢].

وخرج، في غضون ذلك، محمد بن الخير[٣] في بلاد المغرب الأوسط، وشنَّ

---

(١) نصت المعاهدة المبرمة بين المعز والأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع في عام (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) على إحلال السلام بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية مدة خمسة أعوام. لكن الأمبراطور البيزنطي لقي حتفه في عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) في الوقت الذي كان فيه جوهر الصقلي يواصل حملته في المغرب الأقصى، وخلفه ابنه رومانوس الثاني الذي أوصى بإجراء إصلاحات عسكرية. وهكذا فإن العمليات العسكرية التي توقفت شرقاً قد تستأنف ضد البيزنطيين الذين استعادوا كامل حيويتهم في الجبهة الشرقية لمواجهة الحمدانيين، وفي البحر المتوسط لمواجهة الفاطميين.

(٢) سيرة جوذر: ص ١٠٩. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٨٧. الدشراوي: ص ٣٥٢.

(٣) عند ابن الأثير، محمد بن الحسين بن خزر الزناتي: الكامل في التاريخ جـ ٧ ص ٣٠٠.

عدة غارات في ناحية تاهرت، مما أثار قلق المعز الذي كان يستعد لمغادرة إفريقية إلى مصر، فاستغل المنافسة التقليدية الحادة بين زناتة وصنهاجة، وعهد إلى زيري بن مناد الصنهاجي بالتصدي له، فكلَّف زيري ابنه بلكين بهذه المهمة، فهاجم أراضي الزناتيين الواقعة غرب تاهرت، بالقرب من تِلِمْسان، واشتبك معهم في رحى معركة ضارية في (١٥ ربيع الآخر ٣٦٠هـ/ ١٦ شباط ٩٧١م)، وانتصر عليهم، وتكبَّد الزناتيون خسائر فادحة، ولقي سبعة عشر أميراً من أمرائهم مصرعهم، وانتحر محمد بن الخير في غمرة الهزيمة[١].

مكَّنت المساعدة الصنهاجية الإمام الفاطمي من إقامة حاجز دفاعي للوقاية من هجمات الزناتيين، وإحباط مساعيهم لدعم الأمويين في الأندلس.

لم يركن الزناتيون إلى الهدوء، ونسَّقوا مع جعفر بن علي، صاحب المسيلة وأعمال الزاب، الذي خرج آنذاك على طاعة الفاطميين، وكان يحقد على زيري بن مناد قائد المعز، نتيجة تألُّقه في المناصب القيادية، وتأييد المعز له، وبخاصة بعدما أُضيفت إلى ممتلكاته ولاية تاهرت، وإقطاعات يعلى بن محمد اليفرني، الذي قتله جوهر الصقلي أثناء حملته على المغرب الأقصى، كما أشرنا. وسرعان ما نشبت الخلافات بين جعفر وبُلُكين بن زيري الذي زادته انتصاراته العسكرية على الزناتيين حظوة لدى المعز. وقد روى الأستاذ جوذر في سيرته أن المعز عقد جلسة خاصة بحضور الخصمين لحسم خلافاتهما، وإصلاح ذات البين بينهما[٢].

وتجاوز جعفر بن علي سلطاته وامتنع عن دفع الأموال المتوجبة عليه لخزينة الدولة. وحتى يقوِّي موقفه، أجرى مباحثات مع الحكم الثاني في الأندلس، وأكَّدت بعض المصادر وجود بعض الأعوان من الأمويين في عاصمة الزاب[٣]. ومن جهة أخرى، أبدى جعفر بن علي تعاطفه مع الزناتيين في صراعهم مع الصنهاجيين، فحافظ على علاقات حسن الجوار مع محمد الزناتي، وأحجم عن ساعدة بُلُكين بن زيري، أثناء حملته على بلاد الزناتيين في عام (٣٦٠هـ/ ٩٧١م).

وهكذا، تعرضت الدولة الفاطمية لخضة سياسية وعسكرية أخرى، واشتد الضغط على المعز، فاستدعى جعفراً بن علي إلى المنصورية للتباحث بشأن الموقف

---

(١) ابن الأثير:جـ ٧ ص ٣٠٠. عماد الدين، إدريس: ص ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٢) سيرة جوذر ص ١٠١ ـ ١٠٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

السياسي، وكان ينوي التفاهم معه وتعيينه حاكماً على إفريقية بعد رحيله إلى مصر، لكن جعفراً، لم يلبِّ الدعوة، فكلَّف المعز فرج الخادم بأن يستقدمه من المسيلة. ولما علم جعفر بذلك، خلع علناً طاعة الفاطميين، وانضم إلى الزناتيين والأمويين في الأندلس. عندئذٍ أمر المعز زيري بن مناد بملاحقته ومعاقبته، فزحف القائد الصنهاجي على الزناتيين، وحليفهم جعفر بن علي في (رمضان/ تموز) واصطدم بجموعهما. فمُني الصنهاجيون بخسارة جسيمة، وقبض على قائدهم زيري، وقُتل، وحُمل رأسه إلى الحَكم الثاني. ولما تمَّت هزيمة صنهاجة أرسل جعفر بن علي أخاه يحيى بن علي وبعض شيوخ زناتة أمثال عبدون بن الخير بن حمد بن خزر، ومسعود بن عطية بن عبد الله بن خزر، ومقاتل بن أبي خزرون، إلى قرطبة يؤدون الطاعة باسمه، ويؤكدون ولاءه، ويلتمسون العون والنصرة من عاهل الأندلس[1]. استقبلهم الحكم الثاني بالترحاب وقدَّم لهم الهدايا، ولم يلبث جعفر بن علي أن ذهب، هو الآخر، إلى الأندلس، بعد شهر واحد من وصول أخيه والوفد المرافق له إلى قرطبة، فاستقبله الحكم بالترحاب وأكرمه ومنحه الهدايا. وقد أسهبت المصادر في وصف مراسيم هذا الاستقبال[2].

أثارت انتصارات الزناتيين، وارتداد جعفر بن علي، مخاوف المعز، وخشي ضياع جهوده التي بذلها للقضاء على نفوذ أعدائه، والتفرد بحكم شمال إفريقية، لذلك تحرك على وجه السرعة، وكلَّف بُلكين بن زيري، الذي كان حريصاً على الأخذ بثأر أبيه، بالقيام بحملة ضد الخارجين، وأمدَّه بالمساعدات العسكرية. فزحف بُلكين في أواخر (٣٦٠هـ/ خريف ٩٧١م)، باتجاه الحضنة والزاب، وهاجم الزناتيين في نواحي طبنة والمسيلة وباغاية وبسكرة فقتل كثيراً منهم وسبى آخرين، ثم سار نحو الغرب في اتجاه تاهرت، وطارد أمير الزناتيين الحسين بن محمد حتى تافيلالت، فقبض عليه وقتله، ثم عاد إلى إفريقية، فاستقبله المعز وأكرمه، وعيَّنه نائباً عنه في حكم المغرب[3].

العلاقة مع الأمويين في الأندلس

استمر النزاع بين الفاطميين والأمويين في الأندلس، واتخذ في عهد المعز مظهراً مغايراً اتصف بصبغتين متكاملتين: الأولى: عسكرية، والثانية: دعائية سياسية مذهبية.

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٣١٥.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٤٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

ففيما يتعلق بالصَّبْغة العسكرية فقد اتصفت بالصدام المباشر بعد أن كانت صراعاً مسلحاً بين المغاربة الموالين لكلا الدولتين المتنازعتين، وتضمَّنت العمليات العسكرية، التي جرت منذ عام (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م)، مرحلتين: الأولى بحرية، والثانية برية.

بادر المعز إلى شن المعركة البحرية مستعملاً أسطوله الراسي في المهدية وصقلية، بعد أن أدرك أنه يتعذر عليه القيام بحملة برية إنطلاقاً من المغرب الأقصى، وذلك لعدم توفر الوسائل اللازمة لشن الحرب والشروع في الاستيلاء على الأندلس. وعلى الرغم من حرصه على عرض مطامعه في الأندلس أمام المبعوث شبه الرسمي الذي وجهه عبد الرحمن الناصر إلى أحد كبار رجال الدولة في المنصورية، فإنه لم يتوهم كثيراً في إمكان تحقيق تلك المطامع في القريب العاجل. ومما لا شك فيه أن أعوانه الموجودين في الأندلس آنذاك، كانوا ينصحونه بتوخي الحذر، ويخبرونه بأهمية القوات العسكرية التي كانت تحت تصرف خصمه لمواجهة أي اعتداء يُشنُّ من إفريقية، كما أنه لم يغب عن ذهنه الجهود التي كان يبذلها الخليفة الأموي للمحافظة على نفوذه في المغرب الأقصى والتصدِّي لأي هجوم فاطمي[1]، واتخذ ذريعة للشروع في الحرب ما قام به مركب أموي بمهاجمة إحدى سفنه في البحر على مقربة من صقلية، كانت تحمل رسولاً من قبل الحسن بن علي الكلبي والي صقلية. ومع أن هذا الحادث لا يُعدُّ من الحوادث الخطيرة في حد ذاته، رأى المعز أن يتحول إلى الأندلس لمعاقبة خصمه الأموي ويبرهن له عن مدى قوته البحرية من جهة، وأن يُلقي الرعب في نفوس حلفائه، من جهة أخرى، لمنعهم من الاقتراب من السواحل الفاطمية.

والواقع أن أنظاره كانت متجهة وقتئذٍ، إلى عرش قرطبة، فأنكر على خصمه ادِّعاء الخلافة والتلقب بأمير المؤمنين، لأن الخلافة الأموية غير شرعية، وأن من واجبه أن يزيح عن ذلك العرش «العدو اللعين» و «المغتصب الكافر»، ويُرجعه إلى أصحابه الشرعيين أبناء فاطمة.

والراجح أن الدافع الأساسي الذي جعل المعز ينتقم من الأمويين في الأندلس، هو تلك الرسالة التي استولى عليها قائد المركب الأندلسي من سفينة الفاطميين التي قد تكون تتضمَّن خطة لهجوم فاطمي على الأندلس، ويبدو أن قائد

---

(١) الدشراوي: ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨.

السفينة الأندلسي كان على علم بمضمون هذه الرسالة، وخطورتها، فلم يتردَّد في الاستيلاء عليها.

وبدعوى الثأر للإهانة التي لحقت به، أمر المعز عامله على صقلية القيام بحملة بحرية ضد السواحل الأندلسية. ومن الملاحظ أن أسطول الفاطميين، على الرغم من ضآلة عدد سفنه، استطاع أن يصل إلى المرية، أهم مركز بحري أموي على السواحل الشرقية، وقد اختارها الحسن بن علي الكلبي، بوصفها قاعدة بحرية كبيرة، ففاجأ الأسطول الأندلسي الراسي في الميناء وأحرقه، ثم أنزل جنوده على البر، فاستولوا على المدينة ونهبوها. وعاد الأسطول الفاطمي إلى قواعده في إفريقية وصقلية محملاً بالغنائم ومصحوباً بعدد كبير من الأسرى[١].

أثارت الغارة البحرية على المرية قلق عبد الرحمن الناصر، وخشي أن تثير الهلع في قلوب حلفائه، وتؤثر تأثيراً بالغاً في هيبته أمام رعاياه، لذلك جاء رده سريعاً لكن ليس فعَّالاً، وتصرف على ثلاثة محاور: عسكري وسياسي ودعائي[٢].

ففيما يتعلق بالتصرف العسكري، فقد عهد إلى خادمه غالب بن عبد الرحمن الناصري بمهمة مهاجمة السواحل الإفريقية، إلا أن الأسطول الأموي جوبه بمقاومة شديدة في الموانىء التي هاجمها، وعاد أدراجه[٣].

وأعاد عبد الرحمن الناصر الكرة في عام (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م)، فكلَّف غالب بمهاجمة السواحل الإفريقية، وزوَّده بأسطول بحري مؤلف من سبعين سفينة. هاجم غالب مرسى الخزر وأضرم النار فيه، كما اتجه نحو منطقة طبرقة غرب مدينة بنزرت وتعداها إلى مدينة سوسة شمال مدينة المهدية، فخربهما[٤].

وفيما يتعلق بالتصرف السياسي، فقد سعى إلى تكوين حلف مناهض للمعز يجمعه مع الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي سبق أن ربطته به علاقة ودية. فقد عُقدت بين الطرفين في عام (٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) معاهدة، لا شك بأنها تطرقت إلى العلاقة المشتركة ضد الدولة الفاطمية. وكان الأمبراطور البيزنطي يطمع في استرداد صقلية من أيدي الفاطميين، بدليل أن البيزنطيين لبُّوا نداء عبد الرحمن الناصر، ونسَّقوا معه لفرض حصار على الفاطميين من الشرق والغرب[٥].

---

(١) القاضي النعمان: ص ١٥٣ ـ ١٥٤. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢١٣. أبو الفدا: جـ ١ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٦.

(٣) المصدر نفسه. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٢١.

(٤) المصدران نفساهما.

(٥) ابن عذارى: المصدر نفسه ص ٢١٣، ٢١٥.

ويذكر القاضي النعمان أن الناصر «.. كتب إلى طاغية الروم يسأله النصرة، وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلاً من قِبَله، فأجابه إلى ذلك. وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية مع الدمستق، ومراكب بني أمية من الأندلس»(١).

لكن التدخل البيزنطي فشل في فتح جبهة ثانية في صقلية، وشلّ حركة البحرية الفاطمية، في الوقت الذي سيهاجم فيه عبد الرحمن الناصر موانىء إفريقية. وترى المصادر الإسماعيلية أن الهزيمة حلّت بالناصر، وأنه قصد ناحية غير آهلة بالسكان، خالية من الجند في شمال إفريقية(٢).

وتحالف عبد الرحمن الناصر مع هيوج دي بروڤانس الذي كان يرغب في الانتقام من الفاطميين الذين هاجموا إيطاليا في عهد القائم، وخرَّبوا ميناء جنوة(٣).

ويبدو أن المصادر الإسماعيلية غالت في حكمها على هذه المعاهدات والتحالفات التي أبرمها عبد الرحمن الناصر مع الدول النصرانية، إذ اتهمته بالتواطؤ العسكري المشترك مع دول نصرانية ضد الفاطميين، والراجح أنها كانت على غرار المعاهدات والتحالفات السابقة التي أبرمت بين الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط والأمبراطور البيزنطي ثيوفيل في عام (٢٢٥هـ/ ٨٤٠م) وهي تقوم على ترك الحرية لأصدقاء الدولة الأموية في قتال عدوهم المشترك، لكن فيما يبدو بدون ارتباط معهم في العمليات العسكرية(٤).

وعمل عبد الرحمن الناصر على توطيد صلاته بالأخشيديين في مصر، فقد بعث بمبلغ من المال يُقدَّر بعشرة آلاف دينار لتوزيعها على فقهاء المذهب المالكي لمحاربة الدعوة الشيعية هناك.

وفيما يتعلق بالتصرف الدعائي فقد كتب عبد الرحمن الناصر إلى المعز مشكّكاً في نسب الفاطميين، وأمر بلعن المعز وأسلافه على جميع منابر الأندلس، وبادله المعز بالدعاية نفسها، وحاول كل طرف تقويض الأسس العقائدية والمذهبية للطرف الآخر(٥).

والواقع أن ما كان يهم المعز الفاطمي، بوجه خاص، أثناء المجالس التي

---

(١) المجالس والمسايرات: ص ١٥٤. (٢) المصدر نفسه: ص ١٥٥.

(٣) ابن أبي دينار، أبو عبد الله الرعيني: في أخبار إفريقية وتونس ص ٥١.

(٤) العبادي، أحمد مختار: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٧٨.

(٥) ابن عذارى: جـ٢ ص ٢٢٠. دي غويه: القرامطة ص ١٧.

عقدها لنقض رسالة عبد الرحمن الناصر الموجَّهة إليه، هو الحط من شأن الأندلسيين، وإظهار نفسه على حساب خصمه الأموي، بمظهر أمير المؤمنين الحقيقي، ونصير دين الله الذي يدعو إلى جهاد المشركين. فشهَّر بشدة بالتحالف الأندلسي البيزنطي، وأدان موقف عبد الرحمن الناصر الذي لم يتورع عن الانضمام إلى صفوف المشركين، وأشاد بتفوق إفريقية في الميدان العسكري، وبدورها في المحافظة على العلوم الشرعية. وفي المقابل لم يتردَّد عبد الرحمن الناصر في توجيه أخطر التهم إلى النظام الفاطمي مثل قتل الداعي أبي عبد الله، ومنع الحجاج الأندلسيين من عبور إفريقية، وانعدام التسامح الديني، وانتهاك حرمة اللقب الخليفي حيث وضع الخليفة الفاطمي نفسه في مقام الأنبياء. ومع ذلك فإننا نشعر بأنه كان يسعى إلى الحصول على هدنة مع خصمه حتى يتفرَّغ للحرب في شمال إسبانيا لا سيما ضد مملكة ليون، وينتهي من بناء أسطول ضخم كان قد بدأ بإعداده ليستخدمه في العمليات العسكرية. وعليه فإن سياسته غير المعلنة تتمثَّل في كسب الوقت، وإبقاء النزاع مع الفاطميين على مستوى الجدل السياسي، وتحويل وجهته العدائية، نحو البيزنطيين[1].

لكن المعز لم ينخدع، وأصرَّ على موقفه، والراجح أنه كان مطلعاً، بما فيه الكفاية، بواسطة جواسيسه في الأندلس، على ما كان يعانيه عبد الرحمن الناصر من صعوبات للتغلب على خلفاء روميرو الثاني في مملكتي ليون وبمبلونة النصرانيتين، ولا شك بأنه كان يرى أن الوقت مناسب لتكثيف العمليات العسكرية، فأعلن أمام المبعوث الأندلسي عن عزمه على عدم التوقف عن القتال[2].

وأُتيح لعبد الرحمن الناصر في عام (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) أن يقوم بهجوم واسع النطاق على الممتلكات الفاطمية في شمال إفريقية وبخاصة أنه:

- نجح في القضاء على مقاومة النصارى في الشمال.
- فرغ من بناء الأسطول البحري.
- استقطب يعلى بن محمد الزناتي صاحب تاهرت حاضرة المغرب الأوسط.
- ضمَّ إلى صفوفه كثيراً من أدارسة الريف الذين ولَّوا وجوههم صوب قرطبة وموانىء الأندلس، للتخلص من الضغط الفاطمي الواقع عليهم.
- ما زال بيت أبي العافية موالياً له.

---

(١) القاضي النعمان: ص ١٥٩ ـ ١٦١.

(٢) المصدر نفسه. الدشراوي: ص ٣٤١.

فجهَّز قواته البحرية والبرية، وعيَّن عليها حاجبه أحمد بن سعيد، وكلَّفه بمهاجمة الممتلكات الفاطمية. استطاع الأسطول الأموي أن يفاجىء الأسطول الفاطمي وهزمه. وتوغلت القوات الأموية البرية في القسم الشرقي من مملكة المعز، وحاصرت مدينة تونس القريبة من المهدية، وأرغمت أهلها على دفع غرامات حربية(١).

أثارت هذه الانتصارات الجزئية، سخط أهالي المغرب الأقصى على الفاطميين، وأدَّت إلى انحياز بعض الأمراء الفاطميين إلى عبد الرحمن الناصر. وقد دفع هذا التطور السلبي المعز إلى إرسال حملة جوهر الصقلي الكبرى إلى بلاد المغرب التي تحدثنا عنها لإقرار الأوضاع، وكان يرى أنه إذا تعذَّر عليه الانتصار على عبد الرحمن الناصر في إفريقية، عدل عن الاستيلاء على الأندلس، وعمل على الاحتفاظ بما استولى عليه جوهر الصقلي وبُلكين بن زيري، في شمال إفريقية، وحال دون توغل جيوش عبد الرحمن الناصر في هذه البلاد، ثم تفرَّغ بعد ذلك لتوجيه نشاطه نحو المشرق للاستيلاء على مصر واتخاذها قاعدة يوجِّه منها حملاته ضد العباسيين(٢).

توفي عبد الرحمن الناصر في (٢ رمضان ٣٥٠هـ/ ١٥ تشرين الأول ٩٦١م)، بعد بضعة أشهر من عودة جوهر الصقلي إلى إفريقية، وخلفه ابنه الحَكَم الثاني المستنصر (٣٥٠ـ ٣٦٦هـ/ ٩٦١ـ ٩٧٦م)(٣)، وبدا لأول وهلة أن هذا الحدث سوف يتيح للفاطميين التدخل من جديد في شؤون الأندلس، لكن أنظار المعز كانت متجهة نحو المشرق الإسلامي حيث قام القرامطة بهجمات منظمة ضد مصر، وأنكروا إمامة المعز جهراً، بالإضافة إلى ما نشب من نزاع مسلح مع البيزنطيين الذين احتلوا جزيرة كريت في (١٥ محرم ٣٥٠هـ/ ٦ أذار ٩٦١م)، وابتداء من هذا التاريخ سينهمك المعز بالقضايا الشرقية، وسيقتصر على إبقاء الأراضي التي استولى عليها جوهر في المغرب الأقصى تحت سلطته(٤).

استمرت العلاقات العدائية بين الفاطميين والأمويين في عهد الحَكَم الثاني الذي لم يتورع في اتباع سياسة أبيه عبد الرحمن الناصر في عدائه الشديد للفاطميين في الوقت الذي تراجع فيه اندفاع هؤلاء باتجاه المغرب كما أشرنا، وأتاح هذا

---

(١) حسن وشرف: ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) المرجع نفسه: ص ٤٥.
(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣٣.
(٤) الدشراوي: ص ٣٤٩.

الإحجام لأن يملأ الحَكَم الثاني هذا الفراغ الذي تركه المعز في المغربين الأوسط والأقصى، وأقدم قبل الاصطدام بالفاطميين على اتخاذ عدة خطوات لتقوية موقفه، منها:

- حصَّن القاعدتين البحريتين الواقعتين على الضفة المغربية، وهما طنجة وسبتة اللتين لم تتعرَّضا لهجمات جوهر الصقلي، وأسقط عن أهلهما الضرائب ليشجعهما على الصمود.
- طوَّر الأسطول الحربي، فضاعف عديده وعدته، واتخذ مدينة المرية قاعدة لمواجهة الأسطول الفاطمي، في حين اتخذ مدينة إشبيلية قاعدة للأسطول المرابط على سواحل المحيط لمواجهة الخطر النورماندي.
- وثَّق علاقته مع القبائل البربرية الموالية للأمويين.
- استقطب الزناتيين، وأعادهم إلى الحظيرة الأموية، وفي مقدمة هؤلاء محمد بن الخير الذي كان قد انضمَّ إلى الفاطميين.
- عزَّز سلطة أهل السنَّة في إفريقية، وطارد أنصار المذهب الإسماعيلي وقاوم الدعاية الفاطمية[١].

نتيجة لهذه السياسة الأموية، أسرع الأدارسة الشيعة إلى تجديد الولاء والطاعة للأمويين[٢]، كما تتابعت الرسل والوفود من المغرب لتقديم الطاعة وتدعيم الصلة بين المغاربة والأندلسيين، وتلتمس، في الوقت نفسه، المساعدات العسكرية من حكومة قرطبة لمواجهة ما قد يتعرضون له من الجيش الفاطمي[٣].

وبدا واضحاً توزيع الولاءات في المغرب بين الفاطميين والأمويين في الأندلس، الذين اقتصر دورهم على إثارة الفتن والدسائس، فحالفت قبيلة صنهاجة البرنسية الفاطميين في حين أيَّدت قبيلة زناتة البترية الأمويين.

وبعد أن اطمأن إلى قوته، أرسل حملة عسكرية في عام (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) إلى شمال إفريقية، تمكَّنت من بسط سلطان الأمويين في بعض أجزاء المغربين الأوسط والأقصى، وخرج زعماء زناتة، من مغراوة ومكناسة، على طاعة المعز، وأقاموا الدعوة للحَكَم الثاني على منابرهم[٤].

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٧٧. الدشراوي: ص ٣٥٠.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٤٠. (٣) المصدر نفسه: ص ٢٤١.
(٤) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٦.

النزاع الفاطمي ـ البيزنطي حول جزيرة كريت

سبق الإشارة إلى ما أصاب الحملة البيزنطية التي توجهت في عام (٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) لمهاجمة جزيرة كريت، من هزيمة ساحقة، وما ترتَّب عليها من سيطرة المسلمين على طرق الملاحة والتجارة في بحر الأرخبيل.

جهَّز الأمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني فوقاس (٣٤٨ـ ٣٥٢هـ/ ٩٥٩ـ ٩٦٣م) أسطولاً ضخماً تألف من ألفي سفينة حربية، وألف وثلاثمائة وستين سفينة للمؤن والإمداد، كانت أحجام بعضها هائلاً[١] وعيَّن عليه نقفور فوكاس، أحد أكبر القادة البيزنطيين، وتولى قيادة الأسطول الحاجب ميخائيل، ولم تشهد بيزنطية منذ قرون عديدة مثلما شهدته وقتئذٍ من حشد جيش ضخم وأسطول كبير.

أقلع الأسطول من مراسيه في (ربيع الأول ٣٤٩هـ/ أيار ٩٦٠م) متوجهاً إلى جزيرة كريت. وحتى يمنع وصول النجدات إليها من إفريقية أو الأندلس، أرسل نقفور فوكاس قوة بحرية لمراقبة المسلمين في هاتين المنطقتين، وحاول في الوقت نفسه استقطاب الأمويين في الأندلس لمساعدته، أو ضمان حيادهم.

وصل الأسطول إلى الجزيرة في شهر (جمادى الآخرة/ آب)، واستعدَّ أفراده للنزول إلى البر. وتولى باستيلاس، في أثناء ذلك، وهو قائد ثغر تراقيسيون[٢] قيادة قوة استطلاعية توغَّلت في عمق الجزيرة، غير أن المسلمين باغتوا هذه القوة وأبادوها عن آخرها، ولقي باستيلاس مصرعه[٣].

ساء نقفور ما حلَّ بطليعة جيشه من الهزيمة فقرَّر التوجه لحصار العاصمة شنداكس (الخندق) التي اشتهرت بمناعتها، وتُعدُّ مفتاح الجزيرة. تقدَّم الجيش البيزنطي في إقليم خصب، وانحاز إليه السكان النصارى، فأشعلوا الحرائق بالقرى والمحصولات، وقطعوا أشجار النخيل والفاكهة، وبلغ الجيش آخر الأمر شنداكس[٤]، لكن تعذَّر عليه اقتحامها، فقرر نقفور عندئذٍ حصار الجزيرة، ففكَّ الحصار عن العاصمة وأقام معسكره بعيداً عنها، واحتلت قطع الأسطول جميع الموانيء، وقطعت طرق الاتصال بين الجزيرة والعالم الخارجي، وراحت الفرق

---

(١) لويس: ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) يقع هذا الثغر في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى.

(٣) Schlumberger: Un Empereur Byzantine au dixième siècle P. 68.

(٤) Ibid: P. 87.

العسكرية البيزنطية تجوث خلال الجزيرة تثير الفزع والرعب في نفوس السكان، وتنهب القرى لتأمين حاجيات الجيش من المؤن[١].

اشتد الجوع بالمسلمين المحاصَرين، وأدركوا أنهم لا قِبَل لهم بالتصدي للجحافل البيزنطية، فاستغاثوا بالمسلمين من حولهم، وطلب أميرهم عبد العزيز بن عمر بن شعيب المساعدة من الخليفة العباسي المطيع في بغداد بوصفه خليفة المسلمين السنة في المشرق الإسلامي، ومن سيف الدولة الحمداني، الذي اشتهر بحروبه ضد البيزنطيين في الشرق، ومن الأخشيديين في مصر، لأن الجزيرة كانت مستودعاً هاماً لتموين أهل مصر، حيث كانت سفن أهل الجزيرة ومراكبهم تمير أهل مصر بخيرات بلدهم[٢]، فلم ينجدهم هؤلاء ولا أولئك. والواقع أن ما حلَّ بأهل الجزيرة من الضيق، واشتداد ضغط البيزنطيين، وتضييقهم الخناق على العاصمة، جعل تقديم المساعدة أمراً غير يسير[٣].

والحقيقة، أن الخلافة العباسية في بغداد كانت أضعف من أن تقدِّم المساعدة المطلوبة. وكان سيف الدولة منهمكاً بفعل الحروب المتواصلة مع البيزنطيين، كذلك لم يكن أبو الحسن الأخشيد، صاحب مصر بقادر على تقديم مساعدة ناجحة، لأنه كان حريصاً على ادخار قواه لمواجهة الخطر القرمطي المتجدِّد في بلاد الشام، لكنه أرسل إلى المعز يستحثه لنجدة المسلمين في الجزيرة، وتظاهر بالاستعداد لتقديم المساعدة، فأنزل بضعة سفن في البحر المتوسط[٤].

وعندئذٍ طلب الربضيون المساعدة من المنصورية على الرغم من انتمائهم إلى العباسيين، واعترافهم بسلطة بغداد[٥]. أدرك المعز أهمية الجزيرة في السياسة الفاطمية العامة، فأبدى استعداده لتقديم المساعدة المطلوبة، وتصرف على ثلاثة محاور:

الأول: جهَّز أساطيله الراسية في إفريقية وصقلية.

الثاني: حثَّ الأخشيديين على الإسراع بإرسال نجدة إلى الجزيرة، وتعهد بأن يتعاون الأسطولان الأخشيدي والفاطمي على طرد البيزنطيين، وأن توزَّع الغنائم بالعدل، وطلب من الأخشيد إرسال مراكبه إلى طبنة من أرض برقة للانضمام إلى الأسطول الفاطمي.

---

(١) Schlumberger: P. 80.

(٢) عماد الدين، إدريس: ص ١٢٤.

(٣) Schlumberger: P. 82.

(٤) حسن وشرف: ص ٤٩.

(٥) القاضي النعمان: ص ٤٠٩.

الثالث: حذَّر الأَمبراطور البيزنطي من مغبة التعرُّض للجزيرة، وطلب منه:

- رفع الحصار عن العاصمة شنداكس.
- إجلاء جنوده عن الجزيرة.
- أو: تحمُّل مسؤولية نقض المعاهدة المبرمة مع والده قسطنطين السابع قبل ذلك بأربعة أعوام[١].

والراجح أنه أراد أن:

- يفصل الربضيين السنة عن العالم الإسلامي السنِّي، وأن يجعلهم من رعاياه.
- تحقيق تطلعاته الشرقية بمد نفوذه إلى الشرق، لأن من يسيطر على الجزيرة يسهل عليه الاستيلاء على مصر، ومن ثمَّ الزحف نحو بلاد الشام.

وخلال المدة التي كان فيها المعز يُنسِّق مع الأخشيديين، استطاع البيزنطيون اقتحام العاصمة شنداكس في (١٥ محرم ٣٥٠هـ/ ٦ أذار ٩٦١م) وأجروا فيها مذبحة مروعة، ودمروا أسوارها، وشيَّد نقفور، على مرتفع يجاور العاصمة، قلعة، تحصَّن فيها ثم استولى على الجزيرة وأنهى خبر هذا الانتصار إلى القسطنطينية[٢]. وعدل المعز، بعد أن علم بسقوط الجزيرة، عن إرسال أسطوله.

والواقع أن المعز أضاع كثيراً من الوقت، ويبدو أنه لم يكن مستعجلاً في خوض معركة كريت، على الرغم من أهمية الجزيرة في السياسة الفاطمية العامة، وأنه رأى، في الوضع السائد آنذاك، أنه يخدم تطلعاته تجاه مصر التي كان يخطط للاستيلاء عليها، ويسعى إلى التقرب من خاصتها وعامتها. وبناءً على ذلك، فقد كان همُّه الأول أن يجني أكبر فائدة من خلال مخاطبته الأخشيديين، والأمبراطور البيزنطي، لتأكيد ما قد يقوم به من دور بوصفه حامي حمى الإسلام[٣].

النزاع الفاطمي ـ البيزنطي في صقلية وجنوبي إيطاليا

انتهج عبيد الله المهدي سياسة جديدة عندما سيطر على صقلية، تقضي بتمركز حامية عسكرية دائمة في الجزيرة تساعد الوالي على تثبيت الأمن في الداخل، ومواجهة الأحداث الطارئة في الخارج. وشعر خلفاؤه بفائدة هذه السياسة، فساروا على نهجه. وكوَّن بعض ولاة الجزيرة لأنفسهم، على مر الزمن، عصبية قوية،

---

(١) القاضي النعمان: ص ٤٠٩ ـ ٤١٢.

(٢) عماد الدين، إدريس: ص ١٢٦. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٧. Schlumberger: pp. 83 - 95.

(٣) لويس: ص ٢٩٦.

وتمتَّعوا بشيء من الاستقلال، وخير مثال على ذلك الأسرة الكلبية. فولى إسماعيل المنصور، الحسن بن علي الكلبي حكم صقلية في عام (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م) كما أشرنا، وأضحى حكم هذه الجزيرة مقصوراً على هذه الأسرة.

ونجح الحسن بن علي الكلبي في إخضاع النصارى في الجزيرة الذين لجأوا إلى الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع، فأَمَدَّهم بالإمدادات العسكرية، لكن الجيش البيزنطي مُني بهزيمة قاسية أمام الجيوش الفاطمية، واضطر الأمبراطور إلى عقد الصلح الذي ذكرنا بنوده.

وعندما تولى المعز الحكم الفاطمي، لم يحترم الأَمبراطور البيزنطي شروط الصلح. إذ في الوقت الذي اندلعت فيه الحرب بين الفاطميين والأمويين، وانطلقت الحملات البحرية من المغرب الأقصى والأندلس في عام (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) باتجاه المعاقل الفاطمية؛ مدَّت القسطنطينية يد المساعدة إلى حلفائها الأمويين، ورأى الأمبراطور أن الوقت أضحى مناسباً للثأر من العدو الفاطمي. ولا شك بأن الانتصارات التي أحرزتها جيوشه في المواجهة على الجبهة الشرقية ضد الحمدانيين في بلاد الشام، شجَّعه على استئناف الحرب في صقلية وكالابريا، وطمع في أن يحقِّق في المغرب ما أحرزه من انتصارات في المشرق.

وفي الوقت الذي كان يقوم فيه الأسطول الفاطمي بعمليات حربية ضد الأمويين في الحوض الغربي للبحر المتوسط؛ أرسل الأمبراطور البيزنطي حملة بحرية بقيادة باسيل، رست في ميناء رجيو، وذلك في (أوائل عام ٣٤٥هـ/ أواخر عام ٩٥٦م)، وانطلقت منها، لشن غارات ناجحة على المواقع الإسلامية الفاطمية ولا سيما في ترميني التي تبعد عن بلرم أربعة عشر ميلاً، ومازرة، فهدموا المساجد، وقتلوا خلقاً كثيراً، واستولوا على بلرم، وتوالت عساكرهم على كالابريا التي عجزت عن صدِّهم[١].

وسرعان ما قدم أسطول فاطمي بقيادة علي بن عمار، أخي الحسن بن عمار، أمضى فصل الشتاء في بلرم، ثم شرع في القيام بهجوم على البيزنطيين في فصل الربيع. وتمكَّن الأخوان من إخراجهم من المناطق التي احتلوها، وقاما بغارات ناجحة على مدينة كالابريا، واستطاع الحسن بن علي الكلبي أن يمنع البيزنطيين من اجتياز صقلية والتوجه إلى السواحل الإفريقية[٢].

---

(١) Rambau: P. 415.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢١٧. Vasiliev, A: Byzance et les Arabes: II. p. 106.

نتيجة هذه الهزائم التي تعرض لها البيزنطيون في صقلية، مال الأمبراطور البيزنطي إلى التفاهم مع الفاطميين، وكان بصدد إعداد حملة عسكرية واسعة النطاق ضد سيف الدولة الحمداني في شمال الشام. وجرت مفاوضات الصلح بين الحسن بن علي الكلبي وحاكم كالابريا في (أوائل عام ٣٤٦هـ/ أواخر عام ٩٥٧م)، وأسفرت عن اتفاق الطرفين على ما يلي:

- وقف القتال بين الطرفين.
- يدفع البيزنطيون جزية عن أرض كالابريا مقدارها أحد عشر ألف دينار.
- يُفرج البيزنطيون عن أسرى أهل المشرق، وأهل إفريقية وصقلية.
- مدة المعاهدة خمسة أعوام[١].

وبمقتضى معاهدة الصلح هذه، اعترفت بيزنطية بالوصاية الفاطمية على مقاطعة كالابريا التابعة لها. ويبدو أن الطرفين اتفقا، ضمنياً، على أن يمنح كل واحد منهما الطرف الآخر حرية التصرف في ناحيته، الأمبراطور البيزنطي ضد الحمدانيين، والمعز الفاطمي ضد الأمويين في الأندلس[٢]، بدليل أن الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع حرص، قبل وفاته في عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م)، على إعادة النظر بسياسته الشرقية، في حين وجَّه المعز، من جانبه، في عام (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) حملته الشهيرة على المغرب الأقصى بقيادة جوهر الصقلي.

حافظت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين على صفائها حتى عام (٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) حين جهّز الأمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني فوقاس حملة ضد جزيرة كريت كما أشرنا. وفي عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م)، تولى نقفور الثاني فوقاس عرش الأمبراطورية البيزنطية. وبما حازه من انتصارات في الشرق، وبعد أن استعاد جزيرة كريت، وأعاد تنظيم الجيش، رأى من العار أن يدفع الجزية للفاطميين في صقلية، فمنع إرسال الأموال المقررة إلى بلرم. والواقع أن هذا الأمبراطور قدَّر أنه يستطيع أن يهزم الفاطميين في صقلية بالاعتماد على سكانها النصارى والإفادة من كراهيتهم للمسلمين[٣].

أثار نقض نقفور الثاني الاتفاقية المبرمة مع الفاطميين حفيظة هؤلاء، فاستأنفوا القتال في صقلية. وسيَّر المعز في عام (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) جيشاً بقيادة أحمد بن

---

(١) القاضي النعمان: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦، ٤٠٨ ـ ٤٠٩. الدشراوي: ص ٣٦٢.

(٢) الدشراوي: المرجع نفسه.

(٣) العريني: ص ٣٩٠.

الحسن الكلبي إلى قلعة طرمين[١]، وكانت بيد البيزنطيين، وهي من أمنع القلاع وأشدها خطراً على الوجود الفاطمي، فامتنع أهلها، فحاصرهم الجيش الفاطمي مدة سبعة أشهر ونصف، وقطع الماء عنهم، فاستسلموا وطلبوا الأمان على أن يؤمَّنوا على دمائهم، ويكونوا رقيقاً للمسلمين، وأن تكون أموالهم فيئاً، فأُجيبوا إلى ذلك، وأُخرجوا من المدينة، فامتلكها الفاطميون في (ذي القعدة/ كانون الأول)، وشحن أحمد بن الحسن الكلبي القلعة بحامية فاطمية، وسماها «المعزية» تيمُّناً باسم المعز، ثم حاصر رمطة، آخر معقل للبيزنطيين في الجزيرة[٢].

وإذ اشتد تأثر نقفور الثاني بما حلَّ بطرمين من الكوارث، وبحصار رمطة، دفعه إلى أن يرسل حملة لإنقاذ صقلية بقيادة البطريق مانويل، ابن الدمستق ليو فوقاس، وكان يمت إليه بصلة القرابة. وما منعه من قيادة الحملة بنفسه سوى انصرافه إلى الحروب في بلاد الشام. وصحب الحملة كل من الطواشي نيكيتاس، شقيق ميخائيل حاجب الأمبراطور، وأُسندت إليه مهمة توجيه العمليات العسكرية، ونقفور الشيخ بوصفه مستشاراً، وقد بالغ الأمبراطور بتجهيزها واختار رجالها من خيرة عساكر الأمبراطورية[٣].

أقلعت الحملة، التي بلغ عدد أفرادها بين أربعين وخمسين ألفاً[٤]، في (أواسط عام ٣٥٣هـ/ أواخر صيف عام ٩٦٤م)، قاصدة صقلية لاستعادتها من يد الفاطميين، وفي خريف العام المذكور، أضحت على مقربة من الجزيرة، وكانت مدينة رمطة لا تزال واقعة تحت حصار الفاطميين.

لم يكن استعداد الفاطميين للحرب بأقل شأناً، وتجلَّى ذلك في:

ـ إعداد أحمد بن الحسن الكلبي، والي صقلية، الأسطول الصقلي، والقوات البرية، إعداداً كاملاً، وشرع في إصلاح الأسطول، وعمل على زيادة سفنه، كما جمع الرجال المقاتلة في البحر والبر ووزعها على موانىء صقلية الشمالية الشرقية.

ـ أنهى إلى المعز خبر الحملة البيزنطية وطلب منه إرسال مدد. استجاب المعز لطلب المساعدة، وأرسل حملة بحرية بقيادة الحسن بن علي، والد أحمد، فوصل

---

(١) عند ابن الأثير: طبرمين جـ ٧ ص ٢٤٠.
(٢) المصدر نفسه. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢٠٩.
(٣) Schlumberger: pp. 443 - 445.
(٤) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٥١. ابن خلدون: جـ ٤ ص٢٠٩.

أفرادها إلى صقلية في (رمضان ٣٥٣هـ/ تشرين الأول ٩٦٤م) قبل وصول القوات البيزنطية نظراً لقرب المسافة بين تونس وصقلية.

وضع القائدان الفاطميان خطة عسكرية لمواجهة الخطر البيزنطي، وتأمين استمرار الحصار على رمطة، فقسَّما قواتهما إلى قسمين قاد القسم الأول الحسن بن عمار، وقد عُهد إليه بحصار مدينة رمطة، في حين ترأس القسم الثاني الحسن بن علي الكلبي وعسكر في بلرم[1].

ووصلت في غضون ذلك، القوات البيزنطية إلى مسينا التي تبعد عن رمطة تسعة أميال، واستولت عليها في شهر (شوال/ تشرين الأول)، وانطلقت منها إلى شمال الجزيرة ووسطها، تهاجم السواحل، واستولت على ترميني وغيرها، وحالت دون وصول المساعدة إلى الحسن بن عمار[2].

تركَّز اهتمام القوات البيزنطية على إنقاذ مدينة رمطة، والقضاء على القوات الفاطمية المحاصِرة لها، لذلك، اندفعت إليها بأعداد هائلة. وأدرك القائد الفاطمي، من جهته، خطر هذا الهجوم فطلب المساعدة من أحمد بن الحسن الكلبي وكان في بلرم، إلا أن هذا الأخير عجز عن تلبية طلب المساعدة بفعل التواجد البيزنطي الكثيف، فاتجه عندئذٍ إلى ترميني في محاولة لاستردادها. وكان على الحسن بن عمار أن يعتمد على قوته الذاتية، فقسَّم قواته إلى أربعة أقسام، اختص كل قسم منها بعمل محدَّد. جعل القسم الأول على حصار رمطة، ليمنع أهلها من الاتصال بالجيش البيزنطي المهاجم، ووضع قسمين آخرين على رأس الواديين اللذين يوصلان إلى المدينة، حيث كان البيزنطيون يستطيعون التسلل منهما إليها، واتجه على رأس القسم الرابع للاصطدام بقوات مانويل[3]. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار المسلمين، وقتل مانويل في المعركة، مع عشرة آلاف من جنوده، ووقع كثير منهم في الأسر، وغنم الفاطميون من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحصى[4]، وسار من سلم منهم إلى رجيو.

قرَّرت المعركة مصير رمطة، بل مصير صقلية نفسها. فقد كانت هذه المدينة مركز المقاومة الرئيس في وجه الحكم الفاطمي في الجزيرة، وضعفت نفوس

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٥١. Schlumberger pp. 451 - 452

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. Ibid.

(٣) حسن وشرف: ص ٥٦.

(٤) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٧، ٢٠٩.

سكانها، وقلَّت الأقوات عندهم، لكنهم استمروا على مقاومتهم، فأخرجوا الضعفاء من النساء والأطفال والشيوخ، واستبقوا المقاتلة، فحاصرهم الفاطميون وفتحوا المدينة عنوة، وغنموا ما فيها وقتلوا المقاتلة[١]. ولم يجرؤ الأسطول البيزنطي على الخروج من مياه رجيو لمساعدة المدينة، وحينما قرَّر العودة إلى القسطنطينية هاجمه أسطول فاطمي بقيادة أحمد بن الحسن في مضيق مسينا، وانتصر عليه. وغنم الفاطميون غنائم وفيرة، ووقع في أيديهم كثير من الأسرى كان من بينهم قائد الأسطول نيكيتاس، فجرى إرسالهم إلى بلرم، ودعيت هذه المعركة في المصادر بوقعة المجاز[٢].

استغل القائد الفاطمي أحمد بن الحسن هذا الانتصار البحري، فراح يهاجم المدن البيزنطية الواقعة على ساحل كالابريا، وما حلَّ بها من التخريب، وما جرى من تعطيل تجارة سكانها الذين عجزوا عن صدِّ القوات الفاطمية، لم يسعهم إلا أن يلتمسوا الهدنة على أموال يحملونها لهم، فتقررت الهدنة في عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) التي تحولت بعد مرور سنتين إلى صلح نهائي جرت فيه مراعاة مصالح الجانبين[٣].

والواقع أن بروز خطر الأمبراطور الألماني أوتو الأول على إيطاليا، الذي استولى على شمال البلاد ووسطها بما فيها مدينة روما، وأضحى البابا في قبضته، فعيَّنه أمبراطوراً مقدساً، واستنجد به أمراء المدن الإيطالية ضد الأمبراطور البيزنطي نقفور الثاني، وكان يعتزم توحيد البلاد وإعادة إحياء أمبراطورية شارلمان، وما يستتبع ذلك من طرد الفاطميين من جنوبها ومن صقلية، بالإضافة إلى ما كان يجري بالشرق من اصطدامات ضارية بين البيزنطيين والحمدانيين في شمال الشام، وبين الفاطميين والأخشيديين في مصر، كل ذلك، أدَّى إلى أن المصالح المشتركة بين الطرفين تقضي بتحالفهما ضد أوتو الأول وضد الأخشيديين في مصر والشام.

تفرَّغ المعز بعد عقد الصلح للتركيز على مصر، إذ لم يعد يخشى خطر هجوم البيزنطيين على بلاده في شمال إفريقية، كما أنه حقَّق الهدوء والولاء للفاطميين، فأرسل جيشاً ضخماً إلى مصر للاستيلاء عليها.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٧، ٢٠٩.

(٢) المصدران نفساهما. القاضي النعمان: ص ١٥٥. Schlumberger: p. 461.

يقصد بالمجاز، مجاز مسينا الفاصل بين صقلية ومقاطعة كالابريا في جنوب إيطاليا.

(٣) العريني: ص ٤٩٦ Ibid: p. 464

القسـم الثانـي

الدولة الفاطمية في مصر والمشرق الإسلامي

(٣٦٢ ـ ٥٦٧هـ/٩٧٣ ـ ١١٧١م)

الفصل السابع

أبو تميم معد: المعز لدين الله

(٣٤١ - ٣٦٥هـ/٩٥٣ - ٩٧٥م)

التمدُّد الفاطمي باتجاه المشرق الإسلامي

استيلاء الفاطميين على مصر

تمهيد

عندما أعلن المعز عن عزمه على التوجه إلى المشرق الإسلامي عبر مصر، لم يتخذ هذا القرار إلا بعد أن كان قد استعدَّ لذلك تماماً، وأمَّن الضمانات الكافية لنجاح مشروعه. وقد أشرنا كيف حاول عبيد الله المهدي غزو البلاد المصرية مرتين متتاليتين خلال السنوات الأولى من حكمه، ولكن دون جدوى. وبعد القائم والمنصور اللذين انهمكا بإخماد ثورة أبي يزيد، حوَّل المعز سياسته الخارجية، في اتجاه معاكس، حيث كان هدفه الأول، خلافاً لأسلافه، مقصوراً على المغربين الأوسط والأقصى. ويبدو أن ولادته في إفريقية، ونشأته في المغرب، جعلاه يشعر بأنه مغربي كالأمراء الأغالبة، وسائر الحكام من ذوي الأصل البربري الذين حكموا المغرب الإسلامي. ولم تتجه أنظاره نحو مصر والمشرق الإسلامي إلا في السنوات الأخيرة من عهده في إفريقية[1]. وقد ذكرنا كيف مدَّ السيطرة الفاطمية على جميع أراضي شمال إفريقية باستثناء النقاط الحصينة التي ظلت تحت الحكم الأموي بالإضافة إلى بعض الجزر الواقعة في البحر المتوسط مثل صقلية، كما أنه حاول الاستيلاء على الأندلس أو على الأقل ضمان حياد الأمويين في صراعه مع بعض حكام شمال إفريقية والبيزنطيين.

---

(١) الدشراوي: ص ٣٧٤.

ويبدو أن المعز لم يتمكَّن من الانعتاق من السياسة الفاطمية العامة القاضية بتحقيق هدفين:

الأول: السيطرة الكاملة على الحوض الغربي للبحر المتوسط ووراثة الأمويين في الأندلس، ويتضح هذا من بناء المهدية وإعادة بناء أسطول سوسة، والحرص على تشديد قبضتهم على طرابلس وبرقة، ومحاولتهم المستمرة لغزو الأندلس.

الثاني: السيطرة على الحوض الشرقي للبحر المتوسط عن طريق الاستيلاء على مصر، ثم التدخل المباشر في التجارة الشرقية عن طريق البحر الأحمر واليمن، بالإضافة إلى القضاء على الدولة العباسية ووراثتها.

وبعد فشلهم في الاستيلاء على الأندلس، وتعرُّضهم لخضَّات ثورية في شمال إفريقية، أدرك الحكام الفاطميون خطر بقائهم منعزلين في تلك البلاد، وخطر اعتمادهم على المغاربة في حفظ دولتهم، كما أدرك المعز أن نهاية الفاطميين ستكون كنهاية الأدارسة، إذا لم يتجه شرقاً. وعندما خطَّط للانتقال إلى المشرق، كان قد بلغ ذروة قوته. فهو صاحب شمال إفريقية وصقلية بلا منازع، وأضحى نفوذه يضاهي نفوذ الخليفة الأموي في قرطبة والأمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، وتجاوزت شهرته الحدود الشرقية لمملكته. وشجعته أوضاع المشرق، بعامة، ووضع مصر، بخاصة، على الالتفات شرقاً.

أوضاع المشرق الإسلامي قبيل استيلاء الفاطميين على مصر

ضعف الدولة العباسية

أخذ الضعف يدب في جسم الدولة العباسية منذ العصر العباسي الثاني (٢٣٢ـ ٣٣٤هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦م)، حين انتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، وقامت دول انفصالية مستقلة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي، ودخلت شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي الشرقي تمكَّنت من الوصول إلى الحكم، ووقع الخلفاء تحت تأثير نفوذهم، مما أدى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، ففقدوا الاحترام الذي كان يتمتع به أسلافهم خلفاء العصر العباسي الأول[١].

ويبدو أن مردَّ هذا التغيير يكمن في الظروف السياسية والاجتماعية

(١) محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٢٨٥.

والاقتصادية التي عاشتها الدولة العباسية في العصر العباسي الأول، وقد حملت معها بذور الانفصال.

لقد اتسعت رقعة الدولة، بدءاً من القرن الثاني الهجري، اتساعاً كبيراً حتى تعذَّر إدارتها من مركز الخلافة، وذلك بفعل عدم ملاءمة تطور وسائل النقل مع هذا الاتساع من جهة، ونتيجة لنمو الشعور العنصري من جهة أخرى[١].

نتج عن سياسة التجزئة هذه، ظاهرتان متعارضتان: ظاهرة تسعى إلى تركيز السلطة والإبقاء على الوحدة، وظاهرة تعمل على الانفصال الإقليمي، مستغلة أوضاع الشعوب، الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة، لتحقيق انفصالها. وانتهى الأمر إلى انتصار النزعة الانفصالية التي مهدت لقيام الدول الانفصالية.

شكَّلت حركة الزَّنج[٢]، التي قامت في عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، مرحلة حاسمة في تاريخ الدولة العباسية، إذ أضحت القوى الانفصالية قوية جداً، بحيث أدَّت إلى تفككها. فقد انفصلت شمال إفريقية عن الدولة العباسية منذ وقت طويل، كما انفصلت بلدان كثيرة أخرى، أثناء الحرب الطويلة مع الزَّنج، وبعدها بوقت قصير. وأتاح الوضع الصعب الذي وجد فيه الخلفاء أنفسهم، الفرصة للقادة الطموحين لإقامة حكوماتهم الانفصالية في أنحاء مختلفة من الدولة. ويبدو أن نجاحهم توافق مع رغبات الطبقة التي وقع عليها الظلم في تلك البلدان نتيجة تعسف الولاة، وازدياد أعمال السلب والنهب، وانتشار اللصوصية.

وعندما اندلعت ثورة الزَّنج كانت الولايات الإقليمية لا تزال تحت إدارة الخلفاء المباشرة، أو تحت إدارة ولاة مخلصين لهم. وتغيَّر أثناء الثورة كل شيء إذ فقدت فكرة جمع العالم الإسلامي تحت قيادة سياسية واحدة أهميتها، وحلَّت محلها فكرة تحقيق المصالح الإقليمية للشعوب المختلفة التي انضوت تحت لواء الخلافة، بحيث يتلَّمس كل شعب شخصيته العنصرية الشعوبية، ويحاول أن ينمِّيها، وأن يرتفع إلى مستوى الانفصال، حتى جاء وقت حكمت فيه كل عنصرية نفسها بنفسها.

لكن الخلافة العباسية، بوصفها نظاماً أساسياً، كان وجودها في نظر المسلمين

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ الدولة العباسية ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) الزَّنج بفتح الزاي، والزِّنج بكسرها هم جيل من السودان. أما الزُّنج بالضم فهم من قرى نيسابور. الحموي: جـ ١ ص ١٥٣.

بعامة ضرورة دينية لاستمرار الوحدة الإسلامية العامة، ذلك أنها تشكل رمزاً يربط أجزاء العالم الإسلامي المختلفة، وأن الشعوب التي تمسَّكت بانفصالها السياسي لم تفكر بالانفصال الديني عنها، باستثناء ما كان من أمر الفاطميين الذين لم يعترفوا أصلاً بحق العباسيين بالخلافة.

استوعبت الخلافة من جانبها هذه الظاهرة، فحرصت على التوفيق بين نزعات الشعوب ومطالبها السياسية والاقتصادية، وبين مبدأ الوحدة، لكنها عجزت عن تحقيق التوازن بين القوة المركزية في بغداد، وبين القوى اللامركزية النامية في الأقاليم، مما أدَّى إلى قيام الدول الانفصالية. فظهرت في المشرق: الدولة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٧٣م)، والدولة الصفَّارية (٢٥٤ ـ ٢٩٨هـ/ ٨٦٧ ـ ٩١١م)، والدولة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩م)، كما ظهرت، في مصر وبلاد الشام: الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)، والدولة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ـ ٩٦٩م)، وتبقى مناطق الثغور كوحدات تقوى وتضعف، وفقاً لتطور العالم الإسلامي، وحاجته إلى الدفاع أو الهجوم، وتتأثر عادة بالخطر الخارجي، وقوة الخلافة. فقامت الدولة الحمدانية[1] في مناطق الثغور الشامية والجزرية.

أما العراق، فكان له وضعه الخاص المرتبط بالخلافة، حيث ظلَّت تحكمه حكماً مباشراً، أو يُحكم باسمها حين يشتدُّ ساعد العناصر المتطلِّعة إلى النفوذ والسلطان، حتى فَقَدَ الخليفة أخيراً نفوذه في العاصمة أمام تصاعد نفوذ الأتراك، تماماً كما فَقَدَه من قبل في الأقاليم، ليصبح منصب الخلافة مجرد رمز تجتمع الدولة حوله. ثم تهاوت الروابط بين الخلافة وبين مصادر قوتها في الأقاليم مما أدَّى إلى ضعفها. وفَقَدَ الخليفة صفته كرأس الهرم التنظيمي لذلك النظام، وهيبته التي اكتسبها في نفوس الناس، فتعرَّض للامتهان.

وظهر خلال العصر العباسي الثالث (٣٣٤ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٦ـ ١٠٥٥م)، الأمراء

---

(١) ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية التي أقامت في ضواحي مدينة الموصل. وقام حمدون بدور هام في الأحداث السياسية التي حصلت في هذه المدينة منذ عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، وبدأت شهرة الحمدانيين تبرز منذ ذلك الوقت، فاشتهر الحسين بن حمدان في حروبه مع القرامطة. أسس الحمدانيون دولة لهم في الموصل في عام (٣١٣هـ/ ٩٢٩م) على يد عبد الله بن حمدان أخي الحسين، ودولة في حلب في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) على يد علي بن عبد الله الملقب بسيف الدولة. وقام الحمدانيون بدور مهم في شؤون الخلافة العباسية في بغداد وبلاد الشام، وفي ميدان الجهاد ضد البيزنطيين وفي علاقاتهم بالدولة الفاطمية.

البويهيون الذين مثَّلوا حركة شيعية زيدية[1]، فأسسوا إمارات انفصالية في فارس والعراق والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان، وبسطوا هيمنة فعلية على العراق، فشاركوا الخلافة العباسية في حكمه، وأضحت أمور الدولة كلها في أيديهم، وغدا تنصيب الخلفاء وعزلهم وقتلهم طوع رغبتهم[2].

وفي الخارج، تفاقم خطر البيزنطيين الذين هدَّدوا العباسيين والحمدانيين منذ منتصف القرن الرابع الهجري، في شمال العراق وبلاد الشام، فاستولوا على حلب في عام (٣٥١هـ/ ٩٦٢م)، في عهد الأمبراطور نقفور فوقاس، كما استولوا على المصيصة[3] وطرسوس[4] في عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) وعلى أنطاكية، وانتزعوا إقليم كيليكية، وقسماً من بلاد الشام. وتوغلوا في هذه البلاد في عهد الأمبراطور زمسكيس، واستولوا على الرها[5]، وديار بكر[6]، وميافارقين[7]، ونصيبين[8]، وأعلنوا عن عزمهم على مهاجمة بغداد نفسها.

والواقع أن الحالة السيئة التي باتت عليها الخلافة العباسية بعثت الأمل في نفس المعز، وأدرك سهولة تحقيق سياسته الهادفة إلى مدِّ نفوذه إلى المشرق، والاستيلاء على سائر البلاد التي كانت تابعة للدولة العباسية المتداعية، ومن ثمَّ فكَّر في غزو مصر.

أوضاع مصر الخارجية

كنا قد أشرنا إلى نجاح محمد بن طغج الأخشيد في الاستقلال بمصر وبلاد الشام في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٩م) وأسس الدولة الأخشيدية. وكانت الخلافة العباسية

---

(١) مع الإشارة إلى أن البويهيين ليسوا من أصل فارسي، وهم يمثلون العنصر الديلمي الذي كان يسكن في جنوب بحر قزوين، ولعلهم مزيج من الفرس والأتراك وشعوب أخرى.

(٢) انظر فيما يتعلق بالعلاقة بين الخلافة العباسية والبويهيين كتابنا: تاريخ الدولة العباسية ص ٢٢٣ ـ ٢٣١.

(٣) المصيصة: مدينة على شاطىء نهر جيحان من ثغور بلاد الشام بين أنطاكية وبلاد الروم، تقارب طرسوس. الحموي: جـ ٥ ص ١٤٥.

(٤) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٨.

(٥) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ست فراسخ.. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٠٦.

(٦) ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة تُنسب إلى بكر بن وائل. وحدُّها ما غرَّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٩٤.

(٧) ميافارقين: أشهر مدينة في دياربكر. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٢٣٧.

(٨) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادَّة القوافل من الموصل إلى الشام. المصدر نفسه: ص ٢٨٨.

آنذاك تشهد تطورات سريعة، بفعل الصراع من أجل الحصول على منصب أمير الأمراء، الذي فاز به محمد بن رائق في عام (٣٢٦هـ/ ٩٣٨م)، ثم قائده بجكم. وقد تطلع ابن رائق إلى الاستيلاء على مصر وبلاد الشام ليعوِّض بهما عن خسارته، وتمكّن من الحصول على تقليد من الخليفة الراضي بحكم حلب وأعمالها[١].

ولا شك بأن الخليفة كان يرى في هذا التقليد تحقيق مصلحة العباسيين القائمة على زرع بذور التفرقة بين الولاة، وتعبيراً عن رغبة الخلافة في ألَّا تسمح بقيام نفوذ في بلاد الشام ومصر يمكن أن يهدِّد مصالحها. ويبدو أن الخليفة لم يكن يطمئن إلى وجود الأخشيديين في المناطق القريبة من العراق على الرغم من الموقف الحسن لمحمد بن طغج الأخشيد الذي يخدم المصالح العباسية. ولا يُستبعد أن تكون الخلافة قد وجَّهت ابن رائق إلى بلاد الشام لينافس الأخشيديين، ويحد من سلطتهم ونفوذهم.

وما إن تسلَّم ابن رائق منصبه الجديد حتى طمع في بلاد الشام كلها، وراح يتدخل في شؤون الأخشيديين، وعلى الرغم مما أظهره محمد بن طغج الأخشيد من قلق واستياء إلا أنه سلك معه مسلكاً حسناً وحاول استرضاءه[٢].

ويبدو أن ابن رائق لم يُخْفِ نواياه التوسعية، فتقدم إلى جنوب بلاد الشام واستولى على حمص ودمشق، ثم سار إلى الرملة فالعريش[٣] في محاولة لدخول مصر، وهناك اصطدم بالقوات الأخشيدية في عام (٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)، لكنه هُزم، وتمكَّن من النجاة[٤].

أراد محمد بن طغج الأخشيد، على الرغم من انتصاره، تغليب المصلحة العامة للمسلمين على مصلحته الخاصة مقدِّراً ظروف الخلافة العباسية المتدهورة، والتهديد المستمر لدولته من جانب الدولة الفاطمية. ومن جهته أدرك ابن رائق أن الموقف يقضي بالعودة إلى العقل والدخول في الصلح. وفعْلاً عُقد الصلح بين

---

(١) ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ١ ص ١٠٣.

(٢) انظر فيما يتعلق بالعلاقات بين الأخشيديين وبين ابن رائق: زيود، محمد أحمد: العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي ص ٢٩٢ ـ ٣٠٢.

(٣) العريش: مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط) في وسط الرمل. الحموي: جـ ٤ ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٤) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٨٦. ابن سعيد: ص ١٧٤.

الجانبين، وقد تضمَّن أن يتخلَّى محمد بن طغج الأخشيد لابن رائق عن الأراضي الشامية الواقعة شمال الرملة، وتعهد بأن يدفع له مبلغ مائة وأربعين ألف دينار سنوياً عن الرملة[1].

وبعد عامين من إبرام المعاهدة، قُتل ابن رائق في عام (٣٣٠هـ/ ٩٤٢م) على يد ناصر الدولة الحمداني[2]، فانتهز محمد بن طغج هذه الفرصة، وسيطر على بلاد الشام، دون مقاومة، وتقدَّم شمالاً حتى جاور الدولة الحمدانية، كما دخلت مكة والمدينة تحت سلطانه[3]، فأضحى من أكبر القوى في العالم الإسلامي.

أدى تجاور الدولتين الأخشيدية، والحمدانية الطامعة في بلاد الشام إلى احتدام النزاع بينهما، فقاد سيف الدولة الحمداني حملة عسكرية وسيطر على حلب ودمشق في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٥م)، وأخذ يستعد لغزو مصر، مما دفع محمد بن طغج الأخشيد إلى الخروج بنفسه إلى بلاد الشام لوقف التقدم الحمداني[4].

ونتيجة للاشتباك، الذي حصل بين الطرفين في قنسرين[5]، هُزم سيف الدولة ودخل الأخشيد حلب، واسترد دمشق. لكنه آثر، مجدداً، تغليب المصلحة العامة للمسلمين، فعقد صلحاً مع سيف الدولة تنازل له بموجبه عن حلب وشمال الشام[6].

ويبدو أن محمد بن طغج الأخشيد أدرك ضرورة وجود قوة إسلامية في شمال بلاد الشام، كقوة الحمدانيين، للتصدي لغارات البيزنطيين على المناطق الإسلامية، بالإضافة إلى أن الأخشيديين في مصر كانوا يقعون تحت ضغط خارجي كبير من جهة الفاطميين، كما أخذوا يواجهون بعض الحركات الاضطرابية في مصر مثل حركة غلبون في منطقة الأشمونين[7].

توفي محمد بن طغج الأخشيد بدمشق في (شهر ذي الحجة ٣٣٤هـ/ تموز ٩٤٦م)، وكان قد أوصى بالملك من بعده لولديه الصغيرين أنوجور وعلي، على أن يتولى غلامه كافور الحبشي الوصاية عليهما. وفعلاً حكم كافور مصر اثنين وعشرين عاماً كوصي، حتى إذا توفي كل من أنوجور وعلي في عامي (٣٤٩هـ/ ٩٦٠م)

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٨٦. (٢) ابن خلكان: جـ ٤ ص ١٠٥.

(٣) مسكويه: جـ ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨. ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٠٤.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٥٤.

(٥) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم. الحموي: جـ ٤ ص ٤٠٤.

(٦) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٢٥٥. (٧) الكندي: ص ٢٩٦.

و (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) استبد بالحكم، واعترفت الخلافة العباسية به حاكماً على مصر[١].

استطاع كافور، خلال مدة وصايته، أن يحافظ على تماسك الدولة، ويدافع عنها ضد الأخطار الخارجية. فقد واجه الحمدانيين في الشمال وانتصر عليهم في معركة اللجون[٢]، كما تصدى لهجمات القرامطة بقيادة الحسن الأعصم بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي الذي هاجم طبرية[٣] والرملة، بالإضافة إلى هجمات النوبيين على أسوان وإخميم في عام (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م)[٤]، كما استمر الضغط الفاطمي ناشطاً. وقضت سياسته أن يُبقي على حسن العلاقات مع الخلفاء العباسيين من ناحية ومع الفاطميين من ناحية أخرى، مما أخَّر الغزو الفاطمي لمصر، فعندما استقبل رسل المعز يدعونه للدخول في طاعته، لاطفهم، ولم يعطهم رداً حاسماً.

تجدَّدت هجمات القرامطة على مصر، بعد وفاة كافور في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)[٥]، بقيادة الحسن الأعصم، فاستولوا على الرملة، وفرضوا على الحسن بن عبيد الله بن طغج دفع مبلغ ثلاثمائة ألف دينار سنوياً[٦]، كما ازداد الضغط الفاطمي على مصر.

أتاحت هذه الأوضاع السياسية القلقة الفرصة للمعز، لتوجيه جيوشه للاستيلاء على مصر.

أوضاع مصر الداخلية

شهدت مصر وبلاد الشام ثورات عاتية بعد وفاة محمد بن طغج الأخشيد. فقد

---

(١) الأنطاكي: ص ٩٤. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٣١، ٢٧٢.

(٢) اللجون: بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلاً، وإلى الرملة أربعون ميلاً. الحموي: جـ ٥ ص ١٣.

(٣) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل، وجبل الطور مطلٌّ عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١٧.

(٤) هاجم ملك النوبة الحدود الجنوبية لمصر، فنهب القرى وقتل السكان، فتصدى له جيش أخشيدي بقيادة محمد بن عبد الله الخازن، فهزمه وأبعده عن المناطق المصرية.
أسوان وإخميم بلدان في صعيد مصر على شاطىء النيل. الحموي: جـ ١ ص ١٢٣، ١٩١.

(٥) هناك اختلاف في روايات المؤرخين حول السنة التي توفي فيها كافور، انظر ابن خلكان جـ ٤ ص ١٠٥. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٧١. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢١.

(٦) الصابىء، ثابت بن سنان بن قرة: تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار في كتابه الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٢٦. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٨٦. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢٢ـ ٢٣.

ثار والي الأشمونين المعروف باسم غلبون بن سعيد المغربي، واستبدَّ بالأمور في منطقة نفوذه، ولما آنس من نفسه القوة، زحف بقواته على الفسطاط، فهزم جيشاً أخشيدياً ودخل دار الإمارة واتفق مع الوزير محمد بن علي الماذرائي على أن يدير بنفسه الشؤون العامة. لكن الجيش الأخشيدي، بقيادة الحسن بن طغج، اصطدم به في الفسطاط وهزمه، وطرده منها، فخرج إلى الشرقية، وطارده، فهزِم مرة ثانية وقُتل في المعركة، وذلك في (شهر ذي الحجة ٣٣٦هـ/ شهر حزيران ٩٤٨م)، وشغلت الدوائر الحكومية، والمجتمع المصري بهذه الثورة، فاضطربت الأمور في هذا العام حتى تعذَّر على الناس الذهاب إلى الحج[١].

وثار بعض رؤساء العشائر البدوية في بلاد الشام على سلطان الأخشيديين نذكر منهم: مهلهل العقيلي في طبرية في عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م)، ومحمد بن أحمد السلمي في بادية الشراة في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م)[٢].

وازدادت الحالة الداخلية خطورة حين وصلت الفوضى إلى مرحلة تعذَّر معها وجود والٍ أو أمير مدة شهر، بفعل عدم سماح كافور بتنصيب أحمد بن علي بن الأخشيد بعد وفاة أبيه، متذرعاً بصغر سنه، فكان يُدعى على المنابر للخليفة العباسي المطيع فقط، حتى أخرج كافور في (شهر محرم ٣٥٥هـ/ شهر كانون الثاني ٩٦٦م) كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده ولاية مصر وما يليها من البلاد[٣].

ولم يكد كافور يستقل بحكم مصر حتى انقسم الجند إلى طائفتين: الكافورية الموالية لكافور، والأخشيدية وساند أفرادها أسرة الأخشيد، وقد أثَّر هذا الانقسام على معنويات الجند، فانخفضت درجة الانضباط، وتراجعت القوة القتالية للجيش الأخشيدي.

استمرت الحالة الداخلية السيئة بعد وفاة كافور، وبدا واضحاً أن الضعف بدأ يدبِ في جسم الدولة الأخشيدية، ولم يكن للخليفة العباسي المطيع من القوة ما يمكّنه أن يولّي على مصر من يشاء، لذلك اجتمع رجال الدولة لاختيار شخص تتفق ميوله مع تطلعاتهم، فوقع الاختيار على أبي الفوارس أحمد بن علي بن طغج الأخشيد، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وعُيِّن الحسن بن عبيد الله بن

---

(١) النويري: جـ ٢٨ ص٥٠ ـ ٥١.

(٢) الأنطاكي: ص ١٠٢. ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٣١٣. والشراة صقع بالشام بين دمشق والمدينة المنورة، ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة. الحموي: جـ ٣ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٣) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٤٨.

طغج ولياً لعهده. واستبد الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات بتدبير شؤون دولته، فقبض على طائفة من كبار الموظفين، وذوي الرأي، وصادر أملاكهم، كان من بينهم يعقوب بن كِلِّس الذي هرب إلى إفريقية ملتجئاً إلى المعز[١].

وأخفق الوزير في تهدئة أوضاع البلاد، في الوقت الذي ساءت فيه الأوضاع المالية. وكانت المجاعة، والأوبئة، واضطراب الأمن، قد أفقدت الحكومة كل هيبة واستقرار، ولا سيما حين عجزت عن دفع رواتب الجند، وعن جمع الضرائب. وتفاقمت الثورات وتمنى السكان الخلاص مما هم فيه، ومما زاد الأمور تفاقماً، هزيمة الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيد أمام القرامطة الذين استولوا على الرملة، فانسحب الحسن إلى مصر، وقبض على الوزير ابن الفرات، وعزم على أن يتولى الأمور بنفسه، لكنه ما لبث أن أطلق سراحه، وفوَّض إليه الحكم وعاد إلى الشام[٢].

وأدَّت الحالة الاقتصادية المتدهورة دوراً آخر في تراجع قوة الأخشيديين. فقد شهدت مصر منذ عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) حالة من الجفاف استمرت تسعة أعوام سببها نقص في فيضان النيل، نتج عنها اختفاء القمح واضطراب الأسعار. «وتزايدت أثمان الحبوب والأقوات، واقترن بذلك وباء عظيم، وهلك الضعيف من الناس وأكلوا الميتة والجيف، وكانوا يسقطون موتى من الجوع، وزاد الوباء وكثر الموت، ولم يلحق دفنهم، وكان يُحفر لهم حفراً ويرمى فيها عدَّة كثيرة، ويُردم عليهم التراب»[٣]، وثقلت وطأة الضرائب على السكان، وبخاصة في تنيس[٤] ودمياط[٥] وعلى ساحل النيل، وقد استغل المعز هذه الأوضاع المضطربة فوجَّه جيوشه للاستيلاء على مصر[٦].

تغلغل الدعوة الفاطمية في المجتمع المصري

ثمة ظاهرة حقيقية وهي تمكُّن الفاطميين من اختراق الجبهة الداخلية في مصر، وجذب بعض المصريين إلى الدعوة الفاطمية. والواضح أنه عندما أسس الفاطميون

---

(١) النويري: جـ ٢٨ ص ٥٩ ـ ٦٠. عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار، السبع السادس ص ١٣٦.
(٢) النويري: المصدر نفسه: ص ٦١.
(٣) الأنطاكي: ص ١٢٢. المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة: ص ١٢.
(٤) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيِّها. الحموي: جـ ٢ ص ٥١.
(٥) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم (البحر المتوسط) الملح والنيل، وهي ثغر من ثغور الإسلام. المصدر نفسه: ص ٤٧٢.
(٦) المقدسي، محمد بن أحمد البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٨٦.

دولتهم في إفريقية، كانت هذه الدعوة تنتشر في مصر وبلدان المشرق الإسلامي.

وحاول الحكام الفاطميون الأوائل، وبخاصة عبيد الله المهدي والقائم، نشرها في مصر عن طريق الدعاية، فجنَّدوا الدعاة في صفوف قواتهم الغازية، وعهدوا إليهم أن يختلطوا بالناس، وينشروا بينهم تعاليم المذهب الإسماعيلي، فأسس هؤلاء نواة لقاعدة شعبية موالية لهم، وسرعان ما أضحى بمصر عدد غير قليل من الموالين للمذهب المذكور.

وكان الفاطميون قد عمدوا في بداية دعوتهم إلى تعيين دعاة مستقرين ونشروهم في الأقاليم ذات المواقع المهمة فيما عُرف بجزر الدعوة، وكانت مصر من بين أهم هذه الجزر، فقد استقر فيها أبو علي الداعي الذي ساعد عبيد الله المهدي على الهرب إلى إفريقية في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م).

وأسس أبو علي الداعي مدرسة في مصر عُرفت بإخلاصها للفاطميين، وشجَّع تلامذتُها عبيد الله المهدي على غزو هذا البلد، وبفضل هؤلاء الدعاة أضحى في مصر عدد غير قليل من الأنصار الذين شجعوا بدورهم المعز على غزو مصر والاستيلاء عليها. ويبدو أن بعض المصريين كانوا أكثر استعداداً لتقبُّل المذهب العلوي بسبب ميلهم إلى علي بن أبي طالب، والتفافهم حول واليه محمد بن أبي بكر[(١)].

وكان الدعاة الفاطميون يعملون في مصر منذ سقوط الدولة الطولونية وزاد اتصالهم بوجوه مصر منذ قيام الدولة الأخشيدية، من ذلك أن الوزير محمد بن علي الماذرائي اتهم، حين كان معزولاً في قبضة الفضل بن جعفر بالشام، بأنه كاتَبَ القائم الفاطمي وزيَّن له فتح مصر[(٢)]، وأن أبا الطاهر الذهلي، الذي تولى قضاء مصر عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م)، ناظَرَ رسولاً قدم إلى مصر من قِبَل الفاطميين[(٣)]، وأن أبا جعفر أحمد بن نصر شيَّد داراً كبيرة كانت تؤخذ فيها البيعة لصاحب المغرب[(٤)].

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار المذهب الإسماعيلي، ما كان ينتهجه الحكام الفاطميون مع ولاة مصر. فقد اتصل القائم بمحمد بن طغج الأخشيد أكثر من مرة، وحاول استقطابه وإثارة سخطه على العباسيين[(٥)]. وعلى الرغم من مماطلة الأخشيد في الرد عليه فإن حُسن استقباله للرسول الفاطمي يوضِّح ما يكنُّه من تقدير

---

(١) حسن وشرف ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٢) ابن سعيد: ص ١٧٦.
(٣) ابن الزيات، شمس الدين أبو عبد الله: الكواكب السيارة ص ٦٣.
(٤) ابن زولاق، أبو محمد الحسن بن إبراهيم: أخبار سيبويه المصري ص ٤٠.
(٥) ابن سعيد: ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

للقائم والدولة الفاطمية، وبخاصة بعد أن تعرَّض لمضايقة الخليفة العباسي الراضي الذي أرسل قائده ابن رائق ليستولي على مصر منه، مما دفعه إلى إعطاء الأمر للخطباء بوقف الخطبة للعباسيين، والدعوة لأبي القاسم القائم صاحب إفريقية[1].

على أن إقامة الخطبة للفاطميين لم تتحقق لأن مستشاريه نصحوه بعدم الإقدام على هذه الخطوة حتى لا تزيد من سخط الخلافة العباسية، وتثير ابن رائق الطامع في مصر.

والواقع أن محمداً بن طغج الأخشيد حاول التقرب من الفاطميين لا حباً بهم، ولكن خشية على نفوذه وسلطانه منهم، وكأنه أراد أن يحول دون تدخلهم في شؤونه الداخلية، لكنه تمادى في سياسة التقارب معهم حين عرض على القائم أن يزوج ابنته من ابنه إسماعيل المنصور. وعلى الرغم من أن هذا الزواج السياسي كان يخدم مصلحة الطرفين إلا أنه لم يتمَّ لأن القائم أرسل إلى محمد بن طغج الأخشيد بصداق ابنته مبلغاً مقداره مائة ألف دينار، فاستقلَّه الأخير، وتوترت العلاقات بين الجانبين بسبب ذلك[2].

والحقيقة أن الدعوة الفاطمية صادفت رواجاً في مصر إلى الحد الذي قسَّم المجتمع المصري والجيش إلى طائفتين متعارضتين في التوجه المذهبي، ولولا ما ساد الدولة الفاطمية من اضطراب داخلي بسبب ثورة أبي يزيد التي شغلت الفاطميين طوال عهد القائم وشطراً من عهد إسماعيل المنصور؛ لظهرت آثار تلك الدعاية في وقت مبكر، وتمَّ الاستيلاء على مصر قبل عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) بزمن طويل[3].

على أن المعز أخذ يرسل جيوشه ودعاته إلى مصر، فاحتلت إحدى فرقه العسكرية بعض الواحات المصرية في عهد ولاية كافور، كما بعث نفراً من الدعاة لتهيئة الأجواء الداخلية للتغيير السياسي والمذهبي المرتقب. وعلى الرغم من أن الحملة العسكرية لم تحقِّق أهدافها المرجوة منها، فإن الحملة الدعائية صادفت نجاحاً لا سيما بين الكافورية والأخشيدية، وغيرهما، حتى أن كافوراً نفسه تأثر بهذه الدعاية الفاطمية، وأولى احترامه وعطفه وتقديره للمعز لكنه مع ذلك لم يرضَ بزوال نفوذه، ورأى من حسن السياسة ألا يدين بالطاعة للفاطميين، وبذلك يكون قد شكَّل

---

(١) ابن سعيد: ص ١٧٦ ـ ١٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٧.
(٣) حسن وشرف: ص ٧١.

عقبة أمام التمدُّد الفاطمي باتجاه مصر والمشرق الإسلامي، بدليل أن العلويين في مصر أرسلوا كتاباً إلى المعز يقولون فيه: «إذا زال الحجر الأسود، يعنون كافوراً، ملك مولانا المعز الدنيا كلها»[1].

يتضح لنا من هذا مدى تأثير الدعاية الفاطمية في مصر على الصعيدين الحكومي والشعبي، كما يتضح صدق ما قاله المعز لأصحابه قبل أن يرسل جيوشه للاستيلاء على هذا البلد بقليل: «إني مشغول بكتب ترد عليَّ من المشرق والمغرب أُجيب عليها بخطي»[2]. وعليه، كان سقوط مصر في أيدي الفاطميين متوقعاً لدى الخاص والعام، وأن العساكر وكبار الموظفين كانوا على علم بذلك[3].

هيأ هذا التغلغل الفاطمي في صميم الحياة المصرية، الجو لحدوث اصطدامات بين أنصار الفاطميين من الشيعة وبين أهل السنَّة بلغت ذروتها يوم عاشوراء في عام (٣٥٠هـ/ أول آذار ٩٦١م)، وكان الجنود السودان والأتراك السنة يسألون من يقابلونه: «من خالك؟» فإن لم يقل معاوية، ضربوه. وطاف أحد المتحمسين من السودان في الطرقات وهو يصيح «معاوية خال علي»[4]، وأضحت هذه العبارة عنواناً للتمييز بين الشيعة والسنَّة. وكانت الحكومة تسعى جاهدة للمحافظة على النظام، لكن الأمور أفلتت من أيديها في هذه القضية. ولما ورد الخبر بقيام بني الحسن في مكة، ومحاربتهم الحجاج، اجتمع كثير من المصريين بكافور في الميدان بظاهر مدينة الفسطاط، وضجُّوا وصاحوا: «معاوية خال علي» وطلبوا منه أن يبعث لنصرة الحجاج على الطالبيين.

وهكذا، فإن الأخطار الخارجية التي واجهتها مصر، والاضطرب السياسي، وسوء الحالة الاقتصادية، وانتشار الدعوة الفاطمية، كل ذلك حمل أولي الرأي في البلاد على الكتابة إلى المعز يطلبون منه القدوم إلى مصر لإنقاذها من الفوضى التي دبَّت فيها منذ أن اختفت شخصية كافور. واستجاب المعز لهذا الطلب[5].

استعدادات التجهيز

استفاد المعز من تجارب الماضي، فحرص على تجنُّب ارتكاب الأخطاء نفسها التي ارتكبها آباؤه عندما حاولوا الاستيلاء على مصر، وانتهج أسلوباً مختلفاً،

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٩٥.
(٣) حسن وشرف: ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٤) المقريزي: خطط: جـ ٢ ص ٣٢٩.
(٥) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ١٣.

معتمداً على دعاته فيها الذين هيؤوا له الأرضية الداخلية، كما كثَّف اتصالاته مع بعض أصحاب النفوذ فيها، الذين لم يُخفوا مشاعر ولائهم للفاطميين.

وبدأت، منذ عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)، استعدادات التجهيز، فأرسل قوة عسكرية استطلاعية، إلى مصر، في العام التالي، هاجمت واحة سيوة المصرية، ووقف أفرادها على مدى صلاحية الطريق التي ستسلكها الفرق العسكرية إلى مصر[١].

ولما كانت مصر بعيدة نسبياً عن إفريقية، أمر المعز عامل برقة، أفلح الناشب، بحفر الآبار على الطريق بينها وبين تونس، وتمهيدها لسير الحملات العسكرية، وأنشأ في كل منزلة[٢] قصراً[٣]، وبنى السفن اللازمة للمشاركة في الحملة، لمساندة القوات البرية. وشهد ميناء المهدية نشاطاً كثيفاً. فبنى حسين بن يعقوب، متولي البحر، عشرة صنادل من القارب الكبير[٤]، وأجبر سكان بعض المدن الصقلية المحصنة على تزويد دار الصناعة بالعود[٥]. واتخذ المعز تدابير استثنائية لتأمين الأموال اللازمة للإنفاق على الحملة منها:

- عيَّن جوهراً الصقلي قائداً للحملة ومتصرفاً في أموال الدولة ومراقبتها، لتوفير الأموال اللازمة للإنفاق على الحملة، وأمره بالاتصال بالكتاميين في مناطق القبائل الصغرى، والمناطق الأخرى في المغرب، لحشد الجنود، وجبي الضرائب المفروضة على البربر، ولم يرجع جوهر إلا في (شهر محرم ٣٥٨هـ/ شهر كانون الأول ٩٦٨م)، مصحوباً بالرجال والأموال التي بلغت أربعة وعشرين ألف ألف دينار[٦].
- ذهب المعز بنفسه إلى المهدية، وجلب من قصر آبائه خمسمائة حمل من الذهب[٧].
- عيَّن نصير الصقلبي، الخازن بالمنصورية، عاملاً على طرابلس، فأمَّن له مبلغاً كبيراً من المال من مداخيل الجباية، للإنفاق على الأسطول وبحارته[٨].

وساهم الحاجب جوذر مساهمة فعَّالة في هذا المجهود، فدفع لخزينة الحرب

---

(١) حسن وشرف: ص ٨٢.
(٢) المنزلة هي المرحلة.
(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٦. والقصر هو بناء للاستراحة.
(٤) سيرة جوذر: ص ٩٨.
(٥) العود: هو الخشب.
(٦) المقريزي: جـ ١ ص٩٧.
(٧) سيرة جوذر: ص ١٣٩. الدشراوي: ص ٣٧٩.
(٨) المصدر نفسه: ص ١١٩.

كل ما توفر عنده من حسن نظره في شيء باعه من الخزائن، واستخرج بقايا الأموال ـ الجباية ـ على ما أضاف إلى ذلك من مال نفسه عملاً وتقرباً، وكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار واثنين وعشرين ألف درهم[١].

بعد أن أمَّن الأموال اللازمة للإنفاق على الحملة، جنَّد المعز أعداداً هائلة من أنصاره من القبائل البربرية، وبخاصة من كتامة وزويلة، ومن الصقالبة، بلغ تعدادها مائة ألف مقاتل[٢]. عسكر هذا الجيش الجرار في رقَّادة تمهيداً للانطلاق إلى وجهته. ثم تفقد المعز هذا المعسكر واستعرض الجيش ومنح أفراده رواتبهم التي تراوحت بين ألف دينار وعشرين ديناراً تبعاً لرتبهم، لحثِّهم على التفاني في القتال. وقدَّم جوهراً الصقلي، القائد الذي سيقودهم للاستيلاء على مصر، ومنحه ثقته الكاملة، وفوَّضه بسلطات عسكرية وسياسية ومالية، مطلقة، وأضفى عليه هالة من الاحترام والتقدير، فأمر أولاده وإخوته وولي عهده، وكبار رجال دولته بالترجل بين يديه، وأن يمشوا في خدمته وهو راكب، كما كتب إلى سائر عماله يأمرهم بأن يترجلوا مشاة في خدمته إذا قدم عليهم[٣]. وكان لهذه الثقة الكبيرة لشخص جوهر، أثر شديد في نفسه، مما جعله يتفانى في القتال ليكون عند حسن ظن المعز به.

عاد المعز، بعد ذلك، إلى المنصورية واستدعى عدداً من شيوخ كتامة، فأمرهم بالتزام الهدوء بعد خروج الجيش، وبشَّرهم بفتح المشرق، وخاطبهم قائلاً: «نحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم، واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوتُ أن يقرِّب الله علينا أمر المشرق كما قرَّب أمر المغرب»[٤].

ولعل جملة ما أنفقه المعز على تجهيز جيش جوهرالصقلي، وخروجه بنفسه ومعه ولي عهده وكبار رجال دولته، لوداعه، وحرصه على الاختلاء به، وتوجهه إلى أهمية ما هو مقدم عليه؛ يدل على مدى الأهمية التي كان يعلِّقها على الاستيلاء على مصر.

زحف الحملة ـ السيطرة على الإسكندرية

لم يقرر المعز، في آخر الأمر، القيام بحملته العسكرية للاستيلاء على مصر إلا عندما ظهر في الأفق السياسي حادثان: الأول: وفاة كافور الأخشيدي، والثاني: تأزم العلاقات بينه وبين قرامطة البحرين.

---

(١) سيرة جوذر: ص ٩٢.
(٢) عماد الدين، إدريس: ص ١٣٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٩. حسن وشرف: ص ٨٣.
(٤) المقريزي: جـ ١ ص ٩٥ ـ ٩٦.

ففيما يتعلق بالحدث الأول، فقد شجعت وفاة كافور المعز على غزو مصر، وبخاصة بعد حالة الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي الذي شهده هذا البلد.

وفيما يتعلق بالحادث الثاني، فقد ساءت علاقة المعز بفرع القرامطة في البحرين بوصفه إمام الطائفة الإسماعيلية. ومنذ أن تولى الإمامة ازداد تفوق النزعة المناهضة لأصحاب إفريقية بين القرامطة والتي كان يمثلها أحمد بن سعيد الجنابي وابنه الحسن الأعصم. وسعى أحمد إلى تمتين علاقته مع بني بويه وبني حمدان، مظهراً بذلك انحراف الحركة القرمطية انحرافاً كلياً عن الخط الفاطمي، وراح القرامطة يتصرفون بمعزل عن الإدارة المركزية في إفريقية، وضد مصالح الفاطميين. ومما لا شك فيه أن المعز أراد السيطرة على القرامطة ليستعين بهم في تنفيذ مشاريعه الشرقية[1]. ففي عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م)، قام الحسن الأعصم بغارات على بلاد الشام، وعجز الأخشيديون عن صده لانهماكهم بأوضاعهم الداخلية المضطربة، والتصدي للضغط الفاطمي الواقع عليهم[2]. وتجدَّدت الغارات في عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) في عهد وصاية كافور، ثم في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) بعد وفاة كافور حيث تغلَّب القرامطة على الحسن بن عبد الله بن طغج صاحب بلاد الشام، كما ذكرنا، دون أن يرجعوا في ذلك إلى المعز، مما يدل على أن هذه الجماعة كانت تعمل بشكل مستقل ولحسابها الخاص. ومنذ ذلك التاريخ أدرك المعز استحالة الاعتماد على البيت القرمطي، وأن القرامطة أصبحوا عقبة في طريق توسعه باتجاه الشرق، وخطراً يهدِّد انتشار الدعوة الإسماعيلية في المشرق، وخشي إن هم تمركزوا في جنوب بلاد الشام، فإنهم قد يتحولون إلى مصر ويستولون عليها قبله.

ولا شك بأن هذا التسرب القرمطي المحتمل باتجاه مصر، عن طريق جنوب بلاد الشام، بعد وفاة كافور، قد دفع المعز إلى الإسراع بالاستعداد للحرب ليسبقهم إلى الأراضي المصرية، وأدرك المعز أن الوقت قد حان للفاطميين لغزو مصر والزحف من جديد باتجاه المشرق[3].

انطلقت الحملة من إفريقية يوم السبت في (١٤ ربيع الآخر ٣٥٨هـ/ ٧ آذار ٩٦٩م)، وتقدم جوهر الصقلي ببطء باتجاه الإسكندرية، وسانده أسطول بحري، ولم يصل إلى حدود الدولة الأخشيدية إلا بعد ثلاثة أشهر[4].

---

(١) الدشراوي: ص ٣٧٧.
(٢) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٣٢٦.
(٣) الدشراوي: ص ٣٧٨.
(٤) عماد الدين، إدريس: ص ١٣٩.

ولما انتشر خبر هذا الزحف في الفسطاط، اضطرب الوضع، واستعد أنصار الفاطميين لاستقبال ذلك القائد بنشر المعلومات التي وزعها عليهم الدعاة ليقيموا الدليل على خضوع المصريين الذين يقاسون من الفوضى والجوع منذ عهد بعيد. ولما لم يصادف جوهر الصقلي في الإسكندرية، أية مقاومة تذكر، أمر جنده بعدم التعرض للسكان، واستطاع بحنكته أن يستقطب أهل الإسكندرية، ويتألف قلوبهم بما أجزل لهم من المال[1].

السيطرة على مصر

أدرك المسؤولون في مصر، وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات، أنه لا طاقة لهم بمقاومة الجيش الفاطمي الجرَّار، فجمع هذا الوزير وجوه القوم للتداول في الأمر، وكانت رسل جوهر الصقلي ترد إليه سراً[2]. واتفق الجميع على تجنُّب اتخاذ أي موقف عدائي، والميل إلى التفاوض في شروط التسليم، وطلب الأمان لأرواح المصريين وأملاكهم، فشكلوا وفداً من أجل هذه الغاية برئاسة أحد الشيعة من الفرع الحسيني، هو أبو جعفر مسلم، وقد اختاروه بفعل قرابته من الأسرة الفاطمية. وقد دلَّ هذا الاختيار على الحنكة السياسية، لأن ذلك كان من العوامل التي أدَّت إلى إجابة جوهر الصقلي لمطالبهم.

خرج أعضاء الوفد من الفسطاط يوم الاثنين في (١٨ رجب/ ٦ حزيران)، وشايعهم كل قائد وكاتب وعالم وشاهد وتاجر[3]، مما يدل على أن فكرة المقاومة، من جانب المصريين، كانت شبه معدومة. وكان معنى ذلك أن جوهراً الصقلي كاد يفتح مصر دون إراقة دماء مما يُعدُّ نصراً مؤزَّراً.

اجتمع أعضاء الوفد بجوهر الصقلي في تروجة القريبة من الإسكندرية، وجرت بين الطرفين مباحثات اتفقا بنتيجتها على كتاب الأمان الذي كتبه جوهر الصقلي، وأعلنه للمصريين[4]، ويمثل مضمونه أهمية مزدوجة. فهو شهادة بليغة على براعة الدعاية التي أراد جوهر الصقلي أن يستقطب بها أهل مصر المتمسكين بالمذهب السنِّي، إلى القضية الفاطمية، من جهة، ويُحدِّد، من جهة أخرى، السياسة

(١) حسن وشرف: ص ٨٥.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر نص الكتاب في المصدر نفسه ص ١٠٣ ـ ١٠٦، وعند. عماد الدين، إدريس: ص ١٤٦ ـ ١٥٠.

التي يعتزم القائد الفاطمي انتهاجها في مرحلة انتقالية ريثما يتدعَّم النظام الجديد[1]، وتقوم هذه السياسة على أربعة دعائم:

الأولى: داخلية: فقد أراد جوهر الصقلي أن يهدِّىء نفوس المصريين، فمنحهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وبلادهم، وشمل هذا الأمان كافة الفئات، من جنود ومدنيين، مسلمين ونصارى، وتعهد لهم بأن يحقق العدل، وينشر السلام والطمأنينة بينهم، ويعين المظلوم، مع الشفقة والإحسان.

الثانية: خارجية: وتقضي بالتصدي لخطر القرامطة الذين غزوا بلاد الشام أكثر من مرة، ومنعوا الحجاج من أداء فريضة الحج، بالإضافة إلى مواجهة البيزنطيين الذين غزوا شمال بلاد الشام واستولوا على كثير من مدنه، كما غزوا شمال العراق، وعبروا دجلة، متجنباً الكشف عن مطامع مخدومه التوسعية. ذلك أن المسلمين في المشرق الإسلامي قد أصبحوا، منذ عهد بعيد، عرضة لمساوىء القرامطة والبيزنطيين بسبب تقاعس العباسيين. وتبعاً لذلك، فإن مهمة الجيش الفاطمي تتمثل في محاربة العدو وتخليص أهل المشرق من الرعب، وتمكينهم من أداء فريضة الحج آمنين مطمئنين، وإعادة الأمن إلى نصابه في البلاد.

الثالثة: دينية: أخذ جوهر الصقلي على نفسه في ذلك العهد تحقيق تطلعات الفاطميين الدينية، واعترف في الوقت نفسه بالحرية الدينية للمصريين، وبأن يقوم بإصلاح ديني شامل، من بناء المساجد وإصلاحها، ومع ذلك لم يتوانَ عن الإشادة بالأئمة الشيعة وتمجيدهم، وأنهم أحق بالخلافة من سواهم. وهو بالتزامه العمل على احترام مبدأ التسامح، أزال مخاوف المتمسكين بالمذهب السنّي، وفنَّد، بصورة غير مباشرة، التهم الموجهة إلى الفاطميين، بدعوى أنهم قد حرَّفوا الدين، وأدخلوا عدة بدع مكروهة في الشعائر الدينية، ولا شكَّ بأنه أخفى نواياه الحقيقية، لأن الظروف لم تكن تسمح بالدعوة إلى العقائد الإسماعيلية، ولا بفرض الشعائر الدينية على النحو المطبق به في إفريقية، وقد كان همُّه الأساسي عدم إزعاج أناس متعلِّقين بالمذهب السنِّي[2].

الرابعة: إدارية: تعهَّد جوهر الصقلي للمصريين بأن يقوم بإصلاح شامل في إدارة البلاد، بالضرب على أيدي العابثين من قطاع الطرق، وضبط السكة بعدم غشها أو تزييفها.

---

(١) الدشراوي: ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٢) المرجع نفسه: ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

وفي مقابل منح الأمان للمصريين، قيَّد جوهر الصقلي الوفد المصري بقيود يستطيع من خلالها أن يدخل حاضرة البلاد آمناً مطمئناً. فأخذ عليهم العهود والمواثيق أن يذيعوا نصوص الاتفاق بين الخاص والعام، وأن يضمنوا عبور جيشه من الجيزة إلى الفسطاط وذلك بالخروج إليه، والسير في ركابه حتى يعبر الجسر وينزل الفسطاط[1].

وما إن همَّ أعضاء الوفد بمغادرة المعسكر الفاطمي حتى علموا بخروج بعض عناصر الجيش الأخشيدي في الفسطاط، وعزمهم على التصدي للزحف الفاطمي. ذلك أن بعض الكافورية والأخشيدية، عزَّ عليهم أن يستولي جوهر الصقلي على مصر بتلك السهولة، وأن يزول نفوذهم بدخول الجيش الفاطمي. ولما كانت الجندية مصدر رزقهم ونفوذهم وهيبتهم، عزموا على الوقوف في وجهه، وامتنعوا عن طاعة كل ما جاء في عهد جوهر الصقلي، وأمَّروا عليهم نحرير شويزان، ثم نزلوا الجزيرة ـ جزيرة الروضة ـ وقطعوا جسور الجيزة، وانتظروا جوهراً وجيشه بمنية شلقان، شرق القناطر الخيرية، وهم على أهبة الاستعداد لمقاومة الجيش الفاطمي ومنعه من الدخول إلى الفسطاط[2].

وأحيط جوهر الصقلي علماً بانتفاض الكافورية والأخشيدية، فأراد نقض عهوده، ثم تراجع بإلحاح من أبي جعفر، إلا أنه حصل على فتوى من قاض القضاة أبي طاهر الذهلي تجيز قتال المتمردين[3].

ولما وصل جوهر الصقلي إلى الجيزة في (١١ شعبان/ أول تموز) أمر مساعده جعفر بن فلاح الكتامي بعبور النهر على رأس فرقة عسكرية اصطدم بهم وتغلَّب عليهم، فانسحبوا إلى بلاد الشام، وعبر جوهر الصقلي الجسر المقام على النيل بين الجيزة والفسطاط يوم الثلاثاء في (١٧ شعبان/ ٧ تموز)، وعسكر بجنوده شمال القطائع، ووضع أساس مدينة القاهرة[4].

وأرسل إليه أبو جعفر كتاباً باسم سكان مصر الذين لم يشاركوا في القتال، يهنِّئه بالفتح، ويسأله إعادة الأمان، فاستجاب لطلبه. ولما كان يوم الجمعة (٢٠ شعبان/ ١٠ تموز) صلَّى جوهر الصقلي في الجامع العتيق، صلاة الجمعة، وخطب بالمصلين هبة الله بن أحمد، فلما بلغ الدعاء، قطع الخطبة للعباسيين، وقرأ الدعاء من رقعة كان

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٠٦.

(٢) عماد الدين، إدريس: ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٥١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٥٢.

جوهر قد حرَّرها، أبرز فيها اسم المعز، وتلقُّبه بأمير المؤمنين، مقتصراً على ذكر أسلافه الأئمة، في انتظار زيادة أسماء علي وفاطمة والحسن والحسين بعد ذلك ببضعة أسابيع. وتضمَّن الدعاء أيضاً التوسل إلى الله بأن يورث الخليفة مشارق الأرض ومغاربها، وتنويهاً بالجهود المبذولة للجهاد في سبيل الله. وأزال جوهر الصقلي أمر بني العباس عن السكة، والبنود، والرسوم، وأحلَّ اسم المعز محل ذلك(١).

وهكذا، زالت الدولة الأخشيدية، وبدأ العهد الفاطمي في مصر، وامتدت الدولة الفاطمية، بذلك، من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، واقتربت من العالم الإسلامي الشرقي.

سياسة جوهر الصقلي الداخلية في مصر

تمهيد

لم يكن استيلاء الفاطميين على مصر مجرد قيام دولة مكان أخرى، أو انتقال الحكم من العباسيين إلى الفاطميين، ويُعدُّ هذا الحدث أكثر من مجرد تغيير في الأسرة الحاكمة، نتج عنه انقلاب جذري ديني، ثقافي واجتماعي، في المجتمع المصري، صحبه تحوُّل ظاهر في نظام الحكم، وخلق وضعاً جديداً تماماً. فلأول مرة في التاريخ الإسلامي، تُحكم مصر في قِبَل دولة لا تدين حتى بالولاء الاسمي لبغداد.

حقيقة أن الطولونيين والأخشيديين انتهجوا سياسة خاصة في حكمهم لمصر، ووضعوا نواة قوة عسكرية، أدَّت دوراً بارزاً في المنطقة، إلا أن طموحاتهم كانت محدودة، وكانوا يدورون في فلك السياسة العباسية.

أما الفاطميون فكانوا يتزعمون حركة دينية فلسفية، اجتماعية، مناهضة تماماً لما كان عليه أهل السنّة، ويرون أنهم أحق بحكم العالم الإسلامي بمقتضى الحق الإلّهي في الحكم. وعندما اختاروا مصر لتكون مركزاً متوسطاً يكون قادراً على تحقيق أهدافهم التوسعية، فإنهم في الواقع عادوا إلى وضع جغرافي ـ سياسي قديم ـ وإذا كانوا قد فشلوا في استقطاب العالم الإسلامي لتمسُّكهم الشديد بعقيدتهم، فإن القاهرة التي أرادوا أن يحكموا منها العالم الإسلامي أدَّت دوراً بارزاً في قيادة هذا العالم أمام التحديات الخارجية، بدءاً بالمد الصليبي ومروراً بالغزو المغولي، وأثبتت

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ١٥٢ ـ ١٥٥. المقريزي: جـ ١ ص ١١٤ ـ ١١٦.

بُعد نظرهم عندما اختاروا مصر ليحققوا من خلالها أهدافهم[1].

كانت السنوات الأربع التي حكم فيها جوهر الصقلي مصر نيابة عن المعز (٣٥٨ـ ٣٦٢هـ/ ٩٦٩ـ ٩٧٣م)، من أهم مراحل التاريخ الفاطمي في هذا البلد. فقد هيَّأ الأرضية الصالحة لمولاه من خلال التغييرات المذهبية والإدارية والسياسية التي نمت ومهَّدت لقدومه وانتقاله إلى الشرق ليعلن مصر دار الخلافة، وليقود دولته المنتظرة في المشرق، وتمثلت هذه الخطوات بسلسلة من الإجراءات في النواحي الدينية المذهبية والإدارية التنظيمية والاقتصادية.

السياسة الدينية

انتهج جوهر الصقلي سياسة دينية تتَّفق مع ميول الفاطميين المذهبية. فقد أدرك، فور دخوله إلى مصر، طبيعة المجتمع المصري ذي المذهب السنِّي، فرأى ألا يثير السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الإسماعيلي، وقرَّر بناء مسجد يكون رمزاً لسيادة الدعوة الفاطمية. فشرع في بناء الجامع الأزهر في (٢٣ جمادى الأولى ٣٥٩هـ/ ٢٤ آذار ٩٧٠م)، وأنجز بناءه في مدة عامين تقريباً حيث أُقيمت فيه الصلاة لأول مرة في (٧ رمضان ٣٦١هـ/ ٢٢ حزيران ٩٧٢م)[2]، وقد دُعي هذا الجامع في بادىء الأمر بجامع القاهرة، نسبة إلى العاصمة الجديدة القاهرة، ثم أُطلق عليه بعد ذلك الجامع الأزهر وذلك في عهد العزيز، على الأرجح، ولا يزال هذا الاسم متداولاً حتى يومنا هذا. والجدير بالذكر أنه كان بمصر، قبل مجيء الفاطميين، ثلاثة مساجد جامعة هي: جامع عمرو بن العاص الذي أُسس في عام (٢١هـ/ ٦٤٢م)، وسُمِّي في عهد ازدهاره تاج الجوامع، ثم عرف بعد أن تقادم به العهد بالجامع العتيق، ويقع هذا المسجد شمال حصن بابليون[3].

ولما دخلت مصر في تبعية الخلافة العباسية، بنى واليها الفضل بن صالح بن علي في عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥ـ ٧٨٦م) مسجد العسكر بجوار دار الإمارة، وقد ظل قائماً حتى أزاله بدر الجمالي، الوزير الفاطمي، عندما هدم مدينة العسكر لتجميل مدينة القاهرة[4].

وبنى أحمد بن طولون في عام (٢٦٣هـ/ ٨٧٧م) مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر في الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية، والجهة الشمالية من

---

(١) سيد: ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٥١ ـ ٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣، ٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٦.

العسكر[1]، ولا يزال هذا المسجد عامراً إلى اليوم. وتُعدُّ هذه المساجد الثلاثة، رمزاً لسيادة الإسلام الروحية، ومنبراً للدين الجديد.

ظلَّت هذه المساجد الثلاثة، الجامعة عامرة حتى جاء جوهر الصقلي إلى مصر، فرأى أن يستقلَّ بالصلاة في حاضرة ولايته الجديدة، وكان يخشى ثورة أهل السنَّة على العبارات الشيعية في الأذان والخطبة.

كان جوهر الصقلي قد تعهد بوثيقة الأمان التي منحها للمصريين، أن يترك لهم الحرية الدينية، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة، والحج، والجهاد على أمر الله وكتابه وسنَّة نبيه، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه، وأن يجري على المواريث ما نصَّ عليه الكتاب والسنَّة، لكنه لم يطبق ما تعهد به إلا لمدة قصيرة انتقالية. فبعد أن تعرَّف على طبيعة المجتمع المصري، بدأ بإحداث تغييرات جوهرية أصابت صميم هذا المجتمع. ولعل أول تغيير أثار غضب المصريين يتعلق بصوم شهر رمضان وفطره، والذي أصبح بعد دخول الفاطميين يتم بدون رؤية الهلال. فقد أفطر جوهر الصقلي وأصحابه في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) بغير رؤية الهلال، وصلوا صلاة عيد الفطر بمصلى القاهرة، فلم يرضَ أهل مصر عن ذلك. وكان أبو الطاهر القاضي قد التمس الهلال على رسمه في سطح الجامع فلم يره، فصلَّى غداة هذا اليوم بالفسطاط، فاستنكر جوهر الصقلي هذا العمل، وهدَّد من أعاد فعله، وخاطب المصريين بأن الصوم والفطر على رؤية الهلال قد زالا، فانقطع بذلك طلب الهلال بمصر طوال حكم الفاطميين[2].

والواقع أن جوهراً الصقلي أراد أن يفرض، باسم المعز الفاطمي، سلطته الدينية والدنيوية على كافة المسلمين، على الرغم من تعارضها مع مبدأ التسامح الديني الذي تعهد باحترامه، فأحدث التغيير الثاني يوم الجمعة (٨ جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ/ ١٩ آذار عام ٩٧٠م)، الذي عبَّر عن ترك المذهب السنِّي في مصر، وعن مظاهر انتقال السيادة إلى الفاطميين. فقد صلَّى جوهر الصقلي مع أنصاره صلاة الجمعة في جامع ابن طولون، فأمر المؤذنين بالأذان «حيَّ على خير العمل»، وهو من مميزات الأذان عند الفاطميين، ولم يتردَّد في منع قراءة «سبح اسم ربك» كما

---

(١) المقريزي: جـ ٤ ص ٣٨.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة ص ٥٨٤. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٦. عماد الدين، إدريس: ص ١٧٠.

أزال التكبير بعد تلك الصلاة، وأمر بالجهر بالبسملة فيها، وزاد القنوت في الركعة الثانية، وأن يذكر في الخطبة «اللهم صلِّ على محمد النبي المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهَّرتهم تطهيراً، اللهم صلِّ على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين»[1]. ثم قطع الخطبة للعباسيين من على منابر مصر، وحذف اسمهم عن السكة، وأحلَّ اسم المعز، وأزال السواد شعار العباسيين، وألبس الخطباء الثياب البيضاء شعار الفاطميين[2].

السياسة الإدارية

كان أول عمل قام به جوهر الصقلي هو تأسيس مدينة جديدة، بناءً على توجيهات المعز تكون مقراً للحكم الفاطمي، ومركزاً لنشر الدعوة الفاطمية، وتُعبِّر عن طموحات الفاطميين، وعدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له لأنهما كانتا مكتظتين بالسنَّة الذين يختلفون مع الفاطميين في المذهب الديني[3].

وضع جوهر الصقلي أساس المدينة التي قرر إنشاءها شمال الفسطاط في (١٧ شعبان/ ٨ تموز)، كما وضع أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز، الذي عُرف باسم القصر الشرقي الكبير، ثم سوَّر تلك المدينة والقصر بسور كبير من اللبن، وسمى المدينة كلها المنصورية نسبة إلى المنصور والد المعز، تقرُّباً إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده، وظلَّت تعرف بذلك حتى قدم المعز إلى مصر بعد أربعة أعوام، فسماها القاهرة المعزية تفاؤلاً بأنها ستقهر الدولة العباسية المنافسة، أو لأنها ستقهر من يخرج على حكم أميرها، وليس بعيداً أن تكون هذه التسمية مستمدة من قول المعز عندما ودَّع جوهراً الصقلي أمام جمع من مشايخ كتامة الذين وجههم معه: «ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»[4]. وأُنشىء بسور القاهرة أربعة أبواب هي: باب النصر، وباب الفتوح، وبابا زويلة[5].

---

(١) ابن خلكان: جـ ١ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠. المقريزي: جـ ١ ص ١١٧، ١٢٠. النويري: جـ ٢٨ ص ١٣٣. ابن أيبك: جـ ٦ ص ١٢٥.

(٢) ابن خلكان: المصدر نفسه: ص ٣٧٩. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٣٢.

(٣) حسن وشرف: ص ٢١٠.

(٤) عماد الدين، إدريس: ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٥) زويلة: اسم لقبيلة بربرية جاءت إلى مصر مع جوهر من إفريقية. القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا جـ ٣ ص ٣٩٧.

ويبدو أن السرعة التي تمَّ خلالها البناء تعود إلى:

- خوف جوهر الصقلي من احتمال تعرُّضه لهجوم القرامطة، فاتخذ الحيطة لنفسه حتى لا يؤخذ على غرَّة.
- إدراكه بأن الخلافة العباسية لن تتأخر عن الإقدام على استرداد مصر، فرأى أن يعمل على التصدي لهذه المحاولات.
- مقاومة أطماع البيزنطيين الذين لا بد أن يلتفتوا إلى مصر لاستردادها، وبخاصة بعد توسعهم في شمال العراق وبلاد الشام.
- أراد أن يجعل من القاهرة مأوى لأنصار الفاطميين المغاربة، وعزلهم عن المصريين لمنع أي احتكاك ينشأ بين الطرفين، كما أن المدينة تتيح لهؤلاء إقامة شعائرهم الدينية بحرية وسط محيط سنِّي.

واضطر جوهر الصقلي إلى الاعتماد على رجال العصر السابق حتى يتعرَّف على النظام الإداري المطبق في مصر، فأقرَّ الأشخاص أنفسهم الذين كانوا يتولون المناصب الإدارية القيادية. فعيَّن جعفراً بن الفرات مشرفاً على القضايا المالية، والقاضي أبا الطاهر الذهلي على القضاء، واحتفظ عبد السميع بن عمر العباسي بمنصبه كخطيب لجامع مصر، لكنه امتنع لبضعة أشهر من اعتلاء المنبر، ومع ذلك، فإنه «لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه»[1]، لإتاحة الفرصة أمام هؤلاء للإلمام بالنظم الإدارية التي كانت تسير عليها الحكومة الأخشيدية» قبل أن يتسلموا المناصب الإدارية، ويحلُّوا محل الموظفين المصريين السنيين. والجدير بالذكر أن سياسة جوهر المستقبلية تقضي بأن تؤول مناصب الدولة كلها إلى أنصاره من المغاربة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية.

السياسة الاقتصادية

نظَّم جوهر الصقلي الحياة الاقتصادية بما يتفق مع ميوله المذهبية. وكانت مصر عندما استولى عليها، تمر بأزمة اقتصادية شديدة، لم تتوقف عن التفاقم منذ عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م)، واستمرت ثلاث سنوات بعد دخوله. فاعتنى، في بداية عهده، بالقضاء على المجاعة، وتوفير الطعام للمصريين، وتحقيق النظام. ووعد المصريين بالتخفيف من الضائقة المعيشية من خلال إسقاط الرسوم الجائرة، فأبطل في عام

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١١٩.

(٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) البراطيل[١]، وولّى سليمان بن عَزَّة الحسبة، فضرب في العام التالي جماعة من الطحانين وطاف بهم في البلد، وجمع القمّاحين وسماسرة الغلال في موضع واحد، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحد، فكان لا يخرج قدح قمح إلا ويقف عليه[٢]، وأعاد الأملاك المحجوزة بصورة غير شرعية إلى أصحابها، ومع ذلك فقد استمرت الضائقة الاقتصادية بسبب قصور مدِّ النيل، مما أدّى إلى اشتداد الوباء، وتفشي الأمراض، وكثرة الموت؛ إلى أن انحلَّ السعر، وأخصبت الأرض، وظهرت بوادر الرخاء في عام (٣٦١هـ/ ٩٧٢م)[٣]. ولما كانت الزراعة عماد الاقتصاد في مصر، فقد اعتنى بتجديد ما تخرَّب من جسور وأقنية وقناطر، وضاعف ضريبة الأرض من ثلاثة دنانير ونصف إلى سبعة دنانير للفدان الواحد، وزاد قيمة قبالة الأرض.

والتفت جوهر الصقلي إلى إصلاح النظام النقدي، فأمر بفتح دار الضرب في الفسطاط التي كانت مقفلة منذ أواخر العهد الأخشيدي، وضرب السكة الحمراء المصنوعة من الذهب الأحمر الجيد العيار، لتعويض السكة القديمة التي فقدت قيمتها منذ عهد بعيد. وقد تسبَّب هذا الإجراء في ازدياد المتاعب الاقتصادية التي تفاقمت نتيجة المجاعة واستمرار الجفاف، فارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً حتى اضطر المحتسب إلى قمع باعة الحبوب والطحانين[٤].

كان المصريون يتعاملون، قبل ذلك، بالنقود الذهبية والفضية والنحاسية، بالإضافة إلى نقود وسيطة مخلَّطة، وكان الدينار المستخدم هو الدينار الراضي الذي ضربه العباسيون، واستخدمت كذلك، دنانير من الفضة المذهَّبة، تُعرف بالدنانير البيضاء، وهي ذات قيمة منخفضة تبلغ قيمة الدينار الواحد منها خمسة عشر درهماً. وبعد أن ضرب جوهر الصقلي الدينار المعزي جعل نقاءه أربعة وعشرين قيراطاً تقريباً وثبَّت قيمته عند خمسة وعشرين درهماً، ومنع التعامل بالدينار الأبيض الذي لم تتعدَّ قيمته عشرة دراهم تبعاً لنظرية العرض والطلب[٥].

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١١٧. البراطيل هي الأموال التي تؤخذ من الولاة والمحتسبين والقضاة والعمال على سبيل الرشوة.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٨. إغاثة الأمة بكشف الغمة: ص ١٤.

(٤) المصدر نفسه: جـ ١ ص ١١٥ ـ ١١٦، ١٢٠.

(٥) المقريزي: النقود الإسلامية ص ٦٥. سيد: ص ٨١ ـ ٨٢.

أثار هذا التدبير النقدي هياج الناس، لأنهم خسروا من قيمة رؤوس أموالهم، فاضطر جوهر الصقلي إلى السماح بإعادة التعامل بالدينار الأبيض، إلا أنه خفَّض قيمته إلى ستة دراهم، مما أدَّى إلى تلاشيه من السوق، وإفلاس بعض الناس، وقد دفعه ذلك إلى إعادة تقدير قيمته، فرفعها إلى ثمانية دراهم في عام (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م)[١].

سياسة جوهر الصقلي الخارجية

العلاقة مع بلاد النوبة

اهتم جوهر الصقلي بتحصين أطراف الدولة كحاجة ضرورية للحماية من الاعتداءات الخارجية، ولاتخاذها قواعد انطلاق للتوسع ومحاربة الأعداء، فكانت العلاقات مع بلاد النوبة، والتمدد الفاطمي باتجاه بلاد الشام، وما نجم عنه من علاقات مع القرامطة والبيزنطيين.

النوبة مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة التي تقع في أعالي النيل[٢]، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام منذ الفتح الإسلامي[٣]، وتدين بالطاعة لوالي مصر، وتؤدي له الجزية السنوية[٤]، غير أن هذه التبعية كانت اسمية في غالب الأحيان تتأثر بما تتعرض له مصر من تيارات مختلفة.

ويبدو أن ملوك النوبة كانوا شديدي التمسك بعقيدهم النصرانية، وكثيراً ما أساءوا إلى المسلمين منذ العهد الأخشيدي، كما كانوا يقومون بغزو الصعيد الأعلى بين وقت وآخر، كلما شعروا بالقوة، من ذلك ما وقع من غارات في عام (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م)، حين أغار ملك النوبة على أسوان، وقتل جمعاً من سكانها، ونهب قراها[٥].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣١. المرجع نفسه: ص ٨٢.

(٢) كانت حدودها الشمالية تمتد حتى أسوان، في حين تمتد حدودها الجنوبية حتى حدود الحبشة، وبلاد بحر الغزال، وتدين هذه المملكة لحكومة وطنية نصرانية.

(٣) من المعروف أن الحملة التي قام بها عبد الله بن سعد، والي مصر، في عام (٣١هـ/ ٦٥٢م) على النوبة، انتهت إلى عقد اتفاق بين مصر وهذه المملكة تضمَّن ألا يعتدي أحدهما على الآخر، وأن تؤدي النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل سنة، مقابل أن تؤدي مصر إلى النوبة قدراً معيناً من منتجاتها. انظر الكندي: الولاة والقضاة ص ١٢ ـ ١٣.

(٤) كانت الجزية التي يدفعها النوبيون تُعرف بـ «البقط». وهذه الكلمة إما أنها مصرية قديمة بمعنى عبد، أو لاتينية بمعنى اتفاق، أو أنها عربية بمعنى قطعة أو فرقة.

(٥) الأنطاكي: ص ٨٧. ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٣٢٦.

اهتم جوهر الصقلي بهذه المملكة القابعة على حدوده الجنوبية والتي أخذت تسبب له من المشكلات ما شغله عن الاهتمام بالقضايا الأكثر حساسية، وبخاصة أن ملك النوبة قيرقي توقَّف عن دفع الجزية السنوية المقررة، في أواخر العهد الأخشيدي مستغلاً حدوث الاضطرابات الداخلية في مصر، فأرسل إليه أحد سكان أسوان، ويدعى عبد الله بن أحمد بن سُلَيْم، حاملاً رسالة يحثه فيها على إعادة دفع البقط، ويدعوه إلى ترك النصرانية واعتناق الإسلام.

ويبدو أن ابن سُلَيْم فشل في مهمته، لكنه انتهز فرصة وجوده في الجنوب، وقام برحلة إلى ربوع مملكة النوبة، زار خلالها المنطقة الجنوبية المعروفة بـ «علوة». غير أن جوهراً الصقلي عزَّز الوجود العسكري هناك، بتقوية الرباطات على حدود بلاده الجنوبية كان منها رباط أسوان على النوبة، ورباط الواحات على البربر والسودان.

التمدد الفاطمي باتجاه بلاد الشام

دوافع التمدد

كانت السيطرة على بلاد الشام تمثل دعامة سياسية وعسكرية لكل نظام حكم مصر، وقد أشرنا من قبل إلى الصراعات بين الأمراء المسلمين للسيطرة على هذا البلد. ولما استقر جوهر الصقلي في مصر، تطلع إلى التمدد باتجاه بلاد الشام للسيطرة عليه وتحقيق ضرورة دينية وسياسية وعسكرية.

فمن حيث الضرورة الدينية، قرَّر جوهر الصقلي نشر الدعوة الفاطمية في بلاد الشام وما والاها من الأقاليم الشرقية في خطوة تمهيدية للقضاء على الخلافة العباسية والسيطرة على العالم الإسلامي، وهو هدف فاطمي عام، كما أشرنا.

ومن حيث الضرورة السياسية، فقد خشي جوهر الصقلي من أن يُقدم العباسيون على الانتقام، بسبب استيلائه على أخصب وأغنى ولايات الخلافة العباسية، وهي مصر، فأراد أن يجعل بلاد الشام حاجزاً بينه وبين تلك الخلافة. والجدير بالذكر أن العباسيين والبويهيين استاؤوا لزوال نفوذهم من مصر، فساعدوا القرامطة، واتفقوا معهم على طرد الفاطميين منها، كما أن الدولة الفاطمية تستطيع بأسطولها الضخم أن تتحكم في معظم البلاد الإفريقية والشامية التي تشرف على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، يضاف إلى ذلك، أن بلاد الشام كانت تابعة للدولة الأخشيدية، ولما آلت مصر إلى الفاطميين، كان من الطبيعي أن يحتل هؤلاء البلاد التابعة لها.

ومن حيث الضرورة العسكرية، يبدو أن جوهراً الصقلي أراد تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي، واتخاذ بلاد الشام قاعدة انطلاق للقضاء على القرامطة الذين اجتاحوا هذه البلاد وبدأوا يناوئون الفاطميين، وأخذوا يهددون مصر، بالإضافة إلى توجيه الحملات على العراق، وهو الهدف الأسمى للفاطميين، والسيطرة على الحجاز والمناطق الجنوبية، كما وقف على رغبة البيزنطيين في أن يرثوا الخلافة العباسية. فقد عبروا الفرات واستولوا على بعض مدن بلاد الشام، فخشي من تقدمهم باتجاه مصر، وإعادة بلاد الشرق الأدنى وشمال إفريقية إلى حكمهم، فعمل على الاستيلاء على هذا البلد ليحول دون زحف البيزنطيين باتجاه الجنوب، مما يخدم القضية الإسلامية العامة، ويحقق بذلك هدفين: استقطاب المسلمين بعامة والمصريين بخاصة، بدليل ما دار بينه وبين أبي الطاهر القاضي، يبرر قتاله الأخشيديين والكافوريين الذين وقفوا عقبة في سبيل الجهاد ضد البيزنطيين، بالإضافة إلى ذلك، فقد تضمَّن عهده إلى المصريين تخليصهم من الضغط البيزنطي[1]، يضاف إلى ذلك، فقد أراد السيطرة على سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية، ويشكل قوة بحرية تواجه القوة البيزنطية في الشمال.

وقبل أن يبدأ جوهر الصقلي في غزو بلاد الشام حرص على القضاء على المقاومة التي أبداها الكافورية والأخشيدية الذين عادوا إلى مصر بعدما حصلوا على الأمان، ونزلوا قرب مصلًّى العيد بالقاهرة في شهر (ذي الحجة ٣٥٨هـ/ تشرين الأول ٩٦٩م)، وكان عددهم يناهز الخمسة آلاف رجل يقودهم أربعة عشر رئيساً، فبادر إلى اعتقال زعمائهم، ونجح في القبض على ثلاثة عشر منهم وسجنهم مدة ستة أشهر، ثم أرسلهم مع الهدية إلى المعز، وهرب الرابع عشر، وهو فاتك الهيكلي، إلى الشام[2].

العمليات العسكرية

معركة الرملة

جهَّز جوهر الصقلي، منذ مطلع عام (٣٥٨هـ/ أواخر ٩٦٩م)، جيشاً كثيفاً، وعيَّن على رأسه مساعده الكتامي جعفر بن فلاح، وأرسله إلى بلاد الشام حيث عقد الحسن بن طغج، والي الشام، معاهدة مع القرامطة. سار جعفر بن فلاح يوم (١٨

---

(١) حسن وشرف: ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ١١٧ ـ ١١٨.

محرم/ ١ كانون الأول) إلى الرملة التي كانت تحت سيطرة الوالي الأخشيدي، ويساعده القائد القرمطي ابن غزوان. ولما وصل إليها، انتهز فرصة الفوضى السائدة فيها، والخلافات الناشبة بين القادة الأخشيديين، فعزل حاميتها، كما كاتب ولاة الأقاليم يدعوهم إلى طاعة المعز، ويعدهم حسن المكافأة[١].

استعد الأخشيديون في بلاد الشام، للتصدي لهذه الحملة، بعد أن وصلت أنباؤها إلى مسامعهم، فخرج الحسن بن طغج من دمشق قاصداً الرملة، وعيَّن القائد شمولا الأخشيدي نائباً عنه أثناء غيابه. ولما وصل إليها هاله ضخامة القوات الفاطمية، فأرسل إلى ولاته في دمشق وبيت المقدس وغيرهما يطلب منهم القدوم لمساعدته، وأقام بظاهر المدينة مدة ثلاثين يوماً ينتظر المدد، غير أن أحداً لم يلبِّ طلب المساعدة[٢]، والراجح أن الخلافات الداخلية كانت وراء هذا الإحجام.

رأت القوات الأخشيدية والقرمطية المتحدة المقيمة على الرملة، عندئذٍ أنها عاجزة عن مقاومة الجيش الفاطمي. ولما نشب القتال بين الطرفين في شهر (ربيع الآخر ٣٦٠/ شباط ٩٧٠م) حلت الهزيمة بقوات الحلفاء، ووقع الحسن بن طغج وابن غزوان، وعدد كبير من جنودهما في الأسر، فبعثهم جعفر بن فلاح مقيدين إلى الفسطاط، وسيَّرهم جوهر الصقلي إلى إفريقية. وسيطر جعفر بن فلاح على الرملة، ونهبت جنوده المدينة[٣]، فخرج أبو بكر النابلسي الزاهد، وكان ينزل الأكواخ من أرض دمشق، وطلب منه أن يمنع رجاله من ذلك، فأجابه جعفر بن فلاح.

الاستيلاء على دمشق

أتاح انتصار الرملة لجعفر بن فلاح أن يتوغل في عمق الأراضي الفلسطينية، وذلك في (شهر رجب ٣٥٩هـ/ شهر أيار٩٧٠م)، فسار إلى طبرية بعد أن استخلف ابنه على مدينة الرملة، واستولى عليها دون مقاومة. ويبدو أن واليها فاتك غلام ملهم، وجد نفسه عاجزاً عن صدِّ القوات الفاطمية، فلم يتعرض لها، وأقيمت الخطبة فيها للمعز[٤].

واصل جعفر بن فلاح زحفه باتجاه دمشق، واستولى في طريقه على حوران والبثينة، وفيها بنو عقيل الموالين للأخشيديين برئاسة شعيب وظالم بن موهوب

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٢٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٢ ـ ١٢٣، ١٢٦.
(٣) المصدر نفسه. الأنطاكي: ص ١٤٣. وقارن بابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٨١.
(٤) المقريزي: المصدر نفسه: ص ١٢٣.

العقيلي، واستطاع أن يضرب قبائل المنطقة ببعضها. فاستمال قبائل فزارة ومرَّة واتفق معهم على محاربة بني عقيل، وانتصر عليهم. وتعقبَّت عساكره فلولهم المنهزمة إلى حمص، ثم عادوا إلى غوطة دمشق، فضايقوا السكان وصادروا أموالهم، ثم نزلوا بظاهر دمشق[١]. وبدت سيطرة الفاطميين واضحة على جنوبي بلاد الشام.

أدى هذا الانتشار الفاطمي، إلى حدوث فوضى في دمشق، وبخاصة بعد فرار الوالي شمولا والتجائه إلى جعفر بن فلاح. وكان سكان دمشق يكرهون البربر، ويكنُّون العداء للفاطميين إلا أنهم خشوا بأس القائد الفاطمي، فأرسلوا إليه جماعة من وجوههم للقائه عند طبرية، لطلب الأمان والموادعة، فأساء الجنود الكتاميون معاملتهم، فاضطروا للعودة إلى دمشق، وصمَّموا على المقاومة والقتال بكل حزم[٢].

ولما نزلت قوات جعفر بن فلاح بظاهر دمشق في (مستهل ذي الحجة ٣٥٩هـ/ تشرين الأول ٩٧٠م) واجهتهم مقاومة مستميتة، إذ صمد السكان بضعة أيام، بمعاونة الجنود الأخشيديين، وتزعَّمهم أبو القاسم إسماعيل بن أبي يعلى العباسي. وجرى قتال أمام أبواب المدينة، لكنهم هُزموا يوم عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة/ ١٤ تشرين الأول)، واضطروا إلى الاستسلام. ودخل جعفر بن فلاح المدينة يوم الجمعة (١٦ ذي الحجة/ ٢٠ تشرين الأول)، وصلَّى بجامع عمر ثم عاد إلى معسكره خارج السور[٣].

وعامل الجنود المغاربة أهل دمشق معاملة قاسية، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، كما نهبوا المدينة وأحرقوا أسواقها، فخرج بعض المشايخ إلى جعفر بن فلاح وطلبوا منه العمل على إصلاح مدينتهم، وإعادتها إلى ما كانت عليه، فقبض عليهم الجنود المغاربة، وسلبوهم ثيابهم، وجرحوا بعضهم. وطلب منهم جعفر بن فلاح «دية من قُتل من رجال أمير المؤمنين، فانصرفوا من عنده وفرضوا المال، فعمَّ الناس البلاء»[٤].

وأساء جعفر بن فلاح معاملة زعماء بلاد الشام وبخاصة دمشق، فقتل بعضهم، وعلَّق رؤوسهم على أبواب المدينة، وصلب بعضاً، وشهَّر ببعض آخر، مما يدل على حقده على أهل السنة من جهة، وقلَّة خبرته في الأمور السياسية من جهة أخرى، لأن

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٢٣. (٢) المصدر نفسه: ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٤، ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٤) المقريزي: المصدر نفسه: ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

هذه المعاملة، أثارت سخط الناس، فبسطوا ألسنتهم بذم المغاربة، وأدَّت إلى عدم الاستقرار. وطالما طلب أهل دمشق منه العفو، والتخفيف، وتضرعوا إليه، فلم يأبه لهم، وأخيراً خاطبهم قائلاً: «ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إليّ ومعكم نساؤكم مكشوفات الشعور، فيتمرغن في التراب بين يدي لطلب العفو»[(١)].

نتج عن هذا السلوك القاسي مع الدمشقيين إلى فرار عدد كبير من أعلامهم وتشنيعهم على الفاطميين والمغاربة، حتى أن الزعيم العربي ظالم بن موهوب العقيلي وغيره، لجأوا إلى القرامطة، وأوغروا صدورهم على الفاطميين، كما التجأ من نجا من الكافورية والأخشيدية إلى الحمدانيين في حلب والموصل، وأصبحوا جميعاً خطراً يهدد جعفر بن فلاح في بلاد الشام.

وصلَّى جعفر بن فلاح بجامع دمشق في شهر (محرم ٣٦٠هـ/ تشرين الثاني ٩٧٠م) فقطع الخطبة للعباسيين، وأقامها للمعز[(٢)]، فكان ذلك إيذاناً بزوال نفوذ هؤلاء من هذه البلاد، وبذلك، تمَّ الاستيلاء على جنوب بلاد الشام، ودان سكانها لسلطان الفاطميين، وتحقَّق الهدف الذي كانت ترمي إليه السياسة الفاطمية من الاستيلاء على مصر واتخاذها جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى بلاد المشرق.

غير أن ما ارتكبه جعفر بن فلاح وأعوانه المغاربة من أعمال العنف والشدَّة والعبث بالأمن والنظام والاستهتار بأرواح الناس كان له أثر سيء في ابتعاد أهل دمشق عنه، وتآمرهم عليه، ومن ثمَّ كانوا لا يدعون أي فرصة تمر دون أن ينتهزوها للخروج على حكم الفاطميين المتعسِّف.

وظنَّ جعفر بن فلاح أن الأمر قد استقر للفاطميين في دمشق، فغادرها عائداً إلى الرملة، فاستغل سكان دمشق غيابه وثاروا بزعامة الشريف أبي القاسم إسماعيل بن أبي يعلى العباسي، الذي جمع أحداث المدينة، وأيَّده عامة الناس، فأبطل الخطبة للمعز الفاطمي، وأعادها للمطيع العباسي، ولبس السواد، شعار العباسيين، فلما علم جعفر بذلك عاد إلى دمشق وقضى على الثورة[(٣)].

بعد فشل الاعتماد على قواهم الذاتية، تطلع أهل دمشق إلى الاستعانة بأطراف خارجية، فتعاونوا مع القرامطة، ومع أفتكين التركي، مما سنفصله لاحقاً.

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه. وقارن بابن الأثير الذي يذكر أن قطع الخطبة للعباسيين وإقامتها للمعز تمَّ في شهر محرم عام ٣٥٩ هـ. جـ ٧ ص ٢٨١.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.

رد الفعل القرمطي

كان من الطبيعي أن يثير نجاح الفاطميين في بلاد الشام ردود فعل القرامطة في البحرين، وتعود أسباب الحرب بين الطرفين إلى:

- تدخُّل المعز في شؤون القرامطة الداخلية، فقد استبد الحسن الأعصم بزعامة القرامطة دون العودة إلى الفاطميين، وكانت سياسة هؤلاء ترمي إلى تعيين رؤساء للقرامطة من بين الأشخاص الموالين لهم. فكتب المعز إلى قائده جعفر بن فلاح، من المغرب، أن «اغلظ عليه (الحسن الأعصم)، ودسَّ لشيعة أبي طاهر وبنيه أن الأمر لولده»، فاطلع الحسن على ذلك، فخلع طاعة المعز في عام (٣٦٠هـ/ ٩٧١م) وخطب للخليفة العباسي المطيع، ودخل في طاعته.
- فرار كثير من زعماء بلاد الشام إلى الحسن الأعصم، واستنجادهم به، ومن بين هؤلاء محمد بن عصودا، أحد منظمي حركة المقاومة في دمشق، وظالم بن موهوب العقيلي، زعيم بني عقيل، وقد قام بدور مهم في حثِّ الحسن الأعصم على الاصطدام بالفاطميين.
- تدخُّل العباسيين والبويهيين في النزاع، بعد أن عجزوا عن صدِّ الفاطميين عن غزو بلاد الشام. وأصبح صاحب إفريقية يهدِّد العاصمة العباسية أكثر فأكثر، الأمر الذي من شأنه أن يدفع القوى المتناحرة داخل دار الخلافة، من بويهيين وحمدانيين وقرامطة، إلى التحالف ضد العدو المشترك.
- عدَّ القرامطة بلاد الشام مجالاً حيوياً لهم منذ القرن الرابع الهجري، وازداد تعلُّقهم بها بعد انتصارهم على الأخشيديين في معركتي طبرية ودمشق، وحصلوا منهم على جزية سنوية، لذلك نظروا إلى الفاطميين على أنهم دخلاء، واصطدمت مصالحهم مع مصالح هؤلاء في الشرق(١).

وكان الذي فجَّر الأوضاع بين الطرفين، امتناع جعفر بن فلاح عن أداء الجزية المشار إليها إلى القرامطة(٢)، فكان لهذه السياسة الأثر السيء في نفس الحسن الأعصم الذي شعر بأنه حُرم من الأموال الطائلة التي كانت تدرها عليه وصايته على تلك البلاد، فنشبت الحرب بينهما، وكانت بلاد الشام مسرحاً لها.

---

(١) الصابىء: جـ ١ ص ٢٢٦. حسن وشرف: ص ٩١ ـ ٩٣.

(٢) التميمي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد، المعروف بابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٧٤.

انتهز الحسن الأعصم فرصة تدخل المعز في شؤونه الداخلية، حيث أثار أبناء أبي طاهر سليمان على الجماعة القرمطية الحاكمة، فطرد كل من اشتبه في إخلاصه لسياسته من أبناء أبي سعيد وأنصارهم الذين يؤمنون بأحقية الفاطميين، وأعدَّ المجتمع القرمطي لصراع عنيف مع الفاطميين.

وحتى يقوِّي موقفه، استعان بقوى خارجية معروفة بعدائها لهم منها الخلافة العباسية. فذهب إلى الكوفة، ووجَّه منها كتاباً إلى بغداد يعرض فيه التحالف ضد الفاطميين، ويطلب إمداده بالمال والرجال، على أن يولِّيه الخليفة العباسي بلاد الشام ومصر ليخرج المعز منها، ويحكمها باسمه.

ويبدو أن الخليفة العباسي المطيع، على الرغم من توافق مصلحته مع مصلحة الحسن الأعصم، إلا أنه امتنع عن إجابة طلبه وقال: «كلهم قرامطة، وعلى دين واحد، فأما المصريين، يعني بني عبيد، فأماتوا السنن، وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء يعني القرامطة، فقتلوا الحاج، وقلعوا الحجر الأسود»[1]. والراجح أن الخليفة لم يمانع في إمداد الحسن الأعصم بالمال والسلاح، لكنه امتنع عن توليته بلاد الشام ومصر، بدليل أنه لم يعارض ما أقدم عليه عز الدولة بختيار البويهي من إمداده بالمال[2].

بعد هذا الإحجام من قبل الخلافة العباسية، أرسل الحسن الأعصم، أبا طريف عدي بن محمد بن الغمر، إلى عز الدولة بختيار يطلب منه المساعدة على المغاربة بالمال والرجال، فاستجاب عز الدولة لطلبه، ولم يتأخر عن إمداده بالمال والسلاح، وأمر أمير الموصل ابن حمدان بإمداده بالمال أيضاً «وبمن عنده من الأخشيدية الذين كانوا في مصر وفلسطين، وصاروا إليه لما انهزموا من المغاربة»[3].

رحَّب الحمدانيون بهذا التحالف الجديد لصداقتهم القديمة مع القرامطة، وخشوا من اقتراب الفاطميين من بلادهم، فأمدوا الحسن الأعصم بالمال والرجال، وسمحوا لجنودهم بالتطوع في جيشه، وشجعوا الكافورية والأخشيدية على الانضواء تحت لوائه[4].

وهكذا تعاونت القوى في بلاد الشام على اختلاف انتماءاتها السياسية والمذهبية، وأضحى الحسن الأعصم من القوة ما مكَّنه من الاصطدام بالفاطميين في

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٧٤.
(٢) الصابيء: جـ ١ ص ٢٢٦.
(٣) المصدر نفسه. المقريزي: جـ ١ ص ١٨٧.
(٤) المقريزي: المصدر نفسه.

الدكة، الواقعة على نهر يزيد، على مقربة من دمشق، والانتصار عليهم، وقُتل جعفر بن فلاح، الذي اتصف بالتهور والاستخفاف، وذلك في (شهر ذي القعدة عام ٣٦٠هـ/ شهر آب ٩٧١م)[١]، واستولى على دمشق، وأصبح شمال بلاد الشام في قبضته، ثم تطلع نحو الرملة ليتم له الاستيلاء على كامل بلاد الشام، فاستولى الفزع على الجنود الفاطميين المكلفين بحماية الرملة، وكانوا بقيادة سعادة بن حيان، فانسحبوا منها إلى ميناء يافا بفلسطين، وانضموا إلى وحدات الأسطول الفاطمي[٢].

أدى ذلك إلى فشل مساعي الفاطميين للتسرب إلى قلب العالم الإسلامي الشرقي، وعادت بلادالشام إلى الحكم القرمطي، بل العباسي، باستثناء يافا، ومُنِع الكتاميون من التمركز فيها، وأضحى الطريق مفتوحاً أمام الحسن الأعصم إلى مصر. ومنذ ذلك الحين سيتحول الصراع الذي من المفروض أن يتسم بالطابع العباسي ـ الفاطمي، إلى مواجهة بين جوهر الصقلي والحسن الأعصم الذي أضحى بفضل انتصاره في دمشق أشدَّ مراساً[٣].

موقف المعز من التطورات السلبية في بلاد الشام

كان المعز يراقب، من عاصمته المنصورية في إفريقية، تطور الأوضاع في بلاد الشام التي سارت حتى الآن في غير مصلحته، وخشي أن تؤول الإهانة التي ألحقها القرامطة بجيوشه إلى المسِّ بكرامته بوصفه إمام الطائفة الإسماعيلية، لا سيما وقد أصبحوا يشكلون عقبة في طريقه للوصول إلى بغداد، بالإضافة إلى تهديدهم لمصر. واعتقد بأن جوهراً الصقلي يستطيع، بما توفر له من قوات، وبما اتصف به من الحذر، أن يتصدَّى لزحفهم ومع ذلك، رأى أن خروجه من إفريقية بات ضرورياً في ضوء التطورات العسكرية السلبية، وموقفه السياسي والمذهبي تجاه بني العباس ليكون قريباً من الأحداث ويوجه السياسية الفاطمية.

جوهر الصقلي يتصدَّى لزحف الحملة

في الوقت الذي كان فيه المعز يستعد للخروج من إفريقية، ويسعى إلى اختيار خليفة له في المغرب، كان جوهر الصقلي يتأهب لمواجهة القرامطة الزاحفين إلى

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨. الصابىء: جـ ١ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) المصدران نفساهما. ابن القلانسي: ص ٣ ـ ٤. عماد الدين، إدريس: ص ١٨٢.
(٣) الدشراوي: ص ٣٩٤.

مصر. وبما أنه كان أشد حذراً من مساعده جعفر بن فلاح، وأكثر اطلاعاً على أمور الحرب، بفضل ما اكتسبه من خبرات عسكرية، فقد اتبع خطة عسكرية تقضي بالتحصن داخل مدينة القاهرة، وشن الحرب من داخل الخندق الذي حفره أمام الأسوار الشمالية والشرقية، معتقداً بأن وضع جنوده الكتاميين من أبناء الجبال سيكون أفضل أمام جنود العدو المتمرسين على التحرك والقتال في الصحراء[١].

رأى الحسن الأعصم، بعد أن دخلت قواته بلاد الشام وسيطرت عليها، أن ينتهج سياسة مرنة تنطوي على التودُّد واكتساب ولاء السكان، فأمَّن أهل دمشق، وأقام الدعوة في مساجدها للخليفة العباسي المطيع، وأمر بحذف اسم المعز من الخطبة ولعنه، وقد لقي عمله هذا ترحيباً من أهل السنَّة وبخاصة المتطرفين في عدائهم للشيعة[٢].

كان على الحسن الأعصم أن يتابع زحفه إلى مصر ليقضي على الحكم الفاطمي الذي لم يكن قد استقر بعد، فترك قائده أبا المنجا، وحليفه ظالماً بن موهوب العقيلي، على حصار يافا، وسار باتجاه وادي النيل[٣] في (أواخر عام ٣٦٠هـ/ خريف عام ٩٧١م) معززاً بعناصر من القبائل العربية، فاجتاح مناطق وادي النيل السفلى وسيطر على القلزم (السويس) في (شهر ذي الحجة/ شهر تشرين الأول) ثم اتجه شمالاً، فوصل إلى الفرما، مفتاح الديار المصرية من جهة الشرق، واستولى عليها في (شهر محرم ٣٦١هـ/ تشرين الثاني ٩٧١م)، تمهيداً لمهاجمة القاهرة من الجنوب والشرق[٤].

كان من أثر هذا الهجوم على مصر، أن نبذت بعض المدن طاعة الفاطميين، فثارت تنيس على واليها الفاطمي، ونادت بطاعة القرامطة[٥].

ولم تلبث القوات القرمطية أن وصلت إلى عين شمس، وهدَّدت القاهرة، وذلك يوم الجمعة (غرة ربيع الأول ٣٦١هـ/ ٢٢ كانون الأول ٩٧١م)، وألقت بمنشورات في جامع عمرو بالفسطاط تحضُّ المصريين على الثورة على جوهر الصقلي.

تجاه هذا الخطر الذي وصل إلى أبواب القاهرة، تصرَّف جوهر الصقلي على محورين:

---

(١) الدشراوي: ص ٣٩٥.
(٢) المقريزي: جـ ١ ص ١٨٨. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٧٤.
(٣) المقريزي: المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٢٩ ـ ١٣٠. النويري: جـ ٢٨ ص ١٣٧.
(٥) النويري: المصدر نفسه.

الأول: عسكري: فدعا أنصاره إلى الاستبسال في الدفاع عن العاصمة، كما حثَّ المصريين على مساندته، وتحصَّن في الخندق الحائل دون دخول الغزاة إلى المدينة من الجهة الشرقية.

الثاني: دعائي: فأرسل جماعة اندمجوا في جند حسن الأعصم، وتظاهروا بالسخط عليه وعلى الفاطميين، وبالرغبة الملحة في نقل الحكم من الفاطميين إلى القرامطة. ونجح هؤلاء في إحداث انشقاق بين صفوفه، فانتشرت الفوضى بين أتباعه، بدليل أنه في الوقت الذي كان يحارب فيه جوهراً على أبواب القاهرة، كان أنصاره من بني عقيل وبني طيء ينهبون أثقاله(١).

وجرى بين الطرفين قتال متكافىء طوال يوم السبت، ونشبت المعركة الحاسمة يوم الأحد أمام الخندق، وانتهت بهزيمة القرامطة، فتقهقر الحسن الأعصم وانسحب إلى بلاد الشام، فنزل الرملة، ومنها اتجه إلى يافا، وحاصرها، قبل أن ينسحب مع جنده عائدين إلى الأحساء(٢).

أعاد جوهر الصقلي، بعد هذا الانتصار، سلطته على الديار المصرية. فوجَّه فرقة عسكرية لقتال أهل تنيس، وأردفها بفرقة بحرية سارت في النيل باتجاه الصعيد، والتحقت بالجنود القادمين من البر، لقمع ثورة عبد العزيز بن أهيج الكلابي الذي نبذ طاعة الفاطميين وعهد إلى مساعده سعادة بن حيان بمهمة استرجاع الرملة، وتركيز حامية جديدة فيها(٣). أما وحدات الأسطول التي قدمت من إفريقية بقيادة أمير البحر الحسن بن عمار، لنجدة الجيش الفاطمي في مصر، فقد أبحرت إلى بلاد الشام لاستعادة يافا، إلا أنها فشلت في تحقيق مهمتها بعدما ألحق بها أسطول القرامطة الهزيمة(٤).

وعلى الرغم من إعادة بسط سلطته على مصر التي زعزعها الخطر القرمطي، فقد فشل جوهر الصقلي في استعادة بلاد الشام التي أضحت تحت سيطرة رؤساء القبائل العربية من بني عقيل وبني طيء.

العلاقة مع البيزنطيين

واجه جعفر بن فلاح، بعد استيلائه على القسم الجنوبي من بلاد الشام، خطراً

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٣٠.
(٢) المصدر نفسه. الصابىء: جـ ١ ص ٢٢٩.
(٣) المقريزي: جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١. عماد الدين، إدريس: ص ١٨٤.
(٤) الصابىء: جـ ١ ص ٢٢٩. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٠٠. المقريزي المصدر نفسه: النويري: جـ ٢٨ ص ١٣٩.

آخر تمثل بالتوسع البيزنطي باتجاه شمال الشام، وكان لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه أوضاع الحمدانيين المتردية. إذ أن استيلاءه على دمشق، وقضاءه على الاضطرابات التي أثارها سكان المدينة، لم يؤدِّ إلى بسط سلطان الفاطميين على جميع أرجاء بلاد الشام، وبخاصة القسم الشمالي منها، حيث أسس الحمدانيون دولة لهم في حلب. غير أن هؤلاء لم يكونوا آنذاك في وضع يسمح لهم بمناوأة الفاطميين والوقوف في وجههم. فقد ضعفت دولتهم بسبب ما جرى من النزاعات الأسرية، وعصيان غلمانهم، وتعرُّضهم لضغط البيزنطيين الذين تطلعوا إلى الاستيلاء على حلب.

استغل الأمبراطور نقفور فوقاس (٣٥٢ـ ٣٥٨هـ/ ٩٦٣ـ ٩٦٩م)، هذه الأوضاع القلقة، وقرَّر أن يسترد ما فقدته الأمبراطورية البيزنطية من ممتلكات، بما في ذلك فلسطين، وسرى في القسطنطينية آنذاك، روح الحرب الصليبية[١].

تقدم نقفور بجيوشه إلى مناطق الحدود في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) دون أن يصادف مقاومة تُذكر، واستولى على معرة مصرين[٢]، وأحرق معرة النعمان[٣]، ودخل كفرطاب[٤] وشيزر[٥] وحماة وحمص وعِرقة[٦]، وأخذ ربض طرابلس، ثم عاد إلى أنطاكية، فاسترضاه أهلها بمبلغ كبير من المال، وظل في بلاد الشام زهاء شهرين يحرق المساجد ويخرِّب القرى، وأسر عدداً كبيراً من الناس. ويبدو أن نفاد المؤن، والقوت، وصعوبة المسير بالطرق بسبب الأمطار، أرغمه على الارتداد، إنما جدَّد حصن بغراس، ووضع فيه حامية عسكرية بقيادة ميخائيل بورتز، المعروف في المصادر العربية باسم البرجي[٧].

---

(١) Canard: Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie. I p. 830.

(٢) معرة مصرين: بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها، بينهما نحو خمسة فراسخ. الحموي جـ ٥ ص ١٥٥.

(٣) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. المصدر نفسه ص ١٥٦.

(٤) كفرطاب: بلدة بين المعرَّة ومدينة حلب. المصدر نفسه: جـ ٤ ص٤٧٠.

(٥) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرَّة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة وسط المدينة، أوله من جبل لبنان، تُعدُّ في كورة حمص وهي قديمة. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٣٨٣.

(٦) عِرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي آخر عمل دمشق، وهي في سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة لها. المصدر نفسه جـ ٤ ص ١٠٩.

(٧) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦. ابن العديم: جـ ١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩. وبغراس: مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ. الحموي جـ ١ ص ٤٦٧.

والواضح أن ما اتخذه نقفور من إجراءات سياسية وعسكرية، إنما هدف بها الاستيلاء على أنطاكية، فجهَّز جيشاً قوامه أربعين ألفاً، عهد بقيادته إلى ابن أخيه بطرس فوقاس، المعروف في المصادر العربية باسم الطربازي، وعهد إليه بأن يحمي الأماكن التي قرَّر الاستيلاء عليها. وما جرى من الأحداث الداخلية في أنطاكية[١] أدى إلى ضعف قوة الدفاع عن المدينة. وبفضل مساعدة النصارى فيها، والنصارى في حصن بغراس، استطاع البرجي أن يستولي على جانب من سور أنطاكية، ولم يلبث أن استولى على المدينة بالاشتراك مع بطرس فوقاس وذلك في شهر (ذي الحجة ٣٥٨هـ/ تشرين الأول ٩٦٩م)، وارتكب الجنود البيزنطيون الوحشية حين قتلوا السكان وسبوا من بقي على قيد الحياة، وكانوا يزيدون على عشرين ألفاً[٢].

كان سقوط أنطاكية نذيراً بأن سقوط بلاد الشام في أيدي البيزنطيين أضحى وشيك الوقوع، حيث تابعت القوات البيزنطية تقدمها جنوباً حتى وصلت إلى حلب التي كانت تشهد نزاعاً داخلياً بين أبي المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة، وقرغويه الحاجب[٣]، وهرع بطرس فوقاس لمساعدة قرغويه وغلامه بكجور، ولما علم سعد الدولة بقدوم البيزنطيين انسحب إلى معرة النعمان.

والواقع أن البيزنطيين اتخذوا من مساعدة قرغويه ذريعة لمهاجمة المدينة طمعاً في الاستيلاء عليها، لذلك حاصروها، وقاومهم قرغويه مدة شهر تقريباً، قبل أن يستولوا عليها. وتلى ذلك إجراء مفاوضات بين الطرفين انتهت بعقد معاهدة في (صفر ٣٥٩هـ/ كانون الثاني ٩٧٠م)، حيث جرى الاعتراف فيها بالسيادة البيزنطية على إمارة حلب[٤].

والواضح أن ما انطوت عليه هذه المعاهدة من حقوق لبيزنطية، جعلتها أشبه ما تكون بمعاهدة حماية، إذ أضحى أمير حلب مرتبطاً بالأمبراطور البيزنطي بالتزامات عسكرية وسياسية ومالية بالغة الشدة. وحرص البيزنطيون على ألا يعود الحمدانيون مرة أخرى إلى حكم حلب، وألا يقبل الحلبيون أميراً عليهم من بلاد الإسلام، وحصر حق تنصيب أمير يثقون بولائه لبيزنطية، ودخل في حوزة

---

(١) كان المسلمون قد أهملوا الدفاع عن المدينة، فضيعوا سورها، وأهملوا حراستها. ابن العديم: جـ ١ ص ١٥١.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٥١ ـ ١٥٢. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٩٠. Canard: I. p. 832.

(٣) انظر فيما يتعلق بهذا النزاع: المصدران نفساهما: ص ١٥٠ ـ ١٥١، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٤) انظر نص المعاهدة عند ابن العديم: المصدر نفسه: ص ١٥٢ ـ ١٥٧.

الأمبراطورية ما يقع إلى الغرب من حلب وشمالها من إقليم العواصم، فصارت حدود بيزنطية، تتاخم حدود بلاد الشام الوسطى ومصر[1].

والواقع أن ما حدث بين المسلمين آنذاك من نزاعات، هيَّأ للبيزنطيين الفرصة لهذا التوسع، ولم يشك المسلمون في أنهم سوف يستولون على جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر «لخلو الجميع من مانع»[2].

غير أن نقفور فوقاس لقي مصرعه في (٢٧ محرم ٣٥٩هـ/ ١١ كانون الأول ٩٦٩م) وخلفه الأمبراطور حنا زمسكيس (٣٥٩ـ ٣٧٧هـ/ ٩٦٩ـ ٩٧٦م)، الذي سار على خطى سلفه.

رأى جعفر بن فلاح، بعد أن استقرت الأوضاع في بلاد الشام، أن استيلاء البيزنطيين على أنطاكية وغزوهم مدن الشام الشمالية والساحلية، ومحاولتهم الاستيلاء على حلب وغيرها، يهدِّد الحكم الفاطمي في هذه المناطق، ولا بد له من طرد الحاميات البيزنطية التي تحتل أنطاكية وسائر الأماكن الحصينة في أعالي بلاد الشام وإقليم الساحل، وإخراجهم إلى ما وراء جبال طوروس، وينبغي أيضاً إلزام أمراء حلب بالاعتراف بالسيادة الفاطمية، وبذلك يخضع لحكم الفاطميين الجهات الممتدة من وادي النيل إلى كيليكية. لذلك جهَّز جيشاً كبيراً ضمَّ إليه خيرة جنوده، وجنوداً من أعمال دمشق وفلسطين وطبرية، وأسند قيادته إلى غلامه فتوح، وأرسله لمهاجمة أنطاكية واستعادتها من أيدي البيزنطيين، فحاصر المدينة في شهر (ربيع الأول ٣٦٠هـ/ كانون الثاني ٩٧١م) غير أنه لم يتمكَّن من الاستيلاء عليها، على الرغم من أن زمسكيساً كان آنذاك منهمكاً في قتال البلغار. ولما هاجم القرامطة دمشق بقيادة الحسن الأعصم، استدعى جعفر بن فلاح غلامه فتوحاً ومن معه من الجند لقتال القرامطة، وبذلك ارتفع الحصار عن أنطاكية[3].

انتقال المعز إلى مصر

ظل القرامطة يشكلون قوة يُخشى بأسها على النفوذ الفاطمي في مصر وبلاد الشام، على الرغم من انسحاب قواتهم منهما، مما كان له تأثير بالغ في نفس جوهر الصقلي، الأمر الذي دفعه إلى الكتابة، إلى المعز، يدعوه للحضور بنفسه إلى مصر، لتسلم زمام الحكم فيها.

---

(١) Canard: I. p. 837.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٩٣.

(٣) الأنطاكي: ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

والحقيقة أن الخطر الذي ظلَّ يمثِّله الزعيم القرمطي، والحرص على الحفاظ على هيبة الدولة الفاطمية، والتطلعات الفاطمية في القضاء على الخلافة العباسية، دفع المعز إلى تحويل مقر الإمامة، على وجه السرعة، إلى الديار المصرية، ومغادرة إفريقية نهائياً، ولا شك بأنه كان قد اتخذ هذا القرار الحاسم منذ أن استولى جوهر الصقلي على مصر، فعهد إلى خادمه جوذر بمهمة التوجه إلى المهدية «لإحكام ما بالخزائن التي بها، وشدِّ الأمتعة إلى الشرق»[1].

على أن اختيار نائب قادر على حكم إفريقية، ومؤهل لعدم الإخلال بواجب الوفاء للأسرة الفاطمية، قد طغى على تفكيره في هذه الآونة، وكان جوذر مؤهلاً لتولي هذا المنصب، لكن المعز استبعد اختيار صقلبي حتى ولو كان يشغل منصباً رفيعاً في الدولة، على الرغم من إخلاص الصقالبة وتفانيهم في خدمة الدولة، ذلك أن هذه العلاقة التي تربط هؤلاء بالفاطميين كانت تجبرهم على العيش داخل القصور بعيدين عن الاختلاط بأهل البلاد الذين كانوا غرباء عنهم، بالإضافة إلى أنه من غير المتوقع أن يلقى هؤلاء، التأييد من جانب العرب والبربر، وبخاصة الكتاميين والصنهاجيين الذين يرتكز عليهم النظام القائم.

وتشير المصادر إلى أن المعز استدعى، قبل رحيله، جعفر بن علي بن حمدون الزناتي المعروف بابن الأندلسي، صاحب مدينة المسيلة وإقليم الزاب وأبرز زعماء زناتة، وعرض عليه أن يتولى أمور إفريقية على أن يكون تابعاً للفاطميين في مصر ونائباً عنهم، ويبدو أن هذا الرجل كان ذا نزعات استقلالية فاشترط أن:

١ ـ يترك المعز أحد أولاده أو إخوته يجلس معه في القصر.

٢ ـ يكون إميراً مستقلاً يتصرف بما يراه.

٣ ـ له الحق في تولية القضاء بنفسه، ولا يرسل أي مال إلى مصر.

فرفض المعز تلك الشروط، ورأى فيها بوادر انفصال ولاية إفريقية والمغرب عن الفاطميين، والاستقلال بهذه البلاد، ويتعارض ذلك مع السياسة الفاطمية العامة، وأجابه غاضباً «يا جعفر عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي شريكاً في أمري، واستبددت بالأعمال والأموال دوني، فقم فقد أخطأت حظك، وما أصبت رشدك»[2].

واستدعى المعز، بعد ذلك، بُلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وهو أحد

---

(١) سيرة جوذر: ص ١٠٨ ـ ١٠٩، ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة صاحب القاهرة ص ٤٤. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٨٨. اتعاظ الحنفا: جـ ١ ص ٩٩.

زعماء صنهاجة الموالين للفاطميين، وعرض عليه الولاية فقبلها بشروط المعز، مبدياً تفكيراً سياسياً نيِّراً في الحوار الذي دار بينه وبين المعز، كما يدل تصرفه على دهاء وكياسة. ولعله كان يتحين الفرصة للوصول إلى غاية ينشدها، فأخذ يجامل المعز ويخادعه. وتصنَّع الخوف من هذه المسؤولية الثقيلة التي سوف تلقى على عاتقه، وهي ولاية إفريقية والمغرب، بكل ما فيها من فوضى سياسية واضطراب اجتماعي وتناقض مذهبي، مما يدل على أن الوجود الفاطمي في شمال إفريقية كان لا يزال مزعزعاً، كما يعدُّ هذا الاختيار طبيعياً في بلاد لم تنتصر فيها القضية الفاطمية، ولم تتركَّز إلا بفضل دعم البربر من أبناء كتامة وصنهاجة وزناتة. وإذا كان الزناتيون قد ابتعدوا عن النهج الفاطمي، وبخاصة أثناء قتال القبائل الخارجة التي انضمت إلى ثورة أبي يزيد، فإن الصنهاجيين الذين ما زالت قوتهم سليمة، وعصبيتهم شديدة لبسط سلطانهم على إفريقية لحساب الفاطميين، والتصدي للزناتيين في المغرب الأوسط، ويبدو أنهم تطلعوا إلى خلافة هؤلاء وتأسيس دولة مستقلة في إفريقية. وأدرك المعز هذا الطموح في نفوسهم، وخاطب بُلُكين المعز بهذه العبارة الغزيرة المعنى: «يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ﷺ، ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي، وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتني يا مولاي بغير سيف ولا رمح»[(١)].

استحسن المعز جواب بُلُكين بن زيري، ورأى أنه يخدم مصالح الفاطميين في المغرب، وشكره على قوله هذا وعهد إليه بإمارة إفريقية والمغرب، ونزع سيفه وقلَّده إياه بيده، وسمَّاه اسماً عربياً هو يوسف، وكناه كنية عسكرية هي أبو الفتوح، ومنحه لقباً ملكياً هو سيف الدولة، وأهداه أجمل خيوله، وألبسه زي قائد الجند، وكتب له سجلاً وأمر الناس بالسمع والطاعة له[(٢)]. والراجح أن الشق الأول من الرواية هو مستبعد، فمن غير المعقول أن يفكِّر المعز بعرض الولاية على زعيم زناتي هو بطبعه عدو للصنهاجيين[(٣)].

على أن المعز وإن كان قد اختار بُلكين بن زيري لتولي شؤون شمال إفريقية، فإنه خشي من أن يستقلَّ بالبلاد بعد رحيله إلى مصر، يساعده في ذلك بُعد المسافة، والصحراء الشاسعة بين مصر وإفريقية، وقد أدرك هذا الطموح في نفوس

---

(١) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٨٩.

(٢) النويري: جـ ٢٤ ص ١٦٨. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٣١٧. ابن أبي دينار: ص ٧٤. ابن الخطيب: أعمال الإعلام: قسم ٣ ص٦٥.

(٣) مؤنس: جـ ١ ص ٥٦٧.

الصنهاجيين واعترف بأن هذا «هو نهاية ما يفعله من ترك دياره»[1].

ولا شك بأن هذا هو اعتراف ضمني منه بالسيادة الإقليمية لأهل إفريقية والمغرب، إذ كان المعز يعلم مسبقاً ما سيؤول إليه أمر شمال إفريقية بعد رحيله إلى مصر، وأن المسألة لم تعد أكثر من كونها مسألة وقت فقط، فبنو زيري سوف يستقلون بهذه المنطقة عن الفاطميين، كما كان يرى، ولهذا اتخذ بعض الإجراءات التي من شأنها إثارة الفرقة والتنافس بين القبائل حتى تظل في حروب دائمة، فلا تفكر في الخروج على طاعة الفاطميين بمصر. فرحَّب بالتباعد الذي حصل بين صنهاجة وزناتة، كما أراد أن يكبِّل الكتاميين، وهم أعوانه المخلصين، فعيَّن عليهم رجالاً يأخذون صدقاتهم ومراعيهم، ويحفظونها عليهم في بلادهم، ليأخذها منهم عند الحاجة. فرفض شيوخ كتامة هذا التدبير وأجابوه: «كيف تؤدي كتامة الجزية، ويصير عليها في الديوان ضريبة، وقد أعزَّها الله قديماً بالإسلام، وحديثاً معكم بالإيمان، وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب»[2].

ونتيجة لهذا الرفض تحوَّل المعز عن جوهر الموضوع إلى اختبار إخلاص الكتاميين للفاطميين بعد رحيله إلى مصر وأجابهم: «بارك الله فيكم، فهكذا أريد أن تكونوا، وإنما أردت أن أختبركم وأنظر كيف أنتم بعدي إذا سرنا عنكم إلى مصر، تقبلون هذا، وتدخلون تحته ممن يرومه منكم».

ولجأ المعز إلى وسيلة أخرى تقضي بتشرذم القوى في المغرب الإسلامي لإضعافها، فقسَّم البلاد بين عدة قوى سياسية. فجعل إمارة صقلية وراثية في بني أبي الحسن الكلبي، وعيَّن عليها أحد ثقاته وهو الحسن بن علي ليكون أسطوله أداة طيعة في يد الفاطميين يهددون به بني زيري متى شاؤوا، وعيَّن على طرابلس الغرب عبد الله بن يخلف الكتامي، حتى يكون شوكة في ظهر صنهاجة، ولم يجعل لبُلُكين عليه ولاية، ولا على صاحب صقلية، كما أوجد رقابة على الأموال في إفريقية، فجعل زيادة الله بن القديم على الجباية، وحسين بن خلف الموصدي في إدارة الشؤون المالية[3].

وهكذا وضع المعز، بجانب بُلُكين بن زيري، رجالاً لهم نفوذ في الدولة ليكونوا عيوناً عليه، وأعواناً في الوقت نفسه، وذلك خشية من أن يستقلَّ ببلاد المغرب الإسلامي بعامة.

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٠٤. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٨٨.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٩.

ولما اطمأن المعز إلى استقرار الأوضاع في شمال إفريقية، خرج من المنصُورية يوم الاثنين (٢١ شعبان ٣٦١هـ/ ٧ حزيران ٩٧٢م) حاملاً معه كل أمواله وذخائره، وجثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الحكم قبله، ليدفنها في مصر، مما يدل على أنه ولَّى ظهره لشمال إفريقية، وأراد الاستقرار نهائياً في مصر، وصحبه عدد كبير من أتباعه ورجال دولته من بينهم أولاده وإخوته، وأعمامه، وفي ركابه خمسمائة حِمل من الأموال، وشيَّعه بُلُكين حتى قابس، ثم عاد إلى المنصورية[١]. وكانت وصيته الأخيرة لنائبه قبل أن يغادر سردانية القريبة من القيروان تتضمن المبادىء الأساسية التي يجب أن تقوم عليها السياسة الداخلية لحكومته في إفريقية والمغرب، والتي حصرها في ثلاث:

١ ـ عدم رفع الجباية عن أهل البادية، والسيف عن البربر.
٢ ـ عدم تولية أحد من إخوته وبني عمه، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منه.
٣ ـ معاملة أهل الحاضرة خيراً[٢].

إن قراءة متأنية لمضمون الوصية توضح لنا النقاط التالية:

- إن المقصود بالبند الأول هم الزناتيون وغيرهم من القبائل البربرية المعادين للدولة الفاطمية. وكانت سياسة هذه الدولة تقوم على محاربتهم وإثقالهم بالجبايات حتى يظلوا في فقر فلا يفكروا في الثورة عليها، بدليل أنه عهد إليه أن يشرع في غزو زناتة في المغرب الأقصى لحسم نزاعه معهم والقضاء على النفوذ الأموي فيه، ولا يعقل أن يشمل ذلك الكتاميين والصنهاجيين، وهم بربر، لأن الدولة قامت على أكتافهم[٣].
- أما المقصود بالبند الثاني فهو خشية المعز من النزاعات الأسرية داخل قبيلة صنهاجة، فتذهب ريحهم، وتتدهور الدولة، وهذا دليل على بُعد نظر المعز وحسن سياسته.
- أما الأمر الثالث فهو مستبعد لأن الحضر، وهم أهل المدن، لم يكونوا قط من أنصار الفاطميين، لأنهم ظلوا سنوات يناوئون المذهب الإسماعيلي، طول مدة وجود الفاطميين في شمال إفريقية، بدليل اعتماد الفاطميين على البربر وبخاصة كتامة[٤].

---

(١) سيرة جوذر: ص ١٤٢. عماد الدين، إدريس: ص ١٨٤ ـ ١٨٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٤.
(٢) ابن خلكان: جـ ١ ص ٢٨٦.
(٣) مؤنس: جـ ١ ص ٥٦٧.
(٤) المرجع نفسه.

واصل المعز رحلته باتجاه مصر، مقر حكمه الجديد، حيث ستبدأ منذ ذلك التاريخ مرحلة أخرى من مراحل تاريخ الفاطميين ، بعدما طويت الصفحة الإفريقية من تاريخهم. فمر ببرقة، ووصل إلى الإسكندرية يوم السبت (٢٣ شعبان ٣٦٢هـ/ ٢٩ أيار ٩٧٣م)، فاستقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم قاضي مصر أبو الطاهر محمد، وسلموا عليه، وجلس عند منارة الإسكندرية وألقى خطبة قال فيها: «إنه لم يدخل مصر طمعاً في زيادة ملكه، ولا المال، وإنما أراد إقامة الحق، وحماية الحجاج، والجهاد ضد الكفار، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة، وأن يعمل بما أمر به جدّه رسول الله ﷺ». ثم وعظ الحاضرين وخلع على القاضي وبعض رفاقه[١].

ثم غادر المعز الإسكندرية في أواخر شعبان قاصداً القاهرة، فوصل إليها يوم الثلاثاء في (٧ رمضان/ ١١ حزيران)، فاستقبله جوهر خارجها، وصحبه إلى القصر الشرقي الذي بناه له، واستقبل في اليوم التالي أشراف مصر وأعيانها وقضاتها، ورجال العلم فيها، فهنأوه، واحتفوا به، وأخذ جوهر بعد ذلك يقدم إليه الناس طائفة بعد أخرى، وسمى المعز المنصورية، القاهرة، تفاؤلاً بأنها ستقهر العباسيين[٢]، وأضحت مصر منذ ذلك الحين دار الحكم الفاطمي بعدما كانت إمارة تابعة للفاطميين في شمال إفريقية، وغدت القاهرة بدل المنصورية في إفريقية مركز الدولة الفاطمية.

سياسة المعز العامة في مصر

موقفه من أهل السنَّة

استمدت الدولة الفاطمية قوتها من قدرتها على الاستفادة من إمكانات الأفراد المنتمين إليها من مختلف التكتلات العنصرية والاجتماعية التي كانت تؤلف المجتمع المصري. فقد استعان الفاطميون بالعناصر الأجنبية من المغاربة والأتراك والديالمة والسودان والأرمن، كما استفادوا من خبرة أهل الذمة لا سيما الأقباط المتمرسين بالمسائل المالية، وعهدوا إليهم بالوظائف الرئيسية في الدولة التي أُبعد عنها المسلمون السنَّة. وبسبب آرائهم الدينية، ظل الفاطميون خلال حكمهم لمصر كحكومة أقلية منفصلة عن مجموع رعاياها مما أفقدهم تأييد الكثرة الغالبة من أهل السنَّة[٣].

---

(١) ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٢٧. المقريزي: جـ ١ ص ١٣٣.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٢٢٧. ص ١٣٦. (٣) سيد: ص ٨٩.

فقد أدرك المعز أن الدعوة الإسماعيلية لم تتجذَّر في مجتمع الشمال الإفريقي بعد عشرات السنين من الدعاية، كما أن مصر، بما فيها من مسلمين سنَّة وذميين، لن تكون أرضاً خصبة للتبشير، لذلك لم يعمد إلى نشر الدعوة الفاطمية في مصر إلا في نطاق محدود. فنادراً ما جرت أية محاولة لحثِّ الشعب المصري على اعتناق المذهب الإسماعيلي، واستعاض عن تحويل مسلمي مصر إلى المذهب الإسماعيلي بكسب ود أهل الذمة، فأسند إليهم مناصب الدولة العليا، بالإضافة إلى الذين يعتنقون مذهبه[1].

لم يلتزم المعز بكتاب الأمان الذي أعطاه جوهر الصقلي للمصريين بإطلاق الحرية الدينية للمصريين، فأسند القضاء إلى قضاة شيعة، وكلَّف كبار الفقهاء الشيعة، القيام بنشر الدعوة الفاطمية، وكان أحدهم يُعرف بداعي الدعاة، كان منهم عبد الله بن محمد بن أبي ثوبان وعلي بن النعمان[2]، واتخذ هؤلاء المساجد الكبيرة، مراكز لبث الدعوة، وهي آنذاك، مسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمد بن طولون، والجامع الأزهر، وأمعن في إظهار الشعائر الدينية المخالفة لشعائر أهل السنَّة كالأذان بحي على خير العمل، والاحتفال باليوم العاشر من محرم، وهو يوم عاشوراء، وعيد الغدير في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وهو المعروف بحديث خم[3].

والواقع أن هذا التركيز على الشعائر الشيعية وإظهارها، الذي اقترن باعتداءات على أهل السنَّة، أثار هؤلاء. من ذلك أنه خلال الاحتفال بعيد غدير خم، قام المغاربة بإثارة الشغب والاضطرابات، وحاول جوهر الصقلي أن يحول

---

(١) سيد: ص ٨٩.

(٢) ابن ميسر، محمد بن علي بن يونس بن جلب: أخبار مصر جـ ٢ ص ٤٤. حسن وشرف: ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ١٤٢ ـ ١٤٣. وغدير خم بين مكة والمدينة. لما رجع النبي محمد ﷺ من مكة عام حجة الوداع ووصل إلى هذا المكان نودي الصلاة جامعة، فصلى الظهر، وأخذ بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: (ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه)، وقال: (علي مني بمنزلة هارون من موسى. اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله). كانت هذه الواقعة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في السنة العاشرة من الهجرة. وقد أخرج الطبراني هذا الحديث عن زيد بن أرقم. كما أخرجه الحاكم في الجزء الثالث ص ١٠٩ من مستدركه، وأحمد بن حنبل في الجزء الرابع ص ٣٧٢ من مسنده بصيغ أخرى.

وللشيعة تعلُّق كبير بهذا اليوم، ويعدُّونه عيداً من أعيادهم، وقد بدأ الاحتفال به في الثامن عشر من ذي الحجة عام ٣٥٢ هـ في أيام معز الدولة البويهي.

دون تماديهم في الاعتداء على أموال الأهالي، كما أصاب المسلمين السنَّة الكثير من الضرر والأذى بسبب إرغام الشيعة لهم على مشاركتهم في إظهار شعائرهم. ففي (العاشر من محرم عام ٣٦٣هـ/ ١١ تشرين الأول ٩٧٣م)، سار جماعة من المصريين الشيعة، والمغاربة في موكب حزين، وراحوا يعتدون على كل من لم يشاركهم في مظاهر الأسى والحزن، مما أدَّى إلى تعطيل حركة الأسواق، وقيام القلاقل[١].

لم يركن المسلمون السنَّة إلى هذا الضغط الواقع على صدورهم، فقاموا بإظهار شعائرهم، في خطوة مضادة، واتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها مقابل احتفال الشيعة بعيد غدير خم، فأقفلوا في عام (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م)، في اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ غار ثور هو وأبو بكر الصديق وقالوا إنه يوافق ٢٦ من ذي الحجة، وبالغوا في إظهار الزينة، ونصب القباب، وإيقاد النار، ورأت الحكومة الفاطمية ألا تمنعهم من إحياء هذه المناسبة حتى لا تثير غضبهم[٢]. ومما زاد الوضع الداخلي تأججاً، اعتماد المعز على المغاربة في إدارة شؤون الدولة، فأخذ هؤلاء يستغلون نفوذهم بإلحاق الأذى والضرر بالمسلمين السنَّة، فنهبوا أملاكهم، واغتصبوا دورهم، وأجلوا السكان عنها، مما حمل المصريين على الشكاية إلى المعز، فأصدر أوامره إلى المغاربة بإخلاء هذه الدور والانتقال إلى نواحي عين شمس[٣].

موقفه من أهل الذمة

رأى المعز، الذي أدخل إلى مصر مذهباً مخالفاً لمذهب جمهور المصريين، أنه بحاجة إلى من يعاونه في تثبيت سلطانه، وأدرك أنه يتعذر عليه الاعتماد على أهل السنَّة الموالين للعباسيين، فاستعاض عنهم بكسب ود أهل الذمة، فأظهر لهم الكثير من التسامح، واستخدمهم في وظائف الدولة، واستعان بكثير من الأطباء اليهود الذين عظم نفوذهم في عهده، ولعل انتقال يعقوب بن كِلِّس، اليهودي الذي اعتنق الإسلام في آخر عهد كافور، إلى إفريقية، ودعوته المعز للاستيلاء على مصر، ثم الدور الهام الذي أدَّاه بعد ذلك كوزير في الحكومة الفاطمية، يدلنا على مدى اعتماد المعز على هذه الطائفة. وحتى منتصف القرن الخامس الهجري كان يقوم بخدمة الحكام الفاطميين سلسلة من الأطباء اليهود، منهم طبيب المعز، موسى بن العازار[٤].

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٢) سرور: ص ٨١ ـ ٨٢.

(٣) ابن ميسر: جـ ٢ ص ٤٥.

(٤) المصدر نفسه. سيد: ص ٩٠ ـ ٩١.

وبدت سياسة التسامح التي انتهجها المعز تجاه أهل الذمة واضحة. فقد طلب منه أفرام السرياني، البطريرك الثاني والستين، أن يسمح له ببناء كنيسة أبي مرقورة في الفسطاط، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فسمح له بذلك، وكتب سجلاً يمكِّنه من ذلك، كما منحه قدراً من بيت المال كمساعدة. ولما بوشر بإجراءات التنفيذ، تصدَّى الناس للأقباط، ومنعوهم ذلك، حتى أشرف المعز بنفسه على بناء أساس الكنيستين، ثم أمر ببناء الكنائس التي تحتاج إلى عمارة دون أن يعترضه أحد[1].

سياسة المعز الخارجية

تجدُّد النزاع مع القرامطة

لم يكن المعز راضياً عن زعامة الحسن الأعصم للقرامطة، وبخاصة بعد تقرُّبه من العباسيين، ووقوفه موقف العداء من الفاطميين، فراح يعمل على التخلص منه بإذكاء الثورة على حكمه في البحرين. إذ لم يكد يعلن موقفه المعادي منه، حتى قام أعوان أبي طاهر سليمان الجنَّابي بثورة كادت تطيح به لولا تدخل الخليفة العباسي المطيع. وخرج الثائرون من جزيرة أوال[2]، فهاجموا الأحساء ونهبوها، وكان الحسن الأعصم آنذاك منهمكاً في مهاجمة مصر، فتدخل الخليفة العباسي، وكتب إليهم بالتزام الهدوء والطاعة، وأن يصالحوا ابن عمهم، ويقيموا في جزيرة أوال، وبعث إليهم من أقام بينهم الصلح[3].

كان لهذه الثورة أثر مباشر على الوضع العسكري في مصر، حيث اضطر الحسن الأعصم إلى التوقف عن مهاجمة هذا البلد وعاد إلى الأحساء لإخماد الثورة، واستاء من هذا التدخل السافر في الشؤون الداخلية للقرامطة، فلعن الفاطميين من على المنابر، وأنكر نسبهم إلى علي بن أبي طالب، ووصفهم بالنفعيين همُّهم الملك والسلطان، وأنهم يرجعون بجذورهم إلى ميمون القداح «هؤلاء من ولد القداح، كذابون ممخرقون أعداء الإسلام، ونحن أعلم بهم، ومن عندنا خرج جدُّهم القداح»[4].

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٢٢٥. ساويرس ابن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة المعروف بـ «سير البيعة المقدسة» جـ ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) أوال: جزيرة بناحية البحرين، فيها نخل كثير وليمون وبساتين. الحموي: جـ ١ ص ٢٧٤.

(٣) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٩٠.

(٤) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٧٤.

وبعد انتقال المعز إلى مصر، أخذ يوجِّه سياسته المناهضة للقرامطة حتى يتيسر له توطيد أركان دولته في مصر وبلاد الشام. ورأى بعد فشل جهوده في إحداث شقاق داخلي بين صفوفهم، أن ينتهج سياسة الترغيب والترهيب. فكتب كتاباً مسهباً إلى الحسن الأعصم يدعوه فيه إلى الدخول في طاعته، ويوضِّح له فيه أن المذهب واحد، وأنهم منهم استمدوا، وأنهم ساداتهم في هذ الأمر، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة[1].

يبدأ كتاب المعز بمقدمة طويلة حول طبيعة الأنبياء وطبيعة نوابهم الأئمة: «لقد خلقنا الله أشباحاً قبل خلق العالم، وسلَّحنا بالقوة، وأشياء العالم كافة، من الأفلاك السماوية وحتى أقصى ما يكون داخل الأنفس، هي لنا ومن أجلنا وتشير إلينا، فلم يبعث برسول، ولم يظهر وصي إلا وكان يشير إلينا، نحن كلمات الله الأزليات، وأسماؤه التامَّات، وأنواره الشعشعانيات، وأعلامه النيِّرات، ومصابيحه البيِّنات، وبدائعه المنشآت، وآياته الباهرات، وأقداره النافذات، لا يخرج منا أمر، ولا يخلوا منا عصر».

وكان المعز قد وصل إلى مصر على قدر مقدور ووقت مذكور «نحن لا نرفع قدماً ولا نضعه إلا بعلم موضوع، وحكم مجموع، وأجل معلوم، وأمر قد سبق وقضاء قد تحقَّق».

ثم يتوجه المعز إلى الحسن الأعصم فنعته بالغادر الخائن، والناكث البائن من هدي آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، غير أن أمره لم يخفَ على المعز: «فعرفنا على أي رأي أصلت، وأي طريق سلكت، أما كان لك بجدِّك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولي بأس شديد وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد، يفيض إليهم موادنا، وينشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووالٍ، ولُقِّبوا بالسادة فسادوا، منحة منا واسماً من أسمائنا، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وأن يكونوا لبني العباس أضداداً فلم يلقهم جيش إلا كسروه، وألحاظنا ترمقهم، ونظرنا يلحقهم، كما قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فلم يزل ذلك دأبهم، وعين الله ترمقهم، إلى أن اختاره لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن

(١) انظر نص الكتاب عند المقريزي: جـ ١ ص ١٨٩ ـ ٢٠١.

نعيم يزول إلى نعيم لا يزول، فعاشوا محمودين، وانتقلوا مفقودين، إلى روح وريحان وجنات النعيم، فطوبى لهم وحسن مآب».

ثم يتابع المعز متوجهاً إلى الحسن باللوم والتحذير والتهديد، ويعرض الكتاب في مجمله بوضوح، هدفه السياسي. إن مجمل عقيدة القرامطة كانت تحت سيطرة المهدي الذي يحكم العالم. ووصف المعز نفسه وقدرته المطلقة وقدرة آبائه بألوان زاهية. لقد تمتع كل من أبي سعيد وأبي طاهر بأرفع الشرف كمؤسسين لدولة القرامطة ولمركزها القوي، ولهذا السبب يحاول المعز توجيه اللوم إلى الحسن الأعصم بسبب خيانته لمعتقد آبائه، إذ يدين هؤلاء الآباء بنجاحهم إلى أفضال الفاطميين عليهم حصراً، وأن عقاباً فظيعاً كان بانتظار الحسن الأعصم[1].

إن قراءة متأنية لمضمون الكتاب توضح لنا النقاط التالية:

- محاولة المعز إثبات قِدَم العلاقة بين الفاطميين والقرامطة التي كانت تقوم على المودة، وتشير إلى ما عُرف عن هؤلاء من حرص على التودد للفاطميين، وتؤكد أنهم أصل الإسماعيليين، والقرامطة فرع منهم، غير أن الحسن الأعصم خرج على هذه السياسة التقليدية التي سار عليها جده أبو سعيد وعمه أبو طاهر سليمان، ولو أن هذين الرجلين كانا فعلاً أتباعاً بمثل تلك الدرجة من الولاء للفاطميين، فلماذا كان المعز يحاول إثبات ذلك بمثل تلك الكلمات العديدة الغامضة؟ وهو بالتأكيد لا يستطيع الافتراض بأن الحسن الأعصم لم يكن على علم بأفعالهما ولا بكتاباتهما وأشعارهما، وأن الأسئلة التي يطرحها هنا هي من قبيل البلاغة الكلامية وحسب. ثم إن الإشارة إلى أعمالهما تتضمَّن بوضوح أنها اشتملت على برهان جلي على ولاء أبي سعيد وأبي طاهر، لكن المؤرخين والمعادين الذين كانوا على معرفة جيدة بالشؤون الداخلية للقرامطة، لم يجدوا معلومات محسوسة يقدمونها بشأن هذا الموضوع[2].
- يبين الكتاب مدى انتشار الدعوة الفاطمية في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، ويعيب عليه انصرافه عنها واستياءه ـ المعز ـ من إقامة الدعوة للعباسيين، مع ما أصاب دولتهم من الوهن، ولامه على غزوه بلاد الشام وقتله جعفر بن فلاح وكثيراً من جنده، وعدَّد ما ارتكبه أثناء هجومه على هذه البلاد.

---

(١) دفتري: ص ٦٨.

(٢) المرجع نفسه. ص ٦٨ ـ ٦٩.

- أشاد المعز بنفسه وبالفاطميين، وبانتمائهم إلى الرسول عن طريق علي وفاطمة، وأنحى باللائمة على العباسيين الذين انضم إليهم الحسن الأعصم، وأكَّد أن الفاطميين سيرثونهم ويحوِّلون العالم الإسلامي إلى عالم إسماعيلي.
- يُعدُّ هذا الكتاب وثيقة:
  ١ - تاريخية، تصور مراحل الحرب التي دارت بين الحسن الأعصم وأنصار المعز.
  ٢ - مذهبية، فقد ذكر فيها شيئاً غير قليل عن نظرية تقديس الأئمة، ووجود عنصر إلهي فيهم.
  ٣ - سياسية، بفعل أن المعز نجح في استقطاب كثير من كبار القرامطة الساخطين على الحسن الأعصم، وأثبت لأهل السنَّة ارتباط القرامطة بالفاطميين مذهبياً على الأقل، وأن الحسن الأعصم على غير مذهبهم، وأنه يدين بالمذهب الإسماعيلي.
- يمتاز الكتاب بهذه الشروط التي تدل على التحدِّي، وينطوي على الترغيب والتهديد، حين عرض المعز على الحسن الأعصم ثلاث خصال ليختار واحدة يعمل على تحقيقها، وهدَّده بسوء العاقبة:

الأولى : أن يفدي نفسه بجعفر بن فلاح، ويفدي من قتلهم من جند الفاطميين برجال من القرامطة.

الثانية : وكأنها على سبيل السخرية، فقد طلب منه أن يردَّ جعفر بن فلاح ورجال الفاطميين، الذين قُتلوا على يديه، أحياء.

الثالثة : أن يقدِّم نفسه أسير حرب، يرى فيه رأيه، فيقتصُّ منه أو يمنُّ عليه أو يفتدي نفسه بمال كثير[١].

- كان هذا الكتاب بعيد الأثر في المجتمع القرمطي، وبخاصة بين الجماعة المناهضة للحسن الأعصم، لكنه لم يوهن عزيمته، فلم يعدل عن سياسته، واقتصر جوابه عليه بهذه الكلمات الموجزة «وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله، وقلَّ تحصيله، ونحن سائرون على إثره، والسلام»[٢].

وسرعان ما سار الحسن الأعصم من البحرين باتجاه بلاد الشام، ونزل في الرملة، ثم زحفت جنوده باتجاه مصر في عام (٣٦٣هـ/ ٩٧٤م)، وتوغلت في

---

(١) حسن وشرف: ص ١١٩ - ١٢٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣١٨.

الأراضي المصرية، وبثَّ السرايا في البلاد، وانتشر جنوده في كثير من نواحي مصر، وأرسل عماله إلى الصعيد لجباية الأموال(١).

انزعج المعز من هذا الانتشار القرمطي المعادي له، وساءه مشاركة الحسن الأعصم له في حكم مصر وإدارتها، وانتزاع جزء كبير من ماليتها، حتى كاد ينزع من قلوب أهلها احترامهم له ولدولته. وتحصَّن الفاطميون وراء أسوار القاهرة. وعظم الأمر على المعز حيث لم ينفعه تهديد الحسن الأعصم وإرهابه له، ولم يجرؤ على الخروج بعسكره للتصدي له. وكان الزعيم العربي حسان بن الجراح الطائي قد انضم إلى الحسن الأعصم، واخترقت قواتهما السور الذي بناه جوهر للدفاع عن القاهرة، مما زاد من قلق المعز، ورأى بعد التشاور مع أركان حربه أن يفرِّق بين الحليفين. فعمل على استقطاب العرب، وعرض على حسان بن الجراح الطائي بأن يدفع له مبلغ مائة ألف دينار لقاء انسحابه من التحالف. ولما دارت الحرب بين الطرفين انسحب هذا الأخير مع قواته، مما أدَّى إلى حرج موقف الحسن الأعصم، ورجحان كفة المعز. وخشي الحسن الأعصم على نفسه، فارتد منهزماً إلى بلاد الشام، وأسر الفاطميون أكثر من ألف من القرامطة، وعاملوهم معاملة المرتدين عن مذهبهم الإسماعيلي(٢).

استغل المعز انتصاره على الحسن الأعصم للقضاء عليه، فعهد إلى أبي محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح بمطاردته، فلحق به حتى أذرعات(٣). واضطر الزعيم القرمطي للعودة إلى البحرين تاركاً بلاد الشام في أيدي بعض الأمراء القرامطة، وعلى رأسهم أبو المنجا في دمشق(٤).

اتجهت سياسة المعز، بعد أن فشل الحسن الأعصم في الاستيلاء على القاهرة للمرة الثانية، إلى القضاء على ما للقرامطة من نفوذ في بلاد الشام واستخلاصها منهم. وتحقيقاً لهذه الغاية استعان بقبائل طيء وبظالم بن موهوب العقيلي الذي فترت علاقته بالحسن الأعصم، فقلَّده ولاية دمشق، في شهر (رمضان ٣٦٣هـ/ حزيران ٩٧٤م)(٥)، وكان يحقد على واليها القرمطي أبي المنجا، فسار إليها على

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٥٠.

(٢) ابن القلانسي: ص ٦ ـ ٧. المصدر نفسه: ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) أذرعات: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمّان، وهي مدينة درعا الحالية. الحموي: جـ ١ ص ١٣٠.

(٤) ابن ميسر: ص ٤٦. المقريزي: جـ ١ ص ٢٠٦.

(٥) ابن القلانسي: ص ٩.

رأس جيش من العرب، يساعده الفاطميون. ولم يستطع أبو المنجا أن يتصل بالقرامطة في البحرين، ولا بحلفائه العباسيين والبويهيين أو بالحمدانيين، فدخلها وقبض على أبي المنجا وسجنه هو وابنه ومن معهما من القرامطة، ثم سلَّمهم إلى القائد الفاطمي، ووطد سلطته فيها، فكان ذلك انتصاراً آخر للمعز[1].

لكن هذا النفوذ الفاطمي بقي مزعزعاً، فلم تستقر الأمور تماماً في دمشق في ظل ولاية موهوب بن ظالم العقيلي، لذلك أرسل المعز جيشاً من المغاربة بقيادة أبي محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح، إلى دمشق، ليعاونه على حفظ الأمن، ويقر السلام في ربوع بلاد الشام، وينشر النفوذ الفاطمي، ويقف في وجه القرامطة إذا ما استأنفوا هجماتهم على دمشق، وكان في نية المعز إذا ما نجح قائده في مهمته أن يثب إلى العراق، ويتوسع باتجاه الشمال على حساب الحمدانيين والبيزنطيين.

لكن هؤلاء المغاربة ما لبثوا أن عبثوا بالبلاد وضايقوا العباد، وقطعوا الطرقات، واصطدموا بالدمشقيين الذين كانوا يحقدون عليهم وعلى الفاطميين لاختلافهم عنهم في المذهب الديني وأضحوا مصدر قلاقل، كما أصبح مركز الولاة محفوفاً بالمخاطر. ولم يتمكَّن أبو محمود إبراهيم من ضبط الأمور، واضطر ظالم بن موهوب العقيلي للخروج بنفسه لوضع حد لتعدياتهم، إلا أنه انهزم أمامهم، ودخل المغاربة دمشق وأشعلوا النار في أحيائها[2].

اضطر المعز، حتى يتحاشى تفاقم الوضع، إلى عزل ظالم بن موهوب العقيلي في شهر (ربيع الآخر ٣٦٤هـ/ كانون الأول ٩٧٤م) الذي التجأ إلى بعلبك، وعيَّن جيش بن الصمصامة خلفاً له. وكان هذا الوالي قد اشترك مع أبي محمود إبراهيم في إدارة شؤون دمشق. وساد المدينة هدوء نسبي لم يستمر طويلاً بسبب تجدد الاشتباكات بين الدمشقيين والمغاربة، وحدثت اضطرابات خطيرة، وخُرِّبت المنازل، وأُغلقت الطرقات، وتوقفت حركة البيع والشراء، وتفاقمت الحالة الاقتصادية وبخاصة أن بلاد الشام ظلت منذ عام (٣٥٨هـ ـ ٩٦٨م) تتلظَّى بنار الحروب، وتوفي الكثير بسبب الجوع والبرد. وحاول جيش بن الصمصامة عبثاً السيطرة على الموقف[3].

ولما وصلت أنباء الاضطرابات في دمشق إلى المعز، أيقن أن هناك صعوبات

(١) ابن القلانسي: ص ١٠. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٢٠.
(٢) المصدران نفساهما: ص ٩ ـ ١٣. ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٣) المصدران نفساهما: ص ١٩ ـ ٢٠. ص ٣٢١.

تواجه حكمه في بلاد الشام، ولا بد أن يتدارك الموقف على وجه السرعة، فكلَّف ريان الخادم، واليه على طرابلس الشام[1]، وكان قد استولى عليها في (أواخر ربيع الآخر ٣٦٤هـ/ كانون الثاني ٩٧٥م)؛ بالذهاب إلى دمشق، ودراسة أوضاعها والوقوف على حقيقة الأمر فيها، ووضع حد للفتن، وعيَّنه والياً عليها، وعزل أبا محمود إبراهيم عنها، الذي عاد إلى الرملة ثم أمره بالإقامة في طرابلس. استطاع ريان الخادم أن يهدِّىء الوضع الداخلي، ويحدَّ من اندفاع المغاربة[2].

الصراع مع أفتكين التركي

أدَّت الاضطرابات التي شهدتها مدينة دمشق إلى إضعاف النفوذ الفاطمي فيها ومهَّدت لدخول فريق من الأتراك، بزعامة أفتكين الشرابي التركي، في لعبة السيطرة عليها، وبذلك واجه الفاطميون عنصراً جديداً أدَّى دوراً مميزاً في مناهضتهم[3].

كان أفتكين من موالي معز الدولة أحمد بن بويه، ثم انضم إلى جانب الخليفة العباسي المطيع ثم الطائع (٣٦٣ـ ٣٨١هـ/ ٩٧٤ـ ٩٩١م)، وذلك أثناء الحروب التي نشبت بين الخلافة العباسية والبويهيين. ولما اشتد النزاع بين هؤلاء الديلم وبين الأتراك، قدَّم الأتراك الحاجب أبا منصور أفتكين عليهم، لكنهم منوا بهزيمة قاسية، واضطروا إلى مغادرة بغداد إلى بلاد الشام واستقروا فيها[4]، وساعدهم على ذلك ما سادها من اضطرابات وفوضى نتيجة الحروب بين الفاطميين والقرامطة من جهة والضغط البيزنطي من جهة أخرى.

والواقع أنه تنازعت السيطرة على بلاد الشام، في ذلك الوقت، ثلاث قوى: قوة الدولة الفاطمية الطامعة في التوسع، وقوة سكان البلاد الحانقين على الفاطميين لاختلافهم معهم في المذهب، وقوة الدولة البيزنطية التي أرادت العودة إلى هذه البلاد بعدما طُرِد البيزنطيون منها على أيدي المسلمين.

استطاع أفتكين، بما عُرف عنه من دهاء، أن يستغل غضب السكان

---

(١) من الواضح أن معظم مدن بلاد الشام الساحلية مرت بمرحلة انتقالية تقدر بخمس سنوات (٣٥٨ ـ ٣٦٣هـ/ ٩٦٩ ـ ٩٧٤م) قبل أن يبادر الفاطميون بتعيين ولاة من قِبَلهم عليها، وذلك لتثبيت حكمهم في مصر من جهة، ومواجهة الخطر القرمطي من جهة أخرى، ولهذا استمرت هذه المدن تدير شؤونها ذاتياً. انظر: تدمري، عمر عبد السلام: لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ص ٩ ـ ١٠.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٠. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٢٢. ابن أيبك: جـ ٦ ص ١٦٩.

(٣) سرور: ص ١٣٤.

(٤) ابن القلانسي: ص ٢١ ـ ٢٢.

المحليين الذين استنجدوا به، والصراع بين الفاطميين والبيزنطيين، فنشر نفوذه في دمشق بعد أن تغلَّب على قوة فاطمية مشتركة بقيادة ظالم بن موهوب العقيلي والي بعلبك، وأبي محمود إبراهيم والي الرملة، ثم دخل دمشق في شهر (شعبان ٣٦٤هـ/ نيسان ٩٧٥م)، فقطع الخطبة للمعز الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي الطائع[١].

استغل أفتكين انتصاره، وراح يبسط نفوذه في بلاد الشام، فهاجم بعلبك واستولى عليها، واضطر ظالم بن موهوب العقيلي إلى التقهقر، إلا أنه تعرَّض لهجوم البيزنطيين الذين أغاروا على حمص وبعلبك في عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، وعزموا على مهاجة دمشق، كما سنرى. وحتى يجابه هذا الحظر، حاول التقرب من المعز، كما أدرك أن الحاكم الفاطمي لا بد وأن يُقدم على استعادة نفوذه في بلاد الشام، فكاتبه على سبيل التمويه والانقياد له والطاعة لأوامره، ولكن الأمور لم تجرِ على نحو طيب بينهما، ورفض أفتكين دعوة المعز للحضور إلى مصر، ليعيده إلى ولايته، ويحكمها باسمه[٢].

والحقيقة أنه خشي من سوء العاقبة، وبخاصة أنه حارب ولاته وانتصر عليهم، كما طرد واليه ريان الخادم من دمشق، وفضَّل تثبيت نفوذه في هذه المدينة، فأحسن السيرة، وقمع الفتن، وأصلح كثيراً من أمر الناس، وأظهر الشجاعة، وحسن التدبير، ثم هادن البيزنطيين على مال يؤديه إليهم، على أن يمتنعوا عن مهاجمة دمشق[٣].

الأمبراطور البيزنطي زمسكيس يغزو بلاد الشام: ٣٦٤ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م

قام الأمبراطور حنا زمسكيس، المعروف في المصادر العربية بـ «ابن الشمشقيق»، بحملة واسعة على بلاد الشام، مغتنماً اضطراب الأوضاع واحتدام الصراع بين الفاطميين والقرامطة، ليحقق سياسة سلفه الأمبراطور نقفور فوكاس القاضية باستعادة بلاد الشام، وهو أول من فكّر تفكيراً صليبياً في استرداد بيت المقدس.

خرج زمسكيس من القسطنطينية في (منتصف عام ٣٦٤هـ/ مستهل ربيع عام ٩٧٥م)، وتوجه نحو الجنوب، فدخل منطقة الثغور[٤] واستولى على أكثرها،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٣٣.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الثغور: مراكز عسكرية دفاعية متقدمة ملاصقة لحدود الدولة البيزنطية، أقامها المسلمون لحماية منطقتي الجزيرة والشام، تبدأ من طرسوس في كيليكية وتمتد على طول جبال طوروس إلى ملطية، =

ثم سلك طريق وادي نهر العاصي، فوصل إلى حمص ودخلها دون قتال، وفرض الجزية على أهلها(١)، ثم توجه إلى بعلبك، وحاصرها، وأخضعها بعد مقاومة، وذلك في (١٥ رمضان ٣٦٤هـ/ ٢٩ أيار ٩٧٥م)(٢).

وعبر زمسكيس جبال لبنان وتوجه إلى دمشق ووصل إلى وادي الزبداني، فقاومه السكان ومنعوه من الدخول إلى الوادي. وخرج جماعة من أعيان دمشق، فاجتمعوا به، وطلبوا منه الهدنة، فطلب منهم مالاً حتى ينصرف عنهم(٣). وكان ابن الزيات قد كتب إلى أفتكين وأهل دمشق يعرِّفهم بقوة الأمبراطور، وأنهم لا يقدرون على مقاومته، وأشار عليهم بالدخول في طاعته، فوافقوه وانتموا إليه. وخرج أفتكين طائعاً ودعاه لدخول دمشق. وتوسط ابن الزيات بينهما على تقرير مائة ألف درهم على المدينة، على أن يبذل أهلها ستين ألف دينار كل عام. وعسكر زمسكيس في عين الجر (عنجر) ينتظر تسلم المال(٤).

وفيما كان أفتكين خارج دمشق، أرسل القائد الفاطمي أبو محمود إبراهيم، وهو في طبرية، قوة عسكرية من ألفي جندي بقيادة ابن الصمصامة ليأخذ دمشق. ولم علم أفتكين بهذه الأخبار، وكان عائداً إلى دمشق من اجتماعه مع الأمبراطور، قاتله بالقرب من جبل سنير بين حمص وبعلبك، وأسره وسلمه إلى الأمبراطور وهو في عين الجر(٥).

وتابع الأمبراطور البيزنطي زحفه جنوباً، وقد اتسم هذا الزحف بالطابع الصليبي، ويبدو ذلك واضحاً في الرسالة التي أرسلها الأمبراطور إلى ملك أرمينية آشوت الثالث، والتي تضمنت عبارات تثير العاطفة الدينية، وتحدث عن زحف جنده نحو الأرض المقدسة التي شهدت مولد المسيح والتي دُفن فيها،

= وهي تنقسم إلى قسمين: الثغور الجزرية وأهم حصونها، ملطية، كماخ، شمشاط، البيرة، منصور، قلعة الروم، الحدث الحمراء ومرعش. والثغور الشامية وأهم حصونها: طرسوس، أذنة، المصيصة، الهارونية، سيس وأياس، انظر: ابن حوقل: صورة الأرض: ص ١٧١ ـ ١٧٢. دائرة المعارف الإسلامية جـ ٦ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ طبعة بيروت.

(١) ابن حوقل: المصدر نفسه: ص ١٦٢ ـ ١٦٣. والجدير بالذكر أن ابن حوقل زار المدينة بعد هذه الغزوة مباشرة وكتب ما شاهده فيها من خراب وتدمير.

(٢) الأنطاكي: ص ١٦١ ـ ١٦٢. ابن القلانسي: ص ٢٤.

(٣) ابن القلانسي: المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. الأنطاكي: ص ١٦١ ـ ١٦٢. وعين الجر: موضع معروف في البقاع بين بعلبك ودمشق. الحموي جـ ٤ ص ١٧٧.

(٥) المقريزي: جـ ١ ص ٢٢٢.

مما يوضح الروح الصليبية التي اتصفت بها تلك الحملة، واستولى على بانياس[١]، وعيَّن عليها حاكماً بيزنطياً، ثم توجه إلى الناصرة[٢]، التي استسلمت له، فعفا عن أهلها احتراماً وإجلالاً، وأخضع بيسان، ثم توجه إلى عكا ودخل قيسارية، ولم يلقَ مقاومة من جانب القوات الفاطمية[٣].

والواقع أن القوات الفاطمية تراجعت أمام الزحف البيزنطي ولجأت إلى المواقع الحصينة الواقعة على الساحل حيث تلَّقت إمدادات من مصر بقيادة نُصير الخادم الصقلبي الذي وصل إلى بيروت بطريق البحر[٤].

وحرص زمسكيس أن يدمِّر هذه القوات قبل المضي في طريقه إلى بيت المقدس حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه لخطر الهجوم عليها، وكيما يؤمِّن طريق مواصلاته. والراجح أنه لم يشعر بالقدرة على المضي إلى بيت المقدس ما لم يستولِ على مدن الساحل من خلفه[٥].

وتحتَّم على القوات البيزنطية أن تتوقف عن مواصلة السير إلى بيت المقدس، وأن تتوجه نحو الشمال عن طريق الساحل. فنزل زمسكيس على صيدا، وخرج إليه أبو الفتح بن الشيخ، ومعه شيوخ المدينة، فتفاوضوا معه واتفقوا على أموال يؤدونها إليه مقابل الانصراف عن مدينتهم، ثم استولى على بيروت وأسر أميرها نُصَير الخادم، وحمله إلى بيزنطية وعيَّن عليها حاكماً من قِبله، ثم هاجم طرابلس بعد أن استولى على جبيل، وقاتلها أربعين يوماً دون أن يتمكَّن من دخولها، وذلك بفعل شدة المقاومة التي أبداها ريان الخادم الفاطمي، ومع ذلك أخذ جنوده يعيثون فساداً في أرباضها[٦]. وانتصر على قوة فاطمية صغيرة تقدر بألفي جندي كانت تقوم بمهمة استطلاعية عند وجه الحجر (رأس

---

(١) بانياس: قرية بناحية الشعرة في لواء حوران على مسافة ستين كلم من دمشق.

(٢) الناصرة: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً. الحموي: جـ ٥ ص ٢٥١.

(٣) Schlumberger: LEpopée: I. P. 305.

وبيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي وهي بين حوران وفلسطين. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٥٢٧.
وقيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تُعدُّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٢١.

(٤) ابن أيبك: جـ ٦ ص ١٧٠. يذكر الأنطاكي اسمه نصر الخادم. ص ١٦٢.

(٥) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ٥٥. Schlumberger: I. p. 306.

(٦) الأنطاكي: ص ١٦٢. ابن القلانسي: ص ٢٦ ـ ٢٧.

الشقعة ـ شكا) بين طرابلس وجبيل، ثم واصل السير شمالاً في طريق الساحل، واستولى على جبلة[1]، فخضع له بذلك الساحل الشامي من الرملة حتى أطراف إمارة أنطاكية[2].

وحتى يثبِّت حكمه في تلك المدن الساحلية، كان على زمسكيس أن يستولي على بعض المدن والحصون الداخلية في الشمال، ولذا بادر إلى مهاجمتها، فاستولى على حصن صهيون[3]، وحصن برزويه[4]، وولَّى عليها حكاماً من قِبَله، ثم عاد إلى أنطاكية في شهر (محرم ٣٦٥هـ/ أيلول ٩٧٥م)، بفعل اقتراب فصل الشتاء[5]، كما خشي من تعرض خط إمداداته إلى بيت المقدس لخطر الهجوم من قِبل القوات الفاطمية، بالإضافة إلى الإرهاق الذي أصاب جنده بفعل الحروب المتواصلة.

العلاقة مع الحجازيين

بذل الفاطميون عدة محاولات للسيطرة على الحجاز أو الدعوة لهم على منابره، وقد أشرنا إلى هذه المحاولات التي بذلت في أيام عبيد الله المهدي. وعندما استولى الفاطميون على مصر، تطلع المعز إلى السيطرة على الحجاز بفعل ارتباط البلدين الجغرافي والسياسي منذ أقدم العصور. واعتنق الفاطميون نظرية جديدة مؤداها أن صاحب السيادة الفعلية على العالم الإسلامي هو من تُقام له الخطبة في الأراضي الإسلامية المقدسة (مكة والمدينة)، فكانوا يتقربون من أشرافهما.

أُتيحت الفرصة للمعز لتحقيق أهدافه في الحجاز في عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٨م)، وهو لا يزال بإفريقية، حين نشب النزاع بين العلويين من بني الحسن بن علي بن أبي طالب، وبين الأشراف الطالبيين من بني جعفر بن أبي طالب[6]، فسعى للصلح بين

---

(١) جَبَلَة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. الحموي: جـ ٢ ص ١٠٥.

(٢) العريني: ص ٥٥٥.

(٣) حصن صهيون: هو حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص لكنه ليس بمشرف على البحر، وهي قلعة مكينة في طرف جبل، خنادقها أودية واسعة هائلة عميقة. الحموي: جـ ٣ ص ٤٣٦.

(٤) حصن برزويه: حصن قرب السواحل الشامية، على سن جبل شاهق، تحيط به الأودية. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٣٨٣.

(٥) ابن القلانسي: ص ٢٧.

(٦) كان لقب العلويين والطالبيين يُطلق على آل أبي طالب بعامة. وفي أواخر القرن الرابع الهجري أضحت لهم نقابة خاصة في بغداد تسمى نقابة الأشراف الطالبيين. وأنشأ الفاطميون في مصر نقابة الطالبيين للنظر في شؤون العلويين، وكان يتولى رئاستها أحد كبار شيوخهم، وعُرفت هذه النقابة =

الطائفتين، وعقد رسله صلحاً في المسجد الحرام، وتحمَّلوا الديات من مال المعز[1]. ولا شك بأن هذا التدخل أكسب المعز تأييداً كبيراً بين أشراف الحجاز، فخطبوا للفاطميين على منابر الحرمين في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م)، وقطعوا الخطبة للعباسيين[2].

ويبدو أن الحجازيين وجدوا في قوة الفاطميين النامية خير سند لهم يمكن الاعتماد عليها لرد اعتداءات القرامطة عليهم مقابل ضعف الخلافة العباسية، وبخاصة بعد أن استولى الفاطميون على مصر الغنية بثرواتها المادية والبشرية.

وحين علم المعز بإقامة الدعوة له على منابر مكة والمدينة، أمر جوهراً الصقلي أن يرسل المال والمتاع إلى الحجاز فرحاً بهذه المناسبة[3]، كما بعث قائداً ليتولى توزيع هذه الهدايا والأموال في الحرمين[4].

إلا أن النفوذ الفاطمي سرعان ما تعرَّض لنكسة بعد مرور سنة، حين نجح العباسيون في استعادة نفوذهم في مكة بالتعاون مع القرامطة الذين انقلبوا على الفاطميين وأقاموا الخطبة للخليفة العباسي المطيع، والحسن الأعصم القرمطي[5]. وحجَّ بالمسلمين في عام (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م) أمير الحاج العراقي آنذاك، أبو الحسين أحمد بن موسى، نقيب الطالبيين في بغداد، وأعلن عودة النفوذ العباسي إلى مكة، ونصب الأعلام التي حملها معه وعليها اسم الخليفة العباسي. أما أشراف المدينة فقد استمروا بالدعوة للمعز منفردين[6].

لكن المعز لم يقبل بعودة النفوذ العباسي مرة أخرى، إلى مكة، فبادر بإرسال جيش إلى هذا البلد في عام (٣٦٠هـ/ ٩٧١م) لإعادة النفوذ الفاطمي، وانضم أشراف المدينة الحسينيين إليه[7]. إلا أن هذا الجيش مُني بهزيمة أمام تحالف أشراف مكة

= فيما بعد باسم نقابة الأشراف. أما في الحجاز فكان لفظ العلويين يُطلق أحياناً على نسل أبناء علي بن أبي طالب، ولفظ الطالبيين على نسل إخوة علي بن أبي طالب مثل جعفر وعقيل. انظر محمد، صبحي عبد المنعم: العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين ص ٨٠ هامش رقم ١.

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٠١. (٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٢.

(٤) الجزيري، زين الدين عبد القادر بن محمد: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة جـ ٢ ص ١٥٢٦.

(٥) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٩٧.

(٦) ابن فهد، النجم عمر بن محمد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ ٢ ص ٤٠٧.

(٧) المصدر نفسه: ص ٤٠٨.

الحسنيين والقرامطة. وحتى يشغل الفاطميين عن الاهتمام بشؤون الحجاز، هاجم الحسن الأعصم مصر في (ربيع الأول ٣٦١هـ/ كانون الثاني ٩٧١م)، عندئذٍ لجأ المعز إلى الدهاء السياسي للقضاء على النفوذ العباسي. فحرَّض الأعراب من قبائل بني هلال وغيرهم من البدو، فهاجموا قافلة الحاج العراقي في عام (٣٦٣هـ/ ٩٧٤م)، وأُقيمت الدعوة بالحرمين للمعز في هذا العام، الذي يُعدُّ بداية الدعوة الكاملة للفاطميين في الحجاز[١]. سُرَّ المعز بهذه المناسبة وأهدى الكعبة شمسة[٢] غالية الثمن، كان العباسيون يرسلونها من قبل.

وتوطدت العلاقات بين المعز وأشراف الحجاز، وجرت بينهم المراسلات الودية. فأرسل الشريف جعفر بن محمد الحسني أمير مكة كتاباً إلى المعز في عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، يطلب فيه الإحسان إلى أخته صفية بنت محمد الحسني برد ضياعها وأموالها إليها[٣]، وكانت مقيمة في مصر، وكان زوجها قد تعاون مع القرامطة، واختفت هي خشية انتقام الفاطميين الذين صادروا أملاكها. فاستجاب المعز لهذا الطلب وأمر برد ضياعها وأموالها إليها، فظهرت وأمنت[٤]. كما أرسل كتاباً آخر طلب فيه من المعز أن يرد الأحباس[٥] التي وقفت على ولد عمرو بن العاص بمصر، إليهم، وكان الفاطميون قد استولوا عليها، فأمر المعز بعودة أوقافها إليهم[٦].

ولا شك بأن المعز أراد أن يتقرَّب إلى أشراف الحجاز من خلال الاستجابة إلى مطالبهم المحدودة، رغبة في كسب ودهم وتدعيماً للصلات الطيبة بينه وبينهم[٧].

ولاية العهد ـ وفاة المعز

عيَّن المعز ابنه الثالث أبا منصور نزار لولاية العهد، على الرغم من أنه ليس صاحب الحق في ذلك وفقاً للنظام الإسماعيلي. وكان قد عيَّن ابنه الأوسط عبد الله

---

(١) ابن فهد: جـ ٢ ص ٤٢٠.

(٢) الشمسة: هي عبارة عن حلية ضخمة تعلق في وجه الكعبة في موسم الحج، ثم تنزع يوم التروية. وسميت بالشمسة لأن لها اثني عشر ذراعاً تشبه أشعة الشمس. المقريزي: جـ ١ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) المصدر نفسه: جـ ١ ص ٢٢٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الأحباس: هي أرض زراعية يعطيها الخلفاء والسلاطين إلى بعض الناس على سبيل الإحسان والإنعام مع إعفائها من الضرائب.

(٦) المقريزي: جـ ١ ص ٢٢٥.

(٧) محمد، صبحي عبد المنعم: ص ٨٧.

من قبل وهو ما يزال في إفريقية[1]، متجاوزاً ابنه الأكبر تميم صاحب الحق الشرعي. فظلَّ عبد الله بعد انتقال المعز إلى مصر ولياً للعهد حتى توفي في حياة أبيه[2]. وكان على المعز وفقاً للعقيدة الإسماعيلية التي تقضي بعدم انتقال الإمامة من الأخ إلى أخيه أن يعيِّن حفيده ابن عبد الله ولياً للعهد، وبتعيين نزار ولياً للعهد يكون المعز قد تجاهل هذه القاعدة الأساسية.

توفي المعز في القاهرة في (١١ ربيع الآخر ٣٦٥هـ/ ١٨ كانون الأول ٩٧٥م) بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة، منها سنتين وسبعة أشهر في مصر[3].

---

(١) سيرة جوذر: ص ١٣٩. عماد الدين، إدريس: ص ٢٠٢.

(٢) عماد الدين، إدريس: المصدر نفسه ص ٢٠٠.

(٣) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصري: ص ٦٤. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٢٨. النويري: جـ ٢٨ ص ١٥١. وقارن بعماد الدين، إدريس ص ٢٠٣ الذي يذكر تاريخين دون أن يرجِّح أياً منهما، يوم الجمعة ١١ ربيع الآخر، ويوم الأحد ١٣ منه. ويذكر المقريزي أن الوفاة حصلت في ١٤ ربيع الآخر. خطط جـ ٢ ص ١٩٠.
ويذكر ابن ميسر أن المعز توفي عشية يوم الجمعة النصف من ربيع الآخر: أخبار مصر ص ٤٧.

الفَصْل الثَّامِن

أبو منصور نزار: العزيز بالله

(٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/٩٧٥ ـ ٩٩٦م)

شخصية العزيز

خلف أبو منصور نزار الملقب بالعزيز، أباه المعز، وهو في الثانية والعشرين من عمره، وانتهج السياسة نفسها التي انتهجها آباؤه وأجداده، فلم يعلن عن وفاة أبيه إلا بعد انقضاء ثمانية أشهر، حتى نجح في تدعيم حكمه وذلك في (١٠ ذي الحجة ٣٦٥هـ/ ٩ آب ٩٧٦م)، ويُعدُّ عهده، عهد يسر ورخاء، وإرساء لدعائم الدولة، وذلك بفضل معاونة جوهر الصقلي والوزير يعقوب بن كِلِّس.

وُلد العزيز في مدينة المهدية، وقدم إلى القاهرة مع أبيه. كان رجلاً ممتعاً، يميل إلى الأُبَّهة، خبيراً بالجواهر، ابتدع نوعاً جديداً من العمائم محلَّاة بخيوط الذهب، وسروجاً معطَّرة بالعنبر، زيَّن موائده بكثير من الطرف، شغوفاً باقتناء الطيور والحيوانات، مغرماً بالصيد، وبخاصة صيد السباع، ذكياً، أديباً، مستنيراً، يجيد عدة لغات، وضع عدة تقاليد فاطمية جديدة في المظاهر والرسوم. فهو أول حاكم فاطمي رمى بالنشاب، وأول من ركب في الجُمع في رمضان وصلَّى بالناس، وأول من بنى دار الفطرة، وقرَّر فيها ما يُحمل إلى الناس في العيد، وأول من ضرب الصوالجة، ولعب بالرمح، واتخذ الحمير لركوبه أحياناً، وأول من عمل على مائدة الشرفة السفلى في شهر رمضان لأهل الجامع العتيق، وأقام طعاماً في جامع الأزهر لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان. كان جواداً كثير الصِلات[1].

---

(١) ابن ظافر: ص ٣٨. ابن ميسر: ص ٤٧ ـ ٤٨. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢. عماد الدين، إدريس: ص ٢٠٥ ـ ٢١١. المقريزي: جـ ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦. خطط: جـ ٤ ص ٧٠.

موقف العزيز من أهل الذمة في مصر

اعتنى العزيز، كأبيه المعز، بنشر المذهب الإسماعيلي. ويمتاز عهده بعدة خطوات جريئة في هذا الشأن، وبخاصة أن مسألة نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة كان لا يزال موضع شك بين عدد كبير من المصريين، فأمر القضاة أن يُصدرو أحكامهم وفق هذا المذهب، وعيَّن الشيعة في المناصب الهامة، وأضحى لزاماً على الموظفين السنَّة أن يسيروا وفقاً لأحكام المذهب الإسماعيلي وإلا فقدوا وظائفهم. واتخذ من المساجد الكبرى في مصر، بالإضافة إلى قصره، مراكز للدعاية للمذهب الإسماعيلي وحوَّل الجامع الأزهر إلى جامعة تقوم بتدريس الفقه الإسماعيلي، واختار جماعة من كبار الفقهاء الشيعة لنشر الدعوة الفاطمية يرأسهم داعي الدعاة.

وعمل العزيز على إبراز الشعائر الشيعية، مثل إضافة عبارة «حي على خير العمل» في الأذان، بالإضافة إلى الأعياد والمناسبات الشيعية، مثل الاحتفال بيوم عاشوراء وغدير خم، وأبطل صلاة التراويح من جميع مساجد مصر في عام (٣٧٠هـ/ ٩٨١م). واعتمد في تحقيق أهدافه الدينية ونشر المذهب الإسماعيلي على الشعراء والأدباء والعلماء وكبار الموظفين[(١)].

كانت الدولة الفاطمية تعتمد في نشأتها حتى عهد المعز على مساعدة القبائل المغربية، مع استثناءات قليلة، عندما استعان المعز بالعنصرين الصقلبي والتركي، ولكنها ما لبثت منذ عهد العزيز أن اعتمدت على العنصر التركي، فاختار عدداً منهم لتولي المناصب القيادية. فولَّى منجوتكين التركي القيادة وولاية دمشق، ووفياً الصقلبي حكم عكا، وبشارة الأخشيدي حكم طبرية، ورباحاً حكم غزة، وبرجوان الخادم إمارة القصر. أدَّى هذا الاعتماد على العنصر التركي إلى بروز عوامل الحسد والنزاع بين الأتراك والمغاربة[(٢)].

وامتاز عهد العزيز بالعطف على أهل الذمة، النصارى واليهود، فرفعهم إلى منصب الوزارة، وقلَّدهم أرفع مناصب الدولة، ويعود سبب ذلك إلى تأثره بزوجته النصرانية. قلَّد العزيز يعقوب بن كِلِّس الوزارة، وهو أول وزراء الدولة الفاطمية في مصر، وأعظمهم شأناً، واقترن اسمه بإصلاح نظام الضرائب بالبحث عن مصادرها، وتشدَّد في تحصيل المتأخر منها، وسلك سبيل الحزم في جبايتها، فزادت نتيجة ذلك

---

(١) الأنطاكي: ص ١٩٣.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١١٧.

موارد الدولة المالية، ولما توفي ابن كِلِّس حزن عليه العزيز[1]. وكان عيسى بن نسطورس من بين الأشخاص الذين تولوا الوزارة في عهد العزيز إلا أنه لم ينل محبة الشعب المصري لمبالغته في إكرام أهل الذمة، كما ولّاه الشام، وولى منشّا بن إبراهيم الفرار، اليهودي ولاية الشام أيضاً، واتخذ طبيباً نصرانياً يدعى أبو الفتح منصور بن مقشر المصري، وكانت له منزلة رفيعة في الدولة[2].

وعيَّن العزيز في عام (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) أريستس، أخا زوجته، بطريركاً على بيت المقدس، أقام مدة عشرين عاماً وتوفي في القسطنطينية، كما عيَّن أخاه أرسانيوس مطراناً على القاهرة ومصر وكان لهما «محلاً لطيفاً من العزيز بالله وتقديراً في مملكته»[3]. وبلغ من شدة عطفه على النصارى أنه شاركهم في أعيادهم ومواسمهم الدينية. تحكَّم الوزراء والكتَّاب الذميون في معظم أعمال الدولة، واستأثروا بمعظم السلطات.

كان من أثر سياسة التسامح الديني التي اتبعها العزيز مع أهل الذمة نتيجتان:

الأولى: أنهم ملؤوا دواوين الدولة بكتَّابهم، وأوقعوا بالمسلمين، وضايقوهم.

الثانية: استياء المسلمين بعامة من استئثار هؤلاء بمناصب الدولة، واحتجوا لدى العزيز.

وأدرك العزيز خطر هذه السياسة الدينية على حكمه وهيبة إمامته المذهبية، فانقلب على الذميين، وطاردهم، وقبض على عيسى بن نسطورس وزملائه من الكتَّاب، كما ألقى القبض على منشّا بن إبراهيم الفرار، وغيره من الموظفين اليهود، وأعاد الكتَّاب المسلمين إلى أعمالهم بالدواوين، إلا أنه عفا عن عيسى بن نسطورس بعد تدخل زوجته وابنته ست الملك وولَّاه الوزارة، واشترط عليه أن يولي المسلمين في الدواوين[4].

الصعوبات التي واجهت العزيز في بلاد الشام

استمرار الصراع مع أفتكين التركي

أشرنا، من قبل، إلى تفاقم خطر أفتكين والقرامطة في بلاد الشام، وعجز المعز

(١) ابن ظافر: ص ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٧٠. الأنطاكي: ص ١٨٢. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) الأنطاكي: المصدر نفسه ص ٢٠٣.

(٤) ابن ظافر: ص ٤١.

عن إخضاعهما. وعندما تولى العزيز مقاليد الحكم، وبعد أن فرغ من توطيد وضعه الداخلي، التفت إلى بلاد الشام لاستردادها. فانتهج الخط السياسي أولاً، فكتب إلى أفتكين يستقطبه ويعده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق، فردَّ عليه رداً جافاً جاء فيه «هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً»[1]. استاء العزيز من هذا الرد وحنق على أفتكين، واستشار وزيره يعقوب بن كِلِّس في الأمر، فأشار عليه بإرسال جوهر الصقلي على رأس جيش إلى دمشق لانتزاعها من يده[2].

خرج جوهر الصقلي من مصر في شهر (رمضان ٣٦٥هـ/ أيار ٩٧٦م) متوجهاً إلى دمشق، واستولى في طريقه على الرملة، وفرَّ حكامها القرامطة إلى الأحساء. ولما علم أفتكين بزحف الجيش الفاطمي إلى دمشق، خشي من الأخطار التي قد تحدق بأهلها من جراء ذلك، فأعرب لهم عن استعداده للرحيل عنها ليجنِّبهم شر القتال. لكن أهل دمشق جدَّدوا ثقتهم به، وتمسَّكوا ببقائه بينهم، ووعدوه ببذل الأموال والأنفس، فقرر عندئذٍ البقاء في المدينة، واتخذ الاحتياطات الدفاعية اللازمة، للتصدي للجيش الفاطمي[3].

وكان العزيز قد حمَّل جوهراً الصقلي كتاب عفو وأمان لأفتكين، وخاتماً، ودستاً من ثيابه. فلما استولى على الرملة كتب إليه بالرفق والملاطفة، وأعلمه بقرار العفو، وأشار عليه بترك الفتنة والدخول في طاعة العزيز. فأجابه أفتكين بالشكر على حسن سعيه لدى العزيز، واعتذر برفض أهل دمشق عودة الحكم الفاطمي إلى مدينتهم، مما حمل جوهر الصقلي على متابعة زحفه باتجاه دمشق للقضاء على حركته، وإعادة بسط السيادة الفاطمية على المدينة. ولما وصل إليها في (أول ذي الحجة/ ٣١ تموز) ضرب عليها حصاراً مركزاً. وأبدى أفتكين شجاعة فائقة في محاربته، ودارت بينهما معارك عديدة انتهت بهزيمة أفتكين، كما أن طول مدة الحصار الذي استمر خمسة أشهر، أدَّى إلى مضايقة السكان، فأشاروا عليه أن يطلب المساعدة من الحسن الأعصم، زعيم القرامطة، فوعده هذا بالمساعدة، وسار إليه من الأحساء مع عسكره[4].

أدرك جوهر الصقلي، بعد أن علم بخروج الحسن الأعصم، أنه لا قِبَل له بمواجهة عدوين، فرأى أن يُنهي حصاره لدمشق ويرحل إلى الرملة، وبخاصة أن

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٠. الأنطاكي: ص ١٧٩.
(٤) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٣٠ ـ ٣١.

موارده قد نضبت، وهلك كثير من جنده، لذلك طلب الصلح من أفتكين مقابل الجلاء عن دمشق فأجابه أفتكين إلى طلبه، فرفع جوهر الصقلي عندئذٍ الحصار عن المدينة في (٣ جمادى الأولى عام ٣٦٦هـ/ ٢٨ كانون الأول عام ٩٧٦م)، وغادر المنطقة إلى طبرية[١].

ووصل الحسن الأعصم، في هذه الأثناء، إلى دمشق، وانضم بقواته إلى أفتكين، وتقرر تنفيذ عملية مطاردة للجيش الفاطمي. ولما علم جوهر الصقلي بذلك، سار إلى الرملة، وأرسل أثقاله إلى عسقلان[٢]، وكتب إلى العزيز يعلمه بوضعه الحرج، ويطلب منه تعزيزات إضافية، غير أن التعزيزات العسكرية والتموينية لم تصل، وساء وضعه عندما منع أفتكين عنه الماء، فكتب إلى العزيز أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان، وأنه لا قِبَل له بمواجهة جيوش الحليفين، وطلب منه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان، فأذن له بذلك. وتبعه الحليفان، وحاصراه في تلك المدينة حتى ندرت المؤن وعزَّت الأقوات وارتفعت الأسعار، وأصاب السكان ضيق شديد، وكان الوقت شتاءً لا يسهل معه حمل المؤن في البحر. واشتد الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار معزي، فرأى جوهر الصقلي، الذي اتصف بالبراعة السياسية، وبُعد النظر أن يتصرف بمعزل عن القاهرة، حتى لا يقع فريسة في يد أعدائه، فرأى أن يعمل على القضاء على ذلك التحالف، فكتب إلى أفتكين يطلب منه المهادنة، كما أبدى رغبته في مقابلته. رحَّب أفتكين بهذا اللقاء الذي تمَّ بينهما، وتمكَّن جوهر الصقلي من إقناع خصمه بالحل السياسي، وفضِّ تحالفه مع الحسن الأعصم، واتفق الرجلان على أن:

- يكون من عسقلان وما يليها من أعمال الشام إلى أفتكين.
- تُقام الدعوة للعزيز في عسقلان.
- يعود خراج عسقلان إلى أفتكين[٣].

والواقع أن جوهراً الصقلي لم يتراجع عن عزمه بمحاربة خصميه، وإنما هدف إلى كسب الوقت، وتحسين وضعه القتالي، واستغلال فرصة أخرى أكثر ملاءمة. ولم يكن الحسن الأعصم بغافل عن هذه الحقيقة، ولما أخبره أفتكين بما تمَّ بينه وبين جوهر

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣١.الأنطاكي: ص ١٧٩.

(٢) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام. الحموي: جـ ٤ ص ١٢٢.

(٣) الأنطاكي: ١٨٠. ابن القلانسي: ص ٣١ ـ ٣٣.

الصقلي، خطَّأ رأيه وقال له: «... سيرجع إلى صاحبه ويحمله على قصدنا، ثم لا يكون بنا طاقة فيأخذنا». ونصحه بنقض الاتفاق وشنِّ هجوم مشترك على جوهر الصقلي وقواته، لكن أفتكين رفض أن ينكث بيمينه ويغدر بما تعاهد عليه(١).

وفعلاً عاد جوهر الصقلي إلى القاهرة وأوضح للعزيز حقيقة الوضع في بلاد الشام، وما أصاب سلطان الفاطميين من ضعف وانحلال، وأبلغه أن أفتكين والحسن الأعصم سوف يهاجمان القاهرة، وأشار عليه الخروج بنفسه لاستعادة نفوذه على هذه البلاد. فأمر العزيز بتجهيز الجيوش، وخرج على رأسه وجعل جوهراً الصقلي على مقدمته(٢).

بلغت أنباء خروج العزيز من مصر مسامع أفتكين والحسن الأعصم، فتراجعا من عسقلان وعادا إلى الرملة استعداداً لمواجهته والتصدي له عند هذه المدينة، وعسكرا في المكان المعروف ببركة الخيزران، في حين عسكر الجيش الفاطمي بظاهر الرملة في المكان المعروف بقصر ابن السرح، على مقربة من جيش التحالف. ودار قتال بين الطرفين على نهر الطواحين. واستبسل أفتكين في القتال، مما أعجب العزيز، فأرسل إليه رجلاً يطلب منه الكفَّ عن القتال على أن يعينه قائد جيشه ويوليه الشام، غير أن القائد التركي رفض العرض، وواصل القتال. وانتهت المعركة في (٢٢ محرم ٣٦٨هـ/ ٣٠ آب ٩٧٨م) بانتصار واضح للجيش الفاطمي، وهرب أفتكين في جو الهزيمة القاتم باتجاه الساحل، لكن قُبض عليه وسيق إلى العزيز الذي عفا عنه، وبادله أفتكين هذا العفو، فتعهَّد له القيام بخدمته. أما الحسن الأعصم فإنه ولَّى منهزماً إلى طبرية حيث لحق به رسول العزيز يدعوه لمقابلته، ووعده بالعفو عنه، فلم تلقَ هذه الدعوة قبولاً منه، وتابع طريقه إلى الأحساء بعد أن اتفق مع العزيز على أن:

- يؤدي للعزيز مبلغ ثلاثين ألف دينار كل سنة.
- يدخل في طاعته(٣).

وهكذا فشلت الحركة التي أثارها أفتكين في بلاد الشام والتي هدَّدت النفوذ الفاطمي، وكادت تقوِّض دعائمه، كما زال نفوذ القرامطة عن هذه البلاد مما سهَّل للفاطميين استعادة دمشق، وصفت لهم بلاد الشام.

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٣.

(٢) المصدر نفسه. الأنطاكي: ص ١٨١. المقريزي: جـ ١ ص ٢٤٤.

(٣) الأنطاكي: المصدر نفسه ص ١٨١ ـ ١٨٢. ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٣٤ ـ ٣٥.

التنازع مع بني الجراح في فلسطين

الواضح أن سياسة الدولة الفاطمية كانت تهدف إلى السيطرة على كامل بلاد الشام وما يتبع ذلك من نشر المذهب الإسماعيلي، فكان لزاماً أن تصطدم بالقوى المختلفة التي تتنازع الحكم فيها مثل بني الجراح في فلسطين، والحمدانيين في حلب، والدولة العباسية الحريصة على مناوأة الفاطميين، والدولة البيزنطية الطامعة في استرداد بلاد الشام.

بنو الجراح أسرة عربية من قبيلة طيء اليمانية، استوطنت المناطق الشمالية من الصحراء العربية، ثم تفرقوا في صدر الإسلام، وانتشروا مع الفتوح الإسلامية في الحجاز وبلاد الشام والعراق، واستوطنوا فلسطين، وأقاموا كياناً سياسياً، واتخذوا الرملة عاصمة لهم، وأدَّوا دوراً بارزاً في تاريخ المنطقة في المدة الواقعة بين عامي (٣٥٨ ـ ٤٣٣هـ/ ٩٦٩ ـ ١٠٤٢م)، واشتهر من زعمائهم حسان بن المفرج بن الجراح الذي كانت له مواقف محدَّدة من الصراع في المنطقة بين القرامطة والفاطميين في عهد المعز، وقد سبق الإشارة إليها.

استغل بنو الجراح عدم استقرار الأوضاع في بلاد الشام، وحاولوا الاستقلال بفلسطين، لكن قوة الدولة الفاطمية، وسيطرتها على تلك البلاد حالت دون ذلك، واكتفى الفاطميون بالاعتراف بهم كزعماء للقبائل العربية هناك.

وحدث في (١٢ ذي القعدة عام ٣٦٧هـ/ ٢١ حزيران عام ٩٧٨م)، أن انهزم أبو تغلب الغضنفر بن حمدان، صاحب الموصل، من قِبَل عضد الدولة البويهي[١]، فتوجَّه إلى دمشق، وطمع في الاستيلاء عليها، فمنعه واليها قسّام التراب[٢] من ذلك، وكتب إلى العزيز يطلب منه إمداده بتعزيزات عسكرية لمواجهته، فأرسل الوزير يعقوب بن كِلِّس جيشاً بقيادة غلامه الفضل ابن أبي الفضل، إلى بلاد الشام، ولما وصل إلى الرملة، سلَّم دغفل بن المفرج بن الجراح الطائي سجلاً من العزيز بتوليته الرملة على أن يساعد الفضل في التصدِّي لأبي تغلب، لكن بني الجراح ما لبثوا أن سيطروا على فلسطين بعد مقتل أبي تغلب في (صفر ٣٦٩هـ/ أيلول ٩٧٩م) على يد دغفل بن المفرج، وعاثوا فساداً في المنطقة، فتعطَّل الأمن[٣]. وكان على العزيز أن يقضي عليهم وإقرار النظام في المنطقة. ولما علم دغفل بن الجراح بذلك، غادر

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٢) كان قسّام التراب أحد قادة أفتكين، فانقلب عليه وتسلم الحكم في دمشق.

(٣) الأنطاكي ص١٩١. ابن القلانسي: ص ٣٨. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

المنطقة، وكتب إلى العزيز يتلطف أمره، فأمر قائده الفضل بالكف عنه والعودة إلى مصر، في حين عاد دغفل بن الجراح إلى فلسطين، فخرَّب مدنها وقضى على كثير من أهلها.

والواقع أن دغفل بن المفرج الطائي كان ذا نزعات تقلبية، ولم يكن مخلصاً تماماً للفاطميين، فخلع طاعة العزيز، وأراد الاستقلال بشؤون فلسطين، والعزيز من جهته لم يطمئن لولائه له، فجهَّز جيشاً بقيادة بلتكين التركي وأرسله إلى فلسطين للقضاء عليه. وتمكَّن هذا القائد، بمن التف حوله من العرب الناقمين على دغفل بن المفرج، بفعل أعماله التعسفية، أن ينتصر عليه. وهرب دغفل بن المفرج إلى أنطاكية، وطلب الحماية من حاكمها. وصادف آنذاك خروج الأمبراطور البيزنطي على رأس جيش لمهاجمة بلاد الشام، فخشي دغفل بن المفرج على نفسه، فغادر أنطاكية، والتجأ إلى بكجور والي حمص[١].

التنازع في شمال بلاد الشام

واجه الفاطميون صعوبات كثيرة عندما حاولوا بسط سيطرتهم على شمال بلاد الشام، حيث أقام سيف الدولة الحمداني دولة له في حلب في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٥م)، واتسمت علاقاته بالفاطميين بالعدائية لأنه كان يخشى من امتداد نفوذهم السياسي إلى هذه المدينة إذا استولوا على جنوب بلاد الشام، ونهج خلفاؤه السياسة العدائية نفسها تجاه الفاطميين. ومن جهتهم لم يطمئن هؤلاء إلى وجود الحمدانيين في حلب لأنهم يشكلون عقبة في سبيل سيطرتهم على كامل بلاد الشام.

والواقع أن الفاطميين تطلعوا إلى بسط سيطرتهم على شمال بلاد الشام، بعد أن احتلوا جنوبها، وأُحيطت حلب آنذاك بقوتين كبيرتين، قوة الدولة الفاطمية في الجنوب، وقوة الدولة البيزنطية في الشمال، وتأثرت بسياستيهما.

والحقيقة أن سياسة الفاطميين في بلاد الشام، انطلقت من عاملين: عقائدي وسياسي.

فمن حيث العامل العقائدي: فقد استهدفت الدولة الفاطمية الاستيلاء على العالم الإسلامي وإسقاط الخلافة العباسية، كما سبق وأشرنا، وشكَّلت حلب طريقاً طبيعياً إلى العراق.

ومن حيث الدافع السياسي: نلاحظ أن السياسة الفاطمية كانت استمراراً

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

لسياسة مصر الخارجية، على مر العصور، تجاه بلاد الشام التي تشكِّل حلب حاضرة أجزائها الشمالية. ونبعت هذه السياسة من واقع مصر الجغرافي، حيث كان من السهل الهجوم عليها من الشمال الشرقي، وحتى تحول دون ذلك، كان الاستيلاء على بلاد الشام ضرورة سياسية وعسكرية، لجعلها منطقة حاجزة. فنجح الفاطميون في بسط سيطرتهم على جنوب بلاد الشام وفشلوا في حكم الشمال باستثناء مدة قصيرة، لأنهم واجهوا عدة عقبات لم يكن بإمكانهم تجاوزها لعل أهمها، بُعد القاهرة عن حلب، وتراجع القوة الفاطمية بسبب المشكلات الداخلية، وقوة الأمبراطورية البيزنطية خلال القرن الحادي عشر، وقد رفضت بيزنطية وجوداً فاطمياً وقاومته، كما أن سكان بلاد الشام كرهوا الحكم الفاطمي ورفضوه لأسباب دينية مذهبية، واقتصادية وإدارية.

أرغمت هذه الظواهر الصعبة، الدولة الفاطمية على التغاضي عن سياستها المذهبية، وتبنِّي سياسة واقعية. وقد عبَّر عن هذه السياسة الوزير يعقوب بن كِلِّس في وصيته للعزيز حيث قال: «سالم الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانية، أمراء حلب، بالدعوة والسكة، ولا تبقِ على دغفل بن جراح، أمير طيء، إن عرضت لك فيه فرصة»[١].

ويبدو واضحاً في هذه الوصية، مدى تأثير القوتين الحمدانية والبيزنطية في السياسة الخارجية للدولة الفاطمية. وثمَّة حقيقتان يمكن الإشارة إليهما:

الأولى: أن الحمدانيين كانوا آنذاك مرتبطين بالدولة الفاطمية بالخطبة والسكة فقط، ولم يكن هناك ولاة فاطميون تعينهم الدولة.

الثانية: كان الحمدانيون مصدر قلق للدولة الفاطمية، نتيجة ولائهم للبيزنطيين أعداء الفاطميين.

وعلى هذا الأساس تساهلت الدولة الفاطمية في قيام حكم مستقل في حلب، ولكنها لم تتغاضَ عن ذلك في فلسطين لأنها تجاور حدود مصر مباشرة[٢].

أما الدولة البيزنطية فقد تطلعت إلى استعادة بلاد الشام من أيدي المسلمين والاحتفاظ بحلب، أو فرض حكام موالين لها، لأن مثل هذا الوضع كان يمكن استخدامه حاجزاً بينها وبين العالم الإسلامي، وقوة رادعة للهجوم على أملاكها من

---

(١) الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب: الإشارة إلى من نال الوزارة: ص ٥٢. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢١.

(٢) زكار، سهيل: إمارة حلب ص ٣٤ ـ ٣٥.

الجنوب، وعدَّت خسارة حلب خطوة تمهيدية لخسارة أنطاكية وأجزاء أخرى من آسيا الصغرى[1].

سبق الإشارة إلى النزاع الذي نشأ بين أبي المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة وبين قرغويه غلام أبيه، الذي استولى على مقاليد الأمور في المدينة، وانحاز إلى جانب الفاطميين، وأقام الخطبة للمعز، ثم ما كان من استيلاء البيزنطيين على أنطاكية في عام (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م)، وقصدهم حلب حيث اضطر قرغويه إلى عقد صلح مهين معهم.

ثم حدث أن وجَّه سعد الدولة الحمداني، الذي اتصف بالتقلبات السياسية، اهتمامه لاسترداد حلب من قرغويه بعد ثلاث سنوات، فسار إليها على رأس جيش من العرب من بني كلاب وغيرهم، واستعاد الحكم في عام (٣٦٣هـ/ ٩٧٤م) من يد بكجور المتغلِّب عليها بعد قرغوية وأقطعه ولاية حمص[2].

على أن الحمدانيين تعرضوا لضغط البيزنطيين، واضطروا إلى التماس رضى العزيز من جهة، وكسب تأييد الفئة الشيعية القوية في حلب من جهة أخرى. واعترف سعد الدولة بسيادة الفاطميين وخطب لهم على المنابر في عام (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، وأضاف إلى الأذان عبارة «حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر»[3].

وعندما تراجع الضغط البيزنطي، نبذ طاعة الفاطميين وأعلن ولاءه للبويهيين، وأقام الخطبة للخليفة العباسي الطائع، فوصلت إليه الخلع، ثم تمادى في سياسته العدائية للفاطميين، وساعد أفتكين التركي عندما ناهضهم، ومع ذلك فإنه لم يتمتع بالطمأنينة، وشُغل بمحاربة بكجور الطامع في ولاية دمشق، وأراد استعادة نفوذه في حلب، وطلب هذا الأخير من العزيز أن يوليه دمشق ويساعده في الاستيلاء على حلب[4].

والواضح أن العزيز، الذي أضحت له السيطرة على جنوب بلاد الشام ووسطه، ساءه انتظام العلاقة بين سعد الدولة والخلافة العباسية، فتطلَّع إلى الاستيلاء على إمارة حلب، كما أن بيزنطية أخذت تتحين الفرص للتدخل مجدَّداً في شؤون هذه الإمارة. فأرسل الأمبراطور باسيل الثاني قوة عسكرية من اللاذقية بقيادة

---

(١) زكار ص ٣٥.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤٩. ابن العديم: جـ ١ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) ابن العديم: المصدر نفسه ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٤) ابن القلانسي: ص ٥٠.

كرمروك، أغارت على مدن الساحل. وقام الفاطميون بالرد على هذه الغارات، ووصلوا إلى نواحي أنطاكية، غير أن قواتهم رُدَّت على أعقابها، ووصلت فلولهم إلى طرابلس، فقام واليها نزّال بمهاجمة اللاذقية، وتمكّن من إلحاق الهزيمة بالقائد البيزنطي وأسره، واستولى على المدينة، وذلك في عام (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م)[١]. أتاح هذا الانتصار للفاطميين بأن يخلّصوا المدن والحصون الساحلية من أيدي البيزنطيين، وتمكَّنوا من الاستيلاء على حصن بانياس؛ لذلك استجاب العزيز لطلب بكجور وكتب إلى قائده بلتكين في دمشق وإلى منشّا بن إبراهيم الفرّار، كاتب الجيش هناك، بأن يسلما دمشق لبكجور، وأن يمدّاه بقوة عسكرية من دمشق، ثم حاصر حلب. لم يكن أمام سعد الدولة، لدرأ هذا الحظر الذي هدّد حكمه، سوى الاستعانة بالأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، فطلب المساعدة منه، وخوَّفه من أن الفاطميين إذا نجحوا في أخذ حلب فإنهم سوف يهاجمون أنطاكية. ولما كان استيلاء الفاطميين على حلب يهدِّد الدولة البيزنطية بشكل خطير لقربها من ممتلكاتها، فقد كتب إلى بارداس فوكاس، قائد جيوش الشرق، يأمره بمساعدته، مما اضطر بكجور إلى الارتداد عن المدينة وعاد إلى دمشق، وذلك في عام (٣٧٣هـ/ ٩٨٣م)[٢]، وأقام الدعوة للعزيز في قنسرين وحمص[٣].

وحدث في عام (٣٧٦هـ/ ٩٨٦م) أن اعترف سعد الدولة مرة أخرى بسيادة العزيز، وأمر بذكر اسمه في الخطبة بحلب ووصلت إليه الخلع فلبسها كما خطب له بمعرة النعمان. ولعل هذا التقارب بين الأمير الحمداني وبين العزيز الفاطمي إنما حدث بعد أن حلَّت الهزيمة بالجيوش البيزنطية في البلقان على يد البلغار، وتردَّد صداها في سائر أنحاء الشرق. ثم شُغل باسيل الثاني بإخماد الفتن التي قامت في وجهه والتي أثارها بارداس فوكاس قائد جيوش الشرق، وبارداس كليروس الذي أعلن نفسه أمبراطوراً. وإذ بلغ الاضطراب الداخلي في بيزنطية أشده في عام (٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، هيَّأ للعزيز الفرصة لمحاربة البيزنطيين، فجهَّز عدة مراكب «لغزو الروم». وعلى الرغم من أن هذه الحملة لم تحقِّق أهدافها بسبب احتراق مراكبها، إلا أن باسيل الثاني، الذي كان منهمكاً في تسوية مشاكله الداخلية، أراد تبريد الجبهة الخارجية مع المسلمين في شمال بلاد الشام، فأرسل سفارة إلى العزيز لطلب الصلح، فاشترط عليه عدة شروط التزم بها كلها. وتقرَّر الصلح على أساس:

---

(١) الأنطاكي: ص ١٩٤ ـ ١٩٥. النويري: جـ ٢٨ ص ١٥٨.

(٢) ابن القلانسي: ص ٥٠. (٣) النويري: جـ ٢٨ ص ١٥٩.

- إطلاق سراح أسرى المسلمين في بيزنطية.
- الدعاء للعزيز بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة.
- أن يحمل الأمبراطور إلى العزيز من أمتعة الروم كل ما فرضه عليهم.
- مدة الهدنة سبعة أعوام[١].

تدلنا شروط هذا الصلح على ازدياد نفوذ العزيز، وعلى أن الأمبراطورية البيزنطية رفعت القيود التي فرضتها على رعاياها، والتي تقضي بمنعهم من ممارسة التجارة مع مصر. ولعل الغرض الأساسي من سفارة باسيل الثاني هو أن يتجنَّب ما يصح أن يقوم به الأسطول الفاطمي من هجمات، فيزداد وضعه حرجاً، ويمنع التحالف بين بارداس فوكاس والعزيز. والواضح أن الأمبراطور البيزنطي قَبِل هذه الشروط كيما يوجِّه كل قواته للقضاء على ثورة بارداس فوكاس[٢].

أساء بكجور السيرة أثناء حكمه لدمشق مما أدى إلى تذمر السكان، كما ساءت علاقته بالوزير الفاطمي يعقوب بن كِلِّس، فوشى به عند العزيز، وأشار عليه بعزله. استجاب العزيز لطلب وزيره وأرسل عسكراً من مصر إلى دمشق بقيادة منير الخادم الصقلبي. فلما وصل إلى ظاهر دمشق، خرج إليه بكجور لمقاتلته، غير أنه تعرَّض للهزيمة، فطلب الأمان من منير الخادم فمنحه إياه، وسار إلى الرقة على نهر الفرات، واستولى عليها، بينما استقر منير الخادم في دمشق وأحسن السيرة في أهلها[٣].

وطلب بكجور من سعد الدولة أن يعيده إلى ولايته السابقة، حمص، فلبَّى رغبته، لكن أعوان الوزير يعقوب بن كِلِّس حالوا دون وصوله، واستولوا على المدينة. والواضح أن بكجور كان ذا نزعات سلطوية، واتسمت سياسته بالتقلبات السريعة. فحاول من مقره في الرقة أن يوطِّد سلطانه في تلك الجهات، وأن يسترد حلب مستفيداً من تنازع القوى. ولما ساءت علاقته بسعد الدولة، مرة أُخرى، قرَّر مهاجمته، فاستقطب جماعة من غلمانه الساخطين عليه، وكتب إلى العزيز في مصر يطمعه في حلب وقال له: «إن حلب دهليز العراق متى أُخذت كان بعدها أسهل»[٤]، وأقام الدعوة له، وطلب منه المساعدة. فأمر العزيز واليه على طرابلس، وسائر ولاته في بلاد الشام أن ينهضوا لمساعدته. عندئذٍ، استنجد سعد الدولة بالأمبراطور

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٥١ ـ ١٥٤. (٢) العريني: ص ٦١٢.
(٣) ابن القلانسي: ص ٥١ ـ ٥٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٨. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧.

البيزنطي باسيل الثاني[1]، وتوضحت آنئذٍ صورة التحالفات العسكرية. فقد تحالف بكجور مع الفاطميين والعرب، بينما تحالف سعد الدولة مع البيزنطيين والديلم والأتراك وبعض العرب من بني كلاب. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية في الناعورة على مسافة ثمانية أميال من حلب في (محرم ٣٨١هـ/ نيسان ٩٩١م) دارت الدائرة فيها على بكجور وحلفائه، وانتهت بمقتله[2]. وطلب العزيز من سعد الدولة أن يُطلق سراح أولاده، ويرسلهم إلى مصر، لكن الأمير الحمداني رفض شفاعة العزيز وأهان رسوله وردَّ على كتبه يتوعده، وأعلن أنه سوف يزحف على مصر. وفعلاً سيَّر مقدمة عسكره إلى حمص ثم نهض للتوجه إلى دمشق، غير أنه منعه من ذلك إصابته بالفالج، ثم وفاته في (رمضان ٣٨١هـ/ كانون الأول ٩٩١م)[3]، وكان قد عهد بالحكم إلى ابنه أبي الفضائل سعيد الدولة، وأوصى أحد غلمانه، وهو أبو محمد لؤلؤ الكبير السيفي، بالوصاية عليه، فاستبدَّ بالأمور. وعلى الرغم من حسن سياسته الداخلية، فإن جماعة من الجند لجأت إلى العزيز فأحسن استقبالهم وعيَّن بعضهم على البلاد. كما لجأ إلى مصر، بعد وفاة بكجور، وزيره أبو الحسن المغربي، فعظَّم أمر حلب عند العزيز، وأشاد بكثرة أموالها، وهوَّن عليه أمر الاستيلاء عليها، فصادف ذلك هوى في نفس العزيز، لا سيما وأنه أراد الانتقام للإهانة التي وجهها سعد الدولة إلى رسوله، وحرص على أن يضم حلب إلى ممتلكاته، فأعدَّ حملة كبيرة عدتها ثلاثين ألف جندي، وعيَّن على قيادتها منجوتكين التركي.

حاصر منجوتكين مدينة حلب، فبذل له أبو الفضائل أموالاً كثيرة على أن يرحل عنها، ويكون في الطاعة، ويقيم الدعوة للفاطميين، ويضرب السكة باسم العزيز، ويكتب اسمه على البنود في سائر أعماله، غير أن القائد الفاطمي رفض ذلك، عندئذٍ التمس أمير حلب المساعدة من الأمبراطور البيزنطي نظراً لما يربط حلب ببيزنطية من معاهدات.

تعرَّضت حلب، في المدة الواقعة بين (رمضان ٣٨١ وشعبان ٣٨٤هـ/ تشرين الثاني ٩٩١ وأيلول ٩٩٤م)، لأشد ما وجَّهه الفاطميون من هجمات. إذ فرضت

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥٨.

(٢) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٤٧ ـ ٤٤٩. ابن العديم: جـ ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) ابن العديم: المصدر نفسه ص ١٦٦.

جيوش منجوتكين عليها الحصار ثلاث مرات، واستولت على البلاد التابعة لإمارة حلب، وعلى بعض الحصون الواقعة على الحدود بين حلب وأنطاكية، وضيَّقت الخناق على حلب، وأصرَّت على إخضاعها[١].

وحدث، أثناء تعرض حلب للخطر الفاطمي، أن انصرف باسيل الثاني إلى قتال البلغار، وعلى الرغم من الهدنة التي وقَّعها مع العزيز، والتي لم ينتهِ أجلها، كتب إلى واليه على أنطاكية، ميخائيل البرجي، يأمره بالمسير إلى حلب، وفك الحصار عنها، غير أن منجوتكين أحرز عليه انتصاراً عند مخاضة نهر العاصي[٢].

ازدادت الأوضاع الداخلية في حلب تفاقماً، فارتفعت الأسعار، ولم تُجدِ نفعاً تدابير لؤلؤ، عندئذٍ كتب إلى الأمبراطور البيزنطي باسيل لثاني، يستنجد به، للمرة الثانية، وأشار عليه أنه متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية[٣].

أدرك باسيل الثاني خطورة الموقف، فعزم على المضي بنفسه إلى حلب لمساعدتها ضد الفاطميين، وتوجه على رأس جيش ضخم قدَّره المؤرخون بثلاثة عشر ألف جندي، فوصل إلى أنطاكية في شهر (ربيع الأول ٣٨٥هـ/ نيسان ٩٩٥م)، ثم خرج منها قاصداً حلب، ولما اقترب منها أرسل إلى أميرها يخطره بقدومه، وفاجأ القوات الفاطمية على حين غرَّة، وأجبرها على رفع الحصار عن حلب، وعاد منجوتكين إلى دمشق منهزماً في شهر (ربيع الآخر/ أيار)[٤].

واكتفى باسيل الثاني بتجديد معاهدة التحالف مع حلب، وضمَّنها شروطاً في صالح النصارى المقيمين بحلب، ولم يحرص على ضمِّ المدينة إلى ممتلكاته بناءً على نصيحة أخيه وقادته، لإدراكهم أن ذلك يؤدي إلى اتحاد كلمة المسلمين، على أن الأمبراطور البيزنطي استولى على حصن شيزر على مقربة من حماة، وعلى حمص، وحاصر طرابلس التي امتنعت عليه لحصانتها، كما استولى على أنطرطوس وشحنها بالمقاتلة، ثم عاد إلى أنطاكية[٥].

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٢٧. العريني: ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦.

(٢) ابن القلانسي: ص ٧٠. الأنطاكي: المصدر نفسه ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧. ابن العديم: جـ ١ ص ١٧١.

(٣) المصادر نفسها: ص ٧٢ ـ ٧٣. ص ٢٢٨. ص ١٧٢.

(٤) المصادر نفسها.

(٥) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٢١. وأنطرطوس بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص. الحموي: جـ ١ ص ٢٧٠.

ويبدو أن الخطر لم يَزُلْ عن حلب، إذ عندما علم العزيز بمدى تقدم البيزنطيين في بلاد الشام، وانهزام قائده منجوتكين، قرَّر القيام بحملة ضد حلب يقودها بنفسه للاستيلاء على المدينة ووضع حد لتعديات البيزنطيين. وإذ أدرك أمير حلب أن النزاع مع العزيز سمح للبيزنطيين في التمادي في هجماتهم وطلباتهم، رأى أن يبادر إلى مهادنة الفاطميين، وجرى الصلح بين الطرفين، وتضمنت المعاهدة اعتراف الأمير الحمداني ولؤلؤ بحماية العزيز[(١)].

ترتَّب على هذه المعاهدة أن دعا العزيز إلى جهاد البيزنطيين، وأعدَّ جيشاً ضخماً لمحاربتهم وفي نيته إخضاع حلب لحكمه المباشر، متجاوزاً المعاهدة التي أبرمها مع الحمدانيين. ولحرصه على توفير المؤن للعساكر، بعد بلوغهم بلاد الشام، طلب من وزيره عيسى بن نسطورس بإعداد أسطول بحري يسير إلى طرابلس في خط موازٍ لمسير الجيش البري[(٢)].

أمر عيسى بن نسطورس بجمع الأخشاب من سائر النواحي، وبني أسطولاً في دار الصناعة بالمقس. وما إن انتهى العمل من صناعة هذه السفن حتى أُعدَّت للإقلاع بعد صلاة الجمعة (١٣ ربيع الآخر ٣٨٦هـ/ ٩ أيار ٩٩٦م)، غير أن هذا الأسطول الكبير، الذي كان على أهبة الاستعداد للرحيل إلى هدفه، لم يلبث، بعد أيام قليلة من إعداده وشحنه، أن تعرَّض لحريق مروع. فقد شبَّت النار في دار الصناعة بالمقس وأحرقته باستثناء ست سفن نجت من الحريق. وكان لهذا الحدث أثر سيء في نفوس المصريين، وأثار موجة من الغضب في نفوس البحارة، فوجهوا تهمة إحراق الأسطول إلى التجار اليونانيين والأمغاليين، وكانوا يقيمون بدار فاتك المجاورة لدار صناعة المقس. ووثب البحارة على هؤلاء التجار، وانضم إليهم جماعة من العامة، وقتلوا عدداً منهم، وقبضوا على الباقين وسجنوهم في دار صناعة المقس[(٣)].

وبناءً على أوامر العزيز، شرع عيسى بن نسطورس في إنشاء أسطول آخر، بلغ عدد مراكبه أربعة وعشرين، وانتهى البناء في غضون ثلاثة أشهر، وشحنه بالمقاتلة، وأرسله إلى أنطرطوس بقيادة رشيق العزيزي، نجدة لمنجوتكين، الذي كان يحاصر المدينة لاستردادها من أيدي البيزنطيين، غير أن هذا الأسطول الجديد لم يلبث أن

(١) ابن القلانسي: ص ٧٣. الأنطاكي: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٢) الأنطاكي: المصدر نفسه ص ٢٣٣.
(٣) المصدر نفسه. المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ١ ص ٢٩٠.

تعرَّض لعاصفة عاتية حطمته بالقرب من ميناء طرابلس، وأسر البيزنطيون بعض بحارته[1].

ووقع في تلك الأثناء حادث بالغ الأهمية في مجرى الأمور، ذلك أن الحملة البرية التي قادها العزيز توقفت في بلبيس بفعل اشتداد المرض عليه، ولم يلبث أن توفي في (٢٨ رمضان ٣٨٦هـ/ ١٤ تشرين الأول ٩٩٦م)[2]، والواقع أن هذه الوفاة أنقذت حلب والأمبراطورية البيزنطية من حرب بالغة الخطورة.

العلاقة مع الخلافة العباسية

تأسيس الدولة البويهية

ظهر بنو بويه على مسرح الأحداث في أوائل القرن الرابع الهجري، وقد اعتنقوا المذهب العلوي الزيدي[3]، وأسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان، وبسطوا هيمنة فعلية على العراق، فشاركوا الخلافة العباسية في حكمه، وعظم نفوذ هذه الأسرة حتى سمي باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية.

هاجرت هذه الأسرة من الشمال، من بلاد الديلم المنطقة المجاورة لبحر قزوين، واشتهرت على يد الأخ الأكبر من الإخوة البويهيين الثلاثة، وهو علي بن شجاع بن بويه الذي أسس دولة بويهية في فارس، واتخذ من مدينة شيراز قاعدة لحكمه، وأرسل إلى الخليفة العباسي الراضي يطلب منه الاعتراف بسلطانه، ثم سيطر على بلاد الجبل، وأرسل أخاه حسن إلى أصفهان والري وهمذان والكرج وبقية بلاد العراق العجمي، فسيطر عليه، واستولى علي على كرمان والأهواز، قبل الدخول إلى العراق الذي كان محط أنظاره.

كانت الحالة السياسية مضطربة في العراق بفعل اشتداد الخلافات بين ابن رائق، والي البصرة، وأمير الأمراء من جهة، وبين أبي عبد الله البريدي والي الأهواز السابق والفار من وجه الخلافة، من جهة أخرى، وقد التجأ إلى علي بن بويه وأطمعه في دخول العراق.

ومن جهة أخرى، كانت الخلافة العباسية واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٥. المقريزي: جـ ١ ص ٢٩١.

(٣) انظر فيما يتعلق بظروف ظهور الأسرة البويهية: مسكويه جـ ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٩.

عجزها في إقرار الأمور في العراق، فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي، وبفشل أمراء الأمراء، كما اختلَّت المالية العامة في الدولة، وفرغت خزائن الخلافة، ووقع الخلفاء في ضائقة مالية شديدة، وذلك نتيجة لتحكُّم الأتراك وجشعهم.

دفعت هذه الأوضاع المتردية، الخليفة العباسي المتقي لطلب المساعدة من البويهيين، فدعا الأخ الثالث، وهو أحمد بن بويه، لدخول بغداد، فسار إليها في عام (٣٣٢هـ/ ٩٤٤م) ودخلها في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م)، وخرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي (٣٣٣ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ـ ٩٤٦م)، واحتفى به، وخلع عليه، وعيَّنه أميراً للأمراء، ولقَّبه معز الدولة، ولقَّب أخاه علياً عماد الدولة، وأخاه الحسن ركن الدولة[١].

الفاطميون بين البويهيين والعباسيين

كان من المتوقع أن يعيد البويهيون الاستقرار والوحدة إلى أقاليم الخلافة العباسية بعد سيطرتهم عليها، وكبح جماح جندهم، وإفساح المجال أمام الخلافة كي تضطلع بمسؤولياتها، وتجنُّب إثارة الفتن المذهبية، إلا أن ذلك لم يتحقَّق، لأنهم دخلوا بغداد يحملون روح العداء للخلفاء العباسيين المخالفين لهم في المذهب. وقد فكَّر معز الدولة في إلغاء الخلافة العباسية وإقامة خلافة شيعية على أنقاضها وتنصيب أحد الزعماء الزيديين. وكان بإمكانه تحقيق ذلك إلا أنه أحجم بعد استشارة أصحابه، لأن مثل هذا التغيير كان سيعرض العالم الإسلامي لهزات عنيفة، بالإضافة إلى زعزعة الحكم البويهي، وبالتالي فإن الشيعة في العراق، الذين حاول معز الدولة استمالتهم إليه، كانوا على مذهب الإمامية، وهذا يدل على أن تنصيب خليفة زيدي سيكون سياناً في نظرهم بالمقارنة مع الخليفة العباسي، غير أنه استبد بأمور الخلافة، وشارك الخليفة في مظاهر سيادته الدينية والسياسية، وفَقَدَ هذا الأخير اختصاصاته كحاكم[٢].

كان العراق محط أنظار الفاطميين وبخاصة بعد دخول البويهيين إليه، واستئثارهم بالنفوذ، ومن ثَمَّ أضحوا لا يعترفون بحق العباسيين في السيادة على جميع العالم الإسلامي، وعدُّوهم مغتصبين للخلافة من أصحابها الشيعة. وقد تأثر البويهيون، إلى حد كبير، بالدعاية الفاطمية.

وحذا الأمراء البويهيون بعد معز الدولة، حذوه، فاتصلوا بالفاطميين، وسمحوا

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٥٧.

(٢) انظر فيما يتعلق بالعلاقة بين الخلفاء العباسيين والبويهيين كتابنا: تاريخ الدولة العباسية ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩.

لدعاتهم بنشر عقائد مذهبهم في العراق وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذهم. والحقيقة أن البويهيين، على الرغم من حرصهم على التمسُّك بنفوذهم السياسي بعيداً عن السيطرة الفاطمية إلا أنهم كانوا يؤثرون الفاطميين على العباسيين من ناحية المذهب. ومن جهته فإن العزيز لم يقم بأية محاولة للتحرش بالخلافة العباسية، واكتفى فقط بالقيام بنشاط سياسي، فتبادل الرسائل مع عضد الدولة بن ركن الدولة البويهي في عهد الخليفة العباسي الطائع، واعترف عضد الدولة بإمامته، وكان لغارات البيزنطيين المتكررة على الأراضي المجاورة لحدود كل من الدولتين، العباسية والفاطمية، أثر كبير في التقارب بينهما وتعاونهما على إيقاف هذا العدو المشترك، ويتبين ذلك من الكتاب الذي أرسله العزيز إلى عضد الدولة في عام (٣٦٩هـ/ ٩٧٩م)، وجاء فيه «.. إن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك، فأدَّى ما تحمله من إخلاصك في ولاء أمير المؤمنين، ومقدرتك، ومعرفتك بحق إمامته وحميتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين، فسُرَّ أمير المؤمنين بما سمعه عنك، ووافق ما كان يتوسمه فيك، وأنك تعدل عن الحق... وقد علمت ما جرى من نفور المسلمين من المشركين، وخراب الشام، وضُعف أهله، وغلاء الأسعار. ولولا ذلك لتوجه أمير المؤمنين بنفسه إلى الثغور، وسوف يقوم إلى الحيرة، وكتابه يُقدم عليك عن قريب، فتأهب إلى الجهاد في سبيل الله»[(١)]، وحرص على استمرار علاقة الود مع البويهيين لاتخاذهم ذريعة للسيطرة على العراق. ومن الملاحظ أن رسول العزيز استقبل في بغداد بحفاوة بالغة.

وردَّ عضد الدولة على كتاب العزيز الذي أقرَّ فيه انتماءه لأهل البيت، وخاطبه بـ «الحضرة الشريفة»، وأنه في طاعته. ويبدو أن هذا التصرف غريب، وبخاصة أن ابن ظافر يذكر أنه لم يكن يعترف بالنسَب الفاطمي[(٢)]. وعلَّق أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي على هذا الكتاب بقوله: «وأنا أتعجب من كون عضد الدولة كان إليه أمر الخليفة العباسي ونهيه، ويقع في مثل هذا لخلفاء مصر، وقد علم كل أحد ما كان بين بني العباس وخلفاء مصر من الشنآن، وما أظن عضد الدولة كتب له بذلك إلا عجزاً عن مقاومته، فإنه قرأ كتابه في حضرة الخليفة الطائع، وأجاب بذلك أيضاً بعلمه، فهذا من العجب»[(٣)].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٢٤.

(٢) أخبار الدول المنقطعة: ص ٣٤.

(٣) النجوم الزاهرة: جـ ٤ ص ١٢٥.

والراجح أن ذلك الاستقبال لرسول العزيز، وهذا الرد كان متعمَّداً من عضد الدولة الذي توزعت ولاءاته بين العباسيين والفاطميين للحفاظ على سيادته، إذ كان يفضِّل أن يحكم العراق في ظل خلافة عباسية ضعيفة، على حكم فاطمي قوي، كما أنه أراد إظهار استقوائه على الفاطميين إذا ما حاولوا السيطرة على العراق والحلول محل العباسيين، فتزول بذلك سيادته، بدليل أنه عندما حاول الفاطميون تثبيت أقدامهم في بلاد الشام تمهيداً للتمدد نحو العراق تصادمت مصالحهم مع مصالح البويهيين، فتبدَّلت العلاقة بين عضد الدولة والعزيز، بل إن الأول راح يجهِّز قواته لغزو مصر واستردادها من يد الفاطميين، بعد أن تبيَّن له خطر الدولة الفاطمية، على النفوذ البويهي، وكتب على أعلامه «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، الطائع لله أمير المؤمنين، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين...»[(١)].

واستغل هذه المناسبة للتشكيك في نسب الفاطميين، فدعا الشيعة في بغداد وقال لهم: «إن الخليفة بمصر يدَّعي أنه علوي، فأنكروا انتسابه إليهم» فأرسل إلى العزيز عندئذ، رسولاً يقول له: «نريد أن نعرف من أنتَ». فعظم ذلك على الخليفة الفاطمي، وأزمع رسول عضد الدولة على العودة إلى بغداد، وبينما هو في الطريق قتل في طرابلس[(٢)].

لكن الفاطميين لم يدَّخروا جهداً في سبيل نشر الدعوة الفاطمية في العراق، فأقيمت الدعوة لهم في الموصل على يد أميرها أبي الدرداء محمد بن المسيِّب بن رافع بن المقلد العقيلي، وذلك في عام (٣٨٢هـ/ ٩٩٢م)[(٣)].

العلاقة مع الحجازيين

تعرَّضت السيادة الفاطمية على الحجاز لخضَّة عنيفة عقب وفاة المعز، وتولي ابنه العزيز مقاليد الحكم. فقد قطع أشراف مكة والمدينة الخطبة للعزيز وخطبوا للخليفة العباسي الطائع[(٤)]. لكن العزيز لم يكن ليسمح بعودة النفوذ العباسي إلى الحجاز مرة أخرى، فبادر إلى اتخاذ موقف عاجل وعنيف تجاه الحجازيين. فأرسل أميراً شيعياً مع بعض الجند إلى الحجاز، حاصروا مكة والمدينة، وضيَّقوا على

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٩١ ـ ٢٩٤. (٢) ابن ظافر: ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥. المقريزي: جـ ١ ص ٢٧٤.

(٤) ابن خلدون: المصدر نفسه ص ٥١.

أهلهما، ومنعوا الإمدادات عنهم، فتناقصت الأقوات، وارتفعت الأسعار، مما اضطر أشراف المدينتين المقدستين إلى العودة إلى السيادة الفاطمية، وخطبوا للعزيز على منابرهم[(١)]. ويُعدُّ هذا الموقف من العزيز بداية التدخل الفاطمي المباشر في الحجاز[(٢)].

وأرسل العزيز في عام (٣٦٦هـ/ ٩٧٧م) قوة عسكرية بصحبة موكب الحاج المصري أقاموا الدعوة له[(٣)]، كما أرسل باديس بن زيري الصنهاجي، في العام التالي، أميراً على الحاج وأمره بإقامة الخطبة له في مكة، فاستولى على الحرمين وخطب له.

وأثبت الفاطميون أنهم لن يتخلَّوا عن سيطرتهم على الحجاز، لأن تلك السيطرة تُظهرهم أمام العالم الإسلامي بمظهر حماة الأماكن المقدسة، ولن يسمحوا لأي سلطة، في الداخل أو الخارج، أن تنتقص من هذه الحماية[(٤)].

ولجأ العباسيون بدورهم إلى استخدام القوة لاستعادة نفوذهم في الحجاز. فأرسل عضد الدولة البويهي في (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م)، قوة عسكرية إلى مكة أجبر أشرافها على إعلان تبعيتهم للخلافة العباسية، ثم قام بإصلاح الطريق من العراق إلى مكة، وأطلق الصِلات للضعفاء في مكة والمدينة[(٥)]. واستردَّ الفاطميون سيادتهم في العام التالي التي استمرت طوال عهد العزيز بفضل ما كان يُغدقه على الأشراف من الأموال الكثيرة، والهدايا الوفيرة، بالإضافة إلى الغلال من القمح والشعير والدقيق والزيت وسائر الحبوب التي يفتقر إليها إقليم الحجاز، كما كان يُرسل كسوة الكعبة ومعها الصِلات للأشراف والطيب والشمع[(٦)].

ترتَّب على هذه السيادة الفاطمية على مكة أن توالى الحاج من مصر، وانقطع ركب العراق في عام (٣٨١هـ/ ٩٩١م) خشية من انتقام الفاطميين. وظلَّ أمير مكة عيسى بن جعفر يقيم الدعوة للفاطميين على منابر مكة حتى وفاته في عام (٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، وكان قد زار مصر واجتمع بالعزيز، فأكرمه وأحسن إليه[(٧)].

لم يركن العباسيون إلى الهدوء أمام هذا التنافس على انتزاع زعامة العالم الإسلامي عن طريق كسب الدعوة في الحرمين الشريفين، فقد كانوا يشعرون بأنهم

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٥١.
(٢) محمد: ص ٨٨.
(٣) ابن فهد: جـ ٢ ص ٤١٤.
(٤) محمد: ص ٨٨.
(٥) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٨٧.
(٦) المقريزي: جـ ١ ص ٢٤٦ ـ ٢٥٢.
(٧) المصدر نفسه: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

خلفاء الإسلام دون الفاطميين، ومن حقِّهم الدعوة لهم في الحجاز، والسيطرة عليه، لذلك لجأوا إلى استعادة نفوذهم على مكة.

وحاول الخليفة العباسي القادر (٣٨١- ٤٢٢هـ/ ٩٩١- ١٠٣١م) استمالة الشريف أبي الفتوح الحسن بن جعفر، الذي خلف أخاه في حكم مكة، ووعده بأن يجعل الإمارة وراثية في عقبه، إلا أن أبا الفتوح رفض هذا العرض، وتمسك بالولاء للفاطميين. وأرسل كتاب القادر إلى العزيز، فشكره على ولائه له، وأرسل إليه الخلع والأموال، وكسوة الكعبة[(١)].

كما ظلَّ طاهر بن مسلم، الذي استقلَّ في المدينة، موالياً للفاطميين حتى وفاته في عام (٣٨١هـ/ ٩٩١م)، فخلفه في الإمارة ابنه الحسن بن طاهر، ويلقب بمهنَّى، فنهج نهج أبيه في اعترافه بسيادة الفاطميين[(٢)].

نتج عن ذلك أن توطَّد النفوذ الفاطمي في الحجاز في عهد العزيز، وتعزَّز بعد أن نجح العزيز في استمالة القرامطة من جديد إلى جانب الفاطميين، وإثارة حفيظتهم ضد العباسيين[(٣)]. وقد قدم رسول القرامطة إلى مصر في عام (٣٨٢هـ/ ٩٩٢م) يُعلِن دخولهم في طاعة العزيز[(٤)]، وكان من أثر هذه السياسة أن أوقف القرامطة غاراتهم على الحجاز، واتجهوا نحو الممتلكات العباسية، فأغاروا على البصرة، وحالوا دون وصول ركب الحاج العراقي إلى الحجاز.

العلاقة مع الزيريين في إفريقية

نتج عن تولي بُلُكين بن زيري شؤون شمال إفريقية أن أضحى رجل من قلب بلاد المغرب رئيساً لدولة إسلامية مستقرة في إفريقية والمغرب الأوسط، وكان عليه أن يحقِّق استقلالها، ويهيىء لها سبل النظام والقوة. وبذلك دخلت مراحل الحكم الإسلامي في المغرب بعامة في دور جديد، هو دور استقلال المغاربة بأمور الحكم في بلادهم[(٥)]. ويُعدُّ هذا الانتقال للحكم والسلطان، انتقالاً من العرب إلى زعماء البربر ورؤوساء قبائلهم، وهذا يعني استقلال المغرب الإسلامي عن المشرق الإسلامي.

اهتم بُلُكين بن زيري، في بداية عهده، بتنظيم شؤونه الداخلية، فرأى أن تنظيمات المعز الإدارية والمالية تشكل عائقاً يحول دون ممارسته السلطة، فعيَّن

---

(١) ابن فهد: جـ ٢ ص ٤٢١. الجزيري: جـ ١ ص ٥٣٠.
(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٠٩.
(٣) حسن، إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي السياسي... جـ ٤ ص ٢٥٦.
(٤) المقريزي: جـ ١ ص ٢٧٤.
(٥) مؤنس: جـ ١ ص ٥٦٨.

رجالاً على أعمال ولايته موالين له. فجعل عبد الله بن محمد الكاتب على إفريقية، وقد أثار ذلك زيادة الله بن القديم، الذي عيَّنه المعز من قبل، وجرى قتال بين أنصار الرجلين انتهى إلى القبض على ابن القديم، وإخماد فتنة أنصاره. وإذا كان المعز لم يثرْ مسألة عزل عامله، فمن المرجح أن مرد ذلك يعود إلى السياسة المرنة التي انتهجها، والتي ضمنت له مظاهر تبعية بني زيري دون أن يتعارض ذلك مع ما كانوا يطمحون إليه من الاستقلال[1].

ولما توفي المعز، وخلفه العزيز، أرسل إلى بلُكين بن زيري سجلاً بتجديد ولايته على إفريقية والمغرب الأوسط، ودراهم من السكة ضُربت باسمه[2]، مما أضفى الشرعية على حكمه، وأكَّد تبعية إفريقية، والمغرب الأوسط للدولة الفاطمية في مصر.

واستمرت العلاقات الطيبة بين الرجلين، فقد أرسل بُلُكين بن زيري في شهر (جمادى الآخرة ٣٦٥هـ/ شباط ٩٧٦م) هدية قيِّمة إلى العزيز كدليل على الطاعة والولاء. وفي إطار العلاقات الودية، كتب الأمير الصنهاجي إلى العزيز في عام (٣٦٧هـ/ ٩٧٨م) يسأله أن يضم طرابلس الغرب وملحقاتها من أعمال سرت وأجدابية، إلى عمله، فاستجاب العزيز لطلبه، وعقد له عليهما[3].

ويبدو أن العزيز أقدم على هذه الخطوة ليتخلَّص من أعباء هذه الولاية، وتقرُّباً لبني زيري في الوقت نفسه، غير أنها تُعدُّ خطوة خاطئة، لأن الدولة الفاطمية فقدت عمقاً سياسياً وعسكرياً يؤهلها الوقوف على أوضاع إفريقية الداخلية، فضلاً عن إحكام السيطرة والحد من نفوذ بني زيري وطموحهم إلى الاستقلال[4].

أراد بلُكين بن زيري أن يثبت أنه أهل للحكم الذي عهد إليه، فتطلع إلى المغربين الأوسط والأقصى للقضاء على قوة الزناتيين والأمويين. والحقيقة أن حكمه واجه معارضة شديدة من جانب الزناتيين الذين أثارهم وصول بيت زيري الصنهاجي بمساعدة قوات كتامة إلى الحكم، وكأنما كان خروج العرب من الميدان السياسي، بعثاً للصراعات القبلية القديمة، فهاجموا بلاد المغرب الأوسط، وردَّ بُلُكين بمهاجمة معاقلهم. تحصَّن الزناتيون في سبتة بقيادة جعفر بن علي بن حمدون، وأرسل أخاه يحيى إلى الأندلس لطلب المساعدة من المنصور محمد بن أبي عامر المستبد بأمر

(١) مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٤٥.
(٢) ابن أبي دينار: ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه. وقارن بابن الأثير الذي يجعل الحادثة في عام ٣٦٥ هـ. جـ ٧ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.
(٤) أحمد، حسن خضيري: علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب ص ٣٩.

الأندلس، فخرج بعساكره إلى الجزيرة الخضراء ليراقب الوضع عن كثب. وأمدَّ حلفاءه بمن كان عنده من أمراء زناتة الموالين للأمويين في قرطبة، كما زوَّدهم بالأموال اللازمة لتغطية نفقات الحرب. ولما أشرف بُلُكين على الجيش الأندلسي من أعالي الجبال المطلة على المدينة، ورأى منعتها وحصانتها، وكثرة جيشها، وسرعة إمداداتها، هاله ذلك، وأدرك بأنه يصعب عليه الاستيلاء عليها عن طريق البر، فلم يشتبك معهم في قتال وقال لأصحابه: «إنما سبتة حيَّة ولت ذنبها حذاءنا، وفغرت فاها نحونا»، وانصرف نحو الجنوب[1]، واكتفى بتخريب البصرة، وهي مركز جعفر بن علي بن حمدون، فهرب كثير من الزناتيين إلى الصحراء، واستولى على فاس وسجلماسة وتِلِمْسان، وأخرج أهلها إلى مدينة أشير، وطرد عمَّال الأمويين ثم عاد إلى القيروان حيث تلقَّى أمراً من القاهرة بألَّا يتعدَّى هذه الحدود، كما نُهي عن التوغل في المغرب الأقصى، وظلت سبتة معقلاً حصيناً للزناتيين[2].

توفي بُلُكين بن زيري يوم الأحد (٢٣ ذي الحجة ٣٧٣هـ/ ٢٨ أيار ٩٨٤م) قبل أن ينجح في إخضاع المغرب الأقصى[3]، وخلفه ابنه المنصور، فأرسل إليه العزيز تقليداً بولاية إفريقية والمغرب على سنن أبيه[4].

كان للمنصور نظرة مغايرة لأبيه تجاه الفاطميين. فقد خطب في المعزِّين في وفاة والده، والمهنئين له بولايته فقال: «... إن أبي وجدِّي، أخذا الناس بالسيف قهراً، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يُولَّى بكتاب ويعزل بكتاب، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْيَر»[5]، وهذا يعني أن إمارته ليست هدية، يُولَّى عليها أو يُعزل عنها بمجرد أمر كتابي يصدره العزيز[6].

وهكذا، أعلن عن حقيقة مشاعره وموقفه في إفريقية والمغرب من الدولة الفاطمية في مصر، كما أنكر نسبه البربري وانتسب إلى حِمْيَر، القبيلة العربية اليمانية. ثم عيَّن الولاة، فأقام عمه أبا البهار بن زيري عاملاً على المغرب الأوسط ومركزه تاهرت، وأخاه يطوفت، والياً على أشير في المغرب الأوسط، وأوصاهما بالتعاون معاً على حماية المغرب الأوسط من أي عدوان زناتي. ومع ذلك فإن تأييد

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٤١. النويري: جـ ٢٤ ص ١٧٥.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٣١، ٢٣٧. ابن خلدون: المصدر نفسه جـ ٦ ص ١٥٦.

(٣) ابن عذارى: المصدر نفسه: ص ٢٣٩. (٤) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٥٧.

(٥) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٤٠. النويري: جـ ٢٤ ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٦) أحمد: ص ٤٢.

الفاطميين المعنوي لبني زيري، كان أمراً لا بد منه، ولهذا أرسل إلى العزيز هدية قيمة من الأمتعة والدواب والطرف ألف ألف دينار[1].

أثارت سياسةُ المنصور، العزيزَ في مصر، فراح يثير القلاقل في وجهه لانتزاع إفريقية والمغرب منه، وأرسل في عام (٣٧٦هـ/ ٩٨٧م) داعياً إلى كتامة، يدعى أبو الفهم حسن بن نصرويه الخراساني، بهدف تأليب الكتاميين على حكم المنصور، ونجح في استقطاب كتامة وعبد الله الكاتب في أشير مما أحدث فتوراً بينه وبين المنصور. وفي عام (٣٧٧هـ/ ٩٨٧م) أرسل العزيز إلى المنصور يخبره بترقية عبد الله الكاتب إلى مرتبة الداعي. وتعاظم نفوذ هذا الرجل وهيمن على أمور المنصور، وهدَّد حكمه، ولما طلب منه المنصور أن يعتزل عمله في إفريقية رفض طلبه وقال له: «القتلة ولا العزلة» عندئذٍ أرسل المنصور من قتله. أما الداعي الثاني أبو الفهم الخراساني الذي عظم أمره في كتامة، فقد كتب إلى العزيز بحقيقة الوضع فأرسل إليه المنصور ينهاه عن التعرض له ولكتامة، وينذره بالقبض عليه مما أثار سخطه[2].

والواقع أن المنصور لم يعبأ بتهديد العزيز وأغار على بلاد كتامة في عام (٣٧٨هـ/ ٩٨٨م)، فاستولى على جيلة، ووصل إلى سطيف مركز التمرد، وأجبر كتامة على تسليم أبي الفهم، وقتله، كما هزم داعٍ آخر برز بين الكتاميين يدعى أبو الفرج الخراساني وقتله مع عدد من أبناء كتامة[3].

أدت انتصارات المنصور إلى إضعاف كتامة وسيطرة الأول على النصف الشرقي لشمال إفريقية، أما القسم الغربي، فرأى أن يتركه لزناتة والأمويين. وأدرك العزيز أنه يواجه خصماً قوياً، فمال إلى السياسة، وأرسل في عام (٣٨٢هـ/ ٩٩٢م) سجلاً للمنصور يعترف فيه بابنه باديس ولياً للعهد، فسُرَّ المنصور بذلك، كما أرسل إليه هدية في عام (٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) وتحسَّنت العلاقات بين الطرفين[4].

توفي المنصور في (٣ ربيع الأول ٣٨٦هـ/ ٢٦ آذار ٩٩٦م) وخلفه ابنه باديس الذي تلقَّب بـ «نصير الدولة»، فعمل على تمتين الروابط بين إفريقية ومصر، وأرسل هدية إلى العزيز[5].

---

(١) النويري: جـ ٢٤ ص ١٧٨.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٤٧.

(٥) المصدر نفسه.

الفَصْل التّاسع

أبو علي منصور: الحاكم بأمر الله

(٣٨٦ ـ ٤١١هـ/٩٩٦ ـ ١٠٢١ م)

تمهيد

هو أبو علي المنصور، الملقب بالحاكم. تولى الحكم بعد وفاة والده العزيز وبعهد منه، وكان حدثاً له من العمر أحد عشر عاماً ونصف، فتولى الوصاية عليه ثلاثة أوصياء، هم مربيه وأستاذه برجوان الخادم الصقلبي[١]، والحسن بن عمار زعيم قبيلة كتامة المغربية، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة.

وورث الحاكم دولة واسعة مترامية الأطراف، وفي أوج مجدها، تشمل الأقطار الواقعة ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر، وتضم إلى جانب مصر وشمال إفريقية اليمن ومكة ودمشق، بل يمكن القول إنها كانت الدولة الإسلامية الأكبر والأعظم في الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

والواقع أن شخصية الحاكم غامضة سواء في حياته أو في مماته، وأحكام المؤرخين عليها أحكام عامة، متضاربة. فقد اتهمه بعضهم بالجنون، والبعض الآخر بالعبقرية، مع ما بينهما من حد دقيق. فهو اليوم كغيره بالأمس، وكذلك غداً، يأخذ القرار ثم يُنقضه بعد قليل، لكنه وُصِف من ناحية أخرى بالمثالية والسخاء والتسامح. ويبدو أن تصرفاته تنمُّ عن شخصية تتأثر، بشكل مطلق، بخيلاء الشباب، وبالأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والوصف الأفضل له، هو أنه حاول أن يحافظ على سلطته وسط كثرة المشكلات الداخلية، ومعالجتها على أفضل وجه.

يُقسم عهد الحاكم إلى قسمين:

---

(١) كان العزيز قد أوصى قبل وفاته ثلاثة من كبار رجال الدولة بالاعتناء بابنه وهم برجوان الخادم الصقلبي، والحسن بن عمار زعيم كتامة، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة، وعهد بالوصاية الفعلية إلى الأول والثاني. ابن ميسر: ص ٥٤. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٧٧. المقريزي: جـ ١ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

الأول: من (عام ٣٨٦ إلى عام ٣٩٠هـ/ ٩٩٦ـ ١٠٠٠م)، كان الحاكم خلاله صغيراً لا يفقه من شؤون الحكم شيئاً، ولا يملك من أمور السلطان شيئاً، واحتكر الأوصياء والقادة السلطة.

الثاني: من(عام ٣٩١ إلى عام ٤١١هـ/ ١٠٠١ـ ١٠٢٠م)، وفيه استقل الحاكم بالشؤون العامة والسلطة، وراح يتصرف كسلطان يحكم بشكل فعلي.

الأوضاع السياسية في بداية عهد الحاكم

تميزت بداية عهد الحاكم بالفوضى والاضطراب، والصراع على النفوذ بين الوزراء، والتباغض بين مختلف قادة الجيش. عيَّن الحاكم، فور تسلمه الحكم، محمد بن النعمان في القضاء، وعهد إليه بأمر الدعوة والصلاة نيابة عنه، وكتب سجلاً من إنشاء أبي منصور بن سورين الكاتب، وبخطه، قرأه القاضي المذكور في الجامع الأزهر، يتضمن وراثة الحكم عن أبيه، ويعد الرعية بحسن النظر إليهم، ويُعلن فيه إسقاط بعض المكوس، فكان لذلك أثر طيب في الناس(١).

وشهدت البلاد صراعاً عنصرياً حاداً على النفوذ بين فئتين من أركان الدولة، المشارقة والمغاربة. مثَّل الفئة الأولى الأتراك، ومثَّل الفئة الثانية الكتاميون. وكان لهذا الصراع خلفيات سياسية ابتدأت منذ أيام المعز حين وزَّع المناصب الإدارية والقيادية في الدولة بين أفرادهما.

استغل الكتاميون، وهم عصب الدولة، الوضع السياسي الناشىء عن تولي صبي سدة الحكم، فطمعوا في تطهير الجيش من العناصر المشرقية، واستعادة نفوذهم الذي تراجع في أيام العزيز باستخدامه طوائف المشارقة وغيرهم، ربما لإيجاد نوع من التوازن بين العناصر المتنوعة التي تعمل في خدمة الدولة. فتخلَّفوا عن البيعة في بادىء الأمر، ودخلوا على الحاكم وهدَّدوه بالامتناع عن تقديم الولاء والطاعة، بل بالقتل، إذا لم يُبعد المشارقة، وطالبوه بعزل عيسى بن نسطورس من منصب الوزارة وتولية زعيمهم الحسن بن عمار شؤون الحكم(٢).

كان الحسن بن عمار، زعيم كتامة وشيخها، قوي الشكيمة، وافر العصبية، ويتطلع إلى الانفراد بشؤون الحكم في ظل حكم صبي، فعيَّنه الحاكم في رتبة الوساطة، وهي أشبه بالوزارة لكن دونها رتبة، أي أن يكون الحسن بن عمار الوسيط

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٣٨.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

بين الحاكم والرعية[١]، واتخذ لقب أمين الدولة، وهو أول من تلقَّب بهذا اللقب من رجال الفاطميين بمصر. ولعل ظهور كلمة دولة في لقبه ربما كان يعني أن الحسن بن عمار سيطر على السلطة الزمنية دون السلطة الدينية التي بقيت للحاكم، بوصفه الإمام[٢].

وشارك الحسن بن عمار، الحاكم في بعض مظاهر سيادته واختصاصاته، فنقش اسمه ولقبه على الملابس الرسمية «طراز» التي توزع على رجال الدولة، وإن أضاف عليها عبارة «عبد أمير المؤمنين» للتمويه، وتفرَّد بعزل وتعيين الموظفين. فعيَّن أبا عبد الله الموصلي في الكتابة، واستخلفه على أخذ رقاع الناس، وتوقيعاتهم. وأقرَّ عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص، وكان يدخل قصر الحاكم راكباً، ويتعرَّض لجواري القصر بالبيع والأخذ، وكأنهم ملك يديه، كما أمر الناس ورجال الدولة بالترجُّل له، وشرَّف أكابر الناس بتقبيل ركابه[٣]، وأنفق الأموال الكثيرة على طوائف المغاربة، وقرَّبهم، وولَّى شيوخهم الوظائف الرئيسية في الدواوين والولايات، كما ملأ وظائف الدولة بأحداثهم، فراحوا يعيثون فساداً في مرافقها. وحرَّضه بعضهم على التخلص من الحاكم والتفرد بالحكم، فأبى استصغاراً لشأنه أو رهبة من العواقب، وقد ترتب على هذه الحالة أن تعاظم نفوذ طائفة المغاربة على الطوائف الأخرى في الجيش والإدارة، فراحوا يتطاولون على أموال الناس وأملاكهم، والحسن بن عمار يغضُّ الطرف عن تصرفاتهم الشاذة[٤].

أما برجوان الخادم[٥]، فكان خصياً صقلبياً، اشتهر بالدهاء، وحسن السياسة. تربَّى في القصر، واختاره العزيز، وولَّاه إمارة القصر، وخلع عليه لقب «الأستاذ»، أي كبير الخدم، وهو من ألقاب الوزارة في الدولة الفاطمية، وأولاه ثقته، وعهد إليه بكثير من مهام الأمور، وكان بحكم منصبه وعمله أكثر التصاقاً بالحاكم الصبي، وأشد تأثيراً فيه، فراح يوجِّهه وفقاً لمصلحته حيث طمع في الاستئثار بالسلطة والنفوذ، واستفاد من عداوة المشارقة للمغاربة لتحقيق أهدافه.

ومن جهتهم، وجد المشارقة في برجوان الخادم الشخصية الطموحة القادرة

---

(١) ابن الصيرفي: ص ٢٦. ابن القلانسي: ص ٧٥.

(٢) ماجد، عبد المنعم: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ص ٣٠.

(٣) ابن الصيرفي: ص ٢٦.

(٤) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٧٧. ابن ميسر: ص ٥٥.

(٥) انظر ترجمته عند ابن خلكان: جـ ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

على قيادتهم ضد المغاربة، وإعادة نفوذهم، فالتفوا من حوله. وأدرك برجوان الخادم ما يحيط به وبسيده من الأخطار، فكتب إلى منجوتكين، بالشام، يحثُّه على العودة إلى مصر لمحاربة المغاربة[1].

وهكذا نشأ خلاف خطير وتنافس شديد بين الرجلين بل بين الطائفتين الكبيرتين اللتين ساندتا الفاطميين.

استعدَّ الحسن بن عمار لمواجهة هذا التطور، وأذاع أن منجوتكين ينوي الخروج على الدولة، والثورة على الحكم، وجهَّز جيشاً لقتاله، وأسند قيادته إلى أبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح، وذلك في أواخر عام (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م). خرج هذا الجيش من القاهرة إلى الرملة وهو على تعبئة، واصطدم بقوات منجوتكين عند رفح[2] وهزمه، فاستنجد منجوتكين بمفرج بن دغفل بن الجراح الطائي، فانضم إليه.

وكانت الموقعة الثانية بظاهر عسقلان في (جمادى الأولى ٣٨٧هـ/ أيار ٩٩٧م) فهُزم منجوتكين مرة أخرى، ولكن الحسن بن عمار عفا عنه وأرسله إلى القاهرة، فعفا عنه الحاكم وشمله برعايته، ثم أرسل أبو تميم سليمان أخاه علياً إلى دمشق[3].

ازدادت قوة الكتاميين بهذا الانتصار، وبالغ زعماؤهم في الاستئثار بالسلطات، فعزلوا أنصار برجوان الخادم من مناصبهم ومنهم جيش بن الصمصامة، والي طرابلس الشام، وطاردوهم في كل مكان، وبدا أن كفتهم هي الراجحة وأن نفوذ المشارقة سيُقضى عليه.

لكن برجوان الخادم لم يدع الكتاميين يهنأون بنشوة الانتصار، فراح يلتمس الفرص لإقصاء الحسن بن عمار وأعوانه، ويؤلب عليه زعماء الجند الناقمين. ولم يمضِ عام، حتى تفاقمت الأوضاع السياسية، وبدأ الحسن بن عمار يواجه صعوبات في السيطرة على الموقف، وشعر بحرج موقفه وراح كل طرف يستعد للمعركة الحاسمة. وأخيراً وقع الانفجار، وتعرَّض الكتاميون للهجوم من قِبَل خصومهم في ظاهر القاهرة في شهر(شعبان/ آب)، وهوجمت دار الحسن بن عمار، واضطُر إلى الاختفاء تاركاً الساحة السياسية لخصمه[4].

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٣٩. ابن القلانسي: ص ٧٥.

(٢) رفح: منزل في طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد مصر. الحموي جـ ٣ ص ٥٤.

(٣) الأنطاكي: ص ٢٣٩. ابن القلانسي: ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٤) الأنطاكي: ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠، ابن القلانسي: ص ٨٠ ـ ٨١.

وقبض برجوان الخادم على زمام الأمور بقوة، وتقلَّد الوساطة مكان الحسن بن عمار[1]، على الرغم من أن الحاكم أعاد إليه امتيازاته ضماناً لاستمرار تأييد الكتاميين، وكوَّن لنفسه طائفة من الجند أو المماليك عرفت باسمه، وزاد من عطاء رجال الجيش من أنصاره لا سيما الغلمان في القصر، وتقرَّب من المصريين بأن أعاد الكتّاب القبط من أهل الذمة إلى الدواوين، وأحلَّهم محل المغاربة. وحتى يحطِّم ما للكتاميين من نفوذ عزل ولاتهم عن الولايات والثغور، وعيَّن أنصاره الصقالبة مثل يانس، وميسور الخادم على طرابلس، ويمن الخادم على غزة وعسقلان، وفائق الصقلبي قائداً للأسطول، وخرد الصقلبي ولاية الشرقية السفلى، والخادم الأسود شرطة القاهرة. ولما توفي قاضي القضاة محمد بن النعمان في شهر (محرم ٣٨٩هـ/ شهر كانون الثاني ٩٩٩م)، استدعى أبا عبد الله الحسين بن علي بن النعمان، إلى الحاكم، فخلع عليه وندبه لقضاء مصر وأعمالها[2].

وتمادى برجوان الخادم في تجاوزاته إلى حد إثارة الحاكم، والعمل على تقويض حكمه، وربما ذهب إلى حد الإساءة إليه، ونقض أوامره. فقد استدعاه الحاكم يوماً وهو راكب معه، فسار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه، وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم. وكان يخرج من دونه في المواكب الرسمية على رأس طوائف الجيش ورجال الدولة، وما لبث أن استصغره، واستغل منصبه لجمع المال لنفسه[3].

كان الحاكم، خلال هذه المرحلة، عاجزاً عن وضع حد لطموحات أركان الدولة وصراعاتهم. فقد حجبه برجوان الخادم، ودفع به إلى مجالات اللعب واللهو، كما وقفت والدته عاجزة أيضاً عن التدخل لحماية ابنها والمحافظة على سلطانه، وهي تشهد ولدها يشب في ظل هذه الوصاية الخطيرة، ومع ذلك، أدرك مدى خطورة برجوان الخادم على الوضع السياسي العام، وكان قد أشرف على الخامسة عشرة، فضاق به ذرعاً.

وظنَّ برجوان الخادم أن الأمور استقامت له، فانكبَّ على ملاهيه وملاذه، ولم يدرك كِبَر الصبي، وظل يعامله معاملة الطفل المحجور عليه، ويبالغ في حجبه بحجة حمايته والحرص على سلامته، عند ذلك قرَّر الحاكم التخلص منه لإزالة ذلك

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٤٠. ابن الصيرفي: ص ٢٦.

(٢) ابن ظافر: ص ٦١.

(٣) ابن الصيرفي: ص ٢٧. أبو شجاع: جـ ٣ ص ٢٢١.

الضغط الكبير عن صدره، واستعادة سلطته المسلوبة، وربما تأثَّر في ذلك ببعض خصوم برجوان الخادم لا سيما ريدان الصقلبي حامل المظلة[1]، وخصمه القوي في القصر. فقد أشار على الحاكم أن برجوان الخادم يريد أن يفعل به ما فعله كافور مع أولاد سيده الأخشيد.

واستدعى الحاكم ريدان الصقلبي وعهد إليه بتلك المهمة. وطلب الأول من برجوان الخادم ذات مساء أن يصطحبه إلى المقس، وانتظره في بستان قصر اللؤلؤة، ومعه ريدان، فوافاه برجوان الخادم إلى هناك. وبعد أن سلَّم، سار الحاكم حتى خرج من باب البستان، فوثب عندئذٍ ريدان عليه وطعنه في عنقه بسكين، ثم انقضت عليه جماعة كانت قد أُعدَّت للفتك به، فقتلوه، واحتزوا رأسه ودفنوه حيث قُتل، وذلك في (١٦ ربيع الآخر، ٣٩٠هـ/ ٢٦ آذار ١٠٠٠م)[2].

أثار مقتل برجوان الخادم خضَّة سياسية داخل الأوساط الحاكمة، إذ أعقب ذلك حدوث اضطرابات بين الجند، وبخاصة بين أفراد الجيش الذي أسَّسه، وعدَّ الأتراك ما حدث ضربة لهم من بربر كتامة، كما انتاب الكتاميون الخوف على أنفسهم، لكن الحاكم نجح في تهدئة الوضع وقدَّم تبريراً لتصرفه أمام شيوخ كتامة الذين وصفهم بأنهم «شيوخ دولته»، والأتراك الذين وجَّه حديثه إليهم ووصفهم بأنهم «تربية والده العزيز»، وطلب من الجميع الولاء والطاعة، ودعا الناس إلى الهدوء، ورفع مظالمهم إليه مباشرة، ووعدهم برعايته وإحسانه، ثم صادر أموال برجوان الخادم وأملاكه، وتخلَّص من أعوانه[3].

في ظل هذا الانتصار، كان لا بد للحاكم أن يُتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى للتخلص من شيخ كتامة الحسن بن عمار، فأعدَّ له كميناً، وحرَّض عليه الأتراك، فقتلوه يوم السبت (٥ شوال ٣٩٠هـ/ ٨ أيلول ١٠٠٠م)، كما تخلَّص من أعوانه من زعماء كتامة، فخاف الكتاميون، وذهبوا إلى قصر الحاكم مستغيثين، طالبين العفو والأمان، فمنحهم ذلك، وكتب لهم سجلاً[4].

وهكذا نجح الحاكم، بعد أربعة أعوام من ولايته، أن يطوي مرحلة الحداثة،

---

(١) المظلة هي التي تُحمل فوق رأس الخليفة عند ركوبه في المواكب الرسمية. انظر: ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) الأنطاكي: ص ٢٤٩. ابن الصيرفي: ص ٢٧. أبو شجاع: جـ ٣ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٣) ابن ميسر: جـ ٢ ص ٥٥ ـ ٥٦. عماد الدين، إدريس: ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩.

(٤) الأنطاكي: ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠. عماد الدين، إدريس: المصدر نفسه.

وأن يستخلص السلطة لنفسه، وأن يبدأ حكمه الحقيقي، وكان قد تجاوز الخامسة عشرة بقليل وذلك في وقت كثرت فيه الدسائس والمؤامرات. وكانت أمامه معضلات جسام في المحافظة على دولة واسعة ومترامية الأطراف تديرها مجموعة متنابذة من الخدم الصقالبة، والقبائل من المغاربة والمشارقة مع حاشية من طوائف مختلفة، وتحكم جمهوراً من المسلمين لا يشاركها في مذهبها فاصطبغ حكمه بالفردية المطلقة، وفقاً لصفات العصر، واختط منهجية خاصة في التعامل السياسي تستند على المحافظة على تفرده في الحكم، ونشر الدعوة الفاطمية في أوسع رقعة ممكنة وتحقيق الازدهار الاقتصادي.

نزعات الحاكم السياسية

كان لحرمان الحاكم من سلطته على يد برجوان الخادم وابن عمار، ثم نجاحه في استردادها، تأثير على نفسيته التي مالت إلى استخدام القتل وسيلة من وسائل الحكم للتخلص مِن كل مَن:

- يشك في ولائه مع الحرص على ألا يعلو أحد على سلطته.
- يعبث بالأموال العامة، مع حرصه على إصلاح أمور الدولة بعد أن فسدت الإدارة.

فإذا وصل زعيم أو قائد إلى مركز ذي نفوذ في الدولة، وحتى لا يخرج عليه، كان التخلص منه وسيلة لمنع الثورة، أو إذا بدرت من الشخص خيانة أو تدخل فيما لا يعنيه، كان القتل وسيلة للتخلص منه. والجدير بالذكر أن كبار الموظفين كانوا يستغلون صغر سن الحاكم فيتجاوزون اختصاصاتهم. ودلَّ بتصرفه هذا أنه يفوق أعداءه مكراً ودهاءً.

أدَّى ذلك إلى أن يكون الحاكم ذلك الشخص المرهوب الجانب، فوقعت حوادث من القتل الذريع اتسمت بالعنف أحياناً. والجدير بالذكر أن معظم ضحاياه كانوا من الأشخاص السياسيين النافذين في الدولة مما يدل على أن الغاية من القتل كانت سياسية بحتة، واتخذها وسيلة من وسائل الحكم.

أفاضت الروايات المعاصرة والمتأخرة في سير الحوادث الدموية المروعة، ومن الطبيعي أن تتخذها مادة للحملات والمطاعن وتصوير الحاكم في صورة الوحش الضاري، ونعته بأقبح النعوت، ويبدو أن إسرافه في القتل تسبَّب في حيرة المؤرخين الذين تباينوا في تعليل ذلك، ولم يتبيَّنوا أهدافه. فذكر بعضهم أنه كان يعبد كوكبي زحل والمريخ، شغوفاً بالفلك ورصد النجوم. ولا سيما أن الكوكب الأخير

يرمز إلى الحرب، فكان يسفك الدماء تقرباً لهما[1]، «.... وكان مؤاخذاً بيسير من الذنب، حاداً لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أمماً وأباد أجيالاً، وأقام هيبة عظيمة وناموساً، وكان يفعل عند قتله الشخص أفعالاً متناقضة، وأعمالاً متباينة. فكان يقتل خاصته وأقرب الناس إليه، فربما أمر بإحراق بعضهم، وربما أمر بحمل بعضهم وتكفينه ودفنه، وبناء تربة عليه، وألزم كافة الخواص ملازمة قبره والمبيت عنده، وأشياء من هذا الجنس يموِّه بها على عقول أصحابه السخيفة فيعتقدون أن له في ذلك أغراضاً صحيحة استأثر بعلمها وتفرَّد عنهم بمعرفتها»[2].

ويذكر الأنطاكي، وهو مؤرخ معاصر: «وأقام له، أي الحاكم، من الهيبة في نفوس الكافة لشدة سطوته وتسرعه إلى سفك الدماء، وأنه لا يبقي على من صغر ذنبه وقلَّ فضلاً عمن عظم جرمه وجلّ»[3]، ويقول: «وبذل سيفه في إراقة الدماء في سائر الناس على طبقاتهم، حتى أفنى شيوخ الكتاميين ووجوه دولته وأصاغرهم...»[4]، «وتزايد الحاكم في القتل لسائر من في دولته، وبذل سيفه في مقدمي أهل المملكة ومتحيزها، من الكتّاب والقواد والجند والرعايا، وقطع أيديهم، وفرط في ذلك، فاختلَّت بلاده وفني رؤساء رجاله»[5].

بدأ الحاكم عهده الفعلي بتعيين الحسين بن جوهر الصقلي مدبراً مكان برجوان الخادم، وكان متقلداً ديوان البريد والإنشاء، وخلع عليه، وقلَّده النظر في أمور الدولة والتوقيعات، ولقَّبه في سجل التعيين بـ «قائد القواد». وعكف الحسين على تدبير الشؤون العامة بمعاونة الكاتب فهد بن إبراهيم النصراني، الذي قدَّمه الحاكم على جميع الكتَّاب، وأمره بأن يبلِّغه المهام والظلامات في مكانه بالقصر، وألا يلقاه أحد على طريق، وألا يقصد أحد داره لقضاء أمر أو سؤال حاجة، وأمر أبا الفتوح ميسور الصقلبي، صاحب الستر، بأن يوصل الناس إليه، وألا يمنع أحداً من مقابلته أو الاتصال به. ودخل الناس إليه، فأخذ رقاعهم ووقَّع عليها، وكان يُبدي رأيه في الأمور الهامة وهو جالس في مكانه[6].

وأضحى الحسين بن جوهر الصقلي، وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان، الذي خلف أباه في منصب قاضي القضاة، أعظم رجلين في الدولة.

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٧٧.
(٢) ابن ظافر: ص ٥٠ ـ ٥١.
(٣) تاريخ الأنطاكي: ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٥٧.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٨٤.
(٦) المصدر نفسه: ص ٢٤٠. ابن الصيرفي: ص ٢٨. المقريزي: جـ ٢ ص ١٤.

وحاول الحاكم أن ينمِّي رتبة الوساطة والسفارة، والعلاقات بين الطوائف المختلفة في الجيش، وأن يمنح مصداقية متزايدة لنظامه عن طريق كسب ود أهالي الفسطاط، وتأكَّد هذا الاتجاه في (نهاية عام ٣٩٥هـ/ خريف عام ١٠٠٥م) عندما اندلعت ثورة أبي ركوة، فقد اكتشف الحاكم خيانة في صفوف أتباعه، واتضح له عدم فاعلية الجيش، ولم يجد التأييد الذي كان يحتاج إليه إلا من سكان الفسطاط الذين كانوا يعادون ثورة يقودها البدو(١).

وهكذا، أدار الحاكم الشؤون العامة بنفسه، ونظَّم مجلساً ليلياً يحضره كبار رجال الدولة تُبحث فيه الشؤون العامة، وكانت هذه أول ظاهرة لخروجه في الليل وتجواله في ظلماته، إلا أنه أبطل مجلسه الليلي بعد حين(٢).

وأدّى الحاكم لعبة التوازن العنصري بمهارة، فاتجه آنئذٍ نحو إقصاء الأتراك والصقالبة، وتقريب المغاربة حتى يحول دون تجذر أي من العنصرين. فعندما توفي جيش بن الصمصامة والي الشام في (ربيع الآخر ٣٩٠هـ/ آذار ١٠٠٠م)، عيَّن مكانه فحلاً بن تميم، ولما توفي هذا، بعد بضعة أشهر، عيَّن مكانه علياً بن فلاح(٣)، وعزل الخادم الصقلبي عن ولاية الشرطة السفلى، وعيَّن مسعوداً الصقلبي على ولاية الشرطتين.

وفي (أواخر عام ٣٩١هـ/ خريف عام ١٠٠١م)، قتل الحاكم مؤدبه أبا التميم سعيد بن سعيد الفارقي بعد أن نقم عليه نتيجة تدخله في شؤون الدولة وقراءة الرقاع. وفي (المحرم ٣٩٢هـ/ كانون الأول ١٠٠١م)، قتل ابن أبي نجدة متولي الحسبة بسبب تدخله في الشؤون العامة، متجاوزاً صلاحياته، كما أساء هذا معاملة الناس. وفي العام التالي قتل أبا علي الحسن بن عسلوج وأحرقه، وكان من كبار المباشرين في شؤون المال. وفي (جمادى الأولى ٣٩٣هـ/ آذار ١٠٠٣م) قتل فهد بن إبراهيم النصراني(٤)، ويبدو أن الدافع لعملية القتل امتناع فهد عن اعتناق الإسلام، وربما كان مناصرته للنصارى وإسناد مناصب الدولة إليهم دافعاً آخر، وربما كان قتله نتيجة سعاية بعض الكتّاب الذين أرادوا أن يحلُّوا محله، وعيَّن مكانه في النظر والسفارة أبا الحسن علي بن عمر العداس، وخلع عليه وعلى ابنه محمد وعلى الحسين بن طاهر الوزان. ولم تمض بضعة أشهر حتى سخط على العداس وقتله(٥)،

---

(١) سيد: ص ١٠٠.
(٢) عنان: ص ١٠١.
(٣) ابن القلانسي: ص ٩٣.
(٤) الأنطاكي: ص ٢٥٢.
(٥) المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٧٢.

كما قتل أبا طاهر محمود بن النحوي متولي أعمال بلاد الشام نظراً لتكبره وعجرفته. وفي (أواخر ذي الحجة ٣٩٣هـ/ أواخر تشرين الأول ١٠٠٣م) قتل أبا الفضل ريدان الخادم الصقلبي صاحب المظلة، وعيَّن مكانه مظفر الخادم الصقلبي[١]. في عام (٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م) قتل أكثر أعيان الدولة[٢]، وصرف الحسين بن النعمان عن القضاء في (شعبان ٣٩٤هـ/ حزيران ١٠٠٤م)، وكان قد غدا موضع سخط الناس حتى اعتدى بعضهم عليه، واضطرب أمر القضاء في عهده، وظهرت في الأفق فتنة، أشاعت الفوضى بين القضاة والمتقاضين، ونما الخلاف بينه وبين عبد العزيز بن محمد النعمان، وأضحى المتقاضون في حيرة وبلاء نتيجة ذلك، وأخذ الحسين يفقد مكانته شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر بتغير الحاكم عليه، فعزله من منصبه، وعيَّن عبد العزيز بن النعمان لتولي أعماله، بالإضافة إلى ما بيده من ولاية المظالم، ثم غضب، عليه وقتله في شهر (محرم ٣٩٥هـ/ تشرين الأول ١٠٠٤م)[٣]، وتلى مصرعه مقتلة كبيرة ذهب ضحيتها عدد كبير من الخاصة والعامة فاق المائة. كما قتل الحاكم جماعة من الأعيان صبراً[٤]، كان من بينهم عبد الأعلى بن هاشم، أحد أقرباء الحاكم، ويبدو أنه كان لطموحه السياسي أثر في ذلك القتل، فقد كان يتحدث بأنه سوف يلي الحكم.

ومن ضحايا الحاكم الحسين بن جوهر الصقلي. ويبدو أنه خشي على نفسه غائلة غدر الحاكم، وبخاصة أنه لم يبقَ من كبار رجال الدولة سواه. والراجح أنه بلغه أنه يريد قتله فعلاً، فهرب مع أولاده وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان، وقصدوا بني قرَّة في ناحية الإسكندرية في (جمادى الآخرة ٤٠١هـ/ كانون الثاني ١٠١١م)، فراسلهم الحاكم ووعدهم بالإحسان، وبذل لهم عهوداً مؤكدة إن هم عادوا، وشهد على نفسه لدى قاضي القضاة مالك بن سعيد، أمام جماعة من الشهود العدول، وعلَّق الحسين بن جوهر نسخة الأمان على الكعبة تأكيداً لاحترام مضمونها، ومع ذلك حنث الحاكم بيمينه وقتله. ويبرر إدريس عماد الدين حادثة القتل بأن الحسين بن جوهر اقترف ذنباً، لكنه لم يذكر نوعه[٥]. ولجأ أولاده جعفر، وأبو جعفر، وجوهر، وكان دون البلوغ، إلى ابن القارح، وهو علي بن منصور الحلبي، وكان صديقاً لأبيهم، فقال لهم: «خير ما لي ولكم الهرب، ولأبيكم ببغداد

(١) المقريزي: جـ ٤ ص ٧٢.
(٢) الأنطاكي: ص ٢٥٧.
(٣) المقريزي: جـ ٤ ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٤) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢١٢.
(٥) عيون الأخبار وفنون الآثار: ص ٢٧٦.

ودائع خمسمائة ألف دينار، فاهربوا وأهرب»[١]. فخرجوا إلى بلاد الشام، وكتبوا إلى حاكم أنطاكية ميخائيل البطريق يستأذنونه في الوصول إليه. ولما كانوا لا يستطيعون الانتظار حتى تأتي موافقة الأمبراطور البيزنطي، فقد أرادوا التوجه إلى العراق، فقصدوا المفرج بن دغفل ليسيِّرهم إلى هناك. وخصَّص الحاكم مائتي ألف دينار مكافأة لمن يأتيه بهم، فدبر لهم المفرج مكيدة، وأخرجهم من السويداء قرب دمشق، فقبض عليهم مختار الدولة أبو عبد الله بن نزَّال، وقتلهم بدمشق وبعث برؤوسهم إلى الحاكم في مصر، وذلك في شهر (ربيع الآخر ٤٠٣هـ/ تشرين الثاني ١٠١٢م)[٢].

ومما لا شك فيه أن هذه المذابح المتوالية، على الرغم من تبريرها، كانت تنم عن نزعة خطيرة من احتقار الحياة البشرية، وأدَّت إلى ارتياع الناس والمجتمع لا سيما التجار وذوي المصالح والمعاملات.

وهكذا فرض الحاكم مسحة من الخشوع والرهبة، وأضحى اسمه ونزعاته مثار الرعب والروع.

نزعات الحاكم الدينية

موقفه من أهل السنَّة

إذا كان عهد الحاكم قد شهد اضطرابات بالغة العنف على الصعيدين السياسي والإداري، فقد شهد أيضاً صراعات كبيرة ومنافسات دموية على الصعيد الديني. والحقيقة أنه لا يمكن فصل الاضطراب السياسي عن الاضطراب الديني في تلك المرحلة من التاريخ الإسلامي العام، فتاريخ الصراعات السياسية في الدولة العربية الإسلامية كان غالباً صراعات الحركات الدينية المختلفة، بفعل أن الدين كان المحرك السياسي والاجتماعي لكافة الفِرَق والأحزاب الدينية.

كانت الدولة الفاطمية تحكم في مصر وبلاد الشام شعباً لا يتبعها من الوجهة المذهبية، وكان العمل على تدعيم الصيغة المذهبية الإسماعيلية، من أهم عناصر سياستها الدينية. ونهج الحاكم في ذلك نهج أسلافه في بث الدعوة الفاطمية بقوة وجرأة، ولكن في نوع من التناقض أيضاً، وبلغ التشدُّد للدعوة أشدَّه في عهده، وعدَّ ذلك رسالة مكلَّف بها، واتخذ في سبيل تحقيقها إجراءات جريئة فاقت من سبقه، وبقيت نمطاً يحتذيه خلفه.

---

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري: ص ٤٦. (٢) الأنطاكي: ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

من الصعب أن نحدِّد موقف الحاكم تجاه الشؤون والأحكام الدينية تحديداً واضحاً بسبب التناقض الظاهر في القرارات التي كان يتخذها، متأثراً في ذلك بالوضع المذهبي للدولة، والحالة السياسية التي كانت تمر بها.

لم يراعِ الحاكم مشاعر أهل السنَّة. فقد شاع في عهده سب الصحابة، وكُتب ذلك على جدران المساجد والحوانيت والمقابر والدور، ولُوِّنت بالأصباغ والذهب، ويذكر المقريزي أن اللعن كان من رأي جماعة من المصريين الذين كتبوه بالأصباغ[1]، وكان الخطباء يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر[2]، وتضمَّنت القوانين الكثيرة التي أصدرها، عبارات الطعن في أبي بكر وعمر وسائر الصحابة، وأعاد صلاة القنوت التي كان أبوه العزيز قد تساهل فيها وقُطعت في عام (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)، وأصدر، خلال مراحل حياته، عدة سجلات متعارضة فيما يتعلق بالصلاة والأذان. فقد استمر منع صلاتي التراويح والضحى في جميع مساجد مصر، وقُبض على الذين خالفوا، وضُربوا وذلك في عام (٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م). فقد قُبض على ثلاثة عشر رجلاً في القاهرة لأنهم صلوا صلاة الضحى، وشُهِّر بهم في الشوارع، ثم ضربوا، وسُجنوا ثلاثة أيام[3]. وقبض نائب دمشق تموصلت الأسود البربري على رجل مغربي في دمشق، وضربه لارتكابه ذنباً لم يذكره المؤرخون، لكن يبدو أنه يتعلق بالناحية المذهبية، بدليل أنه طيف به في شوارع المدينة، ونودي عليه: «هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر»[4].

وحافظ الحاكم على العبارات الشيعية في الأذان والصيام، فأمر المؤذنين بأن يضيفوا، إلى الأذان، عبارة «أن محمداً وعلياً خير البشر»، والتثويب فيه، أي التثنية في الدعاء، وغيَّر أوقات الصلاة، فجعلها بحسب المزولة العربية، وليس بحسب التوقيت الشمسي، فكانت صلاة الظهر تُقام في الساعة السابعة، وصلاة العصر في الساعة التاسعة، وأبرز الاحتفالات بأعياد الشيعة ومناسباتهم الدينية[5].

ومن مظاهر التعصب الشديد للمذهب الإسماعيلي الذي أصاب أهل السنَّة، أنه في (جمادى الأولى ٣٩١هـ/ نيسان ١٠٠١م) أُلقي القبض على رجل من أهل الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل علي، فسجنه قاضي القضاة، وأرسل أربعة من

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٥٦. المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٩٣. (٣) المقريزي: جـ ٤ ص ١٦٣.

(٤) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٣٢ ـ ٥٣٧. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢٠٧.

(٥) المقريزي: جـ ٤ ص ٤٧ ـ ٤٩، ١٦٣.

الفقهاء للتحقيق معه، وحاول هؤلاء حمله على الاعتراف بإمامة علي، لكن الرجل ظلَّ على رفضه، فرفع أمره إلى الحاكم، فأمر به فقتل وصلب[1].

ثم بدا للحاكم أن يخفف من تشدُّده تجاه أهل السنَّة، فأصدر سجلاً، في عام (٣٩٧هـ/ ١٠٠٦ـ ١٠٠٧م)، بالتوقف عن سب الصحابة، وتضمَّن بعض الأحكام الدينية التي تنمُّ عن روح التوافق بين المذهبين السنِّي والشيعي، وأعاد بموجبه العمل بالشعائر السنِّية المتعلقة بالصيام والإفطار في رمضان، والسماح بصلاتي التراويح والضحى. وأنشأ مدرسة لتعليم فقه مالك، وأهداها دار كتب، وعيَّن أبا بكر الأنطاكي ناظراً لها، وخلع عليه وعلى مدرسيها وأجلسهم في مجلسه[2]. ويبدو أن لذلك علاقة بثورة أبي ركوة التي قامت ضده في برقة، فقد سانده أهل الفسطاط في الوقت الذي فقد ثقته بالجيش، وكان ذلك اعترافاً منه بهذه المساندة.

وفي عام (٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) أُبيحت صلاتا التراويح والضحى، وتعزَّز ذلك بسجل صدر في العام التالي، أُبيح بموجبه العودة إلى التثويب في الأذان، ثم جمع المؤذنين وقُرىء عليهم سجل بأن يتركوا الأذان بـ «حي على خير العمل» وأن تُستبدَل بعبارة «الصلاة خير من النوم» في أذان الفجر، بيد أنه لم يمضِ على ذلك بضعة أشهر حتى صدر سجل آخر بأن يُترك من أذان الفجر عبارة «الصلاة خير من النوم» وأن يؤذن بعبارة «حي على خير العمل»، وأن تُمنع صلاتا التراويح والضحى، وذلك في عام (٤٠١هـ/ ١٠١٠م)[3].

ويبدو أن مضايقة أهل السنَّة استمرت، على الرغم من صدور سجلات المراعاة، بدليل أنه في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) ثار أهل السنَّة نتيجة سب السلف، وإعادة الشعائر الدينية الشيعية، وهرعت جموع الثائرين إلى القصر يستغيثون ويصيحون «لا طاقة لنا ولا صبر على ما يجري» فكتب الحاكم على إثر ذلك سجلاً جديداً بالترحم على السلف من الصحابة والنهي عن الخوض في ذلك. ومضى يثبِّت نواياه الحسنة تجاه أهل السنَّة، وتسامحه المذهبي معهم، وأنه بعيد عن التعصب، فعيَّن قاضياً سنياً في رئاسة القضاء في مصر هو ابن أبي العوام، الذي استمر يشغل هذه الوظيفة حتى عام (٤١١هـ/ ١٠٢٠م)، وعندما قال أعوانه له «إنه ليس على

---

(١) المقريزي: جـ ٤ ص ١٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٤. الأنطاكي: ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٧٨.
(٣) الأنطاكي: المصدر نفسه ص ٢٧٨.

مذهبك ولا على مذهب من سلف من آبائك»، قال: «هو ثقة مأمون مصري عارف بالقضاء وبأهل البلد، وما في المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره»[1].

موقفه من أهل الذمة

منذ عهد العزيز، كانت غالبية الكتَّاب من أهل الذمة، وإنَّ تساهلَ الفاطميين معهم شجعهم على التحكم بالمسلمين والإساءة في استخدام مناصبهم. وقد نصح أحد الشعراء أهل مصر بالتهود لكي ينالوا الحظوة وتُنجز أعمالهم. وحاول الحاكم أن يملأ الوظائف الديوانية بالمسلمين، إلا أنه لم يتمكَّن من إقصاء أهل الذمة تماماً نظراً لدرايتهم بالشؤون الإدارية والمالية، ويمكن أن نعدَّ تشدُّده مع أهل الذمة، خلافاً لروح التسامح التي سادت بقية العصر الفاطمي، محاولة منه لتطبيق العهد العمري عليهم[2] بعد اشتداد بأسهم بين المسلمين.

عيَّن الحاكم عيسى بن نسطورس في منصب ديوان الخاص، وكان ذلك بتأثير برجوان الخادم، ونفوذ ست الملك، أخت الحاكم، لكن عيسى بن نسطورس لم يراعِ اختصاصات وظيفته، فأصدر مكوساً إضافية على ما جرى الرسم بأخذه، كانت جائرة، فقُبِض عليه وقُتل في (صفر ٣٨٧هـ/ شباط ٩٩٧م)[3]. ومنذ عام (٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م) قسا الحاكم على اليهود والنصارى في المعاملة، ويبدو أنه كان مدفوعاً في ذلك بضغط المسلمين بعامة الذين ساءهم أن يتقرَّب الحاكم من غير المسلمين.

ومن الملاحظ أن الحاكم كان أشد وطأة على طائفة الملكانية بسبب ازدياد نفوذ الملكانيين منذ أيام العزيز، نظراً لزواجه من نصرانية ملكانية. واستبدَّ أتباع هذه الطائفة في البلاد، وربما كان للحروب بين الفاطميين والبيزنطيين الملكانيين، دافع آخر لاضطهاد أتباع هذه الطائفة، لكن الواضح أن هذه الخطوة في مهاجمة الملكانيين كانت تستهدف استقطاب الأكثرية القبطية في مصر التي كانت على المذهب اليعقوبي.

وطال التشدُّد بعد ذلك النصارى بعامة بالإضافة إلى اليهود، فأصدر الحاكم في (٧ محرم ٣٩٥هـ/ تشرين الأول ١٠٠٤م) أمراً ألزم أهل الذمة بلبس الغيار، وبوضع زنانير ملونة معظمها أسود، حول أوساطهم، ولبس العمائم السود على

(١) الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٦٠٠. ماجد: ص ٨٦.

(٢) وضع عمر بن الخطاب لأهل الذمة شروطاً تنظم تصرفاتهم وسلوكهم في المجتمع الإسلامي، عرفت بالشروط العمرية.

(٣) الأنطاكي: ص ٢٣٨.

رؤوسهم، وتلفيعات سوداء[1]، وذلك لتمييزهم عن المسلمين بعلامات خاصة، والمعروف أن اللون الأسود هو شعار العباسيين، كما أمر بالقبض على بعض رؤساء الكتّاب النصارى، ولكنه أطلق سراحهم بعد ذلك، وأعيدوا إلى مراكزهم بتأثير أبي الفتح سهل بن مقشِّر النصراني، طبيب الحاكم الخاص[2].

وراقب الحاكم مسلك أهل الذمة في أعيادهم، فمنع في ليلة عيد الشعانين من عام (٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م) النصارى من تزيين كنائسهم، وقبض على جماعة منهم بسبب ذلك. وفي (شهر رجب ٣٩٨هـ/ شهر نيسان ١٠٠٨م) صدر سجل بمصادرة الأملاك الكنسية وضمِّها إلى الديوان السلطاني، وأُحرقت صلبان كثيرة على أبواب الجوامع وفي دار الشرطة[3]. وأمر في عام (٣٩٩هـ/ ١٠٠٨ـ ١٠٠٩م) بهدم بعض كنائس القاهرة، كما صدر سجل بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس، فكلَّف ياروخ العضدي والي الرملة تنفيذ ذلك[4]. ويبدو أن الدافع لهدم هذه الكنيسة ما بلغ الحاكم مما يقع فيها من الشعائر الوثنية المثيرة، وما ينتظم إليها من المواكب الدينية الصاخبة التي يضج فيها النصارى بالصلوات والأدعية، ويرفعون الصلبان الضخمة، لا سيما في أيام الشعانين والفصح. كما لاحظ كثرة خروج النصارى من مصر إلى بيت المقدس لحضور عيد الفصح في كنيسة القيامة، فسأل ياروخ العضدي، وهو أحد قادته، عن ذلك لمعرفته بأمر هذه الكنيسة، فذكر له أنها بيعة يعظِّمها النصارى ويحجُّون إليها من جميع البلاد، ويأتيها الملوك وتُحمل إليها التحف والأواني الذهبية والفضية، ويجتمع النصارى فيها، ويرفعون الصلبان، ويعلِّقون القناديل في المذابح، فأنكر الحاكم ذلك، وتقدم إلى أبي منصور بن سورين كاتب الإنشا، فكتب إلى أحمد بن يعقوب الداعي، أن يقصد بيت القدس ويهدم كنيسة القيامة حتى تندثر، وتولى والي الرملة تنفيذ الأمر كما أشرنا.

وفي عام (٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) صدر سجل جديد بالتشديد على النصارى واليهود في لبس الغيار وتقلد الزنار، وعوقب المخالفون بالضرب، وأُلغيت الأعياد النصرانية، كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد، وأُبطلت رسومها واحتفالاتها في جميع أنحاء الدولة الفاطمية[5]، وكان النصارى يستغلونها للقيام بمظاهرات دينية بارزة بإقامة

---

(١) المقريزي: جـ ٤ ص ٧٢.
(٢) الأنطاكي: ص ٢٥٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٨٢.

الاحتفالات والمآدب والملاهي الباذخة، لا سيما على ضفاف النيل والخليج وسط حشود ضخمة من المؤمنين والمشاهدين، مما لفت نظر الحاكم إليها[1].

وفي (شهر رمضان عام ٤٠٠هـ/ شهر نيسان ١٠١٠م) أمر الحاكم بهدم دير القصير بالمقطم، وهو أعظم أديار الملكانية، ونُهب ما فيه، ونُبشت قبوره، وكان أرسانيوس، بطريرك الإسكندرية وخال الأميرة ست الملك، يأوي إليه، فقتله الحاكم في (٢٠ ذي القعدة/ ٤ تموز)[2].

وفي عام (٤٠٢هـ/ ١٠١١م) منع النصارى من الاجتماع في عيد الصليب والمضي إلى الكنائس، وفي العام التالي صدر الأمر بهدم جميع كنائس الديار المصرية، ووَهَبَ جميع ما فيها إلى جماعة من الصقالبة والفراشين والسعدية[3]، كما أحرق حارة الجودرية على أهلها اليهود الذين كانوا يجتمعون فيها ويسخرون من المسلمين. وأمر في العام التالي، النصارى بأن يعلِّقوا صلباناً ظاهرة من الخشب طول الواحد منها ذراع في ذراع ووزنه خمسة أرطال، وأن يعلق اليهود قرامى من الخشب في أعناقهم وزن القرمية منها خمسة أرطال، وأن تُختم هذه الصلبان والقرامى بخاتم من الرصاص يحمل اسم الحاكم، وحرَّم على الفريقين ركوب الخيل، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسروج من الخشب وسيور سوداء عاطلة من كل حلية، وألا يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة، وحظَّر على التجار المسلمين أن يحملوا في سفنهم ذمياً، وأذن للناس في البحث عن المخالفين وتتبع آثارهم، وأمر بأن يحمل النصارى الصلبان واليهود الأجراس عند دخولهم الحمام تمييزاً لهم عن المسلمين، ثم أفردت لهم بعد ذلك حمامات خاصة عُلِّق الصلبان وقرامى الخشب عليها، وأنشأ لليهود حيَّاً خاصاً بجوار باب زويلة حتى لا يختلطوا بالمسلمين، وطبِّقت هذه الأوامر والنواهي بصرامة متناهية[4].

عانى أهل الذمة من هذه المحن والشدائد أعواماً، وكانت أشد ما عانوا في ظل الحكم الإسلامي في مصر، فاضطروا إلى الهجرة سراً إلى بلاد البيزنطيين، وعندما علم الحاكم بذلك أمر بأن تكون الهجرة بعلم الدولة وتحت إشرافها، فأصدر في عام (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) سجلاً أطلق بموجبه الحرية للنصارى واليهود بالهجرة

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٨٢. المقريزي: جـ ٤ ص ٧٤. (٢) الأنطاكي: المصدر نفسه: ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٩٤.

(٤) الأنطاكي: ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦. المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٧٥.

إلى بلاد البيزنطيين أو الحبشة أو النوبة، وأن يحملوا معهم أموالهم[1].

ثم بدا للحاكم أن يخفِّف من هذه الشدَّة، فأصدر في عام(٤١١هـ/ ١٠٢٠م) عدة سجلات بإلغاء هذه القوانين والأوامر المرهقة، فأطلق حرية الشعائر للنصارى واليهود، وردَّ ما أخذ من أحباس الكنائس والأديرة، وسمح للنصارى بتجديد ما تهدم من الكنائس والبيع، وردِّ ما أُخذ منها من الذخائر والتحف والأخشاب، وأُطلقت الحرية للذميين الذين دخلوا في الإسلام كرهاً أن يرتدُّوا إلى دينهم الأصلي، فارتدَّ كثير منهم[2].

وتعزو الرواية النصرانية هذ الانقلاب في موقف الحاكم إلى تأثير الأنبا سلمون رئيس دير طور سيناء، وراهب نصراني يدعى سليمان بن إبراهيم كان قد أسلم أيام المحنة ثم ارتدَّ إلى دينه، واستأذن الحاكم في تشييد دير شهران في ضاحية مصر، وكان الحاكم يزوره في الدير ويستمع إلى رغباته، وأنه كان واسطة التفاهم بين الحاكم وبين الأنبا زخاريا، وأن الحاكم أبدى إعجابه في هذه المرحلة بالنصرانية[3]. وربما كان لموقف الدول النصرانية المحيطة ببلاده، والتي استاءت من تصرفاته، سبب آخر في تراجعه. إذ كان ملك الحبشة يتشاور مع ملك النوبة بشأن قبط مصر، كما أن هدم كنيسة القيامة أثار الأمبراطور البيزنطي والأوربيين الذين هدَّدوا بشن حرب مقدسة، كما خشي الحاكم أن تعامل هذه الدول المسلمين في أراضيها بالمثل.

كانت هذه النزعة الدينية ضد أهل الذمة سياسة مقرَّرة، وتُعدُّ ظاهرة ملفتة في عهد الحاكم، وخالف بذلك أسلافه التي كانت سياستهم قائمة على التسامح مع أهل الذمة. والراجح أن الدافع لذلك يعود إلى إسراف الذميين واستئثارهم بالنفوذ واستغلالهم لمناصبهم، وتقديمهم النصارى في الوظائف، وإقصاء المسلمين عنها، فاقتنوا الأرزاق والأموال ما مكَّنهم من العيش برغد، وبنوا الكثير من الكنائس والأديرة، وبدت الأقلية النصرانية عزيزة الجانب، في حين تقلَّص نفوذ الأكثرية المسلمة. ولقي موقف الحاكم من النصارى بخاصة، قبولاً حسناً من المسلمين السنَّة الذين أبغضوا هؤلاء بسبب أعمال الابتزاز والمحاباة التي عانوها من موظفيهم الماليين، في حين اتهموه بالمروق عن الإسلام عندما تراجع عن إجراءاته ضدهم، وسمح لمن أسلم بالارتداد والعودة إلى دينه.

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩.

تصوفه وتحقيق فكرة التأله

بدأ الحاكم، منذ عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢ـ ١٠١٣م)، يدخل في المرحلة الأخيرة من حياته، وهي المرحلة التي تتميز ببعض جوانب التقشف والزهد في الحياة، على الرغم من سياسة العنف التي انتهجها. فمنع الناس من ذكر عبارة سيدنا ومولانا في الرسائل الواردة إليه، وأمر بأن يُلقَّب بـ «أمير المؤمنين»، وألا يقبِّل أحد له الأرض، ولا يقبِّل يده عند السلام عليه في المواكب، وكانت حجته أن ذلك من رسوم البيزنطيين، كما أمر بألا يصلي عليه أحد في الخطب الدينية[١]. وكانت العادة قد جرت أن يصلي الخطيب على الخليفة كما يصلي على النبي في خطبة الجمعة، واقتصر الخطباء على النص التالي: «اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وسلم على أمير المؤمنين علي المرتضى، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك»[٢]، ومنع ضرب الطبول والأبواق حول القصر الفاطمي، وكان ذلك من مظاهر سيادة الخلفاء، ونهى عن إقامة الزينات في طريقه إلى المصلَّى الذي أنشأه في جبل المقطم وعرف بمصلى العيد، وصار يدخل للصلاة في أبسط المظاهر[٣]، وارتدى الخشن من الثياب، وركب الحمير، ورفض جميع أنواع المراكب الأخرى، وأكثر من الخروج في الليل[٤]، وأخذ يصرف بسخاء مفرط على المنشآت الدينية وأوقف الأوقاف عليها. ففي (رمضان ٤٠٠هـ/ نيسان ١٠١٠م)، أوقف رباعاً وأملاكاً كثيرة على الجامع الأزهر وجامع المقس والجامع براشدة والجامع الحاكمي ودار العلم (الحكمة) بالقاهرة. وفي عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) أمر بتسجيل المساجد التي لا دخل لها ولا أحد يقوم بها، فكانت ثمانمائة وثلاثين مسجداً، فأطلق لها في كل شهر تسعة آلاف ومائتين وعشرين درهماً، من بيت المال[٥]، كما حبس في عام (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) سبع ضياع على القراء والمؤذنين بالجوامع وعلى المارستانات، بالإضافة إلى ثمن الأكفان، وتخلَّى لولي عهده عبد الرحيم بن إلياس عن كل مظاهر البذخ والعظمة[٦].

كانت تقوى الحاكم البالغة، وهيامه في عوالم جديدة من الفلسفة الروحية،

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٠٠. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٩٤.
(٢) المقريزي: جـ ٤ ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٣) المصدر نفسه: ص ٧٦.
(٤) الأنطاكي: ص ٣٣٨.
(٥) المقريزي: جـ ٤ ص ٨٦ ـ ٨٩.
(٦) المصدر نفسه: ص ٨٨. الأنطاكي: ص ٣٠٦.

وشغفه برصد النجوم، وأحكامه المدهشة والمتناقضة، ما جعل أتباعه يغالون في تقديرهم لشخصه، وعدوا تصرفاته أسراراً خفية، وأهدافها غامضة، لا يمكن للبشر الوقوف على كنهها ولا الوصول إلى معرفة أسبابها، ولم تلبث أن ظهرت آثارها المادية في صورة دعوة جريئة إلى تقديسه، وعدُّوه فوق مستوى البشر، ووصل الغلو في ذاته إلى حد التأليه.

جاء هذا الغلو من جانب بعض الغلاة الإسماعيليين الفرس الذين قدموا إلى مصر في عام (٤٠٧هـ/ ١٠١٦م)، ووقفوا على نفسية الحاكم وشخصيته، وطموحاته البعيدة، وانخداع أتباعه بتصرفاته، واستعدادهم لقبول فكرة أنه فوق مستوى البشر، فنادوا بهذه الفكرة التي تقول بألوهية الحاكم، وحاولوا فرض هذه العقيدة على أهل الفسطاط السنَّة[١]. برز من هؤلاء الدعاة حمزة بن علي بن أحمد اللبَّاد الزوزني، وحسن بن حيدرة الفرغاني، المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي.

كان حمزة بن علي الزوزني، في بادىء أمره، عاملاً، يعمل بصناعة اللبَّاد في فارس، قدم إلى مصر في عام (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) وانضم إلى الدعاة الذين كانوا يتوافدون على دار الحكمة التي أسسها الحاكم في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م)، ونظَّم الدعوة الفاطمية في إطار مذهب جديد متأثراً، إلى حد كبير، بالأفكار الإسماعيلية التي كانت سائدة عند بدء الدعوة، وتلقَّب بلقب الهادي أو هادي المستجيبين. دعا هذا المذهب إلى إظهار الإيمان المطلق أو ما عُرف بالتوحيد الذي اضطربت حقيقته بين الدعاة لا سيما بعد ظهور دعوة حسن الفرغاني ومحمد الدرزي، فالتفَّ حوله جماعة من متطرفي الشيعة الإسماعيليين، وأولاه الحاكم رعايته، وكان يلتقي به في القرافة، ويرحب به وبأنصاره. وكان يقوم بنشاطه الديني في جامع ريدان الذي كان قائماً قرب باب النصر خارج أسوار القاهرة آنذاك، بعيداً عن الوسط السكاني[٢].

وكان حسن بن حيدرة الفرغاني من أعوان حمزة جريئاً مغامراً، فجهر بتأليه الحاكم وذلك في عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م)، فزعم أنه ليس بشراً وإنما هو رمز حلَّ فيه الإله، وأسقط جميع التكاليف، وأبطل النبوة، وأسقط اسم الله واسم النبي، وعدَّ التنزيل والتأويل والتشريع خرافات وقشوراً، واستطاع بفضل هذا التوجه، أن يتقرَّب

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٣٨. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١١٣ ـ ١١٨، ١٤٠.

(٢) يؤرخ الدروز ببداية دعوته عام ٤٠٨ هـ، وبها تبدأ أعوام حمزة، أي تقويم حمزة.

من الحاكم ويكسب عطفه ورعايته. ثم تمادى، فأعلن، في جامع عمرو بن العاص، مركز المقاومة السنِّية، أصول دعوة ألوهية الحاكم متحدياً بذلك مشاعر أهل السنَّة، فأثار غضبهم، ورفعوا شكواهم إلى القاضي أحمد بن محمد بن أبي العوام بالمسجد، فثار القاضي في وجهه، وتبعه الحاضرون، فانقضوا على أتباعه، وحاولوا التخلص منه، لكنه تمكَّن من النجاة بنفسه، فتعقَّبوه حتى قبضوا عليه وقتلوه[1]، وتأكدت بعد ذلك القطيعة النهائية بين الحاكم وأهالي الفسطاط، وتبع ذلك سلسلة من الاغتيالات والقتل.

حلَّ محل حسن بن حيدرة الفرغاني بعد مقتله، محمد بن إسماعيل الدرزي، فشرح دعوته وأصول مذهبه في رسالة قدَّمها للحاكم، فحاز رضاه، وقرَّبه منه، وأجزل له العطاء، وجعله محل رعايته وعطفه، وارتفعت منزلته عنده. فعهد إليه الإشراف على شؤون الدولة، فوقف الوزراء والقواد والعلماء على بابه، ولا ينقضي لهم شغل إلا على يده[2]. كان الدرزي يؤمن بالتجسيد، ويرى أن روح آدم حلَّت بعلي، وأن روح علي انتقلت إلى أبي الحاكم ثم انتقلت إلى الحاكم، ودعا الناس إلى أن يعتقدوا أن الحاكم هو الإله الذي صنع العوالم، وصنَّف كتاباً شبهه بالقرآن سماه الدستور[3].

أثار إعلان محمد بن إسماعيل الدرزي أصول مذهبه في الجامع الأزهر، سخط المصريين من أهل السنَّة والشيعة المعتدلين، فتعقَّبوه حتى علموا أنه ملتجىء في قصر الحاكم، فذهبوا إليه وطلبوا منه تسليمه إليهم. وهنا تختلف الروايات، فيذكر بعضها أنه قتل في عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) أثناء الاضطرابات التي حصلت بعد مقتل حسن بن حيدرة الفرغاني[4]، ويذكر بعضها الآخر أن الحاكم رفض تسليمه وسهَّل له سبيل الفرار، وأمده بالأموال وقال له: «أخرج إلى الشام وانشر الدعوة في الجبال، فإن أهلها سريعو الانقياد». وسرعان ما رحل عن مصر ونزل ببعض قرى بانياس، وهناك أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، وتمكَّن بفضل قوة حجته أن يستقطب إلى جانبه كثيراً من الأنصار الذين عرفوا باسم الدروز»[5].

والواضح أن هذا الاتجاه الفارسي الطارىء على المجتمع المصري، على

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٨٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٤.
(٣) الأنطاكي: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤٠. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١١٣.
(٥) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٨٤.

الرغم من الخلافات الداخلية التي ظهرت بين كبار الدعاة لا سيما بين حمزة بن علي الزوزني ومحمد بن إسماعيل الدرزي، ربما في إطار التنافس على زعامة المذهب والجهر بمبادئه أو ربما في إطار العقيدة؛ كان يتحرك ضمن خلفيات دينية وسياسية، بهدف هدم الدين الإسلامي، مع الإشارة بأن تعاليم هؤلاء الدعاة الغلاة تأثرت بالمبادىء الخرمية والمزدكية، بالإضافة إلى تحقيق التطلعات الفارسية القومية، وبخاصة أن تحركهم ترافق مع ظهور الدول الانفصالية البويهية الشيعية في المشرق الإسلامي.

أما موقف الحاكم من دعوة التأليه، فكان تأييداً ورعاية. إذ سرَّه بأن يلتفَّ الناس حوله ويتوحدوا حول شخصه من خلال مذهب جديد عُرف باسم التوحيد، وأُطلق على أتباعه اسم الموحدين، بدليل أنه أظهر استياءه وغضبه مما حدث من أهالي الفسطاط الذين جاهروا بتذمرهم من موقفه المؤيد لهؤلاء الدعاة، وقد وضعوا في طريقه صورة امرأة عُملت من قراطيس وفي يدها جريدة عليها رقعة فيها سب للحاكم وأسلافه، فعهد إلى جنوده السودان بمهاجمة المدينة، ونفَّذ هؤلاء عمليات سلب ونهب وحرق واغتصاب وقتل كبيرة، وذلك في عام (٤١٠هـ/ ١٠١٩م)[1].

تصَّدى سكان الفسطاط لهذه المحاولة التدميرية، وقاوموا للدفاع عن مدينتهم، وتدخَّل المغاربة والأتراك إلى جانبهم، وطلبوا من الحاكم إنهاء عمليات السلب والحرق لأن أموالهم وأولادهم وأملاكهم موجودة في الفسطاط، ولكن الحاكم لم يستجب لهم، في بادىء الأمر، وعمد إلى زيادة إشعال الفتنة بين السودان وسائر الطوائف بهدف «طرح بعضهم على بعض، ولينتقم من فريق بفريق»، ولم يُصدر أوامره بوقف هذه المأساة إلا بعد أن احترق من الفسطاط مقدار ثلثها، ونُهب نصفها، وبعد أن هدَّد المغاربة والأتراك بحرق القاهرة نفسها[2].

ويبدو أن ظهور التعاليم الجديدة التي تدعو إلى ألوهية الحاكم، والتي وجدت منه تشجيعاً، لم تلقَ قبولاً من كبار رجال الدعوة الإسماعيلية. فالداعي أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرماني، الملقب بـ «حجة العراقين»، الذي قدم إلى مصر في عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م)، بدعوة من قبل ختكين الضيف داعي الدعاة الفاطمي في مصر، ذكر أن الناس واقعون تحت بلاء عظيم، وأن رجال الدعوة رفضوا عقد

(١) الأنطاكي: ص ٣٤٥. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٨١.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧. ص ١٨١. ساويروس: جـ ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

مجالس الحكمة، وأن أولياء الدعوة الهادية حيَّرهم ما يطرأ عليهم من الأحوال، وأن بعضهم بلغ في الغلو ذراه، وتزعزعت أركان اعتقادهم[1].

ووضع الكرماني، في هذه الظروف الغامضة، رسالته المعروفة بـ «الرسالة الواعظة في الرد على الأخرم والفرغاني» دحض فيها فكرة تأليه الحاكم، وفنَّدها، وأوضح العقيدة الإسماعيلية التي ترتكز على الاعتراف بالله الذي لا إله إلا هو[2].

وتمادى الحاكم حين فكَّر في نقل الحج إلى مصر. فقد شيَّد في المنطقة الواقعة بين الفسطاط والقاهرة ثلاثة مشاهد لينقل إليها رفات النبي محمد ﷺ، ورفات أبي بكر وعمر، من المدينة، وذلك بهدف تحويل المسلمين عنها إلى القاهرة لشدِّ الرحال إليها وجعلها في مقام المدينتين المقدستين، وهي محاولة كُتب لها الفشل.

وقد أشار إلى هذه المحاولة الجغرافي أبو عبيد البكري الأندلسي، المتوفى في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)[3]، وعلى الرغم من أن المصادر الفاطمية لا تشير إليها فقد أكَّدها مؤرخون بعد البكري، والراجح أنها تمَّت في عام (٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م)[4].

وكلَّف الحاكم ياروختكين العضدي، والي الرملة، القيام بتنفيذ هذه المهمة، فأرسل أناساً نجحوا في حفر سرداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول ﷺ مقابل القبر، غير أن أهل المدينة قاوموهم بعد أن علموا بأمرهم، وقتلوهم، ومثَّلوا بهم. وفي رواية أن الحاكم كلَّف أمير مكة أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسني بهذه المهمة، ولم يكد يمضي بقية النهار حتى أرسل الله ريحاً شديدة حتى كادت الأرض تزلزل منها. وقد فُسرت هذه الظاهرة الكونية على أنها علامة غضب إلَهية، وعدَّها أبو الفتوح حجة له عند الحاكم ليتوقَّف عن تنفيذ ما أمره به[5]. ويشكِّك مؤرخون آخرون بهذه المحاولة، لأن الحاكم لم يكن ليفعل ذلك حتى لا يثير عليه عامة

---

(١) عماد الدين، إدريس: ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٢) انظر نص هذه الرسالة التي نشرها محمد كامل حسين، في مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، ١٤ أيار، ١٩٥٢م، ص ١ ـ ٢٩.

(٣) انظر جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري ص ٥٧. مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ص ٨٣. سيد: ص ١١٣.

(٤) ابن فهد: جـ ٢ ص ٤٢٦. الجزيري: جـ ١ ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣. السمهودي، نور الدين علي بن عبد الله ابن أحمد الحسني: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: جـ ٢ ص ٦٥٢ ـ ٦٥٤. يشير السمهودي إلى عدة مصادر أكَّدت حصول المحاولة.

(٥) ابن فهد: المصدر نفسه ص ٤٢٧، ٤٣٦ ـ ٤٤٠. الجزيري: المصدر نفسه ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣. الفاسي، تقي الدين محمد ابن أحمد: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين جـ ٤ ص ٧٧.

المسلمين، ولو أنه أمر بذلك لاتخذ موقفاً متشدِّداً من أبي الفتوح الذي لم ينفِّذ أوامره، لكن الدلائل تشير إلى استمرار العلاقات الطيبة بين الرجلين آنذاك[1].

نزعات الحاكم الاجتماعية

أصدر الحاكم، خلال حياته السياسية، عدة سجلات اجتماعية تناولت جانباً من حياة الناس، وتوافقت مع ميوله الشخصية، وتدابيره الاقتصادية، والتعاليم الإسلامية. فبسبب شغفه في التنقل ليلاً، وعقده المجالس في الليل، صدرت في عام (٣٩١هـ/ ١٠٠١م) الأوامر بتعليق المصابيح ليلاً على جميع الحوانيت، وأبواب الدور، والمحلات التجارية المختلفة في جميع شوارع القاهرة والفسطاط، وأضحت جميع الأعمال التجارية تجري في الليل.

نتج عن ذلك أن ازدهرت أماكن اللهو والمرح، وظهرت النساء في المجتمعات الليلية بكثرة، واشتدَّ المجون، وتفاقمت الغواية. فلما تجاوز الناس الحد، وبالغواني اللهو، والإسراف في المجون، منع الحاكم النساء من الخروج ليلاً، منذ العشاء، لكي تخف عوامل الفتنة والغواية، وعوقبت المخالفات بشدَّة، ثم مُنع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهي الليلية. وأُبطلتْ بعد ذلك جميع الأعمال ليلاً، وذلك في عام (٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م)[2].

ويبدو أن شغف الحاكم بالليل وظلماته ينم عن غريب أطواره ونزعاته، حيث لبث مدة من الزمن يؤثر الجلوس في الظلام.

ومنذ عام (٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) بدأ صدور تلك الأوامر والنواهي المتعلقة بالأوضاع الاجتماعية، فصدر سجل نهى عن بيع الخمر المحرم أصلاً في الإسلام، «وأن لا يظهر شيء منه، وكسر جميع ما كان للخمارين وأصحاب المواخير وأُريق، وأزيل المواضع التي فيها أهل الفساد والفجور يأوون إليها ويجتمعون بها، وفرَّق جموعهم»[3].

وفي عام (٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م) «أغضى ما كان عليه من النهي عنه» وذلك بتأثير طبيبه أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أنسطاس، الذي أشار عليه بشرب النبيذ، وذكر له ما فيه من المنافع، فجنح إلى مشورته. وعندما مات أبو يعقوب، في العام

---

(١) يستنكر المؤرخ المكي تقي الدين الفاسي هذه الرواية ويقول: إنه يذكرها في كتابه لغرابتها. العقد الثمين. محمد: ص ٩٤.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٧٦.

(٣) الأنطاكي: ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

نفسه، رجع الحاكم عن ذلك، ومنع شرب النبيذ، وتشدَّد فيه، حتى أنه منع بيع الزبيب والعسل الذي يدخل في صناعته «وغرَّق في النيل شيئاً كثيراً للتجار بمال عظيم، وكسرت الظروف التي يوعى فيها النبيذ، ومنع من عملها»[١].

وحدث في عام (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧ـ ١٠٠٨م) أن نقص ماء النيل، مما أدى إلى اختلال المعادلة الاقتصادية، فهلك الزرع، واشتد الغلاء، واشتكى الناس من قلَّة الخبز ومن غلاء الدقيق والأرز، وتفاقمت الأوضاع بظهور الأوبئة، فاتخذ الحاكم عدة تدابير إجرائية للتخفيف من الضائقة الاقتصادية، فأمر بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته، وحدَّد أسعار القمح والمواد الغذائية الأخرى، وعوقب المخالفون بالموت، وتشدَّد في منع بيع الخمور والمسكرات، وحرَّم بعض الأطعمة التي لها علاقة بصناعة الخمور، كالزبيب والشعير والحنطة، ومنع شراء أكثر من أربعة أرطال من العنب دفعة واحدة، خشية استعماله في صنع النبيذ، ثم دمَّر زراعة الكرمة، وأحلَّ محلها زراعة القمح، وكان قد منع في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) أكل القرة والترمس والمتوكلية والملوخية والجرجير، وذلك بهدف المحافظة على الأرض لزراعة أغذية أخرى أكثر ضرورة. والجدير بالذكر أن مصر كانت تمر، في كثير من السنين، بأوضاع اقتصادية عصيبة بفعل نقصان ماء النيل، فكان على الحاكم أن يؤمِّن الغذاء الضروري للسكان الذي هو القمح بتخصيص أكبر مساحة ممكنة لزراعته أو استيراده من الخارج، ويُذكر في هذا الصدد أنه ضمَّن اتفاقية الصلح التي عقدها مع البيزنطيين بنداً يقضي بتزويد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب من بيزنطية[٢].

وحرَّم الحاكم ذبح الأبقار السليمة، إلا في أيام النحر، لا يذبح إلا ما كان ذا عاهة أو ما لا يصلح للحرث، وذلك بهدف المحافظة على الثروة الحيوانية، ومنع الخبازين من استخدام أقدامهم في عجن العجين، حفاظاً على الصحة العامة، كما منع أكل السمك الذي لا قشر له، وهو المعروف بالدلنيس، وهو سمك يعيش في

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨. ابن القلانسي: ص ٩٠. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٩٣. ابن ظافر: ص ٤٣ ـ ٤٤. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٣. خطط جـ ٤ ص ٧٢. هذا واستبعد أن يكون تحريم بعض الأطعمة له علاقة بالصحابة كما ذكر بعض المؤرخين، مثل ابن ظافر والمقريزي من أن الحاكم منع أكل الملوخية المحببة لمعاوية بن أبي سفيان، والبقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة أم المؤمنين، والمتوكلية المنسوبة للمتوكل.

الأوحال، ويحفر فيها ممرات مائية ليحيا على الترسبات التي تستقر في الأسفل، وعليه فإن هذا النوع من السمك يقوم بوظيفة بيئية هي تنظيف المجاري المائية، وأمر بتتبع الكلاب وقتلها أينما وُجدت باستثناء كلاب الصيد، فخلت الطرقات والدور منها، والواضح أن قتل الكلاب كانت تمليه بواعث صحية، كما أمر بقتل الخنازير المحرَّمة في الإسلام[1].

واهتم الحاكم بحياة المرأة وحاول صونها، مدفوعاً في ذلك بدافع الشعور الديني وإصلاح الأخلاق، وتطهير النفوس في المجتمع من الرذائل. ونظراً لأن حياة المرأة المصرية كان يشوبها بعض التحلُّل، حيث كانت تتبرَّج، وتكشف عن وجهها خلف الجنائز، ولا تتورع عن الجلوس في الطرقات العامة، وأمام المنازل، وتكثر من الاختلاط بالرجال في الأسواق؛ فقد صدرت، منذ عام (٤٠١هـ/ ١٠١٠م)، عدة سجلات اجتماعية تتناول حياة المرأة. فمنع الغناء واللهو صوناً للأخلاق، وهوجمت أماكن البغاء، وطُهِّرت أحياء القاهرة، وحظَّر على النساء أن يغادرن دورهن والخروج إلى الطرقات بالليل والنهار، باستثناء النساء المتظلمات للشرع، والخارجات إلى الحج، والمسافرات في ظروف قاهرة، والإماء اللَّاتي برسم البيع، والقابلات، وغاسلات الموتى والأرامل اللاتي يبعن الغزل، وأن يكون خروج هؤلاء بإذن خاص، كما منعهن من التطلع من نوافذ البيوت، والوقوف فوق أسطح المنازل وزيارة القبور لما في ذلك من الاختلاط بالرجال، وحرَّم عليهن التبرج والبكاء والعويل وراء الجنائز. وبلغ من حرصه على تنفيذ أوامره، أنه منع صانعي الأحذية، من صنع الأخفاف للنساء حتى يتعذَّر عليهن الخروج من بيوتهن[2]، فاختفى النساء من المجتمع المصري، وساده الانقباض والوحشة، وأغلقت المتاجر التي تبيع السلع النسائية، فساد الذعر بين النساء ولزمن دورهن في روعة وخشوع، وحاول النساء الشكوى، وذهبن إلى القصر للتظلم، فلم يفزن بشيء، وعوقبت المخالفات بالضرب والحبس.

وحرَّم الحاكم لعب الشطرنج، وصناعة التنجيم والكلام فيها، ونفى المنجمين من سائر المملكة، ثم صدر سجل بإعفائهم من النفي.

والواضح أن المصريين بعامة، والنساء بخاصة، عانوا من تلك الأوامر

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٨٩. المقريزي: اتعاظ جـ ٢ ص ٩٠، ١٠٢ ـ ١٠٤، ١١٠، ١١٩ ـ ١٢٠. خطط جـ ٤ ص ٧٥. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٧٨ ـ ١٧٩، ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

والنواهي، والقيود الشديدة، واستطالت ألسنتهم الحاكم نفسه، وبدت عليهم إمارات التذمر، فصدر من أجل ذلك عدة سجلات تقضي بمنع الناس من التعرض فيما يفعله الإمام أو يصدره من أوامر وأحكام.

نهاية الحاكم

في خضم الاضطراب الداخلي الذي عمَّ القاهرة والفسطاط نتيجة تدابير الحاكم، إذا به يغيب عن الدنيا في ظروف غامضة. ففي ليلة (٢٧ شوال عام ٤١١هـ/ ١٣ شباط عام ١٠٢١م)، خرج الحاكم مع اثنين من الركابية، إلى جبل المقطم، فلما وصل طلب منهما انتظاره، وابتعد عنهما في الجبل، ولم يُر بعد ذلك أبداً لا حياً ولا ميتاً، ووجدت ثيابه بعد خمسة أيام وعليها آثار طعنات. وربما دُفن في مكان قتله بشكل سري أو أكلته الحيوانات الضارية[١].

ويُستنتج من الروايات المضطربة التي أحاطت بهذا الاختفاء بأن الحاكم قُتل ضحية مؤامرة حاكتها أخته ست الملك بالاتفاق مع سيف الدولة الحسين بن دواس الكتامي بعد أن اتهمها الحاكم في شرفها، وخشي ابن دواس على نفسه من الحاكم.

والراجح أن التعجيل بنهاية الحاكم لم يكن سوى جريمة سياسية ارتكبت لتحقيق غايات الملك والسياسة[٢]. فقد انتهج الحاكم، خلال بعض مراحل حياته السياسية، سياسة التساهل مع المبادىء الإسماعيلية. إذ أن إدراكه بكون الإسماعيليين أقلية بين المسلمين، وسعياً إلى زيادة شعبيته، بدأ منذ عام (٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م) سياسة جديدة من التساهل في تطبيق مبادىء المذهب الإسماعيلي، مما أدَّى إلى إغضاب كبار رجال الدعوة، وإثارتهم إلى حد إعلان الثورة، لكن الحاكم واجهها بعنف، وأعدم اثنين من قادة المعارضة هما الحسين بن جوهر الصقلي وعبد العزيز بن القاضي النعمان وذلك في عام (٤٠١هـ/ ١٠١٠م)[٣].

وأصدر الحاكم في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) بياناً في منتهى الغرابة، يُعدُّ في الواقع إلغاء لأحد أسس المذهب الإسماعيلي. فقد أمر بألا يُنظر إليه إلا كأمير

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٥٩ ـ ٣٦١. ابن ظافر: ص ٥٨ ـ ٥٩. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٦٥٨ ـ ٦٥٩. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨. عماد الدين، إدريس: ص ٣٠٣. المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ١١٥ ـ ١٢١ خطط: جـ ٤ ص ٧٧. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٨٥ ـ ١٩٣.

(٢) عنان: ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(٣) شعبان، محمد عبد الحي محمد: الدولة العباسية، الفاطميون ص ٢٤٩.

المؤمنين، وأن يُخاطب بهذا اللقب فقط، وهذا يعني تنازله عن منصب الإمامة، كما أمر رعاياه بالتحرر من النظر إلى أنفسهم كعبيد له[1].

وفي عام (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) ازداد تباعداً عن العقيدة الإسماعيلية التي تشترط المبايعة للابن الأكبر كولي للعهد، وتجاوز هذا المبدأ الأساسي حين عيَّن ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي ولياً للعهد[2]. وتحسباً من قيام معارضة، أخرج جماعة من حظاياه وأمهات أولاده من القصر، ومن بينهن أم ولده أبي الحسن علي، وولده نفسه، مما اضطر أخته ست الملك إلى أخذهما خوفاً عليهما وأسكنتهما بقصرها[3].

أدَّت هذه التغييرات الجذرية إلى نشوء حالة ارتباك في الأوساط الفاطمية إلى حد أن بعضهم ظنَّ أن الحاكم تجاوز الحد. ومما زاد الوضع اضطراباً وقف عقد الاجتماعين الأسبوعيين للتدريس والجباية[4].

كانت ست الملك، التي اتصفت بسعة الإدراك، وخشيت على نفسها من غضب أخيها، تراقب هذه التطورات التي قد تطيح بالدولة الفاطمية، وكثيراً ما حذَّرته من العواقب، فكان يغضب لتدخلها ويردها بغلاظة ويُبعدها عن كل تدخل في الشؤون العامة[5]، فاستعانت بسيف الدولة الحسين بن دواس، زعيم كتامة، ليكون حليفها ومنفِّذ مشروعها. وكانت هذه القبيلة قد فقدت كثيراً من مكانتها في عهد الحاكم، كما كان ابن دواس يعيش بعيداً عن الاحتفالات والمواكب الرسمية خشية من غدر الحاكم به، فاتصلت به ست الملك سراً وعرضت عليه مشروع التخلص من الحاكم وإنقاذ الدولة وتعيين ابنه (الحاكم) مكانه، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة وصاحب الكلمة العليا في شؤونها، فقبل ابن دواس القيام بهذه المهمة وعهد إلى عبدين من أخلص عبيده، بالتنفيذ في الوقت الذي يخرج فيه الحاكم كعادته ليلاً إلى المقطم، وهكذا تمَّ تنفيذ المؤامرة[6].

---

(١) المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٧٥.

(٢) الأنطاكي: ص ٣٠٦. النويري: جـ ٢٨ ص ١٩٢. سيد: ص ١٠٨.

(٣) الأنطاكي: المصدر نفسه ص ٣٠٤.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ٨٢.

(٥) ابن ظافر: ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٦) ابن الجوزي: جـ ٧ ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠. ابن ظافر: المصدر نفسه: ص ٥٧ ـ ٥٩. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٦٥٩ ـ ٦٦٠. المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٨٤ ـ ١٩٢. ابن أيبك الدواداري: جـ ٦ ص ٢٩٩، ٣٠١.

وتُبرِّىء بعض الروايات ست الملك من عملية القتل، واتجهت مظنة التحريض إلى ابن دواس[1]، لكن جميع الروايات تتفق على أن الحاكم ذهب ضحية مؤامرة.

وساعدت الطريقة التي اختفى فيها الحاكم، أنصار المذهب الجديد الذي تزعمه حمزة بن محمد الزوزني للترويج إلى مذهبهم والقول باختفاء الحاكم وغيبته، وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً، مرددين في ذلك فكرة المهدية، لكن دعوتهم لم تلقَ قبولاً في مصر، وانتشرت في بلاد، الشام، كما أعطى ذلك أيضاً الفرصة لطالبي الشهرة الذين ظهر منهم من يدَّعي أنه الحاكم، وأنه لم يمت، وأنه عاد من جديد[2]. ويذكر إدريس عماد الدين أن الله رفعه إليه[3].

ويبقى أن نذكر أن من أشهر الأعمال الثقافية التي أنجزها الحاكم خلال مراحل حكمه، إنشاؤه دار العلم (الحكمة)[4]. والواضح أن القاهرة كانت طوال العصر الفاطمي مركز الدعوة الإسماعيلية في العالم الإسلامي، وتركزت هذه الدعوة في جامع القاهرة الذي عُرف بالجامع الأزهر، وفي دار العلم مقر داعي الدعاة الفاطمي.

افتتحت دار العلم يوم السبت (١٠ جمادى الآخرة ٣٩٥هـ/ ٢١ آذار ١٠٠٥م)، ويبدو أن الحاكم أراد الاقتداء بالخليفة العباسي المأمون عندما أنشأ بيت الحكمة في بغداد، وحمل إليها كتباً كثيرة من خزانة كتب القصر تحتوي على سائر العلوم والأداب، وسمح لمن يريد التردُّد على الدار من الناس، بأن يطَّلعوا على هذه الكتب وينسخوا ما يحتاجون لتغذية معارفهم، وعيَّن فيها المدرسين من منجمين وأطباء وقرَّاء وفقهاء ونحويين ولغويين، كما عيَّن فيها خدماً وفراشين وخزَّاناً، وأجرى الأرزاق على الجميع، ووفَّر بها ما يحتاج إليه الناس من حبر وأقلام وورق ومحابر[5].

---

(١) المسبحي: أخبار مصر ص ٢٧ ـ ٢٨، ٩٢. المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٧٧. ويُذكر أن المقريزي وقع في التناقض، فهو يتهم ست الملك، وابن دواس في اتعاظ الحنفا، في حين يبرىء ست الملك من تهمة التآمر بالقتل ويقول «... فُقِد الحاكم وقيل إن أخته قتلته وليس بصحيح».

(٢) سيد. ص ١٧.

(٣) عيون الأخبار: ص ٣٠٣.

(٤) سمى المسبحي هذه الدار بدار الحكمة في حين أطلق عليها الأنطاكي دار العلم.

(٥) الأنطاكي: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٦. خطط جـ ٢ ص ٣٧٩.

ثورة العلّاقة في صور

ترك العزيز الفاطمي لابنه الحاكم مملكة واسعة تشمل مصر وبرقة وطرابلس الغرب وإفريقية وبعض بلاد الشام، وتبسط هيمنة روحية على اليمن والحرمين وصقلية. وكانت هذه المملكة بحاجة إلى الاستقرار، وبخاصة بعد التدمير الذي أحدثه القرامطة في بلاد الشام. وأضحت هذه البلاد أرضاً صالحة لقيام الثورات، والإمارات الانفصالية، بعد تردُّد صدى الأحداث الداخلية المضطربة في مصر، الناجمة عن صراع العناصر المشرقية والمغربية، بالإضافة إلى ذلك، كانت الأمبراطورية البيزنطية قد جهدت لاستعادة أملاكها في بلاد الشام في عصر أسرة باسيل، منتهزة فرصة الاضطراب الذي أثارته غزوات القرامطة، فاستولى البيزنطيون على أنطاكية وبعض الثغور والمواقع الأخرى، وشجعوا حركات التمرد على الحكومة المركزية في القاهرة، واشتبكوا مع الجيوش الفاطمية في عدة معارك في البر والبحر.

سبق أنْ أشرنا إلى تفاقم الأوضاع في بلاد الشام في أواخر عهد العزيز، وكيف خرج بنفسه على رأس جيش فاطمي للتصدي للبيزنطيين، لولا أن المنية عاجلته في بلبيس. وعندما آلت السلطة إلى الحاكم، عيَّن سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي والياً على بلاد الشام، وأمره ببسط سيادة الدولة الفاطمية عليها[1]. والمعروف أن هذه البلاد تعرَّضت في عامي (٣٨٧ـ ٣٨٨هـ/ ٩٩٧ـ ٩٩٨م) لكثير من الاضطرابات والثورات والفتن الداخلية، وذلك بسبب التنافس الفاطمي ـ البيزنطي من أجل امتلاكها، وكان البيزنطيون يساعدون كل ثائر على الحكم المركزي في القاهرة.

كان منجوتكين التركي والياً على بلاد الشام، فأضحى لا يطمئن على مركزه وحياته بعد التغييرات في القيادة التي حصلت في القاهرة، ولما علم بخروج سليمان بن جعفر تجهَّز للتصدي له، وطلب المساعدة من مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي في فلسطين، وجرى اللقاء في (٤ جمادى الأولى ٣٨٧هـ/ ١٥ أيار ٩٩٧م) بظاهر عسقلان، انتصر فيه القائد الفاطمي، وتراجع منجوتكين منهزماً إلى دمشق[2].

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٢) ابن القلانسي: ص ٧٧.

وقبل أن يتوجه سليمان بن جعفر إلى دمشق، أجرى حركة تعيينات في مدن الساحل بهدف تعيين ولاة يدينون بالولاء المباشر للحاكم، فأعطى ولاية طرابلس لأخيه علي بن جعفر، وصرف عنها جيش بن الصمصامة الذي عاد إلى مصر مغاضباً، وعيَّن الأمير التنوخي تميم بن المنذر على طرابلس، والأمير مطوعاً بن تميم على بيروت والغرب، والأمير غالباً بن مسعود بن المنذر على صيدا، والأمير هارون بن حمزة على صور[١]. ويبدو أن هذه التعيينات كانت مرحلية، حيث جرى صرف الأمير هارون بن حمزة عن ولاية صور، وتولاها الأمير فحل الكتامي، كما جرى استبدال ولاة صيدا وطرابلس.

وحدث في عام (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) أن ثار أهل دمشق ضد القائد الفاطمي سليمان بن جعفر والحكم الفاطمي، وتغلَّب الأحداث على المدينة بزعامة رجل منهم يعرف بالدهيقين[٢]. ونشبت في العام نفسه ثورة في مدينة صور ضد الحكم الفاطمي، وعصى أحداثها أيضاً على الوالي، واختاروا أميراً من البحارة يُعرف بالعلَّاقة، وقتلوا الموظفين الفاطميين. وضرب العلَّاقة السكة باسمه ونقش عليها عبارة «عز بعد فاقة، للأمير علّاقة»[٣]. وصادف في الوقت نفسه خروج مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي في فلسطين، فنهب ما كان بالسواد، وأطلق يد العبث في البلاد، فتراجع النفوذ الفاطمي في بلاد الشام بعامة، وكان لا بد من التحرك السريع لوضع حد لهذا التدهور.

وفعلاً جاء الرد سريعاً من قِبَل القاهرة، فأرسل برجوان الخادم، القائد جيش بن الصمصامة على رأس قوة عسكرية قوامها ألف مقاتل، وأعطاه تفويضاً بتدبير أعمال دمشق وبلاد الشام. فخرج إلى الرملة وقبض على سليمان بن جعفر، ثم انتدب كلًّا من أبي عبد الله الحسين بن ناصر الدولة الحمداني، وفائق الخادم الصقلبي، الذي كان على الأسطول، لقمع ثورة صور، كما أرسل من مصر عشرين سفينة حربية مشحونة بالرجال والعتاد بقيادة العُكبري المنجم، وكتب إلى قاضي طرابلس علي بن حيدرة ليسير بأسطوله لحصار صور، كما كتب إلى ابن شيخ والي صيدا بمثل ذلك، بالإضافة إلى جماعات أخرى من الجهات المختلفة بحيث اجتمعت في (جمادى

---

(١) ابن القلانسي: ص ٧٩ ـ ٨٠. (٢) الأنطاكي: ص ٢٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٤٠ ـ ٢٤١. ابن القلانسي: ص ٨٣. أبو شجاع: جـ ٣ ص ٢٢٦. النويري: جـ ٢٨ ص ١٧٣، ويسميه عماد الدين، إدريس ص ٢٥٩: أبو علاقة.

الآخرة ٣٨٨هـ/ حزيران ٩٩٨م) أعداد هائلة من القوى البرية والبحرية، وضربت الحصار على المدينة[١].

نتيجة لهذا الهجوم الفاطمي الواسع، اضطر العلّاقة بأن يستنجد بالأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، وتعهد له بتسليمه المدينة[٢]، فأرسل إليه عدة مراكب مشحونة بالمقاتلة. وعندما وصلت إلى ساحل صور تصدَّت لها البحرية الفاطمية التي أثبتت تفوقها، وأنزلت بها خسائر فادحة، واستولى المسلمون على عدد كبير من الأسرى[٣].

وضع هذا الانتصار البحري حداً لثورة أهل صور الذين خارت قواهم، وضعفت نفوسهم، وعجزوا عن صدِّ الجموع المحاصِرة لهم براً وبحراً. ولاحظ الفاطميون من جانبهم بانهيار معنويات أهل صور فنادوهم «من أراد الأمان من أهل الستر والسلامة فليلزم منزله»[٤]، فلزموا منازلهم. وتدفق الجنود الفاطميون إلى داخل المدينة، وقبضوا على العلَّاقة وجماعة من أصحابه بعد أن امتنعوا في بعض الأبراج، ثم نهبوا المدينة. وحُمل العلَّاقة إلى مصر مقيداً، وسيق في جماعة معه، وقد أُلبس طرطوراً من رصاص له عِظم وثِقل، ثم أُعدم. وأُعطيت ولاية صور إلى أبي عبد الله الحسين بن ناصر الدولة الحمداني[٥].

العلاقة مع بني الجراح في فلسطين

حاول بنو الجراح استغلال الأوضاع المضطربة التي كانت تمر بها الدولة الفاطمية في بداية عهد الحاكم لتأسيس دولة مستقلة في فلسطين، فاستولى مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي على الرملة في عام (٣٨٨هـ/ ٩٩٨م)، ثم سار إلى عسقلان، فصدرت الأوامر لجيش بن الصمصامة بالتصدِّي له، فسار قاصداً الرملة، واستعادها، وأخضع بني الجراح، وطارد مفرج بن دغفل وقواته، حتى طلبوا الأمان والصلح، فعفا عنهم جيش بن الصمصامة، وأمَّنهم، وعيَّنه على الرملة والياً من قبله[٦].

لم يركن بنو الجراح إلى الهدوء، وكانوا مستغلي فرص. ففي عام (٤٠٠هـ/

(١) الأنطاكي: ص ٢٤١. ابن القلانسي: ص ٨٣. (٢) الأنطاكي: المصدر نفسه.
(٣) ابن القلانسي: ص ٨٣. (٤) المصدر نفسه. ص ٨٣.
(٥) المصدر نفسه: ص ٨٣ ـ ٨٤. الأنطاكي: ص ٢٤١.
(٦) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٨٥.

١٠٠٩م) غضب الحاكم على آل المغربي في مصر، وهم أسرة قوية من الأعيان والوزراء، ففرَّ عميدهم الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المغربي[(١)] من مصر، والتجأ إلى حسان بن المفرج بن دغفل الطائي في فلسطين، وأغراه بخلع طاعة الحاكم، وكان هذا الأخير قد ولَّى ياروختكين التركي إمارة دمشق وقيادة جيوش الشام، فرفض بنو الجرَّاح الاعتراف بولايته، وأعدُّوا له كميناً على طريق غزة، وأخذوه أسيراً، ثم زحفوا على الرملة واستولوا عليها وقتلوه، وحاصروا حصون الساحل[(٢)].

وجدَّد بنو الجراح، في العام التالي، محاولتهم للاستقلال بفلسطين بتحريض من الوزير المغربي، واستمالوا أبا الفتوح الحسن بن جعفر، أمير مكة، وبايعوه بالخلافة، وكان هذا الأمير مخلصاً للفاطميين ثم انقلب عليهم، فخطب لنفسه وتلقَّب بلقب الراشد بالله[(٣)]، ثم خرج من مكة وانضمَّ إلى بني الجراح في الرملة. واستقطب الوزير المغربي بعض القبائل العربية من سُلَيْم وهلال وعوف بن عامر، فانضموا إلى الحلف، وأُقيمت الخطبة لأبي الفتوح في كثير من بلاد الشام. والجدير بالذكر أن أبا الفتوح عندما تلقَّب بلقب الخلافة، نزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة، وضرب النقود باسمه، واستخدم ما كان يدفعه الحاكم من أموال لمساعدة عرب الحجاز في استقطاب عرب الشام، كما أصدر كتاباً قُرىء على الناس تضمَّن ألا يُقبِّل أحد الأرض بين يديه[(٤)].

عندما علم الحاكم بنبأ خروج أبي الفتوح، وانتحاله لقب الخلافة، وتحالفه مع بني الجراح والوزير المغربي، استاء من ذلك وعزم على ضرب الثائرين، فأرسل حملة عسكرية أخرى بقيادة علي بن جعفر بن فلاح اصطدمت بقوى التحالف في الرملة في عام(٤٠١هـ/ ١٠١١م) إلا أنها تعرَّضت للهزيمة[(٥)].

نتيجة هذا الفشل العسكري، مال الحاكم إلى استعمال الدهاءالسياسي، وتصرَّف على ثلاثة محاور:

الأول: ضيَّق على أهل الحجاز وحاصرهم اقتصادياً، وقطع الميرة عنهم، وقتل أحمد بن أبي العلاء مولى أبي الفتوح وسفيره في مصر. ويبدو أن هذا الرجل كان

---

(١) نقم هذا الوزير على الحاكم لأنه غدر بأبيه وأعمامه. ابن القلانسي: ص ١٠١.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٨١.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٠١. عماد الدين، إدريس ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٠.

(٤) أبو شجاع: جـ ٣ ص ٢٣٦.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٨٧.

ينقل أخبار مصر إلى مولاه، وأصدر سجلاً منع الناس بموجبه من السفر إلى مكة[1].

الثاني: عزل أبا الفتوح الحسن بن جعفر عن ولاية مكة وولّى ابن عمه أبا الطيب الحسني على الحرمين، بدلاً منه، وأرسل إليه وإلى شيوخ بني الحسن مالاً لاستقطابهم، وتعهَّد بدفع مبلغ خمسين ألف دينار نقداً لكل فرد من إخوته، باستثناء الهدايا والثياب التي أرسلها لهم، وذلك مقابل انفصالهم عن أبي الفتوح. وفعلاً تخلَّى هؤلاء عن طاعة الأخير، ودخلوا في طاعة الحاكم[2].

الثالث: منح بني الجراح، الإقطاعات الكثيرة والعطاء الجزيل، لاستقطابهم، وطلب منهم أن يتخلوا عن مساندة أبي الفتوح. وهوَّن على حسان بن علي بن المفرج بن الجراح الذي تولى زعامة القبيلة في عام (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) قتل ياروختكين. وفعلاً تخلَّى هؤلاء عن أبي الفتوح ودخلوا في طاعة الحاكم، فاضطر أبو الفتوح عندئذٍ للعودة إلى مكة، وكتب إلى الحاكم يعتذر عما بدر منه، فقبل عذره، وعفا عنه، وأعاده إلى إمارته، فجدَّد الدعوة للحاكم ونقش اسمه على السكة، أما الوزير المغربي فقد هرب إلى بغداد[3].

وجدَّد بنو الجراح ثورتهم في عام (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م)، ويبدو أنه كان للوزير عيسى بن نسطورس يد في إثارة القلاقل على الحاكم. وحاولوا كسب تأييد النصارى في بيت المقدس، كما تقرَّبوا من الأمبراطور البيزنطي طمعاً في مساعدته. عندئذٍ قرَّر الحاكم أن يُنهي تمردهم بالقوة، فأرسل حملة عسكرية كبيرة إلى بلاد الشام بقيادة علي بن جعفر بن فلاح لإخضاعهم، وكتب إلى ولاة دمشق ومدن الساحل بالخروج لمساعدته. سار علي بن جعفر إلى الرملة، وهزم حساناً وقومه، واستولى على أموالهم وذخائرهم، ودخل الرملة[4].

عامل الجيش الفاطمي بني الجراح معاملة قاسية في محاولة لتأديبهم، فأرسل حسان بن المفرج والدته إلى القاهرة حيث اجتمعت بأخت الحاكم ست الملك، وطلبت منها الشفاعة لابنها، فعفا عنه الحاكم وسمح له بالعودة إلى فلسطين[5].

والواقع أن الهزيمة التي حلَّت ببني الجراح كانت قاسية، وأدَّت إلى إضعاف

---

(١) المقريزي: جـ ٢ ص ٩٠.

(٢) أبو شجاع: جـ ٣ ص ٢٣٧. ابن ظافر: ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٠٣. ابن ظافر: ص ٥٠. عماد الدين، إدريس: ص ٢٤٧ ـ ٢٧٥. عمر بن فهد: جـ ٢ ص ٤٤٠. الجزيري: جـ ١ ص ٥٣٨.

(٤) الأنطاكي: ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٥) أبو شجاع: جـ ٣ ص ٢٣٩.

قوتهم، فامتنع حسان بن الجراح بعد ذلك، عن إثارة الفتن والاضطرابات في فلسطين طيلة عهد الحاكم، بل إنه ساعد الجيش الفاطمي الذي حاصر حلب في عام (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م)، عندما كتب إليه الحاكم يطلب منه ومن عشيرته الاحتياط على حفظ حلب[١].

العلاقة مع الحمدانيين والمرداسيين في شمال بلاد الشام

كان سقوط حلب في يد الفاطميين وزوال الدولة الحمدانية من أبرز الأحداث الخارجية التي حصلت في عهد الحاكم. وكان الحمدانيون قد استعانوا، كما أشرنا، بالبيزنطيين للمحافظة على حكمهم، وأدَّوا لهم الجزية، ولم تنجح الحملات الفاطمية التي أرسلها العزيز في الاستيلاء على حلب، وساعد الصلح الذي جرى بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية على استتباب السلم في شمال بلاد الشام، فأمن سعيد الدولة الحمداني غزو الفاطميين إلى حين. لكن الأمور لم تستتب له في حلب، فقد واجه منافسة شديدة من قِبَل مولاه لؤلؤ الخادم السيفي، الذي طمع بحكم حلب، فتخلَّص منه بواسطة جارية دسَّت له السم في (١٥ صفر ٣٩٢هـ/ ٣ كانون الثاني ١٠٠٢م)، وعُدَّ هذا الحدث النهاية الفعلية لحكم الأسرة الحمدانية بحلب، لأن لؤلؤ الخادم استبد بالشؤون العامة، دون ولدي سعيد الدولة، أبي الحسن علي، وأبي المعالي شريف اللذين خلفا والدهما، ثم انتزع الولاية منهما، وحكم البلد باسميهما، ولم يلبث أن سيَّرهما إلى مصر في عام (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣ـ ١٠٠٤م) كيما ينفرد بالحكم، وأشرك معه ابنه منصور، وتقرَّب من الحاكم الفاطمي ليتقي خصومته، فأمر بحذف اسم الخليفة العباسي القادر من الخطبة، وأقام الدعوة له مدة من الزمن[٢].

على أن حلب تعرَّضت للفتن والقلاقل بعد وفاة لؤلؤ الخادم في (آخر ذي الحجة ٣٩٩هـ/ ٢٧ تموز ١٠٠٩م)[٣]، إذ أن ابنه وخليفته منصور أراد الاحتفاظ باستقلاله، واستعان من أجل ذلك بالقوى المتنازعة من الفاطميين والبيزنطيين وبني كلاب البدو، وضيَّق على أبي الهيجاء بن سعد الدولة المقيم بحلب[٤]، واعترف بسلطان الحاكم الفاطمي، فأقام الدعوة له في حلب في عام (٤٠٢هـ/ ١٠١١م)،

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٧٦.

(٤) كان سعد الدولة قد أوصى، قبل وفاته، لؤلؤاً برعاية ابنه أبي الهيجاء، فلما ملك لؤلؤ خاف منه. المصدر نفسه: ص ١٧٧.

ولقَّبه الحاكم بلقب مرتضى الدولة، في حين التجأ أبو الهيجاء بن سعد الدولة إلى الأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني[1]، وبذلك امتد سلطان الفاطميين إلى حلب وتمهَّد السبيل للقضاء على الحمدانيين فيها. ونظراً لما اشتهر به منصور من الاستبداد والظلم، كرهه سكان حلب، ولم يطمئن إليه بنو كلاب المرداسيون، فجرى الاتفاق على إعادة حلب للحمدانيين ووقع الاختيار على أبي الهيجاء، غير أن منصوراً استمال إليه بني كلاب ووعدهم بالإقطاعات الوافرة، كما استنجد بالفاطميين ووعدهم بأن يسلمهم قلعة حلب، وترتَّب على ذلك، أن كتب الحاكم الفاطمي إليه في عام (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) سجلاً قرىء في القاهرة بتوليته حلب وأعمالها[2].

ويبدو أنه لم يفِ بوعده لبني كلاب، وماطلهم، فانضموا إلى أبي الهيجاء وحاولوا طرده من حلب. وشهدت هذه المدينة في عام (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) صراعاً مريراً بين صالح بن مرداس الكلابي ومنصور بن لؤلؤ، واستعان كل منهما بالأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني ضد الآخر. وتعرَّض منصور بن لؤلؤ للهزيمة ووقع أسيراً في يد خصمه، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد بدفع مبلغ خمسين ألف دينار ومائة وعشرين رطلاً فضة، وخمسمائة قطعة ثياب من أصناف مختلفة، ويطلق سراح الأسرى من بني كلاب، وأن يقاسمه باطن حلب وظاهرها شطرين وأن يزوجه ابنته[3].

استغل غلام لمنصور بن لؤلؤ، ويدعى فتح القلعي، هذه الأوضاع القلقة، واستولى على قلعة حلب في عام (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) وتحصَّن بها وطلب مساعدة علي بن أحمد العجمي المعروف بالضيف، والي أفامية[4]، فاستجاب له، ودخل حلب، ثم لحق به بعض الجند من المغاربة، وهرب منصور بن لؤلؤ إلى أنطاكية الخاضعة للحكم البيزنطي[5].

والواضح أن هذا التغيير وجد تأييداً من الحاكم الفاطمي وصالح بن مرداس بدليل أن الأول، استغل هذه الفرصة، وتقرَّب من فتح والضيف، فمنح الأول لقب مبارك الدولة، والثاني لقب سديد الدولة، كما منح صالح بن مرداس لقب أسد

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ١٧٨ ـ ١٧٩. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٧٦.

(٢) الأنطاكي: ص ٣١٦ ـ ٣١٨. ابن العديم: المصدر نفسه: ص ١٧٨ ـ ١٧٩. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢٥٤.

(٣) الأنطاكي: المصدر نفسه: ص ٣١٩ ـ ٣٢١. ابن العديم: المصدر نفسه: ص ١٨٠ ـ ١٨٥.

(٤) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. الحموي: جـ ١ ص ٢٢٧.

(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

الدولة. وبذل لفتح أن يعطيه مدن صور وصيدا وبيروت إقطاعاً له إذا سلَّمه حلب وقلعتها. كما تقرَّر أن يتسلم صالح بن مرداس جميع الأعمال والضياع التي سبق لمنصور بن لؤلؤ أن أقرَّ بالتنازل عنها[١].

مال فتح إلى قبول عرض الحاكم، وعزم على الخروج من حلب، فأقنعه صالح بن مرداس بعدم الاستجابة، وأن يبقى في القلعة على أن يتسلم هو حلب ويتعاونان في إخراج المغاربة من المدينة. والواضح أنه أراد إبعاد الفاطميين عن حلب تمهيداً للسيطرة عليها والاستقلال بحكمها. وهكذا تفكَّك الحلف الذي ضمَّ كلاً من فتح، قائد قلعة حلب، وعلي بن أحمد الضيف، حاكم أفامية، وصالح بن مرداس الكلابي. ذلك أن فتحاً لم يشأ التخلي عن حكومة حلب إلى صالح بن مرداس وعرب بني كلاب، ولقي التأييد من سكان المدينة الذين تمسكوا بالمغاربة، وكرهوا أن يحكمهم البدو، ووقعت الفتنة[٢].

طلب الضيف من الحاكم أن يمده بالعساكر ليجابه قوة فتح والمرداسيين، فجاءه كل ولاة الشام مع عساكرهم، بالإضافة إلى حسان بن المفرج وعشيرته من العرب الطائيين، وسنان بن عليان أحد الأمراء الكلبيين في عشيرته، وعسكر الجميع بظاهر حلب[٣].

ويبدو أن الحاكم أراد أن يتجنب الدخول في معركة مسلحة، على الرغم من هذه الاستعدادات الضخمة. فأرسل إلى فتح يمنِّيه من جديد ويعده بالإحسان، وزاد في لقبه فصار «مبارك الدولة وسعدها وعزها»[٤]، فنصحه أتباعه بالموافقة وتسليم القلعة، فسلَّمها إلى سديد الدولة ضيف، وخرج منها إلى مدينة صور[٥].

عيَّن الحاكم عزيز الدولة فاتك، حاكماً على حلب، وهو أرمني من مماليك بنجوتكين، ولقَّبه بلقب أمير الأمراء[٦]، وهو أول والٍ فاطمي، فدخل حلب في (أول رمضان ٤٠٧هـ/ أول شباط ١٠١٧م). واشتهر هذا الوالي بقدراته الفائقة، ذلك أنه استطاع، بسرعة، أن يُنهي جميع المشاكل مع صالح بن مرداس، فاستقامت الأوضاع الداخلية في المدينة، كما ساد الهدوء بينه وبين الأمراء المجاورين، وراسل

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٢٥. ابن العديم: جـ ١ ص ١٨٨.

(٢) الأنطاكي: المصدر نفسه: ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦. ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٠.

(٤) الأنطاكي: المصدر نفسه ص ٣٢٦.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

الأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني يبذل له الولاء وطلب منه إعادة العلاقات التجارية بين حلب والقسطنطينية، ثم أخذ يولِّي على أعمال حلب الرجال الموالين له[1].

عدَّ الحاكم هذه التدابير خطوة تمهيدية للاستقلال، لكنه لم يكن قادراً على اتخاذ أية تدابير مباشرة حيث لم تكن هناك قوات فاطمية في حلب. وفعلاً، لم يلبث فاتك أن خرج على طاعة الحاكم في عام (٤٠٩هـ/ ١٠١٨م)، واستقل بحكم حلب. وضرب النقود باسمه، ودعا لنفسه على المنابر[2]. ولعل ما حدث وقتذاك في مصر وبلاد الشام من الفتن التي نجمت عن سياسة الحاكم الداخلية وشدته في معاملة السكان، هيأت لأمير حلب الفرصة للاستقلال.

لم يركن الحاكم إلى الهدوء وهو يرى تراجع نفوذه في شمال بلاد الشام، فأمر بإعداد الجيوش وأرسلها إلى حلب في عام (٤١١هـ/ ١٠٢٠م). ولما تعرض فاتك لضغط الجيوش الفاطمية، استنجد بالأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، وعرض عليه التخلي له عن حلب. استجاب باسيل الثاني لطلب المساعدة، وخرج على رأس جيشه إلى حلب، ولما بلغ مرج الديباج، قرب حلب، كان الحاكم قد توفي، فأرسل إليه فاتك يخطره بأنه انتقض ما بينهما من شروط وأنه لم يعد بحاجة إلى مساعدته، ولما أصرَّ الأمبراطور البيزنطي على المضي إلى حلب، هدَّده فاتك بأنه سوف يقاومه، وعندئذٍ اتخذ طريقه شرقاً إلى ملاذكرد[3].

العلاقة مع الخلافة العباسية

لم يدخِّر الفاطميون جهداً في سبيل نشر الدعوة الفاطمية في العراق، ونجح الحاكم في استمالة قرواش بن المقلد، الملقب بلقب معتمد الدولة، وهو أمير بني عقيل[4]، المسيطر على الموصل، فخرج على طاعة الخليفة العباسي القادر في عام

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٢٧.

(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٣. ملاذكرد أو مانزيكرت: بلد بين خلاط وبلاد الروم (آسيا الصغرى) في شمال بحيرة «وان» يُعدُّ في أرمينية، وأهله أرمن وروم. الحموي: جـ ٥ ص ٢٠٢.

(٤) كان بنو عقيل وغيرهم من القبائل العربية يقيمون بين الجزيرة الفراتية وبلاد الشام. ولما أسس الحمدانيون دولتهم في الموصل في عام (٣١٧ هـ ٩٢٩ م)، صاروا من رعاياهم، ويؤدون إليهم الأتاوة، ويحاربون في صفوفهم. على أن بني عقيل سرعان ما طمعوا في امتلاك البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى الدولة الحمدانية، فاستولى أميرهم أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد على نصيبين في عام (٣٧٩ هـ٩٨٩ م)، ثم ضمَّ الموصل في السنة التالية وأقرَّه بهاء الدولة البويهي =

(٤٠١هـ/ ١٠١٠م)، وقام بنشر الدعوة الفاطمية في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، كما حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة وأقامها للحاكم الفاطمي[١].

استاء الخليفة العباسي من انتشار الدعوة الفاطمية في بعض مدن العراق، وخشي من تفاقمها من خلال التأثير على بعض الشيعة في بغداد، مما يهدِّد دولته، فتصدى لها على محورين:

الأول: أرسل القاضي أبا بكر الباقلاني إلى الأمير البويهي بهاء الدولة، ليشرح له مدى الخطر الذي يهدِّد دولته من جانب الفاطميين، ويطلب منه العمل على مناهضتهم. استجاب الأمير البويهي لطلب الخليفة، وأرسل جيشاً إلى الموصل وأجبر قرواش بن المقلد على وقف الخطبة للحاكم، وأعادها إلى الخليفة العباسي[٢].

الثاني: لجأ إلى أسلوب التشهير بسمعة الفاطميين في العالم الإسلامي. فعقد اجتماعاً في عام (٤٠٢هـ/ ١٠١٢م) دعا إليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة، وأصدر المجتعون محضراً يتضمن الطعن بنسب الفاطميين، وفي شرعية إمامتهم، وأنهم ليسوا من آل البيت، وقُرئت نسخ من هذا المحضر في بغداد[٣].

كان لصدور هذا المحضر وقع سيء في القاهرة، بيد أنه لم يكن له صدىً يذكر، إذ لم يتوقف تيار الدعوة الفاطمية في العراق على الرغم مما بذله الخليفة القادر من جهود للقضاء على النفوذ الفاطمي في بلاد الدولة العباسية. فقد أتيحت الفرصة للدعاة الفاطميين، مواصلة جهودهم في نشر الدعوة الفاطمية، وحققوا نجاحاً في ذلك، مستغلين تنافس أمراء بني بويه على السلطة، حيث قام النزاع بين سلطان الدولة، الذي ولي حكم العراق في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)، وبين ابن أخيه أبي الفوارس، كما نشبت الحرب بين جلال الدولة وبين ابن أخيه أبي كاليجار، الذي استمال بعض أمراء العراق، واستولى على البصرة وواسط.

بالإضافة إلى هذا النزاع الداخلي بين أفراد الأسرة البويهية، شهد العراق تصاعد نفوذ الأتراك الذي أثَّر سلباً على الأوضاع الداخلية، فكانوا يتدخلون في تولية وعزل أمراء بني بويه، ولم يكن الخليفة العباسي في وضع يسمح له برفض إرادتهم،

= عليها، لكنه لم يتمتع بولايتها طويلاً، فقد عزله البويهيون في عام (٣٨٢ هـ/ ٩٩٢ م). ولما توفي أبو الدرداء في عام (٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م) استعاد أخوه المقلد ولاية الموصل، وأسس فيها دولة العقيليين التي ظلت قائمة حتى عام (٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م).

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦.

من ذلك أنهم قاموا بعدة محاولات لخلع جلال الدولة عن السلطة وتولية ابن أخيه أبي كاليجار بدلاً منه، فاستغل الدعاة الفاطميون هذه الأوضاع القلقة ونشطوا في بث الدعوة الفاطمية.

وأرسل الحاكم في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) كتاباً إلى السلطان محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، يدعوه إلى طاعته والإقرار بإمامته، فاستقبل محمود الكتاب بالسخط والسخرية، وأرسله إلى الخليفة العباسي ليطَّلع عليه، ولعل الحاكم كان يرى في ذلك وسيلة للتصدِّي لدعوة التشهير العباسية وتحدِّيها، والمعروف أن الغزنونيين كانوا على المذهب السنِّي، وغزوا الدويلات الشيعية في المشرق الإسلامي وبخاصة الملتان[١].

العلاقة مع الحجازيين

جدَّد الخليفة العباسي القادر محاولته لاستمالة أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني، أمير مكة، مستغلاً تبدل الأوضاع السياسية في مصر في عام (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، لكن هذا الأخير رفض مجدَّداً عرض الخليفة واستمر على ولائه للحاكم، وخطب له على منابر مكة، إلا أنه وافق على السماح للحاج العراقي بتأدية الفريضة.

سُرَّ الحاكم من موقف أبي الفتوح الموالي له، إلا أنه قرَّر اعتراض قافلة الحاج العراقي حتى يُثبت ضعف العباسيين عن حماية الحاج، والسيطرة على الحرمين، فأمر مفرج بن دغفل بن الجراح أمير بني طيء بالرملة، باعتراض القافلة. وفعلاً نفَّذ ابن الجراح الأمر، لكن وجود الشريف الرضي وأخيه المرتضى ضمن الركب، أتاح للقافلة أن تتابع طريقها، إذ استطاعا إقناع ابن الجراح بالسماح للركب بتأدية الفريضة هذا العام على ألا يعود الركب العراقي بعد ذلك. وظلَّ أبو الفتوح موالياً للحاكم في أوائل عهده، فحين أمره أن يستولي على المدينة ويطرد صاحبها الحسن بن طاهر الحسيني وأسرته لما بلغه عنهم من الطعن في نسب الفاطميين، بادر أبو الفتوح بالزحف إلى المدينة في عام (٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) واستولى عليها وجمع حكم الحرمين الشريفين[٢].

تعرَّضت العلاقة بين الحاكم وأبي الفتوح للتصدع في مطلع القرن الخامس الهجري بفعل الاتجاه الاستقلالي الذي نحاه الثاني والخروج على طاعة الحاكم.

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢٢٢. ماجد: ص ٤٨١. عنان ص ١٨٣.

(٢) الجزيري: جـ ١ ص ٥٣٢. محمد: ص ٩٣.

ويبدو أن السجل الذي سطَّره الحاكم في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) وأرسله إلى الولايات التابعة له لقراءته أمام عامة الناس، والذي يتضمَّن انتقاصاً لبعض الصحابة، هو الذي دفع أبا الفتوح إلى الغضب[١]. إلا أن الخلاف لم يؤدِّ إلى القطيعة والخروج على الحاكم بدليل أن أبا الفتوح زار القاهرة في عام (٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م) لتهنئة الحاكم بانتصاره على أبي ركوة، فخلع عليه الحاكم وأكرمه وأنزله بدار برجوان[٢]، لكن بدا الفتور واضحاً على العلاقات بين الرجلين الذي ازداد في عام (٤٠٠هـ/ ١٠١٠م) حين أرسل الحاكم أفتكين العضدي الداعي، إلى المدينة ومعه أوامر بفتح دار جعفر بن محمد الصادق، والاستيلاء على ما تحتويه من مصحف وسيف وكساء وسرير وحربة، ثم عاد إلى مصر واصطحب معه جماعة من شيوخ العلويين، فلما وصلوا إلى القاهرة منحهم الحاكم نفقات قليلة وردَّ عليهم السرير وأخذ الباقي وقال «أنا أحق به، فانصرفوا غاضبين، وداعين عليه»[٣].

أثار هذا التصرف أشراف الحجاز، لكن ثورتهم لم تصل إلى حد الخروج على الحاكم، واكتفوا بكظم غيظهم حتى حرَّضهم بنو الجراح والوزير أبو القاسم الحسين بن علي المغربي الذي فرَّ إلى الرملة واستجار بآل الجراح بعد أن قتل الحاكم أسرته.

سافر أبو القاسم المغربي إلى مكة واجتمع بأبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني وأقنعه بالتحالف معه ومع بني الجراح، والخروج على الحاكم، وحرَّضه على طلب الخلافة، وهوَّن الأمر عليه، وقد أشرنا إلى نتائج هذا التحالف، وعودة أبي الفتوح إلى طاعة الحاكم.

لم يحاول أبو الفتوح بعد عودته إلى مكة الخروج على الحاكم، واستمر يخطب له، وضرب السكة باسمه، وزار القاهرة ليؤكد تبعيته وإخلاصه الكامل له[٤].

العلاقة مع البيزنطيين

معركة أفامية

استمر الصراع على شمال بلاد الشام بين الفاطميين والبيزنطيين. ففي عام

---

(١) عمر بن فهد: جـ ٢ ص ٤٣١. (٢) المقريزي: جـ ٢ ص ٦٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٦٨. ابن كثير، أبو الفدا الحافظ: البداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٤٢.

(٤) ابن القلانسي: ص ١٠٣. ابن ظافر: ص ٥٠. عماد الدين، إدريس: ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥. عمر بن فهد: جـ ٢ ص ٤٤٠. الجزيري: جـ ١ ص ٥٣٨. ماجد: ص ١٥٣.

(٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) هاجم داميانوس دلاسينوس، حاكم أنطاكية البيزنطي، حصن أفامية، مستغلاً تضعضع الأوضاع في بلاد الشام الناجمة عن ثورة العلّاقة في صور، وخروج بني الجراح على الحكم الفاطمي. وبعد أن أخضع جيش بن الصمصامة بني الجراح توجه إلى أفامية حيث كان السكان يعانون من وطأة الحصار الشديد حتى أكلوا الجيف والكلاب[١]، وعسكر في مواجهة البيزنطيين، يفصل بينهما نهر العاصي. وحين نشب القتال، استطاع البيزنطيون أن يحقِّقوا نصراً على المسلمين بحيث هزموا قلب الجيش وفيه بدر العطار والديلم والسودان، والميسرة بقيادة ميسور الصقلبي والي طرابلس، والميمنة بقيادة جيش بن الصمصامة، فتفرقوا على طريق جوسية إلى بعلبك، وعلى طريق الجاوة إلى دمشق، وثبت بشارة الأخشيدي والي طبرية[٢].

وفي غمرة هذا الانتصار، حدث ما غيَّر نتيجة المعركة. فبينما كان داميانوس دلاسينوس واقفاً تحت رايته يراقب المعركة، إذ برجل كردي من أصحاب بشارة الأخشيدي يُعرف بأبي الحجر أحمد بن الضحاك السليل، يقصده، فظنَّه داميانوس دلاسينوس مستأمناً، فلم يحتط منه، وعاجله الكردي بضربة أودت بحياته، فصاح المسلمون «قُتل عدو الله». وكرَّ المنهزمون وأطبقوا على البيزنطيين الذين ذُهلوا لمصرع قائدهم، كما خرج أهل حصن أفامية وأحاطوا بالبيزنطيين من خلفهم، فوقع هؤلاء بين فكي الكماشة، وقُتل منهم عدة آلاف، وأُسر ألفان، وتفرَّق من نجا من المعركة في الجبال إلى أنطاكية[٣].

استغل جيش بن الصمصامة هذا الانتصار، فنشر قواته في المنطقة، وسار إلى مرعش[٤] يحرق ويهدم، ثم نزل على باب أنطاكية، وقاتل البيزنطيين أياماً، ونهب رساتيق شيزر، ثم عاد إلى دمشق[٥].

حملة باسيل الثاني على بلاد الشام

حزن باسيل الثاني لما حلَّ بالبيزنطيين من كارثة شديدة في أفامية، وكان آنذاك

---

(١) ابن القلانسي: ص ٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٥. الأنطاكي: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣) المصدران نفساهما: ص ٨٥ ـ ٨٦. ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٤) مَرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. الحموي جـ ٥ ص ١٠٧.

(٥) الأنطاكي: ص ٢٤٣. ابن القلانسي: ص ٨٦.

يقاتل البلغار، فحرص على تبريد جبهة شمال بلاد الشام كيما يتفرغ للجبهة البلغارية، إذ كان يخشى أن تغير القوات الفاطمية في الشام على الأراضي البيزنطية، فأرسل في أواسط عام (٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) سفارة إلى القاهرة تعرض على الحاكم عقد الهدنة وإجراء الصلح، لكن الحاكم رفض أن يبعث إليه بإجابة مُرضية، مما دفعه إلى التوجه إلى بلاد الشام مرة أخرى، بعد أن عهد إلى نقفور أورانوس بقيادة الحرب على الجبهة البلغارية، والواقع أنه لم يقصد من حملته الثانية هذه في عام (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م) إلا أن يرد الهيبة التي فقدتها الأمبراطورية بعد هزيمة أفامية[١].

وصل باسيل الثاني في (شوال ٣٨٩هـ/ أيلول ٩٩٩م) بقواته إلى الجسر الحديد الذي يقع على نهر العاصي والذي لا يبعد كثيراً عن أنطاكية، ثم اجتاز سهل أفامية حيث قُتل داميانوس دلاسينوس، فأمر بتشييد كنيسة بهذا المكان تخليداً لذكراه، ثم توجه إلى شيزر وحاصرها، والمعروف أن القوات الفاطمية استردتها بعد مغادرة باسيل الثاني بلاد الشام بعد حملته الأولى في عهد العزيز الفاطمي، وضيَّق الخناق على أميرها حملان، ويُعرف بابن كراديس، فاضطر إلى التسليم بعد أن فَقَدَ الأمل في قدوم إمدادات لرد البيزنطيين على أنه اشترط:

- عدم اعتراض العساكر البيزنطية لرجاله الذين يرغبون في الخروج معه.
- ألا يتعرض أهل المدينة وأملاكهم للضرر والأذى.
- ألا يركع أمامه لإظهار الولاء والخضوع له.

فأجابه باسيل الثاني إلى ذلك[٢].

وخرج ابن كراديس ورجاله وجماعة من أهل المدينة، إلى حماة وحلب وبعلبك. وعمد باسيل الثاني إلى شحن شيزر بالأرمن، ولجأ إلى استعمال الشدة والقسوة والتدمير عند استيلائه على الحصون الواقعة في شمال الشام، مثل أبي قبيس ومصياف ورفنية، ثم بلغ حمص، ونكَّل بأهلها الذين التجأوا إلى كنيسة مار قسطنطين، وأحرق الجنود البيزنطيون الكنيسة وجرَّدوا مبانيها من النحاس والرصاص[٣].

والواضح أن الهدف من هذه السياسة التدميرية، وبخاصة التخلص من الأسرى؛ حتى لا يتوافر للأراضي من الرجال من يزرعها، وكيما يتناقص عدد من

---

(١) العريني: ص ٦٧٤.
(٢) الأنطاكي: ص ٢٤٤.
(٣) المصدر نفسه.

يؤدون الخدمة العسكرية، فضلاً عن تدمير المحاصيل الزراعية، فخلت البلاد فعلاً ممن يحميها من الرجال وانتشرت المجاعات، وهلك كثير من السكان[1].

كان جيش بن الصمصامة، في هذه الأثناء، قد تجهَّز للرد على الغارات البيزنطية، وملاقاة باسيل الثاني. واحتشد في دمشق جيش ضخم ضمَّ معظم ولاة بلاد الشام. ويبدو أن باسيل الثاني علم بهذه الحشود الضخمة، فتهيَّب لقاءها، لذلك انحرف إلى الساحل بعد أن كان قد اقترب من بعلبك، وهاجم عِرقة وأحرقها وهدم حصنها، ثم نزل على طرابلس في (شهر ذي الحجة ٣٨٩هـ/ شهر كانون الأول ٩٩٩م)، وحاصر حصنها، وحفر خندقاً حول معسكره ليأمن هجمات القوات الفاطمية المرابطة في الحصن، ثم قطع قناة الماء عن الحصن، واستعان بأسطوله البحري لتأمين الإمدادات الضرورية لمواصلة الحصار، وشنَّ هجوماً عنيفاً على الحصن، فلم يحرز نجاحاً يُذكر، وأرسل في تلك الأثناء بعض السرايا لمهاجمة الحاميات الفاطمية المرابطة على طول الساحل بين جبلة في الشمال وبيروت في الجنوب، فوقع في أيدي البيزنطيين كثير من الأسرى، فتقرر حملهم في السفن إلى بلاده لبيعهم رقيقاً في أسواق إزمير وسالونيك والقسطنطينية[2].

لبث باسيل الثاني محاصراً لحصن طرابلس أحد عشر يوماً، صمد سكانه خلالها، بقيادة ميسور الصقلبي والقاضي ابن حيدرة. ووصلت في هذه الأثناء السفن الحربية البيزنطية محملة بالإمدادات، فشنَّ البيزنطيون في اليوم الثاني عشر هجوماً برياً وبحرياً على المدينة. ونشبت بين الطرفين الإسلامي والبيزنطي معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين. وتعرَّض باسيل الثاني لهزيمة ساحقة، وقُتل وجُرح عدد كبير من جنوده، فاضطر أن يرفع الحصار عن طرابلس، ورحل يوم السبت (٥ محرم ٣٩٠هـ/ ١٧ كانون الأول ٩٩٩م)، عائداً إلى أنطاكية عن طريق اللاذقية[3].

وعلى الرغم من الانتصارات الفاطمية، فإن برجوان الخادم، المتحكم في الشؤون العامة في مصر، قرَّر مهادنة البيزنطيين كيما يتفرغ للقضاء على الفتن الداخلية في مصر، التي نشأت عن الصراع بين المشارقة والمغاربة، فأرسل سفارة إلى باسيل الثاني لعقد الصلح. رحَّب الأمبراطور البيزنطي بهذه الدعوة، وأرسل سفيراً إلى القاهرة للاتفاق على شروطه.

---

(١) العريني: ص ٦٧٥.

(٢) الأنطاكي: ص ٢٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

وفي الوقت الذي كانت فيه المفاوضات دائرة، غزا باسيل الثاني بلاد الشام لوقف الزحف الفاطمي الذي كان لا يزال مستمراً باتجاه أنطاكية، فتعثرت المفاوضات، وكاد مشروع الصلح ينهار لولا الفشل الذي أصاب الأمبراطور البيزنطي في هجومه الجديد، فارتد مسرعاً نحو أرمينية، وآثر تحقيق السلم على حدود بلاده الجنوبية حتى يتفرغ للقضية البلغارية.

استؤنفت المفاوضات في القاهرة على إثر ذلك. ولما تمَّ الاتفاق على شروط الصلح أرسل برجوان الخادم سفارة إلى القسطنطينية برئاسة أريسطس بطريرك بيت القدس، لعرض مشروع الصلح على الأمبراطور، وإقرارها منه، غير أن الهدنة لم يتم إقرارها إلا في (أواسط عام ٣٩١هـ/ أوائل صيف عام ١٠٠١م). ولعل حملة الأمبراطور الأخيرة على بلاد الشام، وسخط الحاكم على برجوان الخادم، كان له أثر في إجراء الصلح الذي تضمَّن البنود التالية:

- يتمتَّع النصارى، الذين يقيمون في أراضي الدولة الفاطمية، بالحرية الدينية، ويُسمح لهم بتجديد كنائسهم وبنائها.
- يتعهد الأمبراطور باسيل الثاني بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.
- تستمر الهدنة مدة عشرة أعوام[١].

يُعد هذا الصلح بداية عصر جديد للسلام بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية في بلاد الشام وآسيا الصغرى، بعد أن عانت من البؤس الشديد والاضطرابات والمعارك الدامية أعواماً عديدة، على الرغم من أن الأمبراطور البيزنطي قطع علاقته بالدولة الفاطمية حين وصلت إليه أنباء سياسة الحاكم العدائية تجاه النصارى، وظل الوضع على ذلك إلى أن توفي الحاكم[٢].

العلاقات مع الشمال الإفريقي

ثورة أبي ركوة

لعل أخطر الثورات التي واجهت الحاكم، تلك الثورة السنِّية التي شبت في برقة بزعامة أبي ركوة، واسمه الوليد بن هشام. انتسب إلى بني أمية خلفاء الأندلس، وإنما لُقِّب بأبي ركوة لأنه كان يحمل ركوة ماء لوضوئه على طريقة الصوفية[٣].

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨. ابن القلانسي: ص ٩٠.
(٢) سرور: ص ٢٤٣.
(٣) الأنطاكي: ص ٢٥٩. ابن القلانسي: ص ١٠٤. ابن ظافر: ص ٤٤.

فرَّ أبو ركوة من الأندلس إلى شمال إفريقية هرباً من وجه المنصور بن أبي عامر الذي استبد بالسلطة دون الخليفة هشام بن المؤيد الأموي، وراح يتتبَّع زعماء بني أمية وفروعهم للتخلص منهم، ونزل أولاً في القيروان حيث اشتغل بتعليم الصبيان، ثم ذهب إلى مصر ودرَّس بها الحديث. وبعد أن تجوَّل في الحجاز واليمن والشام، عاد إليها، ثم نزح إلى برقة في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) واستقرَّ بين قبيلة بني قرَّة العربية، وهناك فتح كتّاباً يعلم فيه الصبيان. وكان يتَّشح بثوب من الورع، ويجتذب إليه الناس بنسكه، وورعه، وحلاوة لسانه، ونبل أخلاقه[١].

كانت برقة وطرابلس تمران آنذاك في مرحلة اضطراب داخلي نتيجة السياسة التي اتبعها الحاكم بضرب القبائل بعضها ببعض لإضعافها، بالإضافة إلى إسرافه في التخلص من الزعماء وتمزيق الأسر والعصبيات القوية. وكان قد غدر ببني قرَّة، وقتل زعماءهم، فسخطوا عليه، وراحوا يلتمسون الفرص للخروج والانتقام، فلما دعاهم أبو ركوة، استجابوا له، والتفوا من حوله.

ولعل أبا ركوة يُعد نموذجاً للدعاة الطامحين إلى السلطة، فانتسب إلى بني أمية ليستقطب خصوم الفاطميين في شمال إفريقية، وبخاصة أهل السنَّة. وكان بنو قرَّة قد صالحوا الزناتيين الضاربين في برقة، واتفقوا معهم على حرب الفاطميين وأنصارهم الصنهاجيين، فهرعت إليه بطون برقة من سائر النواحي، لا سيما لواتة ومزاتة وزناتة. ووقف أمراء بنو زيري على الحياد، فلم يساعدوا الفاطميين في حربه، ربما لأنهم كانوا يتطلعون إلى الانعتاق من الحكم الفاطمي، ووجدوا في حركة أبي ركوة الفرصة المناسبة للاستقلال بإمارتهم في إفريقية والسيطرة على مقدرات بلادهم.

ادعى أبو ركوة الخلافة، واتخذ لنفسه لقب الناصر لدين الله، والثائر بأمر الله، والمنتصر من أعداء الله[٢]، وأوهم أتباعه أن عنده علم، وأنه هو الذي يمتلك مصر ويقتل الجبابرة. واتفق معهم على توزيع الغنائم أثلاثاً، ثلث له، وثلث لبني قرَّة، وثلث لزناتة، وهذا يدل على أن الدافع الاقتصادي كان أحد عوامل الثورة. والمعروف أن منطقة شمال إفريقية كانت تمر آنذاك بحالة اقتصادية متدهورة نتيجة

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٥٩. ابن القلانسي: ص ١٠٤. ابن ظافر: ص ٤٤. عماد الدين، إدريس: ص ٢٥٩.

(٢) الأنطاكي: المصدر نفسه. ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٥٧. ابن ظافر: المصدر نفسه. المقريزي: جـ ٢ ص ٦٠ ـ ٦٢. عماد الدين، إدريس: المصدر نفسه. النويري: جـ ٢٨ ص ١٨٠ ـ ١٨١.

الجفاف، فندرت الأقوات، وارتفعت الأسعار، وتعطلت المخابز، وهلك الناس، وذهبت الأموال من الأغنياء، وكثر الوباء، فكان يموت كل يوم ما بين خمسمائة إلى سبعمائة[1].

ولما نضجت ظروف الانتفاضة على الحكم الفاطمي، هاجم برقة وتغلَّب على حاميتها بقيادة إينال الطويل التركي، وذلك في شهر (شعبان ٣٩٥هـ/ أيار ١٠٠٥م)، واستولى عليها، وفرَّ حاكمها صندل الأسود مع إينال الطويل إلى القاهرة، حيث أخبرا الحاكم بحقيقة الوضع المتردي ووجوب المبادرة فوراً للقضاء على حركة أبي ركوة[2].

وأمر أبو ركوة بحذف اسم الحاكم من الخطبة، ولعنه وآباءه، وشهَّر بنسبهم الزائف، وضرب النقود باسمه، وأظهر الرفق والعدل في معاملة الناس، فهرعت إليه الوفود لتأييده[3].

ذُعر الحاكم لتطور الأحداث في برقة على هذا الشكل السلبي، فحاول استمالته بحسن السياسة، وكتب إليه، لكن دون جدوى. عندئذٍ بادر بتجهيز جيش كبير تعداده خمسة آلاف مقاتل بقيادة إينال الطويل التركي، وأمره باسترداد برقة، وجرى اللقاء في وادٍ مقفر على مقربة من برقة، يعرف بعيون النظر في شهر (ذي القعدة/ آب)، حيث تعرَّض الجيش الفاطمي للدمار[4].

ونفَّذ أبو ركوة أساليب البدو العسكرية، فطمر الآبار الموجودة في المنطقة، مما عرَّض أفراد الجيش للعطش، وأثناء احتدام القتال انسحب عدد من الجنود المغاربة الناقمين على الحاكم، من الجيش الفاطمي، كما استاء هؤلاء من تقديم قائد مشرقي عليهم، وانضموا إلى جيش أبي ركوة، مما زاد في قوته القتالية. ووقع إينال الطويل نفسه في الأسر وقُتل مما فتَّ في عضد مَنْ تبقَّى معه من الجند، فهُزموا، وقُتل كثير منهم، واستولى المنتصرون على مائة ألف دينار كانت بحوزة الجيش الفاطمي[5].

وعاد أبو ركوة إلى برقة منتصراً ومعه الغنائم. واستفحل أمره بعد ذلك،

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٤٠.

(٢) الأنطاكي: ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢. ابن ظافر: ص ٤٥. عماد الدين، إدريس: ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

(٣) ابن ظافر: المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. الأنطاكي: ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢، عماد الدين إدريس: ص ٢٦١ ـ ٢٦٤.

(٥) المصادر نفسها: ص ٤٥. ص ٢٦١ ـ ٢٦٢. ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

وازدادت هيبته، وقوته، كما ازداد تعلُّق الناس به، مما دفعه إلى التطلع نحو مصر للقضاء على الدولة الفاطمية، وبخاصة أنه لقي تشجيعاً من بعض الزعماء الناقمين مثل الحسين بن جوهر، قائد القواد وزعيم المغاربة، وكان يخشى غدر الحاكم ونقمته[1]. فأرسل سراياه إلى الصعيد، فجاثت خلاله دون أن تلقى مقاومة مما شجعه على السير بجموعه الجرارة إلى مصر[2].

والواقع أن جموعه التي التفت حوله تألفت من خليط من الأنصار المتعصبين، والبدو المغامرين، والمرتزقة، وكلٌّ يسعى إلى تحقيق غاياته، لذا لم تجمعهم سوى رابطة المصلحة المؤقتة، مما أفقدهم عناصر النظام والوحدة والتناسق في الرأي والعمل، الضرورية لخوض معركة ناجحة.

توجه أبو ركوة بجموعه لحصار الإسكندرية، واصطدم بالقوات الفاطمية فيها وهزمها، وانتشرت قواته في قرى مصر، وانضمت إليه قبائل عربية في ريف مصر، منها بني هلال وبني سُلَيْم، وكان العزيز قد نقلهم إلى الصعيد[3].

شعر الحاكم بفداحة الخطر الذي يهدِّد دولته، فضاعف جهوده في تجهيز جيش آخر، واستقدم قوات من بلاد الشام، وحشد قوات إضافية من مصر، وسانده أهل الفسطاط، وعيَّن على الجميع الفضل بن الحسين بن صالح. والتقى الجيشان في (ذي القعدة ٣٩٦هـ/ آب ١٠٠٦م) في مكان يعرف بتروجة من أعمال الإسكندرية، ونفذت طلائع الثائرين إلى الفيوم وملكوه، وانتشروا في القرى المجاورة. واضطرب أهل مصر، وخافوا خوفاً شديداً. وجرَّد الحاكم قوة عسكرية إلى الجيزة بقيادة علي بن فلاح لحفظها، فبلغ ذلك أبا ركوة، فأرسل قوة عسكرية من العرب اصطدمت بالقوة الفاطمية في المكان المعروف بأرض الخمسين، وانتصرت عليها[4].

وحتى يضعف من قوة خصمه لجأ أبو ركوة إلى استمالة العرب في الجيش الفاطمي، فراسلهم بنو قرَّة، يستدعونهم إليهم، ويذكِّرونهم بأعمال الحاكم التعسفية بهم، فأجابوهم. واتفق الجانبان على أن يأخذ العرب بلاد الشام، وتكون مصر من نصيب أبي ركوة وأتباعه، غير أن الفضل بن الحسين بن صالح أحبط هذه المؤامرة[5].

واستؤنف القتال بين الطرفين الذي اتسم بالشدَّة، وجرت المعركة الفاصلة في

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٦٢. ابن ظافر: ص ٤٥. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٥١.

(٢) عنان: ص ١٨٩.

(٣) الأنطاكي: ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٥٢.

اليوم (الثالث من شهر ذي الحجة/ الثاني من أيلول) في مكان يُعرف برأس البركة من أرض الفيوم، فانهزم أبو ركوة ومن معه، وقُتل الكثير من أنصاره، وتفرقت الطوائف التي التفت حوله، وفرَّ هو باتجاه الجنوب، فطارده القائد الفاطمي الفضل بن الحسين بن صالح حتى حدود النوبة، وهناك قبض عليه، وحمله إلى القاهرة، فاحتفل الحاكم بهذا النصر، ثم شهَّر بأبي ركوة وقتله[1]، وبذلك تخلَّص الحاكم من خطر أبي ركوة الذي هزَّ أسس الدولة وأشاعت حركته الرعب، وأدَّت إلى ارتفاع الأسعار وندرة الأقوات، هذا فضلاً عن آثارها النفسية السيئة على الشعب في مصر، وتجلَّى ذلك من قول المقريزي: «... والناس جلوس في الشوارع، وعلى أبواب الدور ليلهم كله... وعظم البكاء والضجيج على شاطىء النيل لكثرة القتلى في العسكر»، «وتزايد أسعار الدقيق والخبز وروايا الماء، وازدحم الناس عليها...»[2]. أما في الناحية الخارجية، فإن هذه الثورة تركت آثاراً سلبية معادية للفاطميين في مناطق نفوذهم بالمغرب الأدنى، مما سيترتب عليها نتائج سيئة في العلاقات الفاطمية الزيرية في المستقبل. ولا شك بأن مساعدة المصريين له كانت من العوامل الرئيسية لانتصاره. ويوجد في متحف الفن الإسلامي في القاهرة قطعة من نسيج الكتان باسم الحاكم، مؤرخة بسنة ٣٩٧هـ، وتحمل هذه القطعة سطراً من الكتابة الكوفية بالحرير الأحمر نصه «نصر من الله وفتح مبين لعبد الله ووليه أبي علي المنصور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين». وترجع أهمية هذه القطعة إلى أنها تعكس مظاهر ابتهاج الحاكم في هذه السنة التي تمَّ فيها النصر على أبي ركوة[3].

العلاقة مع بني زيري

كانت العلاقات طيبة بين الفاطميين والزيريين في إفريقية في بداية عهد الحاكم الذي أرسل في عام(٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) الشريف الداعي علي بن عبد الله العلوي المعروف بالقاضي الباهري إلى المنصورية ومعه ثلاثة كتب.

الأول: بولاية باديس بن مناد، وتلقيبه بـ «نصير الدولة».

الثاني: بوفاة العزيز وتولي الحاكم السلطة، والجواب عن وفاة المنصور الزيري والعزاء عن نزار وعن المنصور.

(١) الأنطاكي: ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧. ابن ظافر: ص ٤٦. عماد الدين، إدريس: ص ٢٦٨ ـ ٢٧١.
(٢) اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ٦٢ ـ ٦٣.
(٣) أحمد، حسن خضيري: علاقات الفاطميين في مصر بدول الغرب ص ٥١.

الثالث: بأخذ البيعة على باديس وأهله من بني مناد للحاكم[1].

أحسن باديس استقبال مبعوث الحاكم، وعندما عاد إلى مصر حمَّله هدايا قيِّمة، وتبادل الطرفان الهدايا في العام التالي، لكن هذه العلاقات الطيبة لم تستمر طويلاً، لأن الزيريين استطاعوا، خلال حكمهم لإفريقية والمغرب الأوسط، توطيد نفوذهم فيهما، واستأثروا بالسلطة وجعلوا سيادة الدولة الفاطمية اسمية فقط. ولما كانت طرابلس التي تُعدُّ جزءاً من ولاية إفريقية تجاور مصر من الغرب، وكان الحاكم يخشى أن يستولي عليها البربر، فقد أقنعه برجوان الخادم بوجوب استردادها وتحصينها لتكون سداً يقي مصر العدوان والغزو من جهة الغرب.

والواقع أن الحاكم نفَّذ في شمال إفريقية سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض لإضعافها وسيادة النفوذ الفاطمي. إنه أراد إزالة سلطان بني زيري من إقليم طرابلس، فانتهز تحرك زناتة هناك بقيادة فلفول بن سعيد، المعادي للزيريين الصنهاجيين، واستقطب تموصلت بن بكار والي طرابلس من قِبل نصير الدولة باديس، الذي وعده بتسليمه المدينة. فأرسل الحاكم على الفور إلى واليه على برقة، يانس الصقلبي، يأمره بالاستيلاء على طرابلس. وفعلاً دخل يانس الصقلبي المدينة في عام (٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م)، إلا أنه لم يمكث فيها طويلاً، إذ اصطدم به نصير الدولة باديس وقتله، وتحصَّن من بقي من أفراد الجيش الفاطمي وراء أسوار المدينة، فحاصرهم القائد الزيري جعفر بن حبيب، وطلب هؤلاء النجدة من الحاكم الذي استجاب لنداء الاستغاثة، وأرسل يحيى بن علي بن حمدون الأندلسي، وهو أحد أعداء الزيريين، على رأس جيش، ومنحه مال برقة ليستعين به على نفقات الحرب. بيد أن يحيى وجد الخزانة فارغة، ولم يتمكَّن من منح جنوده رواتبهم، مما أدَّى إلى حالة من السخط والاستياء، واضطر إلى الاعتصام وراء أسوار طرابلس، وما لبث أن انضم إلى جيش فلفول، واتفقا على القيام بعمل مشترك ضد الزيريين، لكن هذا التحالف كان مرحلياً ومصطنعاً، فلم يُقدَّر له أن يستمر، وذلك بفعل تنازع القيادتين، واعتداء جنود فلفول على معسكر يحيى، بالإضافة إلى قلَّة المال، فاضطر يحيى للعودة إلى مصر، واستولى فلفول على المدينة واستوطنها هو وقبيلته زناتة[2].

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٥١ ـ ٢٥٢. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٣١ ـ ٥٣٢.

والراجح أن الحاكم هو الذي أغرى زناتة بالاستقرار في طرابلس، بهدف استغلالها في ميدان المنافسة، ضد بني زيري. وقد نتج عن هذا التطور أن سادت ولايتي برقة وطرابلس حروب واضطرابات شديدة هلك فيها خلق كثير من الزناتيين.

لم يركن نصير الدولة باديس إلى الهدوء وهو يرى خروج طرابلس من قبضته، فجهز جيشاً لمحاربة زناتة وذلك في عام (٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م) فخشي هؤلاء سوء العاقبة، وآثروا الدخول في طاعته. وهكذا نجح الزعيم الزيري في استعادة طرابلس[١].

نتج عن سياسة التصادم بين الفاطميين والزيريين، أن وقف هؤلاء موقف الحياد من ثورة أبي ركوة، فلم يهبوا لنصرة الجيوش الفاطمية، والراجح أنهم وجدوا في هذه الثورة السنِّية الفرصة للانعتاق نهائياً من الطوق الفاطمي والاستقلال بإفريقية كما أشرنا.

وعلى الرغم من محاولات الفاطميين الحدَّ من قوة الزيريين إلا أننا نجد الحاكم يرسل في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) سفارة تحمل الهدايا إلى نصير الدولة باديس، وإلى ولي عهده عزيز الدولة منصور، وسجلاً بإضافة ولاية برقة وأعمالها إلى ولاية باديس[٢]. ولعل الحاكم أراد أن يتودَّد إلى الزيريين بعد أن فشل في الاستيلاء على طرابلس ويحمِّلهم عبء الدفاع عنها. وفي عام (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) وصل سجل من الحاكم إلى نصير الدولة باديس يخبره بتعيين ابن عمه أبي القاسم عبد الرحيم بن إلياس ولياً للعهد، فقُرىء في جامع القيروان، ويبدو أنه اعترض على هذه الخطوة وقال «لولا أن الإمام لا يُعترض عليه في تدبير، لكاتبته، ألا يصرف هذا الأمر عن ولده إلى بني عمه»[٣].

وازدادت الصلات الودية بعد ذلك، بين الزيريين والدولة الفاطمية، وتبادل الطرفان الهدايا. وتدليلاً على هذه العلاقات الودية، حارب نصير الدولة باديس بني عمه الحماديين بسبب استقلالهم ودعوتهم للعباسيين[٤].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٥٩. النويري: جـ ٢٤ ص ١٩١ ـ ١٩٢، حيث يذكرها في حوادث عام ٤٠٥ هـ. وقارن بابن أبي دينار: المؤنس ص ١٧٨، حيث يذكر أن سجل ولاية العهد كان للمعز وليس لابنه الأكبر عزيز الدولة، وهذا لا يتفق مع ما أجمعت عليه المصادر.

(٣) ابن عذارى: المصدر نفسه ص ٢٦٠. (٤) المصدر نفسه: ص ٢٦٠ ـ ٢٦٥.

وهكذا تأرجحت العلاقات بين الطرفين تبعاً للظروف وسير الأحداث، كذلك كان ولاء الزيريين للمذهب الإسماعيلي يتوقف على علاقتهم بالدولة الفاطمية. فكلما سادت علاقة المودة، أمعن الزيريون في إخلاصهم وولائهم، وإذا ساءت العلاقة، تراجع ذلك الولاء، وتراخى هؤلاء في التشدد على أهل السنَّة، أو الاهتمام بنشر المذهب الإسماعيلي[١].

توفي نصير الدولة باديس في (ذي القعدة ٤٠٦هـ/ أيار ١٠١٦م)، وخلفه ابنه المعز، وكان عمره ثمانية أعوام، فتولت عمته السيدة أم ملَّال الوصاية عليه، كما سيطر عليه معلمه ومربيه الحسن بن علي بن أبي الرجَّال، وهو فقيه سني، فتأثر به، وانحرف عن المذهب الإسماعيلي، واعتنق مذهب أهل السنَّة، وأجبر الزيريين على الاقتداء به، وراسل الخليفة العباسي القادر في بغداد، فبعث إليه بعهده، وتراجع في أيام حكمه نفوذ الفاطميين، وبدا الفتور واضحاً في العلاقات بين الطرفين حيث حصلت صدامات دامية بين السنَّة والشيعة في عام (٤٠٧هـ/ ١٠١٦ـ ١٠١٧م). فقد خرج المعز بن باديس في بعض الأعياد إلى المصلَّى في زينته وحشوده، فكبا به فرسه، فقال عند ذلك: «أبو بكر وعمر»، فسمعه الشيعة الذين كانوا في عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه، فجاء عبيده ورجاله، ومن كان يكتم السنَّة من أهل القيروان، ووُضِع السيف في الشيعة فقُتل منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف، وجرى الدم غزيراً حتى تخطَّى بقعة كبيرة من الأرض أُطلق عليها فيما بعد اسم بركة الدم؛ ونكَّل السنَّة بالشيعة في مختلف مدن إفريقية[٢]. والراجح أن المعز بن باديس كان وراء هذه المأساة، كما ظهرت عملة في المهدية خالية من الشعارات الشيعية مكتوب عليها «محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق»[٣].

ومع ذلك، لم يصل الفتور إلى حد القطيعة، فقد استمر الحاكم في انتهاج سياسة التودُّد، وأرسل في (شهر ذي الحجة ٤٠٧هـ/ أيار ١٠١٧م)، الهدايا إلى المعز بن باديس، ولقَّبه بشرف الدولة[٤]، ولم يذكر شيئاً عن الاضطهاد الدامي الذي ذهب ضحيته الكثير من الشيعة، كما أرسل له هدية أخرى في عام (٤١١هـ/ ١٠٢٠م)[٥].

---

(١) أحمد: ص ٥٥.
(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨، ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٣) ماجد: ص ١٦٥.
(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٦٩.
(٥) المصدر نفسه.

وهكذا، اتسمت العلاقة بين القاهرة والمنصورية بالودية في أواخر عهد الحاكم. والراجح أنه لم يكن يمتلك متسعاً من الوقت يسمح له باستعادة نفوذه الفعلي في إفريقية، بسبب المشكلات الداخلية التي واجهها، وانهماكه بأمور بلاد الشام، المجال الحيوي للفاطميين، فكانت سياسة التودُّد للحفاظ على ما تبقَّى من النفوذ الفاطمي الاسمي هي الأجدى.

الفصل العاشر

أبو الحسن علي: الظاهر لإعزاز دين الله

(٤١١ ـ ٤٢٧هـ/١٠٢١ ـ ١٠٣٦ م)

تولي الظاهر مقاليد الحكم

خلف أبو الحسن علي، الملقب بالظاهر، أباه الحاكم بعد مقتله، وبايعه الناس بعد أن تحقَّقوا من عدم عودة الحاكم، وذلك يوم (عيد الأضحى عام ٤١١هـ/ ٢٧ آذار عام ١٠٢١م)، وكان الناس منذ أن فُقِد الحاكم في ١٧ شوال إلى هذا التاريخ بغير إمام[١]، فأظهر غيبة أبيه، وبايعه أهل مملكته، وجميع المتصلين بدعوته، وعمره يومئذ سبعة عشر عاماً، وكتب إلى دعاته وعماله في كافة أراضي الدولة يعلمهم بوفاة والده وتوليه مقاليد الحكم، وأمرهم بضبط الأمور، وحفظ الثغور[٢].

ست الملك تدير الشؤون العامة بالوصاية

عاصرت ست الملك ثلاثة من الحكام الفاطميين، هم العزيز والحاكم والظاهر، وقامت في عهد كل منهم بدور متميز. حاولت أن ترد أخاها الحاكم إلى الصواب بعد أن وقع تحت تأثير جماعة من المتطرفين، وأقنعوه بأن روح الله حلَّت فيه، فتنكَّر لها، وضايقها. ونظرت إلى الأوضاع العامة، فوجدت شعباً متذمراً، وحكماً منحلاً، ودولة مشرفة على الانهيار، فولَّت ابن أخيها الظاهر، وتولَّت هي الوصاية عليه[٣]. اشتهرت هذه السيدة بالذكاء الخارق والحزم الشديد فحاولت تقويم الأوضاع، وأدارت دفة الحكم بحنكة واضحة، وأظهرت كفاءة ممتازة ومقدرة فذَّة في ذلك.

بعد أن تأكدت ست الملك من مقتل أخيها، عمدت إلى إلغاء الوضع الشاذ الذي أراده الحاكم بتولية ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ولاية العهد فترتَّب على

---

(١) النويري: جـ ٢٨ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٢) الأنطاكي: ص ٣٦٥.
(٣) المصدر نفسه.

ذلك أن تعرَّض هو وأسرته للاضطهاد. كما استمالت أمراء بلاد الشام وقادة الجند، وأرسلت أحد الأمراء الكتاميين إلى دمشق برسائل إلى الأمراء بالقبض عليه، فسيق إلى مصر ومات مسموماً في القصر[1]، ولجأ ابنه الكبير عبد العزيز، وابن أخيه أحمد بن إلياس، إلى الأمبراطور البيزنطي، فأحسن استقبالهما[2].

أعقب التخلص من ولي العهد، قتل الحسين بن علي بن دواس الكتامي، وكل من كان يعلم بمؤامرة ست الملك للقضاء على الحاكم[3]، فتمهَّد الطريق أمام الظاهر لاستلام الحكم في ظروف هادئة.

وهكذا أضحت هذه السيدة الحاكمة الفعلية للبلاد، واعتمدت في بادىء الأمر على رئيس الرؤساء خطير الملك أبي الحسين عمار بن محمد، ثم أمرت بقتله في شهر (ذي القعدة ٤١٢هـ/ شباط ١٠٢٢م)، وتفرَّدت بإدارة الشؤون العامة، فكان «لا يُنفذ أمر جلَّ أو قلَّ إلا بتوقيع يخرج عنها بخط أبي البيان الصقلبي عبدها»[4]، واستمرت على ذلك حتى وفاتها في (١١ ذي القعدة ٤١٣هـ/ ٥ شباط ١٠٢٣م)[5].

سياسة الظاهر العامة

كان الظاهر على النقيض من والده، سمحاً، عاقلاً، لين العريكة، ابتعد عن ممارسة الشؤون العامة، وانهمك بلهوه، محباً لسماع الغناء، متجنباً سياسة العنف، حريصاً على أن يصلح ما فسد من الإدارة في عهد والده، واعتنى بأوضاع البلاد الاقتصادية، فنعمت مصر في عهده بالهدوء والطمأنينة.

استغل الأمراء النافذون في الدولة، انصراف الظاهر عن الاهتمام بالشؤون العامة، فتنافسوا على منصب الوساطة، فتولاه، في بادىء الأمر، شمس الملك أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان[6]، ثم عُزل، وحلَّ محله مجلس مكوَّن من ثلاثة

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٦٨. المقريزي: جـ ٢ ص ١١٤. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٩٣ ـ ١٩٤، وكان الحاكم قد عيَّنه والياً على دمشق في عام ٤١٠ هـ.

(٢) الأنطاكي: المصدر نفسه. والجدير بالذكر أن بيزنطية حرصت على التمسك بسياستها التقليدية، التي تقضي باستقبال كل من يلجأ إليها من الأمراء المسلمين، كيما تتخذ منهم أدوات ووسائل لإثارة القلق والاضطراب في الدولة الإسلامية.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧٣.

(٤) ابن الصيرفي: ص ٣٤. ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٧١. المقريزي: جـ ٢ ص ١٨٢.

(٥) النويري: جـ ٢٨ ص ٢٠٥.

(٦) المسبحي: أخبار مصر ص ٣٧. ابن الصيرفي: ص ٣٤.

أشخاص هم الشريف أبي طالب العجمي، والشيخ العميد محسن بن بدوس، والشيخ نجيب الدولة أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، بالإضافة إلى عز الدولة أبي الفوارس معضاد الخادم الأسود[1]، واتفقوا فيما بينهم في (جمادى الآخرة ٤١٥هـ/ آب ١٠٢٤م) على أن يكون دخلوهم على الظاهر في يوم خلوة، وأنهم يكفونه أمر الاهتمام بشؤون الدولة لينكبَّ على لذاته، وينفردون بالتدبير.

لم يكد الظاهر يتولى الحكم حتى انتهج سياسة مغايرة لسياسة والده في معاملة أهل الذمة، وحرص على اكتساب عطفهم، فتوقف اضطهاد النصارى، وساد التسامح، وعاد من لجأ إلى بيزنطية منهم، واستعادوا نفوذهم في دوائر القصر. وسمح الظاهر لهم بعمارة الكنائس، وردَّ ما لم يطلقه لهم الحاكم من الأوقاف المحبوسة على الأديرة[2]، وأذن للنصارى واليهود الذين تظاهروا بالإسلام في عهد والده بالارتداد إلى دينهم، على الرغم من مخالفة ذلك للشريعة الإسلامية[3]، وأصدر البيانات التي تجعلهم أحراراً في عقائدهم وشعائرهم، وأنه لا إكراه في الدين، وأن من آثر منهم الدخول في الإسلام، اختياراً، فليدخل فيه مقبولاً مبروراً، ومن آثر البقاء على دينه من غير ارتداد، كان عليه ذمته وحياطته[4]. ترتَّب على ذلك، أن أخذ الشعور العدائي نحو الذميين يتراجع حتى تلاشى إلا في أوقات محدودة، وبخاصة عندما يتقلد أحدهم منصباً قيادياً في الدولة، فيقوى نفوذهم.

ونقض الظاهر معظم الإجراءات التي اتخذها والده فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية. فترخَّص في شرب الخمر والفقَّاع وسماع الغناء، وسمح بأكل الملوخية وسائر أنواع السمك[5].

وأعلن الظاهر، بعد مضي ثلاثة أعوام من وفاة والده، براءته من دعوى الألوهية التي قيلت في أبيه وأسلافه، ويبدو أنه كان متأثراً في ذلك برغبته في تطهير مصر من هذه الفتنة[6]. وطارد الخارجين على الدين، فتتبعهم في سائر البلاد، كما جاهر بإنكار ما ادعاه بعض الناس من تأليه آبائه وهدَّدهم بإيقاع الأذى الشديد[7]. والواقع أن الشيعة في مصر لم يساهموا في نشر دعوى ألوهية الحاكم، بل كان معظم القائمين بها من الفرس.

---

(١) المسبِّحي: ص ٣٧، ٥٣. المقريزي:خطط جـ ٢ ص ١٩١.

(٢) الأنطاكي: ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ١٧٦. ساويروس. تاريخ البطارقة جـ ٢ قسم ٢ ص ١٣٥.

(٤) الأنطاكي: ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٥) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٩١.

(٦) سرور: ص ١٠٠.

(٧) الأنطاكي: ص ٣٧٢.

وحرص الظاهر كأسلافه على نشر الدعوة الفاطمية، فأمر الدعاة في عام (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) أن يحفِّظوا الناس كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن حيون، وكتاب الفقه ليعقوب بن كِلِّس، وخصَّص مكافآت مالية لمن يحفظهما، في الوقت الذي نفى فيه فقهاء المالكية الذين عينهم والده في دار العلم[١].

استغل الظاهر الأوضاع السياسية المضطربة في بغداد بسبب التنافس بين الأمراء البويهيين، والخلافات بين الجند الأتراك، فنشر دعاته في مختلف المناطق الشرقية التابعة للخلافة العباسية، ونجحوا في استقطاب البويهيين، فأقام هؤلاء الدعوة للفاطميين في البصرة، والكوفة، والموصل، وأعمال المشرق[٢]، وأرسلوا إلى محمود بن سبكتكين صاحب غزنة خِلعاً من الظاهر ليقيم الدعوة له، والمعروف أن محموداً هذا يُعد من ألد أعداء الفاطميين، فأرسل الخلع إلى الخليفة العباسي القادر الذي أحرقها[٣].

وكان دعاة الإسماعيلية في اليمن لا يألون جهداً في القيام بنشر الدعوة للفاطميين، فظل يونس بن الأسد يدعو للحاكم حتى توفي، وقد استغل ماله ونفوذه في سبيل نشر الدعوة الفاطمية، واستمال عدداً كبيراً من سكان اليمن إلى المذهب الإسماعيلي، واستمر يدعو للفاطميين طيلة عهد الحاكم والظاهر وأوائل عهد المستنصر.

أما في الحجاز، فلم يحاول الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر، بعد عودته إلى إمارته في مكة، الخروج على طاعة الفاطميين، واحتفظ بسيادتهم في هذا البلد، وخطب للحاكم ثم لابنه الظاهر.

استمرار التنازع في بلاد الشام

القضاء على بني الجرّاح في فلسطين

تراجع نفوذ بني الجراح في فلسطين في أواخر عهد الحاكم، واستعاد الفاطميون نفوذهم في جنوب بلاد الشام، واستمر هذا الوضع حتى مقتل الحاكم وتولي ابنه الظاهر مقاليد الأمور، فاستغل حسان بن الجراح الطائي الأوضاع الناجمة عن تغيير الحكم، وحاول استرداد نفوذه والاستقلال بفلسطين. وحتى يقوِّي موقفه عقد في عام (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) حلفاً مع سنان بن عليان أمير قبيلة كلب، وصالح بن

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٥. خطط: جـ ٢ ص ١٩٤.

(٢) مذكرات داعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي: ص ٧٩ ـ ٨٠. ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ١٦.

(٣) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢٥١.

مرداس أمير قبيلة كلاب. واتفق الأطراف الثلاثة على محاربة الفاطميين وإخراجهم من بلاد الشام، وتقسيمها فيما بينهم، وإقامة ثلاث دول بدوية، بحيث تكون فلسطين وما يتبعها لقبيلة طيء، يحكمها حسان بن الجراح ومركزه الرملة، وتكون دمشق ومنطقتها داراً لقبيلة كلب، يحكمها سنان بن عليان وعشيرته، وحلب مع شمال بلاد الشام إلى عانة، لبني كلاب يحكمها صالح بن مرداس[١].

كانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي شكَّلت فيها قبائل بلاد الشام مثل هذا الحلف[٢]، لكن وفقاً لما ذكره الأنطاكي، كان الذي تمَّ في هذه السنة مجرد تجديد لحلف قديم عُقد في السابق بين القبائل الثلاث في الأيام الأخيرة لحكم الحاكم أو في الأيام الأولى لحكم الظاهر[٣].

وعندما شكَّلت هذه القبائل الحلف الثلاثي، أخبرت الأمبراطور البيزنطي بذلك، وطلبت تأييده ومساعدته، لكن باسيل الثاني رفض طلبهم[٤] بحجة أنهم كانوا ينوون الثورة على الحكم الشرعي دون سبب مقنع، والراجح أنه كان منهمكاً بمشاكل بيزنطية، ولم يشأ تسخين جبهة بلاد الشام.

شكَّلت قوى التحالف قوة عسكرية كبيرة لم يكن باستطاعة الظاهر التغلب عليها، فلجأ إلى السياسة لتفتيتها، وحاول استمالة حسان بن الجراح، إلا أنه فشل في ذلك، وحاول الحلفاء من جانبهم طمأنته بأن الحلف ليس موجهاً ضد الفاطميين، فكتب حسان بن الجراح إليه أنهم ما زالوا يعترفون بإمامته، ويعترفون بالولاء له «وأنه لا يجب أن يشغل قلبه بأمر الشام، وأنه يقوم بأمر فلسطين يجبي خراجه، وينفقه في رجاله، ويستغني عن إنفاذ نجدة من مصر أو والٍ يلزم الحضرة مؤونته، وأما دمشق فإن فيها سنان بن عليان بن البنا صمصام الدولة، وأنه قد وافق أهل الشام على مثل ذلك، وأن حلب مردود تدبيرها إلى صالح بن مرداس أسد الدولة، وأنه قد كفى السلطان الاهتمام بأمر الشام كله»[٥].

لقد جرى إرسال الرسالة في (شهر رمضان ٤١٤هـ/ شهر تشرين الثاني ١٠٢٣م)، وهي مهينة في مضمونها، ومُذلة بحق دولة كبرى كالدولة الفاطمية. ويبدو

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٩٠. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠. ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٦.

(٢) زكار، سهيل: إمارة حلب ص ٧٦.

(٣) تاريخ الأنطاكي: ص ٣٩٠.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المسبِّحي: ص ١٨٣ ـ ١٨٤. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٦٠.

أن الظاهر كان عاجزاً عن التصدي للحلفاء، فاكتفى بقوله للرسول: «انصرف فليس لك عندنا جواب»[1].

لكن الفاطميين رفضوا بشكل قاطع قيام حكم مستقل في فلسطين لأنه يشكل تهديداً مباشراً لدولتهم في مصر، وهذا ما دفع الظاهر إلى إعداد جيش قوامه خمسة آلاف جندي، أسند قيادته إلى أنوشتكين الدزبري، وعيَّنه والياً على فلسطين، وأمره بالقضاء على حسان بن الجراح، وهاجم الأخير في (شهر رجب ٤١٥هـ/ شهر أيلول ١٠٢٤م) الرملة، واصطدم بالدزبري وانتصر عليه. وتعرَّضت المدينة للحريق والنهب والسلب، ووقع كثير من الجنود الفاطميين في الأسر، في حين لجأ الدزبري إلى عسقلان، واستولى حسان على المدينة[2]، وأرسل قوة عسكرية قوامها ألفي فارس هاجمت الفرما، مما أحدث اضطراباً في القاهرة[3].

وحدث في (شهر جمادى الآخرة ٤١٩هـ/ شهر تموز ١٠٢٨م) أن توفي سنان بن عليان أمير قبيلة كلب، واختلف الورثة على حكم الإمارة من بعده، فذهب ابن أخيه رافع بن أبي الليل بن عليان إلى القاهرة واجتمع بالظاهر الذي عيَّنه أميراً على بني كلب خلفاً لعمه، فخرجت بذلك هذه القبيلة، من الحلف مما أدَّى إلى إضعاف قوته[4]. وصبَّت هذه الحادثة في مصلحة الفاطميين الذين تشجعوا بإرسال قوة أخرى إلى بلاد الشام. وإذ اشتدَّ خطر حسان بن الجراح في فلسطين، فقد تقرَّر الاستعجال بإرسال الحملة التي بلغ عديدها سبعة آلاف جندي بقيادة أنوشتكين الدزبري، وذلك في عام (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)[5].

زحف الجيش الفاطمي باتجاه فلسطين، واستنجد حسان بن الجراح بحليفه صالح بن مرداس أمير حلب. وحدثت المواجهة الأولى بين القوات الفاطمية وعساكر حسان وصالح في منطقة غزة. ويبدو أن الحليفين لم يستطيعا الصمود، فتراجعا نحو وادي اليرموك، وتبعهما الجيش الفاطمي. وتواجه الجيشان عند الأقحوانة القريبة من طبرية في (٢٤ ربيع الآخر ٤٢٠هـ/ ١٢ أيار ١٠٢٩م)، واشتبكا في معركة حاسمة، تراجع خلالها حسان بن الجراح تاركاً حليفه يواجه ثقل المعركة بمفرده، مما أدى إلى انتصار القوات الفاطمية، وقُتل صالح بن مرداس في

---

(١) المسبِّحي: ص ١٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٧. الأنطاكي: ص ٣٨٩ ـ ٣٩٢.

(٣) المسبِّحي: المصدر نفسه: ص ١٩٦ ـ ١٩٧. (٤) الأنطاكي: ص ٤١٠.

(٥) ابن القلانسي: ص ١١٨ ـ ١١٩.

المعركة[1]. وبهذا النصر استعادت الدولة الفاطمية سيطرتها على القسم الجنوبي من بلاد الشام.

هرب حسان بن الجراح بعد الهزيمة إلى الأمبراطور البيزنطي للاحتماء به، وكان كأبيه على علاقات حسنة مع البيزنطيين، فاستُقبل بحفاوة. واشترك مع البيزنطيين عندما استولوا على أفامية في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، غير أن جهوده التي بذلها بعد ذلك، فشلت في استرداد نفوذه في فلسطين على الرغم من مساعدة البيزنطيين له. عندئذٍ عرض عليه مبعوث الأمبراطور البيزنطي المسير إليه والاستقرار على مقربة من الحدود البيزنطية، فسار حسان مع جمع كبير من عشيرته يُقدَّر بعشرين ألفاً بمواشيهم وخيامهم في عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م)، وضربوا خيامهم في جنوب شرقي أنطاكية حيث تعرَّضوا هناك لهجوم القائد الفاطمي أنوشتكين الدزبري مراراً[2].

العلاقة مع المرداسيين في حلب

أضعفت وفاة الحاكم، والمشاكل الداخلية التي شهدتها مصر عقب ذلك، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، ونشطت القبائل العربية البدوية في اقتسام هذه البلاد فيما بينها مشكِّلة دولاً بدوية مستقلة، وموجهة ضربة قوية للنفوذ الفاطمي. وكانت الفوضى التي شهدتها حلب بعد اغتيال عزيز الدولة فاتك في (شهر ربيع الآخر ٤١٣هـ/ تموز ١٠٢٢م) بتدبير ست الملك[3]، قد تحوَّلت إلى اضطراب وعدم استقرار، وبخاصة أن المشكلات المالية والإدارية كانت متفاقمة، مما هيأ الفرصة أمام صالح بن مرداس للاستيلاء على المدينة[4].

خشي الظاهر أن يستغل البيزنطيون تراجع النفوذ الفاطمي في بلاد الشام فيستولوا على الثغور الساحلية، لذلك أرسل عدداً من المراكب الحربية لحفظ ما تبقَّى للفاطميين من حصون الساحل. خرجت المراكب من تنيس ودمياط، وتوجهت إلى طرابلس وصور وغيرهما، كما وصل من تنيس إلى طرابلس سديد الملك أبو الحارث ثعبان بن محمد الكتامي، وهو في طريقه إلى حلب موفَداً من قِبل الظاهر ليتولى أمورها، بدلاً من أخيه سند الدولة أبي محمد الحسن بن محمد بن ثعبان

---

(١) ابن القلانسي: ص ١١٩. الأنطاكي: ص ٤١١.
(٢) الأنطاكي: المصدر نفسه ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٣) انظر ظروف مقتل فاتك في كتاب إمارة حلب لزكار، سهيل ص ٥٢ ـ ٥٤.
(٤) المسبِّحي: ص ١٧٢، ١٨١. ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٧.

الكتامي الذي كان مريضاً، فوصل إليها يوم الأحد (١٧ جمادى الأولى ٤١٥هـ/ ٢٧ تموز ١٠٢٤م)، وكان أخوه قد توفي قبل وصوله[١].

ويبدو أن الضغط البيزنطي كان شديداً، في الوقت الذي اتجه فيه الظاهر إلى تسوية أوضاع بلاد الشام والقضاء على خصومه فيها، لذلك جنح إلى السلم، وعقد في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) اتفاقية مع الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن (٤١٦- ٤١٩هـ/ ١٠٢٥- ١٠٢٨م) تضمَّنت ما يلي:

- فتح جامع القسطنطينية.
- الخطبة للظاهر في جميع المساجد الموجودة ضمن أملاك الأمبراطورية.
- إعادة فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس[٢].

استعاد الفاطميون مدينة حلب بعد مقتل عزيز الدولة فاتك، ووضعوا فيها حامية عسكرية من المغاربة، وعينوا الولاة عليها، كان من بينهم سديد الملك أبو الحارث ثعبان بن محمد الكتامي، كما أشرنا، في حين ولي القلعة موصوف الخادم الصقلبي، فظلَّا يسيِّران الأمور بحلب إلى أن خرج زعماء العرب في بلاد الشام على طاعة الظاهر.

وهكذا خضع أهالي حلب للنفوذ الفاطمي الموجَّه من مصر مباشرة حوالي ثمانية أعوام (٤٠٧- ٤١٥هـ/ ١٠١٦- ١٠٢٤م)، وهي مرحلة الانتقال بين حكمين محليين هما حكم الحمدانيين ثم المرداسيين. وتقلَّب الطرفان في الولاء للفاطميين والبيزنطيين، كما احتفظا بشخصيتهما المستقلة أحياناً. ومع ذلك فقد عانى السكان من الاضطرابات المستمرة بسبب تنازع القوى المختلفة للسيطرة على حلب.

وفي الوقت الذي كانت فيه الاشتباكات دائرة بين القوات الفاطمية وقوات الحلفاء العرب في فلسطين، استولى سليمان بن طوق، كاتب صالح بن مرداس على معرة مصرين، من أعمال حلب، ثم توجَّه في جماعة من العرب إلى حلب في شهر (رجب ٤١٥هـ/ أيلول ١٠٢٤م)، واشتبك في قتال مع الحامية الفاطمية، قبل أن يصل صالح بن مرداس في شهر (رمضان/ تشرين الثاني)، ويضرب حصاراً مركزاً على المدينة للاستيلاء عليها، استمر ستة وخمسين يوماً. ففي يوم السبت (١٣ ذي القعدة (٤١٥هـ/ ١٨ كانون الثاني ١٠٢٥م)، فُتح أحد أبواب المدينة، فدخل صالح إليها واستولى عليها[٣].

والواقع أنه كان لا يزال للحمدانيين في حلب، أنصار أقوياء، ويأملون في استرداد

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٥. (٢) المقريزي: جـ ٢ ص ١٧٦.

(٣) المسبِّحي: ص ٢١٠. الأنطاكي: ص ٣٩٠. ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٧.

ملكهم من الفاطميين. وتولى قيادة هذه الجماعة سالم بن مستفاد، غلام سيف الدولة الحمداني، وكان من كبار القادة في حلب، فاتهمه موصوف الخادم، والي القلعة، بالخروج على سلطان الفاطميين، ومساندة أعدائهم، وحاك مؤامرة لاغتياله، فالتفَّ الحمدانيون وأهل البلد حوله، وأعدوا أنفسهم للدفاع عنه، والخروج معه للقتال، ولما دخل صالح بن مرداس إلى المدينة اجتمع به وأخذ الأمان لنفسه ولأهل المدينة(١).

بعد أن سقطت المدينة في يد صالح بن مرداس، اعتصمت القوات الفاطمية في القلعة والقصر الملاصق لها. وعيَّن صالح سالم بن مستفاد رئيساً لمدينة حلب ومقدماً لأحداثها، وكلَّفه مع كاتبه سليمان بن طوق بمواصلة حصار القلعة والقصر، وغادر هو حلب مع قسم من قواته باتجاه الجنوب لمساعدة حسان بن المفرج الذي كان يحارب الدزبري(٢).

ويبدو أن المحاصِرين عجزوا عن إحكام الحصار، واحتاجوا إلى قوات إضافية لم يتمكَّن صالح من تأمينها، فطلب من حاكم أنطاكية قسطنطين دلاسينوس أن يمدَّه برجال يستعين بهم، فاستجاب الحاكم البيزنطي وأرسل إليه ثلاثمائة من الرماة، وزَّعهم على ناحية من سور القلعة. ولما علم الأمبراطور باسيل الثاني بذلك، أنكره عليه، وطلب منه سحب الرجال، فأعادهم إليه صالح(٣).

وذكر المسبِّحي أن سكان حلب ظنوا أن صالحاً كان يعمل لصالح الأمبراطورية البيزنطية وأنه سوف يسلمهم المدينة، لأن قواته قامت إثر دخولها إليها بتدمير أسوارها وأبراجها(٤). والراجح أن هذا التهديم كان إجراءً احترازياً لاحتمال أن حصار القلعة قد يطول، أو أن الحلبيين قد يغيِّرون موقفهم، وأن قواته ستجد نفسها مرغمة على الخروج منها، وأن ما أقدم عليه من الهدم كان بهدف سهولة استردادها(٥).

ومضى صالح بن مرداس إلى فلسطين لمساعدة حسان بن المفرج، وبعد أن تغلَّب مع حليفه على القوات الفاطمية بقيادة الدزبري، عاد إلى حلب، واستولى في طريقه على حصن عكار(٦) في منطقة طرابلس، وصيدا، وبعلبك، وحمص، وضمَّها إلى دولته، بالإضافة إلى ما كان بيده من البلاد مثل الرحبة، ومنبج، وبالس، ورفنية،

---

(١) الأنطاكي: ص ٣٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧. ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٨.

(٣) Schlumberger: II. p. 608.

(٤) أخبار مصر: ص ٢١٠.

(٥) زكار، سهيل: إمارة حلب ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٦) يقال حصن عكار وحصن ابن بكار، وهي قلعة على مرحلة من طرابلس من جهة الشرق.

وقد هدف إلى تأمين منفذ له على البحر[١]. وهكذا خرجت معظم بلاد الشام من دائرة النفوذ الفاطمي، ولم يبقَ سوى صور التي كان يتولاها ناصر الدولة ابن حمدان.

وفي أثناء غياب صالح بن مرداس في الجنوب تمكَّن قادته من الاستيلاء على القصر وتدميره، وشدَّدوا حصارهم على القلعة. وحتى يُضعفوا من المقاومة، جرى الطواف في المدينة، ونودي ببذل ثياب من الديباج، والأموال، لمن ينزل من القلعة مستأمناً ويتوقف عن القتال[٢]. وجرت بعد ذلك مباحثات بين موصوف الخادم الصقلبي والي القلعة من جهة، وبين سالم بن مستفاد وسليمان بن طوق من جهة أخرى، اتفق الجانبان خلالها على شروط التسليم. وأنفذ موصوف قوماً من المغاربة، استحلفوا ابن مستفاد وابن طوق على الوفاء بما تقرر. على أن ما حدث من النزاع بين المغاربة داخل القلعة أدى إلى استنجاد فريق منهم بأهل المدينة، وفتحوا لهم باب القلعة، فدخلوها في (الأول من جمادى الأولى ٤١٦هـ/ ٣٠ حزيران ١٠٢٥م)، فجرى القبض على موصوف الخادم الصقلبي، وسديد الملك ثعبان، وعلى غيرهم من كبار القادة، وتقرَّر اعتقالهم لمدة ثلاثة أشهر، كما تمَّ طرد الحامية الفاطمية من المدينة. ولما عاد صالح بن مرداس من الجنوب أحضر موصوفاً وأنَّبه على أفعاله ثم أمر بقتله، وأطلق سراح سديد الملك ثعبان لقاء بدل، وباقي الزعماء الفاطميين[٣].

والواقع أن صالح بن مرداس، على الرغم من سيطرته على حلب، وما قام به من الأعمال ضد القوات الفاطمية، فقد ظلَّ على ولائه للظاهر، فلم يقطع الخطبة له، وأرسل كاتبه سليمان بن طوق إلى القاهرة، حيث أعلن الظاهر، مكرهاً، عن قبوله بالحكم المرداسي، وزاد من ألقاب صالح وأرسل إليه، وإلى أولاده الخلع والهدايا[٤].

ثم حدث أن قُتل صالح بن مرداس في معركة الأقحوانة كما أشرنا، وأُرسل رأسه إلى القاهرة، فخسرت إمارة حلب بمقتله بعلبك، وحمص، وصيدا، ورفنية، وحصن عكار، حيث تخلَّى عنها المرداسيون، وعادت إليها السلطات الفاطمية.

حلب بين الفاطميين والبيزنطيين

حدث في حلب أن دبَّ النزاع بين نصر وثمال، ولدي صالح بن مرداس،

(١) الأنطاكي: ص ٣٩٣-٤٠٢. العظيمي، محمد بن علي: تاريخ حلب ص ٣٢٧. ابن العديم: جـ١ ص ٢٠٠.
(٢) ابن العديم: المصدر نفسه ص ١٩٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٨ - ١٩٩. الأنطاكي: ص ٣٩٧ - ٣٩٨.
(٤) الأنطاكي: المصدر نفسه ص ٤٠٢.

ونجح الأول في الاستيلاء على القلعة في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م). كان رد فعل ثمال ضد هذا الانقلاب، أن حشد قوات القبيلة، وفي نيته الاستيلاء على حلب بالقوة. لكن خشية من المخاطر البيزنطية، ونتيجة لوساطة مشايخ القبيلة، أمكن تحقيق مصالحة بين الأخوين، وتمَّ الاتفاق على اشتراكهما في حكم الإمارة بعد تقسيمها إلى قسمين: جزري وشامي، وتقرر أن يحكم ثمال الجزء الجزري، بالس والرحبة، وأن يبقى نصر في حلب حاكماً للجزء الشامي[١].

أتاح استرداد الفاطميين لحصن عكار على يد والي طرابلس مختار الدولة بن نزّال، أن يتقدموا باتجاه الشمال، حيث سيطر هذا الوالي على قلعة المنيقة[٢] الواقعة على الطريق الممتدة بين أنطاكية وحلب، مما أثار غضب البيزنطيين الذين عدُّوا سقوط هذه القلعة بيد الفاطميين تهديداً خطيراً لأملاك الأمبراطورية، على الرغم من أن الهدنة لا تزال منعقدة بين الظاهر وقسطنطين الثامن.

وحتى يُبعدوا هذا الخطر، رأى قُطبان خادم، ويسمى ميخائيل ويُعرف بالأسبنديلس، ضرورة الاستيلاء على حلب، فهاجمها دون أن يتلقى أمراً من الأمبراطور رومانوس الثالث، الذي خلف قسطنطين الثامن في عام (٤١٩هـ/ ١٠٢٨م)، ظناً منه أنه لن يكون باستطاعة الأخوين الاحتفاظ بدولة والدهما، فهاجم حصن قيبار، من أعمال حلب، بين أنطاكية والثغور، غير أنه تعرَّض لهزيمة ساحقة في (٢٧ جمادى الآخرة ٤٢٠هـ/ ١٢ تموز ١٠٢٩م)، اضطر على أثرها أن يعقد صلحاً مع الحلبيين[٣].

والواقع أن هذه الحملة أغضبت الأمبراطور، فعزل والي أنطاكية وتجهَّز للقيام بحملة انتقامية وتأديبية، بعد أن حقد على ابني صالح بن مرداس[٤]، لا سيما وأن الغارات الفاطمية قد اشتدت على أملاك الأمبراطورية منذ أن استولى الفاطميون على قلعة المنيقة.

ويقدم ابن العديم رواية أخرى حول سبب الحملة البيزنطية على حلب، حيث يقول إنه بعدما حدث الانقلاب ضد ثمال، جمع هذا قوات العشيرة، وقرر الزحف على حلب للاستيلاء عليها بالقوة، وفي المقابل وجد نصر نفسه عاجزاً عن التصدي لقوات أخيه،

---

(١) الأنطاكي: ص ٤١٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) المنيقة أو المينقة: قلعة بالقرب من الكهف على نحو ساعة على جبل مرتفع. القلقشندي: جـ ٤ ص ١٥٢.

(٣) الأنطاكي: ص ٤١٢.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤١٣.

فوجَّه الدعوة إلى الأمبراطور البيزنطي رومانوس الثالث ليسلم إليه مدينة حلب[١].

وأورد بسيللوس، وهو موظف في القصر البيزنطي ومؤرخ القرن الحادي عشر الميلادي، وقد عاصر الحملة وأرَّخ لها، وصفاً مسهباً لهذه الحملة التي لم يكن لها سبب جوهري برأيه، سوى حرص الأمبراطور على أن يذيع صيته ويشتهر اسمه بإحراز النصر في الشرق، ويسجل اسمه إلى جانب نقفور وزمسكيس وباسيل الثالث[٢]، أي أن أسباب الحملة كانت شخصية بحتة لدى الأمبراطور الذي «أوقف نفسه على نيل الأمجاد العسكرية في الشرق والغرب»[٣]، وجمع من أجل ذلك حشداً هائلاً من المقاتلين من جنسيات مختلفة، وعيَّن على الحملة زوج أخته البطريق قسطنطين كارانتينوس، وأمره بأن يسبقه لقتال أمير حلب، وأوصاه بألا يشتبك معه في معركة حاسمة قبل وصوله.

والسبب الأكثر واقعية مما ذكر من أسباب، أن رومانوس الثالث الذي كانت علاقته بالدولة الفاطمية متوترة، بعد الانتشار الفاطمي في شمال بلاد الشام، استهدف بحملته تحقيق ما أخفق حاكم أنطاكية في الوصول إليه، وكان يخشى أن يعجز أولاد صالح عن الاحتفاظ بحلب بعد وفاة أبيهم، وأن تستولي عليها الدولة الفاطمية، بدليل أن منصوراً بن لؤلؤ، حاكم حلب السابق، كان من عداد جيش الأمبراطور، مما يوحي بأن نوايا رومانوس الثالث كانت متجهة نحو إعادته إلى مركزه السابق[٤]. وقد أرسل الأمبراطور رسالة إلى نصر وثمال يعبِّر فيها عن قلقه «وإشفاقه من حيلة تتم عليهما لحداثة سنهما، في خروج حلب من أيديهما، كما خرجت من أيدي غيرهما، ويملكها أعداؤهما»، ويلتمس منهما «أن يسلماها إليه ويعوضهما عنها من البلاد والأموال ما يزيد على اقتراحهما ويوفي على ما في نفوسهما»[٥].

حشد رومانوس الثالث لهذه الحملة ما لم يحشده في الحملات السابقة أي أمبراطور بيزنطي، من الروس والأرمن والبلغار والبجناك والكرج والخزر، قدَّرهم ابن الأثير بثلاثمائة ألف مقاتل[٦]، وقيل هم ستمائة ألف[٧]، منهم عدد كبير لا خبرة لهم بفنون القتال والحرب اتخذهم التماساً للكثرة[٨]. وعلى الرغم من أن العدد

(١) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) Psellus: Chronographia: p. 41.

(٣) Ibid.

(٤) زكار: ص ٩٠ ـ ٩١.

(٥) الأنطاكي: ص ٤١٤.

(٦) الكامل في التاريخ: جـ ٧ ص ٧٣٦.

(٧) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٠٦.

(٨) الأنطاكي: ص ٤١٣.

مبالغ فيه، إلا أنه يدل على جدِّية تحقيق الهدف من جانب الأمبراطور. وفي المقابل، كانت قوات نصر تقدر بألفي مقاتل[١].

وحاول بعض كبار القادة أن يثنوا الأمبراطور عن عزمه لتخوُّفهم من نتائج الهجوم، وهذا يؤيد ما ذكره المؤرخون من أن معظم أفراد الجيش لا دراية لهم في القتال. ويبدو أنهم كانوا مختلفين فيما بينهم بسبب النزاع على السلطة. وكان الأمبراطور نفسه مكروهاً، غير أن بعض القادة الآخرين شجعوه على المضي في الحملة «وقرَّبوا إليه أخذه لحلب، وصغَّروا في نفسه حال العرب، فاغترَّ بكلامهم، وصدَّق مقالهم لموافقته هواه، وصرف سمعه عن سماع مشورة المتنصحين له بخلافه، وأغفل ما اقتضته السياسة من التحفظ والتيقظ والاستظهار في كل باب بما يقتضيه الصواب»[٢]. كما لقي تأييداً من بني الجراح، فقد أرسل حسان بن المفرج عدداً من أفراد أسرته إلى الأمبراطور يشجعونه على متابعة زحفه ويؤكدون له ولاءهم، ويعدونه بالقتال إلى جانبه[٣].

وكان الأخوان نصر وثمال قد أرسلا ابن عمهما مقلد بن كامل مع بعض الهدايا إلى الأمبراطور لإقناعه بالعودة أو تغيير اتجاهه، وقابله مقلد في أنطاكية في شهر (رجب ٤٢١هـ/ تموز ١٠٣٠م). ويصف بسيللوس هذه المقابلة «ولقد أعلنوا له أنهم لا يريدون هذه الحرب، ولم يعطوه أي مسوغ لها، وأنهم متمسكون بشروط السلم المعقودة، ويرفضون إلغاء المعاهدة القائمة، لكنهم عندما رأوا تبنِّيه لسياسة التهديد، وإصراره على استعراض قواته، أعلموه إذا ما استمر بتشبثه، سيقومون بالاستعداد للصراع، وأنهم أوقفوا أنفسهم على الحرب والنجاح بها»[٤]. لكن الأمبراطور رفض عرض المرداسيين، وأصرَّ على السير في مغامرته، واحتجز مقلداً لديه، وزحف يريد مدينة حلب[٥]، ونزل على تُبَّل[٦] من بلاد عزاز في الشمال الشرقي من حلب في مكان قريب من الجبل لا ماء فيه، وضرب خندقاً حول معسكره، بينما نزل العرب في مواضع تغزر بها المياه[٧].

---

(١) المقريزي: جـ ٢ ص ١٧٩.
(٢) الأنطاكي: ص ٤١٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤١٣ ـ ٤١٤. Chronographia: p. 43.
(٥) الأنطاكي: ص ٤١٣ ـ ٤١٤.
(٦) تُبَّل: من قرى حلب ثم من ناحية عزاز بها سوق ومنبر. الحموي: جـ ٢ ص ١٤.
(٧) Schlumberger: III. p. 75.

وحرص رومانوس الثالث أن يشنَّ هجوماً كبيراً على مواقع المسلمين، فأرسل قوة عسكرية بقيادة ليو خيروسيفاكتس إلى حصن عزاز لاستكشاف مواقعهم، لكن القوات الإسلامية فاجأت القوة البيزنطية وقضت على معظم أفرادها، وأسرت قائدها(١).

كانت هذه الخسارة سبباً في انهيار الخطط العسكرية التي وضعها الأمبراطور، واضطرب جنده، وهلك عدد كبير منهم قبل أن يباشروا الحرب بحيث عجَّلت بانكفائه من حيث أتى.

والواقع أن الأمبراطور اختار وقتاً غير مناسب لحملته. فقد كان الوقت صيفاً حيث الحرارة مرتفعة، والماء قليل، وتفشى المرض بين جنوده. ولا شك بأن هذه الأحوال الطبيعية الصعبة أثَّرت سلباً على معنويات جنوده، فتراجعت قوتهم القتالية.

لم يترك المسلمون الفرصة عند ارتداد الجيش البيزنطي، وراحوا يهاجمون أطرافه، وفشل البطريق قسطنطين دلاسينوس في الحد من اندفاعهم، والتخفيف من ضغطهم، فقتلوا كثيراً منهم، وأسروا بعضهم، وكاد الأمبراطور نفسه يسقط قتيلاً لولا أنه «لبس خفاً أسود، وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر، فتركه ولبس الأسود ليعمي خبره على من يريد»(٢).

ولما غادر الأمبراطور بلاد الشام عيَّن الدمستق الطواشي الأبروطوسبيتار سيمون، قائداً للجيش، وطلب منه ومن البطريق نقيطا، أن يستردا حصن المنيقة، فحاصراه في شهر (رمضان/ أيلول)، غير أنه حلَّت بهما الهزيمة، وعادا إلى أنطاكية(٣).

استغلَّ المسلمون انتصارهم على القوات البيزنطية، وأغاروا على أملاك الأمبراطورية، وبنوا حصوناً في المناطق العسكرية الملاصقة لأنطاكية، منها حصون بنكسرائيل، بني الأحمر، بني غنَّاج وغيرها. وبرز نصر بن مشرِّف الرادوفي في هذه الغارات، وعلت منزلته عند الظاهر، فحَثَّ والي طرابلس وقاضيها على مهاجمة مرقية، ومقاتلة البيزنطيين، وأطمعهما في أخذها، فخرجا بعساكر طرابلس، وانضم إليهما من في الحصون، وحاصروها. طلب المحاصَرون المساعدة من قُطبان نقيطا الذي قدم على وجه السرعة، وأبعد المسلمين عنها، ثم قصد إقليم البقيعة شمال عكار، وانحدر نحو عِرقة، وسبى عدداً كبيراً من سكانها، ثم عطف على طرابلس، فالتقى بالدمستق

---

(١) الأنطاكي: ص ٤١٥. العظيمي: ص ٣٢٩.

(٢) الأنطاكي: المصدر نفسه: ص ٤١٥ ـ ٤١٦. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٠٧.

(٣) Schlumberger: III. p. 91.

سيمون، وكان في طريقه لمهاجمة عزاز، فسارا معاً وحاصراها في شهر (ذي الحجة ٤٢١هـ/ تشرين الثاني ١٠٣٠م)، وملكا الربض، واستظهرا على من في الحصن[١].

نتيجة لهذه العمليات العسكرية الواسعة، حاول نقيطا، عبثاً، تقوية موقفه باستمالة نصر بن مشرِّف وغيره من أمراء الحصون، إلا أنه نجح في استمالة نصر بن صالح المرداسي وعقد هدنة معه، أتاحت له التفرغ لمهاجمة الحصون الإسلامية مجدداً[٢]، فهاجم صافيتا وأطلق منها سراح أحد القادة البيزنطيين، وكان أسيراً، ثم هاجم حصن المنيقة، وحاصره ثلاثة عشر يوماً حتى فتحه في (١٥ ذي الحجة/ ١ كانون الأول)، وأخذ منه أسرى، وهاجم رفنية وسبى عشرة آلاف من أهلها، واستولى على حصن أرجيلاس بين أنطاكية وحلب[٣].

وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش البيزنطية، تجوث مناطق شمال الشام الداخلية والساحلية، حرص الأمبراطور البيزنطي على الاستفادة من الوضع السائد، وراح يؤلب أمراء الشام على الدولة الفاطمية، وكان في مقدمة اهتماماته تأليب والي طرابلس ابن نزَّال، نظراً لأهمية موقع المدينة المتقدم، وتأثيرها الفعَّال في دعم النفوذ الفاطمي في الساحل الشامي، ولحصانتها التي قاومت جميع الأباطرة الذين سبقوه، ولأن ميناءها يفتح أمامه الطريق إلى بقية موانىء بلاد الشام[٤]. نجح الأمبراطور في مسعاه في عام (٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م)، وحصل على تعهد من ابن نزَّال بأن يؤدي له جزية سنوية، وبذلك انتفضت طرابلس على الحكم الفاطمي، لأول مرة، وأظهر ابن نزَّال صدق مشاعره نحو الأمبراطور عندما سعى إلى افتداء القائد البيزنطي خيرو سيفاكتس الذي أُسر عند حصن عزاز في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، وأطلق سراحه[٥].

استفادت بيزنطية من تحييد حاكم طرابلس، واستمالة نصر بن صالح بن مرداس، فجدَّد الأمبراطور هجماته عى بلاد الشام، واستولى جورج مانياكس، الذي صار حاكماً على المدن الواقعة على أطراف نهر الفرات، على الرها في شهر (ذي القعدة ٤٢٢هـ/ تشرين الثاني ١٠٣١م)، ودأب على الإغارة على حران وسروج وغيرهما[٦]، كما استولى البيزنطيون على حصن بنكسرائيل في العام التالي[٧].

---

(١) الأنطاكي: ص ٤١٨ ـ ٤٢٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤١٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣، ٤٢٥ ـ ٤٢٦. ابن العديم: جـ ١ ص ٢١٠.
(٤) تدمري: ص ٨٢ ـ ٨٣. Schlumberger: III. p. 91.
(٥) المرجع نفسه: ص ٨٣. Schlumberger: III. p. 91.
(٦) الأنطاكي: ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧.
(٧) المصدر نفسه: ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.

امتعض الظاهر من هذا الانتشار البيزنطي، وأعلن الجهاد في مصر وبلاد الشام، فهاجمت قواته مدينة طرابلس ودخلتها في عام (٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م)، وفرَّ ابن نزَّال إلى أنطاكية. وبذل الأمبراطور جهداً لإعادته، فأرسل حملة بحرية إلى ساحل بلاد الشام، اصطدمت بالبحرية الفاطمية عند ميناء طرابلس، وتغلَّبت عليها، واستعاد البيزنطيون المدينة، وأعادوا إليها أميرها ابن نزَّال، لكن الفاطميين ما لبثوا أن اقتحموها بمساعدة أهلها الذين رفضوا أن يكونوا تابعين للدولة البيزنطية، وفشل حاكم أنطاكية في مساعدتها[1].

ثم رأى الطرفان، الفاطمي والبيزنطي، أن يجنحا إلى السلم. وأبدى القائد البيزنطي نقيطا استعداده للتفاوض من أجل إحلال السلام، وأرسل الظاهر رسولين إلى الأمبراطور رومانوس الثالث للإطلاع على شروط الصلح وهي:

- يعيد الأمبراطور بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس، ويجدِّدها من ماله.
- يرمِّم النصارى جميع الكنائس الخربة في أملاك الدولة الفاطمية.
- تختار القسطنطينية بطريركاً على بيت القدس.
- لا يتعرض الظاهر لحلب، ويتركها تؤدي ما هو مقرر عليها من جزية سنوية إلى الأمبراطور.
- تتعهد الحكومة الفاطمية بعدم مساعدة أمير صقلية، أثناء نشوب القتال بينه وبين بيزنطية، وهذا الشرط كشف عن غارة بحرية قام بها المسلمون من صقلية وإفريقية في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) هاجمت جزر الأرخبيل، فأراد الأمبراطور الانتقام من مسلمي صقلية دون أن يعترضه الأسطول الفاطمي.

وبذل الأمبراطور:

- إطلاق سراح الأسرى المأخوذين، بحكم الحرب في أيامه، من بلاد الإسلام عوضاً عن بناء كنيسة القيامة.
- التمس من الظاهر أن يعيد حسان بن الجراح إلى ملكه وإقطاعه على أن يلتزم بالهدوء.
- يعطي الأمبراطور للظاهر حصن شيزر الواقع بين أملاك المسلمين، مقابل إعطاء الأخير للأول حصن أفامية، عوضاً عنه، نظراً لقربه من أملاك البيزنطيين.

قَبِل الظاهر بعض شروط الأمبراطور، باستثناء:

- تجديد النصارى للكنائس التي حوَّلها المسلمون إلى مساجد.

---

(١) المصدر نفسه: ص ٤٣٤.

- الامتناع عن مساعدة مسلمي صقلية إلا إذا وافق رومانوس الثالث على أن يفعل معه مثل ذلك.

ولم يُجب إلى الشرط المتعلق بحلب بحجة أنها ثغر مهمٌّ من ثغور المسلمين لا ينبغي أن يكون تحت سيطرة البيزنطيين، وأن يُهمل ذكرها في عقد الصلح، وأصرَّ رومانوس الثالث، من جهته، أن تكون داخلة في عهد الصلح، ولم يرَ قبول ابن الجراح، ولم يرغب في أخذ شيزر والتعويض عنها بأفامية[١].

واستمرت المفاوضات على شكل كتب متبادلة مدة ثلاثة أعوام ونصف، لتذليل العقبات كان رومانوس الثالث قد توفي، خلالها، مسموماً في (٧ ربيع الآخر ٤٢٥هـ/ ١٢ آذار ١٠٣٤م) وخلفه الأمبراطور ميخائيل الرابع البافلاجوني (٤٢٥- ٤٣٣هـ/ ١٠٣٤- ١٠٤١م)، عمد الظاهر خلالها إلى الضغط على الأمبراطور، فاستخدم المواد التي انتزعها من الكنائس، في إنشاء سور أقامه حول بيت المقدس، بالإضافة إلى ما حدث في عام (٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م) من استيلاء الجيش الفاطمي على طرابلس، وما جرى من فشل الحملة البرية التي وجهها الأمبراطور البيزنطي بقيادة نقيطا لمهاجمة الإسكندرية وإنزال الخراب بالدلتا[٢]. والراجح أيضاً أن أمير حلب طرد في عام (٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م) مندوب الأمبراطور من المدينة، وهزم القوات التي أرسلها حاكم أنطاكية قسطنطين لزعزعة النفوذ الفاطمي فيها[٣].

ومع ذلك لم تتحقَّق الهدنة إلا في أوائل عهد المستنصر الفاطمي في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م)، ولمدة عشرة أعوام، ويذكر المقريزي أن الهدنة تحققت في أواخر أيام الظاهر في عام (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م)[٤].

العلاقة مع بني زيري في إفريقية

اتسمت العلاقات بين الدولة الفاطمية وبين الزيريين في القيروان، في عهد الظاهر، بالتقلبات السياسية تبعاً للتطورات السياسية في كلا الدولتين، وقد استمر تبادل الهدايا بين الطرفين. ففي عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) أرسل الظاهر رسولاً إلى إفريقية ومعه تشريف جليل لشرف الدولة أبي تميم المعز بن باديس، وثلاثة أفراس

---

(١) الأنطاكي: ص ٤٣٦ - ٤٣٨.
(٢) العريني: ص ٧٨٧. Schlumberger: III. p. 131.
(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٧١. Ibid: pp. 188 - 189.
(٤) اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٢.

مسرجة، وخلعة ومنجوقان[١]، وعشرون بنداً مذهبة، وسجل لقَّبه فيه بشرف الدولة وعضدها، فاستقبله المعز، وقُرِىء السجل في جامع القيروان[٢].

وبادله المعز، فأرسل إليه في عام (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م) هدية قيِّمة اشتملت على عشرين جارية حسان، وثلاثة جياد ثمينة بسروج من الذهب واللؤلؤ والفضة، وألف وخمسمائة ثوب من سائر ألوان الخز المغربي والسوسي، ومن الرماح الزان والثياب الصقلي والسوسي[٣].

وأرسل الظاهر هدية ثانية إلى المعز اشتملت على غرائب طُرَف بلاد الهند والصين وخراسان من أنواع الطيب والجوهر، وغير ذلك من الملابس والفرش والأعلام والبنود، والجواري الحسان المغنيات والراقصات، والخيل العربية[٤].

ثم حدث أن ساد الفتور في العلاقات بين القاهرة والقيروان. إذ أن المشكلات التي واجهتها الدولة الفاطمية في بلاد الشام، والفتن الداخلية، فضلاً عن انهماكها بالمشكلات الاقتصادية الناجمة عن نقصان مياه النيل، وانصراف الظاهر إلى ملذاته؛ صرفها عن الاهتمام بشؤون إفريقية في الوقت الذي قويت فيه شوكة المعز بن باديس، وتصاعد نفوذ أهل السنَّة بفضل تعاليم المدرسة المالكية، سواء في القيروان أو في تونس، اللتين أضحتا مراكز لنشر الدعاية السنِّية، بالإضافة إلى الطموح السياسي للمعز واتجاهه إلى الاستقلال عن الفاطميين، وعطفه على أهل السنَّة بفعل تأثير مؤدبه ابن أبي الرجَّال، فكان يعمل برأيهم في بعض الأمور. من ذلك أنه أرسل إلى أحد فقهاء السنَّة في القيروان يسأله الفتوى في الطراز التي تتضمَّن أسماء الحكام الفاطميين، وغيرها مما يُلبس أو يُصلَّى بها. فأجابه الفقيه بقوله «يجب على من بسط الله يده أن يمنع ذلك». بيد أن المعز احتج بقوله «ما أبقيت السكة والبنود إلا مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين»[٥]، كما كان يسب بني عبيد سراً.

استمرت هذه العلاقة الفاترة إلى أن توفي الظاهر في (١٥ شعبان ٤٢٧هـ/ ٢٥ حزيران ١٠٣٦م)[٦].

---

(١) المنجوق: نوع من الأعلام والبنود.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٦٩، ٢٧١. المقريزي: جـ ٢ ص ١٣٢.

(٣) ابن عذارى: المصدر نفسه. الرشيد، رشيد الدين أبو الحسن أحمد: الذخائر والتحف ص ٦٩.

(٤) ابن عذارى: المصدر نفسه: ص ٢٧١.

(٥) الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان جـ ٣ ص ١٦٧.

(٦) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٧٥. عماد الدين، إدريس: ص ٣٢١.

الفصل الحادي عشر

أبو تميم معد: المستنصر بالله

(٤٢٧/٤٨٧هـ: ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م)

تولي المستنصر مقاليد الحكم

خلف المستنصر أباه الظاهر يوم وفاته وهو طفل لم يتجاوز السبعة أعوام، وامتد حكمه على مدى ستين عاماً[١]، فهو أطول الحكام الفاطميين عهداً. إذ في الوقت الذي توفي فيه الظاهر، أحضر الوزير نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجرائي، الأعيان والأمراء، وأمرهم بالجلوس في مجلس دون الستر، والمستنصر جالس خلف الستر، وقد ارتدى قميصاً طول كمه اثني عشر ذرعاً، وأخبرهم بأن الظاهر شديد العلة، وهو خلف الستر بحيث يسمعهم ويراهم، وقد عقد عهده والحكم من بعده لولده المستنصر، فبايعوا له، وحين عقدوا البيعة أمر الوزير الجرجرائي الأستاذين، فجردوا السيوف، ثم رفع الستر عن المستنصر، فبايعوه مرة أخرى[٢]. ويذكر ابن خلكان، أنه عندما علم الوزير الجرجرائي بوفاة الظاهر، أخذ البيعة لابنه أبي تميم الذي تلقَّب بالمستنصر، وذلك يوم الأحد النصف من شعبان عام ٤٢٧هـ[٣].

أقرَّ المستنصر الوزير الجرجرائي في منصبه، وكان الحاكم الفاطمي قد أمر بقطع يديه في المرفق، فاتخذ القاضي أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، كاتباً له، وظل في منصبه حتى وفاته عام (٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)[٤].

---

(١) ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٢٩.

(٢) عماد الدين، إدريس: ص ٣٢٣. والمقصود بالأستاذين فئة من خواص الإمام الفاطمي، كان لهم في الدولة الفاطمية مكانة جليلة.

(٣) وفيات الأعيان: جـ ٥ ص ٢٢٩.

(٤) ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٢٩.

الأوضاع الداخلية

تمهيد

شهدت مصر، خلال عهد المستنصر، أحداثاً جساماً، وتقلُّبات اقتصادية وسياسية واجتماعية سريعة، أثَّرت سلباً على مركز الدولة، فتراجعت قوتها. ويُعدُّ عهده حداً فاصلاً بين عهد الأئمة الأقوياء، وعهد الوزراء، ففي أثنائها نُقلت السلطة الفاطمية نهائياً من أيدي الأئمة الفاطميين إلى أيدي الوزراء، فيما عُرفَ، في التاريخ الفاطمي، بعصر الوزراء، ولم يتمكَّن المستنصر ولا من أتى بعده من التخلص من براثنهم.

كانت شؤون الدولة في أيدي عدد من الوسطاء الذين كانت جهودهم موجهة لمحاولة الاحتفاظ بالوضع القائم، ولكن ذلك كان أمراً مستحيلاً، إذ أن تاريخ هذه المرحلة يقتصر على أخبار متكررة من فوضى داخلية متواصلة، وتدهور مستمر في أوضاع مصر الاقتصادية. فقد انخفض الإنتاج الزراعي بسرعة حتى أن الفاطميين اضطروا إلى إجراء مفاوضات مع البيزنطيين بتأمين القمح من بيزنطية. واجتاحت البلاد الأوبئة، بالإضافة إلى أزمة إدارية حادة أضعفت قوة الدولة ونفوذها، هذا على الرغم من حالة الرخاء التي شهدتها البلاد في أوائل عهد المستنصر والتي لم تستمر طويلاً. فقد أشاد الرحَّالة ناصر خسرو بالأمن الذي شاهده في مصر في أوائل عهد المستنصر، وقال «إنه لم يره في بلد من قبل»[1]، وعلَّل ذلك بفضل المذهب الإسماعيلي الذي عدَّه كفيلاً بإنقاذ العالم الإسلامي. وإذا صدَّقنا، ناصر خسرو، على الرغم مما يبدو على وصفه دائماً من مبالغات، كان يهدف إلى كسب الرأي العام في فارس لصالح الفاطميين، وضد السلاجقة السنيين الذين بدأوا يظهرون على المسرح السياسي. وشهد الوضع السياسي الداخلي صراعات دامية بين طوائف الجند المختلفة وبخاصة الأتراك والسودان، في ظل حكم صبي، ولم يكن أمام القيمين الفاطميين أي خيار آخر غير التسليم بسلطة عسكرية، تنقذهم وتنتشل البلاد من الانحلال التام[2].

تدهور الوضع الاقتصادي

كانت تنتاب مصر من وقت لآخر المجاعات التي يسبِّبها نقصان منسوب مياه النيل، فَتُتْرَكُ الأرض من دون زراعة لعدم توفر المياه اللازمة للري، ويتعذر وجود

---

(١) سفر نامه: ص ٣٤.

(٢) سيد: ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

الأقوات، وترتفع الأسعار، وتزداد الحالة تفاقماً في غياب التخطيط الاقتصادي السليم.

وقد استمرت الأزمات الاقتصادية في عهد الأخشيديين مدة تسعة أعوام بحيث أنها كانت أحد الأسباب التي أدَّت إلى مجيء الفاطميين[1]. وعلى الرغم من التدابير الاقتصادية الناجعة التي اتخذتها الحكومات الفاطمية المتعاقبة لتفادي الأزمات الاقتصادية، إلَّا أن المجاعات عادت إلى الظهور في عهد الحاكم بين أعوام (٣٩٥ـ ٣٩٩هـ/ ١٠٠٣ـ ١٠٠٩م)[2]، وازدادت في عهد الظاهر بسبب كثرة القوارض التي أتت على كل شيء، وبلغت الذروة في عهد المستنصر.

فبعد أزمة الحنطة التي حدثت في عام (٤١٥هـ/ ١٠٢٣م)، عاد منسوب النيل إلى التناقص في الأعوام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م)، (٤٤٧/ ١٠٥٥م)، (٤٥٧ـ ٤٦٤هـ/ ١٠٦٥ـ ١٠٧٢م) وأُصِيبت مصر بأسوأ أزمة اقتصادية مرَّت بها في العصور الوسطى[3]. فارتفعت الأسعار، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء، حتى خلت الأراضي من الزرع والضرع، وتفشى الجوع لعدم توفر الأقوات.

وقد عالج الوزير أبو محمد الحسن اليازوري هذا الوضع الاقتصادي المتدهور بشكل ارتجالي دون تخطيط سليم، بهدف التقرب من المستنصر. فقد كان هذا الأخير يشتري في كل عام غلالاً بمائة ألف دينار، ويخزنها بهدف الاتجار بها، فكان الاحتفاظ بهذه الغلال يشكل احتياطاً للبلاد، لكن اليازوري أقنعه بالاستعاضة عن تخزين الغلال، بتخزين مواد ذات مدخول أفضل، وذلك بهدف الحصول على نسبة أعلى من الربح[4].

ترتَّب على ذلك أنه عندما حدثت المجاعات، لم يكن هناك احتياطي من الغلال، كما تلاعب التجار بأسعار الغلال التي في حوزتهم، فكانوا يخفونها لبيعها بالسعر الذي يريدونه. وتصدَّى اليازوري لهذه الظاهرة، فصادر ما في مخازن التجار، وختم عليها، وأجرى مفاوضات مع الحكومة البيزنطية لاستيراد الحبوب من بيزنطية.

استمرت الأزمة بعد موت اليازوري في عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) وكان سببها

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة ص ١٤ وما بعدها.

(٣) سيد: ص ١٣٩.

(٤) ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ص ٣٤٠.

الرئيسي، تلك الصراعات التي بدأت في العقد الخامس. وقد شخَّص المقريزي أسباب الأزمة فذكر أنه، لما قُتل الوزير اليازوري «لم ترَ الدولة صلاحاً، ولا استقام لها أمر... ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة، وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم... فخربت أعمال الدولة، وقلَّ ارتفاعها، وتقلَّب الرجال على معظمها، واستضعفوا ارتفاعها حتى انتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأول... وطغى الرجال وتجرَّأوا حتى خرجوا عن طلب الواجبات إلى المصادرة، فاستنفدوا أموال الخليفة، وأخلوا منها خزائنه، وأحوجوه إلى بيع أغراضه... ثم زادوا في الجرأة حتى صاروا إلى تقويم ما يخرج من الأعراض... وتلاشت الأمور، واضمحل الملك، وعلموا أنه لم يبقَ ما يلتمس إخراجه لهم فتقاسموا الأعمال، ودام ذلك بينهم سنوات إلى أن قصر ماء النيل، فساعد ذلك على زيادة الأزمة لعدم وجود من يزرع ما شمله الري لاتصال الفتن بين العربان، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة»[١].

وقد بلغت الأزمة أوجها في عام (٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م)، وامتدت سبعة أعوام وعُرفت بالشدة المستنصرية، نسبة إلى المستنصر، وكانت أكثر وضوحاً في الأقسام الشمالية للفسطاط. فقد خربت القطائع حتى أمر الوزير ببناء حائط يستر الخراب عن نظر المستنصر إذا سار من القاهرة إلى الفسطاط، فيما بين العسكر والقطائع وبين الطريق، كما أمر ببناء حائط آخر عند جامع ابن طولون[٢].

وعندما دخل أمير الجيوش بدر الجمالي إلى مصر في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م)، كانت هذه الأماكن «خاوية على عروشها، خالية من سكانها... وأضحت القاهرة يباباً دائرة، فأباح للناس، من العسكرية والملحية والأرمن، وكل من وصلت قدرته، إلى عمارة أن يعمر ما شاء في القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها، فأخذ الناس في هدم المساكن ونحوها بمصر، وعمروا بها القاهرة»[٣].

كانت آثار هذه الأزمة شديدة على السكان، فعانوا الأمرَّين في معيشتهم، فبلغ «سعر رغيف الخبز خمسة عشر ديناراً، وبيع الأردب من القمح بثمانين ديناراً، ولم تعد للأموال أهمية في سبيل الحصول على الطعام. وباعت نساء الأسر الغنية

---

(١) إغاثة الأمة: ص ٢٢ ـ ٢٣. خطط: جـ ٢ ص ١٩٥.

(٢) إغاثة الامة: ص ٢٤. خطط: ص ١٤١، ١٥٧ ـ ١٦٢.

(٣) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٢١٠.

حللهن، وأُكلت الكلاب والقطط حتى قلَّت الكلاب، فبيع الكلب بخمسة دنانير، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً»[1]. وكانوا يتساقطون في الطرقات من الجوع، وقد فقدت مصر في هذه الأزمة أكثر من ثلث سكانها،[2]، وبلغ من شدتها أن المستنصر اضطر إلى أن يبيع كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح، وصار يجلس في قصره على حصير، ويركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلين ليس لهم دواب يركبونها. وأرسل والدته وبناته إلى بغداد، وقيل إلى بلاد الشام، كما هاجر بعض سكان مصر، وتشتتوا في البلاد[3].

صراع طوائف الجند

اعتمد الفاطميون، خلال مراحل تاريخهم، على عدد من العناصر المختلفة في الجيش بهدف الحؤول دون طغيان عنصر معيَّن، ولإفساح المجال أمام هذه العناصر للتفاني في خدمتهم. والحقيقة أن الدولة الفاطمية استمدت قوتها، في بداية حياتها السياسية، من ولاء البربر، وكانوا قبائل متعددة، وعُرفوا بالمغاربة، أشهرهم كتامة وزويلة، وقد سكنوا في أحياء خاصة أشبه بالمدن.

وقرَّب المعز قبيلة كتامة على حساب القبائل الأخرى، لأن الدولة في شمال إفريقية قامت على أكتافهم. وقد نزح أفرادها معه إلى مصر وتبوأ شيوخها مناصب الدولة الكبرى. ولما استقرَّ مُلك الفاطميين في مصر، شرع المعز في تكوين جيش خاص، من أهل البلاد «أولاد الناس» وهم السرائيون، أو من العنصر المملوكي، الذين يجلبون صغاراً، بعد أن أدرك أن المغرب بعامة قد يحاول الانفصال، مما يجعل طاعة المغاربة وإخلاصهم غير موثوق فيه[4]، فأقام لهم ثكنات خاصة في قصره عُرفت بـ «الحجر»، يتدربون فيها على مختلف أنواع القتال، وسماهم صبيان الحجر، أو غلمان الحجر.

مال الفاطميون، بعد ذلك، إلى استخدام عناصر مشرقية من الديلم والأتراك، لتحقيق التوازن في المعادلة العسكرية، وكان هؤلاء يعملون كجند مرتزقة في جيوش المسلمين، وعُرفوا بالمشارقة. ويُعد العزيز أول من أدخل هذا العنصر المشرقي في الجيش الفاطمي، وقرَّب أفراده على حساب المغاربة. وكثر عددهم في عهده، وسكنوا

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة ص ٢٤.
(٢) سيد: ص ١٤٠.
(٣) ابن ظافر: ص ٧٥. ابن ميسر: ص ٣٨. المقريزي: إغاثة الأمة ص ٢٥. اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ٣٠٧.
(٤) ناصر خسرو: ص ٥٢. ماجد: ص ٣٠٨.

في حارات نُسبت إليهم، كحارة الديلم، وحارة الأتراك[1]، مما أوجد تحاسداً بين العنصرين المشرقي والمغربي، وقد أشرنا إلى نتائج هذا التنازع في عهده.

واستخدم الفاطميون العبيد السود في جيوشهم، ومصدرهم بلاد النوبة، وهم على نوعين: الزنوج الذين كان يسلمهم ملك النوبة إلى ولاة مصر بموجب معاهدة البقط التي عُقدت في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان بين العرب والنوبيين، وعبيد الشرى أي المشترون.

ازداد عدد العبيد السود في عهد الحاكم الذي استعان بهم مع المشارقة لمواجهة المغاربة، واشتد نفوذهم، وخشيهم، مما جعلهم عرضة لهجمات هؤلاء، كما ارتفع عددهم في عهد المستنصر بشكل هائل، بفعل أن أمه كانت سودانية، فبلغوا حوالي خمسين ألفاً، نصفهم من الزنوج والنصف الآخر من عبيد الشرى[2].

واستخدم الفاطميون، البدو الذين هاجروا إلى مصر، وشكّلوا طلائع الجيش الفاطمي وقت الحرب، وهم قبائل عديدة نذكر منها قبيلة بني قُرَّة، وبلغ عدد أفراد البدو في عهد المستنصر خمسين ألفاً[3].

استفحل النزاع بين طوائف الجند في عهد المستنصر، بشكل واضح، ويعود ذلك إلى سوء سياسة الوزراء الذين تعاقبوا على منصب الوزارة بسرعة مذهلة[4]، وكان المستنصر لا يشارك الوزير المسؤولية، وإنما تركها في يد أمه التي تحكَّمت في الوزراء وتغييرهم.

ونذكر من مظاهر الصراع بين الطوائف أن الدولة حافظت على سياسة التسامح مع أهل الذمة، فارتفع شأن اليهود، واعتلوا المناصب الإدارية الرفيعة وتحكَّموا بالحياة الاقتصادية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، ذلك أن أخوين برزا في عهد الحاكم عمل أحدهما في التجارة، والآخر في الصيرفة، وبَيْع ما يحمله التجار من العراق، هما أبو سعد إبراهيم، وأبو نصر هارون، ابنا سهل التُسْتَري. واستخدم الظاهر أبا سعد إبراهيم في ابتياع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتعة، وتقدمت حظوته عنده، فأهداه جارية سوداء كانت في بيته، فتحظَّى بها الظاهر وأولدها ابنه المستنصر[5]. وبعد

---

(١) المقريزي: خطط جـ ٣ ص ١٦ ـ ٢٠. (٢) أبو شجاع: ص ٢٥٥.

(٣) ناصر خسرو: ص ٥٣.

(٤) انظر فيما يتعلق بتعاقب الوزراء على الحكم: ابن الصيرفي ص ٨٢ ـ ٩٤. ويُذكر بأن أحد الوزراء، وهو محمد بن أبي حامد، مكث في منصب الوزارة يوماً واحداً. المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٥) ابن ميسر: ص ٢ ـ ٤. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٩٣.

وفاة الظاهر، تقرَّب أبو سعد إبراهيم التُستَري من المستنصر، وارتفع شأنه عنده، لكنه لم يتمكَّن من مجابهة نفوذ الوزير الجرجرائي. وبعد وفاة الأخير قرَّبته السيدة أم المستنصر، وعيَّنته متولي ديوانها الخاص، فازداد نفوذه، وانبسطت كلمته، مما أدَّى إلى حقد الوزير أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي عليه لأنه «لم يبقَ للوزير الفلاحي معه أمر ولا نهي سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ»[١].

وحتى يحافظ على نفوذه في السلطة، أقدم أبو سعد إبراهيم التُستَري على:

- إحاطة نفسه بطائفة من الموظفين اليهود من بني جنسه، فقرَّبهم وعيَّنهم في الكثير من المناصب الهامة، مما جعل المسلمين في مصر يُظهرون استياءهم، وتقلَّبت مشاعرهم عليهم، وكثر عداؤهم لهم.
- استمال الجند المغاربة إلى جانبه ليتقوَّى بهم، فزاد من أعطياتهم وأنقص أرزاق الأتراك، مما أدَّى إلى نشوب القتال بين الفريقين أكثر من مرة[٢].

استغل الوزير صدقة الفلاحي الأوضاع القلقة للإيقاع بخصمه، فتقرَّب من الأتراك ليجابه قوته، فزاد في أرزاقهم، وحرَّضهم على قتل أبي سعد إبراهيم التُستَري، فكمن له بعض الجنود الأتراك وقتلوه في (٣ جمادى الأولى ٤٣٩هـ/ ٢٦ تشرين الأول ١٠٤٧م)[٣]. وبلغ كره المسلمين لأبي سعد إبراهيم التُستَري، أن المستنصر عندما أراد القبض على قاتليه، أقرَّت طوائف الجند أنهم قتلوه جميعاً، فلم يتمكَّن المستنصر من معاقبتهم، وأغضى عن ذلك[٤].

لكن المستنصر استمر في العطف على اليهود. فبعد مقتل أبي سعد إبراهيم التُستَري أسند إلى أخيه، أبي نصر هارون، ديوانه الخاص، كما عيَّن ابناً لأبي سعد في أحد الدواوين. ومن جهتها، فقد غضبت أم المستنصر على صدقة الفلاحي لتآمره على قتل أبي سعد إبراهيم التُستَري ولانفراده في الحكم دونها ولم ترضَ بما فعله الأتراك، ولا بتصرف ولدها عندما صرف نظره عن القضية، فتآمرت على صدقة الفلاحي، فعزله المستنصر وأمر بقتله في (٥ محرم ٤٤٠هـ/ ٢٠ حزيران ١٠٤٨م)[٥].

وتحكَّمت والدة المستنصر بالشؤون العامة، وحتى تقوِّي موقفها، وتدعم سلطتها شرعت في شراء العبيد السود من بني جنسها، واستكثرت منهم، وجعلتهم

---

(١) ابن ميسر: المصدر نفسه ص ٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ناصر خسرو: ص ١٠٨ ـ ١٠٩. المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ١٩٥.
(٥) ابن الصيرفي: ص ٧١ ـ ٧٢. ابن ميسر: ص ٤.

بطانتها وخاصتها. وازدادت كراهيتها للأتراك، وعملت على ضربهم بالعبيد السود بحيث أصبح في قلب كل أمة إحن[١]. كانت هذه السياسة فاتحة الصراع الداخلي بين طوائف الجند الذي استمر طيلة عهد المستنصر، وأدَّى إلى بروز دور العسكر، وتراجع نفوذ المدنيين.

اشتعلت الفتنة بين الأتراك والسودان في الوقت الذي خرج فيه عرب البحيرة من بني قُرَّة والطَّلْيحيين، على طاعة المستنصر. ونشبت بين الطرفين معارك عنيفة لعل أهمها ما وقع في عام (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) فاختلت الأوضاع الداخلية. ولم تنجح مساعي الوزير أبي الفرج البابلي في التقريب بينهما بسبب تشدد موقف والدة المستنصر[٢].

وساند الجند المغاربة، الأتراك في موقفهم، وصراعهم، مما أدَّى إلى ازدياد اشتعال الموقف. وطارد الأتراك السودان، وتتبعوهم حتى فرَّقوهم في الصعيد حيث استقر خمسة عشر ألفاً منهم هناك، فراحوا يعبثون بالأمن، ويشنون الغارات على القاهرة في محاولة للاستيلاء عليها وطرد الأتراك منها[٣].

أدَّى انتصار العنصر التركي إلى سيطرة الأتراك على أجهزة الحكم، وبرز قائدهم ناصر الدولة الحسن بن حمدان التغلبي، الذي اتصف بالطموح السياسي والنزعات السلطوية، والراجح أنه كان يسعى لتقويض الدولة الفاطمية التي قضت على مُلك بني حمدان في شمال بلاد الشام، فأساء معاملة المستنصر، وطالبه بزيادة مرتبات جنوده، وضغط عليه حتى استجاب له، وذلك في عام (٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)، فارتفعت من ثماني وعشرين ألف دينار شهرياً إلى أربعمائة ألفاً[٤].

وعلى الرغم من ذلك، لم يقنع الأتراك بالمرتبات التي خُصِّصت لهم، وألحُّوا في زيادتها، لكن الخزينة عجزت عن تلبية طلباتهم لقلَّة إيرادات الدولة، فنهبوا القاهرة واستولوا على ذخائر المستنصر، وما كان بالقصر والتربة المعزية من كنوز، وقيَّموها على أنفسهم بأبخس الأثمان، حتى لم يبقَ للمستنصر شيء[٥]. ووصلت حالة التردي به إلى درجة دفعت ابنة أبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي إلى أن تُرسل إليه رغيفين يومياً «على ما هو مشهور ذائع»[٦].

---

(١) ابن ميسر: ص ٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ٦.
(٣) المصدر نفسه. ناصر خسرو: ص ٩٤ ـ ٩٥. النويري: جـ ٢٨ ص ٢٢٦.
(٤) ابن ميسر: المصدر نفسه: ص ١٧. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٧٥. النويري: المصدر نفسه ص ٢٢٧.
(٥) ابن ميسر: ص ١٧.
(٦) ابن ظافر: ص ٧٤.

وواصل ناصر الدولة الحسن بن حمدان سياسته في محاربة العبيد السود، فقاد حملة عسكرية إلى الصعيد، واشتبك معهم في عدة معارك، قضى فيها على كثير منهم[1]. ولم يكد يفرغ من إضعاف قوتهم، حتى أظهر نواياه السياسية، ففكَّر في خلع المستنصر، وإعلان الخطبة لأحد الأشراف، وشعر بأن لديه من القوة ما حمله على التخلُّص من زعماء الأتراك حتى لا ينافسوه على السلطة. فتنبَّه هؤلاء، وخشوا ضياع نفوذهم وأموالهم، ورفعوا ظلامتهم إلى الوزير خطير الملك محمد بن حسن اليازوري، ولما تحقَّق من صدق قولهم، لامهم على انضمامهم إليه، وحثَّهم على الخروج عليه، ثم توجهوا إلى المستنصر، وأظهروا استياءهم أمامه، وطلبوا منه أن يخرجه من البلاد فاستدعاه المستنصر، وأمره بالرحيل عن مصر وهدَّده إن امتنع عن ذلك. فسار إلى الجيزة، ثم عاد بعد قليل إلى دار القائد الكردي تاج الملوك شاذي في القاهرة، فقدَّم له الطاعة، وطلب منه بأن يساعده على التخلص من الوزير خطير الملك، وإيلدكز الملقب بأسد الدولة، وهو أحد الأمراء الأتراك، وذلك لاعتقاده بأنهما السبب في دفع الأتراك على مناهضته، واضطهاد المستنصر له، فوعده بالمساندة، وما لبث أن تمكَّن من قتل الوزير، بينما احتمى إيلدكز بقصر المستنصر، وأخذ يحرِّضه على قتاله، فصادف ذلك قبولاً منه. فجهَّز جيشاً من الجنود الأتراك وخرج على رأسهم، واصطدم بناصر الدولة وهزمه فمضى في نفر من أصحابه إلى الدلتا حيث انضم إليه بعض الأعراب[2]، فاعتمد عليهم بدلاً من الأتراك، فأطلق زعماءهم من السجون، أمثال حازم وحميد ابني الجراح، وأحاط نفسه بشخصيات عربية مثل أمير العرب ابن كيغلغ، والأعز بن سنان، كما اعتمد على طائفة الأكراد التي كانت في الجيش الفاطمي، وانضمت إليه القبيلة البربرية لواتة.

وعلى الرغم من الانتصار الذي حقَّقه المستنصر بفضل مساعدة بعض الجند الذين استمروا على ولائهم له، إلا أن سلطته لم تعد تتعدَّى حدود عاصمته. إذ في الوقت الذي كان فيه الجند السودان يثيرون الاضطرابات في الوجه القبلي، كان نحو أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب، تحت زعامة ناصر الدولة، يغيرون على الوجه البحري، ينهبون القرى، ويحطمون الجسور والقنوات، مما ترتَّب عليه انقطاع المؤن والإمدادات عن القاهرة والفسطاط[3]. وملك ناصر الدولة الإسكندرية والريف،

(١) سرور: الدولة الفاطمية في مصر ص ١٠٣. (٢) ابن ميسر: ص ١٨ ـ ١٩.

(٣) سرور: ص ١٠٤.

وأحاط بدمياط، واستولى عليها، فعظم أمره، وجبى الخراج من كل تلك البلاد.

أدرك الجند الأتراك فداحة ما حلَّ بهم وبالمستنصر من الشدائد بسبب ضغط ناصر الدولة، والضائقة الاقتصادية، فقرروا التفاهم معه على أن يظل مقيماً في البحيرة، ويُحمل إليه مبلغ مقرر من المال، ويكون تاج الملوك شاذي نائباً عنه في القاهرة، فرضي بذلك، وأرسل الغلال إلى القاهرة مما أدَّى إلى توفر القوت الضروري للسكان[١].

على أن تاج الملوك شاذي، مالبث أن استبدَّ بالشؤون العامة في القاهرة، فنقض الصلح مع ناصر الدولة، وخفَّض ما كان يُرسل إليه، فاستاء هذا الأخير، وزحف بجموعه من العربان إلى الجزيرة، فقبض على تاج الملوك وأطلق العنان لجنده فنهبوا الفسطاط وأشعلوا النيران فيها، ولم يتمكَّن المستنصر من صدِّه، وضعف عن مقاومته، وخشي من أن يأخذه ناصر الدولة ويسلمه إلى عدوه الخليفة العباسي، فراسله بشأن إحلال الصلح، فاشترط ناصر الدولة أن يُبعد إيلدكز ومن يعاديه، وأن ينفرد هو بحكم البلاد[٢].

ولما دخل ناصر الدولة إلى القاهرة، قبض على الأتراك وسجنهم وأسر تاج الملوك، وانضم إليه بعض المشارقة، ثم تفاهم بعد ذلك مع إيلدكز وتزوج بابنته[٣]، وكان يحكم هو وإيلدكز والوزير ابن أبي كبشة.

وأثناء توليه مقاليد الأمور عمل ناصر الدولة على إضعاف الدولة الفاطمية من خلال التدابير التالية:

١ ـ فبحكم مناهضته للمستنصر والفاطميين، أرسل في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) رسالة إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان في العراق يطلب منه المجيء إلى مصر ليزيل الحكم الفاطمي، ويقيم الدعوة للعباسيين، على أن تؤول إليه السيادة في مصر، ويحكمها نائباً عنه. رحَّب ألب أرسلان بهذه الدعوة، غير أن بُعد المسافة بينه وبين مصر، من جهة، وخضوع أرمينية والأقسام الشمالية لبلاد الشام، للبيزنطيين، مما يهدِّد الدولة السلجوقية، من جهة ثانية، حالا دون الاستجابة الفعلية، وفضَّل تحقيق خططه في بلاد الشام ومحاربة البيزنطيين[٤].

٢ ـ عمل على إضعاف نفوذ والدة المستنصر، فصادر أموالها وممتلكاتها، فتراجع نفوذها، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة.

---

(١) ابن ميسر: ص ٢١.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢١.

(٤) ابن ميسر: ص ١٩ ـ ٢٠.

٣ ـ ضايق المستنصر وأولاده، فتفرقوا بين المغرب وبلادالشام. فسار ابنه عبد الله إلى عكا، وأبو القاسم محمد إلى عسقلان، ونزار، وهو الأكبر، إلى دمياط. وخصَّ المستنصر براتب شهري قدره مائة دينار(١).

٤ ـ حذف اسم المستنصر من الخطبة في الوجه البحري في عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م)، وأرسل إلى الخليفة العباسي القائم في بغداد يلتمس الخلع، وأظهر ميلاً إلى أهل السنَّة(٢).

خشي الأتراك على أنفسهم من استبداد ناصر الدولة، وإقامته الدعوة للعباسيين، ومحاولته القضاء على الدولة الفاطمية، فقرَّروا التخلص منه. فذهبت جماعة منهم إلى داره في منازل العز(٣)، الواقعة على النيل، وانقضوا عليه بسيوفهم وقتلوه، وذلك في (شهر رجب عام ٤٦٥هـ/ شهر أذار عام ١٠٧٣م)، وتتبَّعوا كل أفراد أسرة بني حمدان بمصر وتخلصوا منهم(٤).

ويبدو أن الفوضى والاضطرابات التي اجتاحت مصر، لم تنته بمقتل ناصر الدولة، إذ سرعان ما ازداد نفوذ إيلدكز، واستبدَّ بالأمور دون المستنصر، وغالى في التضيق عليه. وعمل إيلدكز على سدِّ منافذ القاهرة ومحاصرة المستنصر بها، مما أدَّى إلى انعدام الأمن، وكثرة النهب، وقطع الطرقات، فضاق المستنصر ذرعاً واضطر إلى استدعاء بدر بن عبد الله، والي عكا، الأرميني الأصل، ليتولى تدبير الشؤون العامة، وإصلاح ما فسد في مصر وذلك في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م). والجدير بالذكر أن بدراً كان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار، أحد ولاة طرابلس الشام، فاشتهر بالجمالي.

والواضح أنه لم يكن أمام المستنصر لإنقاذ البلاد من الأزمات المتتالية سوى الاستعانة بقوة خارجية، قادرة على فرض النظام والأمن، وحماية الدولة، وإنهاء حالة الفوضى؛ بعد أن فَقَد كل سيطرة على البلاد، وتقلَّص نفوذه حتى انحصر داخل القصر، في حين تقاسمت فرق الجند أقاليم الدولة. فاستولى اللواتيون على البحيرة والإسكندرية، واستقر العبيد السود في الصعيد، في حين تحكَّم الأتراك والملحية في القاهرة والفسطاط(٥).

---

(١) ابن ميسر: ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) منازل العز: دار أنشأتها تغريد أم العزيز، تشرف على النيل، اتخذها الأئمة الفاطميون منتزهاً وسكنها ناصر الدولة بن حمدان إلى أن قُتل.

(٤) ابن ميسر: ص ٢٥. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٣٧، ٢٤٣.

(٥) ابن ميسر: ص ٢٤. ابن ظافر: ص ٧٤.

استدعاء بدر الجمالي إلى القاهرة

كانت قوة بدر الجمالي آنذاك آخذة في التصاعد، فعقد المستنصر آماله عليه. فراسله سراً عن طريق الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي، متولي ديوان الإنشاء، يطلب منه القدوم لإنقاذ البلاد. رحَّب والي عكا بهذه الدعوة التي تُحقِّق له طموحه السياسي، وكتب إلى المستنصر يشترط عليه أن يُحضر معه من يختاره من جنده الأرمن ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودان، الموجودين في مصر، فوافق المستنصر على شرطه[١].

أبحر بدر الجمالي من عكا على متن مائة سفينة مشحونة بالأرمن، ونزل في تنيس، وقيل في دمياط، وتغلَّب على المقاومة اللواتية التي صادفته وقتل مقدمهم سليمان اللواتي، وأباد هذه القبيلة من أعمال الريف وصادر أموالها، كما قضى على طائفة الملحية. ثم قصد قليوب، وأرسل منها رسالة إلى المستنصر يقول له «لا أدخل القاهرة ما لم يُقبض على إيلدكز التركي»، فقبض عليه المستنصر، وأرسل وفداً لاستقباله عندما دخل القاهرة في (٢٧ جمادى الأولى ٤٦٦هـ/ ٢٨ كانون الثاني ١٠٧٤م)، ثم استقبله المستنصر في القصر، فأكرم وفادته، وأطلق يده في إصلاح حال البلاد[٢]، كما رحَّب به الجند الأتراك وهم لا يعلمون شيئاً عن نواياه نحوهم.

إصلاحات بدر الجمالي

أحاط ببدر الجمالي جنده من الأرمن الذين عُرفوا بالمشارقة تمييزاً لهم عن الأتراك والبربر والسودان، وقد تفانوا في الإخلاص له، واحتفظ أكثرهم بديانتهم النصرانية، وآثروا البقاء في مصر لتعذر حصولهم على مقومات الحياة في موطنهم الأول.

استقر بدر الجمالي في حارة برجوان، وعمل على تحقيق الأمن والهدوء في العاصمة، وإعادة ما نُهب من كنوز القصور الفاطمية[٣]. واستهل أعماله بالتخلص من القادة الأتراك الذين عدَّهم مسؤولين عن الفتنة، فدبَّر لهم مذبحة كبرى. وقدَّم جنده من الأرمن حتى أضحى هؤلاء يشكلون عصب الجيش الفاطمي، وتلاشت قوة الكتاميين، وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها.

---

(١) ابن ميسر: المصدر نفسه: ص ٢٢. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٢٤٢.

(٢) ابن الصيرفي: ص ٩٥ ـ ٩٦. ابن ميسر: المصدر نفسه ص ٢٢ ـ ٢٣. المقريزي: المصدر نفسه.

(٣) ابن الصيرفي: ص ٩٥ ـ ٩٦.

رحَّب المستنصر بإجراءاته وقلَّده وزارة السيف والقلم ومنحه لقب «السيد الأجل أمير الجيوش»، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر، وزاد له الحنك مع الذؤابة، وجعل له الطيلسان المقوَّر[١]، ليصبح بذلك أول وزراء التفويض في الدولة الفاطمية[٢].

وبعد أن ثبَّت أقدامه في الحكم، استغل منصبه وصلاحياته، فحجر على المستنصر حتى لم يبقَ له معه أمر، إلا القيام برسوم الدولة والركوب في العيدين[٣]. وتحكَّم في مصر تحكُّم الملوك، وحقَّق الأمن في القاهرة والمناطق مثل الوجه البحري والإسكندرية حيث قاتل اللواتيين، واستردَّ ما كان تحت أيديهم من الأعمال كما استردَّ دمياط، وقاتل قبائل جهينة وقيس وفلول السودان في الصعيد، وهزم كنز الدولة محمداً، الحاكم في أقصى الصعيد، وقتله، وأعاد نفوذ الدولة على كافة بلاد الوجه القبلي حتى أسوان[٤].

في ظل تلك الأجواء، قام الأوحد بن بدر الجمالي بثورة على حكم والده في عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م)، واستقلَّ بالوجه البحري والإسكندرية، والتفَّ حوله بعض الأعراب لكن والده لم يمهله، فقبض عليه، وقتل جماعة من أتباعه، وصادر أموال كثير من أهالي الإسكندرية لأنهم ساندوا ثورة ابنه[٥].

التفت بدر الجمالي، بعد ذلك، إلى إصلاح الشؤون الاقتصادية فرفع بعض الأعباء المالية عن كاهل الفلاح، وأطلق الخراج للمزارعين، ثلاثة أعوام، فانتعشت أوضاع الفلاحين، واستغنوا في أيامه، وانتظمت الزراعة ونشطت التجارة وزاد خراج مصر من مليوني دينار إلى ثلاثة ملايين ومائة ألف دينار[٦].

واهتم بالناحية العمرانية، فأعاد بناء سور القاهرة الذي بناه جوهر الصقلي، وكان قد تهدم، وحصَّنه، وبنى ثلاثة أبواب هامة تُعدُّ من أروع آثار الفاطميين الباقية إلى الآن. فقد بنى باب الفتوح، وباب النصر، وباب زويلة الكبير، ولدينا نقوش تتضمن اسم المستنصر وبدر الجمالي وتاريخ البناء في عام (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)[٧].

ونظراً لحاجة التوسع، سمح الوزير بدر الجمالي للناس والجند بنقل حجارة

---

(١) ابن ميسر: ص ٢٣. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٢٤٢.

(٢) سيد: ص ١٤٥.

(٣) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٤.

(٤) ابن الصيرفي: ص ٩٦. المقريزي: جـ ٢ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٥) ابن ميسر: ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٦) المصدر نفسه: ص ٣٠. المقريزي: جـ ٢ ص ٢٤٣.

(٧) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

القطائع والعسكر للبناء في القاهرة. وبُنيت في أيامه جوامع عديدة منها جامع العطارين بالإسكندرية في عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م)[١]، وبنى مشهداً في القاهرة في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) على قمة جبل المقطم يُعرف بالجيوشي، وبنى مشهداً لرأس الحسين في عسقلان، بعد أن عثر عليه، وحبس عليه الأحباس، ورمَّم العديد من الجوامع، وزاد في جامع الحاكم، وجدَّد باب جامع ابن طولون، وأمر بعمارة ضريح السيدة نفيسة الذي انتهى العمل من بنائه في عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) أي بعد وفاته.

وأبدى اهتماماً خاصاً بالإصلاح الإداري، فحدَّد عواصم الولايات التي تتحكَّم في مصر العليا والسفلى لتأمين الطرق المؤدية إلى العاصمة، وقسَّم مصر إلى أربع ولايات هي: قوص والشرقية والغربية والإسكندرية، بالإضافة إلى القاهرة والفسطاط، ومنح حكامها سلطات واسعة، ويُفسَّر ذلك، بداية اهتمام الفاطميين بطرق التجارة الشرقية ورغبتهم في نشر دعوتهم على طول الطرق التجارية المؤدية إلى اليمن وعُمان والهند، وحرصهم على تأمين ميناء عيذاب، القاعدة البحرية التي أخذت في النمو منذ أن اتبعوا سياسة مشرقية جديدة، وتولى حاكم قوص أمر الإشراف على الأسطول المعد لحماية مراكب الكارم[٢] من غارات القراصنة. أما والي الشرقية، الذي يحكم بلبيس وقليوب وأشموم، فقد تولى مواجهة السلاجقة الذين انتزعوا معظم مدن بلاد الشام الداخلية من الفاطميين منذ عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)[٣].

وأعاد تنظيم الجيش الفاطمي، فزاد من استخدام جنود الحجرية المصريين الذين أُهملوا بسبب صراع طوائف الجند المختلفة، وتلاشى في المقابل، أمر المغاربة والمشارقة، وصاروا من جملة الرعية، بعدما كانت لهم السيطرة على مقدرات الدولة. ويبدو أنه لم يقضِ على طائفة الجند السودان التي استمر استخدامها حتى آخر عهد الدولة، وأوجد عنصراً جديداً في الجيش الفاطمي هو العنصر الأرميني، وإن بقي كجيش خاص، عرف بالجيوشية نسبة إلى لقبه أمير الجيوش، وخُصِّصت لأفراده حارة، أي معسكر، هي حارة الحسينية التي كانت للسودان، كما استقدم لهم بطريركاً يرعى شؤونهم، وخُصِّصت لهم إحدى الكنائس[٤].

التفت بعد ذلك إلى إصلاح أوضاع المذهب الإسماعيلي الذي ضعف بسبب تراجع نفوذ الأئمة، مما جعل الناس لا يحفلون بشعائره، فأعاد الأذان الشيعي بحي

(١) المقريزي: خطط جـ ٢: ص ٢٤٣.
(٢) الكارم. هي التجارة البحرية.
(٣) سيد: ص ١٥١.
(٤) المقريزي: خطط جـ ٣ ص ٤١.

على خير العمل، ودعا إلى التكبير على الجنائز، ونظَّم دروساً في المذهب، وفي المقابل، فقد ضايق أهل السنَّة، وقتل كثيراً من علمائهم، وأمر بنقش لعن الصحابة[1].

ونظَّم أحوال القبط، فحدَّد الجزية على الجميع بدينار وثلث أو ربع، لكن استمر تمييز القبط بلبس زنانير سوداء، في الوقت الذي كان فيه على علاقة طيبة بهذه الطائفة وبطريركها، فكان يستقبله بنفسه، ويطلب من الأساقفة السماع له، ويمنع الوشاية بينهم.

وحفظ المستنصر له فضله على الدولة بحيث لم يخلُ سجل من السجلات التي كان يرسلها لدعاته إلى اليمن، والمكتوبة بعد عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م)، من التنويه والإشادة بفضله على الدولة[2].

وانتهز فرصة استبداده بالسلطة، وتحكُّمه بالمستنصر، لتأمين الحكم لورثته، فاستناب ابنه الأفضل وجعله ولي عهده في (جمادى الأولى ٤٧٧هـ/ أيلول ١٠٨٤م)، وحصل على موافقة المستنصر على ذلك، وجرى احتفال ضخم بهذه المناسبة، وأمر المستنصر بأن يُدعى له على المنابر[3].

أصيب الوزير بدر الجمالي، في أواخر أيامه، بالفالج، وعجز عن مباشرة مهامه مما دفع المستنصر إلى نقل صلاحياته إلى ابنه الأفضل[4]، تحت ضغط الجيش، وقُرىء سجل توليته في الإيوان بالقصر في (العشر الأواخر من ربيع الأول ٤٨٧هـ/ آذار ١٠٩٤م)، وتلقَّب بالألقاب نفسها كأبيه فعرف بـ «السيد الأجلّ الأفضل أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين[5]. وتوفي بدر الجمالي في شهر ربيع الآخر وقيل جمادى الأولى[6].

وفاة المستنصر

ظل المستنصر في عهد الوزير بدر الجمالي كالمحجور عليه إلى أن توفي ليلة الخميس (١٨ ذي الحجة ٤٨٧هـ/ ٢٩ كانون الأول ١٠٩٤م)[7].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١٢٠.

(٢) انظر على سبيل المثال السجل الرقم ١٥، في كتاب السجلات المستنصرية ص ٦٣ ـ ٦٤.

(٣) ابن ميسر: ص ٢٧.

(٤) ابن الصيرفي: ص ٩٧.

(٥) ابن الصيرفي: ص ٩٧ ـ ١٠٣. السجلات المستنصرية: سجل رقم ٣٥ ص ١٠٩ ـ ١١١٨، وسجل رقم ٤٣ ص ١٤٥ ـ ١٥٢.

(٦) ابن ميسر: ص ٣٠ وقارن. بابن الأثير: جـ٨ ص ٣٨٢، الذي يذكر أن الوفاة حصلت في شهر ذي القعدة.

(٧) ابن ميسر: ص ٣١. ابن الأثير: ص ٣٨٣. ابن ظافر: ص ٧٧.

العلاقات الخارجية

العلاقة مع الخلافة العباسية

السلاجقة: أصلهم ـ قيام دولتهم في خراسان وفارس

يتداخل تاريخ السلاجقة مع تاريخ الفاطميين في العراق وبلاد الشام، لذلك لا بد لنا من أن نتعرَّف على تاريخ العشيرة السلجوقية، وما فتحه السلاجقة من بلاد حتى وصلوا إلى العراق.

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغزية، التركية، وينتسبون إلى جد هو سلجوق بن دقاق[١]. وكانت منازلهم في الصحراء الواسعة والسهوب الممتدة من الصين حتى شواطىء بحر الخزر (قزوين)[٢]. اعتنقوا المذهب الإسلامي السنِّي، بفعل مجاورتهم للسامانيين والخانيين والغزنويين السنَّة، ونصروه بغيرة وحماس.

نزح السلاجقة من موطنهم الأصلي إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان في عام (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) بسبب الظروف الاقتصادية السيئة في هذه المناطق الصحراوية، أو بسبب الحروب التي كانت تدور بين القبائل المختلفة عادة، فاصطدموا بالغزنويين الذين كانوا يسيطرون على المنطقة، وطردوهم منها بعد سلسلة من الاصطدامات.

وأسس طغرلبك، حفيد سلجوق بن دقاق، الذي آلت إليه زعامة السلاجقة، دولة في خراسان في عام (٤٣١هـ/ ١٠٤٠م) على أثر انتصاره على السلطان مسعود الغزنوي في معركة دندانقان[٣]، واعترف الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ـ ١٠٧٥م) به سلطاناً في العام التالي[٤].

وواصل السلاجقة سياستهم التوسعية في فارس، ضمن دائرة اعتراف الخلافة العباسية، بهدف القضاء على قوة البويهيين المتحكمين في مقدرات الخلافة العباسية تمهيداً لمد نفوذهم إلى العراق، فاستولوا على الري[٥] في عام (٤٣٢هـ/ ١٠٤١م)[٦]، ودخلوا جرجان وطبرستان في العام التالي[٧]، وأصفهان في عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) واتخذها السلطان طغرلبك عاصمة له[٨]، ثم ضمَّ، بعد أربعة أعوام، إقليم أذربيجان[٩].

---

(١) الحسيني، صدر الدين بن علي: أخبار الدولة السلجوقية ص ٢ ـ ٣.

(٢) فامبري، أرمينيوس: تاريخ بخارى ص ١٢٧.

(٣) تقع داندقان بين سرخس ومرو.

(٤) الراوندي، أبو بكر محمد بن علي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٥) تقع الري بالقرب من طهران.

(٦) الحسيني: ص ١٠.

(٧) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٥.

(٨) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٩) المصدر نفسه: ص ١١٦.

وهكذا قامت دولة السلاجقة العظام في خراسان وفارس، وأضحت جيوشهم على أهبة الاستعداد لدخول العراق.

المواجهة المسلحة بين الفاطميين والخلافة العباسية ـ حركة البساسيري

حين شارف السلاجقة العظام على العراق، كان الوضع الداخلي في بغداد مزعزعاً تشوبه حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، مما ساعد على تمهيد الطريق أمامهم لدخولها وضمِّ العراق إلى دولتهم التي أسسوها في خراسان وفارس، وذلك بفعل الخلافات الأسرية داخل البيت البويهي، بالإضافة إلى ثورات الجند.

ففي عام (٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م) ظهر التنافس واضحاً بين جلال الدولة البويهي وبين ابن أخيه أبي كاليجار، كما ثار الجند على حكمه، فنهبوا داره ودواوينه وكتبه، وذلك في عام (٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م)، وغدت بغداد مسرحاً للشغب والمنازعات الأسرية والمذهبية، ولم تتمكَّن الخلافة من تهدئة الوضع نظراً لضعفها الظاهر[(١)].

توفي جلال الدولة في عام (٤٣٥هـ/ ١٠٤٤م)، وخلفه ابنه أبو منصور فيروز الذي لقَّبه الخليفة بالملك العزيز، إلا أنه لم يتمكَّن من الصمود أمام أبي كاليجار الذي نجح في دخول بغداد بعد أن استقطب كبار القادة البويهيين، وبعد أن ثبَّت أقدامه في الحكم أُقيمت له الخطبة في عام (٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م)[(٢)].

ظل أبو كاليجار، بعد أن تولى الحكم في العراق، يتطلع إلى فارس للاستيلاء عليها، فقضى على الثورات في أصفهان وكرمان، لكنه جوبه بقوة السلاجقة النامية، فاضطر للتفاهم مع السلطان طغرلبك الذي كان قد استولى على خراسان والري، فعقد صلحاً معه في عام (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م). وتوثَّقت عرى المودة بينهما بالمصاهرة، حيث تزوج طغرلبك، ابنة أبي كاليجار، في حين تزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار، ابنة الملك داوود أخي طغرلبك[(٣)].

وعلى الرغم من هذا التقارب، ظل أبو كاليجار يخشى من التمدد السلجوقي باتجاه العراق، ومن احتمال دعوة الخليفة للسلاجقة لدخول بغداد مما يشكل تهديداً لسلطته، فتقرَّب من الفاطميين ليتخذهم وسيلة ضد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

كانت الدعوة الفاطمية آنذاك، قد صادفت تأييداً عند ديالمة فارس على يد

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٥٨ ـ ٧٥٩، ٧٦٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤١ ـ ٤٣، ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٠.

الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، الذي قام بدور بارز في نشر الدعوة للمستنصر في فارس والعراق، وتمكَّن من استمالة الملك أبي كاليجار إلى هذه الدعوة، وقد ذكر هذا الداعي كيف كان يجتمع به ليلقِّنه أصول الدعوة[١].

استاء الخليفة العباسي القائم من ازدياد نشاط الداعي الفاطمي، ورأى في ذلك خطراً يهدِّد دولته ومذهبه السنِّي في فارس والعراق، فطلب من أبي كاليجار أن يقبض عليه ويسلِّمه إياه، وهدَّده بالاستعانة بالسلاجقة، وأنه سيدعوهم للاستيلاء على ما يسيطر عليه من أقاليم[٢].

لم يحفل أبو كاليجار، في بادىء الأمر، بهذا التهديد، ثم حمله على محمل الجدِّ، فأرسل رسالة إلى الداعي الفاطمي حذَّره فيها من عاقبة بقائه في شيراز، كما أرسل إليه وفداً من كبار رجال دولته ليعبِّروا له عن أسفه للصعاب التي ستواجهه إذا رحل عن البلاد، وقدَّموا إليه كتاب الخليفة الذي تضمَّن التهديد بالاستعانة بطغرلبك والطعن في نسب الفاطميين.

استمر الداعي على ولائه للفاطميين على الرغم من تهديد الخليفة العباسي بالقضاء على جهوده، واضطر أبو كاليجار إلى الانصراف عن تأييد دعوته، فرحل من شيراز إلى مصر في عام (٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م)، واجتمع بالمستنصر في القاهرة[٣].

ولا شك بأن هذا الداعي يُعدُّ من أخلص دعاة الفاطميين المشرقيين، حيث نجح في تحويل كثير من أهالي البلاد المشرقية إلى المذهب الفاطمي، مما أدَّى إلى ازدياد ضعف النفوذ العباسي في بلاد المشرق بعامة[٤]، وأثار غضب الخليفة العباسي، ودفعه إلى محاربته.

والواقع أن الخليفة القائم كان يواجه آنذاك عدة صعوبات أعاقته عن استعادة نفوذه، فضلاً عن انتشار الدعوة الفاطمية في بعض بلاده، لعل أهمها:

- استمرار النفوذ البويهي في العراق، على الرغم من تنازع أمرائهم. فبعد وفاة الملك أبي كاليجار في عام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، خلفه ابنه أبو نصر خسرو فيروز، وكان ينوب عنه في بغداد، فطلب من الخليفة العباسي القائم بأن يذكر اسمه في الخطبة، ويلقِّبه بالملك الرحيم. استجاب الخليفة إلى الشق الأول من

---

(١) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص ٢٠ ـ ٢٤، ٣٤ ـ ٤٢، ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٦٩ ـ ٧٩.

(٣) مذكرات داعي الدعاة: ص ١٠٢، ١١٤ ـ ١١٥.

(٤) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٨٣.

طلبه ورفض الشق الثاني لأنه لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى[١].

استقر حكم أبو نصر خسرو فيروز في العراق وخوزستان والبصرة، لكن نافسه بعض إخوته، وأضحت مدن فارس والعراق مراكز لهذا النزاع الأسري[٢].

- تجدُّد ثورات الجند من العرب والديلم والأتراك، وكان العنصر التركي أقوى هذه العناصر نفوذاً، فتدخلوا في عزل الأمراء البويهيين وتوليتهم، كما قاموا بفتنة في بغداد في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) بسبب تذمرهم من وزير الملك أبي كاليجار الذي ماطلهم في رد الأموال المتبقية لهم، فحاصروا دار الخلافة، وخشي الناس على أموالهم، فأخفوها. وبلغت ذروة الفوضى في بغداد حين نهب الأتراك دار الروم الوافدين إلى المدينة، مما أدَّى إلى ندرة الأقوات، وارتفاع الأسعار. وحاول الخليفة عبثاً تهدئتهم، وظلوا مصدر قلق واضطراب حتى بعد أن أعاد إليهم الملك البويهي أبو نصر خسرو فيروز ما تبقَّى لهم من الأموال[٣].
- بروز أبي الحارث أرسلان البساسيري كأحد القادة الأتراك الأقوياء، وكان قد ساعد الملك البويهي في انتزاع البصرة في عام (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) من يد أخيه أبي علي بن أبي كاليجار، وتصدَّى للأكراد والأعراب الذين عاثوا فساداً في بعض مدن العراق وقطعوا الطرق، وامتنع عن مساعدة الأتراك حين أحدثوا فتنة في بغداد في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) واستاء من حركتهم[٤]. وازداد نفوذه في العراق حين عيَّنه الخليفة العباسي القائم رئيساً للأتراك، وقلَّده الأمور بأسرها، وما لبث أن استبد بالسلطة في بغداد، وسيطر عليها وعلى ما جاورها، وتمتَّع بنفوذ كبير لدرجة أنه أضحى يُخطب له على منابر العراق والأهواز ونواحيها، وأشرف على بيت المال[٥]، ولم يعد بإمكان أي من الخليفة العباسي والملك البويهي اتخاذ قرار يتعلق بأمور الدولة إلا بعد موافقته. أثار ازدياد نفوذ البساسيري الحقد في نفس الوزير أبي القاسم علي الملقب برئيس الرؤساء، فأخذ يدس بينه وبين الخليفة والأمراء.

على أن البساسيري ما لبث أن واجه عدة صعوبات نتيجة ما قام به أبو المعالي

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٩ ـ ٧٠. ذكر أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي أن الخليفة القائم استجاب لطلبه. النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٧١.

(٣) المصدر نفسه: ص ١١٥ ـ ١١٦. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١١٦.

(٥) ابن خلكان: جـ ١ ص ١٩٢.

قريش بن بدران، أمير الموصل، من حصار الأنبار والاستيلاء عليها، وكانت تابعة له، وإقامته الخطبة للسلطان طغرلبك السلجوقي، فاستاء من ذلك، وغضب حين علم بوصول رسولين من قِبَل أبي المعالي إلى بغداد حيث استقبلهما الخليفة بالترحاب، فعدَّ هذا الموقف من الخليفة تحدياً له، وقرر أن يقبض عليهما لكنه لم يتمكَّن من ذلك، فاتهم رئيس الرؤساء بأنه يقف حائلاً دون تحقيق رغباته، فتبدلت عندئذٍ علاقته بالخليفة. ومن جهته لم يفتأ رئيس الرؤساء في العمل على إضعاف شأنه، فاتهمه بأنه كان السبب في إنقاص رواتب الأتراك، وأثارهم ضده، فهاجم هؤلاء دوره، واستولوا على جميع أملاكه في بغداد.

- تقرُّب بني بويه من الفاطميين على يد الداعي هبة الله الشيرازي، وميل عدد غير قليل من جندهم من الديلم والأتراك إلى دعوتهم، بل إن البساسيري نفسه تأثر بهذه الدعوة، وانحاز إلى جانب الفاطميين، وراسل المستنصر بمصر بعد أن ساءت علاقته بالخليفة القائم الذي اتهمه بأنه يعمل على خلعه، وأرسل إلى الملك الرحيم البويهي رسالة يقول فيها «إن البساسيري خلع الطاعة، وكاتب الأعداء، وأن الخليفة له على الملك عهوداً، وله على الخليفة مثلها، فإن آثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده، وأصعد إلى بغداد، وتولى الديوان تدبير أمره»[(١)]. فأعرب الملك الرحيم عن استعداده لإجابة طلب الخليفة. ولما علم البساسيري بأمر هذه الرسالة رحل إلى الحلة[(٢)]، ونزل ضيفاً على أميرها دُبيس بن مزيد لمصاهرة كانت بينهما، ثم اضطر إلى مغادرتها إلى الرحبة[(٣)]، بعد أن دخل السلطان طغرلبك بغداد في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)[(٤)].

والواقع أنَّ تلك الصعاب التي واجهها الخليفة القائم، لم تكن خافية عن السلاجقة الذين ازداد نفوذهم في الأقاليم الشرقية، فانتهزوا هذه الفرصة للتمدد نحو الغرب وبسط سيادتهم على العراق.

في هذا الجو المضطرب، أخذ كل طرف يسعى لمصلحته. أما الخليفة الذي فَقَدَ ثقته بمن حوله، فقد رأى أن مصلحته تقضي عليه الاتصال بالقوة الجديدة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٢٥.

(٢) تُعرف بحلة بني مزيد وتقع ين الكوفة وبغداد. الحموي: جـ ٢ ص ٢٩٤.

(٣) هي رحبة مالك بن طوق، تقع بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل من قرقيسياء. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٣٤.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٢٦.

النامية، وبخاصة أنها كانت تدين بالمذهب السنِّي، وتحترم الخلافة، وتدين لها بالولاء، فاستنجد بالسلطان السلجوقي طغرلبك طالباً مساعدته ضد البساسيري[(١)].

انتهز السلطان هذه الفرصة، وأظهر أنه يريد الحج، وإصلاح طريق مكة، كما أعرب عن رغبته في المسير إلى بلاد الشام ومصر للقضاء على الدولة الفاطمية، وأرسل، في الوقت نفسه، رسالة إلى الخليفة القائم يعلن فيها عن طاعته وتأييده، ويستأذنه في دخول بغداد وهو في طريقه إلى مكة، فأذن له، وأمر الخطباء بإقامة الخطبة له على منابرها وذلك في (أواخر رمضان/ كانون الأول)[(٢)].

ولما دخل طغرلبك بغداد، أظهر العامة تذمرهم، وقتلوا عدداً من جنده، فاستاء من ذلك، واتهم الملك الرحيم البويهي وأتباعه، فقبض عليهم، وأرسل الملك الرحيم إلى قلعة السِّيروان على مقربة من الري، حيث ظل معتقلاً بها ثلاثة أعوام ثم توفي، واستولى على إقطاعات عسكره، مما دفع أكثر هؤلاء إلى الخروج من بغداد، وانضموا إلى البساسيري، فكثر بهم عدد أنصاره[(٣)].

وخرج البساسيري على طاعة الخليفة العباسي، وانحاز إلى الفاطميين، وظل يوالي الاتصال بهم، ويوطد علاقاته معهم؛ فأرسل إلى المستنصر يعلن له دخوله في طاعته، فوعده بالمساعدة، كما تبادل الرسائل مع الداعي هبة الله الشيرازي الذي كان آنذاك في القاهرة[(٤)].

كانت أجواء القاهرة مليئة بالمؤامرات بين أصحاب النفوذ، فانتهز الوزير أبو محمد الحسن اليازوري هذه الفرصة لإبعاد الداعي عن مصر، لاستئثاره بنفوذ كبير عند المستنصر، فرأى أن يكون سفيره إلى البساسيري يحمل إليه الأموال والأسلحة. رفض الداعي الشيرازي، في بادىء الأمر، هذه المهمة، بعد أن أدرك حيلة اليازوري، ثم قَبِل بعد إلحاح منه، إلا أنه اشترط على المستنصر عدم توجيه اللوم إليه إذا فشل في أداء المهمة[(٥)]. ويبدو أنه هاله ضخامة المهمة، وهي القضاء على الخلافة العباسية، في ظل ضعف إمكانات الدولة الفاطمية.

سار الداعي المؤيد هبة الله الشيرازي مع فئة قليلة من الرجال تحمل الأموال والسلاح والخلع، متوجهاً إلى الرحبة لمقابلة البساسيري وتقديم ما يحمله إليه،

---

(١) الحسيني: ص ١٨.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص ١٢٥ ـ ١٢٦. العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ ـ ١٠.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٤) مذكرات داعي الدعاة: ص ١٥٨ ـ ١٦٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ١١٩ ـ ١٢٥.

ويساعده في ثورته، وكان الوزير اليازوري قد طلب منه استمالة أمراء العرب في العراق وبلاد الشام، وتجنيد ثلاثة آلاف جندي من العرب الكلبيين بالشام، وحذَّره من الاتصال بثمال بن نصر بن صالح المرداسي صاحب حلب. وتجلَّى إخلاصه للفاطميين فيما قام به من جهود لنجاح مهمته، ومؤازرة حركة البساسيري الموجهة ضد الخلافة العباسية والسلاجقة[1]، ورأى أن نجاح حركته يتطلب إما القضاء على قوة السلاجقة أو تشتيت جيوشهم في معارك جانبية، لذلك راح يستميل أمراء العرب الذين تربطهم صلة بالسلاجقة. فأجرى اتصالاً مع ثمال بن صالح المرداسي، وبعد شيء من التمهل، وافق أمير حلب على استقباله في إمارته، وقابله قرب بلدة الرستن على نهر العاصي، وصحبه من هناك إلى حلب، وأبدى استعداده للاعتراف بحكم الفاطميين، وجدَّد البيعة للمستنصر[2].

وفي الوقت الذي أخذ فيه يتأهب للمسير إلى الرحبة حيث يقيم البساسيري، ورد إليه كتاب من نصر الدولة أحمد بن مروان، صاحب ميافارقين وديار بكر، يخبره بانحيازه إليه. رحَّب الداعي بموقفه وطلب منه إقامة الخطبة للمستنصر على منابر بلاده، ثم واصل رحلته وبصحبته كمال بن صالح المرداسي. وعندما علم البساسيري بمسيره، خرج لاستقباله، ورحَّب بوصوله، واطمأن باستجابة المستنصر لطلبه. وما لبث الجميع أن عبَّروا عن ولائهم له، ووزع الداعي الشيرازي الخلع على البساسيري وجنده[3].

وتنفيذاً لسياسة استقطاب الأمراء العرب، وتكوين جبهة قوية مؤيدة، رأى الداعي المؤيد هبة الله الشيرازي أن يستميل نور الدولة دبيس بن مزيد صاحب الحلة، وأقنعه بمعاونة البساسيري، وقرأ عليه عهد المستنصر بتلقيبه «الأمير سلطان ملوك العرب سيف الخلافة صفي أمير المؤمنين»، وقلَّده زعامة عرب العراق، ومنحه حكم ما يفتح من البلاد شرقي نهر الفرات[4].

سار البساسيري على رأس الجيش الذي أعدَّه، ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد، باتجاه الموصل، وانضمت إليه قوة عسكرية قدمت من دمشق قوامها الكلبيون، فتصدَّى له قريش بن بدران صاحب الموصل، وقُتُلُمُش ابن عم السلطان

---

(١) مذكرات داعي الدعاة: ص ١١٩ ـ ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٣٦ ـ ١٣٧، ١٤٠ ـ ١٤١. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٢ ـ ١٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٦٠ ـ ١٦٥.

طغرلبك عند سنجار في شهر (شوال ٤٤٨هـ/ كانون الثاني ١٠٥٧م). ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية، دارت الدائرة فيها على قريش بن بدران وقُتْلُمُش. وجُرح الأول في المعركة، ولجأ إلى نور الدولة دُبيس بن مزيد حيث انحاز إلى جانب البساسيري، وسار بصحبته إلى الموصل، وأقام الخطبة فيها للمستنصر الفاطمي[١].

بعد هذا النجاح السياسي والعسكري، رأى الداعي المؤيد هبة الله الشيرازي، استقطاب كبار قادة السلاجقة في بغداد لصرفهم عن تأييد العباسيين، فأرسل كتاباً إلى عميد الملك الكندري وزير طغرلبك قلَّل فيه من شأن الخليفة العباسي، ونوَّه بعلو شأن المستنصر الفاطمي وبسيادته على الأراضي المقدسة في الحجاز، وبما لديه من الأموال والأسلحة[٢]، غير أن هذه الوسيلة لم تؤدِ إلى الغاية المنشودة، ذلك أن عميد الملك الكندري كان يعمل آنذاك على مواجهة المخطط الفاطمي، فاتبع سياسة قائمة على تفريق شمل الأمراء العرب، وإغرائهم ببعض الولايات حتى ينفضّوا عن البساسيري. وفعلاً، أتت هذه السياسة أُكُلها، وأدَّت إلى عدول هؤلاء عن مساندة حركة البساسيري الذي اضطر للعودة إلى الرحبة بعد انفضاض نور الدولة دبيس بن مزيد، وقريش بن بدران عنه[٣].

ومن جهته، حاول الداعي المؤيد هبة الله الشيرازي مواجهة سياسية عميد الملك الكندري، وظل حريصاً على التودد للأمراء العرب في العراق على الرغم من تردُّدهم في نصرة البساسيري. فأرسل إلى الأميرين المذكورين مبدياً الرغبة في الإبقاء على مودتهم، ثم غادر الرحبة إلى حلب ولحق به البساسيري، ونزل في بالس على مقربة منها، وبصحبته قريش بن بدران ونخبة من وجوه بني عقيل. ولم يقدم لنا الداعي المؤيد سبباً لهذا التحرك سوى أنه كان قد طلب من نصر الدولة أحمد بن مروان، حاكم ميافارقين، منحه مأوى في بلاده، لكنه عندما لم يتسلم منه أي رد، فَقَدَ صبره وتحرك نحو حلب[٤].

إن قراءة متأنية لهذه الرواية تبين لنا أن الداعي المؤيد هبة الله الشيرازي كان يحاول تجنُّب ذكر الحقيقة. فقد كان هدف البساسيري بغداد، وكانت الرحبة أفضل

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٣٩ ـ ١٤٠.
(٢) مذكرات داعي الدعاة: ص ١٩٥ ـ ١٩٨.
(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٤٢ ـ ١٤٣. سرور: ص ١٩٥.
(٤) مذكرات داعي الدعاة: ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

قاعدة له للنجاح في مهمته حيث لم تكن بعيدة عن عاصمة الخلافة، وقريبة من بادية الشام، للالتجاء إليها عند الحاجة، بالإضافة إلى وجود عدد كبير من القبائل البدوية القاطنة في وادي الفرات، هي على استعداد لتقديم المرتزقة من المقاتلين، وكان ذهاب المؤيد والبساسيري إلى الدولة المروانية لطلب العون وليس الحماية[١].

في غمرة هذه الانتصارات، التي حقَّقها السلطان طغرلبك، قام البساسيري بعدة حركات ارتدادية عسكرية وسياسية، من مقره في الرحبة، بهدف إخراج السلاجقة من بغداد والسيطرة عليها.

فعلى الصعيد العسكري، نجح في الاستيلاء على الموصل، بعد أن هزم السلاجقة في سنجار وأخذ يستعد لدخول بغداد.

وعلى الصعيد السياسي، انتهز فرصة خروج السلطان طغرلبك من بغداد لإخماد ثورة أخيه إبراهيم ينال، لدخول المدينة والسيطرة عليها. ذلك أن السلطان طغرلبك واجه آنذاك مشكلة جديدة تمثَّلت بما قام به أخوه إبراهيم ينال من تمرد، فاستولى على بلاد الجبل وهمذان، وامتد سلطانه إلى حلوان، فضلاً عن ولاية الموصل، وما والاها من الأعمال[٢].

استغل الداعي المؤيد هبة الله الشيرازي هذا الخلاف السجلوقي وعمل على استقطاب إبراهيم ينال، وجرى تبادل الرسائل بين الرجلين طلب فيها الأمير السلجوقي الخِلَع والألقاب والأموال من المستنصر الفاطمي، حتى إذا ما تغلَّب على أخيه السلطان طغرلبك وخلفه في زعامة السلاجقة، خطب للمستنصر، وتعهد له الداعي المؤيد بتلبية طلباته، وشجعه على أخيه، وأنه سيكون عوناً له[٣]. فغادر إبراهيم ينال الموصل إلى بلاد الجبل في عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، وأعلن العصيان على أخيه، وترك فيها حامية عسكرية قليلة العدد. وغادر الداعي المؤيد حلب، في هذه الأثناء، متوجهاً إلى مصر بعد أن اطمأن على نجاح جهوده، وحرَّض كلاً من البساسيري وقريش بن بدران على انتزاع الموصل من السلاجقة، وشجعهما على مواصلة جهودهما في نشر نفوذ الفاطميين في مدن العراق، وفعلاً استولى البساسيري على الموصل، كما أشرنا.

---

(١) زكار: ص ١٢٢.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٢.
(٣) مذكرات داعي الدعاة: ص ٢١٧ ـ ٢١٩.

أدرك السلطان طغرلبك مدى الخطر الذي يهدِّد سلطانه نتيجة خروج أخيه، وانحيازه إلى جانب الفاطميين، فقرَّر القضاء على ثورته، ومن ثَمَّ العودة إلى الغرب لاجتياح بلاد الشام، ومواصلة الزحف إلى مصر، وخرج من بغداد من أجل هذه الغاية.

وزحف البساسيري على بغداد على رأس قوة عسكرية تُقدَّر بأربعمائة فارس، حاملاً الرايات المستنصرية وقد كتب عليها «الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين»، كما سار معه قريش بن بدران العقيلي في مائتي فارس[١]، وتمكَّنا من دخول المدينة في (٨ ذي القعدة ٤٥٠هـ/ ٢٧ كانون الأول ١٠٥٨م) دون مقاومة تُذكر. واضطر الخليفة العباسي القائم إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأجابه إلى طلبه، وأرسله إلى حُديثة عانة. وكان البساسيري يرغب في إرساله إلى مصر[٢]، وأرغمه قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حقَّ لبني العباس، ولا له، في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء، ثم بعث بهذا العهد إلى القاهرة[٣]. كما أرسل ثوب الخليفة وعمامته وشبّاكه الذي كان يجلس فيه، مع الهدايا والتحف، وقد أثار وصولها إلى القاهرة موجة عارمة من الفرح، وأعدَّ المستنصر القصر الذي بناه العزيز، وهو القصر الغربي الصغير، ليكون مقراً للخليفة القائم إذا ما تحقَّق أمله في القبض عليه[٤].

وفي يوم الجمعة (١٣ ذي القعدة ٤٥١هـ/ الأول من كانون الثاني ١٠٥٩م) دعا البساسيري للمستنصر الفاطمي في جامع المنصور ببغداد، وقطع الخطبة للعباسيين، وزيد في الأذان عبارة «حي على خير العمل»، ثم أُقيمت الخطبة للفاطميين في جميع مساجد بغداد. وكان أول من أيَّده، ودعا للمستنصر، أهل الكرخ[٥].

ثم حدث أن اصطدم السلطان طغرلبك بأخيه إبراهيم ينال بالقرب من الري في (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م)، بعد أن جاءته الإمدادات من الشرق بقيادة ابن أخيه ألب أرسلان، فتغلَّب عليه وقتله، ثم زحف نحو العراق لإعادة الأمور إلى نصابها. فطلب

---

(١) مذكرات داعي الدعاة: ص ٢٢١ ـ ٢٢٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ١٩٠ ـ ١٩٥.
(٣) ظل هذا العهد محفوظاً في القصر الفاطمي حتى استولى صلاح الدين الأيوبي على محتوياته في عام ٥٦٧ هـ، فأرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء في بغداد، على أثر وفاة العاضد آخر الحكام الفاطميين في مصر.
(٤) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٩٥.
(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٤.

من البساسيري وقريش بن بدران، إعادة الخطبة للخليفة القائم مقابل عدم دخوله المدينة، وأنه يقنع بذكر اسمه في الخطبة والسكة بعد الخليفة، فرفض البساسيري إجابة طلبه، كما أن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيي الدين مهارش العقيلي، صاحب الحديثة، ليحول دون عودة الخليفة إلى بغداد، ورأى أن تحقيق هذه الغاية قد يؤدي إلى عدول السلطان طغرلبك عن دخول العراق[١].

الواقع أن نجاح الدعوة الفاطمية،في بغداد في عام (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) لا يدل على أية قوة حقيقية كانت للفاطميين بعدما ضعفوا وتقلّصت ممتلكاتهم، وأثّرت عليهم الأزمات الاقتصادية المتتالية؛ بقدر دلالته على الدسائس والمكائد السياسية في دار الخلافة[٢].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها البساسيري في خدمة الدولة الفاطمية، ونشر النفوذ الفاطمي في بغداد، فإنه لم يتلقَّ من المستنصر ما يشجعه على مواصلة القيام ببسط سلطانه على العراق. ويبدو أن المستنصر لم يكن يملك القوة الكافية لإمداده حتى يحتفظ بما وصل إليه نفوذه، كما يبدو أن ثقته في هذا الرجل لم تكن كبيرة، والراجح أن حقد الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي عليه، كان وراء ذلك. وكان هذا الوزير قد رحل إلى بغداد وانضم إلى البساسيري، وما لبث أن انقلب عليه، وفرَّ إلى مصر حيث أخذ يحذِّر المستنصر من عاقبة أطماعه[٣]، فتخوَّف المستنصر منه وأهمل طلباته، ولم يقم بعمل جدِّي لنجدته، وتركه يواجه الموقف منفرداً أمام قوة السلطان السلجوقي. وعلى الرغم من ذلك، حرص البساسيري على إخلاصه للمستنصر، فتابع غاراته في بلاد العراق، واستولى على واسط والبصرة، وأقام الخطبة فيهما للفاطميين[٤]، إلا أنه لم يتمكَّن من مواجهة الجيش السلجوقي، لذلك خرج من بغداد مع جنده، وقصد الكوفة، وذلك في اليوم (السادس من ذي القعدة عام ٤٥١هـ/ ١٤ كانون الأول ١٠٥٩م)[٥].

وعلَّق ابن تغري بردي على موقف المستنصر من البساسيري، بعد خروجه من بغداد، بقوله «ولولا تخوف المستنصر من البساسيري، وترك تحريضه على ما هو بصدده، لكانت دعوته تتم بالعراق زمناً طويلاً»[٦].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٧ ـ ١٥٨.
(٢) سيد: ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٣) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١١.
(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٧.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٥٨.
(٦) النجوم الزاهرة: جـ ٥ ص ١١.

أعاد الأمير محيي الدين مهارش العقيلي الخليفة العباسي القائم إلى بغداد، فاستقبله طغرلبك عند وصوله إلى النهراوان، وبالغ في الاحتفاء به، وأبدى اغتباطه بعودته، واعتذر له عن تأخره في نجدته لانشغاله في إخماد ثورة أخيه، وأبدى نيته في المضي خلف البساسيري والمسير إلى الشام، ثم إلى مصر ليعامل المستنصر معاملة تتلاءم مع أفعاله[1]. وأعيدت الدعوة للعباسيين في بغداد بعد انقطاع دام سنة.

ولم يكد الخليفة يستقر في بغداد حتى عهد السلطان طغرلبك إلى القائد خمارتكين الطغرائي بالمسير على رأس ألفي فارس إلى الكوفة حيث يقيم البساسيري، وضمَّ إليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخفاجي، وسار بنفسه في إثرهم. ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية، عند الكوفة في (١٥ ذي الحجة ٤٥١هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١٠٦٠م) أسفرت عن انتصار السلاجقة، ومقتل البساسيري[2]. وبذلك تمكَّن السلطان طغرلبك من القضاء على حركة البساسيري التي أقضَّت مضاجع الخلافة العباسية.

أدرك السلاجقة مدى الخطر الذي يتهدَّدهم نتيجة انتشار النفوذ الفاطمي، لذلك وجَّهوا جهودهم، بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد، إلى مناهضته وحقَّقوا الكثير من النجاح، كما سنرى.

العلاقة مع المرداسيين في حلب

استعاد الفاطميون، بعد معركة الأقحوانة، نفوذهم في شمال بلاد الشام، إلا أن هذا النفوذ لم يكن مستقراً، وبخاصة في حلب، فقد تجلَّت طموحات المرداسيين في ولايتها، وتمكَّن نصر بن صالح المرداسي من الاستيلاء عليها في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، ولم يزل نصر يحكم حلب إلى أن تولى المستنصر مقاليد الأمور في مصر[3].

في هذه الأثناء، كان الطرفان الفاطمي والبيزنطي قد توصلا إلى تفاهم، وعقدا اتفاقية سلام لمدة عشرة أعوام، وكانت حلب خارج إطار المباحثات بسبب التنازع عليها. ويبدو أن هذه المعاهدة قد أثَّرت على وضع نصر بن صالح، وأجبرته على الارتماء في أحضان الفاطميين، إذ أنه لم يعد بإمكانه الاعتماد على مساعدة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٠ ـ ١٦١. البنداري: ص ١٨. الراوندي: ص ١٠٩.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٠٤.

الأمبراطور البيزنطي وحمايته، واستمرت تطلعات الفاطميين للسيطرة على حلب، مما تسبَّب في حدوث خلاف بينه وبين المستنصر، وربما لم يكن هذا الأخير راضياً عن مواقف نصر تجاه الأمبراطورية البيزنطية، ولعله ارتأى أن عليه التوقف عن الولاء لها ودفع الجزية للأمبراطور البيزنطي. ويبدو أن المستنصر حاول فرض جزية على نصر بن صالح، أو إلزامه على الاعتراف بسيادته عليه[١]. وتشير بعض المصادر إلى أن نصراً تلقَّى نصيحة من الأمبراطور البيزنطي. بالتفاهم مع المستنصر، وفعلاً حظي بثقته ونال منه تفويضاً بولاية حمص. والواضح أن هذا التفويض جاء على حساب أنوشتكين الدزبري والي دمشق، وكانت حمص تابعة له، فاستاء مما حدث وعدَّه عملاً موجهاً ضده، وبات الصدام بينهما شبه مؤكد[٢].

ويبدو أن المستنصر أقدم على هذه الخطوة بتأثير وزيره الجرجرائي بهدف الحد من طموحات أنوشتكين الدزبري، وميوله الاستقلالية التي بدأت تبرز مع تثبيت أقدامه في دمشق، وسيمنح هذا الصدام الفرصة للمستنصر للتدخل وفرض شروطه. وتتحدث المصادر عن نشوب خلاف حاد بين نصر بن صالح وأنوشتكين الدزبري قاتل أبيه، بتأثير جعفر بن كليد الكتامي، الوالي الفاطمي على مدينة حمص، الذي تأثَّر بفقدان الحكم على منطقة حمص لصالح نصر بن صالح وحذَّر الدزبري من طموحاته[٣].

وشرع أنوشتكين الدزبري في افتعال الاضطرابات داخل حلب، وهيأ الجو للصدام المرتقب، واستعد كل طرف للحرب، وحتى يضمن عدم تدخل الأمبراطورية البيزنطية، طلب أنوشتكين الدزبري، من الأمبراطور البيزنطي السماح له بانتزاع حلب من نصر بن صالح مقابل دفع الجزية نفسها التي يدفعها له هذا الأخير، وقد منحه الأمبراطور الإذن[٤].

وبعد أن هيَّأ أنوشتكين الدزبري ظروف الانتصار، زحف شمالاً باتجاه حلب. وعندما سمع نصر بن صالح بأنباء الزحف، جمع قواته واتجه جنوباً. وحدث اللقاء الأول إلى الغرب من سلمية، فتراجع نصر بن صالح غرباً تحت ضغط القتال، لإعادة تنظيم صفوف قواته، فاستغل أنوشتكين الدزبري هذا التراجع ودخل مدينة حماة ونهبها، ثم زحف باتجاه نصر بن صالح حيث حدث اللقاء الثاني في (١٥

---

(١) زكار: ص ٩٩.
(٢) العظيمي: ص ١٦٩.
(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٢١٣.
(٤) المصدر نفسه.

شعبان ٤٢٩هـ/ ٢٣ أيار ١٠٣٨م) بالقرب من لطمين إلى الشمال الغربي من حماة في مكان يُعرف باسم تل فاس. وأثناء احتدام القتال، فرَّ ثمال، أخو نصر بن صالح، من أرض المعركة مع أتباعه، تاركاً أخاه يواجه ضغط القتال منفرداً، وليقاتل بشكل غير متكافىء، مما أثَّر على نتيجة المعركة، وقُتل نصر بن صالح أثناء القتال[١].

ويبدو أن ثمالاً بن صالح، استغل دخول أخيه في معركة، ليستعيد حكمه في حلب، غير أنه لم يتمكَّن من الصمود أمام قوات أنوشتيكن الدزبري التي دخلت إلى المدينة في (٤ رمضان/ ١٠ حزيران)، وتلقى هذا الأخير سجلاً من القاهرة بتقليده حلب بالإضافة إلى دمشق، وعادت حلب من جديد لتخضع للحكم الفاطمي. وللمرة الأولى توحَّدت بلاد الشام بأكملها تحت حكم والٍ فاطمي واحد اتخذ من دمشق مقراً له[٢]. ويلاحظ أن أنوشتكين الدزبري لم يتمكَّن من الاستيلاء على القسم الجزري من إمارة حلب، الذي ظل تحت حكم ثمال بن صالح المرداسي، واتخذ من الرقة مقراً له حتى يكون قريباً من حلب[٣].

لم يمكث أنوشتكين الدزبري طويلاً في حلب، بل غادر المدينة في الشهر الثالث من استيلائه عليها وعاد إلى دمشق، وعيَّن غلاميه فاتك وسبكتكين واليين للقلعة، كما عيَّن غلاماً آخر والياً على المدينة هو رضي الدولة بنجوتكين[٤]. ثم حدث أن اتُّهم بأنه ينوي الاستقلال ببلاد الشام، وما تعرَّض له من مؤامرات من جانب الوزير الجرجرائي في القاهرة، في ظل صراع على النفوذ، جعله يغادر دمشق إلى حلب. وصدرت في القاهرة آنذاك، عدة سجلات باسم المستنصر تعلن أنه خائن، وقد تأثر بهذه الاتهامات، كما عانى من الإنهاك الجسدي، ونتيجة لذلك توفي في (١٥ جمادى الأولى ٤٣٣هـ/ ١٠ كانون الثاني ١٠٤٢م)، في قلعة حلب[٥].

اضطربت أوضاع حلب، بعد وفاة أنوشتكين الدزبري. ولما علم ثمال بن صالح بذلك، عاد إليها وتسلم الحكم في (٢٨ جمادي الآخرة ٤٣٣هـ/ ٢٢ شباط ١٠٤٢م)، واعترف المستنصر بحكمه في عام (٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م)[٦]، ويبدو أنه ساءه خروج حلب من يده مرة أخرى، وخشي انضمام ثمال بن صالح إلى البيزنطيين مما

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢١٦ ـ ٢١٧. زكار: ص ١٠٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٢١٧.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢١٩. ابن القلانسي: ص ١٢١ ـ ١٢٦.

(٦) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

يشكل تهديداً لنفوذه في بلاد الشام. ومن جهته، أدرك ثمال بن صالح أن القاهرة سوف تبدل موقفها منه، وستسعى إلى استعادة النفوذ الفاطمي في حلب، وستتخذ إجراءات ضده. وحتى يضمن وقوف قوة كبرى إلى جانبه، أجرى مباحثات مع الأمبراطورة تيودورة (٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م)، وطلب تأييد بيزنطية مقابل اعترافه بسيادتها عليه. قبلت الأمبراطورة عرض ثمال بن صالح، وعدَّته واحداً من أتباع الأمبراطورية طبقاً للشروط نفسها التي طبقت على أخيه نصر بن قبل، ومنحته لقب ماجستير مع جميع مزايا وشروط وصلاحيات هذه الرتبة[١]. واضطر المستنصر لقطع الطريق على تقارب مرداسي - بيزنطي إلى الاعتراف بحكم ثمال بن صالح على شمال بلاد الشام، إلا أنه اشترط عليه أن:

- يرسل جميع الأموال التي تركها أنوشتكين الدزبري في قلعة حلب.
- يدفع سنوياً مبلغ عشرين ألف دينار.

لكن ثمال بن صالح لم يفِ بما تعهَّد به للمستنصر. فقد ترك أنوشتكين الدزبري مبلغ ستمائة ألف دينار، فأرسل منها ثمال بن صالح مائتي ألف إلى القاهرة، كما تأخر عن أداء ما كان مقرراً للفاطميين، مما أغضب المستنصر، وتسبَّب بنشوء الخلاف بين الرجلين. وتفاقم هذا الخلاف بوشاية ولاة الفاطميين في بلاد الشام مما دفع ثمال بن صالح إلى قطع العلاقات مع الفاطميين، وتوقف عن إرسال بقية المبالغ المترتبة عليه، فاضطر المستنصر إلى إرسال جيش إلى حلب بقيادة ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن حمدان، والي دمشق، في عام (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) لإعادة السيطرة الفاطمية على المدينة[٢].

استولى ناصر الدولة الحمداني، أثناء زحفه على حلب، على مدينة حماة ومعرة النعمان، وعندما وصل إلى المدينة صدَّه ثمال بن صالح عنها، فتراجع نحو قرية صلدى القريبة من حلب، والواقعة على نهر قويق، لإعادة تنظيم صفوف قواته، غير أن جيشه تعرَّض لكارثة طبيعية بفعل انهمار المطر بغزارة، وفيضان نهر قويق؛ ففقد معظم تجهيزاته وارتد نحو الجنوب إلى دمشق[٣].

كان ثمال بن صالح يتوقع أن يرسل المستنصر حملة أخرى ضده، فتصرف على محورين:

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤. ابن ميسر: ص ٣.
(٣) المصدر نفسه: ابن الأثير: جـ ٨ ص ٧١.

الأول: حاول توسيع دائرة نفوذه على الأرض، فاستولى على معرة النعمان وحماة، واصطدم بوالي حمص الفاطمي شجاع الدولة بن كليد وقتله[1].

الثاني: حاول التفاهم مع القاهرة، والتوصل إلى نوع من التسوية مع المستنصر.

لكن أخبار توسعه أدت إلى نتائج خطيرة، وكانت مصدر قلق في القاهرة التي كانت مشحونة بأجواء التآمر، فجرى صرف رسول ثمال بن صالح دون جواب.

وجهَّز المستنصر حملة أخرى لإرسالها إلى حلب بلغ عدد أفرادها نحو ثلاثين ألفاً بقيادة رفق الخادم البالغ من العمر ثمانين عاماً. وخرج المستنصر شخصياً إلى خارج القاهرة لتوديعه، وأمر جميع ولاة بلاد الشام الفاطميين بإطاعته واتباع أوامره[2].

وعندما علم ثمال بن صالح بأنباء الحملة، طلب من الأمبراطورة البيزنطية الإيفاء بالتزاماتها، وأرسل في الوقت نفسه ابن عمه مقلد بن كامل مع قوة عسكرية، نحو الجنوب، فاستولت على حمص ودمَّرت تحصيناتها وتحصينات معرة النعمان وحماة، ووفَّرت له أعمال التدمير الإمكانات العسكرية للدفاع عن حلب، إذ لم يعد بحاجة إلى إبقاء حاميات في هذه المدن الثلاث، كما توفرت له الفرصة لاستعادتها بسهولة[3].

استجاب الأمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع، الذي خلف الأمبراطورة ثيودورة (٤٣٤ـ ٤٤٧هـ/ ١٠٤٣ـ ١٠٥٥م)، وأرسل رسولاً إلى القاهرة ليطلب من المستنصر إلغاء الحملة والتفاهم مع ثمال بن صالح، وحمَّله تحذيراً بأن بيزنطية سوف تساند نصراً ابن ثمال إذا رُفض الاقتراح. وقابل الرسول البيزنطي رفقاً الخادم في الرملة، وأخبره بمضمون رسالته، فتوقف عن الزحف بانتظار تعليمات جديدة من القاهرة[4].

وفي القاهرة، احتفظ الوزير الجرجرائي بالرسول، وأخَّر جواب رسالته، وأصدر تعليماته إلى رفق الخادم بمتابعة زحفه إلى حلب، وأمل في أن يُنجز هذا القائد مهمته بسرعة، وعندئذٍ سيواجه السفير البيزنطي بتلك الوقائع. غير أن الأمور لم تجرِ على نحو طيب وفق تخطيط الوزير الفاطمي. فقد عانى الجيش الفاطمي من

---

(١) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥. (٢) ابن ميسر: ص ٣.
(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٢٥. زكار: ص ١١٧. (٤) المرجع نفسه.

صعوبات فنية وعنصرية بفعل طبيعة تركيبه، ووصل منهكاً إلى حلب في (٢٢ ربيع الأول ٤٤١هـ/ ٢٤ آب ١٠٤٩م)، وكان ثمال بن صالح قد أتمَّ استعدادته للدفاع عن المدينة[١].

وعندما علم الأمبراطور البيزنطي بأنباء وصول الجيش الفاطمي إلى حلب، وكان لم يتلقَّ جواباً على رسالته من القاهرة، أمر عامله على أنطاكية، بالخروج مع قواته لمساندة المدينة عند الضرورة، كما أرسل إلى ثمال بن صالح مبلغاً من المال[٢].

ويبدو أن الخلافات قد تفاقمت داخل صفوف الجيش الفاطمي، فانقسمت وحداته على نفسها، فلم تصمد أمام هجمات المرداسيين، وأُصيب رفق الخادم، وأُسر، غير أنه ما لبث أن توفي متأثراً بجروحه[٣].

والواقع أن الدولة الفاطمية، فقدت كثيراً من قوتها في القرن الحادي عشر الميلادي، ولم تمتلك، بعد وفاة أنوشتكين الدزبري، شخصاً له القدرة ليستعيد السيطرة على حلب عن طريق استخدام القوة[٤].

ونتيجة لهذا الفشل سخط المستنصر على وزيره الجرجرائي لأنه سعى، بتدبير منه، لحرب ثمال بن صالح فصرفه عن الوزارة، ونفاه إلى صور، فاعتُقل بها مدة ثم أُطلق[٥].

أدرك ثمال بن صالح أن الحرب ستطول بينه وبين الفاطميين، وأنه سوف يظل هدفاً للمستنصر، لذلك آثر أن يتَّبع سياسة التفاهم مع القاهرة. فاتصل بقاضي صور علي بن عياض العقيلي ليسعى لدى المستنصر بالعفو عنه وقبول طاعته، ثم بادر بإطلاق سراح الأسرى الفاطميين في حلب إظهاراً لحسن نيته، كما أرسل زوجته وولده محملين بالهدايا إلى مصر، فاستقبلهم الوزير الحسن بن علي اليازوري، ونجحا في إقناع المستنصر بالصفح عن ثمال بن صالح، وزاد في ألقابه، وذلك في عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥١م)[٦].

استمر ثمال بن صالح يحكم حلب عدة أعوام، حافظ خلالها على سياسة التوازن بين الفاطميين والبيزنطيين. واستقر أمره، وازدادت مكانته، وتضاعفت ثروته،

---

(١) ابن ميسر: ص ٤. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٢٥. زكار: المرجع نفسه: ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٢) زكار: المرجع نفسه ص ١١٨.
(٣) ابن ميسر: ص ٥.
(٤) زكار: ص ١١٨.
(٥) ابن ميسر: ص ٥.
(٦) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٣.

مما أوغر صدر الوزير اليازوري عليه، فراح يعمل سراً على التخلص منه وإعادة حلب إلى الحظيرة الفاطمية[1].

وفي عام (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) أُجبر ثمال بن صالح على التخلي عن منصبه نتيجة ثورة أبي الحارث أرسلان البساسيري، وبتأثير الوزير اليازوري. وكان لعين الدولة أبي الحسن علي العقيلي، حاكم صور، الدور الأبرز في تسليم حلب للفاطميين وإخراج ثمال بن صالح منها، مستغلاً اضطراب بني كلاب بحلب ونواحيها ومطالبتهم ثمال بن صالح بالأموال والنفقات الطائلة[2].

لكن بدا واضحاً أنه كانت تربط الرجلين علاقات طيبة، وعزَّ على عين الدولة أن يخرج ثمال بن صالح خالي الوفاض، فاتصل بكاتبه الخاص واتفق معه على إقناعه بالتخلي عن حلب مقابل تعويضه عكا وبيروت وجبيل، وأخبرا المستنصر في القاهرة الذي وافق على هذه الصفقة، وأمر مكين الدولة أبا علي الحسن بن ملهم العقيلي، وعين الدولة، وقاضي صور أبا محمد عبد الله بن عياض، بتسلم المدينة فتسلموها في (ذي القعدة ٤٤٨هـ/ كانون الثاني ١٠٥٧م) واستقر الرأي على أن يتقلَّد مكين الدولة الحرب والخراج، وعين الدولة القلعة، أما ثمال بن صالح، فقد ذهب إلى القاهرة، وأقام فيها مكرَّماً[3].

ويبدو أن بني كلاب لم يتقبَّلوا الحكم الفاطمي، وثاروا على الولاة الفاطميين مستغلين مقتل البساسيري، وعينوا عليهم محمود بن نصر بن صالح، ابن أخي ثمال بن صالح، وتمكَّنوا من دخول حلب والسيطرة عليها وذلك في (جمادى الآخرة ٤٥٢هـ/ تموز ١٠٦٠م)، واضطر مكين الدولة إلى الاحتماء بالقلعة، وكتب إلى المستنصر يطلب نجدة عاجلة، فأرسل إليه قوة عسكرية بقيادة ناصر الدولة الحمداني، غير أن بني كلاب وبني خفاجة صدُّوه عن المدينة، فتراجع إلى بعلبك[4]، وفشل الفاطميون في إبعاد بني مرداس عنها.

كان لالتزام الجيش الفاطمي، وخروج مكين الدولة ابن ملهم من حلب، رد فعل أثار حفيظة المستنصر، فقرر صرف ثمال بن صالح عن إقطاعه في عكا وبيروت

---

(١) تدمري، عبد السلام: لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ص ١١٢.

(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣. المقريزي: جـ ٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠. تدمري: المرجع نفسه: ص ١١٣.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٣٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ابن القلانسي: ص ١٥٠ ـ ١٥١.

وجبيل بفعل أن حلب أضحت في يد ابن أخيه، وعليه أن يستعيدها منه، وأعطاه مبلغاً من المال، وخلعة، ولقباً جديداً، ووعده بالمساندة إذا رغب في العودة إلى حلب، وسعى لاستعادتها من يد ابن أخيه[1].

قَبِل ثمال بن صالح عرض المستنصر، فغادر القاهرة عائداً إلى بلاد الشام، ثم قصد حلب، واستعادها من يد ابن أخيه في (٢٩ ربيع الأول عام ٤٥٣هـ/ ٢٢ نيسان ١٠٦١م)، بعد توسط شيوخ القبيلة. إذ أمكن التوصل إلى تسوية بين الطرفين، ونتيجة لذلك وافق محمود بن نصر المرداسي على التخلّي عن حلب لصالح عمه مقابل مبلغ خمسين ألف دينار وثلاثين ألف مكوك من الغلال[2]، غير أن ثمالاً توفي في السنة التالية، وخلفه أخوه عطية، لكن نازعه ابن أخيه محمود بن نصر، وأدَّت الخلافات داخل الأسرة المرداسية، وضغط الفاطميين إلى عجز المرداسيين عن توطيد نفوذهم في حلب، وعجَّلت في زوال حكمهم.

وتعرَّضت حلب، في أواخر القرن الخامس الهجري، لهجوم بعض أمراء العرب. إذ أن شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل، سار إليها وحاصرها في عام (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) واستولى عليها[3]. واشتدت آنذاك قوة السلاجقة بقيادة السلطان ألب أرسلان الذي خلف السلطان طغرلبك في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)، فتطلعوا إلى بلاد الشام لضمها تمهيداً للزحف على مصر للقضاء على الدولة الفاطمية.

الصراع الفاطمي ـ السلجوقي في بلاد الشام

كانت قوة الفاطميين في بلاد الشام مرتبطة بتفوقهم العسكري، فإذا ما تراجعت، نهض الأمراء المحليون ليعملوا على الاستقلال الذاتي، كما فعل بنو الجراح في فلسطين، وبنو مرداس في حلب. وقد حرص الفاطميون على إخضاع هؤلاء الأمراء وتوطيد نفوذهم في بلاد الشام. ولا شك بأن الاضطرابات التي شهدتها هذه البلاد نتيجة الصراع السياسي والعسكري على النفوذ، أتاح للسلاجقة الفرصة ليتطلَّعوا إلى ضمها، ويقضوا على النفوذ الفاطمي فيها.

أخذت قوة السلاجقة تزداد منذ عهد السلطان طغرلبك الذي أسس دولة السلاجقة العظام في فارس وخراسان، ودخل العراق، وعمل على توثيق الروابط بين

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٠٣.

السلاجقة والخلافة العباسية، وبخاصة بعد إخماد حركة البساسيري. ثم وجَّه السلاجقة اهتمامهم إلى استعادة ما فقدته هذه الخلافة من أقاليم. وانتهج السلطان ألب أرسلان، الذي خلف عمَّه السلطان طغرلبك الخط السلجوقي السياسي العام. وقد أثاره احتمال تقارب بين الفاطميين والبيزنطيين، فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطية بالاستيلاء على أرمينية قبل أن يمضي في تحقيق هدفه الأساسي وهو مهاجمة الفاطميين في بلاد الشام، مما أدخله في نزاع مع الأمبراطورية البيزنطية. وحاول الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينس (٤٦٠ـ ٤٦٣هـ/ ١٠٦٨ـ ١٠٧١م) أن يوقف تقدمه بعد أن أدرك أن سلامة الأمبراطورية تقضي باسترداد أرمينية بعد أن استولى عليها السلاجقة.

في هذه الأثناء، كان السلطان ألب أرسلان يجهز حملة عسكرية لطرد الفاطميين من بلاد الشام، وكانت الدولة الفاطمية منهمكة بمشاكلها الداخلية التي تركَّزت حول محاولات ناصر الدولة الحمداني السيطرة على السلطة في القاهرة، فلم تلتفت إلى ما كان يجري في بلاد الشام.

وإذ أدرك محمود بن نصر المرداسي التغييرات التي طرأت على موازين القوى في العالم الإسلامي، أقدم في شهر (شوال ٤٦٢هـ/ تموز ١٠٧٠م) على التوقف عن الاعتراف بالمستنصر الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي القائم، واعترف بسلطة السلاجقة، وأرسل رسولاً إلى بغداد ليخبر سلطاتها بقراره هذا، وكان قد جمع أهل حلب وقال لهم: «لقد ذهبت دولة المصريين، وهذه دولة جديدة، ومملكة سديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلُّون دماءكم لأجل مذهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة خوفاً من أن يجيئنا وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل»(١) وقد لاقت رسالة محمود بن نصر المرداسي الترحيب في بغداد.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الإجراء لم يمر من دون ردات فعل من جانب الشيعة في حلب، الذين قاوموا جميع المحاولات التي بُذلت لإعادتهم إلى مذهب أهل السنَّة. ولما أعلنت حلب ولاءها للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، بدأ نفوذ السلاجقة يزداد في بلاد الشام، مما أثار الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينس، فقام ليوقف التقدم السلجوقي.

ومن جهته، استعد السلطان ألب أرسلان لهذه المواجهة، فسار إلى حلب عن

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٦٥ ـ ١٦٦. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

طريق ديار بكر لضمها حتى يمنع أي محاولة التفاف من جانب البيزنطيين من جهة الجنوب. فعبر نهر الفرات في (١٤ ربيع الآخر ٤٦٣هـ/ ١٩ كانون الثاني ١٠٧١م)، ودخل أراضي الإمارة، ووجه الدعوة إلى محمود بن نصر المرداسي للقدوم إليه، والمثول أمامه، وتقديم فروض الولاء والطاعة، كما فعل أمراء الجزيرة وولاتها. رفض محمود بن نصر إطاعة السلطان، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه معارضة الشيعة، في حلب لتدابيره السابقة، وربما أدرك أنه سوف يفقد استقلاله إذا تجاوب مع مطالب السلطان السلجوقي[(١)].

ومهما يكن من أمر، فقد قرَّر السلطان ألب أرسلان إخضاع حلب بالقوة، إلا أنه فشل في ذلك، فلجأ عندئذٍ إلى الأسلوب السياسي، فاستدعى جميع أمراء بني كلاب ليختار أميراً منهم يعينه على حلب ويفوضه السعي للاستيلاء على المدينة وانتزاعها من يد محمود بن نصر، وعندما علم هذا الأخير بذلك، وكان يخشى من تنافس بني عمه، خضع لأوامر السلطان في (الأول من شعبان/ ٤ أيار)[(٢)].

وبذلك، يكون السلطان ألب أرسلان قد تفرَّغ للاصطدام بالأمبراطور البيزنطي، وحدث اللقاء في ملاذكرد أو مانزيكرت، وأسفر عن هزيمة الأمبراطور ووقوعه في الأسر، وتدمير القوة الميدانية للجيش البيزنطي[(٣)].

انصرف السلطان، بعد ذلك، لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر حيث قضى نحبه في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، وكان قد ترك قسماً من قواته بقيادة أيتكين السليماني، وعهد إليه بالاستيلاء على دمشق والأجزاء الجنوبية من بلاد الشام بالتعاون مع محمود بن نصر.

بعد عدة أيام من مغادرة السلطان ألب أرسلان مدينة حلب، قاد محمود بن نصر وأيتكين السليماني قواتهما باتجاه دمشق وتوقَّفا في بعلبك ليخططا لحملتيهما، وعلم محمود وهو في بعلبك بأن عمه عطية هاجم حلب بالتعاون مع البيزنطيين، فاضطر للعودة إلى إمارته للدفاع عنها[(٤)].

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤.ابن القلانسي: ص ١٦٧ .

(٣) انظر عن معركة مانزيكرت: ابن القلانسي: ص ١٦٧. الراوندي: ص ١٩٠. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

Psellus: pp. 352, 354 - 355. Oman: History of Art of war I. PP. 219 - 220.

(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٦٩.

وتسربت، في غضون ذلك، إلى جنوب بلاد الشام، بعض القبائل الغزية التركمانية ممهدة الطريق أمام السلاجقة، للاستيلاء على هذه المنطقة، وترافق ظهورهم مع رحيل بدر الجمالي، حاكم عكا، إلى القاهرة الذي ارتبط اسمه بنشاطهم.

وتتحدث المصادر عن أتسز بن أوق الخوارزمي كأحد أبرز القادة الأتراك في بلاد الشام، وهو من أتباع السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه، وقد جاء معه إخوته جاوي، ومأمون، وقرلو، وشكلي، فهاجموا دمشق وضايقوا أهلها في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، وقطعوا الميرة عنهم. وفي عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ـ ١٠٩٢م)، الذي خلف أباه ألب أرسلان، إلى أتسز بالاستيلاء على جنوب بلاد الشام، ففتح مدينة الرملة، وحاصر بيت القدس واستولى عليها وطرد الحامية الفاطمية منها واتخذها مركزاً له، وألغى الخطبة للمستنصر الفاطمي وخطب للخليفة العباسي والسلطان السجلوقي،كما استولى على طبرية وأرسل إلى بغداد يخبر بما حقَّقه[1].

وفي عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٤ـ ١٠٧٥م) تمكَّن شكلي بن أوق من الاستيلاء على عكا بعد حصار طويل، وكان بدر الجمالي قد غادرها إلى القاهرة وترك فيها أهله وأكثر أمواله وذخائره، فحاز شكلي على جميع ما تركه، وأسر زوجته مع ابن له وابنة، فتزوج من الابنة واستقل بعكا[2].

وكان أتسز قد عُدَّ، متقدماً على جميع العناصر التركمانية في بلاد الشام، فحرص على الإبقاء على زعامته، وقد أزعجه ما أقدم عليه شكلي فقرر التحرك ضده. وعمد هذا الأخير إلى تقوية موقفه لمواجهة ما قد يقوم به أتسز من محاولات لانتزاع عكا منه، فحصَّن أسوار المدينة، وصاهر حاكم دمشق الفاطمي حيدرة بن المعلى بن منزو الكتامي، واتصل بزعماء قبيلة كلب، وتعاهد معهم. وجرى اللقاء بين الأخوين في الساحل وأسفر عن انتصار أتسز، وتراجع شكلي إلى رفنية من أعمال طرابلس. ولم يطارده أتسز، بل توجَّه إلى دمشق ليحاصرها، والواقع أنه كان يغير عليها باستمرار عند نضوج المحاصيل الزراعية، فيتقوَّى بها على حساب أهل المدينة والحامية الفاطمية، وذلك بهدف انتزاعها من أيدي الفاطميين، لكن المدينة صمدت أمام هجماته على الرغم مما سبَّبته من ضائقة للسكان[3].

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٦٦ ـ ١٦٧. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٦، ٢٤٤.

(٢) ابن ميسر: ص ٢٣.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٦٧. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٥٦.

ويبدو أن والي دمشق الفاطمي كان سيء السيرة مع الجنود والرعية، فثاروا عليه، مما حمله على المسير إلى بانياس، ومنها إلى صور، ثم أُخذ إلى القاهرة وسُجن فيها، وولَّى أهل دمشق عليهم انتصار بن يحيى المعروف برزين الدولة، إلا أنه لم يستطع ضبط الأمور بسبب معارضة السكان وبعض فئات الجند الفاطمي، فاضطربت الأوضاع الداخلية في المدينة[1].

استغل أتسز هذه الأوضاع القلقة، فحاصر المدينة وضيَّق على أهلها حتى نفدت الأقوات، فاضطر سكانها إلى تسليمها إليه بالأمان. ودخل أتسز وعسكره المدينة في (ذي القعدة ٤٦٨هـ/ حزيران ١٠٧٦م)، وأُقيمت فيها الخطبة للخليفة المقتدي (٤٦٧ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ـ ١٠٩٤م) لخمس بقين من الشهر المذكور وقطعت للمستنصر الفاطمي، ومُنع الأذان بـ «حي على خير العمل»، بعد أن كان يؤذن به على منابر دمشق وسائر بلاد الشام مائة وستة أعوام، وتلقب بلقب الملك العظيم[2].

تطلع أتسز، بعد استيلائه على دمشق، إلى الشمال لضم حلب، لكنه جوبه بمعارضة العشائر التركمانية المنتشرة في أعمالها، ثم علم بنية السلطان ملكشاه إقطاع بلاد الشام إلى أخيه تاج الدولة تُتُش، فتحول عندئذٍ نحو الجنوب، وقرَّر ضمَّ مصر، إذ خشي أن يُقدم الفاطميون على مهاجمته، كما أن كاتبه ابن بلدكوز أغراه بغزو هذا البلد بعد أن ساءه تحكُّم بدر الجمالي واستبداده بالأمور. ورأى، قبل الزحف نحو مصر، أن يحمي مؤخرة جيشه بالاستيلاء على المدن الساحلية، وضمان عدم مساعدة حكامها لمصر أثناء مهاجمتها، فنازل طرابلس لكنِ جلال الملك بن عمار صدَّه عنها، فاتجه جنوباً طمعاً في أخذ صور، ولما لم يتمكَّن من دخولها عقد مع أميرها النفيس بن محمد بن أبي عقيل هدنة مشروطة بأن يسمح للغز بدخول المدينة فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها[3].

ولا شك بأن أتسز حقَّق بعض أهدافه بأن أخذ من طرابلس وصور عهداً بمنح الغز ميزات تجارية، حيث تمَّ له فتح أبوابهما للتجارة مع الداخل، واستمرت الخطبة للفاطميين بهما، والغز يدخلون إلى صور فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها[4].

وبعد أن هيَّأ الظروف التي تسمح له بمهاجمة مصر، تقدم أتسز على رأس

---

(١) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧. ابن القلانسي: ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٧٦. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان حوادث عام ٤٦٨ هـ حيث تفاصيل وافية.

(٤) تدمري: ص ١٢٨.

جيش من الأكراد والتركمان والعرب، يقدر بعشرين ألفاً، باتجاه الدلتا عن طريق الساحل، وبلغ أطراف مصر في (ربيع الأول ٤٦٩هـ/ تشرين الأول ١٠٧٧م)، دون أن يصادف مقاومة تذكر، وعسكر في الدلتا مدة خمسين يوماً دون أن يزحف إلى القاهرة، مرتكباً خطأً عسكرياً، لأن بدراً الجمالي كان آنذاك غائباً عنها لإخماد بعض الثورات في الصعيد، وكانت القاهرة خالية ممن يحميها أو يدافع عنها، وانتشرت قواته في ربض مصر وقراها، فضايقوا السكان، وأساءوا السيرة، فكتب زعماء القرى إلى المستنصر يشكون إليه ما أصابهم من جنود السلاجقة[١].

وعندما علم بدر الجمالي بوجود أتسز في مصر، عاد إلى القاهرة على وجه السرعة، فجنَّد القادرين على حمل السلاح، واستدعى من كان بالصعيد من العساكر السودان، كما جنَّد ثلاثة آلاف حاج كانوا يستعدون للسفر إلى بلاد الحجاز، لمعاونته في القتال، فبلغ عدد أفراد جيشه زهاء ثلاثين ألفاً[٢].

ولما تقدم أتسز إلى القاهرة، خرج بدر الجمالي للتصدي له، وجرى اللقاء بينهما يوم الخميس (١٦ رجب ٤٦٩هـ/ ١٣ شباط ١٠٧٧م). واستقطب بدر الجمالي ألفي فارس من جند السلاجقة بقيادة حازم الكلبي، مما أثَّر على معنويات أتسز، فأراد الانسحاب إلى بلاد الشام، لكن قادة جيشه أرغموه على خوض المعركة، فاشتبك مكرهاً بقوات بدر، وأسفر اللقاء عن هزيمته وفرار جنده، وطاردهم الجيش الفاطمي حتى الرملة، وعاد أتسز إلى دمشق[٣].

أعلنت بعض المدن الرئيسية في بلاد الشام، ومنها دمشق، على أثر ذلك، ولاءها من جديد للفاطميين، مما دفع بدر الجمالي للعمل على استعادة سلطان هؤلاء، فأرسل جيشاً إلى دمشق في عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) بقيادة نصر الجيوشي، فحاصرها واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين، فاضطر أتسز إلى مراسلة تاج الدولة تُتُش يستنجده، ويستصرخه، ويعده بتسليمه دمشق، ويكون تابعاً له[٤].

كان تاج الدولة تُتُش، آنذاك، يحاصر حلب، لأن أخاه السلطان ملكشاه أقطعه الشام وما يفتحه من تلك النواحي، وعهد إليه بإخراج الفاطميين منها، ففكَّ الحصار عنها وسار قاصداً دمشق لنجدتها، ولم يكد يقترب منها حتى رأى نصر الدولة

---

(١) ابن ميسر: ص ٢٥. ابن القلانسي: ص ١٧٦ ـ ١٨١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) المقريزي: جـ ٢ ص ٣١٧.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٨١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٨٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٩.

الجيوشي أن مصلحته تقضي بالانسحاب لأن قواته أعجز من أن تقف في وجه القوة السلجوقية، وقصد ناحية الساحل وكان ثغرا صور وطرابلس في أيدي قضاتهما قد استقلا بها، وخرجا على طاعة الفاطميين، لذلك لم يُقدِّما أي مساعدة لقواتهم، بل إنهما صانعا السلاجقة بالهدايا والملاطفات[1].

ولما وصل تاج الدولة تُتُش إلى دمشق، خرج أتسز لاستقباله، وبذل الطاعة له، وسلَّمه البلد في عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، ويبدو أنه خشي من طموحات أتسز ولم يطمئن إلى وجوده إلى جانبه، لذلك تخلَّص منه وقتله[2].

والراجح أن هذا العمل يندرج ضمن لعبة التنافس على النفوذ الذي كان سائداً آنذاك بين الأمراء السلاجقة، وبين ولاتهم في الجزيرة وبلاد الشام، وبذلك أضحى تاج الدولة تُتُش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، ثم جهد في العمل على:

- بسط سلطانه على كامل بلاد الشام، وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية أو تُحكم من قِبلها مباشرة.
- إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان وفارس.

ونازع تاج الدولة تُتُش، شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل الذي كان يعمل على توحيد القوى العربية ضد التركمان. والواقع أن طبيعة الصراع اتخذ منحى عنصرياً عربياً ـ تركمانياً. ونجح أمير الموصل في الاستيلاء على حلب في عام (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م)[3]، وطمع في الاستيلاء على دمشق، بل على كامل بلاد الشام، وطرد السلاجقة منها، وأعلن تشيعه على مذهب الإمامية الإثني عشرية، ودخل في طاعة الدولة الفاطمية بوصفها الدولة الشيعية الوحيدة في المنطقة.

وكان تاج الدولة تُتُش قد خرج من دمشق في عام (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) إلى أنطاكية لانتزاعها من أيدي البيزنطيين، غير أنه عاد إلى دمشق بإلحاح من بعض بني كلاب وصاحبي حمص وشيزر[4] الذين ضايقهم شرف الدولة مسلم بن قريش،

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٨١.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٢ ـ ١٨٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٩.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٠٣.

(٤) يبدو أنه حصل انشقاق داخل قبيلة بني كلاب قاد إلى صراعات مع سابق بن محمود بن نصر، أمير حلب السابق، وأدَّى إلى ذهاب بعض زعماء القبيلة إلى السلطان ملكشاه للشكاية ضده. انظر: زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ص ١٦٨ ـ ١٧٥.

وكان هذا الأخير قد حاصر المدينة في (شهر محرم ٤٧٦هـ/ شهر حزيران ١٠٨٣م) بهدف الاستيلاء عليها، مستغلاً وجود الملك السلجوقي بعيداً في الشمال، وقد أمل بمساعدة الفاطميين، فاتصل ببدر الجمالي في القاهرة، وجرى الاتفاق على أن تُرسل القاهرة جيشاً فاطمياً يساعد شرف الدولة مسلم بن قريش في الاستيلاء على دمشق. ويبدو أن بدراً الجمالي لم يكن يمتلك القوة الضرورية لمساعدته، بالإضافة إلى أنه كان منهمكاً بمعالجة الشؤون الداخلية المضطربة. ويذكر ابن العديم أنه خشي من ميل العرب إليه، فتثاقل عنه، وأحجم عن تقديم المساعدة المطلوبة. وكان حكم شرف الدولة قد تعرَّض آنذاك للاهتزاز، إذ نشبت ثورة ضده في حرَّان[1]، لذلك اضطر إلى فك الحصار عن دمشق وعاد إلى الموصل[2].

والواقع أن الوزير الفاطمي، فوَّت فرصة ثمينة كانت ستتيح له إعادة بسط السيطرة الفاطمية على دمشق، لكن النزاع استمرَ بين تاج الدولة تُتُش وبين شرف الدولة ثم بين الأول وولاة الفاطميين في بعض مدن بلاد الشام.

ففي عام (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) طلب تاج الدولة تُتُش من أخيه السلطان ملكشاه تزويده بقوات ومعدات تمكِّنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام وإخضاعها كلها لسلطان السلاجقة بما فيها المدن الساحلية.

والواقع أن ملكشاه كان يخشى تمدداً فاطمياً باتجاه شمال بلاد الشام والجزيرة والعراق، لذلك لبَّى طلب أخيه، وأمر كل من قسيم الدولة آق سُنْقُر، صاحب حلب، وبوزان، واليه على الرها، بأن يقدِّما له كل ما يحتاجه في مهمته من عساكر وتجهيزات.

ويبدو أن الواليين لم ينفِّذا أوامر السلطان بسبب التنافس بين هؤلاء الأمراء، كما أن تاج الدولة تُتُش لم يقم بأي عمل عسكري جدِّي ضد مدن الساحل[3].

لكن الأوضاع تبدلت في عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)، حين أرسل الفاطميون جيشاً بقيادة نصر الدولة الجيوشي، استولى على عكا وصور وصيدا وجبيل، وحاصر بعلبك، فدخل أميرها في طاعة الفاطميين، وأقام الخطبة للمستنصر. وعيَّن بدر الجمالي منير الدولة الجيوشي والياً على صور، فاستولى على بعض الأراضي التابعة

---

(١) حَران: مدينة في جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وهي على طريق الموصل والشام والروم. الحموي: جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٢) ابن القلانسي: ص ١٨٥ ـ ١٨٦. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦. ابن العديم: زبدة جـ ١ ص ٣١٠.

(٣) زكار: ص ٢١٦.

لتاج الدولة تُتُش[1]، كما أن خلف بن ملاعب صاحب حمص وأفامية اجتمع بالقائد الفاطمي واعترف له رسمياً بسلطان المستنصر وسيادته عليه، مما شكَّل تهديداً مباشراً لسلطان السلاجقة في بلاد الشام.

ونتيجة لما اتفق عليه الطرفان من بسط السيادة الفاطمية على كامل بلاد الشام، قام خلف بن ملاعب بالاعتداء على أراضٍ تابعة لتاج الدولة تُتُش، مما دفعه إلى الاستنجاد مجدداً بأخيه، كما أن الحكام السلاجقة في هذه البلاد شكوا إلى السلطان اعتداءات أمير حمص، وكذلك فعل السكان بفعل أنه اتصف بالظلم.

ونظراً للأوضاع الخطيرة التي باتت عليها بلاد الشام، أمر السلطان ملكشاه أخاه تاج الدولة تُتُش بتأديب ابن ملاعب، وطرد الفاطميين من البلاد، وضمِّها إلى الأملاك السلجوقية، وطلب، في الوقت نفسه، من ولاته فيها بالتحرك السريع لمساعدته[2].

انزعج كل من آق سُنْقُر وبوزان من قيادة تاج الدولة تُتُش لهذه الحملة، وأدركا أنه سوف ينفرد بحكم ما سيستولي عليه، فخرجا مكرهين، غير مقتنعين بمساعدته. ويبدو أن هذا الإحجام، وعدم الاندفاع الجدِّي سبَّبا نجاحاً جزئياً لخطط تُتُش. فاقتحم الجيش السلجوقي حمص في عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) وقبض تاج الدولة تُتُش على ابن ملاعب، وزحف باتجاه عِرقة التي كانت تحت سيطرة بني عمار حكام طرابلس، واستولى عليها، ثم حاصر طرابلس نفسها في العام التالي[3].

وعلى الرغم من أن تاج الدولة تُتُش قد بسط سلطانه على معظم بلاد الشام، فإنه لم يعمل على توطيد نفوذه فيها، مع أن الظروف كانت مهيأة له، وبخاصة من ناحية الفاطميين الذين انهمكوا بالنزاعات الداخلية. إذ عندما توفي السلطان ملكشاه في شهر (شوال ٤٨٥هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٢م) طلب تاج الدولة تُتُش السلطنة لنفسه في ظل صراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفى، وتجهَّز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه، ودخل في صدام مع السلطان بركياروق بن ملكشاه، فاستغل بدر الجمالي هذه الفرصة وقرَّر استعادة نفوذ الفاطميين في بلاد الشام، فأرسل جيشاً إلى صور، وكان واليها الفاطمي منير الدولة الجيوشي قد استقلَّ بها، وخرج على طاعة الفاطميين فثار عليه سكانها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٩٧. ابن ميسر: ص ٢٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٢٩.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٥٢.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٩٨. ابن الأثير: جـ ٨، وهو يذكر هذه الأحداث في عام ٤٨٥ هـ.

بدر الجمالي، مما مهَّد الطريق أمام القوات الفاطمية للاستيلاء عليها، وفرض على أهلها ستين ألف دينار سنوياً[1].

واستمر الصراع على بلاد الشام بين الفاطميين والسلاجقة حتى نشبت الحروب الصليبية، فتغيَّرت موازين القوى، مما سنبحثه في الفصل التالي.

العلاقة مع الصليحيين في اليمن

أُتيح للدعوة الفاطمية في اليمن أن تمر بأدوار من المد والجزر تبعاً لنشاط دعاتها وقوة الدولة العباسية من جهة، والتنافس بين الأمراء المحليين من جهة أخرى، مما أدَّى ببعضهم إلى قطع الخطبة للعباسيين وإقامتها للفاطميين، ومهَّد السبيل لازدياد النفوذ الفاطمي في البلاد.

نشط الدعاة الفاطميون في بلاد اليمن منذ عهد الحاكم الفاطمي، فكان يوسف بن الأسد يدعو له سراً حتى توفي، فخلفه داع آخر هو عامر بن عبد الله الزوامي، فاستقطب عدداً كبيراً من سكان اليمن إلى المذهب الإسماعيلي عن طريق بذل المال، وظل يدعو للفاطميين طيلة عهد الحاكم والظاهر وأوائل حكم المستنصر، واستخلف قبل وفاته علي بن محمد الصليحي.

نشأ علي بن محمد الصليحي فقيهاً، صالحاً، وكان أبوه من القضاة السنيين، لكنه تحول إلى المذهب الإسماعيلي منذ شبابه بتأثير الداعي الزوامي، وعمل منذ عام (٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) على إحياء الدعوة الفاطمية بعدما تراجعت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم، واتخذ من حصن مسار بجبل حراز مقراً له، وما زال يستقطب القبائل المنتشرة في اليمن حتى التف حوله جموع من سخان وهمدان وحمير[2]. ويبدو أنه صادف معارضة قوية من جانب أهل السنّة، إذ على الرغم من زوال دولة بني زياد في عام (٤٠٩هـ/ ١٠١٨م) فقد ورث مواليهم ملكهم، وقد انتهجوا سياستهم الموالية للخلافة العباسية، وتمكن أحد زعمائهم، ويدعى نجاح، من إقامة دولة سنِّيَّة في زبيد خلفت دولة بني زياد، وقلَّده الخليفة العباسي، القضاء، وعهد إليه النظر في شؤون البلاد اليمنية، ولقبه بالمؤيد نصر الدين[3].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٠٠ ـ ٢٠١. ابن الأثير: ص ٣٥٩ ـ ٣٦٤، ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) عمارة اليمني، أبو محمد... تاريخ اليمن ص ١٨. العرشي، القاضي حسين بن أحمد الزيدي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٤.

(٣) عمارة اليمني: المصدر نفسه: ص ١١ ـ ١٢.

وقام نجاح بعدة محاولات لقمع انتشار الدعوة الفاطمية، لهذا لم يستطع علي بن محمد الصليحي، على الرغم من تأييد المستنصر له، أن يجهر بالدعوة، إذ كان يدعو سراً ويخشى قوة نجاح. وانتهج أسلوب الدهاء السياسي ليتجنَّب غضبه، ويأمن جانبه، فأخذ يتودَّد إليه، ثم حاك مؤامرة للتخلص منه بواسطة جارية دست له السم في عام (٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م)[١].

زالت دولة نجاح بوفاته، فضمَّ علي بن حمد الصليحي زبيد إلى أملاكه، وقوي أمره بما استولى عليه من قلاع، وتوطَّد نفوذه في اليمن بعد أن قضى على مناوئيه، ولما استقر كتب إلى المستنصر في عام (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)، يستأذنه في إظهار الدعوة له، كما بعث إليه بهدية قيِّمة. تقبَّل المستنصر هديته وبعث إليه برايات الإمامة، وعهد إليه بالولاية، وأذن له في الجهر بالدعوة ومنحه الألقاب[٢]، مما شجَّعه على توسيع رقعة أملاكه، فاستولى على التهائم، ولم يدخل عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) حتى ملك معظم اليمن، واتخذ صنعاء حاضرة له[٣]، وأقيمت الخطبة، في جميع بلاد اليمن، للمستنصر الفاطمي ولعلي الصليحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب، وزالت الدعوة للعباسيين منها.

كان علي بن محمد الصليحي يحكم اليمن بوصفه نائباً عن المستنصر، ومما يدل على هذه التبعية تلك الرسائل المتبادلة بينهما، والتي تتضمن أنباء الأحداث الهامة في بلد كل منهما[٤]. والواضح أن المستنصر كان يثق بعلي بن محمد الصليحي، ويطمئن إليه في نشر الدعوة خارج اليمن، في بلاد الحجاز، فعهد إليه إعادة بسط سلطة الفاطميين على مكة والمدينة، فنجح في ذلك وأعيدت الخطبة للمستنصر على منابرهما.

وحرص علي بن محمد الصليحي على السفر إلى مصر ليحظى بمقابلة المستنصر، فكتب إليه يستأذنه في ذلك، فأذن له في كتاب أرسله إليه في (جمادى الآخرة ٤٥٩هـ/ نيسان ١٠٦٧م) لكن الصليحي رأى أن يذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج قبل أن يسافر إلى مصر، وعيَّن ابنه المكرَّم أحمد نائباً عنه في صنعاء، فاغتاله سعيد الأحول بن نجاح وهو في الطريق في أواخر عام (٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م)[٥].

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢١٤.
(٢) الحمادي اليماني: ص ٤٣.
(٣) عمارة اليمني: ص ١٨. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢١٤.
(٤) انظر السجلات المستنصرية، تحقيق عبد المنعم ماجد.
(٥) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢١٥.

ما كاد المستنصر يعلم بنبأ الاغتيال حتى كتب إلى ابنه في (شعبان ٤٦٠هـ/ حزيران ١٠٦٨م) يعزيه بوفاة أبيه، ويقرُّه على ملكه، ويعهد إليه بشؤون الدعوة الفاطمية في اليمن، ومنحه الألقاب الفخمة التي كانت مألوفة في ذلك العصر، وردَّ المكرَّم أحمد برسالة يعلن فيها ولاءه للفاطميين وتمسكه بدعوتهم(١).

كان المستنصر يتتبَّع أخبار اليمن. فعندما علم بانتصار المكرَّم أحمد على سعيد الأحول وقتله(٢)، اغتبط لذلك، وأرسل إليه رسالة عبَّر فيها عن سروره لهزيمة عدوه، وأخذ الثأر لعلي بن محمد، وأبلغه في نهاية الرسالة أنه أنعم عليه بلقب أمير الأمراء(٣).

ويبدو أن المكرَّم أحمد لم يكن على مستوى والده من القدرة على إدارة شؤون البلاد، إذ بعد تغلُّبه على سعيد الأحول، واستعادته زبيد، عهد إلى زوجته السيدة أروى الحرة بنت أحمد الصليحي بإدارة الشؤون العامة والقيام بأمر الدعوة الإسماعيلية، وانصرف هو إلى التمتع بمباهج الحياة(٤).

توفي المكرَّم أحمد في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر، لكن زوجته عارضت هذا الاختيار، وأرادت أن تولي ابنها الطفل عبد المستنصر، فأرسلت رسالة إلى المستنصر ترجوه أن يقرَّ ابنها على بلاد اليمن. وافق المستنصر على هذا الطلب مدركاً في الوقت نفسه بأنها ستقوم بتدبير الأمور بدلاً من طفلها، وأخذ يرسل الرسائل باسمه، لكن أمراء اليمن، وبخاصة أبي الربيع سليمان بن الأمير الزوامي، لم يعترفوا بحكم هذا الصبي، ومن ثَمَّ نشأ نزاع داخلي هدَّد النفوذ الفاطمي في اليمن، فأرسل المستنصر إلى طرفي النزاع ينهاهما عن هذا الخلاف، ويأمرهما بطاعة السيدة أروى الحرة وابنها عبد المستنصر، وأشاد بالخدمات التي أدتها هذه العائلة للفاطميين(٥). صادفت دعوة المستنصر القبول، وكتبت السيدة الحرَّة إليه تعلمه بذلك(٦).

تجدَّد النزاع الداخلي في اليمن بعد وفاة عبد المستنصر الذي لم يعمَّر طويلاً؛ إذ قام

(١) السجلات المستنصرية: الرسالة رقم ٦٠ ص ١٩٦ ـ ١٩٩.
(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢١٧.
(٣) السجلات المستنصرية: الرسالة رقم ٦٠ ص ١٩٦ ـ ١٩٩.
(٤) عمارة اليمني: ص ٢٩.
(٥) السجلات المستنصرية: رسالة رقم ٣٨ ص ١٢٨ ـ ١٣٤.
(٦) المصدر نفسه.

ولي العهد السابق، أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر، يطالب بحقه الشرعي في تولي الحكم، ورغبة منه في توطيد نفوذه طلب الزواج من أروى ولكنها رفضت، فتدخَّل المستنصر مجدداً وأمر بأن تتزوج السيدة أروى الحرة من الداعي أبي حمير سبأ بن المظَّفر[1]، بهدف توثيق الصلة بين أمراء اليمن ودعاتها، وعدم إثارة عوامل الخلاف بينهم حتى لا تتعرَّض الدعوة للضعف نتيجة ذلك، لكن السيدة أروى الحرَّة استأثرت بالسلطة دون زوجها، وظلَّت موالية للمستنصر، وتبادلت الرسائل معه. ولم يكن لمظاهر الضعف التي بدأت تظهر على جسم الدولة الفاطمية في أواخر عهد المستنصر، بالإضافة إلى تقلُّص نفوذه، أي أثر سلبي على العلاقات الفاطمية ـ اليمنية[2].

العلاقة مع الحجازيين

اتسمت العلاقات بين الفاطميين وأشراف الحجاز بالتقلبات السريعة، وفقاً لتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية في مصر، وشهدت نوعاً من الاندفاع والتراجع في ظل التنافس العباسي ـ الفاطمي للسيطرة على الحجاز. وظل الطرفان يتناوبان على استرضاء أبي هاشم محمد بن جعفر، أمير مكة، بالهدايا والأموال، وقد استغل هذا الأمير، ذلك التنافس فجمع أموالاً كثيرة، من الطرفين.

والواقع أن الأزمة الاقتصادية التي شهدتها مصر في عهد المستنصر، أثَّرت على إمدادات الغلال التي كان يرسلها الفاطميون إلى الحجاز في كل عام، فقلَّ مقدارها، مما ترتَّب عليه قطع الصلات بين البلدين، فانتهز العباسيون هذه الفرصة وتقرَّبوا من أشراف الحجاز، وبذلوا لأبي هاشم محمد بن جعفر، أمير مكة، الأموال الكثيرة، وذلك من أجل استعادة نفوذهم في الحجاز، فقطع أمير مكة الخطبة للفاطميين في عام (٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، وخطب للعباسيين، وطرد الحامية الصليحية، وعندما علم المستنصر بذلك، أرسل إلى علي بن محمد الصليحي يأمره بالزحف على مكة وإعادة الأمور إلى نصابها[3].

استجاب علي بن محمد الصليحي لأمر المستنصر، فزحف باتجاه مكة على رأس قوة عسكرية تقدر بألفي فارس، إلا أنه لم يتمكَّن من الوصول إلى الحجاز حيث تصدَّى له سعيد الأحول بن نجاح في الطريق، فهزمه، وقُتل محمد بن علي في المعركة. ويبدو أن الأشراف لاموا أبا هاشم محمد بن جعفر على تصرفه، مما دفعه

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢١٥.
(٢) سرور: ص ٩٢.
(٣) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣٣.

إلى إعادة الخطبة للفاطميين، التي استمرت حتى عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، وكتب إلى المستنصر يعتذر عن ذلك، ويبرِّر تصرفه بضيق الوضع الاقتصادي. وعندما بلغت الشدة الاقتصادية أوجها، قطع المستنصر كافة المساعدات عن الأشراف، فضاقت أحوال أبي هاشم حتى اضطر إلى انتزاع الذهب من أستار الكعبة، وصفائح الباب والميزاب، وضربه دراهم ودنانير، وكذلك فعل أمير المدينة بالقناديل الموجودة في الحجرة النبوية(١).

كان المستنصر حريصاً على إبقاء العلاقات الودية مع الأشراف، لذلك أرسل إلى المكرَّم أحمد، الذي خلف أباه في حكم اليمن، يطلب منه إمداد أهل الحجاز بما يحتاجون إليه(٢)، لكن حاكم اليمن لم يستجب لما أمره به المستنصر، لأنه كان منهمكاً في مطاردة قتلة والده، والتصدي للقبائل اليمنية التي حاولت الخروج على حكمه.

وضاقت الأوضاع في الحجاز نتيجة نقص الموارد، وارتفاع الأسعار، فاضطر الحجازيون إلى قطع الخطبة للمستنصر، وخطبوا للخليفة العباسي القائم وللسلطان السلجوقي ألب أرسلان، بعد أن أمدَّهم العباسيون بالأموال. وأرسل أبو هاشم محمد بن جعفر رسولاً إلى بغداد ليخبر الخليفة والسلطان بإقامة الدعوة للعباسيين، وذلك في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) فأرسل له السلطان ثلاثين ألف دينار، وخِلعاً نفيسة، وأجرى كل سنة، عشرة آلاف دينار وأخبره بأن أمير المدينة، سوف ينال عشرين ألف دينار، وتجري له كل سنة خمسة آلاف دينار، إن أقام الخطبة للعباسيين. ويبدو أن صاحب المدينة لم يستجب لإغراءات السلطان السلجوقي، مما دفع بمحمد بن جعفر إلى مهاجمة المدينة، فهزم بني مهنا من أولاد الحسين، وطردهم منها(٣).

وبعد أن تحسَّنت أوضاع مصر الاقتصادية، واستقرت الأمور السياسية، نتيجة للتدابير التي اتخذها بدر الجمالي، شعر المستنصر بوجوب استعادة نفوذه في الحجاز، فأرسل رسولين إلى أبي هاشم محمد بن جعفر، لاماه على قطع الخطبة للفاطميين وإقامتها للعباسيين، وبذلا له المال ليقطع الخطبة لهم(٤).

لم يقف العباسيون مكتوفي الأيدي تجاه هذه المحاولة الفاطمية لاستعادة النفوذ في الحجاز، فأرسلوا أموالاً كثيرة بصحبة السَّلار الذي كان يرافق قافلة الحاج

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١٩ ـ ٢٠. (٢) السجلات المستنصرية.

(٣) العماد الأصفهاني: ص ٣٧ ـ ٣٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢١٨. عمر بن فهد: إتحاف الورى جـ ٢ ص ٤٧٣.

(٤) السباعي، أحمد: تاريخ مكة. دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران جـ ١ ص ٢٠٤.

العراقي، ليقدمها للأشراف، فأعرض أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني عن رسولي المستنصر وأبعدهما عنه، ونجح السَّلار في مهمته[1].

وجدَّد المستنصر محاولته في عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م)، بعد وفاة الخليفة العباسي القائم، حيث انهمك الخليفة الجديد المقتدي بتهيئة الأمور لنفسه، فلم يرسل الأموال والصلات إلى صاحب مكة، كما جرت العادة، فأرسل المستنصر سفارة إلى صاحب مكة محملة بالهدايا والتحف العظيمة، ومعها رسالة يقول فيها: «إن أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان، وقد ماتا»، فاستشار أبو هاشم محمد بن جعفر أصحابه ومستشاريه، وتقرر قبول العرض الفاطمي، وبخاصة أن الوضع الاقتصادي كان قد اشتد في الحجاز، وارتفعت الأسعار، عقب انقطاع المساعدات العباسية، فخطب للمستنصر على منابر مكة، وقطع الخطبة للعباسيين[2].

ونجح الخليفة العباسي المقتدي في إعادة الخطبة للعباسيين في عام (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م)، التي أُبطلت في عام (٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م)، وأُعيدت في عام (٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م) لتقطع مرة أخرى حتى عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) حيث أُعيدت للعباسيين في مكة والمدينة. وهكذا ظلَّت الدولتان العباسية والفاطمية تتناوبان السيطرة على الحجاز. ولعل العباسيين أدركوا، من خلال التقلبات السياسية والولائية لأبي هاشم، بأن هذا الرجل يعمل لمصلحته الشخصية، لذلك أرسل السلطان السلجوقي ملكشاه قوة عسكرية إلى مكة في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) لاستعادة الأموال منه، وجرى قتال بين الطرفين، ولما يئس أمير مكة من الانتصار فرَّ هارباً إلى بغداد، مستغيثاً بالخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[3]، ولعله أراد أن يسترضي الطرفين حتى يكفَّا عنه، ويبدو أنه نجح في ذلك حيث عاد إلى مكة، ودعا للعباسيين وللسلطان السلجوقي حتى عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) تاريخ وفاة السلطان ملكشاه، فانقطعت الخطبة للعباسيين في مكة، وتوقفت قافلة الحاج العراقي.

العلاقة مع البيزنطيين

تحسَّنت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين في أوائل عهد المستنصر بعد إبرام المعاهدة، التي أشرنا إلى بنودها في الفصل السابق، ونعمت بلاد الشام بحالة

---

(١) عمر بن فهد: جـ ٢ ص ٤٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٧٧، ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٥٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٠.

من السلم التي سادت العلاقات الفاطمية ـ البيزنطية. ولما اعتلى الأمبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس الحكم في القسطنطينية (٤٣٣هـ/ ٤٤٧هـ/ ١٠٤٢ـ ١٠٥٥م)، حافظ على استمرار العلاقات الودية مع الفاطميين، فتجدَّدت الهدنة في عام (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م) حيث رأت بيزنطية أن تتعاون مع الفاطميين للوقوف في وجه عدو مشترك بدأ يهدِّد حدودها الشرقية، وأعني بذلك الأتراك السلاجقة[١].

وأرسل الأمبراطور البيزنطي هدية إلى المستنصر اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية، فاستغل هذا الأخير هذه العلاقات الجيدة لتحسين الأوضاع الاقتصادية في دولته، وأرسل، على أثر المجاعة التي شهدتها مصر في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م)، رسالة إلى قسطنطين التاسع، حملها القاضي أبو عبد الله القضاعي، يطلب منه أن يمدَّه بأربعمائة ألف إردب من القمح[٢]. أبدى الأمبراطور استعداده لإجابة الطلب، غير أنه توفي قبل أن ينفِّذ ذلك، وخلفته الأمبراطورة تيودورة (٤٤٧ـ ٤٤٨هـ/ ١٠٥٥ـ ١٠٥٦م)، فاشترطت، لمساعدة مصر اقتصادياً، أن يوافق المستنصر على عقد معاهدة دفاع مشترك، وأن ينجدها بعساكره إذا تعرَّضت بلادها للاعتداء. ومما لا شك فيه أن هذه المعاهدة لو تمَّ عقدها كانت موجهة ضد السلاجقة. ويبدو أن المستنصر كان لا يملك القوة الضرورية للمساعدة، لذلك رفض طلب الأمبراطورة، وردَّت هذه بأن منعت إرسال الغلال إلى مصر، فتعرَّضت العلاقات بين الدولتين إلى نكسة قوية أعادت الصراع العسكري من جديد إلى ساحل بلاد الشام بخاصة. واتجهت الأمبراطورة تيودورة نحو السلاجقة للتحالف معهم ضد الفاطميين[٣].

أثار هذا التحول السياسي لبيزنطية غضب المستنصر، وقرر محاربة البيزنطيين، فجهَّز جيشاً بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم لمهاجمة اللاذقية التي كانت بيد البيزنطيين. وحاصر الجيش الفاطمي المدينة، فأرسل سكانها يطلبون النجدة من القسطنطينية، فردَّ المستنصر على ذلك بتسيير جيش ثانٍ بقيادة الأمير ليث الدولة، انضم إلى جيش مكين الدولة، وشارك في حصار اللاذقية حتى فُتحت[٤].

تابع مكين الدولة زحفه شمالاً، فجال في أعمال أنطاكية «ونودي في سائر بلاد

(١) ماجد، عبد المنعم: المستنصر بالله الفاطمي ص ١٩٦.
(٢) الدواداري: جـ ٦ ص ٣٦٩. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٥٧.
(٣) ماجد: ص ٧٦.
(٤) العظيمي: تاريخ حلب ص ٣٤٣. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٢٨.

الشام بالغزو إلى بلاد الروم»[1]، فخرجت المقاتلة والمطوعة من مدن الشام، وأرسل جيشاً ثالثاً تعداده ثلاثة آلاف مقاتل مدداً لمكين الدولة[2]. وتوغَّل القائد الفاطمي في الأراضي البيزنطية حتى نزل على حصن قسطون القريب من أفامية، فحاصره حتى استسلم سكانه[3].

نهضت الأمبراطورة تيودورة لصد الجيوش الفاطمية، فأرسلت أسطولاً بحرياً مؤلفاً من ثمانين قطعة مشحونة بالمقاتلة، وكان الهدف الأول للحملة الاستيلاء على مدينة طرابلس، القاعدة الرئيسية للأسطول الفاطمي. وحاصر الأسطول البيزنطي المدينة في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٦م)، وأنزل جنوده حولها، فتعرضت للحصار من البر والبحر، فطلب سكانها المساعدة من المدن المجاورة، فأنجدهم قاضي صور أبو محمد عبد الله بن عياض، وأرسل قوات كثيرة برية وبحرية، ودارت بين القوتين الفاطمية والبيزنطية عدة معارك أسفرت عن انتصار الفاطميين. واضطر البيزنطيون إلى رفع الحصار عن طرابلس، وتوجهوا شمالاً، فهاجموا حصن الخوابي في الشمال الشرقي من أنطرطوس، ثم هاجموا أنطرطوس، ودخلوهما، وسبَوْا كثيراً من المسلمين، وقتلوا آخرين، ثم تابعوا سيرهم، فهاجموا اللاذقية واستولوا عليها مجدداً. وتوَّجوا حملتهم بالانتصار على مكين الدولة، وأسروه ومن معه من أعيان العرب وذلك في (٢٨ ربيع الآخر ٤٥٠هـ/ حزيران ١٠٥٨م)[4].

اضطر المستنصر، نتيجة التحول العسكري لصالح البيزنطيين، إلى طلب الهدنة، وأرسل القاضي أبا عبد الله القضاعي إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين. ويبدو أن بيزنطية كانت تتجه في سياستها إلى محالفة السلاجقة الأقوياء الذين تفاقم خطرهم، وهدَّدوا أملاك الأمبراطورية في أرمينية وشرق آسيا الصغرى، إذ رأت فيهم الخطر الحقيقي على الأمبراطورية بعد تراجع قوة الفاطميين الذين كانوا آنذاك يواجهون كثيراً من المصاعب في مصر، مما جعلهم عاجزين عن مواصلة غزو أراضيها، لذلك لم تحفل الدوائر البيزنطية بالسفارة الفاطمية، في حين رحَّبت برسول السلطان السلجوقي طغرلبك الذي قدم من العراق ومعه رسالة من السلطان يلتمس فيها أن يصلي رسوله في جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك، وأُقيمت الخطبة فيه للخليفة العباسي القائم.

---

(١) ابن ميسر: ص ٧.
(٢) المقريزي: جـ ٢ ص ٢١٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣١. ابن ميسر: ص ٧.
(٤) المقريزي: جـ ٢ ص ٢٢٩. ابن ميسر: ص ٧.

ردَّ المستنصر على هذا التحول السياسي لبيزنطية بطلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها، فأُرسلت إليه، فازدادت العلاقات بذلك توتراً، واستمر العداء بين الفاطميين والبيزنطيين حتى نشبت الحروب الصليبية.

علاقات الفاطميين بدول شمالي إفريقية

العلاقة مع الزيريين

استمرت العلاقة الفاطمية ـ الزيرية في إفريقية، بالفتور، وما لبث أن تحوَّلت إلى عدائية في عهد المستنصر، وكان المعز بن باديس يسب بني عبيد سراً، وأنه حاول الإيقاع بين المستنصر ووزيره الجرجرائي، إلا أنه فشل في ذلك بفضل وعي الوزير الفاطمي، ثم أعلن خروجه على طاعة المستنصر في عام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) فقطع الخطبة له وأحرق بنوده، ودعا للعباس بن عبد المطلب والخلفاء الأربعة ولبقية العشرة المبشرين بالجنة، وأمر بلعن الفاطميين. وفي عام (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م) دعا للخليفة العباسي القائم، واتخذ بعض الإجراءات التنفيذية التي تصب في هذا الاتجاه، فأمر بلبس السواد شعار العباسيين، وتخريب دور الإسماعيليين، ومدارسهم، بالقيروان، والتنكيل بالمشارقة، وتشريدهم في البلاد، ولعن الفاطميين على منابر البلاد كما ضرب السكة باسمه[١].

وهكذا انتهت التبعية السياسية والمذهبية لدولة بني زيري بالدولة الفاطمية، الأمر الذي لم يرضِ المستنصر ووزيره اليازوري، فأرسل رسالة إلى المعز بن باديس يدعوه إلى العودة إلى حظيرة المذهب الإسماعيلي قال فيها: «هلَّا اقتفيت آثار من سلف من آبائك في الطاعة والولاء، ويتوعده بإرسال الجيوش»، فأجابه المعز: «إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك الغرب قبل أن يملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخَّروهم لتقدموا بأسيافهم»[٢].

وانتشرت الحركات الانفصالية في كافة أجزاء شمال إفريقية. فأعلن والي برقة، جبارة بن مختار العربي، انفصاله عن الدولة الفاطمية، وأحرق المنابر التي كان يُدعى عليها للفاطميين، وأحرق راياتهم، وتبرّأ منهم، ولعنهم على المنابر، ودعا للقائم العباسي[٣].

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨، ٢٨٠. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٤. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٥١.

(٢) النويري: جـ ٢٤ ص ٢١٠.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٨٨.

لم يقف المستنصر موقف المتفرج من هذه الأحداث السلبية، بيد أن الضعف الذي أصاب دولته، نتيجة لما شهدته مصر من مجاعات وفتن، بالإضافة إلى التخوف من مغامرة عسكرية في إفريقية، غير مضمونة النتائج، جعله عاجزاً عن التدخل المباشر في شؤون شمال إفريقية، ولجأ إلى وسيلة أخرى، بتأثير وزيره اليازوري. وقضت الخطة، بنقل عرب بني هلال من صعيد مصر إلى إفريقية، فيصطدمون بالزيريين، فإذا قضوا عليهم أسسوا دولة تابعة للدولة الفاطمية[1]. والجدير بالذكر أن الهلاليين كانوا في نزاع مستمر مما جعل المناطق التي يسكنونها عرضة لكثير من عبثهم، وأن نقلهم إلى شمال إفريقية يحقق رغبة سياسية للتخلص من الفوضى التي كانوا يحدثونها.

أرسل المستنصر مكين الدولة، أبا علي الحسن بن ملهم، إلى الصعيد لإقناع العشائر الهلالية بالتوجه إلى إفريقية، وقد أقطعهم المغرب ومُلك المعز بن باديس. قبلت هذه العشائر عرض المستنصر، واجتاحت برقة وطرابلس وإفريقية، وكان عدد أفرادها ثلاثة آلاف فارس، واصطدمت بالجيش الزيري المؤلف من ثلاثين ألف مقاتل عند حيدران بالقرب من القيروان في عام (٤٤٣هـ/ ١٠٥١ـ ١٠٥٢م). خشي العرب من جموع الزيريين الهائلة، لكن قائدهم مؤنس بن يحيى الرياحي شجَّعهم، وأشار عليهم أن يطعنوا في العيون، الأمر الذي أدَّى إلى إطلاق اسم العين على هذه المعركة[2]. وعلى الرغم من كثرة عدد أفراد الجيش الزيري، إلا أن الغلبة كانت للعرب، فانهزم عسكر المعز بن باديس، وغنم المنتصرون الخيل والخيام وما تحويه من الفضة والأمتعة[3]. ولما حاول المعز بن باديس أن يثأر لهزيمته مني بخسارة ثانية في شهر (ذي الحجة ٤٤٣هـ/ نيسان ١٠٥٢م)، واستولى الهلاليون على القيروان، وأرسلوا كثيراً مما غنموه، وظفروا به، من قصور المعز بن باديس، إلى مصر[4]. وتُعدُّ هذه المعركة بداية النهاية للدولة الزيرية التي خسرت معظم أراضيها.

سُرَّ المستنصر لهزيمة الزيريين، وانتقم لنفسه منهم وعبَّر عن سروره في رسالة أرسلها إلى علي بن محمد الصليحي حاكم اليمن[5].

اقتسمت العشائر العربية، التي بلغ تعدادها أربعمائة ألف، وفي رواية مليون

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٤.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٨٦ ـ ٨٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣.

(٥) السجلات المستنصرية: رسالة رقم ٥ ص ٤٣ ـ ٤٥.

شخص، أراضي الزيريين، فاستقرت زغبة في طرابلس، ورياح في برقة، أما المعز فقد انتقل إلى المهدية واتخذها عاصمة لدولته التي انحصر نفوذها في المهدية وشريط ضيق حولها، فضعف، منذ ذلك الوقت، شأن بني زيري[١].

أعاد العرب الدعوة الإسماعيلية، بعد أن قُطعت عن منابر إفريقية، فضلاً عن عودة التعامل بالسكة المستنصرية. وتوفي المعز بن باديس في عام (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) في جو الهزيمة القاتم، وخلفه ابنه تميم[٢]، وقد تقلَّص في عهده ملك بني زيري حتى لم يعد يجاوز حاجزاً من الساحل يحيط بالمهدية. وانتهى بوفاته العصر الذهبي للدولة الزيرية في القيروان، ليبدأ عصر جديد في شمال إفريقية هو عصر دويلات الطوائف.

العلاقة مع بني حماد في المغرب الأوسط

أسس الدولة الحمادية، حماد الزيري، أخو المنصور بن بلكين يوسف، في المغرب الأوسط في عام (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧ـ ١٠٠٨م)، وبنى مدينة سميت القلعة، واتخذها عاصمة له. ثم حدث نزاع بين باديس وعمه حماد بسبب السيادة، أدَّى إلى استقلال هذا الأخير بالمغرب الأوسط في عام (٤٠٥هـ/ ١٠١٥م)، فقطع الدعوة الفاطمية وطارد الشيعة وخطب للخليفة العباسي[٣].

ولما توفي حماد في عام (٤١٩هـ/ ١٠٢٨م)، خلفه ابنه القائد، وقد سار على نهج أبيه في بادىء الأمر، لكن عندما اجتاحت القبائل العربية إفريقية، اضطر إلى الاعتراف بسيادة الفاطميين، فلقبوه بـ «شرف الدولة»[٤]. ويبدو أن هذا النهج السياسي الجديد كان مداراة سياسية فرضتها الظروف للمحافظة على دولته، وهي حلقة في لعبة التوازن وتغيير الولاءات تبعاً لتغيُّر الخصوم[٥].

واستفاد الحماديون من الأوضاع المؤاتية ليقيموا علاقة طيبة مع الفاطميين إلا أنها لم تتعدَّ السيادة الاسمية ونقش اسم المستنصر على السكة، وتبادل الهدايا، مما أتاح لمدينتي القلعة وبجاية الحلول محل القيروان من حيث المكانة الفكرية والتجارية، وظلَّت العلاقة الودية قائمة بين الفاطميين والحماديين حتى أواخر عهد

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٩٤. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٥٩. المقريزي: جـ ٢ ص ٢١٧.

(٢) السجلات المستنصرية: سجل رقم ٥ ص ٤٤. ابن عذارى: المصدر نفسه ص ٢٩٥، ٢٩٨.

(٣) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٧١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٧٢.

(٥) أحمد، حسن خضيري: علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب ص ٧٨ ـ ٧٩.

الأمير الحمادي يحيى بن العزيز بن المنصور الذي أعاد ولاءه للعباسيين، فخطب للخليفة العباسي ونقش اسمه على السكة في عام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)[١].

العلاقة مع المرابطين في المغرب الأقصى

في الوقت الذي كانت فيه شمال إفريقية تتعرَّض للانقسامات، وتتوزَّع الأراضي بين أمراء الطوائف من عرب وبربر، برز الصنهاجيون الملثمون ليأخذوا على عاتقهم مهمة توحيد القوى وإنقاذ بلاد المغرب، وقد تميزوا بارتداء اللثام دون سائر قبائل البربر حتى عُرفوا بالملثمين، وتقع منازلهم بين جنوب بلاد المغرب وبلاد السودان[٢].

انتشر المذهب المالكي بين قبائل الملثمين على يد عبد الله بن ياسين، والتفَّ هؤلاء من حوله، وأطلق عليهم اسم المرابطين[٣]، وما لبث ابن ياسين أن اتجه بجموع المرابطين إلى الشمال، فهزم زناتة، وبرز من بينهم الأمير يوسف بن تاشفين، فغزا بلاد جزولة، وهزم العلويين فيها، وسيطر على كل بلاد السوس، ثم زحف إلى المغرب الأقصى، واستولى عليه، وعظم أمره، وخطب له في المغرب الأقصى، ثم بنى مدينة مراكش[٤].

كان طبيعياً ألا يعترف المرابطون بإمامة الفاطميين، وهم المالكيون المتعصبون الذين يكفِّرونهم ويتَّهمونهم بالزندقة والإلحاد، لذلك اتصلوا بالخلافة العباسية منذ عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، وتلَّقب يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين تأدباً مع الخليفة العباسي[٥].

اتخذ المربطون السواد شعاراً لهم في ملابسهم وأعلامهم. ومن جهتهم فإن الفاطميين ناصبوا المرابطين العداء، وبالتالي فإن الوزير الفاطمي بدر الجمالي ضيَّق على المغاربة حتى عدلوا عن مصر في طريقهم إلى الحج.

ومهما يكن من أمر فإن علاقة الفاطميين بالمرابطين لم تكن ودية، فضلاً عن زوال النفوذ الفاطمي من المغرب منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجري،

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب جـ ٢ ص ٦.

(٣) ابن أبي زرع: ص ١٠ ـ ١١. ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٣ ص ٢٢٣.

(٤) مراكش. مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى تقع في سفح جبل الأطلس الكبير، ويمر في شمالها نهر تانسيفت وتمتاز بخصوبة تربتها وجودة مناخها.

(٥) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٢٧ ـ ٢٨.

ولم تستطع الحملات الهلالية ردَّ المغرب إلى طاعة الفاطميين، وظلت الخطبة تُقام للعباسيين حتى قيام دولة الموحدين في أوائل القرن السادس الهجري[١].

خروج الفاطميين من صقلية

تراجع النفوذ الفاطمي في جزيرة صقلية منذ أواخر القرن الرابع الهجري، واقتصرت علاقة الصقليين بالفاطميين على إرسال الولاة لإدارة شؤون الجزيرة، وشهد عهد المستنصر زوال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب وصقلية.

فبسبب انهماك الفاطميين في مصر بأمورهم الداخلية، شُغلوا عن الاهتمام بأوضاع الجزيرة، وأدَّى ذلك إلى صراع الولاة فيما بينهم، كما تطلع البيزنطيون إلى إعادة سيطرتهم على الجزيرة، وسنحت لهم الفرصة في عام (٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م)، إذ نشبت الحروب الأهلية في الجزيرة، وتسابق الولاة المتنازعون إلى الطلب من بيزنطية التدخل في شؤون صقلية.

وترجع أسباب النزاع الداخلي إلى ما تأصل من العداء بين سكان صقلية وأهل إفريقية، أي بين السكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام بعد فتح المسلمين للجزيرة والعرب الذين استقروا فيها منذ أعوام عديدة، وبين المهاجرين من البربر الذين قدموا من شمال إفريقية، ولم يمتزجوا بسائر السكان[٢].

كان يحكم الجزيرة آنذاك أبو جعفر أحمد الأكحل، الذي تولى الحكم في عام (٤١٠هـ/ ١٠١٩م) على أثر ثورة قام بها سكان بلرم[٣]، وكان يستخلف ابنه جعفر إذا سافر للغزاة، فخالف سيرة أبيه في العدل والإحسان، وكان يكره العنصر الإفريقي، فجمع سكان الجزيرة وقال لهم: «أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم في بلادكم، والرأي إخراجهم، فقالوا: قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً»[٤].

ثم حدث أن نشبت ثورة ضد حكم أحمد الأكحل بزعامة أخيه أبي حفص، فلم يسعه إلا الاستنجاد بالبيزنطيين، وعرض التحالف معهم. ووعدته بيزنطية بأن ترسل إليه جيشاً يشترك معه في قتال أخيه، فالتجأ، عندئذٍ، أبو حفص إلى التماس المساعدة من المعز بن باديس، وأخطره أنه في حال امتناعه عن مساعدته، فإنه سيسلم البلد إلى البيزنطيين والنصارى[٥].

---

(١) أحمد: ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) Schlumberger: Le Popée: III. P. 224.

(٣) Ibid.

(٤) النويري: جـ ٢٤ ص ٣٧٨ ـ ٣٨٨.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٧٩.

سُرَّ المعز بن باديس بطلب المساعدة، وأمل في ضمِّ صقلية إلى أملاكه في إفريقية، فدعا إلى الجهاد، في سائر بلاده، وأرسل إلى أبي حفص ستة آلاف مقاتل بقيادة ابنه عبد الله، واشترط أن يكون أمير صقلية من أتباعه. ولما تعرَّض أحمد الأكحل للهزيمة على يد القوات الإفريقية، اجتاز مضيق مسينا والتجأ إلى القطبان البيزنطي قسطنطين أوبوس قائد الثغور البيزنطية في إيطاليا[(١)].

شجَّع هذا الانقسام بين مسلمي صقلية، البيزنطيين على غزوها، فأرسل إليها الأمبراطور ميخائيل الرابع حملتين، الأولى في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) لم تحقِّق أي نجاح، إذ أن القائد البيزنطي قسطنطين أوبوس، الذي قاد الحملة، لم يستطع المضي في عملياته العسكرية نتيجة ما صادفه من مقاومة شديدة بسبب تفوُّق القوات الإفريقية في العدد، والراجح أنه حصل اتفاق بين الطرفين، فغادر القائد البيزنطي، الجزيرة. وكل ما ترتَّب على هذه الحملة من نتائج، إطلاق سراح خمسة عشر ألف أسير نصراني كانوا في حوزة المسلمين في صقلية. وما لبثت السيادة على الجزيرة أن أضحت في يد عبد الله بن المعز بن باديس، بينما لقي أحمد الأكحل مصرعه على يد أنصاره في بلرم[(٢)].

والواقع أن بيزنطية لم تحفل بما بذلته من جهود لمساعدة أحمد الأكحل، وقرَّرت أن تستفيد من النزاع المحتدم بين المسلمين في صقلية، فجهَّزت حملة ثانية لمهاجمة الجزيرة وإخضاعها للحكم البيزنطي.

وبذل الأمبراطور ميخائيل الرابع والطواشي حنا، المتحكِّم في حكومة الدولة البيزنطية، جهوداً كبيرة في إعدادها، وجعلا قيادتها للقائد جورج مانياكس الذي اشتهر بحروبه ضد المسلمين في الشرق[(٣)]، وسانده أسطول بحري بقيادة البطريق ستيفانوس صهر الأمبراطور. وانضم إلى الحملة حاكم الثغور البيزنطية في إيطاليا، وقائد لومباردي يدعى أردوين، نظراً لخبرته بطرق البلاد ومسالكها، وقد عمل كدليل للحملة أثناء سيرها إلى صقلية، وتلقَّى القائد البيزنطي مساعدة من النورمان[(٤)].

استغرق إعداد الحملة زهاء عام، اكتمل في عام (٤٣٠هـ/ أواخر عام

---

(١) النويري: جـ ٢٤ ص ٣٧٩. Schlumberger: III. p. 226.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٧٨ ـ ٣٨٨. Ibid.

(٣) Ibid: p. 227.

(٤) Ibid: pp. 234 - 236. Haskins: The Norman in the European History p. 201.

١٠٣٨م)، فغادرت ريو واجتازت مضيق فارو، وأنزلت جنودها في صقلية، فزحفوا نحو مسينا، واستطاع جورج مانياكس، بفضل مساعدة النورمان والسكان النصارى، أن يستولي على المدينة، وأخضع ثلاث عشرة مدينة على امتداد الساحل الشرقي للجزيرة الذي يُعد من أخصب الجهات وأكثرها سكاناً[١]. وفي (منتصف عام ٤٣١هـ/ أوائل عام ١٠٤٠م) وصل إلى سرقسطة، وحاصرها، وتجلَّت بطولة المسلمين في الدفاع عن المدينة، فنسوا ما بينهم من خلافات، واستبسلوا في القتال. وحشد عبد الله بن المعز بن باديس، من أقاليم الجزيرة، جيشاً ضخماً يزيد على ستين ألف مقاتل، وهاجم مؤخرة الجيش البيزنطي، وأرغمه على رفع الحصار عن سرقسطة، وجرى قتال بين الطرفين بالقرب من أتنا[٢].

على أن ما حدث من استدعاء جورج مانياكس إلى القسطنطينية للتخوف من أطماعه على الأغلب، فضلاً عن شدَّة المسلمين في القتال، هيأ لهؤلاء الفرصة لاسترداد ما استولى عليه البيزنطيون[٣]، وعادت الجزيرة بأكملها إلى حوزتهم.

عادت النزاعات الداخلية بين المسلمين بعد زوال الخطر البيزنطي. وعيَّن فريق من السكان عليهم الحسن صمصام الدولة، أخا أحمد الأكحل، لكن هذا الوالي لم يحسن التصرف، فعُزل في عام (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)[٤]، وانتهى بعزله حكم الكلبيين في الجزيرة، واستقلَّت كل طائفة بناحيتها. واستعان ابن الثمنة، حاكم سرقسطة، بالنورمان الذين دخلوا مسينا في عام (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)، واتخذوها قاعدة لمواصلة القتال ضد قصريانة وجرجنت التابعتين للقائد علي بن نعمة، المعروف بابن الحواس، غير أن هجماتهم باءت بالفشل.

وبوفاة ابن الثمنة في عام (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م)، تراجع النورمان إلى مسينا، وتوقفت أعمالهم العسكرية لمدة قصيرة بسبب النزاع بين الأخوين روبرت وروجر جويسكار، ثم اتفقا على اقتسام ما يقع بأيديهما من المدن والمعاقل، وتفرغا للمضي في الاستيلاء على صقلية، مستغلين الانقسام الداخلي، فهزما أيوباً بن تميم الزيري الذي استنجد به المسلمون في صقلية في عام (٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)، ثم وقع النزاع بين جنده وسكان جرجنت، فغادر الجزيرة عائداً إلى شمال إفريقية، وعمَّ الاضطراب صفوف المسلمين بصقلية[٥].

---

(١) Schlumberger: Ibid p. 236.
(٢) Ibid.
(٣) العريني: ص ٨٠٦ ـ ٨٠٧.
(٤) النويري: جـ ٢٤ ص ٣٧٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٣٨٢.

وبعد أن استولى روبرت جويسكار النورماندي على مدينة باري من البيزنطيين في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، أدرك أنه لا بد من إنشاء قوة بحرية تساعده على الاستيلاء على صقلية، ولما تحقَّق له ذلك، استولى على قطانية، وبلرم، ومازر، فطوَّق بذلك أميري سرقسطة وقصريانة في الشمال[١].

وانفرد روجر بحكم صقلية بعد وفاة روبرت في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، على أن الاستيلاء على كامل صقلية لم يكتمل إلا بسقوط جرجنت في عام (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) وقصريانة في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)[٢].

وهكذا، لم يتمكّن الفاطميون من المحافظة على الحكم الإسلامي في صقلية، ففقدوا نفوذهم فيها وخرجوا منها.

---

(١) النويري: جـ ٢٤ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٨٣.

Camb. Med. History: V. pp. 175 - 184. Baldwin: The Crusades: pp. 61 - 66.

الفَصْل الثَاني عَشر

تدهور الدولة الفاطمية وتراجعها في ظل حكم الوزراء

تمهيد

أُصيبت الدولة الفاطمية، والدوائر الحاكمة، بفساد شديد خلال المدة الواقعة بين وفاة المستنصر في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) وسقوط الدولة في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) حيث برز نفوذ الوزراء واضحاً. فقد حكم، خلال هذه المدة، ستة أئمة فاطميين لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس الحكم بفعل صغر سنه باستثناء الحافظ الذي تولى الحكم راشداً، إلا بواسطة وزراء كانوا أحياناً مثالاً للفساد، وأحياناً أخرى مشفقين على الدولة من الانهيار، كما كانوا يقومون بإصلاحات تعطي الدولة حيوية، تُمكِّنها من إدارة أمورها لعدة أعوام. وبالمقارنة مع العصرين الإفريقي والمصري، حتى وفاة المستنصر، فإن المدة الممتدة على مدار الثمانين عاماً تتخذ مظهراً أقل روعة، على الرغم من ظهور شخصيات قيادية عملت على صون هيبة الدولة في الخارج. وكانت الانتكاسات التي لحقت بالفاطميين في شمال إفريقية والمشرق الإسلامي شواهد واضحة على ما أصاب الدولة من ضعف.

والواقع أن ضعف الدولة الفاطمية كان ظاهراً خلال تلك المدة، وهو عائد إلى أسباب منها ما يتعلق بالأوضاع الداخلية، ومنها ما يتصل بعلاقات الدولة الفاطمية الخارجية، إذ لم يكن خلفاء المستنصر أهلاً لمواجهة الظروف المستجدة في المشرق الإسلامي، كما كانت سياسة الدولة المذهبية باحتقار كل ما هو غير إسماعيلي، بفعل الآراء المذهبية التقليدية، من حيث ارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالخروج على الدين، مما هيَّأ لبروز قصور الدولة الظاهر عن الاتصال الوثيق بالحياة المذهبية السنيَّة الطاغية في المشرق الإسلامي، والتجاوب مع متطلبات العصر.

ويلاحظ خلال تلك المدة، تكرار مشاهد الفتن والمنافسات والمؤامرات التي

تكاد لا تنقطع، وضعف اهتمام الأئمة الفاطميين بمزاولة شؤون الدولة في ظل وزراء أقوياء، حيث كان هؤلاء يولون أئمة صغاراً ليحافظوا على امتيازاتهم وسلطاتهم، وشهدت الدوائر الفاطمية، لأول مرة، تدخل الوزراء في تنصيب وعزل الأئمة.

وبدأت عوامل الانحلال تظهر شيئاً فشيئاً في جسم الدولة بعد وفاة المستنصر، فكثرت الثورات الداخلية، وازداد التنافس بين الوزراء، والواقع أن هذه العوامل كانت أثراً من آثار انتقال الدولة من حالة القوة إلى حالة الضعف.

أما في مجال العلاقات الخارجية، فقد اعترضت الدولة عدة عقبات أدَّت إلى تراجعها لعل أبرزها ظهور الدول الأتابكية في المشرق الإسلامي، والغزو الأوربي للمشرق الإسلامي فيما عُرف بالحروب الصليبية.

هذا، وسنرصد، في الفصول التالية، أوضاع الدولة الفاطمية بمنهجية مختلفة من الناحيتين الداخلية والخارجية بفعل تراجع نفوذ الأئمة الفاطميين الذين فقدوا اختصاصاتهم، ووقعوا تحت تأثير الوزراء الذين طبعوا ما تبقى من التاريخ الفاطمي بطابعهم. ويمكن القول بأن تاريخ هذه المرحلة هو تاريخ الوزراء الفاطميين وليس تاريخاً للأئمة الفاطميين.

انقسام الدعوة الإسماعيلية

تعرَّضت الدعوة الإسماعيلية لخضَّة سياسية ومذهبية حادة بعد وفاة المستنصر، نتجت عن تدخل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، وأدَّت إلى انقسامها إلى قسمين، وكان لها آثار جسيمة سواء في مصر أو في خارجها. خلَّف المستنصر عدة أولاد منهم نزار، وهو الأكبر، ومحمد وعبد الله وإسماعيل والمحسن والحسن وحيدرة وأحمد، وهو الأصغر، فتوفي بعضهم في حياته، وذكرت المصادر بعد وفاة المستنصر أسماء نزار وعبد الله وإسماعيل وأحمد، كانوا لا يزالون على قيد الحياة[١].

وتبعاً للنظرية الإسماعيلية بانتقال الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر، كان نزار هو صاحب الحق الشرعي في خلافة أبيه في منصب الإمامة، على الرغم من أن المستنصر أبدى رأيه في النص على خلفه، وقد رشَّح نزاراً ليخلفه، لكن لم تُجر أي احتفالات لتنصيبه ولياً للعهد، بل سكَّ اسمه على العملة، وربما أشار إلى خاصته بولايته[٢].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١١.

(٢) السيوطي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جـ ٢ ص ٢٥.

والواقع أن المستنصر أراد، قبيل وفاته، أخذ البيعة لابنة نزار على رجال الدولة، فتقاعس الوزير الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات، لكراهته لنزار[١].

تجاهل الوزير الأفضل هذا التقليد وذاك الترشيح، فأبعد نزاراً عن الحكم، وأجلس أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد، ولقَّبه بالمستعلي بالله، وذلك يوم الخمس (١٨ ذي الحجة ٤٨٧هـ/ ٢٩ كانون الأول ١٠٩٤م)[٢].

ويبدو أن ثلاثة أسباب دفعت الوزير الأفضل إلى هذا التصرف:

الأول: صغر سن المستعلي بالمقارنة مع سن نزار. فقد كان عمر الأول عشرين عاماً، وعمر الثاني خمسين عاماً، مما يتيح له التحكم به إذا ما ولَّاه الإمامة، ويصبح مطلق التصرف في شؤون الدولة.

الثاني: الترابط العائلي، فقد كان المستعلي زوج أخته، ست الملك، ابنة بدر الجمالي[٣].

الثالث: الغيرة، فقد كان الوزير الأفضل يغار من نزار، لذلك وقف موقف العداء منه، وكان يقلِّل من قيمته، ولا يقرِّب أحداً من غلمانه وحاشيته، بل عرَّضهم للأذى، وحذَّر رجال الدولة من قبول مبايعته، وخوَّفهم منه[٤].

ويذكر المؤرخون مباينة وقعت بين نزار والوزير الأفضل. فقد دخل الثاني مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكباً بغلة، فلما رآه نزار قال له: «انزل يا أرمني، يا نجس» فحقد الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما للآخر[٥]. وأدرك الوزير الأفضل أن لا حكم له في مصر مع وجود نزار، وأنه سوف يقصيه عن الوزارة إذا تولى العرش، وبخاصة أنه كان على علاقة طيبة مع محمد بن مصال اللكِّي، وقد وعده بتوليته الوزارة وقيادة الجيوش إذا تولى الحكم[٦].

انتهز الوزير الأفضل، فرصة وفاة المستنصر، وأشار على الأمراء بتولية ابنه الأصغر أبي القاسم أحمد، واختاره دون بقية إخوته. وتبعاً لما ذكره المؤرخون فإن المستنصر نعت ابنه، أبا القاسم أحمد، عندما عقد نكاحه على ابنة بدر الجمالي بـ «ولي عهد المؤمنين» وكتب ذلك في كتاب الصداق، وعلَّم عليه بخطه[٧].

---

(١) ابن ميسر: ص ٣٥.

(٢) المقريزي: جـ ٣ ص ص ١١.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٨٥.

(٤) ابن ميسر: ص ٣٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه. ابن ظافر: ص ٨٣.

(٧) يميز الفاطميون بين ولاية عهد المؤمنين وولاية عهد المسلمين. وتبرز الصفة الأولى على أنها تدل =

واستدعى الوزير الأفضل أولاد المستنصر، وأخبرهم بوفاة أبيهم وضرورة حضورهم فلما حضروا، وأبصروا أخاهم الأصغر جالساً بزي الخلافة، امتعضوا وأنكروا ذلك، فقال لهم الوزير الأفضل: «تقدموا قبِّلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي وبايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده»، فامتنعوا من ذلك، وقال كل منهم إن والده واعده بالخلافة. فقال نزار: «لو قُطِّعتُ ما بايعت من هو أصغر سناً مني، وخط والدي عندي بأني ولي عهده وأنا أُحضِره». وخرج مسرعاً ليحضر الخط فمضى لا يدري به أحد وتوجه إلى الإسكندرية[1]. والواضح أن هذا كان حجة من نزار لكي يتخلَّص من الموقف الحرج، وأيده بعض رجال الدولة بمن فيهم أحد غلمان بدر الجمالي.

ولما علم الوزير الأفضل بفرار نزار قبض فوراً على أخويه عبد الله وإسماعيل وسجنهما في المسجد بالقصر، وجعل مع كل واحد منهما عشرة رجال للحفاظ عليه. وأُقيمت مراسم البيعة الرسمية للمستعلي، فجلس على سرير الملك في الإيوان الكبير ومعه الوزير الأفضل. وحضر قاضي القضاة علي بن نافع الكحال، وشهود القاهرة ومصر، وأخذوا البيعة على مقدِّمي الدولة ورجالها. ثم أخطر الوزير الأفضل كلاً من عبد الله وإسماعيل، فدخلا على المستعلي وقبَّلا الأرض بين يديه وسلَّما عليه بالإمامة، واستوفى القاضي عليهما أيمان البيعة، وأنفذ الوزير الأفضل قوة عسكرية للقبض على نزار، غير أن الجنود فشلوا في اللحاق به وتتبع أثره والعثور عليه[2].

نتائج انقسام الدعوة الإسماعيلية

أدَّى إقصاء نزار عن الإمامة، على الرغم من أحقيته لها، إلى نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية، ويُعدُّ إبعاده وتولية المستعلي انقلاباً مذهبياً وسياسياً واضحاً قام به الوزير الأفضل ليحافظ على مكتسباته وسلطاته التي كان يتمتع بها منفرداً منذ أواخر عهد المستنصر.

وهكذا نجد أن الوزراء الفاطميين أرباب السيوف تلاعبوا بالعقيدة

= على الإيمان، في حين أن الثانية تدل على الإسلام، وأن الإيمان هو المعوَّل عليه في العقيدة الإسماعيلية لما فيه من إقرار بحق الأئمة الفاطميين، بالإضافة إلى الإقرار بعقيدة الإسلام، إذ أن ولاية عهد المؤمنين تتضمَّن ولاية عهد المسلمين، لأن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس.

(١) ابن ميسر: جـ ٣٥.
(٢) المصدر نفسه.

الإسماعيلية، ولم يبالوا بها، فكانوا يعينون الإمام الذي يريدونه، حتى ولو لم يكن له الحق، حسب العقيدة الإسماعيلية في الزعامة[1].

فرَّ نزار الذي رفض الاعتراف بإمامة أخيه الأصغر إلى الإسكندرية كما ذكرنا، وصحبه محمود بن مصال اللكِّي حيث ظنَّ أن باستطاعته استعادة سلطانه الذي سُلب منه، بمعاونة والي المدينة ناصر الدولة أفتكين التركي الذي رحَّب به، وهو أحد غلمان بدر الجمالي، فأعلن نفسه إماماً وتلقب بلقب «المصطفى لدين الله»[2]، وانضمَّت إليه كل الأجناد التي حاربها بدر الجمالي من عربان وسودان ومغاربة بحيث زاد عددهم على ثلاثين ألف فارس وراجل، واستولى أنصاره على معظم الدلتا.

لكن ثورة نزار لم تنجح بسبب تأييد الجيش للوزير الأفضل الذي تمكَّن، بعد محاولتين، من هزيمته. وجرى قتال ضار في موضع كوم الريش بجوار القاهرة تقهقر بنتيجته نزار ومعه ناصر الدولة أفتكين، وعاد إلى الإسكندرية، فحاصر الوزير الأفضل المدينة براً وبحراً، وضربها بالأحجار واللهب. واستمر القتال من (شهر صفر إلى شهر ذي القعدة ٤٨٨هـ/ شهر شباط إلى شهر تشرين الثاني ١٠٩٥م)، أي حوالي عشرة أشهر، تضايق السكان خلالها، وأيقنوا أنه لا طاقة لهم على الصمود أكثر من ذلك، وبخاصة أن المؤن بدأت بالنفاد، فطلب ناصر الدولة أفتكين الأمان له ولنزار ولأهل البلد، فأمَّنهم الوزير الأفضل، إلا أنه قبض عليهما بعد ذلك، وأرسلهما إلى القاهرة. أما محمود بن مصال فقد هرب إلى المغرب. وقبل عودته إلى القاهرة، أجرى الوزير الأفضل تغييراً في موظفي الدولة لا سيما في منصب القضاء بعد أن اعتقل قاضي الإسكندرية محمود بن عمار وقتله، وعيَّن عليها والياً يثق به[3].

واعترافاً منه بحق وزيره الذي حفظ له العرش، وهو قابع في القاهرة، أرسل المستعلي إليه هدايا كثيرة، وخلع عليه بملابسه وتاجه وعمامته، واستقبله لدى عودته عند بركة الحبش[4]. وسيق نزار وناصر الدولة أفتكين في اليوم التالي إلى مجلس المستعلي، فلما رأى نزاراً صاح في وجهه، وانتهره، وأمر بإخراجه. واعتُقل نزار

---

(١) سيد: ص ١٥٥.

(٢) ابن ميسر: ص ٣٥ ـ ٣٦. ابن ظافر: ص ٨٣. المقريزي: جـ ٣ ص ١٣.

(٣) ابن ميسر: ص ٣٦ ـ ٣٧. ابن ظافر: ص ٨٣ ـ ٨٤. المقريزي: جـ ٣ ص ١٤.

(٤) بركة الحبش أرض في وهدة من الأرض واسعة تقع على النيل خلف القرافة، وهي من أجلِّ منتزهات مصر، وليست ببركة للماء وإنما شُبِّهت بها. الحموي: جـ ١ ص ٤٠١. المقريزي: خطط جـ ٣ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٥.

بالقصر؛ وضُيِّق عليه حتى مات، أو أنه قتل بالقصر. أما ناصر الدولة أفتكين فإنه أُهين، وسُجن في مكان في دار الوزير الأفضل، ثم قُتل بالعصي، كما قَتَل الوزير الأفضل أعوانهما[١].

واعترف بإمامة المستعلي القسم الأكبر من الإسماعيلية، في مصر وبلاد الشام، وكل الطائفة الإسماعيلية في اليمن والهند، وعُرفوا بالمستعلية، نسبة إلى المستعلي، أو بالإسماعيلية الغربية.

ظهور الإسماعيلية النزارية

أثار تدخل الوزير الأفضل في نص المستنصر غضب بعض الدعاة في مصر، وبخاصة بعد أن اتبع الشدَّة مع الذين لم يوافقوه، واضطهدهم، فنفى أسرة بني عبد القوي إلى المغرب.

واستطاع أحد الدعاة الزائرين لمصر في أيام المستنصر، أن يثير معارضة جدِّية خارج مصر. هذا الداعية هو الحسن بن الصباح المشهور بالحميري، نسبة إلى حمير القبيلة اليمنية. هاجر والده من اليمن إلى الري واستوطن فيها، وهناك وُلد الحسن[٢]، في بيت اشتهر بالتشيع على المذهب الإثني عشري. واهتم منذ شبابه بتلقي العلوم والمعارف والتزود بكل ما يستطيعه من أجل توسيع مداركه، وعمل في دواوين الدولة السلجوقية في عهد السلطان ألب أرسلان، وتقرَّب من السلطان ملكشاه، وتعرَّف على داعية فاطمي اسمه مؤمن كان موفداً إلى الري من قِبل أحمد بن عبد الملك بن عطاش، داعي دعاة العراقين العربي والعجمي، ثم أضحى من تلاميذه، وتقلَّد رئاسة الدعوة الإسماعيلية في أصفهان، وأرسله إلى مصر في عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) ليتعمَّق في دراسة المذهب الإسماعيلي في دار الحكمة، فوصل إلى القاهرة في عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م). ولعله كان يأمل في التتلمذ على يد داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وهو فارسي، لكن المؤيد توفي قبل أن يصل، إلا أنه استفاد مما وجده من كتبه وتلاميذه.

ظل الحسن بن الصباح مقيماً في مصر زهاء ثمانية عشر شهراً، كان خلالها موضع حفاوة المستنصر، فأمدَّه بالأموال، وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته في بلاد

---

(١) ابن أيبك: جـ ٦ ص ٣٥٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٦٦.

(٢) الجويني، عطا ملك: تاريخ جهانكشاي، في كتاب محمد السعيد، جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران ص ١٦٣.

العجم. وفي أثناء ذلك، سأله عمن يكون الإمام من بعده، فأخبره المستنصر بولاية عهده لابنه نزار[1]. وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار تتفق مع التعاليم الإسماعيلية التي تشترط في الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه.

وتنفي بعض المصادر حصول هذا اللقاء مع المستنصر، لأن أمير الجيوش بدر الجمالي لم يرحِّب بالحسن بن الصباح في مصر، ورأى في وجوده خطراً على كيانه، فحال بينه وبين لقاء المستنصر، بل سجنه في مدينة دمياط، ثم نفاه إلى بلاد المغرب، لكن الرياح ألقت بالسفينة التي أقلَّته على سواحل بلاد الشام، ففرَّ منها عائداً إلى بلاد فارس، وذلك في شهر (ذي الحجة ٤٧٣هـ/ أيار ١٠٨١م)[2].

ولا شك بأن إقامة الحسن بن الصباح في مصر أتاحت له التعرُّف على أحوال الدولة الفاطمية، وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظل سيطرة بدر الجمالي. وقد عزم على إقامة الدعوة للمستنصر في فارس وخراسان، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي صرف يعمل أعضاؤه على نشر المذهب الذي عُرف بعد وفاة المستنصر بالإسماعيلية الجديدة[3]، لذلك عُرف هو وأتباعه بالنزارية أو الإسماعيلية الشرقية، كما عُرفت فرقته بالحشيشية، ربما لتعاطي أفرادها الحشيش أثناء قيامهم بعمليات انتحارية، وسماهم أعداؤهم بالباطنية لأنهم يرون لكل ظاهر باطناً، وسموا، هم أنفسهم، بالتعليمية[4].

وعندما توفي المستنصر وخلفه ابنه المستعلي، خطب الحسن بن الصباح لنزار، وأذاع بين أنصاره أن المستعلي اغتصب الإمامة من نزار، وبذل جهداً كبيراً في الرد على حجج طائفة المستعلية.

الأوضاع الداخلية في مصر في عهد الوزراء

الوزير الأفضل بن بدر الجمالي: ٤٨٧ ـ ٥١٥هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٢١م

بعد القضاء على الفتنة التي أثارها نزار، قبض الأفضل على شؤون الحكم في مصر، واستبدَّ بالسلطة دون المستعلي، وأضحى وزير السيف. فهو «سلطان مصر وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد، والقضاة، والكتَّاب وسائر الرعية، وهو الذي يولِّي المناصب الديوانية والدينية»، وبلغ نفوذه

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٧٥.

(٢) الجويني: ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٣) سيد: ص ١٥٧.

(٤) الشهرستاني: جـ ١ ص ١٩٢.

حداً أنه لما توفي المستعلي في عام (٤٩٥هـ/ ١١٠١م)، نصَّب ابنه أبا علي المنصور مكانه في الإمامة ولقبه بالآمر بأحكام الله وكان عمره خمسة أعوام وشهر وأيام (٤٩٥ـ ٥٢٤هـ/ ١١٠١ـ ١١٣٠م)[١].

وجاء في سجل تولية الآمر «... وقد كان الإمام المستعلي، قدس الله روحه، عند نقلته، جعل لي عقد الخلافة من بعده، وأودعني ما حازه من أبيه وجدِّه، وعهد إليَّ أن أخلفه في العالم، وأُجزي الكافة في العدل والإحسان على منهجه المتعالم... وأوصاني بالعطف على البرية، والعمل منهم بسيرتهم المرضية... وكان ممن ألقاه إليَّ، وأوجبه عليَّ، أن أُعلي محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم، وما يجب له من التبجيل والتكريم. وأن الإمام المستنصر بالله كان عندما عهد إليه، ونص بالخلافة عليه، أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجلَّ خليفة وخليلاً، ويجعله للإمامة زعيماً وكفيلاً، ويغدق به أمر النظر والتقرير، ويفوض إليه تدبير ما وراء السرير، وأنه عمل بهذه الوصية، وأنه عجَّل بهذه الوصية... وأسند إليه أحوال العساكر والرعية، وناط أمر الكافة بعزمته الماضية، وهمته العلية... فأوصاني أن أجعله لي كما كان صفياً وظهيراً وألَّا أستر عنه من الأمور صغيراً ولا كبيراً، وأن أقتدي به في رد الأحوال التي إلى تكلُّفه، وإسناد الأمور إلى تدبيره...»[٢].

إن قراءة متأنية لنص هذا السجل الذي يعظِّم الوزير الأفضل، ويفوِّض إليه الأمر، تُظهر لنا بصماته واضحة في التدخل في اختيار نصه في ظل حكم صبي لا يفقه من أمور الدين والدنيا شيئاً.

إذن، كانت السلطة الفعلية في مصر في يد الأفضل بن بدر الجمالي، فهو الوزير وقائد الجيش والمشرف على شؤون القضاء والدعوة، فاستغل سلطته وأجرى بعض التغييرات التي تناولت جانباً من رسوم الفاطميين الدينية، بل أخذ يميل نحو أهل السنَّة؛ فألغى الاحتفال بمولد النبي ﷺ ومولد ابنته فاطمة وعلي بن أبي طالب، ومولد الإمام القائم بالأمر، مما أدَّى إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه المناسبات لتأييد انتسابهم إلى فاطمة وعلي. كما استخدم الموظفين النصارى بكثرة، فعيَّن الشيخ أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني في ديوان التحقيق، وبقي فيه حتى عام (٥٢٨هـ/ ١١٣٤م)، وكان الشيخ أبو الفضل المعروف

---

(١) ابن ميسر: ص ٤٠. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٩٦ وجـ ٤ ص ٨٠.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٥ ـ ٢٦.

بابن الأسقف، كاتب الأفضل والموقع عنه في الأموال والرجال ومتولي ديوان المجلس، والنظر في جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة. وتولى أبو اليمن وزير عبدالمسيح، الديوان بأسفل الأرض. وأحاط الأفضل نفسه بجنود من الأرمن، وشجَّع على هجرتهم التي بدأت منذ مقدم والده في أيام المستنصر[١].

وأقدم الأفضل على خطوة جريئة ليس لها سابقة في تاريخ الفاطميين ، فنقل مقر الحكم من القاهرة، إذ بنى لنفسه داراً على النيل جنوب الفسطاط سماها دار الملك، انتقل إليها من دار الوزارة في القاهرة في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٧م)، ونقل إليها الدواوين من القصر الفاطمي، وجعل فيها الأسمطة التي كانت تُمدُّ في الأعياد والمواسم، واتخذ بها مجلساً سماه مجلس العطايا، وجعل ديواني الإنشاء والمخاطبات بجوار القاعة الكبرى بدار الملك، فجرَّد الآمر نهائياً من كل سلطاته، وعزله بقصره في القاهرة. وأنشأ بالفسطاط داراً لعمل الفطرة التي توزع في عيد الفطر، ظلَّت الفطرة تُعمل بها مدة. وكانت الفطرة قبل أن ينتقل الأفضل إلى مصر، تعمل بالإيوان وتُفرَّق منه. وحرَّم على الإمام الركوب في المواسم والأعياد، وصار يتصرف في الدولة كالملوك والسلاطين[٢]، وضايق الإسماعيلية النزارية الذين بدأوا يتسللون إلى مصر، فقتل جماعة منهم[٣].

ضاق الآمر ذرعاً بتصرفات وزيره، فحاول الحدَّ من استبداده، فقرَّب أحد الأستاذين، وهو محمد بن فاتك البطائحي، وسلَّم إليه جميع أموره، واعتمد عليه في تصريف أحواله ونعته بـ «القائد»، وصار منه مكان الوزير من الخليفة[٤].

أثارت تصرفات الأفضل الإسماعيلية النزارية، فاشتد خوفه منهم، واتخذ احتياطات أمنية. فأمر بسد باب الزمرد، الذي يصل إلى البستان الكافوري ومنظرة اللؤلؤ، ووضع عليه الحرس لحفظه، ولم يكن يُفتح إلا في يوم فتح الخليج فقط[٥]،

(١) ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين. نظم الفاطميين ورسومهم ص ٧٩. النويري: جـ ٢٨ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥، ٢٨٠. سرور: الدولة الفاطمية في مصر ص ١٠٧.

(٢) ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ص ٢٦ ـ ٢٧. سيد: ص ١٦١.

(٣) ابن ميسر: ص ٥٧.

(٤) المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٨٠.

(٥) هذا الخليج هو الذي حفره عمرو بن العاص لما وُلِّيَ على مصر في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من بحر فسطاط مصر الحلو وألحقه بالقلزم بشاطىء بحر الملح، فكانت مسافته خمسة أيام لتُقرَّب معونة الحجاز من ديار مصر في أيام النيل. ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٢٠٣.

كما أغلق دار العلم في عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م) خشية من اجتماع الناس وتكوين رأي عام معارض لسياسته.

ويبدو أن هذه الاحتياطات لم تمنع النزارية من التسلل إلى مصر، حتى كثر الغرباء فيها. ومن جهة أخرى قرَّر الآمر، عندما بلغ سن الرشد، استعادة سلطته المسلوبة من وزيره المستبد الذي حاول أن يتخلص منه أكثر من مرة بدس السم له، فكان لدى الطرفين مصلحة مشتركة للتخلص منه. فكمنت له مجموعة أثناء عودته من القاهرة إلى دار الملك بالفسطاط، وضربوه بالسيوف عند رأس الجسر المنصوب بين الفسطاط والروضة (ليلة عيد الفطر عام ٥١٥هـ/ كانون الأول عام ١١٢١م)، وحُمل الأفضل إلى داره وبه رمق وقد أثخنته الجراح، لكنه ما لبث أن توفي. ولما علم الآمر بهذه الحادثة، بادر بنفسه إلى دار الأفضل، وختم الدار وبيوت الأموال والخزائن والصناديق، ثم صادرها، وسجن ابنه أبو علي أحمد[١].

وتشير أصابع الاتهام إلى الآمر الذي دبَّر مقتل وزيره بالاتفاق مع القائد محمد بن فاتك البطائحي، وربما بالاتفاق مع الإسماعيلية النزارية نظراً لتوافق المصلحة[٢]. ويذكر ابن القلانسي، الذي توفي بعد الأفضل بنحو أربعين عاماً، وقد استند على الاعتقاد الشائع آنذاك، بأن حادثة القتل كانت تدبيراً من الآمر وأنصاره لدوافع سياسية، بعد أن ضعفت سلطته كثيراً بتدخل الأفضل، فشعر بالحاجة إلى التخلص منه. لكن الأمير عبد المجيد بن المستنصر، ابن عم الآمر، رأى أن ذلك العمل سوف يثير سخط الناس على الأسرة الفاطمية، الذين يقدِّرون الأعمال التي أداها الأفضل وأبوه من قبل لهذه الأسرة ولمصر. وحتى يُبعد الشبهة أقنع الآمر أن يعهد بتنفيذ هذا الأمر إلى الأمير أبي عبد الله المأمون بن البطائحي، وهو أحد الذين أخلصوا للفاطميين، وكان مطلعاً على سره وجهره، ووعده بتوليته منصب الوزارة إذا نجح في ذلك، على أن يختار، هذا الأمير، جماعة من الرجال يقومون بذلك، ثم يُقتلوا بعد تنفيذه، ويُظهر القصر الفاطمي الطلب بدمه والحزن عليه والأسف لفقده «فيكون عذرنا عند كافة الرعية مبسوطاً، ويزول عنَّا قبح القالة وسوء السمعة، فاستقر الأمر على هذه القضية، وشرع في إتمامه»[٣].

ويضيف ابن ميسر أن الآمر سُرَّ بمقتل الأفضل سروراً غير مستور عن كافة

---

(١) ابن ميسر: ص ٥٧ ـ ٥٨.
(٢) النويري: جـ ٢٨ ص ٢٧٩.
(٣) ذيل تاريخ دمشق: ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥.

الخاص. فأظهر الحزن على فَقْد وزيره، فتلثم وتلثم جميع المحنكين والحاشية، وبكى وحاشيته ساعة، ثم أمر بأن يُكتب سجل بتعزية الكافة في الأفضل والثناء على خصائصه ومساعيه، وإشعارهم بتصرف العناية إليهم ومدِّ رواق العدل عليهم، وتفريقه على نسخ تُتلى على رؤوس الأشهاد وبسائر البلاد[١]. ويتهم هذا المؤرخ المصري الإسماعيلية النزارية بتنفيذ عملية الاغتيال، ويذكر أن الأفضل كان قد نفى أحد الباطنية واسمه البديع، لكنه وجد من ساعده حتى سمح له بالعودة إلى مصر حيث التف حوله بعض الأنصار. وهمَّ الأفضل بنفيه إلى اليمن حيث كان يسودها مذهب البديعية بزعامة الحرَّة بنت الصليحي. فحضر عشرة من الباطنية، وعبَّروا عن رغبتهم في اللحاق به في سجنه وسرعان ما انضم إليهم غيرهم، فقبض عليهم وهم نيف وعشرون، وقتلهم جميعاً، مما أثار سخطهم وصمموا على قتله انتقاماً، فتربصوا له وقتلوه[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن حجم التركة التي خلَّفها الأفضل، والتي استمر الآمر في حصرها ونقلها مدة أربعين يوماً، تدل على مدى الثراء الذي كان يتمتع به هذا الوزير القوي الذي هو في الواقع الحاكم الحقيقي للبلاد[٣]، وقد وصف المؤرخون تفاصيل ما وُجد في داره من ذخائر وتحف وأمتعة[٤].

الوزير محمد بن فاتك البطائحي: ٥١٥ ـ ٥١٩هـ/ ١١٢٢ ـ ١١٢٥م

ارتاح الآمر للتخلص من الوزير الأفضل، وكان من الطبيعي أن يعيِّن محمد بن فاتك البطائحي مكانه في منصب الوزارة، وقد امتنع هذا الأخير عن قبول المنصب في بادىء الأمر، فعُيِّن واسطة، ثم تولى الوزارة كاملة في (٢ ذي الحجة ٥١٥هـ/ ١١ شباط ١١٢٢م)[٥]. وقد حفظ الآمر له تصرفه الإيجابي حين استدعاه في أعقاب مقتل الوزير الأفضل لتسلم تركته الضخمة، فشكره وقال له: «والله إنك لمأمون حقاً، ما لك في هذا النعت شريك». ولما قلَّده الوزارة نعته بالأجِّل المأمون فعُرف به[٦]، وطوَّقه بطوق من ذهب مرصع وسيف من ذهب مرصع، وبالغ في إكرامه، فأمر

---

(١) انظر النص عند المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٥٧ ـ ٥٨.
(٣) سيد: ص ١٦٤.
(٤) ابن ميسر: ص ٥٦ ـ ٥٨. ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٨ ـ ٩. النويري: جـ ٢٨ ص ٢٨١ ـ ٢٨٥.
(٥) ابن الصيرفي: ص ١٠٥. ابن الطوير: المصدر نفسه: ص ١٠. ابن ظافر: ص ٨٨. ابن ميسر: المصدر نفسه: ٤٠ ـ ٤١.
(٦) ابن الصيرفي: المصدر نفسه: ابن ميسر: المصدر نفسه: ص ٤١ ـ ٤٢. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٤ ـ ٧٦.

الأمراء وكافة الأستاذين المحنكين[1] بالخروج بين يديه، وأن يركب من المكان الذي كان الأفضل يركب منه، ومشى القواد في ركابه على عادة من تقدمه. وخرج بتشريف الوزارة، ودخل من باب العيد راكباً ووصل إلى داره، فضاعف الرسوم، وأطلق الهبات، وقُرئ سجل توليته على باب المجلس، وهو أول سجل قُرئ في هذا المكان، وكانت سجلات الوزراء تُقرأ قبل ذلك بالإيوان[2].

وأمر الآمر بكتابة سجل آخر بنقل نسبة الأمراء والأستاذين المحنكين من الآمري إلى المأموني تميُّزاً له، فلم يكن أحد منهم ينسب، قبل ذلك، إلى الأفضل أو إلى أبيه بدر الجمالي، وإنما ينسبون إلى الإمام[3].

استغل مأمون البطائحي هذه المبالغة في الإكرام ليحدِّد النهج الذي سيسلكه مع الآمر والذي يضمن بقاءه في السلطة، فاشترط عليه شروطاً مهينة التزم بها كتابة وأقسم له، وهي أن لا يلتفت لحاسد ولا مبغض، ومهما ذكر عنه يطلعه عليه، ولا يأمر في شيء سراً ولا جهراً يكون فيه ذهاب نفسه وانحطاط قدره، وتكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاته، فإذا توفي تكون لأولاده من بعده[4]. ويبدو أن مأمون البطائحي أراد الاستبداد بمنصب الوزارة وجعله وراثياً في عقبه، وقد حرَّر الآمر خطَّه بالأيمان على نسختين، وضع نسخة منها في قصبة فضة، وبقيت الأخرى عند ابن المأمون المؤرخ[5].

وفي مقابل ذلك، طلب الآمر من وزيره استعادة عظمة الأعياد والاحتفالات الرسمية، وهي التي كان الوزير الأفضل قد منعها، وقلَّص فيها دور الإمام، «وأن تبقى الأموال بالقصر ولا تصل إلى الكسوات من الطراز[6]، والثغور إلا إليه، ولا تُفرَّق إلا منه، وتكون أسمطة الأعياد فيه، وتوسَّع في رواتب القصور من كل صنف، وزيادة رسم منديل الكم[7]، من ثلاثين ديناراً إلى مائة دينار في اليوم»[8].

---

(١) المحنكون هم أجلُّ الأستاذين، وهم الذين يدوِّرون عمائمهم على أحناكهم. القلقشندي: جـ ٣ ص ٥٥١.
(٢) ابن الطوير: نظم الفاطميين: ص ٨٠. المقريزي: جـ ٣ ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٣) ابن الطوير: ص ٨٠. المقريزي: جـ ٢ ص ٧٥. (٤) ابن الطوير: ص ٨٠. المقريزي: ص ٧٧.
(٥) ابن الطوير: المصدر نفسه: ص ٨٠ ـ ٨١.
(٦) الطراز: المقصود به دار الطراز، ويتولاها الأعيان من المستخدمين من أرباب الأقلام.
(٧) منديل الكم، ربما يُقصد به مصروف الجيب، والذي كان يُمنح لبعض الأفراد ذوي المكانة، وكان يوضع في منديل في كم الخلعة. سيد ص ١٦٩ هامش رقم ٨.
(٨) ابن الطوير: ص ٨١.

وتُعدُّ مدة خلافة الآمر ووزارة المأمون البطائحي من أزهى مراحل التاريخ الفاطمي في مصر، ويرجع إليه الفضل في تجديد رسوم الدولة وإعادة بهجتها إليها[1]، فاتخذت شكلها النهائي على يده بعد أن انقطعت في أعقاب تسلط الوزير الأفضل، وبسبب ما تعرضت له البلاد في أعقاب الشدَّة. وإذا كان الفاطميون قد عرفوا هذه الرسوم في أول حياتهم السياسية، فقد وُضعت لها في عهد الآمر قواعد صارمة، حيث تقرَّر أن يجلس الآمر الجلوس العام في قاعة الذهب يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع بعد ما كان يتم في أول عهد الدولة كيفما اتفق[2]. ورُتِّب لركوب الإمام ثلاثة أيام في الأسبوع هي أيام الثلاثاء والجمعة والسبت، وكان الوزير يركب في يومي السبت والثلاثاء ويصطحب معه الإمام،، للنزهة، في حين كان يجلس في داره يومي الأحد والأربعاء للراحة[3].

ولعل أهم إنجازات المأمون البطائحي هي تأسيسه في عام (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) دار وكالة لمن يأتي من العراقيين والشاميين وغيرهم من التجار، فهي أول دار وكالة في العهد الفاطمي، وداراً للضرب عرفت باسم الدار الآمرية، وتُعدُّ أول دار للضرب تُنشأ في القاهرة[4]، كما أسس داراً أخرى في قوص عاصمة الوجه القبلي[5].

وأراد الآمر أن يعيد إلى القاهرة رونقها، فأمر وزيره أن يدعو الناس إلى تعمير مواضع الخراب التي نتجت عن الشدة العظمى. وبنى الوزير الجامع الأقمر، الذي افتتح للصلاة في عام (٥١٩هـ/ ١١٢٥م)[6]، وأقام منبراً في المسجد الذي كان الأفضل بناه وهو مطلٌّ على بركة الحبش، وهو المسجد المعروف بجامع الفيلة، وكان، من قبل، مغلقاً ومهجوراً لا يُقصد، فصار الناس يجتمعون به ويسعون إلى ذكر الله فيه[7].

تعرَّض الآمر ووزيره المؤمون البطائحي لمضايقات الإسماعيلية النزارية. إذ أرسلوا عدداً من رسلهم إلى مصر للتنسيق مع أتباعهم فيها والإعداد لتنفيذ مخططهم القاضي بالتخلص منهما، ولكي يواجه الآمر مخططات هذه الجماعة اتخذ عدة تدابير احتياطية نذكر منها:

---

(١) سيد: ص ١٧٠.
(٢) ابن الطوير: ص ٨١ ـ ٨٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٨٢.
(٤) ابن ميسر: ص ٦٢. سيد: ص ١٦٩.
(٥) المقريزي: جـ ٣ ص ٩٣.
(٦) المصدر نفسه: ص ٧٧.
(٧) ابن الصيرفي: ص ١٠٦. المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٧٧ ـ ٧٨.

- أقفل دار الحكمة، خشية من نشر التعاليم النزارية، وإن أُعيد فتحها بعد ذلك، وعُرفت بدار العلم الجديد[1].
- لجأ إلى الدعاية المضادة، فعقد مجلساً في القصر في عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م) شهدت فيه أخت نزار «بأن أخاها لم تكن له إمامة، وأنها بريئة من إمامته، جاحدة له، لاعنة لمن يعقدها»[2]، وبعد أن أتمَّت شهادتها أمر الوزير المأمون البطائحي بكتابة سجل بهذا المعنى قُرىء على منابر مصر، كتبه ابن الصيرفي كاتب الإنشاء[3]، وأرسلت نسخاً إلى ولاة الأقاليم ليذيعوها بين الناس، بهدف الدفاع عن ولاية أبيه بالنص، وهو السجل المعروف بـ «الهداية الآمرية في إبطال الدعوة النزارية»[4]. كما تضمَّن أنه لا سبيل إلى إثبات الإمامة إلا بالنص والاختيار، ولو تمَّ في وقت نقلة الإمام، بالإضافة إلى رسالة «صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام».
- أنشأ جهازاً لمراقبة الوافدين إلى مصر، وفرض نظاماً أمنياً صارماً، كما وضع نقاط مراقبة على الطريق المؤدي من عسقلان إلى القاهرة، وعيَّن والياً جديداً على عسقلان يثق به لأنها أول مدينة تقابل القادم من الشام إلى مصر، وطلب منه أن لا يُبقي في الخدمة إلا من هو معروف من أهل البلاد، وأن يتحرَّى عن أحوال القادمين من تجار وغيرهم، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم، ولا يمكِّن أحداً من الدخول إلى مصر إلا إذا كان معروفاً متردداً عليها من قبل، وكذلك الجمَّالون، ولا يسيِّر قافلة إلا بعد أن يتقدمها كتَّابه إلى الديوان بعدة التجار وأسمائهم وأسماء غلمانهم، وأسماء الجمَّالين، وذكر أصناف البضائع ليقابل بها في مدينة بلبيس وعند وصولهم إلى الباب. وأمر في الوقت نفسه، واليي القاهرة ومصر أن يسقِّعا (يحصيا) البلد شارعاً شارعاً، وحارة حارة، وزقاقاً زقاقاً، بأسماء من فيها من السكان، وأن لا يمكِّنا أحداً من الانتقال من منزل إلى منزل حتى يستأذناه، ويخرج أمره بما يعهداه فيه. ولما تمَّت عملية الإحصاء أرسل الوزير مأمون البطائحي نساء من قِبَلِه للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية، وإعلامه بجميع ما يشاهدنه فيها. فكانت أحوال الناس في القاهرة ومصر تُعرض عليه، ولا يكاد يخفى عنه

---

(١) المقريزي: المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.
(٢) ابن ميسر: ص ٦٦ ـ ٦٧. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٨٦.
(٣) ابن ميسر: المصدر نفسه: ص ٦٧.
(٤) الشيال، جمال الدين: مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٢٠٥ ـ ٢٣٠.

شيء منه، ولذلك امتنع من يـ مل إليه من الباطنية سوى من يصل من بلاد العجم وغيرها لهذا القصد[١]. وعلى الرغم من هذه التدابير الاحتياطية فقد تمكَّن جماعة من النزارية من التسلل إلى مصر.

الواقع أن العلاقة الودية بين الآمر ووزيره مأمون البطائحي لم تستمر طويلاً، إذ بدأ كل واحد منهما يستوحش من الآخر. وقد احتاط المأمون البطائحي لنفسه، فعيَّن أخاه حيدرة بن فاتك، المعروف بالمؤتمن، حاكماً على قسم واسع من مصر، وأسس فرقة عسكرية وضعها تحت تصرفه لتساعده إذا حاول الآمر التخلص منه. وانتشرت شائعات في دوائر القصر بأن المأمون البطائحي ادَّعى الخلافة بطريق أنه ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل به عندما خرج نزار إلى الإسكندرية، فانزعج الآمر من ذلك، وأنه أرسل علي بن نجيب الدولة رسولاً إلى اليمن لإحكام نسبه هناك، ويدْعُ الناس إلى بيعته. عندئذٍ تحقَّق الآمر من نية الغدر، فراح يتحين الفرص للخلاص منه بعد عودة أخيه من الوجه البحري، كما فرَّق بين المؤتمن وبعض قادته أمثال علي بن السّلار، وتاج الملوك قايماز، ودرِّي الحرون، ثم استدعى الأخوين إلى القصر في (٤ رمضان ٥١٩هـ/ ٤ تشرين الأول ١١٢٥م) بحجة إكرامهما وحضور سماط الإمام الذي ينصب كل ليلة في رمضان بقاعة الذهب. فلما انفرد بهما ألقى القبض عليهما واعتقلهما في خزانة البنود، ووضع حراسة مشدَّدة على دورهما، واستدعى الرسول الذي أرسله المأمون البطائحي إلى اليمن، وأمر نجيب الدولة أبا الحسن علي بن أحمد كاتب ديوان الإنشاء بكتابة سجل يبرر فيه تصرفه مع وزيره وأخيه. وجلس في صباح اليوم التالي في الشباك بالإيوان، ونصب كرسي الدعوة أمامه، وطلع قاضي القضاة عليه وقرأه بعد اجتماع الأمراء وأرباب الرتب والعوام، فلم ينتطح فيها عنزان[٢]. وظل المأمون البطائحي في الاعتقال إلى أن قُتل مع أخيه والرسول الذي أرسله إلى اليمن وذلك في عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)[٣].

وفي رواية أن الوزير مأمون البطائحي بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلي، أخي الآمر، يغريه بقتل أخيه والجلوس مكانه، وأنه سيَّر نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن وأمره أن يضرب السكة ويكتب عليها «الإمام المختار محمد بن نزار»، وقيل بل سمَّ مبضعاً ودفعه لفصَّاد الآمر، فأعلموه بالأمر، فأمر باعتقاله مع أخيه[٤].

---

(١) ابن ميسر: ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ١٤ ـ ١٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٦ ـ ١٧.

(٤) ابن ميسر: ص ٦٩.

ومهما يكن من أمر، فقد استقلَّ الآمر بالحكم، بعد عزل الوزير مأمون البطائحي، إلا أنه لم يتمكَّن من تسيير أمور الدولة، بفعل ابتعاده مدة طويلة عن الحكم فاضطر إلى اتخاذ صاحبي ديوان لاستخراج ما يجب لله في أموال الناس من زكاة، وما هو مرتَّب من مكوس، أحدهما مسلم هو أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط، والآخر سامري اسمه أبو يعقوب إبراهيم الكاتب، وأقام معهما مستوفٍ لهاتين المعاملتين هو أبو نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب. وكان صاحبا الديوان يدخلان على الآمر في كل وقت ومعهما المصحف والتوراة، فيحلفان له، كل منهما على كتابه، أنهما لا يتعرضان إلا لمن يجب لبيت المال عليه حق، فيصدقهما، لكنهما اشتطَّا في ابتزاز الناس في أموالهم، فعمَّ البلاء جميع الرؤساء والقضاة والكتَّاب والسوقة، ولم يبقَ أحد إلا وناله مكروه، حتى علم الآمر بذلك، فصرف صاحبي الديوان واعتقلهما في سجن المعونة، ليستعيد منهما ما أخذاه من الناس ظلماً، وأمر الأمير مقداد، والي مصر، بأخذ الراهب إلى الشرطة، وضربه، فضُرب حتى مات وذلك في عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م)[١].

وهكذا حاول الآمر أن يجدِّد شباب الدولة عن طريق إحياء رسومها واحتفالاتها، ولم يكن الهدف من هذا الإحياء وتعبئة المشاعر في سبيل تحقيق الهدف الفاطمي القديم في السيطرة على العالم الإسلامي، بفعل أن هذا الهدف قد نُسي منذ أن تحكَّم الوزراء بمقدرات الدولة، بل إن الفاطميين لم يكونوا قادرين في ذلك الوقت على استعادة ممتلكاتهم التي توزعت بين السلاجقة والصليبيين في بلاد الشام، وإن فكَّر الآمر يوماً بغزو المشرق والغارة على بغداد، فإن ذلك جاء ضمن سياسته في تجديد شباب الدولة. والحقيقة أنه أراد من هذا الإحياء أن يتقرَّب إلى جموع الشعب المصري. فقد كان الانفصال كبيراً بين النظام وأفراد الشعب، وبخاصة بعد أن انقسمت الدعوة الفاطمية على نفسها، وانشق عنها عدد من الأتباع، لا سيما النزاريين الذين أسسوا دولة جديدة في المشرق الإسلامي، وانهماك الآمر بملذاته[٢]. وقد نجح عدد من النزاريين في التسلل إلى مصر وقتلوه في (٢ ذي القعدة ٥٢٤هـ/ ٧ تشرين الأول ١١٣٠م)، وهو في طريقه إلى جزيرة الروضة[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ص ٧١. ابن ظافر: ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) ابن الطوير: ص ١٩. سيد: ص ١٧٦.

(٣) ابن الطوير: ص ٢٤ ـ ٢٦. ابن ميسر: ص ٧٢. ابن ظافر: ص ٩١. ابن القلانسي: ص ٣٦٢.

الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل ٥٢٤ ـ ٥٢٦هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٣١م

أدَّت وفاة الآمر إلى بروز أحداث تجاهلت أسس العقيدة الإسماعيلية مرة أخرى، وهي مؤشر التعجيل بسقوط الدولة الفاطمية في مصر(١). فلأول مرة في تاريخ هذه الدولة، نشأت مشكلة البحث عن وريث للإمامة. فقد مات الآمر دون وريث(٢)، إلا أنه ترك إحدى نسائه حاملاً، وكان يجب الانتظار لمعرفة نتيجة هذا الحمل. وقد اختلفت المصادر في تحديد نوع المولود، فذكر النويري وأبو المحاسن أن الحامل وضعت أنثى(٣)، لكن ابن ميسر يذكر أن الآمر رزق ولداً سماه أبا القاسم الطيب، واحتفل بإعلان البشرى بولايته وتوليته الإمامة من بعده(٤)، إلا أنه لم يتعرض لذكر هذا الولد ومصيره مرة أخرى. وتذكر الرواية اليمنية أن الآمر أرسل سجلاً إلى السيدة الحرة في اليمن يبشرها بميلاد ابنه الطيب(٥). ويبدو أن الدعاة أخرجوه من مصر، وهرَّبوه إلى اليمن بعد قيام أبي علي أحمد بن الأفضل بانقلابه، غير أن هذه الرواية لم تشر إلى مصير هذا الطفل الذي أضحى رأس دعوة إسماعيلية جديدة هي الدعوة الطيبية، اعترف بها إسماعيلية اليمن والهند(٦).

ومهما يكن من أمر فقد برز في هذه الأحداث اسم الأمير أبي الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، ابن عم الآمر، الذي طمع في اعتلاء منصب الإمامة، وهو أكبر الأقارب سناً، وقد بلغ ثمانية وخمسين عاماً من العمر، فكتم أمر هذا الولد بمساعدة شخصين نافذين هما هزار الملوك جوامرد والعادل برغش، وكانا من كبار غلمان الآمر. وحتى يبررا هذه التولية، أمام الدعاة، أعلنا أنها بمثابة نائب لانتظار حمل لإحدى زوجات الآمر التي نص عليها قبل وفاته. فهو لم يُبايَع بالإمامة، وإنما أضحى كفيلاً لحمل منتظر في بطن أمه. إنه إمام مستودع، وفقاً للمصطلح الإسماعيلي. وعيَّن عبد المجيد هزار الملوك جوامرد وزيراً له مما أثار حنق العادل برغش الطامح إلى هذا المنصب أيضاً(٧).

في ظل هذه الظروف المضطربة، والصراع على السلطة، ثارت طوائف الجند،

---

(١) سيد: ص ١٧٧.
(٢) ابن خلكان: جـ ٥ ص ٣٠٢.
(٣) نهاية الأرب: جـ ٢٨ ص ٢٩٨. النجوم الزاهرة: جـ ٥ ص ١٧٤.
(٤) أخبار مصر: ص ٧٢.
(٥) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ١٢٧ ـ ١٢٩.
(٦) سيد: ص ١٨٤ ـ ١٨٦. ماجد، عبد المنعم: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.
(٧) ابن الطوير: ص ٢٦ ـ ٢٧.

وبخاصة الأفضلية، وساندهم العادل برغش، فأخرجوا أبا علي أحمد بن الأفضل الملقب بكتيفات من السجن ونصَّبوه وزيراً في (١٦ ذي القعدة ٥٢٤هـ/ ٢١ تشرين الأول ١١٣٠م). ولُقِّب بالأفضل كأبيه[١].

كان الوزير أبو علي أحمد ينقم على الفاطميين لقتلهم أبيه، واعتقالهم له، فاستهل عهده بقتل كل من عارضه من رجال الدولة لا سيما هزار الملوك جوامرد، وحجر على عبد المجيد في إحدى خزائن القصر، ومنعه من التصرف في شؤون الدولة، وعُرف عنه بأنه إمامي المذهب، فشهد عهده تحولاً مذهبياً تمثَّل بالتدابير التالية:

- أسقط اسم عبد المجيد من الخطبة، واسم إسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنتسب إليه الإسماعيلية.
- قطع صيغة الأذان الإسماعيلي والفاطمي بحي على خير العمل ومحمد وعلي خير البشر.
- دعا للإمام المنتظر الإثني عشري، وضرب دراهم باسمه نقش عليها «الله الصمد، الإمام محمد»، ولم يكن في الأئمة بالديار المصرية من اسمه محمد[٢].
- عيَّن، في عام (٥٢٥هـ/ ١١٣١م)، أربعة قضاة: اثنين من الشيعة، أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي، واثنين من السنَّة، أحدهما شافعي والآخر مالكي، مما دفع المؤرخ ابن ميسر إلى التعليق على ذلك بقوله: «بأنه لم يُسمع بمثل هذا في الملة الإسلامية من قبل»[٣].

وأقدم الوزير أبو علي أحمد على نقل أموال القصر الفاطمي إلى داره، تماماً كما فعل الآمر حين قتل أباه الأفضل وفرّق الغلال على الناس، على سبيل الإنعام لاستقطابهم، وردَّ عليهم الأموال التي توفرت في بيت المال من مال المصادرات التي أخذت في أيام الراهب، وأعاد أملاكاً كثيرة إلى أربابها، وأقطع الطائفة الحجرية التي أدَّت دوراً كبيراً في وصوله إلى السلطة البلاد، وأكرم العادل برغش، وبالغ في تعظيمه والإنعام عليه[٤].

---

(١) ابن الطوير: ص ٢٧ ـ ٣١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٢ ـ ٣٣. ابن ميسر: ص ٧٥.

(٣) أخبار مصر ص ٧٤. ابن الطوير: المصدر نفسه.

(٤) ابن الطوير: ص ٣٢. ابن ميسر: ص ٧٥.

وشهدت الدولة الفاطمية، في المدة التي تولى فيها منصب الوزارة، وضعاً فريداً في تاريخها يدل على ضعف الإمامة وفقدان الحماس لدعوتها[١].

كان من الطبيعي أن يرفض أنصار الدولة الفاطمية هذا الوضع الذي عدُّوه شاذاً، وخشوا من ضياع دولتهم على يد هذا الوزير. فقام غلمان الآمر، بقيادة ناصر الجيوش يانس، وهو أحد رجال القصر، بانقلاب ناجح في (١٦ محرم ٥٢٦هـ/ ٩ كانون الأول ١١٣١م)، فقتلوا أبا علي أحمد وهو يلعب الكرة في الميدان الكبير خارج باب الفتوح، وأخرجوا عبد المجيد من سجنه وعيَّنوه ولياً للعهد وبايعوه على أنه «ولي عهد كفيل لمن يُذكر اسمه»[٢]، واتُّخذ هذا اليوم عيداً سماه عيد النصر، ظل يُحتفل به حتى نهاية عهد الدولة[٣].

تولي الحافظ الإمامة

وحدث أن بويع عبد المجيد بالإمامة، وقُرِئ سجل تعيينه في (٣ ربيع الآخر ٥٢٦هـ/ ٢٣ شباط ١١٣٢م) وتلقَّب بلقب الحافظ لدين الله[٤]، ويتضمن هذا السجل تبريراً لتوليته، إذ أن الآمر أوصى بالإمامة إلى ابن عمه عبد المجيد تماماً مثلما عقد النبي محمد ﷺ الولاية لابن عمه علي بن أبي طالب في غدير خم. ويشير السجل كذلك إلى تسمية الحاكم لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بولي عهد المسلمين، وأن المستنصر كان ينتظر حاله فسمى ابنه ولي عهد المسلمين. وأشاع بين العامة أن الآمر كان يعرف نهايته[٥].

والواقع أن الاعتراف بإمامة الحافظ يُعدُّ خروجاً على أسس نظام الإمامة عند الإسماعيلية الذي يشترط أن تكون الإمامة دائماً في الأعقاب. وبذلك انقسمت الدعوة الإسماعيلية في مصر على نفسها مرة ثانية في أقل من خمسين عاماً إلى:

- طيبية، نسبة إلى الإمام الطيب بن الآمر، الذي اعترف بإمامته كل الطائفة الإسماعيلية في اليمن والهند، إذ أدركت السيدة الحرة التي كانت قد تلقَّت كتاباً من الآمر يعلمها بمولد ولي عهده، أن الحافظ اغتصب الإمامة، وأنه لا حق له بها، وقالت كلمتها المأثورة: «أنا أروى بنت أحمد، بالأمس ولي عهد المسلمين،

---

(١) سيد: ص ١٨٠.
(٢) ابن الطوير: ص ٣٣. ابن ظافر: ص ٩٥. ابن ميسر: ٧٥.
(٣) سيد: ص ١٨٤.
(٤) ابن ميسر: ص ٧٥.
(٥) انظر نص السجل عند القلقشندي: جـ ٩ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٧.

واليوم أمير المؤمنين، لقد جرى في غير ميدانه وادعى أمراً يبعد عن مكانه». وتُعدُّ هذه الدعوة استمراراً للدعوة المستعلية.

- حافظية أو مجيدية، نسبة إلى الحافظ عبد المجيد. وقد نالت تأييد مؤسسة الدعوة في مصر، واعترف بها أغلب الإسماعيلية المستعلية في مصر وبلاد الشام. ومع ذلك، استمرت جماعات من مستعلية هذين البلدين في تبنِّي حقوق الإمام الطيب وعُرفوا بالآمرية، واتخذوا من الإسكندرية مركزاً لحركتهم ومستقراً لدعوتهم[١].

الاضطرابات الداخلية في عهد الحافظ

شهدت الأعوام الأربعون الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية، في مصر، تطورات متسارعة قادت إلى زيادة تدهورها، وعجَّلت بسقوطها. فقد انحصر نفوذ الأئمة نهائياً داخل حدود مصر، وحكم الأئمة الأربعة الأواخر في القاهرة كأسرة حاكمة مصرية محلية بلا سلطة أو نفوذ[٢]. لكن الحافظ هو الإمام الوحيد بين الفاطميين المتأخرين الذي كان رجلاً راشداً عند اعتلائه منصب الإمامة، فحرص على استعادة نفوذ الأئمة وتقليص دور الوزراء، لكن الوزير يانس الأرميني الذي تولى الوزارة بعد أن أدَّى دوراً مميزاً في القضاء على الوزير أبي علي أحمد وتنصيب الحافظ، ونُعت بناصر الجيوش سيف الإسلام، ما لبث أن استبد بالسلطة، وكوَّن لنفسه طائفة من الجند الأرمن عُرفت باسم «اليانسية»، فتخلص منه الحافظ في (ذي الحجة ٥٢٦هـ/ تشرين الثاني ١١٣٢م) ولما يمضِ على توليته منصب الوزارة عام واحد[٣].

لم يتخذ الحافظ بعده وزراء لمدة تجاوزت العام، وأنشأ في غضون ذلك، حرساً خاصاً سماه الحافظ، واعتمد على نفسه في تسيير شؤون الدولة. لكن عهده لم يمر من دون حدوث اضطرابات داخلية نتجت عن الصراع على السلطة بين أبنائه. ففي عام (٥٢٨هـ/ ١١٣٣م) ولَّى الحافظ ابنه الأكبر أبا الربيع سليمان ولياً للعهد، وأقامه مقام وزير «ليستريح من مقاساة الوزراء الذين يجفون عليه ويضايقونه في أمره ونهيه»[٤]، لكن سليمان توفي بعد ذلك بشهرين، فكان ابنه الثاني حسن هو المرشح الطبيعي لولاية العهد، إلا أن الحافظ تجاوزه إلى ابنه الأصغر أبي تراب حيدرة،

---

(١) سيد: ص ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٢) المرجع نفسه: ص ١٨٩.
(٣) ابن ميسر: ص ٧٦. ابن الطوير: ص ٣٦.
(٤) ابن الطوير: ص ٣٧.

بسبب خلافاته المستمرة معه، كما كان حسن عاقّاً لأبيه، وقد حفظ لنا القلقشندي سجل مبايعة الحافظ لولده حيدرة بولاية العهد، وأمره فيه أن يختار من رجال دولته ووجوه أجناده وشيعته طائفة تنتمي إليه تسمى «الطائفة العهدية»، تظل موقوفة على خدمته، وهي أول مرة يقابلنا فيها إنشاء طائفة مماثلة في العصر الفاطمي[1].

أثار هذا التعيين أحقاد حسن، فقام بثورة ناجحة في (١٥ رمضان ٥٢٨هـ/ ٩ تموز ١١٣٤م)، وسيطر على الجيش والدولة بعد أن فرَّق بين طوائف الجند الذين انقسموا إلى طائفتين، الريحانية، وقد ساندت حيدرة، والجيوشية، التي وقفت إلى جانب حسن، وأنشأ طائفة خاصة من الجند عرفت بصبيان الزرد، أي لابسي الدروع، وقتل أمراء الدولة الذين عارضوا توليته وصادر أموالهم، وقد بلغ عدد القتلى نتيجة اشتعال القتال بين الطائفتين زهاء خمسة آلاف، وعدَّ المقريزي ذلك أول مصائب الدولة الفاطمية لما ترتب عليه من إضعافها[2]. واضطر الحافظ إلى الخضوع لإرادة ابنه، وكتب له سجلاً بولاية عهده قُرىء على المنابر في (٢٦ رمضان/ ٢٠ تموز)[3]. وهكذا تمكَّن حسن من الدولة، وتصرَّف فيها حتى لم يبق لأبيه معه حكم البتة[4].

أثار انقلاب حسن بعض قادة الجيش والجند والأمراء، فاجتمع عشرة آلاف منهم أمام قصر الحافظ وهم عازمون على خلعه هو وولده. فلاطفهم الحافظ، وعرَّفهم مكانتهم عنده، وأنه غُلب على أمره. فطالبوه برأس حسن، لكن أباه أمهلهم، وأحضره إلى القصر واحتاط عليه، غير أن الثائرين لم يرضوا بديلاً عن قتله، وأنذروا الحافظ بخلعه إن لم يُنفِّذ طلبهم، فاضطر عندئذٍ إلى الرضوخ وسمَّ ولده، وذلك يوم الثلاثاء (٢٣ جمادى الآخرة ٥٢٩هـ/ ١٠ نيسان ١١٣٥م)[5].

الوزير بهرام الأرميني: ٥٢٩ - ٥٣١ هـ/ ١١٣٥ - ١١٣٧م

استوزر الحافظ أرمينياً نصرانياً اسمه بهرام، ولقَّبه «سيف الإسلام تاج الدولة» وذلك في (١٦ جمادى الآخرة ٥٢٩هـ/ ٣ نيسان ١١٣٥م). وربما كان بهرام قد جاء ضمن الأرمن الذين بدأوا يفدون إلى مصر منذ أيام بدر الجمالي وابنه الأفضل بعد أن وضعت بيزنطية أيديها على أرمينية في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مستغلين التسامح الديني المعروف عن الفاطميين في تلك المرحلة،

---

(١) صبح الأعشى: جـ ٩ ص ٣٩٧ - ٣٩٩.
(٢) اتعاظ الحنفا: جـ ٣ ص ١٤٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٥٠.
(٤) ابن ميسر: ص ٧٦.
(٥) المصدر نفسه: ص ٧٧ - ٧٨. ابن الطوير: ص ٣٧ - ٣٩. المقريزي: جـ ٣ ص ١٥٤.

وموطنه قلعة الروم[1] أو تل باشر[2]، وقد تدرَّج في المناصب العسكرية والإدارية، فكان قائداً للجيش ووالياً على الغربية، فاستدعاه الحسن ليعزِّز موقفه به وبأنصاره من الأرمن البالغ عددهم ألفي فارس. ولما قرب بهرام من القاهرة، كان حسن قد قُتل، فتمسَّكت به طائفة الجند التي أجبرت الحافظ على قتل ابنه، وأصرَّت على توليته الوزارة. فاستجاب لطلبهم خوفاً من الفتنة، فأضحى بذلك أول نصراني يتولى وزارة التفويض للفاطميين[3].

ويبدو أن الحافظ سُرَّ باستخدام وزير نصراني، وظنَّ بأنه سوف لا يستبد به مثل الوزراء المسلمين، في حين لم يشاركه كبار رجال الدولة هذا السرور وأشاروا عليه بأن لا يوليه الوزارة بوصفه نصراني، فلا يرضى عنه المسلمون، ثم إن وزير التفويض يتدخل في القضاء والدعوة، فالقضاة هم نواب الوزراء منذ أيام بدر الجمالي، وهو يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزرر عليه المزرة (الستارة) التي تحجبه عن الناس، فلم يأخذ بمشورتهم، وحلَّ هذه المشكلة بأن خصَّ نفسه بتولية القضاة والدعاة، وجعل القاضي ينوب عنه في صعود المنبر، ولم يرد إليه شيئاً من الأمور الشرعية[4].

تبنّى بهرام، بعد أن استقر في السلطة، سياسة شخصية أرمينية ـ نصرانية ضيِّقة أدَّت إلى سقوطه. فقد طلب من الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله من تل باشر وبلاد الأرمن، فأذن له، وبلغ عدد الأرمن في الديار المصرية، في عهده، حوالي ثلاثين ألفاً، كوَّن منهم عصبة تشدُّ أزره، فاستطالوا على المسلمين، وأصاب هؤلاء منهم جور عظيم، وبنوا العديد من الكنائس والأديرة حتى أضحى كل رئيس من الأرمن يُبنى له كنيسة، وقد بلغت من الكثرة حداً أقلق المسلمين، «وخاف أهل مصر منهم أن يغيِّروا ملة الإسلام»[5]. وفي إطار هذه السياسة، أضحى معظم ولاة الدواوين من النصارى. وولّى بهرام أخاه قاساك ولاية قوص في الصعيد، فاستقوى بأخيه وتمادى في ظلم المسلمين ومصادرة أموالهم[6].

---

(١) قلعة الروم: قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيرة، بينها وبين سميساط، بها مقام بطريرك الأرمن، وهذه القلعة في وسط بلاد المسلمين. الحموي: جـ ٤ ص ٣٩٠.

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان وأهلها نصارى أرمن. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٠.

(٣) ابن ميسر: ص ٧٨. ابن الطوير: ص ٤٣ ـ ٤٤. المقريزي: جـ ٣ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٤) ابن الطوير: ص ٤٤. ابن ميسر: ص ٧٨ ـ ٧٩. ابن ظافر: ص ٩٧.

(٥) ابن ميسر: المصدر نفسه ص ٧٩.

(٦) المصدر نفسه.

لم يرضَ أهل مصر وأعيانها بهذا الوضع الشاذ، ورفعوا شكايتهم إلى الحافظ، كما استدعوا رضوان بن ولخشي، والي الغربية، للقدوم عليهم وإنقاذهم من سيطرة النصارى. فلبّى رضوان طلبهم، وحشد جيشاً من العربان بلغ ثلاثين ألفاً، حثَّهم على الجهاد، وسار على رأسهم باتجاه القاهرة[1]. وخرج بهرام لملاقاته في الدلتا، ولما تقارب الجيشان عمد رضوان بن ولخشي إلى رفع المصاحف على رؤوس الرماح ليستقطب المسلمين في جيش بهرام. وفعلاً ترك هؤلاء جيش بهرام وانضموا إلى صفوف رضوان بن ولخشي، فقويت شوكته بهم. وعندما رأى بهرام ذلك أطلع الحافظ على ما جرى، فنصحه بالالتجاء إلى أخيه ڤاساك في قوص والاحتماء به هناك، وطارده رضوان بن ولخشي حتى الصعيد. وكان أهالي قوص قد علموا بالاصطدامات التي حصلت بين الرجلين، فثاروا في وجه ڤاساك وقتلوه، فاضطر بهرام إلى مواصلة طريقه باتجاه بلاد النوبة النصرانية ليستعين بأهلها، بعد أن انتقم من أهالي قوص. ثم حدث أن تدخل روجر النورماندي، ملك صقلية، لدى الحافظ، فعفا عن بهرام وسمح له بالإقامة في إخميم حيث بقي فيها إلى عام (٥٣٣هـ/ ١١٣٩م)، في حين تقرَّر عودة الجند الذين كانوا معه إلى بلادهم، تل باشر[2].

وهكذا خلت الساحة السياسية لرضوان بن ولخشي، فاستوزره الحافظ في (١١ جمادى الأولى (٥٣١هـ/ ٥ شباط ١١٣٧م)، وتلقب بلقب الأفضل[3].

الوزير رضوان بن ولخشي: ٥٣١ ـ ٥٣٤ هـ/ ١١٣٧ ـ ١١٣٩م

استبد رضوان بن ولخشي بالشؤون العامة على عادة من سبقه من الوزراء، وأضاف إلى ألقابه لقب ملك، ونظم حملة مطاردة ضد الأرمن، فاستولى على أملاكهم وقتل كثيراً منهم[4].

كان رضوان بن ولخشي أول وزير سنِّي يتولى وزارة الفاطميين. اتصف بالشجاعة حتى لُقِّب بـ «فحل الأمراء» وكان بهرام يخشاه، فأخرجه من مصر في عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٥م) وولاه ولاية عسقلان، فمنع كثيراً من الأرمن من التوجه إلى مصر، مما أثار غضب بهرام، فاستدعاه وولَّاه الغربية[5].

وعمد رضوان، بعد أن استقر في منصب الوزارة، إلى استخدام المسلمين في

---

(١) ابن ميسر: ص ٨٠. ابن الطوير: ص ٤٥.
(٢) ابن ميسر: المصدر نفسه ص ٨٠.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ٨٢.
(٥) المصدر نفسه: ص ٧٩.

المناصب التي كانت بأيدي النصارى، وقدَّم أرباب السيوف والقلم، وشدَّد على النصارى أصحاب بهرام، فأباد أكثرهم، وأبعد أبا الكرم الأخرم النصراني عن ديوان النظر، وهو النصراني الوحيد الذي تولى هذا الديوان بالضمان[1]، وعيَّن بدلاً منه مسلماً هو القاضي المرتضى بن المحنك، من دون ضمان[2]، وضيَّق على أهل الذمة من النصارى واليهود فمنعوا من «إرخاء الذوائب وركوب البغلات، ولا يلبس أحد منهم طيلسان، ويظهرون شد الزنانير المخالفة لألوان ثيابهم وحَظْر جوازهم على معابد المسلمين ركباناً»[3]. وأمر أن لا تُسلَّم الجزية منهم إلا على مساطب وهم أسفلها، ومنعهم من التكنِّي بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر، وأن لا يبيضوا قبورهم[4]، وضاعف الجزية عليهم، فجعلها ثلاث درجات:

الأغنياء: يدفعون أربعة دنانير وسدس.

الأوسطون: يدفعون دينارين وقيراطين.

بقية عامة الناس: يدفعون ديناراً واحداً وثلث وربع[5].

كان من الطبيعي أن يضايق رضوان الحافظ، بوصفه وزيراً سنياً، فلم يعترف بشرعية إمامته، وهمَّ بخلعه بحجة أنه ليس إماماً بل كفيلاً لغيره، وذلك الغير لم يصح، واستفتى العلماء في ذلك، فامتنعوا، وبلغ ذلك الحافظ، فاستاء منه، وحقد عليه[6].

يُعدُّ وصول رضوان بن ولخشي إلى منصب الوزارة كأول وزير سنِّي للفاطميين، بداية تحول سنِّي بطيء قاد إلى انتصار السنَّة النهائي في مصر بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً[7]. ولما كانت الإسكندرية من أهم مراكز المقاومة السنيَّة في مصر، فقد بنى فيها رضوان بن ولخشي أول مدرسة في مصر لتدريس المذهب المالكي وذلك في عام (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)، ليقاوم المذهب الشيعي الذي كان قوياً في القاهرة، وليعلي كلمة المذهب السنِّي في مواجهة اتساع نفوذ أهل الذمة الذي تزايد في العقود الأولى للقرن السادس الهجري[8]. ولما كان الإمام الفاطمي مسؤولاً

---

(١) الضمان. نظام مالي غير شرعي أشبه بنظام الالتزام، يتعهَّد بموجبه الضامن أن يدفع إلى الدولة سنوياً مبلغاً اتفاقياً عن قيمة الضرائب والمكوس المفروضة على الجهة أو العمل الذي تضمَّنه مقدماً. انظر فيما يتعلق بنظام الضمان عند الفاطميين: سيد ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦.

(٢) ابن الطوير: ص ٥٠.

(٣) ابن ميسر: ص ٧٩.

(٤) المصدر نفسه. المقريزي: جـ ٣ ص ١٦٥.

(٥) ساويرس: جـ ٣ ص ٣١.

(٦) ابن الطوير: ص ٥١ ـ ٥٢.

(٧) سيد: ص ٢٠٠.

(٨) ابن ميسر: ص ٨٢ ـ ٨٣. النويري: جـ ٢٨ ص ٣٠٤.

عن تعيين المدرسين، بناءً على اقتراح الوزير، فقد نسب رضوان بن ولخشي المدرسة إلى الحافظ، فعُرفت بـ «المدرسة الحافظية». وتولى الفقيه المالكي أبو الطاهر بن عوف، التدريس فيها، ولذلك عُرفت في المصادر باسم المدرسة الصوفية، وقد حفظ القلقشندي نص السجل الخاص بإنشاء هذه المدرسة[١].

أثارت سياسة رضوان بن ولخشي الداخلية استياء الحافظ الذي قرَّر أخيراً عزل وزيره، فاستدعى بهرام وأسكنه معه في القصر واتخذه مستشاراً سياسياً، وحثَّ الجند على التحرش بالوزير، فثاروا عليه، وعجز رضوان بن ولخشي عن مواجهتهم، واضطر إلى الفرار من مصر في (١٥ شوال ٥٣٣هـ/ ١٥ حزيران ١١٣٩م) واحتمى بأمين الدولة كمشتكين الأتابكي صاحب صرخد الذي أحسن استقباله وأكرم ضيافته[٢].

وكان نجم عماد الدين زنكي، مؤسس الأتابكية الزنكية في الموصل وحلب يسطع آنذاك في سماء المشرق الإسلامي، وبخاصة في بلاد الشام وإقليم الجزيرة، فاتصل رضوان بن ولخشي به، وكان يحاصر بعلبك التابعة للبوريين حكام دمشق، وطلب منه إمداده بقوة عسكرية تساعده على دخول القاهرة.

أثار هذا التقارب بين الرجلين أسامة بن منقذ الشيزري الذي كان آنذاك في دمشق، ويتمتع بمكانة عالية لدى حكامها البوريين، وأدرك مدى الخطر الذي يمكن أن يمثله تحالف رضوان مع عماد الدين زنكي على البوريين فأراد استقطابه وإبعاده عن عماد الدين زنكي، فاقترح عليه الحضور إلى دمشق والتباحث مع حكامها في إمكان التعاون، وطلب منه أن ينتظر رسالة تدعوه إلى الحضور. غير أن كمشتكين كان يتعجَّل عودة رضوان إلى مصر، وكان قد وعده، إن هو نجح في استعادة مكانته فيها، أن يقلِّده منصباً أعلى من ولاية على مدينة صغيرة في إقليم حوران في الشام، فأمدَّه بقوة عسكرية من الأتراك زحف بهم باتجاه القاهرة في عام (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م)، إلا أنهم غدروا به بعد دخوله حدود مصر[٣]. وتصدَّى له جيش الحافظ وأرغمه على التوجه إلى الوجه القبلي حيث طارده الأمير أبو الفضائل بن مصال، وعرض عليه عهد الحافظ بالأمان. واضطر رضوان بن ولخشي إلى الاستجابة، وجاء

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٦٥.

(٢) ابن ظافر: ص ٩٩. ابن القلانسي: ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤. ابن ميسر: ص ٨٣. أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص ٥٢ ـ ٥٦. وصرخد: ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. الحموي جـ ٣ ص ٤٠١.

(٣) أسامة بن منقذ: ص ٥٤.

إلى القاهرة، غير أن الحافظ لم يفِ بتعهده، فاعتقله بالقصر في (٤ ربيع الآخر ٥٣٤هـ/ ٢٨ تشرين الثاني ١١٣٩م)، وظل معتقلاً مدة ثمانية أعوام قبل أن ينجح في الهرب في (٢٣ ذي القعدة ٥٤٢هـ/ أول آذار ١١٤٨م)، فالتف حوله جماعة من أنصاره، واستعان بجماعة من العربان، وهزم جيشاً أرسله الحافظ للقبض عليه، عند جامع ابن طولون، ودخل إلى القاهرة ونزل بالجامع الأقمر، وحاول الاتصال برؤساء الدواوين لاستعادة مكانته غير أن الحافظ أمر الجند السودان بالتصدي له، فقتلوه غدراً وحملوا رأسه إلى الحافظ[١].

وكان بهرام قد توفي في القصر في (٢٤ ربيع الآخر ٥٣٥هـ/ ٧ كانون الأول ١١٤٠م)، فحزن عليه الحافظ، وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام حداداً عليه[٢].

أدرك الحافظ، بعدما عانى من تسلط الوزراء، خطر هؤلاء على اختصاصاته، لذلك لم يستوزر أحداً منذ فرار رضوان بن ولخشي، وإنما اتخذ كتَّاباً نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن الأنصاري، والقاضي الموفق محمد بن معصوم التنيسي، وصنيعة الإمامة أبو الأكرم الأخرم النصراني[٣].

وتوفي الحافظ في (٥ جمادى الآخرة ٥٤٤هـ/ ١١ تشرين الأول ١١٤٩م)، وخلفه ابنه الأصغر أبو المنصور إسماعيل، الذي تلقب بلقب الظافر بالله، أو الظافر بأعداء الله (٥٤٤ـ ٥٤٩هـ/ ١١٤٩ـ ١١٥٤م)[٤].

الوزير علي بن السَّلار: ٥٤٤ ـ ٥٤٨هـ/ ١١٥٠ ـ ١١٥٣م

شهدت الدوائر السياسية في مصر، بعد موت الحافظ واعتلاء ابنه الظافر الحكم، نزاعاً بين الجند السودان والجند الأتراك، وتنافساً بين الأمراء على منصب الوزارة، وبرز اسم ناظر الأمور أو المصالح الأمير نجم الدين أبي الفتح سليم بن محمد بن مصال اللكي كمرشح لتولي هذا المنصب، فادعى أن الحافظ نص على ابنه الصغير إسماعيل دون بقية إخوته، وأوصى بتعيينه وزيراً له، فخلع عليه الظافر خلع الوزارة، ولقبه بـ «الأفضل أمير الجيوش سعد الملك ليث الدولة»[٥]، وقد تمكّن من إعادة النظام إلى البلاد بعد أن تصدَّى لطائفتي الريحانية والسودان قرب البهنسا بصعيد مصر.

---

(١) ابن ظافر: ص ٩٩. ابن القلانسي: ص ٤٦٠ ـ ٤٦١. ابن ميسر: ص ٨٧.

(٢) ابن ميسر: المصدر نفسه ص ٨٤.

(٣) ابن ظافر: ص ٩٩.

(٤) ابن الطوير: ص ٥٣. ابن ميسر: ص ٨٩.

(٥) ابن الطوير: ص ٥٥. ابن ميسر: ص ٨٩.

واجه محمد بن مصال معارضة قوية من جانب علي بن السَّلار، والي الإسكندرية والبحيرة الذي رفض أن يلي الوزارة شيخ مثل ابن مصال، واتفق مع ابن زوجته الأمير عباس الصنهاجي، والي الغربية، على الزحف نحو القاهرة، والضغط على الظافر ليوليه الوزارة. ولما علم الظافر بذلك طلب من محمد بن مصال أن يتوجه إلى الحوف ليجمع العربان تمهيداً للتصدي له، لكن علي بن السَّلار تمكَّن من دخول القاهرة، وأجبر الظافر على تعيينه وزيراً، ولقبَّه بـ «العادل سيف الدين ناصر الحق» وذلك في عام (٥٤٤هـ/ ١١٥٠م)، أما ابن مصال فقد استولى على الوجه القبلي. فأرسل إليه ابن السَّلار قوة عسكرية بقيادة عباس الصنهاجي، تعقَّبته، وهزمته وقتلته عند مدينة دلاص قرب البهسنا في (١٩ شوال ٥٤٤هـ/ ١٩ شباط ١١٥٠م)[١]، وبذلك خلت الساحة السياسية لعلي بن السَّلار.

كان علي بن السَّلار كردي الأصل من قبيلة الزرزري، شافعي المذهب، وهو أحد الصبيان الحجرية. أنشأ في عام (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) مدرسة للشافعية في الإسكندرية، وأسند إدارتها إلى الفقيه الشافعي الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، وأدَّى تعصُّبه لهذا المذهب إلى حقد الظافر ورجال دولته عليه، فتعرض لكثير من المؤامرات، واحتاط على نفسه برجال لحراسته عرفوا بصبيان الزرد[٢].

أدى التنافس على منصب الوزارة إلى إشاعة الفوضى في البلاد، كما بلغ الفساد ذروته في القصر الفاطمي الذي حيكت فيه المؤامرات. وأدَّى أسامة بن منقذ، الذي كان آنذاك في مصر، دوراً في إذكائها، فتقرَّب من علي بن السَّلار، واختص بصحبة ابن زوجته عباس الصنهاجي[٣].

وحدث في عام (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) أن أرسل علي بن السَّلار عباساً إلى عسقلان للدفاع عنها ضد هجمات الصليبيين، وصحبه بعض الأمراء منهم ملهم وضرغام وأسامة بن منقذ، فتوقف في بلبيس في انتظار قدوم الإمدادات، وهناك أبدى تألمه أمام أسامة بن منقذ لمغادرته مصر، وإبعاده عنها، فما كان من أسامة بن منقذ إلا أن حرَّضه على العادل علي بن السَّلار، واقترح عليه أن يستغل الصداقة

---

(١) ابن الطوير: ص ٥٥ ـ ٥٩. ابن ميسر: ص ٨٩ ـ ٩٠. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٦٩.

(٢) ابن الطوير: المصدر نفسه ص ٥٩. المقريزي: جـ ٣ ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) ابن ظافر: ص ١٠٢. ابن الطوير: المصدر نفسه ص ٦١.

القائمة بين ابنه نصر الذي كان يصحبه، والظافر، للوصول إلى منصب الوزارة. فعاد نصر أدراجه إلى القاهرة بعد بضعة أيام من سفره إلى بلبيس، دون إذن علي بن السَّلار. وعندما اكتملت خيوط المؤامرة، قَتَلَ نصر، عليَّ بن السّلار وهو نائم في سريره في (٦ محرم ٥٤٨هـ/ ٣ نيسان ١١٥٣م). عاد عباس سريعاً إلى القاهرة ليتولى الوزارة، وذلك بناءً على رسالة أرسلها له ابنه نصر[(١)].

أثارت عملية القتل ردود فعل متنوعة نذكر منها:

- حنق أنصار علي بن السَّلار على الظافر، وحمَّلوه المسؤولية، فشغبوا عليه، ولم يثقوا بوعوده بمنحهم عفواً عاماً، ثم خرجوا من مصر ليلاً قاصدين بلاد الشام خشية من التنكيل بهم[(٢)].
- لم يرضَ أهل السنَّة عن مقتل علي بن السَّلار، إلا أنهم لم يتمكَّنوا من إعلان عدم رضاهم خوفاً من بطش الظافر وعباس الصنهاجي وولده نصر[(٣)].
- استوحش بعض الأمراء من أسامة بن منقذ بسبب الدور الذي قام به في قتل علي بن السَّلار، وهمُّوا بقتله[(٤)].

الوزير عباس الصنهاجي: ٥٤٨ ـ ٥٤٩هـ/ ١١٥٣ ـ ١١٥٤م

كان من الطبيعي أن يعيِّن الظافر عباساً الصنهاجي في منصب الوزارة، ولقَّبه بلقب «السيد الأجلُّ الأفضل أمير الجيوش... أبو الفضل العباس الظافري»[(٥)]. وازدادت الصلة بين عباس وأسامة بن منقذ واعترف الأول بفضل الثاني عليه، كما حاول أن يتقرب من الأمراء والجند لكي ينسيهم العادل بن السَّلار. أما ولده نصر، فقد استمر على مخالطة الظافر، فكان هذا الأخير يخرج من قصره لزيارة نصر بداره بالسيوفيين بحيث لا يعلم عباس بأخبار هذه اللقاءات، ثم علم بها عن طريق أسامة بن منقذ الذي اتهم نصراً بأن الظافر يفعل به ما يفعل مع النساء، فخشي أن تؤدي إلى قتل ولده، فأبدى له انزعاجه مما يتناقله الناس. ومن جهته استمر الظافر في تدبير المؤامرات للتخلص من وزيره، لأنه لم يكن شيعياً مخلصاً، فحرَّض نصراً على قتله. ولما استشعر عباس بالخطر على حياته، حاول التخلص من ابنه بدس السم له، وتدخل أسامة بن منقذ بين الأب وابنه، فأصلح بينهما واتفق الجميع على

---

(١) ابن ظافر: ص ١٠٣. ابن الطوير: ص ٦٢ ـ ٦٤. ابن ميسر: ص ٩٢، أسامة بن منقذ: ص ٤١ ـ ٤٢.
(٢) ابن الطوير: المصدر نفسه ص ٦٤ ـ ٦٥. ابن ميسر: المصدر نفسه.
(٣) ابن الطوير: المصدر نفسه ص ٦٥. سيد: ص ٢١١ ـ ٢١٢.
(٤) ابن ميسر: ص ٩٣.
(٥) ابن الطوير: ص ٦٦.

قتل الظافر. ونفَّذ نصر عملية الاغتيال في (آخر محرم ٥٤٩هـ/ ٢ نيسان ١١٥٤م)، وقد برَّأ أسامة نفسه من هذه التهمة في سيرته الذاتية[١].

اتهم عباس الصنهاجي أخوي الظافر يوسف وجبريل بعملية الاغتيال حسداً على توليه الإمامة من دونهما، وذلك ليبعد الشبهة عنه، وأوهم أهل القصر بذلك، وقتلهما بقتله، وأظهر الكآبة عليه، وأحضر طفلاً صغيراً للظافر يدعى عيسى، وأقامه إماماً، ولقَّبه بالفائز بنصر الله، فكاد الطفل يموت روعاً من هول ما شاهده من منظر الدماء والقتل في القصر، وظل طوال مدة حكمه مصاباً بالصرع[٢].

والواضح أن مقتل علي بن السَّلار بيد نصر، وما تبعه من مقتل الظافر باليد نفسها، يُعد من أخفى حوادث التاريخ في مصر. وأدَّت هذه الأحداث إلى قلق واضطراب المجتمع المصري والقصر، وبخاصة بعد أن انكشفت خيوط المؤامرة، فنشبت الاضطرابات في شوارع القاهرة، وألقى الناس الحجارة على عباس وابنه نصر، كما اعتزلهما أعوانهما، ولما لم يكن لهما طاقة بمقاومة هذا السخط العارم، وتحقَّقا من عداوة المصريين لهما، ورفضهم لحكمهما، هربا مع أسامة بن منقذ إلى أيلة قاصدين بلاد الشام، وحملا معهما أموالهما وتحفهما، ونهب العامة ما بقي من دورهما[٣].

وسارع نساء القصر، في ظل هذه الأجواء السلبية، بالكتابة إلى والي الأشمونين والبهنسا، طلائع بن رزَّيك، الأرميني الأصل، يستنجدن به لإنقاذ الإمامة والبلاد، وأرسلن خصلة من شعرهن في طي الكتب، وهو أقصى ما يمكن التوسل إليه عند المرأة المسلمة[٤].

وما كاد الثلاثة يخرجون من صحراء سيناء حتى انقضَّت عليهم قوات صليبية من حصن الشوبك[٥]، فاستطاع أسامة أن يفلت منهم وفرَّ إلى بلاد الشام، في حين لقي عباس مصرعه، ووقع ابنه نصر في الأسر، وذلك في (٢٣ ربيع الأول ٥٤٩هـ/ ٧ حزيران ١١٥٤م)، فتسلمه الداوية، وهي إحدى الفرق العسكرية الصليبية، في عسقلان[٦]، وعرض نساء القصر مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل إعادته إلى مصر. قَبِل

---

(١) ابن الطوير: ص ٦٧. ابن ميسر: ص ٩٢ ـ ٩٣. أسامة بن منقذ: ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) ابن الطوير: المصدر نفسه ص ٦٨ ـ ٦٩. ابن ميسر: المصدر نفسه ص ٩٣.
(٣) ابن الطوير: ص ٧٠ ـ ٧٢. ابن ميسر: ص ٩٣ ـ ٩٤. أسامة بن منقذ: ص ٤٨.
(٤) ابن الطوير: ص ٧٠، ٧١. ابن ميسر: ص ٩٤. أسامة بن منتقذ: ص ٤٥.
(٥) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك. الحموي: جـ ٣ ص ٣٧٠.
(٦) الداوية: Templers، طائفة عسكرية دينية تُطلق على جماعة فرسان المعبد. تأسست في عام ١١١٩م =

الداوية العرض، وسيق نصر مكبلاً إلى القاهرة حيث شُنق على باب زويلة[1].

الوزير طلائع بن رُزِّيك: ٥٤٩ ـ ٥٥٦هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٦١م

قدم طلائع بن رُزِّيك مع قواته إلى القاهرة في (١٥ ربيع الأول ٥٤٩هـ/ أول حزيران ١١٥٤م)، ودخل إليها وسط تأييد كافة فئات المجتمع، مرتدياً ثياباً سوداء، ويرفع أعلاماً وبنوداً سوداء، ووضع خصلة شعر نساء القصر على الرماح، حزناً على الظافر، ونزل في دار المأمون التي كان يسكنها نصر بن عباس. وعلَّق المقريزي على ذلك بقوله: «فكان هذا من الفأل العجيب، فإن الأعلام العباسية السود دخلت إلى القاهرة وأزالت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة»[2]. وعندما علم بالمكان الذي دُفن فيه الظافر، أخرجه وغسَّله وكفَّنه، وحمله الأستاذون والأمراء في تابوت إلى القصر، ومشى طلائع خلفهم حافي القدمين وقد شقَّ ثيابه، ثم صلَّى عليه ابنه الفائز وأعيد دفنه مع آبائه في تربة القصر المعروفة بتربة الزعفران[3].

خلع الفائز، بعد انتهاء رسوم الجنازة، خِلَع الوزارة على طلائع بن رُزِّيك، وأمر بكتابة سجل نُعت فيه بـ«الملك الصالح» ليصبح أول من تلقَّب بلقب ملك من وزراء الفاطميين، وذلك يوم الخميس في (٤ ربيع الآخر ٥٤٩هـ/ ١٨ حزيران ١١٥٤م)[4].

يُعدُّ طلائع بن رُزِّيك آخر الوزراء الفاطميين الأقوياء، وآخر دعامة في الدولة المتداعية، إلا أنه كان إمامي المذهب، شديد التعصب له، مبغضاً للنصارى[5]، وقد بهرته أضواء الحكم، فاستبد بدوره، واستولى على مقاليد الأمر في البلاد، وتتبَّع كبار رجال الدولة وأعيانها الذين رأى في وجودهم خطراً على نفوذه، وصادر أموالهم، فاضطر بعضهم إلى مغادرة مصر[6]، وأنشأ فرقة عسكرية خاصة به، جلب أفرادها

= لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا وبيت المقدس، ثم تحوَّلت بعد ذلك إلى هيئة عسكرية. وقد منح بلدوين الثاني أفرادها خاناً يقيمون فيه بالقرب من معبد سليمان، ولذلك سموا بفرسان المعبد. أدَّت هذه الطائفة دوراً كبيراً في الحروب الصليبية. انظر فيما يتعلق بتأسيس هذه الطائفة: الصوري، وليم: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار جـ ١ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٨.

(١) ابن ظافر: ص ١٠٩. ابن الطوير: ص ٧٣. ابن ميسر: ص ٩٥. أسامة بن منقذ: ص ٥٠. المقريزي: جـ ٣ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) اتعاظ الحنفاء: المصدر نفسه: ص ٢١٧.

(٣) ابن الطوير: ص ٧٢. ابن ميسر: ص ٩٤. المقريزي: المصدر نفسه: ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٤) ابن ميسر: المصدر نفسه. انظر نص السجل عند السيوطي: جـ ٢ ص ١٨٦ ـ ١٩٢.

(٥) ساويروس. جـ ٣ ص ٤٦. المقريزي: جـ ٣ ص ٢٢٢، ٢٤٩.

(٦) ابن ظافر: ص ١١١. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢١٤.

من برقة، فَعُرفت باسم البرقية، واستنَّ سنَّة جديدة، إذ أخذ يبيع مناصب ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقرَّرة تُعرف بـ «البراطيل»، وجعل لكل ولاية سعراً، وحدَّد مدة كل متولٍّ بستة أشهر فقط، خشية من أن يثوروا عليه، وينازعوه الوزارة. واحتكر الغلات الزراعية حتى غلت أسعارها مما أضعف اقتصاد الدولة، وبنى الجامع الذي ما زال قائماً إلى الآن خارج باب زويلة والذي يعود تاريخ بنائه إلى عام (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)، ويُعدُّ آخر المعالم العمرانية الفاطمية في القاهرة[١].

طمع طلائع بن رُزَّيك في جعل الحكم الفاطمي في عقبه؛ فعندما توفي الفائز في (رجب ٥٥٥هـ/ تموز ١١٦٠م) من دون أن يترك وريثاً، ادَّعى أنه نص على ابن عمه الأمير عبد الله بن يوسف حفيد الحافظ، وهو أصغر الأقارب، وقد قارب سن البلوغ، فعيَّنه إماماً وأقامه في الحكم ولقَّبه بلقب العاضد لدين الله[٢].

ويذكر المقريزي أنه «لما مات الخليفة الفائز، ركب الصالح بن رُزَّيك إلى القصر بثياب الحزن، واستدعى زمام القصر[٣]، وسأله عمن يصلح في القصر للخلافة فقال: ها هنا جماعة، فقال: عرِّفني بأكبرهم، فسمى له واحداً، فأمر بإحضاره، فتقدم إليه أمير يُقال له علي بن مزيد وقال له سراً: لا يكن عباس أحزم منك رأياً حيث اختار الصغير وترك الكبير، واستبدَّ بالأمر. فمال إلى قوله وقال للزمام: أريد منك صغيراً. فقال: عندي ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله وهو دون البلوغ. فقال عليَّ به. فأُحضِر إليه بعمامة لطيفة وثوب مغوَّط... ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء، وهي لبس ولي العهد إذا حزن على ما تقدمه، وقام فألبسه إياها... وما لبث أن أخذ بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه، وأمر بأن يُحمل إليه ثياب الخلافة، فأُلبسها، وبايعه، ثم بايعه الناس ولقَّبه بـ «العاضد لدين الله» وذلك يوم الجمعة (١٨ رجب ٥٥٥هـ/ ٢٤ تموز ١١٦٠م)»[٤].

والواضح أن سلطة الوزراء قد ازدادت في الأيام الأخيرة للعصر الفاطمي حتى أضحوا يتدخَّلون في تولية الأئمة، بل إنهم لم يراعوا في توليتهم مبادىء الإسماعيلية، وفَقَدَ الأئمة في المقابل كافة اختصاصاتهم. وأضحى طلائع بن رُزَّيك

---

(١) المقريزي: جـ ٣ ص ٢٢٢، ٢٥١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٣، وانظر هامش رقم ٢. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٧٠.

(٣) زمام القصر هو الذي يتولى إدارة خدام القصر والإشراف على أعمالهم.

(٤) اتعاظ الحنفا: جـ ٣ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

صاحب الأمر والنهي في الدولة، ولم يكن للعاضد معه أمر ولا نهي، حتى أنه نقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة[1].

وهكذا، استمر يلهو بالأمراء الصغار الذين أضحوا أداة طيعة في يده. وعندما هلَّل أهالي القاهرة لتولية العاضد قال قولته المشهورة يعبِّر عن الواقع السياسي المرير الذي بات فيه الأئمة: «كأني بهؤلاء الجهلة، وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف الثاني، وما علموا أنني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم»[2].

وطمع طلائع بن رُزَّيك أن يجعل أمر الإمامة الفاطمية في عقبه فزوَّج العاضد من ابنته عسى أن ترزق منه ولداً، فيجتمع لبني رُزَّيك الإمامة مع الملك[3].

ضاق العاضد ذرعاً بتسلط وزيره، كما أن نساء القصر لم يقبلن بسهولة بزواج ابنته من الإمام، فحنقن عليه، ودبَّرت السيدة العمة ست القصور، أخت الظافر الكبرى، أمر مقتله، فكمن له بعض الخدم في دهليز القصر وأردوه قتيلاً في (١٩ رمضان ٥٥٦هـ/ ١١ أيلول ١١٦١م). وكانت آخر كلماته التي تفوَّه بها، أسفه لعدم غزو بيت المقدس، واستئصال شأفة الصليبيين، كما تأسَّف لبنائه مسجداً على باب زويلة لأنه مضرَّة على القاهرة، وندم على توليته الأمير شاور بن مجير الدين السعدي حاكماً على الصعيد، فحذَّر ابنه من طموحاته، ونصحه بألا يتعرَّض له بسوء لأنه لن يأمن عصيانه[4].

الوزير العادل رُزَّيك بن طلائع: ٥٥٦ـ٥٥٨هـ/ ١١٦١ـ١١٦٣م

أدَّى مقتل طلائع بن رُزَّيك إلى فتح باب النزاع بين القوى المتنافسة على السلطة في مصر، إلى أن نجح ابنه رُزَّيك في اعتلاء منصب الوزارة وتلقَّب بلقب «الملك العادل مجد الإسلام»[5]، وكان يتولى قيادة الجيش في وزارة أبيه.

اتبع العادل رزَّيك سياسة التسامح، فأسقط الظلم عن الناس، وأدَّى عن الحجاج ما يلزمهم إلى أمير الحرمين[6]. وحاول أهله وأنصاره إثارته ضد شاور ليتم له الأمر من دون منافسة. وكان شاور هذا قد أظهر قدراً من الكفاءة في

---

(١) ابن ظافر: ص ١١١. المصدر نفسه: ص ٢٤٤.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٨٦. المقريزي: المصدر نفسه ص ٢٤٩.

(٣) ابن ظافر: ص ١١٢. المقريزي: المصدر نفسه.

(٤) ابن ظافر: ص ١١٢. المقريزي: ص ٢٥٤.

(٥) ابن ظافر: ص ١١٣. المقريزي: جـ ٣ ص ٢٥٣.

(٦) المقريزي: المصدر نفسه.

الحكم جعلت الناس يلتفُّون حوله. وبرهن رُزَّيك عن قصر نظر في الحقل السياسي حين قَبل نصيحة أعوانه فأقصى شاور عن منصبه في عام (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م) مخالفاً بذلك وصية والده، وعيَّن مكانه الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة[١].

لم يركن شاور، الذي اتصف بالطموح السياسي، إلى الهدوء، فجمع أعوانه وأعداداً كثيرة من العربان وأمراء الصعيد، وسار بهم في طريق الواحات حتى وصل إلى تروجة بالقرب من الإسكندرية، وتوجَّه منها إلى إقليم غرب الدلتا، ثم زحف إلى القاهرة، وتمكَّن من دخولها من جهة الشمال بعد أن تغلَّب على القوة التي جنَّدها رُزَّيك للتصدي له، ثم اعتقل هذا الأخير، حيث قُتِل بعد ذلك على يد ابنه الأمير طيء بن شاور في (٢٠ رمضان ٥٥٨هـ/ ٢٣ آب ١١٦٣م)، وحلَّ شاور محله في منصب الوزارة[٢].

الصراع الداخلي بين شاور وضرغام

لم يلبث شارو أن استبدَّ بالحكم وأساء السيرة مثلما فعل من سبقه. فصادر أموال بني رُزَّيك، وعامل العاضد معاملة سيئة[٣]. وكان طلائع بن رزَّيك قد أنشأ فرقة من الجند يقال لها البرقية كما ذكرنا، وعيَّن ضرغاماً بن عامر بن سوار المنذري قائداً عليها وهو صاحب الباب[٤]، ولم يكن هذا الرجل بأقل طمعاً في الوزارة من غيره، فخرج على حكم شاور بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة. وجرى قتال بين أنصار الرجلين انتهى بانتصار ضرغام وفرار شاور ومقتل ابنه طيء، فخلع عليه العاضد خِلَع الوزارة ولقَّبه بـ «الملك المنصور»[٥].

سار شاور إلى بلاد الشام للاستنجاد بنور الدين محمود صاحب دمشق، واجتمع به، فأحسن نور الدين استقباله، وأكرم مثواه، وأنعم عليه[٦].

ولم يلبث ضرغام أن استغل منصبه بجمع الأموال، فبغى بدوره، وارتكب المظالم، وقتل كثيراً من أمراء مصر، لتخلو له الساحة السياسية، وسرعان ما عمَّ

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٩٨. المقريزي: المصدر نفسه ص ٢٥٤.

(٢) ابن ظافر: ص ١١٣. المقريزي: المصدر نفسه: ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤٦.

(٣) المقريزي: المصدر نفسه ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤.

(٤) صاحب الباب رتبة تلي الوزارة مباشرة.

(٥) المقريزي: جـ ٣ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤.

(٦) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٥.

الاستياء أوساط العامة والخاصة، وانتابهم الخوف على مصيرهم. واستمر الصراع بين الرجلين، وأخذ بُعداً إقليمياً خارجياً بتدخل نور الدين محمود وعموري الأول ملك بيت المقدس، وجاءت مؤشراً على نهاية الدولة الفاطمية، مما سنبحثه في الفصل الرابع عشر من هذه الدراسة.

الفصل الثالث عشر

الأوضاع الخارجية في عهد نفوذ الوزراء

الفاطميون والحملة الصليبية الأولى

الحركة الصليبية

إذا كان لنا أن نذكر بإيجاز طبيعة الحركة الصليبية ودوافعها، نستطيع أن نقول إنها في حقيقة أمرها استمرار للصراع الطويل الذي قام منذ العصور القديمة بين الشرق والغرب، واتخذ، في كل عصر، شكلاً معيَّناً يتلاءم ومقتضيات الظروف وإن اتحد في الهدف والغاية.

فقد كان الصراع في العصور القديمة، صراعاً سياسياً وعسكرياً، في عالم يدين بالوثنية، حمل لواءه الفرس واليونان، بينما اتخذ الغرب، في العصور الوسطى، الدين ستاراً لتحقيق الغايات نفسها، فاصطبغ الصراع بالصبغة الدينية بعد أن اعتنق الأمبراطور الروماني قسطنطين الكبير الديانة النصرانية في عام ٣٢٣م[١].

وبظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، قام المسلمون، بعد أن ثبَّتوا أقدامهم في داخل الجزيرة العربية، بالتوجه خارج جزيرتهم، بهدف نشر مبادىء الدين الجديد. فزحفوا باتجاه العراق وبلاد الشام، واصطدموا بالفرس والبيزنطيين، وحقَّقوا، في سنوات قلائل، انتصارات مذهلة، كانت نتيجتها فتح العراق وبلاد فارس التابعة للأمبراطورية الفارسية، والولايات الشرقية التابعة للأمبراطورية البيزنطية.

وخلاصة القول، إن الحركة الصليبية كانت تمثل في العصور الوسطى روح المجتمع الغربي والأفكار السائدة فيه من ناحيتي الدين والحرب، فنتج عن الدين

---

(١) انظر فيما يتعلق باعتناق قسطنطين النصرانية، وعلاقته بمذاهبها كتاب: الدولة البيزنطية للسيد الباز العريني ص ٣٢ ـ ٣٧.

ظاهرة الحج، بينما نتج عن الحرب ظاهرة الحرب المقدسة. لكن الدوافع الأخرى، وهي متنوعة، بعيدة كل البعد عن الناحية الدينية، وجد فيها المجتمع الغربي تنفسه من الأزمات التي كان يمر بها.

فالباحث في تاريخ الحروب الصليبية، يستطيع أن يلمس أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في توجيهها وتحكُّمها بمصائرها، وأن الدين قد استُغِلَّ استغلالاً واضحاً للدعاية لها، والعمل على إنجاحها تحقيقاً لأغراض أخرى لا تمت إلى الدين بأي صلة.

وعندما أسس سلاجقة الروم سلطنتهم[1] في آسيا الصغرى بعد معركة مانزيكرت، واصلوا حركة توسعهم في المنطقة، وفتحوا معظم بقاعها، بالإضافة إلى بعض الجزر القريبة، من ساحلها الغربي، وحاول الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (٤٧٤ـ ٥١٢هـ/ ١٠٨١ـ ١١١٨م)، دون جدوى، وقف الزحف السلجوقي الذي هدَّد عاصمته القسطنطينية، فاضطر إلى الاتجاه نحو الغرب الأوروبي والبابوية لطلب المساعدة.

ولم ينتهِ القرن الحادي عشر الميلادي حتى تحوَّلت الحرب المقدسة إلى اتجاه عملي، فأبدى الفرسان في المجتمع الأوروبي استعدادهم للاستجابة لدعوة الكنيسة، والقتال من أجل استرداد الأماكن المقدسة في الشرق، بينما وقف الأمراء، في بادىء الأمر، بعيداً عن هذا الاتجاه، على أن فكرة امتلاك الأراضي جعلتهم يُقبلون، بعد ذلك، على الاشتراك في الحرب المقدسة.

وعلى الرغم من أن الغرب الأوروبي قد استجاب لنداء بيزنطية من أجل حرب المسلمين، إلا أنه لم تكن هناك فكرة عن أي حرب صليبية في بيزنطية، وكانت قضية استعادة الأراضي المقدسة خيالية إلى حد بعيد، كما أنها لم تكن حيوية في سياسة بيزنطية الخارجية التي رأت نفسها وقد انغمست في غمرة الحروب الصليبية.

درج المؤرخون على الاهتمام بثماني حملات صليبية، اتجهت أربع منها نحو

---

(١) سلطنة سلاجقة الروم (٤٧٠ ـ ٧٠٤ هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٣٠٤ م) أسسها سليمان بن قتْلُمش بن إسرائيل بن سلجوق في آسيا الصغرى (تركيا الحالية)، وسميت بسلطنة سلاجقة الروم لأن البيزنطيين في العصور الوسطى، الذين عرفهم العرب باسم الروم، كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سمِّيَتْ باسمهم، فظلَّت قروناً عديدة تُعرف باسم بلاد الروم، ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون اسم سلاجقة الروم.

الأراضي المقدسة في فلسطين، وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان نحو مصر وهما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية وهي الرابعة، أما الثامنة فنزلت في شمال إفريقية.

وتخلَّلت هذه الحملات ما كان يقوم به العامة من تنظيم مجموعات فاق بعضها، إن في الإعداد أو في الأهمية، ما قامت به بعض الحملات المعروفة.

الحملة الصليبية الأولى

بعد إعلان مولد الحركة الصليبية على يد البابا أوربان الثاني في كليرمونت[١] في أواخر عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، بدأت استعدادات التنفيذ، فقام البابا المذكور بجولات دينية في بلدان الغرب الأوروبي لتعبئة الرأي العام، وكان يعتقد أن جيشاً منظماً تحت رعاية روحية واحدة وقيادة عسكرية موحَّدة، ستكفل للحملة التقدم والنجاح.

ولكن دعاته، الذين بثَّهم في أرجاء بلدان أوروبا، سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة؛ فانتابت المجتمعات الأوروبية، نتيجة ذلك، موجات عارمة من الحماس الديني، أسفرت عن قيام حملة الشعوب أو العامة، وضمَّت تشكيلة متنوعة من فئات مختلفة من فرنسا وإيطاليا وألمانيا.

واحتشد الآلاف من فقراء الرجال والنساء وقطاع الطرق واللصوص والغوغاء الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون القتال، وقد انضم إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية.

خرجت الحملة الشعبية، هذه، على شكل مجموعات مختلفة تحت زعامة أشخاص عديدين مثل جوتييه، وبطرس الناسك، ووالتر المفلس وغيرهم، وقد اصطدموا، أثناء تقدمهم، بشعوب البلدان التي مروا بها مثل باڤاريا والمجر وبلغاريا، وقاموا بأعمال السرقة والسلب والقتل وحرق المدن، ولم تنجُ ضواحي القسطنطينية من تعدياتهم مما حمل الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على اتخاذ مبادرة نقلهم إلى آسيا الصغرى، مدركاً في الوقت نفسه، بما له من خبرة وتجربة، أن هذا الجمع الصليبي غير المنظَّم لا يثير الخوف في النفوس، وأنه إذا عبر المضيق إلى

---

(١) انظر فيما يتعلق بمؤتمر كليرمونت: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس ص ٣١ ـ ٣٧.

Robert the Monk: Historia Hierosolymitana. in R.H.C. Occ vol III PP. 727 - 729.

آسيا الصغرى فسوف يدمره سلاجقة الروم بسرعة[١]. وفعلاً اصطدم هؤلاء بهم عند قلعة كسيريجوردون وكانت كارثة حقيقية، إذ لم ينجُ منهم سوى ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفاً[٢].

بعد قيام الحملات الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوروبي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق، وقوامها الأمراء الإقطاعيون من فرنسا وإيطاليا ونورمنديا، وطبيعي أن يكون أفراد هذه الحملة أكثر تقديراً لخطة سيرهم بعد الاستعدادات بالسلاح والأموال والرجال والعتاد، والاتصال، مسبقاً، بأمراء وحكام النواحي الذين سيمرون في أراضيهم، حتى يمدوا لهم يد المساعدة.

ولم تكن الحملة النظامية هذه تحت قيادة أمير واحد إنما كان لكل أمير رجاله وجنده. واختلفت أهواؤهم، فهم على تباين في نظراتهم إلى مفهوم الحركة الصليبية.

تكوَّنت الحملة من أربعة جيوش نظامية، تولى بوهيموند وابن أخته تانكرد قيادة القوات النورماندية، أما القوات البروڤنسالية فكانت تحت قيادة ريموند الرابع كونت تولوز، والقوات الفرنسية تحت قيادة إتيين كونت بلوا، وهيو كونت فرماندوا الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا، وروبرت الثاني كونت فلاندر، أما جودفري دي بوايون دوق اللورين، وأخوه بلدوين، فقد قادا قوات اللورين السفلى[٣].

اتخذت هذه الجيوش أربع طرق مختلفة، لكنها اتفقت على الالتقاء عند أسوار القسطنطينية، وبلغ عدد أفرادها حوالي ثلاثين ألف مقاتل. ويذكر رنسيمان أن عدد أفراد الجيوش التي وفدت من الغرب ونزلت في الأراضي الأمبراطورية البيزنطية، في المدة الواقعة بين صيف عام ١٠٩٦م وربيع، عام ١٠٩٧م، تراوح بين ستين ألفاً ومائة ألف[٤].

وبعد محادثات مضنية مع الأمبراطور البيزنطي، تمَّ نقلهم إلى آسيا الصغرى. والواقع أن ألكسيوس كومنين اشترط عليهم، في مقابل مساعدته لهم، بأن يُعطى له

---

(١) Albert d'Aix: Liber Christianne Expedition pro Eroptione Ecclesia in R.H.C occ vol IV PP. 283 - 284. توديبو، بطرس: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ص ٦٢.

(٢) تبعد هذه القلعة حوالي أربعة أيام عن نيقية عاصمة سلاجقة الروم، وتبعد نيقية حوالي مائة ميل عن القسطنطينية.

توديبو: المصدر نفسه: ص ص ٦٣ ـ ٦٤. رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١ ص ٢٠١ـ٢٠٦.

(٣) انظر فيما يتعلق بجيوش الحملة الصليبية الأولى وأسماء زعمائها: توديبو: المصدر نفسه ص ٧٥ ـ ٨٢. ووليم الصوري: جـ ١ ص ١٩٥ ـ ٢٢٥.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية: جـ ١ ص ٢٥٧.

كل الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها من السلاجقة، إذا كانت هذه الأراضي تابعة للأمبراطورية من قبل[١].

أوضاع العالم الإسلامي عند وصول الحملة الصليبية الأولى

جاءت الحلمة الصليبية الأولى في وقت كان فيه العالم الإسلامي في الشرق الأدنى يعاني من الانقسامات السياسية والمذهبية الدينية. وكان هذا الانقسام على حساب وحدة الجبهة الإسلامية، كما كانت بلاد الشام، التي استهدفتها تلك الحملة بشكل خاص، تعيش وضعاً مفكَّكاً حيث توزَّعت مدنها بين حكام وأمراء يحذر كل منهم الآخر. وبلغ الخلاف المذهبي والعسكري بين الفاطميين والسلاجقة أشده عندما بدأت جيوش الصليبيين تجوس خلال الديار الإسلامية، وقد رأى كل طرف في مجيء الصليبيين ما يحقق أهدافه في القضاء على خصمه أو الحدِّ من نفوذه، مما مهَّد لهؤلاء دخول بلاد الشام واحتلال بيت المقدس والقسم الساحلي بكامله.

نتائج الحملة الصليبية الأولى

سقوط نيقية

وسرعان ما توجَّهت هذه الجموع الصليبية الهائلة، الممتلئة حماساً واندفاعاً، صوب حدود سلطنة سلاجقة الروم، وهدف قادتها الاستيلاء على نيقية عاصمة السلطنة المذكورة، نظراً لموقعها الجغرافي المتميز، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكَّل ذلك خطراً على خطوط مواصلاتهم مع بلاد الشام، وقد توحَّدت أهدافهم وأهداف بيزنطية في هذه القضية.

وصلت القوات الصليبية إلى نيقية في شهر (جمادى الأولى ٤٩٠هـ/ أيار ١٠٩٧م)، وضربت الحصار عليها. كان السلطان قلج أرسلان الأول (٤٨٥-٥٠٠هـ/ ١٠٩٢-١١٠٧م)، سلطان سلاجقة الروم، آنذاك، خارج عاصمته. وعلى الرغم من ضخامة الحامية السلجوقية المرابطة داخل المدينة، فإنها احتاجت إلى إمدادات لم يتمكَّن السلطان من تأمينها.

استمر الحصار مدة خمسة أسابيع، سقطت المدينة بعدها بيد الصليبيين الذين سلموها إلى الأمبراطور البيزنطي، لأنها كانت من أملاكه[٢].

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ٢٣٣.

(٢) انظر فيما يتعلق بسقوط نيقية في أيدي الصليبيين: توديبو: ص ١١٠ ـ ١١١ المؤرخ المجهول: =

تأسيس إمارة الرها

نجح الصليبيون في اختراق آسيا الصغرى بعد سقوط نيقية، ووصلوا إلى كيليكية وسيطروا عليها، ثم واصلوا تقدمهم باتجاه بلاد الشام، فبلغوا مدينة أنطاكية، وضربوا الحصار عليها، باستثناء ما كان من أمر بلدوين الذي انفصل عن الجيش الرئيسي عند عينتاب[١]، واتجه نحو الشرق بناءً على دعوة تلقاها من الأمير ثوروس حاكم الرها، لمساعدة المدينة أمام الزحف الإسلامي بقيادة كربوغا، حاكم الموصل، القادم لنجدة أنطاكية.

وكانت فرصة استغلها بلدوين بذكاء في تأسيس إمارة له في الرها حيث تبناه صاحبها وأشركه معه في الحكم. ولم تمضِ مدة طويلة حتى اغتال الأرمن ثوروس، فتزوج بلدوين امرأته وتسلم الحكم، وذلك في شهر (ربيع الآخر ٤٩١هـ/ آذار ١٠٩٨م)، وهكذا قامت أول إمارة صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي[٢].

تأسيس إمارة أنطاكية

وصل الصليبيون إلى أنطاكية في شهر (ذي القعدة ٤٩٠هـ/ تشرين الأول ١٠٩٧م)، وضربوا الحصار عليها. استمر الحصار مدة سبعة أشهر بدت خلالها معاناة الصليبيين واضحة، فتفشَّت المجاعة في معسكرهم، ولم تجد فرق السلب والنهب التي شكلوها للإغارة على المناطق الريفية المجاورة، ما تنهبه، حتى باتوا في مأزق حقيقي.

وفي المقابل، كان المسلمون في داخل المدينة ينظِّمون صفوفهم ويعزِّزون وسائل الدفاع عن أملاكهم، أما المسلمون في خارج المدينة، فقد فشا بينهم التنازع والشقاق على الرغم من أن جيشاً إسلامياً، بقيادة كربوغا أمير الموصل، كان يشق طريقه لإنقاذ المدينة، لكنه وصل بعد فوات الأوان.

إذ في غمرة البؤس الصليبي، حاك بوهيموند المؤامرة التي رأى فيها وسيلة

= أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس: ص ٣٤ ـ ٣٦. فوشيه الشارتري: ص ٤٦ ـ ٤٧. كان فوشيه قسيس بلدوين ومرافقه في الحملة الصليبية الأولى، فهو يصف الأحداث كشاهد عيان. رنسيمان جـ ١ ص ٢٦٤ ـ ٢٧٥.

(١) عينتاب، قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تُعرف بدلوك، ودلوك رستاقها، وهي الآن من أعمال حلب، الحموي جـ ٤ ص ١٧٦.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ٥١ ـ ٥٣.

لتحقيق أطماعه ودفعته للانضمام إلى الحملة الصليبية، أي بناء إمارة نورماندية في الشرق الإسلامي، فأعلن عن عزمه على الرحيل إذا لم يوافق القادة الصليبيون على منحه حكم أنطاكية بعد الاستيلاء عليها.

ونتيجة للذعر الذي انتاب الصليبيين، وافق الزعماء على طلبه. وكان بوهيموند قد دبَّر مؤامرة مع أحد الأرمن على فتح باب البرج الذي يتولى حراسته، ودخل الصليبيون إلى المدينة، واستولى بوهيموند على القلعة ليعلن تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية في شهر (جمادى الآخرة ٤٩١هـ/ حزيران ١٠٩٨م)، وهي الإمارة الثانية التي يؤسسها الصليبيون بعد إمارة الرها[١].

الاتصالات الأولى بين الفاطميين والصليبيين

في الوقت الذي وصلت فيه طلائع الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، كان الفاطميون منهمكين بسوء أوضاعهم الداخلية السياسية والاقتصادية، وتحكَّمت فيهم روح العداء للسلاجقة في بلاد الشام، لذلك لم يتحمسوا آنذاك لفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وربما رأى بعض أركان الدولة في هؤلاء درعاً يحميهم من خطر السلاجقة.

وإذا كان الفاطميون قد استفاقوا على الخطر الداهم، إلا أن ذلك جاء متأخراً، واتصفت عملياتهم العسكرية بسوء النظام، والإهمال، وعدم تقدير خطورة الموقف.

والواقع أن القيِّمين على الدولة الفاطمية، شأنهم في ذلك شأن عامة المسلمين، لم يدركوا، لأول وهلة، طبيعة الحركة الصليبية، وحقيقة نوايا الصليبيين، مما جعلهم يتخبطون في سياستهم تجاهم، وكانوا يأملون في استغلال هذه القوة لتقوية موقفهم تجاه السلاجقة.

كان الأفضل بن بدر الجمالي صاحب السلطة الفعلية في مصر، وعندما سمع بأن الصليبيين، الذين وصلوا إلى بلاد الشام، اشتبكوا مع الأتراك السلاجقة، أعداء الدولة الفاطمية، فكَّر في عقد تحالف معهم ضد هؤلاء، فأرسل سفارة اجتمعت بزعمائهم أمام أنطاكية في شهر (صفر ٤٩١هـ/ كانون الثانى ١٠٩٨م) وعرضت عليهم مشروع التحالف الذي تضمن البنود التالية:

١ ـ ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكية وشمال بلاد الشام.

---

(١) انظر فيما يتعلق بسقوط أنطاكية وتأسيس الإمارة: توديبو: ص ١٣٥ ـ ١٤٣ ١٦٤ ـ ١٧٠، ١٨١ ـ ١٨٨، ٢٢٣ ـ ٢٣٢ حيث تفاصيل وافية من شاهد عيان. فوشية الشارتري ص ٥٣ ـ ٦٧. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

٢ ـ تحتفظ مصر ببيت المقدس وجنوب بلاد الشام.

٣ ـ يُسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم الدينية، على ألا تزيد مدة إقامتهم فيها عن شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.

٤ ـ يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة(١).

وربما استند الأفضل في تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية، لأن الدولة البيزنطية، أيام صحوتها في القرن العاشر الميلادي، لم تتعدَّ أملاكها في بلاد الشام مدينة أنطاكية، فظنَّ أن أولئك الصليبيين إنما أتوا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي لتحقيق الأهداف نفسها التي حاول كل من الأمبراطور نقفور فوقاس ويوحنا زمسكيس تحقيقها(٢).

على أن سفارة الأفضل إلى الصليبيين، على الرغم من الحفاوة التي استُقبلت بها، لم تؤدِ إلا إلى نتيجة واحدة، وهي وقوف الصليبيين على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين والسلاجقة في بلاد الشام، ومن ثَمَّ استقرَّ رأيهم بعد استيلائهم على أنطاكية على إرسال حملة للاستيلاء على بيت المقدس.

والواقع أن الموقف السلبي الذي وقفته الدولة الفاطمية من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى شمال الشام، أثار استياء المسلمين ونقمتهم، ودفع بعض مؤرخيهم المعاصرين إلى الظن بأنهم هم الذين أرسلوا إلى الصليبيين يستدعونهم إلى بلاد الشام لمهاجمة السلاجقة، أو ليكونوا حاجزاً فاصلاً بينهما. وعبَّر ابن الأثير عن ذلك بقوله: «وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكُّنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبقَ بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الأقسيس (أتسز حاكم بيت المقدس) إلى مصر وحصرها؛ خافوا، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين»(٣).

ويعجب المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي من امتناع الأفضل عن النهوض لمساعدة المسلمين أمام أنطاكية وهو قادر على ذلك «ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال

---

(١) Stevenson: The crusaders in the East P. 28. Setton: A History of the Crusades I. p. 316.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٩٧. (٣) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٤١٦.

والرجال...»، ثم يشرح كيف خرجت عساكر المسلمين في العراق وبلاد الشام لصد زحف الصليبيين «كل ذلك وعساكر مصر لم تُهيَّأ للخروج»[١].

والواضح أن الإجابة عن هذا التساؤل واضحة، وهي أن الأفضل قرَّر أن يعمل ضد السلاجقة لا ضد الصليبيين. ولا بد أنه شعر بالغبطة حين رأى انهيار نفوذ الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام، بعد سقوط نيقية ومعركة ضوريليوم[٢]، وخسارة كربوغا أمام أنطاكية، دون أن يتمكَّن رضوان بن تاج الدولة تُتُش، صاحب حلب، أو أخوه دقاق صاحب دمشق، أو حتى السلطان السلجوقي بروكياروق، أن يوقف زحفهم. وربما اعتقد الفاطميون في مصر أن ساعة الانتقام من الأتراك قد حانت، الانتقام للعنصر العربي بعامة والشيعة بخاصة[٣].

ومن ناحية أخرى، فإن هناك ما يشير إلى أن الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية، في طريقهم إلى الشرق، بأن يحاولوا محالفة الفاطميين في مصر ليكونوا لهم سنداً ضد السلاجقة في بلاد الشام وشمال العراق[٤].

ويبدو أنهم استجابوا لتلك النصيحة، فأرسلوا سفارة إلى القاهرة صحبت السفارة الفاطمية لدى عودتها، غير أنه لم يلبث أن اتضح أنه لم يكن لدى أعضائها السلطة للتفاوض، بل عقدوا العزم على أن يسيروا إلى بيت المقدس ويستولوا عليه، إنما أكدت هذه السفارة حرص الصليبيين على التعاون مع الفاطميين للقضاء على العدو المشترك[٥].

بالإضافة إلى مشروع التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين، فقد استغل فرصة انهماك السلاجقة بالتصدي للزحف الصليبي في شمال بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الفاطميين في جنوب بلاد الشام، ظناً منه، أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة[٦].

---

(١) النجوم الزاهرة: جـ ٥ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) أدى سقوط نيقية إلى اتحاد الأتراك في آسيا الصغرى (السلاجقة والدانشمنديين) لمواجهة الزحف الصليبي، والتقى الفريقان الإسلامي والصليبي في مرتفعات ضوريليوم في الأناضول وأسفر اللقاء عن انتصار الصليبيين.

(٣) Grousset, R: Histoire des Croisades I. pp. 144 - 145.

(٤) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، فصل في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١٧١.

(٥) رنسيمان: جـ ١ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٦) عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٣٥.

وكان قد استولى على صور في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م) بعد أن أعلن واليها، ويدعى كتيلة، الخروج على الحكم الفاطمي، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس آنذاك وترك ذلك لفرصة أخرى[١]. وحانت هذه الفرصة في شهر (رمضان ٤٩١هـ/ آب ١٠٩٨م) والصليبيون ما يزالون في أنطاكية، فخرج من مصر على رأس جيش كثيف ونزل على بيت المقدس وحاصره، وفيه الأميران سكمان وإيلغازي، ابنا أرتق بن أكسب، وقد حلَّ الأول محل أبيه في حكم المدينة بعد وفاته في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، وانضوى تحت سيادة دقاق صاحب دمشق[٢]. فراسلهما يلتمس منهما تسليم بيت المقدس إليه دون قتال، فامتنعا، في بادىء الأمر، عن إجابة طلبه، وتحصَّنا وراء أسوار المدينة، إذ علما أن دقاقاً ليس بوسعه أن يبادر بالنهوض إلى مساعدتهما، غير أنهما كانا يأملان في الصمود وراء تحصينات بيت المقدس. ومع أن جيش الأفضل تجهَّز بأحدث آلات الحصار، من بينها أربعين منجنيقاً، فإن الأراتقة ظلوا يقاومون الحصار مدة أربعين يوماً، ولم يرغمهم على الاستسلام إلا ما حدث من تدمير الأسوار. ودخل الأفضل إلى بيت المقدس واستولى عليه، فأحسن معاملة الأخوين، وسمح لهما بالذهاب إلى دمشق مع رجالهما، وعندئذٍ استعاد الفاطميون سيادتهم على بيت المقدس[٣].

عاد الأفضل إلى القاهرة بعد أن استتاب الأمير افتخار الدولة على حكم بيت المقدس. ولم تكد تنتهي سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م) إلا وكانت حدود الدولة الفاطمية قد امتدت إلى نهر الكلب شمالاً ومجرى نهر الأردن شرقاً[٤].

والواقع أنه تحقَّق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة كانوا منهمكين بالغزو الصليبي لصدِّ الهجوم الفاطمي، كما أن تهديده لفلسطين وبيت المقدس، خدم القضية الصليبية، لأنه سبَّب ارتباكاً للسلاجقة في أشد الأوقات حرجاً[٥].

ومن جهتهم، انخرط الصليبيون في اللعبة السياسية في الشرق الأدنى، بعد أن فرضوا وجودهم في شمال بلاد الشام. فبالإضافة إلى أنهم وقفوا على أوضاع المسلمين المتردية، راحوا يبثون الطمأنينة في نفوس الفاطميين، وإعطاءهم صورة

(١) ابن ميسر: ص ٣٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٢. Setton: I. p. 316.

(٥) Grousset: I. pp. 84 - 85.

غير حقيقية عن مشاريعهم في بلاد الشام، كما طمأنوا سلاجقة الشام إلى أنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين في الماضي، أي الرها وأنطاكية واللاذقية[١].

لكن مع توغلهم باتجاه الجنوب صوب فلسطين، وسيطرتهم على المدن الساحلية، انكشفت الحقيقة، وغدا الطرفان الفاطمي والصليبي وجهاً لوجه، فأضحى الصدام حتمياً بينهما. وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو هدف الصليبيين، أرسل سفارة إلى الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين يسأله عما إذا كان هؤلاء يعملون لحسابه، فأنكر الأمبراطور علاقته بهم[٢]، فأرسل عندئذٍ سفارة فاطمية قابلت قادتهم قرب طرابلس، أثناء حصارهم لعرقة، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة، وعرضاً بالسماح لحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين، كما طالبهم بالتوقف عن الزحف جنوباً، وأن موافقتهم على تلك الشروط تعني أن يصبح الفاطميون سنداً لهم، وأنه في حال الرفض سوف تواجههم جيوش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[٣].

رفض الصليبيون الاقتراح وردوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيتمكّنون من الحج فعلاً كجيش واحد وليس كجماعات بإذن الله وليس بإذن الخليفة الفاطمي، وأقسموا على انتزاع الضريح المقدَّس من أيدي الفاطميين، وهدَّدوا السفارة الفاطمية بغزو مصر، وكان معنى ذلك بداية الصدام المسلح بين الطرفين، وشكَّل الاستيلاء على بيت المقدس الشرارة التي أشعلت نار الحرب.

ويبدو أن الفاطميين لم يتركوا قوات كافية في الثغور الساحلية بعامة لتدعيم نفوذهم والمحافظة على مكتسباتهم في تلك الجهات، باستثناء بيت المقدس وبعض المراكز الساحلية التي ظل الأسطول الفاطمي قادراً على إمدادها بالرجال والعتاد[٤].

الطريق إلى بيت المقدس

اجتمع قادة الصليبيين، بعد سقوط أنطاكية، للبحث في الخطوة التالية، فقرروا أن يواصلوا الحملة إلى بيت المقدس. وهكذا زحفت جيوشهم إلى معرة النعمان

---

(١) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ١٧٣. (٢) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٠٦.
(٣) وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٩٤. Michaud: Histoire des croisades: I. pp. 362 - 363.
(٤) رنسيمان: جـ ١ ص ٤١٠. عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٣٨.

بقيادة ريموند الصنجيلي، فقاومت المدينة زهاء أسبوعين قبل أن تسقط، وتعرض سكانها لأبشع المذابح[١]. وتقدم ريموند بعد ذلك إلى كفرطاب ودخلها، ووافاه فيها روبرت النورماندي وتانكرِد. وبوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم وبين بعض الأسر العربية الصغيرة التي انتهزت فرصة انحلال قوة السلاجقة لتعلن استقلالها، مثل حمص وطرابلس وشيزر، وتخلَّوْا عن كل فكرة ترمي إلى المقاومة، بعدما أدركوا خطورة الموقف، وعدم وجود قوة إسلامية كبرى تحميهم من ذلك الخطر، وآثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول عروضهم التي تقدموا بها[٢].

وقرَّر الصليبيون عند شيرر، نزولاً على رأي تانكرِد، أن يتخذوا الطريق الداخلي إلى بيت المقدس بدلاً من الطريق الساحلي الذي كان من رأي ريموند أنه يمكِّن الحملة من الاتصال مع أنطاكية، والحصول على الإمدادات عن طريق البحر.

وهكذا مرَّت الحملة بقلعة مصياف[٣]، فخرج إليهم أميرها العربي، وعقد معهم اتفاقية، ثم اتجهوا نحو بارين[٤]، ثم رفنية[٥] فالبقيعة، واستولوا على حصن الأكراد في شهر (صفر ٤٩٢هـ/ كانون الثاني ١٠٩٩م). وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص محملين بالهدايا ومعلنين ولاء الأمير العربي، حتى لا يتعرضون لإمارته[٦].

وبعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عِرقة، الواقعة شمال طرابلس، والتابعة لبني عمار، فأسرع صاحبها أبو علي فخر الملك بإرسال الرسل إلى ريموند لعقد اتفاقية معه تعهد فيها الأمير العربي بـ:

- دفع الأموال للصليبيين.
- رفع أعلامهم على سور مدينته وغيرها من الأماكن التابعة له، إشارة إلى ولائه لهم.

---

(١) تودیبو: ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣، حيث تفاصيل وافية حول سقوط معرة النعمان من شاهد عيان رافق الحملة الصليبية الأولى.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٨٩. ابن الأثير: جـ ١ ص ٤٢٠. عاشور: جـ ١ ص ٢٢٧.

(٣) قلعة مصياف: حصن مشهور بالساحل الشامي قرب طرابلس. الحموي: جـ ٥ ص ١٤٤.

(٤) بارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٥) رفنية: كورة ومدينة من أعمال حمص. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٥٤.

(٦) تودیبو: ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣. فوشيه الشارتري: ص ٦٧ ـ ٦٨.

Raymond d'Aguilers: Historia Francurum: in R.H.C. occ vol III. p. 273.

- إطلاق سراح ثلاثمائة من أسرى النصارى الذين كانوا في سجون طرابلس دليلاً على حسن النية[(١)].

وأرسل ريموند قوة عسكرية صليبية استولت على أنطرطوس التابعة لإمارة طرابلس، بهدف الاتصال بالبحر، وتوطيد العلاقات مع اللاذقية[(٢)]، غير أن عِرقة صمدت للحصار الذي استمر أربعة أشهر، فتركها الصليبيون في (١٩ جمادى الآخرة ٤٩٢هـ/ ١٣ أيار ١٠٩٩م)، ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس[(٣)]، وغادروا طرابلس يوم الإثنين(٢٢ جمادى الآخرة/ ١٦ أيار)، فاجتازوا، آمنين، البترون[(٤)] وجبيل[(٥)]، ووصلوا في (٢٥ جمادى الآخرة/ ١٩ أيار) إلى الحدود الفاطمية، عند نهر الكلب. ولما اقتربوا من بيروت بادر سكانها الذين خشوا أن يتعرضوا للدمار، فبذلوا لهم الهدايا وسمحوا لهم باجتياز بلادهم بشرط ألا ينزلوا الضرر بالأشجار المثمرة والكروم والمحصولات الزراعية، وقَبِل الأمراء الصليبيون الشروط[(٦)]. وبعد استراحة ليلة واحدة، انطلقوا إلى صيدا، فوصلوا إليها في (٢٦ جمادى الآخرة/ ٢٠ أيار)، وأقاموا معسكرهم عند شاطىء نهر الأولي شمال المدينة، فتعرضوا لمقاومة رجال الحامية، إلا أنهم ردوا الهجوم، ثم لجأوا إلى نهب الحدائق في ربض صيدا قبل أن يتحركوا بسرعة إلى ضواحي صور، فمكثوا فيها يومين بانتظار وصول جماعة من فرسان أنطاكية والرها. ولم تجرِ محاولة للتصدي لهم، وتحصَّنت حامية المدينة وراء الأسوار، ثم قصدوا عكا وبلغوا ظاهرها في (١ رجب/ ٢٤ أيار)، فصالحهم أميرها، وقدَّم لهم الهدايا والمؤن، كما تعهد بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس[(٧)].

ومضى الصليبيون في تقدمهم فمروا بقيسارية ثم بأرسوف، ولم يحاولوا بعد

---

(١) وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٩٧ - ٣٩٨. Raymond d'Aguilers: p 275.

(٢) اللاذقية: مدينة في ساحل بحر الشام تُعد في أعمال حمص، وهي غربي جبلة بينهما ستة فراسخ. الحموي: جـ ٥ ص ٥.

(٣) توديبو: ص ٢٩٢ - ٢٩٣. فوشيه الشارتري: ص ٦٨ - ٦٩. المؤرخ المجهول: ص ١١٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٠. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٩١. رنسيمان: جـ ١ ص ٤٠٣.

Raymond d'Aguilers: p. 278. Albirt d'Aix; pp. 454 - 455.

(٤) البترون: بلدة على الساحل اللبناني.

(٥) جبيل: بلدة على الساحل اللبناني، وهي قديمة في الزمن.

(٦) توديبو: ص ٢٩٤. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٥٨.

(٧) توديبو: المصدر نفسه. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

ذلك التوجه إلى يافا، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلي، ويشقوا سبيلهم إلى داخل البلاد، مباشرة إلى بيت المقدس. ومع ذلك فإنهم حرصوا على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر، فاحتلوا الرملة، بعد أن أخلاها المسلمون، وتركوا فيها حامية صغيرة[1]، وعقدوا فيها مجلساً للحرب في المدة بين (١١ـ ١٤ رجب/ ٣ـ ٦ حزيران)، ناقشوا فيه عدة مسائل، منها اقتراح بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين في مصر، إذ من الحماقة مهاجمة بيت المقدس في ذروة الصيف، وأن من الأفضل أن يتقدموا لمهاجة العدو الحقيقي وهو مصر، وأن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلاً في القاهرة، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة في بيت المقدس، فعليهم أن يؤمنوا على أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا، غير أن هذا الرأي لقي الرفض من معظم القادة. وتقرَّر الزحف مباشرة على بيت المقدس[2].

سقوط بيت المقدس

وصل الصليبيون إلى بيت المقدس يوم الثلاثاء في (١٤ رجب ٤٩٢هـ/ ٧ حزيران ١٠٩٩م)، وحاصروها في اليوم التالي. وتولى أمر الدفاع عن المدينة الحاكم الفاطمي افتخار الدولة، وحامية قوية تألفت من عساكر عربية وسودانية. فلما ترامى إليه نبأ اقتراب الصليبيين، اتخذ عدة إجراءات احتياطية لمواجهة الموقف، منها:

- طمر ما يقع خارج المدينة من آبار أو سمَّها.
- ساق قطعان الماشية إلى مواضع آمنة.
- ملأ مخازنه بالمؤن، وصهاريجه بالماء، بما يكفيه مدة طويلة.
- طرد كافة النصارى من المدينة، ويُعد هذا إجراءً سديداً، إذ لا يُرتجى منهم فائدة في القتال، نظراً لما تقرر من منعهم من حمل السلاح، كما لا يصح الركون إليهم والوثوق فيهم إذا نشبت المعركة ضد إخوانهم النصارى، يضاف إلى ذلك أن إخراجهم من المدينة يوفِّر المؤن لمن تبقّى من السكان.
- اهتم بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار، ودعَّمها بأكياس مملوءة بالقطن، وشحن الأبراج بالمقاتلة والسلاح.

---

(١) توديبو: ص ٢٩٤. فوشيه الشارتري: ص ٦٩ ـ ٧٠. Albirt d'Aix: p. 460 Stevenson: p. 33.

(٢) Raymond d'Aguilers: p. 299. Chalandon: Histoire de la première croisade p. 267.
عاشور الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٤٠.

- أرسل سفارة إلى مصر يطلب النجدة[١].

وركَّز الصليبيون كل قواتهم على الأماكن التي تقرِّبهم من الأسوار، وذلك لعدم توفر العدد الكافي من المقاتلين لفرض حصار على المدينة بكاملها. فاتخذ روبرت النورماندي موضعه على امتداد السور الشمالي، في حين حاصر كل من جودفري وتانكرِد المدينة من الناحية الغربية، وتمركز ريموند الصنجيلي إلى الجنوب من موضعهما حيث أقام على جبل صهيون[٢]، أما القطاعان الشرقي والجنوبي الشرقي فكانا مكشوفين، لم يحرسهما أحد.

واجهت المحاصِرين، في بادىء الأمر، عدة مشكلات حالت بينهم وبين الاستيلاء على المدينة فوراً لعل أهمها:

- مقاومة الحامية الفاطمية، إذ توافر لافتخار الدولة المؤن والماء والأسلحة التي تفوَّقت على أسلحة الصليبيين، وأمل أن يصمد في وجه الحصار المدة الكافية لوصول النجدة التي طلبها من القاهرة.
- تأمين الماء، نتيجة ما اتخذه افتخار الدولة من تدابير كانت ناجعة وقوية الأثر. وللحصول على الماء كان لا بد للصليبيين أن يسيروا ستة أميال أو أكثر، مما يعرِّضهم لهجمات المسلمين، كما أخذت مؤونهم في النفاد.
- الحرارة المرتفعة، وقسوتها عليهم.
- تجدُّد النزاع بينهم حول مصير بيت المقدس، وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم.
- انتشرت إشاعة بينهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من القاهرة وهو في طريقه لإنقاذ المدينة[٣].

وتبيَّن لهم أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل، وينبغي عليهم أن يبادروا بالهجوم على المدينة والاستيلاء عليها. وفعلاً شنوا هجوماً في (٢٠ رجب/ ١٢ حزيران) على أسوار المدينة، ونجحوا في التغلب على الأسوار الشمالية الخارجية، غير أنه لم يتوافر لديهم من السلالم ما يتيح لهم تسلُّق الأسوار في جهات عديدة،

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ١١٦. رنسيمان: جـ ١ ص ٤١٦ ـ ٤١٧. Raymond d'Aguilers: pp. 293 - 294.

(٢) توديبو: ص ٣١٣. المؤرخ المجهول، ص ١١٤ ـ ١١٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤١٦ ـ ٤١٧. Ibid: p. 293. Albirt d'Aix: pp. 463 - 464.

(٣) رنسيمان: المرجع نفسه ص ٤١٨.

في آنٍ واحد. ولما تبين لهم أن محاولتهم ليست مجدية قرروا الانسحاب[1]، وعدم القيام بهجوم آخر ما لم يتوفر لهم المنجنيقات والسلالم، لكنهم افتقروا إلى المواد التي يصنعون منها هذه الآلات، على أنه حدث أن جاءتهم مساعدة من جهة البحر. ففي (٢٥ رجب/ ١٧ حزيران) رست في مرفأ يافا الفاطمي المهجور سفينتان جنويتان محملتان بالزاد والعتاد والحبال والمسامير والأخشاب وغيرها، مما يتطلبه العمل لصناعة أدوات الحصار، وكانتا بقيادة أمير البحر الجنوي وليم أمبرياكو وشقيقه بريموس، فأفرغ الصليبيون حمولتهما إلى البر، وسط مناوشات مع قوة فاطمية قدمت من عسقلان، ونقلوها إلى المعسكر الصليبي عند بيت المقدس الذي تحوَّل إلى خلية عمل لبناء الأبراج والسلالم اللازمة لتسلق الأسوار، وشرع ريموند الصنجيلي وجودفري في تشييد أبراج من الخشب تسير على عجلات، ثُبِّتت بها المقاليع، وبعد الانتهاء من العمل نصبوا الأبراج وأسندوها إلى أسوار المدينة[2].

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون بيت المقدس بلغهم خبر خروج الأفضل من مصر على رأس جيش فاطمي كبير لنجدة المدينة. وإذ أدركوا أنه ليس ثمة ما يدعو بعدئذٍ إلى التمهل والإرجاء، جدُّوا في حصار المدينة وواصلوا الحرب إلى أن تمكَّنوا من اقتحامها يوم الجمعة في (٢٣ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ تموز ١٠٩٩م) بعد حصار دام نيفاً وأربعين يوماً، ولبثوا أسبوعاً كاملاً يتعقبون أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال، فكانت مذبحة مروعة خاض الصليبيون فيها حتى أكعابهم في دماء القتلى. وعندما التجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى، تبعوهم دون أن يراعوا حرمته وأجهزوا على كل من احتمى به، حتى لقد فاض المسجد كله بدمائهم[3]، وبلغ عدد القتلى في المسجد الأقصى لوحده ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبَّادهم وزهَّادهم. وكان المسلمون يُذبحون في الشوارع وفي البيوت بوحشية بالغة، ولم يجدوا في المدينة مكاناً آمناً يعتصمون فيه، فألقى بعضهم بأنفسهم من فوق الأسوار، وازدحم آخرون في القصور والأبراج، وفي المساجد، ولم يكن يُسمع في تلك الساعة غير أنين الجرحى وحشرجات الموتى، كما وطىء الفرسان

---

(١) توديبو: ص ٣١٣. المؤرخ المجهول: ١١٤ ـ ١١٥. Raymond d'Aguilers: p. 293.
رنسيمان: المرجع نفسه ص ٤١٩.

(٢) المؤرخ المجهول: ص ١١٦ ـ ١١٧. وليم الصوري جـ ١ ص ٤٢١ ـ ٤٢٤.
Ibid: pp. 294 - 297.

(٣) المؤرخ المجهول: المصدر نفسه ص ١١٨ ـ ١١٩. توديبو: ص ٣١٧ ـ ٣١٩.

أكداس الجثث وهم يطاردون أولئك الذين حاولوا الهرب عبثاً. ولقي اليهود المصير نفسه عندما فروا للاحتماء في معبدهم الكبير، وجُمعت جثث القتلى، وطُرحت خارج أبواب المدينة، فتعالت أكوامهم «حتى حاذت البيوت ارتفاعاً، وما تأتّى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة»[1].

اعترف المؤرخون الصليبيون بهذه الحقيقة، ولعل هذا ما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين في العصر الحديث إلى الاعتراف بأن مذبحة تموز ١٠٩٩م كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى[2].

واحتمى افتخار الدولة مع طائفة من الجند بمحراب داوود، حيث اعتصموا به، وقاتلوا ثلاثة أيام، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان، ثم أطلقوا سراحهم، وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت القدس التي نجت من وحشية الصليبيين[3]. ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكفِ لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفوها، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب[4].

أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد، في وقت ما، بأن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال بلاد الشام، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة، ولم يسعه، عندما وصل إلى عسقلان، سوى أن يرسل إليهم يوبخهم على ما فعلوه[5].

تأسيس إمارة بيت المقدس

اجتمع زعماء الحملة الصليبية الأولى الدينيون والعلمانيون في (٢٥ شعبان/ ١٧ تموز) لتنظيم وضع المدينة وانتخاب حاكم عليها، وقد تنازعهم تياران، أحدهما كنسي والآخر علماني. فهل يكون زعيم الدولة الجديدة من الكنسيين أو من العلمانيين؟،

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ١١٩ ـ ١٢٠.
Michaud: I. pp. 424 - 425.. Raymond d'Aguilers: p. 300.
وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٢٧ ـ ٤٣٧ حيث تفاصيل وافية لسير العمليات العسكرية والمذابح المرعبة. فوشيه الشارتري: ص ٧٣ ـ ٧٥.
ابن القلانسي: ص ٢٢٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥. ابن العبري: ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) Grousset: I. p. 161.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٤٢.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٤٤. (٥) ابن ميسر: ص ٣٩.

وكانت النية متجهة نحو تنصيب بطريرك لاتيني رئيساً لها وأن يُعهد إليه بولايتها، لكن تغلَّبت النزعة العلمانية بفعل طبيعة الظروف التي أحاطت بهم. إذ أن قيام حكومة لاتينية، أمر يحتاج إلى قيادة عسكرية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد المسلمين المحيطين بها ورأى، مجلس الأمراء، الذي كان يدير الحملة الصليبية، أنه لا غنى عن اختيار زعيم عسكري، لذلك اتجهت الآراء إلى اختيار أحد الأمراء العلمانيين في ظل تنازع هؤلاء على اعتلاء المنصب. وانحصر التنافس أخيراً بين ريموند الصنجيلي وجودفري دي بوايون، وكان حظ الأول أوفر نظراً لما عُرف عنه من قوة شخصية، ومرونة سياسية، وبُعد نظر، لكنه لم يحظَ بميل الأمراء والفرسان له بفعل تخوُّف هؤلاء من اختياره، كما كان إفراطه في التودُّد إلى الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، وتأييده للتحالف مع الدولة البيزنطية، أحد الأسباب التي أثارت استياء كثير من الصليبيين. ومع ذلك، فإنه لما عُرض عليه التاج رفضه، إذ أنه أدرك أن العرض لم يحظ بتأييد غالبية الصليبيين، وأن زملاءه لن يخضعوا فعلاً لسلطانه، بل إن عساكره أعلنوا معارضتهم لقبوله العرش، فأعلن عندئذٍ أنه لا يجب أن يكون ملكاً.

ويبدو أن الناخبين ارتاحوا لهذا الرفض، فعرضوا التاج على جودفري دي بوايون، فقبله بعد تردُّد، غير أنه طلب إعفاءه من أن يتخذ لقب ملك، وأراد أن يُعرف باسم حامي القبر المقدس(١).

معركة عسقلان

عندما وصلت أنباء سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين إلى بغداد، أرسل الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧ـ ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ـ ١١١٨م) إلى السلطان السلجوقي بركياروق يعرض عليه الوضع، ويدعوه إلى نصرة المسلمين في بلاد الشام، إلا أنه لم يقم بأي عمل جدِّي يحقِّق هذه الرغبة، بل إن السلاجقة تقاعسوا عن نجدة بيت المقدس لأنها داخلة ضمن منطقة النفوذ الفاطمي، ولأن الفاطميين لم يشاركوا السلاجقة في الدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين. وهكذا أسهم الخلاف بين بغداد والقاهرة في ذلك الوقت في خسارة أنطاكية وبيت المقدس، بالإضافة إلى بعض المدن الإسلامية الأخرى، كبيت لحم واللد والرملة ويافا(٢).

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ١٢٠. فوشيه الشارتري ص ٧٧. ابن العبري: ص ١٢٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٨.
Raymond d'Aguilers, p. 301. Albirt d'Aix pp. 485 - 486

(٢) Grousset: L'Empire du Levant p. 197.

وبعد أن استقر الصليبيون في بيت المقدس، أضحت الخطوة التالية في مخططهم هي الاستيلاء على بقية مدن فلسطين والساحل الشامي، الخاضعة للسيادة الفاطمية. والواقع أن الفاطميين لم يتخاذلوا أمام الصليبيين عندما علموا بنواياهم للهجوم على بيت المقدس، فجهَّز الأفضل جيشاً خرج به من مصر ليحول دون استيلائهم عليه، ولكنه وصل إلى عسقلان في (١٤ رمضان/ ٤ آب) وقد فات الأمر، كما أنه أضاع كثيراً من الوقت في عسقلان ينتظر النجدات العربية التي وُعِد بها بالإضافة إلى الأسطول الفاطمي عن طريق البحر مرتكباً خطأ عسكرياً. إذ في الوقت الذي كان فيه قابعاً في عسقلان، اكتشف الصليبيون أمره، فبادروا بالهجوم على معسكره في صبيحة (٢٢ رمضان/ ١٢ آب) في سهل المجدل الواقع شمال عسقلان. والواقع أنه أُخِذ على حين غرة، فقد باغتته القوات الصليبية بعد أن وقع كشافته في الخطأ، فلم يتوقع أن يكون الصليبيون على مسافة قريبة منه، كما لم تبدُ من رجاله إلا مقاومة ضئيلة لأنهم لم يكونوا متأهبين للقتال مرتكبين خطأً عسكرياً آخر، ولم تمضِ إلا مدة وجيزة حتى حلَّت بهم الهزيمة، وولوا هاربين إلى ناحية عسقلان، أما الأفضل فقد ركب سفينة أعادته إلى مصر[(١)].

أكَّد هذا الانتصار أنه ليس بوسع الفاطميين أن يستردُّوا ما فقدوه من الأراضي، لكن ذلك لا يعني أن باستطاعة الصليبيين الاستيلاء على جميع نواحي فلسطين؛ لأن البحرية الفاطمية لا تزال تسيطر على ساحل بلاد الشام، وتبسط حمايتها على الموانىء البحرية، وأتاح للصليبيين معرفة أن الجنود الفاطميين لا يضارعون الجنود الأتراك المروعين، مما أعطاهم الثقة بالنصر[(٢)].

أمل جودفري دي بوايون، أن يعقب انتصاره على الأفضل، الاستيلاء على عسقلان، لذلك ضرب الحصار عليها. وإذ أدركت حاميتها أنه ليس بوسعها أن تصمد أمام القوات الصليبية، فضَّلت الاستسلام، وبخاصة أن المذابح التي تعرَّض لها المسلمون في بيت المقدس، كانت لا تزال ماثلة أمام أفرادها، ولم ينسوا أمرها، فلم يشاؤوا أن يتعرضوا للمصير نفسه، وأجرى قائدها مفاوضات مع ريموند الصنجيلي لتسليم المدينة إليه. ويبدو أنه لمس ما فعله مع افتخار الدولة حين سمح له ولرجاله بالخروج سالمين من بيت المقدس، واشترط عليه أن يؤمِّنهم على

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ١٢٠ ـ ١٢٤. توديبو: ص ٣٣٧ ـ ٣٤٢. فوشيه الشارتري: ص ٧٧ ـ ٧٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٥٧ ـ ٤٦١. ابن القلانسي: ص ٢١٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٢) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٤١.

أرواحهم وحرياتهم، ولكن جودفري دي بوايون خشي من استيلاء ريموند على المدينة التي قد تصبح عاصمة لإمارته على ساحل فلسطين، لذا طلب منه أن يتخلَّى عنها، فرحل بقواته، وأدَّى ذلك إلى أن ينسحب جودفري بدوره لأن قواته لم تكن من القوة ما تستطيع الاستمرار في فرض الحصار على عسقلان واقتحامها، إلا أنه فرض على أهلها عشرين ألف دينار، فلم يدفعوا منها شيئاً[(١)].

وهكذا أدَّى النزاع الداخلي بين ريموند وجودفري إلى ضياع عسقلان من أيدي الصليبيين لمدة تزيد على نصف قرن، تلى ذلك أن عرضت مدينة أرسوف الصغيرة أن تستسلم لريموند، وكان قد هاجمها بعد انصرافه من أمام عسقلان، فتصدَّى له جودفري من جديد، بوصفها تتبع بيت المقدس[(٢)].

التوسع الصليبي في إقليم الجليل ومدن الساحل

قضى انتصار الصليبيين في عسقلان على هيبة الفاطميين في بلاد الشام، إذ لم يجد هؤلاء صعوبة في الاستيلاء على إقليم الجليل لعدم وجود مقاومة إسلامية قوية هناك، ووضعوا حاميات في المدن الرئيسية مثل بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرة، أما الأراضي والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن فقد ظلَّت في أيدي أصحابها من المسلمين.

وشهدت المدن الساحلية وضعاً مغايراً حيث حصلت اشتباكات عنيفة. وبفضل ما انضم إلى قوة جودفري دي بوايون العسكرية من إمدادات، استطاع أن يبسط سلطانه على سهول فلسطين الساحلية. إذ أن أملاكه لم يكن يصلها بالبحر إلا ممر يؤدي إلى يافا، فحاول أن يوسعه بأن يستولي على ميناء أرسوف الصغير الواقع إلى الشمال منها، فضرب الحصار عليه، وقاومت حاميته، وأجبرته على رفع الحصار، غير أنه أبقى نصف جيشه في الرملة، وأمرهم بأن يغيروا على الأراضي المجاورة لأرسوف لإجبار حاميتها على الاستسلام، في حين أغار هو على المدن الفاطمية الساحلية أمثال عسقلان وقيسارية وعكا، ومنع وصول المؤن إليها من الريف، وحصَّن يافا بمساعدة البيازنة، وأصلح ميناءها، فازدادت المشقة أمام السفن

---

(١) رنسيمان: ص ٤٤١ ـ ٤٤٢. Albirt d'Aix: pp. 497 - 498.

ابن القلانسي: ص ٢٢٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٨. ابن العبري: ص ١٢٥ يذكر أن المبلغ هو اثني عشر ألف دينار.

(٢) Ibid.

الفاطمية لجلب المؤن بحراً إلى الموانىء الإسلامية، واشتدت معاناة سكانها[١].

وفي شهر (ربيع الآخر ٤٩٣هـ/ شباط ١١٠٠م)، ظفر الصليبيون ببعض سكان أرسوف الذين خرجوا لمزاولة نشاطهم في مزارعهم القريبة، فانتقموا منهم انتقاماً وحشياً بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[٢]. ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية، فقد أرسل سكانها سفارة عاجلة إلى القاهرة لطلب المساعدة، فاكتفى الأفضل بأن أرسل إليهم قوة عسكرية صغير مؤلفة من ثلاثمائة جندي، فتصدَّى لهم الصليبيون، وأوقعوهم في كمين، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، ومع ذلك، فقد طارد المسلمون الصليبيين إلى يافا. ووصلت في غضون ذلك، إمدادات صليبية، فاستبدَّ اليأس بسكان أرسوف، وأدركوا عدم جدوى المقاومة، واضطروا إلى الدخول في تبعية الصليبيين، فأرسلوا سفارة وصلت إلى بيت المقدس في (جمادى الأولى/ آذار)، حملت معها هدية رمزية، عبارة عن مفاتيح أبراج المدينة، وعرضت أن تدفع جزية سنوية، فقبل جودفري دي بوايون خضوعهم وإذعانهم، ولم يلبث أن احتذى بأرسوف عسقلان وقيسارية وعكا، في الشهر التالي، ودخلوا في تبعية الصليبيين، وتعهدوا بدفع جزية سنوية رمزاً لهذه التبعية[٣].

ووصل في غضون ذلك، أسطول بندقي ضخم رسا في ميناء يافا، فهرع جودفري دي بوايون إلى الساحل لتحيته والاتفاق مع بحارته على الشروط التي بمقتضاها يبذلون المساعدة للصليبيين، لكنه خرَّ مريضاً، فانتدب ابن عمه كونت برجنديا، ويدعى وارنر جراي، لينوب عنه في المفاوضات، وأعلن موافقته على ما يعرضه البنادقة من شروط[٤].

وتقرَّر أن تكون عكا الهدف الأول، على الرغم من المعاهدة التي انعقدت بين حاكمها وجودفري دي بوايون، ثم حيفا بعد ذلك، وحاصر البنادقة عكا في الوقت الذي اشتد فيه مرض جودفري دي بوايون، فقام دايمبرث، بطريرك بيت المقدس، وتانكرِد، بالمساهمة في حصار المدينة من ناحية البر[٥].

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٥٧. Albirt d'Aix: pp. 515 - 516.

(٢) Grousset: Hitoire de croisade: I. p. 182.

(٣) وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢. Albirt d'Aix: pp 513 - 515.

(٤) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤. تذكر المصادر الإسلامية أن جودفري دي بوايون أصيب بسهم أثناء حصار عكا أودى بحياته. ابن القلانسي: ص ٢٢٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٥٧.

(٥) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٦٨.

ولم تلبث الأخبار أن حملت نبأ وفاة جودفري دي بوايون يوم الأربعاء (٩ رمضان/ ١٨ تموز)، فاقترح دايمبرث وتانكرِد على البنادقة رفع الحصار عن عكا وتوجيه الجهود للاستيلاء على حيفا نظراً لقربها من بيت المقدس، وهي أكثر نفعاً للقضية الصليبية في الوقت الراهن. وكانت حيفا تابعة للدولة الفاطمية، وللفاطميين فيها حامية قليلة العدد، فلما هاجمها الصليبيون لم تستطع المقاومة وقتاً طويلاً، وما لبثت المدينة أن سقطت بيد الصليبيين[١].

قيام مملكة بيت المقدس

ظهر الخلاف مرة أخرى بين القادة الصليبيين، وتنافسوا على حكم بيت المقدس. وعزم بلدوين حاكم الرها، وأخو جودفري دي بوايون، على الاستئثار بحكمها بوصفه الوريث الشرعي لأخيه. فسار إلى أنطاكية ومنها إلى اللاذقية، ووصل إلى طرابلس على رأس قوة عسكرية مؤلفة من مائة وستين فارساً وخمسمائة من الرجالة، ورحَّب به فخر الملك بن عمار، وقدَّم إليه ما كان بحاجة ماسة إليه من ميرة ومؤن، ثم تابع سيره بطريق الساحل حتى وصل إلى نهر الكلب، وهناك، اصطدم بقوات سلجوقية مشتركة، بقيادة دقاق صاحب دمشق وجناح الدولة صاحب حمص، وكادت الدائرة تدور عليه وعلى قواته، غير أنه تمالك نفسه واستطاع أن يعيد تنظيم صفوف قواته، وكرَّ على القوات السلجوقية وهزمها، وتابع طريقه بعد ذلك، فاجتاز صيدا وصور إلى أن وصل إلى بيت المقدس، ودخل إليها في (٥ محرم ٤٩٤هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١١٠٠م)، وتوِّج ملكاً على المدينة في اليوم التالي، وأعلن القادة الصليبيون ولاءهم له، وبذلك تحولت إمارة بيت المقدس إلى مملكة صليبية لاتينية[٢].

الاستيلاء على أرسوف وقيسارية

وضع بلدوين، بعد تتويجه، خطة استهدفت الاستيلاء على جميع الشاطىء الفلسطيني المواجه لمملكته، وذلك لتأمين طريق الحج من جهة ولتنشيط التجارة مع الغرب من جهة أخرى، مما يوفر لمملكته كثيراً من أسباب القوة، غير أنه كان بحاجة إلى قوة بحرية. وصادف آنذاك وصول أسطول جنوي إلى حيفا في (جمادى الأولى

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٢٥. فوشيه الشارتري: ص ٨٥ ـ ٨٦. Albirt d'Aix: pp. 512 - 523.
وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٧٦.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ١٠٣ ـ ١١٢. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٧٧. ابن القلانسي: ص ٢٢٤ الذي يذكر أن القوة التي جاءت مع بلدوين بلغت خمسمائة فارس وراجل.

٤٩٤هـ/ آذار ١١٠١م)، ومنها أبحر إلى يافا، فاجتمع بلدوين بقادته، واتفق معهم على أن يقدموا له المساعدة المطلوبة لاحتلال أرسوف وقيسارية مقابل الحصول على ثلث الغنائم، فضلاً عن شارع من شوارع السوق في كل مدينة يستولون عليها ليتخذونه مركزاً يباشرون فيه نشاطهم التجاري[١].

لم يكد الاتفاق ينعقد بين الطرفين، حتى تحرَّك الحلفاء للاستيلاء على أرسوف. فهاجمها بلدوين من جهة البر بينما هاجمها الجنويون من البحر، ولم تلبث المقاومة أن تداعت، فاستسلمت الحامية في شهر (رجب/ أيار)، مقابل بذل الأمان لسكان المدينة، فيخرجون بأسراتهم وأمتعتهم. قَبل بلدوين هذا الشرط، وتولَّت قواته حراستهم إلى عسقلان، ثم شحن المدينة بالعساكر بعدما أعطى الجنويين نصيبهم[٢].

توجه الحلفاء بعد ذلك إلى قيسارية وحاصروها، وقد رفضت حاميتها التسليم لاعتمادها على ما كان للمدينة من أسوار، غير أن قيسارية سقطت عنوة بعد بضعة أيام، وتعرَّضت للنهب، وأحدث الصليبيون فيها مذبحة مروعة، ولم ينجُ من سكانها غير عدد قليل، وأقام فيها بلدوين حامية عسكرية[٣].

رد الفعل الفاطمي

معركة الرملة الأولى: ٤٩٤هـ/ ١١٠١م

لم يكد بلدوين ينتهي من تقسيم الغنيمة وفقاً للاتفاق الذي أبرمه مع الجنوية، ومن إقامة حامية في المدينة، حتى جاءته الأنباء بأن جيشاً فاطمياً دخل إلى فلسطين. والواقع أن الجمود الفاطمي الذي ساد أوساط الفاطميين عقب سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين، لم يستمر طويلاً، فاختار الوزير الأفضل أن يرسل حملة كبيرة إلى فلسطين في (أواخر رمضان/ أوائل تموز) بقيادة المملوك سعد الدولة القواس، وقد تجمعت الحملة في عسقلان التي أضحت قاعدة تجمُّع وانطلاق الحملات التي خرجت من مصر ضد الصليبيين في تلك المرحلة، على أن هذه الحملة أضاعت كثيراً من الوقت في عسقلان ربما بانتظار إمدادات جديدة قادمة من مصر، مما أتاح لبلدوين الفرصة للاستعداد[٤].

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ١١٣. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ١١٣ ـ ١١٤ وليم الصوري: ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥. ابن القلانسي: ص ٢٢٥.

(٣) فوشيه الشارتري: ص ١١٤ ـ ١١٥. وليم الصوري: ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦. ابن القلانسي: المصدر نفسه.

(٤) Stevenson: pp. 44 - 45.

وتحرَّك الجيش الفاطمي في (٨ ذي القعدة/ ٤ أيلول) باتجاه الرملة. وقرَّر سعد الدولة التوغل في الأراضي الصليبية حتى بيت القدس، مستغلاً انصراف بلدوين إلى مهاجمة قيسارية، غير أن الملك الصليبي عجَّل بالمسير إلى الرملة، واصطدم بالجيش الفاطمي في السهل الواقع إلى الجنوب الغربي من المدينة، وانتصر عليه، وقُتِل عدد كبير من المسلمين في المعركة، من بينهم قائد الجيش، في حين فرَّ بقية أفراد الجيش باتجاه عسقلان، وطاردهم الصليبيون حتى أسوار هذه المدينة[١].

معركة الرملة الثانية: ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م

لم يستطع الوزير الأفضل أن يسكت على الهزيمة التي لحقت بجيوشه على أيدي الصليبيين، وما اشتهرت به مصر من موارد ضخمة، هيأت له أن يجهِّز جيشاً كبيراً يستطيع بواسطته استئناف القتال. احتشد الجيش الذي بلغ عدد أفراده عشرين ألفاً في عسقلان في (٢٥ رجب ٤٩٥هـ/ ١٥ أيار ١١٠٢م) تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل، ثم انطلق إلى اللد والرملة ويازور، ومن هناك اتجه لتهديد يافا وبيت المقدس[٢].

وكان بلدوين قد استعد هو الآخر، فحشد في يافا بضعة آلاف من الصليبيين، لكنه اغترَّ بانتصاره السابق، أو أن كشافته ضلَّلته، ونظراً لاعتقاده بأن الفاطميين ليسوا إلا فئة قليلة، استخفَّ بهم، وعزم على أن يتولَّى بنفسه القضاء عليهم دون أن يلجأ إلى استدعاء القوات الاحتياطية، فخرج من بيت المقدس في قلَّة من الفرسان تبلغ سبعمائة فارس وراجل قاصداً الرملة. وفي الوقت الذي كان يسير فيه على غير تعبئة باغتته القوات الفاطمية بين يازور والرملة. وربما اعتقد المسلمون بأن تلك الثلَّة من القوة العسكرية ليست إلا طليعة لجيش ضخم آتٍ في أعقاب الملك، فاختاروا أن يباغتوها فوراً قبل أن يلحق بها بقية الجيش. ولم يكن باستطاعة بلدوين الثبات أمام الجموع الإسلامية، فانهزم هو وجيشه، ولقي عدد كبير من الفرسان مصرعهم في ساحة المعركة، وتمكَّنت جماعة من الفرسان أن تشقَّ لها طريقاً في صفوف المسلمين حيث التحقت بيافا. أما الملك وكبار أعوانه، فاتخذوا طريقهم إلى حصن الرملة الصغير حيث حاصرهم الجيش الفاطمي. كانت عوامل الدفاع عن الرملة على

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٢٧. ابن ميسر: ص ٤٠. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠.
Albirt d'Aix: p. 553.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٢٩. ابن ميسر: ص ٤٠ ـ ٤١ الذي يحدد خروج شرف المعالي في رمضان عام ٤٩٦ هـ. فوشيه الشارتري: ص ١٢٢، ١٢٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٠٢.

غاية السوء، ولو هاجمها الجيش الفاطمي لاستولى عليها بسهولة، ودخلها بغير عناء، وقبض على الملك الصليبي، لكن حلول الظلام جعل الجنود الفاطميين يؤجلون اقتحامهم لها إلى صباح اليوم التالي، على أن بلدوين استطاع الفرار من الرملة ليلاً بعد أن تنكَّر، واتجه إلى يافا. وهاجم الجيش الفاطمي المدينة في صباح اليوم التالي واقتحمها، وقتل معظم من فيها من فرسان الصليبيين(١).

ولم يلبث الجيش الفاطمي أن حاصر يافا براً في الوقت الذي كانت فيه مطاردة بلدوين جارية، في حين حاصرها أسطول فاطمي بحراً، فاضطر بلدوين إلى تغيير وجهة سيره، واتجه إلى أرسوف شمال يافا حيث تجمَّع رجاله من جديد، وتمكَّن من دخول يافا بعد ذلك عن طريق البحر مخترقاً الحصار البحري(٢).

وصادف آنذاك أن وصلت إلى ميناء يافا مائتا سفينة تحمل عدداً كبيراً من الجند والحجاج الإنكليز والفرنسيين والألمان، بعد أن شقَّت طريقها إلى داخل الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمي، فجنَّدهم بلدوين في قواته، وبذلك حصل على معونة عسكرية هو بأمس الحاجة إليها. وبعد تنظيم هذه القوات، خرج بلدوين في (٨ شعبان/ ٢٧ أيار) من يافا على رأس جيشه لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصِرة للمدينة، ولم تمضِ إلا ساعات قليلة حتى انهزم الفاطميون وتراجعوا إلى عسقلان(٣).

والواقع أن القوات الفاطمية افتقدت إلى وضع الخطط العسكرية الناجعة وتحديد الهدف الذي يخدم القضية الإسلامية. إذ كان بوسع سرية من العساكر أن تفتح بيت المقدس عقب معركة الرملة دون أن يتعرض حصار يافا لضعف ظاهر. ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دبَّ بين أفراد الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين في الرملة «فقال قوم: نقصد البيت المقدس ونتملَّكه. وقال قوم: نقصد يافا ونملكها، فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة بيت المقدس، فندبهم بغدوين للغزو معه»(٤).

ومهما يكن من أمر، فعندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٢٩. فوشيه الشارتري: ص ١٢٥ ـ ١٢٧. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٧.
Albirt d'Aix: p 595.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ١٢٧. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٠٥ ـ ٥٠٧.

(٣) فوشيه الشارتري: ص ١٢٨ ـ ١٢٩. وليم الصوري: ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧. ابن ميسر: ص ٤١.

(٤) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

أسرع بإرسال حملتين إحداهما برية بقيادة المملوك تاج العجم، وتألفت من أربعة آلاف فارس، والأخرى بحرية بقيادة القاضي ابن قادوس[1]، لكن التنسيق العسكري بينهما كان معدوماً، فتوقف الجيش البري في عسقلان. وأرسل بلدوين، في تلك الأثناء، رسالة عاجلة إلى كل من تانكرد، الوصي على أنطاكية، ودي بورج، أمير الرها، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة، لم تلبث أن وصلت إلى يافا في (١٧ ذي القعدة/ ١ أيلول)، وقد بلغ عدد أفرادها خمسمائة من الفرسان، وألفاً من المشاة، بقيادة أميري أنطاكية والرها[2].

في ظل هذا التطور العسكري، طلب الوزير الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق، المساعدة ضد الصليبيين، ولكن دقاق اعتذر عن ذلك، ولم يحضر[3].

استيلاء الصليبيين على عكا

يبدو أن الهزائم التي حلَّت بالفاطميين لم تستنفد جهود الوزير الأفضل، غير أن إعداد جيش جديد يتطلب وقتاً طويلاً، وقد استفاد بلدوين من هذا الهدوء، في توطيد مركزه على ساحل فلسطين. فعلى الرغم من أنه استولى على المدن الواقعة بين يافا وحيفا، ومنها أرسوف وقيسارية، فإنه طمع في احتلال بقية الثغور، مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت، وكلها كانت تابعة للفاطميين[4]، وبخاصة أن المسلمين كانوا يغيرون على الطرق التي تربط بينها، وهدَّدوا المواصلات بين يافا وبيت المقدس، فاختار أن يستولي على عكا، فحاصرها في شهر (رجب ٤٩٦هـ/ نيسان ١١٠٣م)، وضيَّق على أهلها، وكادت تسقط في يده لولا أن وصلت إليها النجدات من سائر السواحل، من صور وصيدا، واضطر إلى رفع الحصار عنها[5].

ومن الواضح أن فشل الملك الصليبي مردُّه إلى عدم وجود قوة بحرية تسانده لإحكام الحصار على المدينة من البر والبحر. وأتيحت له الفرصة في أوائل (جمادى الآخرة ٤٩٧هـ/ آذار ١١٠٤م) عندما وصل إلى اللاذقية أسطول جنوي ضخم، ضمَّ سبعين سفينة مشحونة بالجنود والحجاج والتجار الذين قدموا إلى الشرق، فاستعان بهم بلدوين، بعد أن بذل لهم الأجر المألوف، وهو ثلث الغنيمة، وامتيازات تجارية، وحي في السوق؛ في فرض حصار على المدينة، في شهر (شعبان/ أيار). دافع عن

---

(١) المصدر نفسه: ص ٤٩٠.
(٢) Albirt d'Aix: p. 597. Stevenson p. 46.
(٣) ابن ميسر: ص ٤١.
(٤) Grousset: I. p. 239.
(٥) فوشيه الشارتري: ص ١٣٠. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥١٠ ـ ٥١١.

عكا حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي، لكنه عجز عن الصمود، وبخاصة أنه لم يتلقَّ مساعدة من مصر، ولا من المدن الساحلية، ولم يسعه إلا أن يعرض التسليم بعد عشرين يوماً مقابل الأمان له ولأهل الثغر، ومن لم يشأ الخروج من المدينة يصبح من رعايا الملك الصليبي، وغادر زهر الدولة إلى دمشق[1].

تسلَّم بلدوين المدينة، لكن الجنوية نقضوا العهد الذي أعطاه الملك لأهلها، إذ لم يطيقوا أن يروا هذه الثروة الكبيرة تفلت من أيديهم، فاجتاحوها كالإعصار المدمِّر، يقتلون ويذبحون ويسلبون وينهبون، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة، مما أثار غضب بلدوين ونقمته[2]. وقد عزا أبو الفدا سقوط عكا بيد الصليبيين إلى النزاع الذي كان قائماً آنذاك بين المسلمين بعامة «وقد تفرَّقت الآراء واختلفت الأهواء»[3].

ولا شك بأن سقوط عكا أضرَّ بالوجود الفاطمي في منطقة الساحل وقلَّص نفوذ الفاطميين في بلاد الشام، وحرمهم من أهم قواعدهم البحرية هناك، وكفل لبلدوين ميناءً صالحاً لرسو السفن في كل الفصول، والاتصال بأوروبا، وسمح للسفن الصليبية الاحتماء به لتفادي هجمات الأسطول الفاطمي، وأضحت عكا الميناء الرئيسي لمملكة بيت المقدس.

وأظهر المؤرخون المسلمون أسفهم لعجز الفاطميين عن حماية موانىء بلاد الشام التي أخذت تتساقط الواحدة بعد الأخرى بيد الصليبيين، واتهموا الآمر الفاطمي بالتهاون في الجهاد، «فكان يتناهى في العظمة ويتقاعس عن الجهاد... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد، ولم ينهض لقتال الفرنج البتة، وإن كان قد أرسل مع الأسطول عسكراً فهو كلا شيء..»[4].

معركة الرملة الثالثة: ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م

والحقيقة أن الوزير الأفضل لم يتخلَّ عن مواصلة الجهاد، وإن كان يُعاب عليه عدم الخروج بنفسه على رأس الجيش للقتال. ويبدو أن الأوضاع الداخلية المتردية في مصر آنذاك، والتي كانت تسودها المؤامرات، كانت وراء عدم مغادرته مصر. وقام بمحاولة أخرى في (شهر ذي الحجة ٤٩٨هـ/ آب ١١٠٥م) مختلفة في النهج والأسلوب، فأرسل حملة بحرية إلى بلاد الشام قوامها خمسة آلاف مقاتل بقيادة ابنه

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٣٢. فوشيه الشارتري: المصدر نفسه ص ١٣١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٩٥. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٥.

(٢) Albirt d'Aix: pp. 606 - 607.

(٣) المختصر في أخبار البشر: جـ ٢ ص ٣٥.

(٤) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١٧٨.

شرف المعالي احتشدت في عسقلان[١]. وحتى يطوِّق الصليبيين من الشمال والجنوب، لم يتردَّد في طلب مساعدة سلاجقة الشام السنَّة. فعرض على الأتابك ظهير الدين طغتكين[٢]، الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تُتش في شهر (رمضان ٤٩٧هـ/ حزيران ١١٠٤م)، أن يساعده، على الرغم من الخصومة المذهبية، وقد أعرب طغتكين عن سروره بتقديم المساعدة، غير أنه لم يكن بوسعه أن يرسل إليه جيشاً كبيراً، على أنه أرسل قوة عسكرية قوامها ألف وثلاثمائة من الرماة بقيادة أصبهذصباو وجهارتكين[٣]، ويُعدُّ ذلك أول عملية تحالف، اتحد فيها المسلمون ضدالصليبيين، عدوهم المشترك[٤].

تحرك الجيش الفاطمي إلى فلسطين، وانحازت إليه عساكر دمشق بعد أن اجتازت إقليم شرق الأردن واخترقت النقب. وعندما علم بلدوين بتحرك القوات الإسلامية، ترك يافا وخرج على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا وبيت المقدس، والتف حوله جميع الأمراء الصليبيين، كما قدم إليه بطريرك بيت المقدس بكل ما استطاع تجنيده من العساكر، وكان مع بلدوين أرتاش أخو دقاق، المطالب بعرش سلطنة دمشق[٥].

اصطدم الجيشان الإسلامي والصليبي، بين عسقلان ويافا في (١٤ ذي الحجة/ ١ أب) وانتهى بانتصار بلدوين، وفرَّ صباو مع عساكره الأتراك عائداً إلى دمشق، وتراجع الجنود الفاطميون إلى عسقلان؛ وعاد شرف المعالي إلى القاهرة؛ وأصيب الجيش الفاطمي بخسائر فادحة حيث قُتل ألف ومائتان من جنوده، ولقي حاكم عسقلان مصرعه، ووقع القائدان السابقان لعكا وأرسوف في الأسر، وعاد الأسطول الفاطمي إلى صور وصيدا وطرابلس، كما تكبَّد الصليبيون خسائر مماثلة في الأرواح[٦].

وهكذا فشلت الحملة الفاطمية في تحقيق هدف الفاطميين، وأنهت هذه المحاولة الضخمة جهود الفاطميين لاستعادة فلسطين على الرغم من أنهم ظلوا

---

(١) يذكر ابن القلانسي أن عدد أفراد الجيش المصري بلغ عشرة آلاف مقاتل، ص ٢٤٠. ابن ميسر: ص ٤١.

(٢) ظهير الدين طغتكين: أتابك الملك دقاق بن تاج الدولة تُتُش صاحب دمشق. ولم يلبث أن استولى على السلطة بعد وفاة دقاق وأسس أتابكية دمشق التي امتد حكمها بين عامي (٤٩٧ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٠٤ ـ ١١٥٤ م).

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٤٠. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥١٢ ـ ٥١٣.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٠٤.

(٥) ابن القلانسي: ص ٢٤٠. فوشيه الشارتري: ص ١٣٥ ـ ١٣٦. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٢١.

(٦) المصادر نفسها: ص ٢٤٠ ـ ٢٤١. ص ١٣٦ ـ ١٣٩. ص ٥٢١ ـ ٥٢٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥١٣.

يهدِّدون الصليبيين بين حين وآخر، ولكن في نطاق محدود. فما حدث من غارة صغيرة قاموا بها في (أوائل عام ٥٠٠هـ/ خريف عام ١١٠٦م) أوشكت أن تحقق النجاح. فقد هاجم بضعة آلاف من الفرسان الفاطميين معسكراً للحجاج بين يافا وأرسوف وقتلوا النازلين فيه، ثم توجهوا إلى الرملة، وهاجموا يافا، وقصدوا بيت المقدس، لكن بلدوين عجَّل بالسير نحو الجنوب، وكان آنذاك في الجليل، فانسحب الفاطميون إلى عسقلان[١].

وقام الفاطميون، في العام التالي، بشن غارة على الجليل، صدَّها بلدوين، وتوغلوا في عام (٥٠٤هـ/ ١١١٠م) حتى بلغوا أسوار بيت المقدس لكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا[٢]. وجرت في السنوات العشر التالية غارات مماثلة بين حين وآخر، ومع أنها تقل عن سابقاتها في الأهمية، فإنها أزعجت حياة الحجاج النصارى في السهل الساحلي والنقب[٣].

سقوط المدن الساحلية

سقوط طرابلس

يُعدُّ ريموند الصنجيلي، كونت تولوز، من أبرز القادة الصليبيين الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى، وأكثرهم شهرة، كما أنه من أسوئهم حظاً. فقد شارك في الاستيلاء على أنطاكية، ومع ذلك فقد استأثر بها بوهيموند، كما نافسه على معرة النعمان بعد أن استولى عليها بنفسه، وأجبره على التخلي عنها. وعندما استولى على أنطرطوس، وحاصر عِرقة، اضطره زعماء الحملة إلى تركهما ليزحف معهم إلى بيت المقدس، وحدث له مثل ذلك عند عسقلان وأرسوف بفلسطين[٤].

وما اشتهر به هذا الرجل من الطموح حمله على التفكير في أن يؤسس لنفسه إمارة تتحكَّم في الطريق الساحلي، والطريق الداخلي الذي يصل بيت المقدس عبر وادي العاصي، على أن تكون حاضرتها حمص، غير أنه جعل هدفه الأول الاستيلاء على المدن الساحلية، ولا يتسنى له ذلك إلا بما يتلقَّاه من مساعدة أسطول جنوة[٥].

وعندما غادرت بقايا الجموع الصليبية التي وفدت على الشرق في عام

---

(١) Albirt d'Aix: pp. 635 - 638.

(٢) Ibid: pp. 646 - 647.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٤٨.

(٤) تدمري، عبد السلام: لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ص ٢٠٤.

(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ٩٥.

(٤٩٥هـ/ ١١٠١م)[١]، أنطاكية متوجهة إلى بيت المقدس، بذل جهداً لقيادتها والاستفادة منها، وحدَّد هدفه، وهو العمل على تأسيس إمارة له بجوار إمارة أنطاكية على حساب المسلمين، وهي إمارة طرابلس التابعة لبني عمار، الذي كان يعرف مدى ثرائها، ولم يُخفِ ما أعدَّه من خطط بشأنها. فبدأ بأنطرطوس التابعة لهؤلاء، وساعده أسطول جنوي كان قد وصل حديثاً إلى سواحل بلاد الشام، فسقطت المدينة في يده في (جمادى الأولى ٤٩٥هـ/ شباط ١١٠٢م)[٢]. ولم يكد يستولي عليها حتى اتخذ منها قاعدة ومنطلقاً لأعماله ومشاريعه المقبلة على ساحل بلاد الشام، وأول هذه المشاريع الاستيلاء على طرابلس ذاتها. ولما كان رفاقه يتطلعون إلى الرحيل إلى بيت المقدس مباشرة، فقد انفضوا من حوله، ولم يبق معه سوى عدد قليل من الجنود، فوصل إلى نواحي طرابلس في جمع لا يزيد على ثلاثمائة رجل[٣].

كان القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، ذا نزعات سلمية، وسيطر في وقت من الأوقات على كل الطريق الساحلي الممتد من اللاذقية وجبلة إلى بيروت التابعة للفاطميين[٤]، وقد انتهج سياسة مرنة تجاه زعماء الحملة الصليبية الأولى أثناء مرورهم بأراضي إمارته في طريقهم إلى بيت المقدس، كما حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وحذَّره من الكمين الذي نصبه له سلاجقة دمشق، وحرص دائماً على الاحتفاظ باستقلاله وسط النزاع الفاطمي ـ السلجوقي ـ الصليبي.

على أن الموقف تبدَّل عندما استولى ريموند الصنجيلي على أنطرطوس، وهدَّد طرابلس، فعندئذٍ رأى فخر الملك نفسه مضطراً لخوض الحرب دفاعاً عن

---

(١) لم يكد الغرب الأوروبي يسمع بالنجاح الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام، حتى أرسل جموعاً أخرى لتحقيق ثلاثة أهداف:

الأول: تعويض النقص في الرجال. **الثاني**: استئناف سياسة التوسع.

الثالث: حراسة المكاسب المحقَّقة ضد أية محاولة انتقامية من جانب المسلمين.

وتألفت من ثلاث مجموعات:

الأولى: من اللمبارديين بقيادة أنسلم، رئيس أساقفة ميلان، والأمراء ألبرت وجيوبرت وهيو.

الثانية: من الفرنسيين والألمان.

الثالثة: ضمَّت ستين ألفاً بقيادة وليم التاسع، دوق أكويتين، وولف الرابع، دوق باڤاريا.

وقد قضى عليها سلاجقة الروم في الأناضول قبل أن تصل إلى بلاد الشام.

انظر: وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٣.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ١٢٤. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٩٣.

(٣) فوشيه الشارتري: المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٧٣.

(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٩٥.

أراضيه، كما استنجد بالقوى الإسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر. فكتب إلى ياخز خليفة جناح الدولة على حمص، وإلى دقاق بن تاج الدولة تُتُش ملك دمشق، لمساندته، وأطمعهما بالتصدي لريموند وهو «في هذه العدة القريبة»، فاستجابا له. فأرسل دقاق ألفي مقاتل إلى طرابلس، في حين خرج ياخز على رأس جيش يزيد عن هذا العدد، وظنَّ الحلفاء أن الفرصة قد حانت للقضاء عليه[1].

اجتمع الحلفاء عند باب طرابلس وهم على تعبئة، استعداداً للتصدي للقوة الصليبية. أما ريموند فقد عبَّأ قواته، وقسَّمها إلى أربع فرق:

- فرقة أولى مؤلفة من مائة مقاتل لمقاتلة عسكر طرابلس.
- فرقة ثانية مؤلفة من مائة مقاتل لمواجهة عسكر دمشق.
- فرقة ثالثة مؤلفة من خمسين مقاتلاً للتصدي لعسكر حمص.
- واحتفظ هو بخمسين مقاتلاً لحمايته.

لم يورد المؤرخون الصليبيون تفاصيل عن هذه المعركة البالغة الأهمية، وكل ما نعلمه عنها مستمد من المؤرخ ابن الأثير. فعند بدء المواجهة العسكرية، انكسر عسكر حمص بعد هجوم فاشل قاموا به على المائة المقابلة لهم، وولوا منهزمين، فانتشر الهلع بين الجنود الدمشقيين وانسحبوا من ميدان المعركة، وصمد عسكر طرابلس وقاتلوا المائة الذين قاتلوهم، فلما شاهد ريموند خصومه وهم يفرُّون ركَّز هجومه على عسكر طرابلس وأجبرهم على الارتداد. وعندئذٍ أخذ الفرسان الصليبيون يذرعون ساحة المعركة، وقتلوا سبعة آلاف من المسلمين، «ونازل صنجيل طرابلس وحاصرها»، إلا أنه لم يتمكَّن من اقتحامها، فهادن فخر الملك على مال وخيل وعاد إلى أنطرطوس[2].

إن قراءة متأنية لسير العمليات العسكرية، ولعدد أفراد الجيشين الإسلامي والصليبي الذين خاضوا المعركة، بالإضافة إلى النصر الذي حقَّقه ريموند؛ تحملنا على الاعتقاد بأن الأمير الصليبي تلقَّى مساعدات خارجية كافية، ولا شك بأن نصارى لبنان الذين يسكنون المناطق المجاورة لطرابلس، هم الذين قدَّموا هذه المساعدة، نظراً لعدائهم للمسلمين[3].

ومهما يكن من أمر، فقد قام ريموند بمحاولة أخرى في (النصف الثاني من

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٢٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٧٣. عاشور: جـ ١ ص ٣٥٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤. (٣) المصدر نفسه: ص ٤٧٤.

عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م) للاستيلاء على طرابلس، فاستنجد فخر الملك من جديد بأميري دمشق وحمص «فجاؤوا ودفعوا الإفرنج عنه»[١].

لم تتوقف محاولات ريموند بمضايقة المدينة بشن الغارات عليها، ولبث على ذلك أكثر من سنتين، غير أن طرابلس لم تتأثر حتى ذلك الوقت بهذه الغارات ولا بالحصار الاقتصادي الذي فرضه عليها، وذلك بفضل مينائها الذي ظل مفتوحاً على البحر.

وفيما كانت طرابلس تواجه حصاراً اقتصادياً وغارات صليبية، إذ بها تواجه أيضاً محاولات فاطمية للسيطرة عليها. ذلك أن سناء الملك حسين بن الأفضل، الذي أرسله أبوه في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) للانتقام من الصليبيين، وصل إلى طرابلس، وطلب من صاحبها فخر الملك تسليمه المدينة، لكن صاحب طرابلس رفض طلبه، وأغلق أبواب المدينة في وجهه، «وأقام سناء الملك عليها مدة بالعساكر إلى أن نازلها الفرنج ورحَّلوه عنها إلى عسقلان»[٢].

والواقع أن ريموند استعان بالقوة الجنوية التي قدمت إلى الشرق في عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م) لمهاجمة طرابلس من البر والبحر، إلا أنه لم يحقِّق أي نجاح، فأيقن عندئذٍ أنها بقدر حصانتها براً فهي أيضاً حصينة بحراً[٣]، فانصرف عنها إلى جبيل واستولى عليها وخرج منها واليها الفاطمي منهزماً[٤]، ثم عاد إلى طرابلس وهو مصمِّم على الاستيلاء عليها هذه المرة. ولما كانت المدينة محصَّنة تحصيناً قوياً وطبيعياً، وحتى يضيِّق الحصار عليها، ويعزلها عن العالم الخارجي، ويرصد كل النجدات البرية والبحرية التي تأتي إليها، فضلاً عن تحركات عساكرها؛ رابط عند نهر المدينة على بُعد ثلاثة كيلومترات عنها، ثم بنى في (أواسط ٤٩٧هـ/ ربيع ١١٠٤م)، قلعة فوق التلة الغربية المشرفة على النهر مباشرة[٥]، أطلق عليها المؤرخون اسم قلعة صنجيل، وتتحكم بالميناء والأرباض المحيطة بها، كما تتحكم في مجرى النهر الذي يسقي سكان المدينة وبساتينها، فأمَّن بذلك المركز المسيطر عسكرياً على طرابلس، وساعده نصارى لبنان في عملية البناء[٦].

وحاول فخر الملك أبو علي بن عمار هدم القلعة، فهاجمها في شهر (ذي

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٢٨.
(٢) المقريزي: جـ ٣ ص ٤٢.
(٣) تدمري: ص ٢١٠.
(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٩٥.
(٥) أقيمت القلعة على تلة أبي سمرة الحالية الواقعة على الضفة اليسرى من نهر قاديشا (أبو علي) وهي التي كانت تعرف بتلة الحجاج.
(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٢٦. اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ٣ ص ٦٣.

الحجة٤٩٧هـ/ أيلول ١١٠٤م)، وأشعل النار في المعسكرات المقامة عند ربضها، كما اقتحمت قواته القلعة نفسها، وقتلوا من فيها، ونهبوها، وأحرقوها، وأخذوا ما فيها من مال وسلاح، وعادوا إلى المدينة. ويبدو أن هذا الهجوم الناجح أثَّر على معنويات ريموند، فاضطر إلى عقد هدنة مع فخر الملك، تنص على مرابطة الصليبيين في ظاهر طرابلس مقابل أن لا يقطعوا الميرة، ولا يمنعوا المسافرين من الخروج من المدينة أو القدوم إليها[١].

وعندما قدم ريموند ليتفقَّد القلعة بعد الهجوم عليها، وقف على بعض سقوفها المحترقة، فانخسفت به، وأصيب بجروح بالغة أدت إلى وفاته في (٤ جمادى الآخرة ٤٩٨هـ/ ٢١ شباط ١١٠٥م)، دون أن يحقق هدفه، وكان ابنه ألفونسو جوردان صغيراً، فاختار جنوده ابن عمه وليم جوردان ليخلفه في الحكم[٢].

واصل وليم جوردان سياسة سلفه، فتعرضت طرابلس، نتيجة ذلك، لأسوأ أنواع الحصار، فقلّت المؤن، وانتشرت الأمراض، وحاول فخر الملك التخفيف من وطأة البؤس، فاستنجد بالأمير سقمان الأرتقي صاحب ماردين، البعيد نسبياً عن طرابلس، متجاوزاً الاستعانة بجيرانه الفاطميين بسبب أطماعهم في أملاكه، كما كان على علاقة سيئة مع طغتكين أتابك دمشق، لكن سقمان توفي في الطريق، فعاد قادته إلى الجزيرة للتباحث بشأن ولاية الحكم، فما كان من فخر الملك إلا أن توجَّه إلى بغداد في شهر (رمضان ٥٠١هـ/ نيسان ١١٠٧م) ليطلب النجدة، من الخليفة العباسي المستظهر والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، وعيَّن ابن عمه أبا المناقب محمد بن عبد الله بن عمار، الملقَّب بشمس الملك، نائباً عنه، ولما عاد بعد أربعة أشهر وجد إمارته قد ضاعت منه[٣].

إذ في الوقت الذي كان فيه فخر الملك غائباً في بغداد، أدرك أعيان المدينة أن ما من دولة إسلامية تستطيع مساعدتهم سوى الدولة الفاطمية، فطلبوا من الأفضل أن يرسل إليهم والياً، يتولى إدارة المدينة ومعه الميرة، فاستجاب الأفضل لطلبهم، وعيَّن شرف الدولة بن أبي الطيب حاكماً عليها في (أواخر عام ٥٠١هـ/ صيف ١١٠٨م)[٤]، وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بني عمار، وعادت إلى الفاطميين مرة أخرى.

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١٧٨.
(٢) فوشيه الشارتري: ص ١٣٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥١٩ ـ ٥٢٠.
(٣) ابن القلانسي: ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٥٨ ـ ٥٥٩.
(٤) ابن القلانسي: ص ٢٥٨. ابن الأثير: ص ٥٦٠.

لكن الفاطميين كانوا أضعف من أن يستطيعوا الدفاع عن طرابلس، كما لم يظفر بها وليم جوردان. فقد قدم في ذلك الوقت، الأمير برتراند، الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، وصاحب الحق الشرعي في تركة أبيه، وكان حاكماً على إقليم تولوز. ونتيجة للنزاع بين الصليبيين حول اقتسام الإرث، عُقد اجتماع في شهر (ذي القعدة ٥٠٢هـ/ حزيران ١١٠٩م)، خارج أسوار طرابلس حضره أمراء الشرق الصليبيون، تقرر فيه أن تكون جبيل من نصيب برتراند بالإضافة إلى طرابلس بعد الاستيلاء عليها[١].

وإذ انعقد الصلح بين الصليبيين، نهضوا جميعاً للاستيلاء على المدينة، ولم يتمكَّن الفاطميون من إيصال المساعدة المطلوبة لنجدتها في الوقت المناسب. ذلك أن إجراءات إرسال المؤن والعساكر والذخائر، كانت بطيئة، كما أدَّى الخلاف الذي نشب بين قادة الأسطول الفاطمي، الراسي في موانىء الدلتا، إلى تأخير إقلاعه، وعندما أقلع صادفته رياح مضادة عرقلت سيره، فوصل بعد فوات الأوان. ودكَّ الصليبيون أسوار المدينة من البر، كما قطع أسطولا جنوة وبروڤانس خطوط مواصلاتها البحرية. عندئذٍ تخلَّت الحامية عن المقاومة، وسلَّمت المدينة للصليبيين الذين دخلوها في (١١ ذي الحجة / ١٢تموز)، وسُمح للقائد الفاطمي بالخروج سالماً مع جماعة من رجاله، وأضحى برتراند أميراً على طرابلس، فأكَّد تبعيته لمملكة بيت المقدس[٢].

وحدَّد أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ثلاثة أسباب لسقوط طرابلس هي:

أولاً: تقاعس الفاطميين عن المسير إليها تلك المدة الطويلة.

ثانياً: ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة، لدفع الفرنج من البحر عن البلد حسب الحال.

ثالثاً: عدم خروج الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية «هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة»[٣].

سقوط بيروت

تهيأ للملك بلدوين الحرية ليواصل توسيع حدود مملكته، وتطلَّع إلى المدن

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ١٤٤. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٣٠ ـ ٥٣٢.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ١٤٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣. ابن القلانسي: ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩ الذي يحدد سقوط طرابلس في ذي الحجة عام ٥٠٣ هـ.

(٣) النجوم الزاهرة: جـ ٥ ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

الساحلية، مثل عسقلان في الجنوب، وصور وصيدا وبيروت في الشمال. والمعروف أن كلاً من عسقلان وصور تُعدُّ من الحصون المنيعة، وتنزل فيها حاميات عسكرية قوية، وبالتالي يقتضي إخضاعها استعدادات عسكرية قوية.

وبعد أن سقطت كل من جبيل وعِرقة وطرابلس بيد الصليبيين، وفَّرت هذه الأخيرة قاعدة مناسبة لهم، فوجَّهوا اهتمامهم للاستيلاء على بيروت، فحاصرها بلدوين براً وبحراً، ولما لم يتمكَّن من اقتحامها، طلب مساعدة من صليبيي طرابلس وغيرهم من الشمال، ومن نصارى لبنان، فاستجاب لطلبه برتراند، صاحب طرابلس، وجوسلين صاحب تل باشر، كما اجتمع بأمراء النصارى في جبيلٍ، وشنَّ الحلفاء غارة مفاجئة على بلاد وقرى الغرب المحيطة ببيروت، فنهبوها وأحرقوها، وقتلوا وأسروا كل من وجدوه من أهلها[1]، ثم حاصروا بيروت، ووضعوا أبراجاً لينصبوها على أسوارها، لكنهم جوبهوا بمقاومة شديدة من جانب سكانها بقيادة حاكمها عضد الدولة التنوخي. وفي الوقت الذي كان فيه القتال دائراً وصل أسطول فاطمي يتألف من تسع عشرة سفينة، فاصطدم بالأسطول الصليبي المحاصر للمدينة، وتغلَّب عليه، وأسر بعض قطعه. وتمكَّن الأسطول الفاطمي من دخول الميناء، وهو يحمل الغلال والميرة، مما أعطى السكان الأمل في الصمود والدفاع عن مدينتهم.

تجاه هذا الوضع العسكري، استنجد بلدوين بالجنوية، فأمدُّوه بأربعين سفينة مشحونة بالمقاتلين، فتقوَّى بهم، وضيَّق الحصار على بيروت، وهاجمها بكل قواته البرية والبحرية يوم الجمعة (٢١ شوال ٥٠٣هـ/ ١٣ نيسان ١١١٠م). فاشتد القتال بين الطرفين، وقُتل قائد الأسطول الفاطمي وخلق كثير من المسلمين «ولم ير الإفرنج من ما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا» لدرجة أن القتال استمر بشكل متواصل ليل نهار، حتى ملك الصليبيون المدينة بالسيف. وفشلت السفن الفاطمية التي قدمت من صور وصيدا في كسر الطوق البحري، وحاول عضد الدولة التنوخي الهرب مع جماعة من أعوانه، لكنه وقع في الأسر، وقتله الصليبيون، ونُهبت بيروت، وسُبي من كان فيها، وبلغ عدد القتلى عشرين ألفاً[2].

(١) الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان جـ ٢ ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩. فوشيه الشارتري: ص ١٤٥ ـ ١٤٦. يذكر هذا المؤرخ الصليبي، الذي كان شاهد عيان لسقوط بيروت، أن الحصار استمر حوالي خمسة وسبعين يوماً. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٣٨ ـ ٥٤٠. تدمري: ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤. Grousset: I. p. 255.

وخرجت من مصر نجدة فاطمية لمساعدة بيروت قوامها ثلاثمائة فارس، لكن وقعت في كمين نصبه الصليبيون عند نهر الأردن[(١)].

سقوط صيدا

اهتم الفاطميون والسلاجقة، الذين تناوبوا على حكم صيدا، بتحصينها. فقد قام الوالي الفاطمي سعد الدولة الأفضلي بعمارة برج فيها في عام (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م)، وحصَّنها أميرها مجد الدولة التنوخي في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م)؛ مما جعلها تقوى على الصمود في وجه الصليبيين لبعض الوقت[(٢)].

وجرت عدة محاولات صليبية للاستيلاء عليها. ففي عام (٤٩٩هـ/ ١١٠٦م)، وصل إلى يافا أسطول ضخم يحمل حجاجاً من الإنكليز والفلمنكيين والدانمركيين يتراوح عديدهم بين سبعة آلاف وتسعة آلاف حاج، فاستغلهم بلدوين في مهاجمة صيدا. وما إن وصلت الأخبار إلى أميرها التنوخي مجد الدولة حتى بادر بإرسال مبلغ ضخم من المال مقداره خمسة عشر ألف دينار، وإذ كان بلدوين مفتقراً إلى المال، لم يسعه إلا قبول الهدية، وكان هيو صاحب طبرية قد توفي في تلك الأثناء، فكان عليه أن يسير إلى طبرية لتقرير أمرها، فرفع الحصار عن صيدا[(٣)].

لكن فكرة الاستيلاء على صيدا ظلَّت تراود خيال بلدوين، فهاجمها في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٨م)، وساعده هذه المرة أسطول بحري يقوده ملاحون مغامرون من مدن إيطالية مختلفة، من جنوة والبندقية وبيزا وأمالفي وغيرها وحقق نجاحاً أولياً، فأرسل حاكمها إلى طغتيكن أتابك دمشق يطلب منه المساعدة، وعارضاً عليه مبلغ ثلاثين ألف دينار لقاء ذلك، ولكن لم يلبث أن تغيَّر وجه المعركة عندما وصلت إلى مياه المدينة خمسون قطعة بحرية فاطمية، فاصطدمت في معركة بحرية، مع السفن الإيطالية وهزمتها، ففقد بلدوين بذلك عنصراً مهماً من المساندة. يضاف إلى ذلك، أن الأنباء أتته باقتراب العسكر الدمشقي الذي خرج لنجدة المدينة وتعداده خمسة عشر ألف مقاتل، فأدرك عندئذٍ أن العملية فاشلة، وآثر الانسحاب ومن معه إلى عكا[(٤)].

ولم يكد ينسحب من أمام صيدا حتى رفض حاكمها السماح للجيش الدمشقي

---

(١) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٢٦٩. المقريزي: جـ ٣ ص ٤٥.

(٢) الشدياق: جـ ٢ ص ٢٠٦.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٤٨ ـ ١٤٩. Albirt d'Aix: pp. 632 - 634. Grousset: I. p. 239.

(٤) ابن القلانسي: ص ٢٦٠. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٦١. Albirt d'Aix: Ibid. Grousset: Ibid p. 253.

بدخولها، ويبدو أنه ارتاب بنوايا طغتكين، وخشي أن تكون هناك مؤامرة دبرها ضده الأتابك للاستيلاء على صيدا، كما امتنع عن دفع المبلغ المقرر بينهما. فهدَّد الجيش الدمشقي، عند ذلك، باستدعاء الملك الصليبي لمهاجة المدينة، ولكن الوقائع أظهرت أنه قد عاد إلى بلاده، وليس في نيته العودة، في الوقت الراهن، عند ذلك هدَّد الدمشقيون صيدا، حتى تم الاتفاق على أن يدفع مجد الدولة مبلغ عشرة آلاف دينار تعويضاً لهم على خروجهم لنجدته[١].

وصدف أن وصل إلى عكا، في (أوائل عام (٥٠٤هـ/ صيف ١١١٠م)، سبعون مركباً يحمل عشرة آلاف مقاتل نرويجي بقيادة سيجورد، أحد ملوك النرويج. وما إن علم بلدوين بوصولهم حتى سارع لاستقبالهم، وأظهر اغتباطه بقدومهم وأحاطهم بكل مظاهر الحفاوة والتشريف، وأقنع الملك النرويجي بمشاركته في الاستيلاء على صيدا، كما استدعى برتراند، حاكم طرابلس، فجاء بقواته وانضم إليهما[٢].

وبدأ الحلفاء في فرض حصار بري وبحري على صيدا في (٣ ربيع الآخر/ ١٩ تشرين الأول)، وقطعوا طرق الإمدادات إليها، ومع ذلك قام أسطول فاطمي أبحر من ثغر صور بمهاجمة السفن النرويجية، وكاد أن يبيدها كلها، لولا أن وصل في الوقت المناسب أسطول بندقي يقوده دوق البندقية أورديلافو ڤاليري، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار المدينة، ومهاجمتها من جهة البحر. وعجزت السفن الفاطمية أن تمد أهل صيدا بما يحتاجون إليه من سلاح وعتاد ومقاتلة ومؤن[٣].

وفي الوقت الذي كان فيه القتال دائراً، أعدَّ حاكم صيدا خطة لاغتيال بلدوين، غير أن النصارى من أهلها، الذين تسربت إليهم أنباء المؤامرة، حذَّروه، فقبض على الشخص المكلف باغتياله وأعدمه فوراً[٤]، وزادت هذه الحادثة من تصميمه على الاستيلاء على المدينة، فأدرك قاضيها وشيوخها استحالة المقاومة، وخشوا مصيراً كمصير بيروت، لذلك، خرجوا لمقابلة بلدوين، وطلبوا منه الأمان لأهل المدينة، واستحلفوه على ذلك فأجابهم إلى طلبهم، وأصدر أوامره إلى العساكر بتأمين الناس على نفوسهم وأموالهم، والسماح لمن يريد الخروج منهم إلى دمشق وغيرها، وعدم

---

(١) تدمري: ص ٢٧٨. Albirt d'Aix: Ibid pp. 635 - 636.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ١٤٧. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٠ ـ ٥٤١.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٧٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٢. وليم الصوري المصدر نفسه.

(٤) وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٥٤٢.

التعرض لن يريد البقاء في المدينة. فخرج حاكم صيدا وجميع قادة الأجناد والعساكر، وقاضيها، وخلق كثير من الناس من أهلها وتوجهوا إلى دمشق، وبقي الفقراء فيها، فخضعوا لحكم الصليبيين، ودخلوا في تبعية مملكة بيت المقدس الصليبية. ودخل الصليبيون إلى المدينة بعد مقاومة دامت سبعة وأربعين يوماً، فرتَّب بلدوين أوضاعها وعيَّن المحافظين عليها وعاد إلى بيت المقدس[١].

محاولة بلدوين الاستيلاء على عسقلان

أضحى الصليبيون يسيطرون على جميع الساحل الشامي باستثناء مدينتي عسقلان وصور. أما المدينة الأولى، وهي القاعدة العسكرية الرئيسية للفاطميين في فلسطين، فقد كادت تدخل تحت حماية هؤلاء. إذ أعقب الاستيلاء على صيدا، أن بادر بلدوين بالمسير إلى عسقلان للاستيلاء عليها، فسعى حاكمها الفاطمي شمس الخلافة إلى عقد هدنة معه، فأرسل إليه مالاً وعروضاً طالباً منه عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين مع استعداده لدفع الجزية[٢].

انزعج الوزير الأفضل عندما علم بهذه الاتصالات، لأن عسقلان كانت مفتاح فلسطين[٣]، فأرسل حملة عسكرية تحت ستار محاربة الصليبيين، وحمَّل قائدها عز الملك الأعز من الأوامر ما يقضي بعزل شمس الخلافة، على أن يحل محله في حكم المدينة[٤].

ارتاب شمس الخلافة من تلك الحملة، ورفض أن يسمح لأفرادها بالدخول إلى المدينة، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائدها، فعاد أدراجه إلى القاهرة. وتشكَّك فيمن حوله من الجنود العرب، فطردهم وأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً، وتمادى حين ذهب إلى بيت المقدس ليضع نفسه ومدينته بتصرف بلدوين وحمايته، ثم عاد بصحبة ثلاثمائة جندي صليبي أنزلهم في القلعة[٥].

على أن هذه الخيانة أساءت إلى شعور أهل عسقلان، فثاروا على شمس الخلافة، وبفضل مساعدة تلقوها من القاهرة، قاموا بانقلاب في شهر (محرم

---

(١) وليم الصوري: ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣، ابن القلانسي: ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨١. فوشيه الشارتري: ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٧٥.

(٣) عاشور: جـ ١ ص ٣١١.

(٤) ابن القلانسي: ص ٢٧٥، المقريزي: جـ ٣ ص ٤٦. Albirt d'Aix: pp. 679 - 680.

(٥) ابن القلانسي: المصدر نفسه: ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٣.

٥٠٥هـ/ تموز ١١١١م) لقي فيه شمس الخلافة مصرعه، كما جرت مذبحة قُتل فيها عدد كبير من الصليبيين. وهرع بلدوين لإنقاذ رجاله، غير أنه وصل متأخراً، فلم يسعه إلا العودة. وأرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها. وكان لا بد لعسقلان أن تبقى شوكة في جنب الصليبيين لمدة أربعين عاماً أخرى(١).

التعاون بين القاهرة ودمشق ضد الصليبيين: ٥٠٥ هـ/ ١١١١م

أضحت صور، منذ أن تُوِّج بلدوين ملكاً على بيت المقدس، ضمن اهتماماته بهدف إيجاد منفذ بحري نظراً لما تتمتع به من موقع هام، وثروة زراعية. ومع محاولاته المتكررة للسيطرة على موقع بالساحل، توجَّه في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٨م) نحو صور وعسكر بجوارها. ولما كانت المدينة منيعة، شرع في إنشاء حصن بظاهرها على تل المعشوقة في الجهة الشرقية منها، وحاصرها مدة شهر، واضطر واليها عز الملك أنوشتكين الأفضلي(٢) إلى مهادنته بأن دفع له سبعة آلاف دينار، فرضي بها ورحل إلى صيدا(٣).

وحين سقطت صيدا بيده، اشتدت ثائرة عز الملك، وشعر بحرج موقفه أمام الغارات الصليبية المتكررة من ناحية، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدته في كثير من الحالات، من ناحية أخرى، لذلك التفت نحو دمشق بوصفها أكبر قوة إسلامية قريبة منه فأرسل في (أوائل عام ٥٠٥هـ/ خريف عام ١١١١م)، إلى طغتكين يطلب منه إمداده بكتيبة من الرماة مؤلفة من خمسمائة مقاتل، تتولى حماية المدينة على أن يؤدي عنها مبلغ عشرين ألف دينار، وهدَّده بأن يسلم البلد للصليبيين، واستأذنه في الوقت نفسه بأن يرسل هو وأعيان صور ما بحوزتهم من الأمتعة الثمينة لحفظها عنده في دمشق، وتجاوب طغتكين مع رغبة حاكم صور. ولما كانت القافلة لا بد أن تجتاز أراضي خاضعة لسيطرة الصليبيين وهي في طريقها إلى دمشق، بذل عز الملك الرشوة لأحد الفرسان الصليبيين، ويدعى راينفرد، كيما يرشدها ويكفل لها الأمن والسلام. قَبِل راينفرد الشروط، ثم أسرع بإبلاغ بلدوين. وإذ استاء هذا الأخير من هذه الاتفاقية، وعلم بموعد خروج القافلة التي تحمل الثروة، كمن لها، وانقضَّ على

(١) ابن القلانسي: ص ٢٧٥. رنسيمان: جـ ٢ ص ١٥٣ ـ ١٥٤. عاشور: جـ ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢.
Albirt d'Aix: pp. 680 - 681.

(٢) عند ابن ميسر والمقريزي، سعد الملك كمشتكين أحد المماليك الأفضلية. ص ٤٢. جـ ٣ ص ٣٨.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٥٥.

رجالها، ثم حشد كامل قواته لمهاجمة صور، إلا أنه افتقر إلى قوة بحرية مساندة لإحكام الحصار على المدينة براً وبحراً، ولم يكن بسواحل فلسطين آنذاك، سوى اثنتي عشرة سفينة بيزنطية بقيادة السفير البيزنطي بوتوميتس، غير أن البيزنطيين لم يكونوا مستعدين للقيام بعمل عدائي ضد الفاطميين، لأن العلاقة الفاطمية ـ البيزنطية كانت تشهد آنذاك تحسناً مطرداً، ولم يكن من مصلحة البيزنطيين الإساءة إلى تلك العلاقة إلا إذا حصلوا على تعويض مجزٍ، ولهذا عرضوا على بلدوين، مقابل ما يبذلونه له من مساعدة، أن يساعدهم في استعادة ما سبق أن استولى عليه أمراء أنطاكية الصليبيون من أراضٍ كانت تابعة للأمبراطورية البيزنطية، لكن التردُّد الذي أظهره الملك الصليبي في الالتزام بهذا الشرط، جعلهم يصرفون النظر عن الموضوع، واكتفوا بإمداد جيشه بالمؤن فقط، ومع ذلك، فقد صممَّ بلدوين على المضي في حصار المدينة، وبنى ثلاثة أبراج من الخشب لمهاجمتها، شحن كل منها بألف مقاتل، ونصب عليها المجانيق[1].

قاوم أهل صور الحصار، وأحرقوا الأبراج الخشبية، إلا أنهم اضطروا إلى طلب المساعدة من طغتكين، أتابك دمشق، ووعدوه بتسليم مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم. وكتب الوالي عز الملك في الوقت نفسه إلى مصر يبرر تصرفه استباقاً لأي تصور، أو ريبة بخيانته وخروجه على الدولة الفاطمية[2]. واحتوت الرسالة التي أرسلها إلى دمشق عبارات مثيرة للحمية والشهامة، وتضمنت عبارات الاستصراخ والاستنجاد، وأرفق معها مبلغاً من المال لإنفاقه على الرجال الذين يُعدُّهم طغتكين[3].

لكن محاولة طغتكين الأولى، الاتصال بصور، قد أحبطت. ذلك أنه كتب رسالة جوابية إلى عز الملك يعلمه فيها أنه تسلم المبلغ، ويطلب منه أن يجهِّز مركباً يقيم في مكان عيَّنه على الساحل، ليحمل الرجال المنوي إرسالهم إلى صور. وحمل الرسالة طائر من الحمام الزاجل وصادف أن كان في المكان المحدَّد مركب للصليبيين فيه جماعة من المسلمين البدو المستأمنين ويعملون في خدمة الصليبيين، فسقطت الرسالة في المركب، وأُعلِم بلدوين بمضمونها، فسيَّر مركباً إلى المكان المحدَّد تصدَّى أفراده للعسكر الدمشقي وأسروهم وقتلوهم[4].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٦. Albirt d'Aix: p. 492.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٥٩٠.

(٣) المصدر نفسه. تدمري: ص ٢٨٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٩٠.

لم تثنِ هذه الحادثة، طغتكين عن محاولة الاتصال بصور، فأرسل ما يزيد على مائتي فارس، نجحوا في دخول المدينة. وتلقَّى أهل صور مساعدة من سكان القرى المجاورة والمطوعة من جبل عامل رغبة في الجهاد(١).

دفعت هذه التطورات العسكرية، بلدوين إلى تشديد الحصار على المدينة والتعجيل باقتحامها، فقطع طرق الإمدادات عنها، وشنَّ عدة هجمات للنيل من صمود المدافعين عنها، غير أنه فشل في اقتحامها(٢).

والواقع أن طغتكين خرج على رأس قواته من دمشق وعسكر في بانياس وبثَّ رجاله ليهاجموا المعاقل الصليبية لتخفيف الضغط عن صور، وإجبار بلدوين على فكِّ الحصار عنها أو فتح ثغرة في خطوط الصليبيين تسمح له بإمداد أهل صور بفرقة أخرى من المقاتلة. فهاجم حصن حبيس جلدك في السواد من أعمال دمشق، وامتلكه بالسيف، ووصل إلى أعمال صور، وشنَّ عدة هجمات على الصليبيين، ومع ذلك لم يحفل بلدوين بذلك ولم يتزحزح من مكانه، وشدَّد حصاره على صور، وجدَّد هجماته عليها(٣).

وصلت هجمات الدماشقة إلى الطريق الساحلي إلى الشمال من صور، وقطعوا الجسر الذي كانت تعبره الإمدادات الصليبية القادمة من صيدا. ويبدو أن السيطرة على الجسر قد حقَّقت أهدافها، لكن ذلك لم يفتَّ في عضد بلدوين، فاستدعى الإمدادات من جميع الجهات عن طريق البحر. ولما كانت صيدا أقرب مدينة لصور، فقد هاجم طغتكين ربضها ووصل إلى مينائها، فقتل جماعة من البحارة الصليبيين وأحرق نحو عشرين مركباً كانت ترسو عند الشاطىء(٤)، كما حثَّ أهالي صور على الصمود والثبات.

أدرك الملك الصليبي أخيراً أن كل خطة كان يضعها عرضة للإحباط بخطة مشابهة فوراً، وعلاوة على ذلك، فقد أنهكته الأعمال العسكرية المستمرة التي بدَّدها أمام أسوار المدينة، وبكلفة عالية لمدة أربعة أشهر، كما خشي أن يستولي طغتكين على غلَّات بلاده، ففكَّ الحصار عن صور في (١٠ شوال ٥٠٥هـ/ ١٠ نيسان

---

(١) ابن الاثير: جـ ٨ ص ٥٩٠.

(٢) المصدر نفسه. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٦.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٥٩٠ ـ ٥٩١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٩١. ابن القلانسي: ص ٢٨٥.

١١١٢م) وعاد إلى عكا، كما عاد العسكر الدمشقي إلى دمشق، وأدَّى إليهم أهل صور الأموال وغيرها[١].

والواقع أن أهل صور يئسوا من استجابة الدولة الفاطمية لنداءاتهم المتكررة، ولم يبقَ أمامهم سوى الاستعانة بأتابكية دمشق. لذلك استغل الوالي عزالملك انسحاب الصليبيين من أمام المدينة، وأجرى مشاورات مع أعيانها تقرر بنتيجتها تسليم صور إلى طغتكين، وبخاصة أنه أثبت صدق جهاده، وسرعة استجابته لنجدتهم.

وتمَّت ترتيبات نقل السلطة مع تاج الملوك بوري بن طغتكين نظراً لغياب طغتكين في مهمة في حماة. وأرسل الدماشقة فرقة عسكرية دخلت إلى صور، واستقر الأمر لهم فيها، وتسلَّمها الأمير سيف الدولة مسعود بن سلار من واليها الفاطمي، واستقر فيها نائباً عن أتابك دمشق. وسمح طُغتكين بإقامة الدعوة والخطبة للإمام الفاطمي، وصكَّ النقود باسمه[٢]، فرضي أهل صور بذلك، كما كتب إلى مصر يطلع الوزير الأفضل على ما اتخذه من ترتيبات، ويطمئنه إلى حسن نواياه، وأن صور ما زالت على تبعيتها للسيادة الفاطية، وحتى يصل إليها من مصر من يتولى أمرها ويدافع عنه ويحميها، سيبادر بتسليمها إليه، ويُخرج نوابه منها، وتمنَّى أن لا يُهمل الفاطميون أمرها، ويرسلوا أسطولاً «بالغلة والتقوية لها»[٣].

وهكذا تسلم أتابك دمشق، مدينة صور في عام (٥٠٦هـ/ ١١١٣م). وارتاح الوزير الأفضل لهذه الخطوة، وبعث بكتاب إلى طغتكين جاء فيه: «إن هذا أمر وقع منا أجمل موقع وأحسن موضع»[٤]. واهتم بعد ذلك بتجهيز أسطول يحمل إلى صور الغلال والميرة وهدايا، أنعم بها على طغتكين وابنه تاج الملوك بوري، ونائب صور سيف الدولة مسعود.

أدرك بلدوين صعوبة الاستيلاء على صور بعد هذه التطورات الناجعة، فأرسل إلى واليها يلتمس منه عقد هدنة وإحلال السلام بينهما، فاستجاب سيف الدولة مسعود لرغبته، وعُقدت الهدنة بين الطرفين[٥]. لكن بلدوين، الذي لم ينسَ صور مطلقاً شيَّد في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م) قلعة على ساحل البحر فوق رأس الناقورة،

---

(١) ابن القلانسي: ٢٨٧ ـ ٢٨٨. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٦. فوشيه الشارتري: ص ١٤٩ ـ ١٥٠.
(٢) ابن القلانسي: ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٩١.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٠٠.
(٥) المصدر نفسه: ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

بهدف التضييق عليها من الجنوب، وبذلك تمَّ تطويق صور من الشمال بصيدا ومن الشرق بقلعة تبنين، ومن الجنوب بالقلعة التي عرفت باسم سكاندليون[١].

بلدوين يغزو مصر

الواقع أن ما حدث في عسقلان من ناحية، وفي صور من ناحية أخرى إنما يدل على بداية صحوة إسلامية في جنوب بلاد الشام، ولم تلبث هذه الصحوة أن امتدت إلى الدولة الفاطمية، فتقدم جيش فاطمي في عام (٥٠٧هـ/ ١١١٣م) لمهاجمة بيت المقدس، في الوقت الذي كان فيه بلدوين منصرفاً لقتال المسلمين في الشمال، ووصل أفراده إلى أسوار المدينة، إلا أنهم لم يتمكَّنوا من اقتحامها بفعل متانة أسوارها، فعادوا من حيث أتوا[٢]. وقام الفاطميون بهجوم على يافا في عام (٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، وكاد النصر ينعقد لهم، لكن الجيش الفاطمي عاد أدراجه إلى مصر دون أن يحقق شيئاً[٣].

ويبدو أن لهذا الفشل علاقة بالمدى الذي وصل إليه بلدوين في ترتيباته لغزو مصر نفسها، لعل أهمها:

- عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقي، عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوب البحر الميت حتى خليج العقبة، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة، ولا يخفى ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية، بالإضافة إلى عزل مصر عن بقية العالم الإسلامي في الشرق، وقطع الطريق البري الذي يربط بينها وبين بلاد الشام والعراق والحجاز[٤].
- شيَّد حصن الشوبك ليكون مركزاً يمكِّن الصليبيين من السيطرة على كل وادي عربة.
- بنى في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م) قلعة حصينة في أيلة على ساحل خليج العقبة للتحكم في طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام[٥].
- أقام قلعة في جزيرة فرعون الواقعة تجاه أيلة، مما مكَّن الصليبيين من الإشراف على شبه جزيرة سيناء.

ولم يبق أمامه سوى مهاجمة مصر.

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ١٦١. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٦٧.

(٢) وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٥٤٩. (٣) المصدر نفسه: ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

(٤) Grousset: L'Empire du levant: p. 213. عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ١٨٨.

(٥) Setton: I. p. 406.

وفعلاً قاد قوة صغير مؤلفة من مائتين وستة عشر فارساً وأربعمائة راجل، وعبر الصحراء من غزة إلى العريش حتى وصل إلى الفرما الواقعة على ساحل البحر المتوسط داخل الحدود المصرية، بالقرب من مصب الفرع البلوزي لنهر النيل، فاستولى عليها وأحرق مساجدها[١]، ثم مضى في توغله حتى وصل إلى مصب نهر النيل، لكنه لم يتمكَّن من التوغل أبعد من ذلك في الأراضي المصرية بفعل قلَّة قواته، ولمرضه المفاجىء الذي ألَّم به، إذ انتابته حمى بعد أكلة سمك.

وفاة بلدوين

ارتد بلدوين عائداً إلى بيت المقدس في (أواخر عام ٥١١هـ/ ربيع عام ١١١٨م) وقد اشتدت به الحمَّى، على أن جسده بلغ من الإنهاك، حتى أضحى عاجزاً عن مقاومة الحمى، فحمله العساكر، وهو رجل مائت، عائدين إلى حصن العريش الواقع على الحدود. وفي ذلك المكان، الذي يقع خارج حدود مملكته، توفي بلدوين في (٨ ذي الحجة/ ٢ نيسان) بين ذراعي أسقف الرملة، ونُقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث ووري الثرى في كنيسة القيامة بجوار أخيه جودفري دي بوايون[٢].

مشكلة الوراثة في مملكة بيت المقدس

لم يخلف بلدوين الأول، ملك بيت المقدس، ولداً يرثه في الملك، وأغفل، بوصفه ملكاً، باتخاذ التدابير اللازمة بشأن وراثة العرش من بعده، لذلك اجتمع أمراء المملكة، ومعهم البطريرك أرنولف مالكورن، في اليوم التالي، لبحث مشكلة ملء العرش، واتجه الرأي إلى استدعاء الأخ الثالث لجودفري دي بوايون، وهو الأمير يوستاس، كونت بولونيا، وجرت المبادرة بإرسال الرسل عن طريق البحر لإعلامه بوفاة أخيه، واستدعائه لوراثته. تردَّد يوستاش في بادىء الأمر، لأنه لم يشأ أن يترك كونتيته ليواجه المشاكل الشرقية، إلا أنه وافق بعد ذلك، فغادر مقر إقامته متوجهاً إلى بيت المقدس. وعندما وصل إلى أبوليا التقى برسل آخرين يحملون النبأ بأن الأمر قد انتهى باختيار بلدوين دي بورج، كونت الرها، فعاد أدراجه[٣].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١٧١. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨. المقريزي: جـ ٣ ص ٥٦.
(٢) ابن القلانسي: ص ٣١٧. فوشيه الشارتري: ص ١٦٢ ـ ١٦٣. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨.
(٣) وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٥٧١ ـ ٥٧٣.

والحقيقة أن عدداً ضئيلاً من أعضاء مجلس المملكة أيّد اختيار يوستاس وذلك لسببين:

الأول: أنه كان مقيماً في مكان بالغ البُعد عن المملكة، مما يؤدي إلى شغور العرش لعدة أشهر في الوقت الذي كانت فيه أوضاع مملكة بيت المقدس لا تتحمل مثل هذا الوضع.

الثاني: تقضي المصلحة الصليبية العامة بأن يكون الملك الجديد من الأمراء الذين عاشوا في الوسط الصليبي في المشرق، وشعروا بإحساسات الصليبيين، وخبروا قتال المسلمين.

ورشَّح جوسلين كورتيناي أمير الجليل، وهو أقوى أعضاء المجلس نفوذاً، بلدوين دي بورج كونت الرها ليتولى عرش المملكة، وبخاصة أنه ابن عم الملك الراحل، والوحيد الذي ما زال على قيد الحياة من كبار الأمراء الذين شاركوا في توجيه الحملة الصليبية الأولى، وسانده البطريرك أرنولف، واستطاع الاثنان أن يقنعا مجلس المملكة باختياره. وشاءت الصدف أن يكون بلدوين دي بورج، في تلك الأثناء، في طريقه إلى بيت المقدس للزيارة والحج، فحسم بذلك ما دار من نقاش، فجرى استقباله بمظاهر الفرح والسرور، واختاره مجلس المملكة بالإجماع ملكاً على بيت المقدس، وتوِّج يوم الأحد (٢٠ ذي الحجة/ ١٤ نيسان) باسم بلدوين الثاني[١].

التعاون بين القاهرة ودمشق ضد الصليبيين: ٥١٢هـ/١١١٨م

أيقظ الهجوم، الذي قام به بلدوين الأول ضد مصر، الشعور بالخطر المباشر الذي يتهدَّد الدولة الفاطمية، فشرع الوزير الأفضل في القيام بمحاولة أخرى يرد بها على العدوان الصليبي، فأرسل جيوشه إلى عسقلان، وأسطوله إلى صور. وتوضَّحت في هذا الدور صورة التعاون بين القاهرة ودمشق بشكل أوضح. فتمَّ الاتصال بين الأفضل في القاهرة وطغتكين في دمشق، واتفقا على القيام بعمل مشترك ضد العدو، مما يوقع مملكة بيت المقدس بين شقي الرحى، ووافق الأفضل على أن يضع قواته في عسقلان بتصرف طغتكين[٢].

أدرك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس مدى ما يشكله هذا التعاون من خطر على المملكة، فحرص على أن يسترضي طغتكين، فأرسل إليه يطلب تجديد الهدنة

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ١٨٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٧٠ ـ ٥٧٣. رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٣٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٣٤.

بين الطرفين، فاقترح عليه طغتكين ترك المناصفة[1] التي بينهم من جبل عوف والحنّانة والصلت والغور، لكن بلدوين عدَّ ذلك ثمناً باهظاً، فلم يوافق عليه[2].

ردَّ طغتكين على هذا الرفض، فهاجم الصليبيين في الجليل وطبرية، ثم توجه إلى عسقلان حيث أخبره قائد الجيش الفاطمي فيها بأن لديه تعليمات «بالوقوف عند رأيه والتصرف على ما يحكم به»[3].

لم يسع بلدوين الثاني، في ذلك الموقف الحرج، سوى الاستنجاد بالصليبيين في أنطاكية وطرابلس، ثم عسكر شمال عسقلان حيث تجمَّد الموقف العسكري مدة شهرين أو ثلاثة أشهر، عاد بعدها كل طرف من حيث أتى[4].

وظل الوفاق سائداً بين القاهرة ودمشق، ويرجع ذلك، إلى حد كبير، إلى حرص الوزير الأفضل على المحافظة على العلاقات الودية مع دمشق التي كانت الحاجة ماسة إلى التعاون مع حكامها لمناهضة الصليبيين، على أنه حدث في مصر أن اغتيل الوزير الأفضل، فأراد الآمر، الذي تخلَّص من طوق الأفضل، أن يستعيد سلطاته.

ويلمس المتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية بعد الأفضل فتوراً ملحوظاً في مواجهة الصليبيين، حيث برز اتجاه قوي في الدوائر الفاطمية، وبخاصة بين متطرفي الشيعة، لمهادنة الصليبيين وعدم طردهم من جنوب بلاد الشام حيث يشكل بقاؤهم ضماناً لحماية الدولة الفاطمية المتداعية من أطماع السلاجقة[5]. لكن الإمام الآمر الفاطمي لم يستطع أن يكشف عن سياسته المتراخية تجاه الصليبيين حرصاً على مكانته في العالم الإسلامي، لذلك استغل وقوع بلدوين الثاني في أسر بلك الأرتقي في (١٧ صفر ٥١٧هـ/ ١٨ نيسان ١١٢٣م) أثناء قيامه بمحاولة فك أسر جوسلين دي كورتيناي المسجون في قلعة خرتبرت[6]، وقام في الشهر التالي بهجوم على الصليبيين في يافا بتحريض من طغتكين وآق سنقر البرسقي أتابك الموصل

---

(١) يرجع نظام المناصفات إلى السنوات الأولى التي أعقبت وصول الصليبيين إلى بلاد الشام واستقرارهم فيها، وتخضع مناطق المناصفات لإدارة إسلامية ـ صليبية مشتركة فيعين لها نائبان أحدهما يمثل المسلمين والآخر يمثل الصليبيين على ألا ينفرد أحد منهما بشيء إلا باتفاق الجهتين.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٣٣ ـ ٦٣٤. (٣) المصدر نفسه: ص ٦٣٤.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٣٤. فوشيه الشارتري: ص ١٨٥ ـ ١٨٦. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦.

(٥) عاشور: ص ١٩٠.

(٦) ابن القلانسي: ص ٣٣٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٨٨. فوشيه الشارتري: ص ١٩٣، ١٩٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٩٠ ـ. وخرتبرت هو الحصن المعروف بحصن زياد في أقصى ديار بكر من بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومين. الحموي: جـ ٢ ص ٣٥٥.

وأعمالها. كانت الحامية الصليبية في المدينة قليلة العدد، مما جعلها توشك على الاستسلام، ولكن قدوم نجدة صليبية، أجبر الجيش الفاطمي على التراجع إلى يبنا، على الطريق بين يافا وعسقلان، حيث اصطدم بالقوة الصليبية القادمة لنجدة المدينة، ومُني الجيش الفاطمي بخسارة جسيمة وولّى أفراده الأدبار، وطاردهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم[1].

سقوط صور

وحدث في مصر أن تولى المأمون البطائحي الوزارة مكان الأفضل، فأراد استعادة السيطرة الفاطمية على مدينة صور، فقبض في عام (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) على واليها سيف الدولة مسعود بحجة كثرة الشكاوى بحقه من أهل المدينة ومن واليها السابق عز الملك، وعيَّن وحشي بن طلائع والياً عليها. وحتى يتجنَّب رد فعل طغتكين كتب إليه يطمئنه إلى أن العلاقة بينهما لن تتأثر بما جرى. ويبدو أن طغتكين تفهَّم صدق موقفه، وقرَّر ألا ينازع الفاطميين في استعادة سلطانهم على صور، وأجابه «بأن الأمر في ذلك لمن دبَّره، والمرجوع إلى ما رتَّبه وقرَّره»[2].

لكن إخراج سيف الدولة مسعود من صور كان نذير شؤم عليها، حيث أتاح للصليبيين الفرصة لمهاجمتها مرة أخرى «إذ كانوا يرهبونه لشهامته وشجاعته ومعرفته بالحرب ومكايدها»[3].

وكان بلدوين الثاني قد كتب في عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م) عقب معركة ساحة الدم[4] إلى جمهورية البندقية يلتمس المساعدة، ويعرض منحها امتيازات تجارية في فلسطين، وأيَّد البابا طلبه. فقرَّر الدوق دومينيكو ميكائيل الاستجابة له، على أن الحملة لم يكتمل إعدادها إلا بعد مضي ثلاثة أعوام، ولم يصل الأسطول البندقي المؤلف من مائة سفينة حربية إلى عكا إلا في (أوائل ربيع الآخر ٥١٧هـ/ أواخر أيار ١١٢٣م)، وحمل معه أعداداً كبيرة من الفرسان والرجال فضلاً عن أدوات الحصار.

وترامت إلى الدوق، وهو في عكا، أنباء عن وجود أسطول فاطمي تجاه عسقلان، فأبحر جنوباً لملاقاته. وعند ساحل عسقلان جرت موقعة بحرية كبيرة بين الأسطولين

---

(١) فوشيه الشارتري: المصدر نفسه ص ١٩٥ ـ ١٩٦. وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٥٩٥ ـ ٥٩٧.
(٢) ابن القلانسي: ص ٣٢٩ ـ ٣٣٦. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٩٣ ـ ٦٩٤.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٦٩٣.
(٤) انظر عن معركة ساحة الدم: فوشيه الشارتري: ص ١٨٦. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠. رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٩.

انتهت بانتصار الأسطول الصليبي، وتدمير الأسطول الفاطمي تماماً، ووقوع بعض بحارته في الأسر، وأضاف البنادقة إلى انتصارهم ما استولوا عليه من أسطول تجاري مؤلف من عشر سفن تحمل سلعاً ثمينة، وذلك أثناء عودتهم إلى عكا[١].

والحقيقة أن البنادقة وصلوا إلى الساحل الفلسطيني في الوقت الذي كانت فيه صور تشهد وضعاً داخلياً حرجاً بعد أن أُخرج منها نائبها الأمير سيف الدولة مسعود، وأدرك واليها الجديد أنه ليس باستطاعته حماية المدينة والدفاع عنها لقلَّة من بها من الجند والميرة، فكتب إلى الآمر بهذا الواقع وبالوضع الخطر الذي بات فيه[٢].

في هذا الوقت، كان البنادقة يعقدون اجتماعاً مع أمراء بيت المقدس لاختيار أنجع السبل للاستفادة من القوة البندقية البحرية، تقرر بنتيجته مهاجمة صور نظراً لمزاياها العسكرية والتجارية، إذ أن ميناءها يُعدُّ خير الموانىء الواقعة على امتداد الساحل، كما أنه الميناء الذي ترد إليه خيرات بلاد الشام، كما أنه يفوق ميناء عسقلان في أهميته التجارية، غير أن المشاورات استغرقت فصل الخريف، وحدَّدت حصة البنادقة وحقوقهم[٣].

وفي المقابل، قرَّر الآمر الفاطمي، بعد مشاورات مع أركان حربه، أن تعاد ولاية صور بتصرف طغتكين. والواضح أن الفاطميين كانوا عاجزين عن الدفاع عن صور وحمايتها بعد تدمير أسطولهم البحري، فأعيد إليه الثغر في (شهر جمادى الآخرة ٥١٧هـ/ شهر آب ١١٢٣م)، ونُعت بـ «سيف أمير المؤمنين»[٤]، فبادر بإرسال نائب عنه ليتولى أمرها هو القاضي الأعز بن اللبَّان، وأرسل معه مقادير وافرة من المؤن لمواجهة الحصار، وعاد وحشي بن طلائع إلى مصر[٥].

بدأ حصار صور في (شهر ربيع الأول ٥١٨هـ/ نيسان ١١٢٤م)، وأقام الصليبيون معسكرهم وسط الحدائق والبساتين، وسدوا مجرى السقاية التي تغذِّي المدينة بالماء. ونشر البنادقة سفنهم على الساحل، وأبقوا سفينة في عرض البحر لمنع كل سفينة تحاول الدخول أو الاقتراب من الميناء. وتولى البطريرك جورمون القيادة العليا للجيش، وانضم كونت طرابلس بونز بن برتراند إلى الصليبيين.

استمر الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف، لم يتوقف الصليبيون خلاله عن

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ١٩٨ ـ ١٩٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٩٧ ـ ٥٩٩.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٩٤.

(٣) فوشيه الشارتري: ص ١٩٨ ـ ١٩٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٩٧ ـ ٦٠٥.

(٤) المقريزي: جـ ٣ ص ١٠١.

(٥) تدمري: ص ٣٠٣.

قذف أسوار المدينة. وفي المقابل، كان الصوريون مجهزين بآلات المنجنيق التي ترمي الصليبيين بالحجارة والنيران الإغريقية، واستبسلوا في الدفاع والقتال على الرغم من إمكاناتهم الضئيلة، حتى اشتد الحصار عليهم، وبدأ مخزون الماء بالنفاد، وظهر السأم والوهن على معظم سكان المدينة، مما دفعهم إلى طلب المساعدة من بلك بن بهرام الأرتقي صاحب حلب ودياربكر، الذي أضحى آنذاك القوة الإسلامية البارزة. استجاب بلك لنداء الاستغاثة، وفيما كان يتجهَّز لنصرتهم لقي مصرعه في منبج في (٢٠ ربيع الأول/ ٧ أيار)[١].

وحثَّ الصوريون حكام القاهرة ودمشق على النهوض لنجدتهم قبل فوات الأوان. فأرسل طغتكين إلى القاهرة يحثُّ الآمر وقادته على التحرك السريع لنجدتهم، ولكن رسائله لم تجد حماساً كما كان يأمل. وبدلاً من أن يخرج الفاطميون لمساعدة الصوريين مباشرة، أرسلوا جيشاً لمهاجمة بيت المقدس، بهدف الضغط على المحاصِرين، وصرفهم عن صور، لكن هذه المحاولة جوبهت بمقاومة شديدة من صليبيي المملكة، وآثر القائد الفاطمي عدم المخاطرة بالتقدم لمهاجمتهم[٢]، وقام جيش فاطمي آخر بمهاجمة مدينة صغيرة تقع على مسافة بضعة أميال إلى الشمال من بيت القدس تدعى البيرة[٣] ولكن هذه الغارة لم تحقِّق أهدافها، ولم تُنقذ صور.

وتصرَّف طغتكين التصرف نفسه، فهاجم بانياس[٤]، ونصب معسكره فيها، وأقام ينتظر ورود أنباء عن أسطول فاطمي قد يصل إلى الساحل، ليقوم بعمل مشترك ضد معسكر الصليبيين، غير أن انتظاره ضاع سدى، إذ لم يكن بوسع الآمر أن يجهز أسطولاً حربياً، لكن الصليبيين ظلوا يخشون من قيام الفاطميين بإرسال سفن لمقاتلة سفنهم، وأن يجري الاتصال بين القوة البرية السلجوقية والقوة الفاطمية البحرية، لأن من شأن ذلك تطويقهم من خلفهم.

ثم بادر البطريريك جورمون بإصدار قرار بمهاجمة قوات طغتكين. فأمر كلاً من

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٩٢ ـ ٦٩٤. فوشيه الشارتري: ص ٢٠٧. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦١٧ ـ ٦٢٠.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ٢١٤. تحدث هذا المؤرخ الصليبي عن هذه الجهود بالهجوم على بيت المقدس للضغط على الجيش الصليبي الذي يحاصر مدينة صور حيث كان هناك آنذاك، وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٢٠.

(٣) فوشيه الشارتري: المصدر نفسه. يدعو وليم الصوري تلك المدينة باسم بيلين. المصدر نفسه: ص ٦٢٥.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٩٤. وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٦٢١.

بونز كونت طرابلس ووليم دي بورج أمير الجليل، بالتوجه على رأس جيش كثيف إلى بانياس والاصطدام بالقوات الدمشقية، وقطع الطريق أمامها فيما لو حاولت التقدم نحو صور، وحقَّقت هذه الخطوة هدفها. إذ حين اقترب الصليبيون من بانياس، لم يغامر طغتكين في مواجهتهم، فأخلى معسكره وعاد إلى دمشق، وتُرك أهل صور يواجهون الحصار بمفردهم دون أن يتلقَّوا أي مساعدة سواء من دمشق أو القاهرة[١].

واشتدَّت خطورة الموقف داخل المدينة بعد أن قاربت المؤن والمياه على النفاد، وهلك عدد كبير من رجال الحامية، فبذل أهلها محاولة أخيرة للاستنجاد بطغتكين، وأنذروه في شهر (جمادى الأولى/ حزيران) أن المدينة لا تستطيع الصمود أكثر من ذلك، ولا بد أن تستسلم بين يوم وآخر، ولم يكن باستطاعته سوى تقبُّل الأمر، فراسل الصليبيين «بالملاطفة والمداهنة والإرهاب والإرغاب»[٢]، وعرض عليهم وقف القتال على أن يسلمهم المدينة مقابل أن:

- يسمحوا للجند، ولكل من أراد من السكان، بمغادرة المدينة، ونقل ما يريدون من أمتعة، دون التعرض لأي شيء من ذلك.
- يضمنوا سلامة كل من أراد البقاء في صور، ويحفظوا له حق الإقامة في وطنه.
- يتم التنفيذ بإشراف الطرفين معاً[٣].

وافق القادة الصليبيون على ذلك، على الرغم من أنهم واجهوا معارضة من قبل العساكر والبحارة حين علموا أن بنود الاتفاقية تمنعهم من السلب والنهب.

وفُتحت أبواب المدينة يوم الاثنين (٢٣ جمادى الأولى ٥١٨هـ/ ٧ تموز ١١٢٤م)، وتسلمها القادة الصليبيون من قاضيها الأعز بن اللبّان، وتولى أمرها الجيش الصليبي[٤].

وهكذا، سقط ثغر صور بيد الصليبيين، وكان لهذا الحدث صداه وأهميته في تاريخ الحروب الصليبية، كما كان «وهناً عظيماً على المسلمين، فإنه من أحصن البلاد وأمنعها»[٥]. وفي المقابل فقد أدَّى إلى تدعيم مركز الصليبيين بالشام، وأمدَّهم بقاعدة بحرية من الطراز الأول من ناحية الموقع ذي الأهمية الفائقة في حالتي الهجوم والدفاع معاً[٦].

---

(١) وليم الصوري: ص ٦٢١.
(٢) ابن القلانسي: ص ٣٣٧.
(٣) المصدر نفسه. فوشيه الشارتري: ص ٢١٥. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٢٥ ـ ٦٢٨.
(٤) المصادر نفسها.
(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٩٤.
(٦) Grousset: Histoire des Croisades I. p. 618.

وعلَّق أبو المحاسن يوسف على تفريط الفاطميين، وموقفهم المائع واللامسؤول فقال: «وما أبقى أهل صور، رحمهم الله تعالى، ممكناً في قتالهم مع الفرنج في هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر»[(١)].

ولا شك بأن تقلُّب صور في الولاء للفاطميين تارة وللسلاجقة تارة أخرى وبخاصة التغييرات السريعة في القيادة، وافتقار بعض ولاتها، مثل وحشي بن طلائع، إلى النضوج السياسي والعسكري، أوجد حالة غير متوازنة عند السكان، وهي تؤثر، بشكل أو بآخر، على الحالة القتالية للجند[(٢)].

ذيول سقوط صور

ارتفعت الأصوات في مصر تطالب الآمر بانتهاج سياسة إيجابية في جهاد الصليبيين، لكن الوضع الداخلي المتدهور لم يسمح بالاستجابة لهذه النداءات، فنظَّم المتحمسون صفوفهم بزعامة رضوان بن الولخشي، وأطلقوا سراح أحمد بن الوزير الأفضل، وعيَّنوه وزيراً، وأظهروا حنقهم على البيت الفاطمي وسياسته[(٣)].

ولم يلبث هذا الوزير أن استجاب لسياسة الجهاد، فخرجت الجيوش الفاطمية من عسقلان للإغارة على المناطق الصليبية في إقليم يافا، ووصلت إلى مشارف أرسوف، كما أقلع أسطول فاطمي في (أواخر عام ٥٢٠هـ/ خريف عام ١١٢٦م) من الإسكندرية وأغار على المناطق الساحلية[(٤)].

والواقع أن الفاطميين أدركوا، بعد أن حاولوا القيام بغارة أخرى استهدفت أرباض بيروت وكلفتهم خسائر جسيمة، أن المدن الساحلية مشحونة بحاميات قوية، ولم يسعهم إلا استدعاء أساطيلهم وتجميد العمليات العسكرية.

وشهدت مصر بعد ذلك سلسلة من الصراعات على السلطة بين الطامعين لتولي منصب الوزارة، حتى نجح رضوان بن الولخشي في اعتلاء هذا المنصب في عام (٥٣١هـ/ ١١٣٧م). والواقع أن هذا الوزير كان شديد الحماس للجهاد ضد الصليبيين، فما كاد يعتلي منصبه حتى أنشأ ديواناً جديداً أطلق عليه اسم «ديوان الجهاد»[(٥)]، إلا أنه تعرَّض لمضايقات الإمام الحافظ الفاطمي، ففرَّ نحو الشمال ليستعين بعماد الدين زنكي، الذي بدأ نجمه يسطع كمجاهد ضد الصليبيين، وكان السلطان السلجوقي

---

(١) النجوم الزاهرة: جـ ٥ ص ١٨٢.
(٢) تدمري: ص ٣٠٩.
(٣) ابن ميسر: ص ٧٤.
(٤) وليم الصوري: جـ ١ ص ٦٣٢ ـ ٦٣٣.
(٥) ابن ميسر: ص ٨٢.

محمد قد عينه أتابكاً على الموصل في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، فضم حلب، وسعى لضم دمشق حتى تمتد الوحدة الإسلامية إلى أواسط بلاد الشام[١].

وطلب رضوان بن الولخشي من عماد الدين زنكي التحالف معه في جهاد الصليبيين، والتعاون ضد الفاطميين الشيعة المتقاعسين عن الجهاد. وعلى الرغم من أن هذا التحالف وذاك التعاون لم يتحقَّقا، بفعل تدخل أسامة بن منقذ صاحب شيزر، لصالح أنر المتحكم في أمور دمشق الذي رأى في ذلك خطراً على مصالحه، إلا أن الصليبيين لم يغفلوا أمر مصر بعدما ظهر للعيان مدى ضعف الدولة الفاطمية وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها.

سقوط عسقلان

انغمست الدوائر الفاطمية، منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، في سلسلة لا تنقطع من المؤامرات والاغتيالات في ظل الأيام الأخيرة للدولة الفاطمية، وقد أتاحت هذه الفوضى السياسية لملك بيت المقدس، بلدوين الثالث (٥٣٨ـ ٥٥٨هـ/ ١١٤٣ـ ١١٦٣م)، الذي خلف الملك فولك، بتوجيه نشاطه العسكري إلى مصر.

ففي عام (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) شرع بلدوين الثالث في عمارة استحكامات غزَّة في خطوة تمهيدية للانقضاض على عسقلان، القاعدة الأخيرة للفاطميين في فلسطين؛ إذ أن غزو مصر لا بد له من التمهيد بالاستيلاء عليها، وتُعدُّ عسقلان من أمنع الحصون بامتدادها من البحر على هيئة نصف دائرة كبيرة، وباستحكاماتها القوية، فضلاً عن حرص الحكومة الفاطمية بشحنها بالذخائر والمؤن[٢].

وقد مهَّد بلدوين الثالث لغزوته بتدابير سياسية وعسكرية:

فمن حيث التدابير السياسية: كان لا بد له من حماية ظهره من جانب دمشق قبل أن يشرع في مهاجمة عسقلان، فحرص على مساندة مجير الدين أبق صاحب دمشق، أثناء حصار نور الدين محمود الزنكي لهذه المدينة، واشترك مع الدمشقيين في الحد من نفوذه في إقليم حوران، فقويت الصلات بين الجانبين، وتمكَّن من حصر جهوده في غزو عسقلان.

ومن حيث التدابير العسكرية: فقد جدَّد أسوار غزَّة، فهدم القديمة منها وبنى

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، الباب الثاني ص ٨٣ ـ ١٦١.

(٢) انظر فيما يتعلق بوصف عسقلان وموقعها وأهميتها: وليم الصوري: جـ ١ ص ٨٠٩ ـ ٨١٠.

لها سوراً جديداً، كما شيَّد قلعة حصينة عهد بحراستها إلى الداوية.

وقد شعر الفاطميون بهذه الاستعدادات، التي قام بها بلدوين الثالث مما دفعهم إلى الاستعانة بنور الدين محمود، إلا أنهم لم يتلقوا مساندة مباشرة نظراً لحرج موقفه بين الصليبيين وحكام دمشق.

وهكذا تهيأت الظروف لبلدوين الثالث، فظهر أمام أسوار عسقلان في شهر (ذي الحجة ٥٤٧هـ/ آذار ١١٥٣م). استمر الحصار بضعة أشهر كانت الحكومة في القاهرة تمد أهل المدينة بالمعونة عن طريق البحر، إلا أن الفاطميين لم يغامروا بمساعدة المدينة من البر.

وتجاه طول مدة الحصار، ونتيجة للقذف شبه المتواصل، بدأت الأبراج بالتداعي. وفي شهر (جمادى الأولى ٥٤٨هـ/آب ١١٥٣م) اضطرت الحامية إلى التسليم بشرط أن يبذل الصليبيون الأمان للسكان أثناء خروجهم من المدينة. وافق بلدوين الثالث على هذا الشرط والتزم بتنفيذه، ودخل الصليبيون إلى المدينة في موكب النصر وتسلموا القلعة بما حوته من المال والسلاح، وتقرَّر جعل عسقلان إقطاعاً لكونت يافا عموري، شقيق الملك[١].

نتائج سقوط عسقلان

كان الاستيلاء على عسقلان، على الرغم من أهميته في نظر ملك بيت المقدس، كسباً قليل الأهمية سياسياً ومادياً. فمع أن الحصن كان قاعدة فاطمية، إلا أن الحملات التي كانت تنطلق منه ضد أراضي الصليبيين المجاورة، لم تعد تشكل أي مصدر خطر، كبيراً كان أو صغيراً، وذلك بفعل حالة الضعف التي أمست عليها الدولة الفاطمية.

غير أن الصليبيين، بعد استيلائهم على عسقلان، أضحوا هدفاً للمغامرين الخطرين المنطلقين من مصر، ولعل ذلك هو السبب في أن نور الدين محمود، بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لم يحاول التدخل في الحملة بشكل مباشر، إلا بما أزمع القيام به من مهاجمة بانياس بالاشتراك مع مجير الدين أبق صاحب دمشق، لتخفيف الضغط عن عسقلان[٢].

ويؤكد ابن الأثير، أن الصليبيين، أصبحوا، بعد الاستيلاء على عسقلان، على

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨١١ ـ ٨١٤، ٨١٦ ـ ٨٢١.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٤٨.

جانب كبير من البأس «فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين أبق، وتابعوا الغارات على أعماله»[1].

وهكذا تراجع مركز دمشق حتى دخلت في حماية الصليبيين، ودفع الدمشقيون ضريبةِ سنوية لهم، فكانت رسلهم تدخل المدينة لجباية الأموال المفروضة على أهلها لملك بيت المقدس[2].

أحدث سقوط عسقلان بأيدي الصليبيين هزَّة عنيفة، حرَّكت العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، ولم تكن خطورة هذا الحدث في أن المدينة كانت آخر معقل للمسلمين في جنوب بلاد الشام بقدر ما كانت خطوة إلى الأمام أوصلت الصليبيين إلى أبواب مصر التي لم تكن موصدة بإحكام.

---

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ص ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

الفصل الرابع عشر

الأوضاع الخارجية في عهد نفوذ الوزراء

مصر بين نور الدين محمود وعموري الأول

نهاية الدولة الفاطمية

مصر في سياسة الصليبيين

تطلع الصليبيون منذ عهد مبكر إلى غزو مصر؛ ففي عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) ناقش قادة الحملة الصليبية الأولى اقتراحاً بمهاجمة الفاطميين في مصر لأن هذا البلد يملك مفاتيح بيت المقدس، كما أشرنا، إلا أنهم لم يتمكَّنوا من وضع خطتهم هذه موضع التنفيذ، لأنهم كانوا في وضع لا يسمح لهم بغزو مصر قبل وضع يدهم على بيت المقدس بالذات.

واتجهت حركة الوحدة الإسلامية منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي إلى الشمال، وكانت مخاوف الصليبيين من ضم دمشق على يد نور الدين محمود، وتحقيق وحدة بلاد الشام الإسلامية في محلها، بعد احتكاكهم بالزنكيين في الجزيرة، واصطدامهم بالمشروع الذي تجلَّى بعد فتح الرها في عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) على يد عماد الدين زنكي، والد نور الدين محمود[1]، متجاوزاً في أبعاده بلاد الشام إلى مصر، تنفيذاً للمرحلة التالية من خطة نور الدين محمود الهادفة إلى استعادة بيت المقدس، وإخراج الصليبيين من المنطقة[2].

لم يغفل الصليبيون، خلال ذلك، أمر مصر بعد أن ظهر للعيان مدى ضعف الدولة الفاطمية، وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها، وأجبرتهم حركة الوحدة الإسلامية إلى التوسع نحو الجنوب الغربي على حساب مصر والفاطميين. وذكر بعض

---

(١) انظر فيما يتعلق بفتح الرها كتابنا تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٤٧ ـ ١٥٣.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٦٤.

المؤرخين أن الملك بلدوين الثالث هدَّد بغزو مصر في عام (٥٥٥هـ/ ١١٦١م) منتهزاً فرصة الفوضى التي عمَّتها عقب مقتل الفائز، لكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تَعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار[١]، لكن هذه الجزية لم يجرِ دفعها مطلقاً.

على أن غزو مصر، اتخذ طابعاً عملياً واسع النطاق على يد عموري الأول ملك بيت المقدس (٥٥٨- ٥٦٩هـ/ ١١٦٣- ١١٧٤) الذي اتخذ من عدم دفع الجزية المشار إليها ذريعة لمهاجة مصر. والواقع أن عدم دفع الجزية لم يكن إلا دافعاً ظاهرياً، أما الأسباب الحقيقية فتكمن في دافعين: سياسي واقتصادي.

فمن حيث الدافع السياسي، يُعدُّ عهده فاتحة مرحلة جديدة في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، وذلك بما أحدثه من تغيير جذري في سياسة الصليبيين الخارجية تجاه مصر، وهي سياسة تختلف تماماً عن سياسة أسلافه، وإن توافقت مع النهج الصليبي القديم. لقد واجه عموري الأول مشكلة كبرى تمثَّلت بالانتصارات المتوالية لنور الدين محمود، جعلت الكيان الصليبي في طريقه إلى الانهيار، لذلك رأى توسيع رقعة ممتلكاته في اتجاه آخر، هو مصر[٢]. وارتكزت سياسته الخارجية على القيام بسلسلة من المحاولات لغزو هذا البلد والسيطرة عليه للالتفاف على نور الدين محمود، لأنه لو حدث أن وضع يده عليه فإن من شأن ذلك أن يعرِّض الإمارات الصليبية للحصار والزوال.

ومن حيث الدافع الاقتصادي فإنه لم يغب عن تفكير عموري الأول تجارة مصر الضخمة، وميناء الإسكندرية الكبير الذي يعمل على رواج تلك التجارة، بالإضافة إلى حركة التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البلد الذي يتحكم في أقصر وأفضل الطرق التجارية الشرقية[٣].

مصر في سياسة نور الدين محمود

شكَّلت استغاثة شاور بنور الدين محمود نقطة تحول هامة في مستقبل مصر

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٤. رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٩٢.
Michel Le Syrien: Chronique: III. p. 317.

(٢) Stevenson: p. 185.

(٣) الحويري، محمود محمد: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين ص ١٢٨ - ١٢٩. وانظر بشأن أهمية العامل الاقتصادي: Ehrenkreutz, A.S: Saladin pp. 17 - 18.

السياسي. فقد أثارت اهتمامه الجدِّي بعد أن وقف على ضعفها في ظل احتضار الدولة الفاطمية، ذلك أن تطلعاته تكمن في استخدام هذا البلد لتحقيق ثلاثة أهداف: دينية وسياسية واقتصادية.

فمن حيث الهدف الديني:

- فقد أضعفت الغزوات الصليبية المتواصلة لمصر، بين أعوام (٥٥٠ـ ٥٦٤هـ/ ١١٥٥ـ ١١٦٨م)، الدولة الفاطمية سياسياً ومادياً، فعجزت عن صدِّهم، كما أنها فتحت المجال للعناصر المعارضة لانتقادها، والعمل على نشر المذهب السنِّي كخطوة أولى في القضاء التدريجي عليها.
- أدرك نور الدين محمود أن قيام الدولة الفاطمية في مصر شكَّل مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، لأنها جعلت ولاء المسلمين في الشرق الأدنى تتقاسمه دولتان ومذهبان، إحداهما الخلافة العباسية السنيَّة في بغداد والأخرى الإمامة الفاطمية الشيعية في مصر، لذلك كان من الطبيعي، من أجل توحيد الهدف، أن يتجه، وهو الحاكم المسلم السنِّي المذهب، الحريص على تدعيم الوحدة الإسلامية، وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات، إلى التفكير في القضاء على الدولة الفاطمية في القاهرة[١].

يبدو أن حركة الإحياء السنِّي نشطت في القاهرة بالإضافة إلى الإسكندرية حيث استقر بعض الزهاد المتصوفة، وعلماء السنَّة الذين دعوا إلى المذهب سراً وعلانية، وساعد هؤلاء أحد رجال بلاد الشام وهو زين الدين علي بن نجا الواعظ، الذي قصد مصر بتشجيع من نور الدين محمود واستقر في القاهرة برعاية الوزير طلائع بن رُزِّيك، الذي كان حريصاً على إقامة علاقات قوية مع نور الدين محمود وتنسيق الجهاد معه[٢].

ومن حيث الهدف السياسي:

- إن وقوع مصر في يد عموري الأول، ملك بيت المقدس، من شأنه أن يحاصر بلاد الشام من قبل الصليبيين في الجنوب، مملكة بيت المقدس، والصليبيين في الشمال، إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، مما يشكل تهديداً خطيراً لحركة الوحدة الإسلامية.

---

(١) عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٦.

(٢) المقريزي: جـ ٣ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

- أدرك نور الدين محمود أهمية وضع يده على مصر، والمزايا التي تعود عليه بامتلاكها وبخاصة فيما يتعلق بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين، على أساس أن توحيد القوى الحاكمة في كل من البلدين من شأنه أن يجعل مملكة بيت المقدس محصورة بين فكي الكماشة، ويضطرها للقتال على جبهتين، واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب، في حين كان الأسطول الفاطمي ما يزال قادراً على مضايقة حركة السفن الصليبية في البحر وحصار بعض الثغور على الساحل الشامي.
- توحيد الصف الإسلامي تمهيداً للمرحلة المقبلة في خطته الهادفة إلى استعادة بيت المقدس، وإخراج الصليبيين من المنطقة، إذ أن انضمام مصر إلى بلاد الشام يعطيه فرصة أفضل لتحرير الأراضي الإسلامية من سيطرة هؤلاء.

من حيث الهدف الاقتصادي:

- إن امتلاك مصر من قِبل نور الدين محمود سوف يتيح له الاستفادة من مواردها الاقتصادية والبشرية وتسخيرها في خدمة الجهاد الديني ضد الصليبيين، وأن النجاح في تحقيق هذا الهدف هو خطوة حاسمة في طموحات العائلة الزنكية، ذلك أن تسخير موارد بلاد الشام وشمالي العراق، ساعده على تهديد مملكة بيت المقدس، كما أن الاستفادة المادية المباشرة من امتلاك مصر تكمن في حصوله على الأموال اللازمة من هذا البلد التي من شأنها تغذية الخزانة الإسلامية، وبالتالي تقوية الجبهة الإسلامية.

حملة عموري الأولى على مصر

وضع عموري الأول خططه موضع التنفيذ العملي، فتحرك في (مستهل شهر ذي الحجة عام ٥٥٨هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٦٣م) على رأس جيشه متوجهاً إلى مصر للاستيلاء عليها بحجة عدم وفاء الحكومة الفاطمية بالتزاماتها دفع الجزية المتفق عليها. وساهمت منظمة الأسبتارية[١] مساهمة فعَّالة في تجهيز هذه الحملة،

---

(١) الأسبتارية: تحريف للفظ الأجنبي Hospitalliers، وكان يُطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين الذين سكنوا ديراً في بيت المقدس بجوار ديرسان ماري، وقد أقيم بجواره بيمارستان (مستشفى) في المدة قبل الحروب الصليبية، بهدف إيواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم. ولما اندلعت الحروب الصليبية تطوع أفراد هذه الطائفة في المساهمة في الحرب ضد المسلمين مهما بلغت التضحيات، وكانوا موضع احترام جودفري دي بوايون، ملك بيت المقدس، فأقطعهم إحدى الضواحي، وأغدق الأموال عليهم، ثم أصبحوا يؤلفون قوة حربية كبرى. واشتهروا بالتعصب الشديد للنصرانية. انظر فيما يتعلق بتأسيس هذه الطائفة: وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٣٠ ـ ٨٣٤.

وأبدى زعيمها جلبرت الأسيلي، الذي كانت حصونه تمتد على الحدود الجنوبية الغربية من المملكة الصليبية، حماساً زائداً لمشروع الحملة، وساندها بكل قواه[1]. وأعلن عموري الأول أن هدف حملته إرغام مصر على دفع الجزية المقررة، مدركاً في الوقت نفسه أن ضعف الحكم الفاطمي، وتنافس أرباب السلطة، لا يلبث أن يؤدي إلى تحقيق مطالبه كاملة[2].

وصل الجيش الصليبي إلى العريش دون أن يلقى أية مقاومة، والتقى بالجيش الفاطمي المتقدم بقيادة ضرغام، فهزمه عند أطراف مديرية الشرقية، ثم تابع تقدمه إلى بلبيس وحاصرها، وضيَّق الخناق عليها حتى كادت أن تسقط في يده لولا أن ضرغاماً استغل فيضان النيل فعمد إلى تحطيم السدود فساح الماء، وأغرق الأرض، وامتلأت الترع بالمياه، الأمر الذي أرغم الملك الصليبي على الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس[3].

وعلى الرغم من عودة عموري الأول فاشلاً إلا أن الحملة لم تخلُ من فائدة بالنسبة للصليبيين، فقد كشفت عن:

- ضُعف الدولة الفاطمية بسبب النزاع الدائر بين الوزراء على الاستئثار بالنفوذ.
- انتشار روح الفوضى والاضطراب.
- انعدام الروح العسكرية عند الجند السودان والأرمن الذين يشكلون عماد الجيش الفاطمي.
- انعدام وسائل الدفاع من حصون واستحكامات.
- عِظَم ثروة مصر، وسهولة الاستيلاء عليها.
- الأمل في الحصول على مساعدة القبط.

وشجَّعه كل ذلك على التخطيط للقيام بغزوة كبرى تمكِّنه من وضع يده على مصر.

الحملة النورية الأولى على مصر

كان نور الدين محمود يراقب تحركات عموري الأول بدقة متناهية، بالإضافة إلى تطورالأوضاع في مصر، كما اجتمع بشاور فور وصوله إلى دمشق هارباً من ضرغام، وأجرى معه مباحثات سياسية تعهَّد له خلالها أن:

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٤ ـ ٨٨٥.

(٢) حبشي، حسن: نور الدين والصليبيون ص ١٠٣. (٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٥.

- يدفع ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر، أي رواتب الجند.
- يوافق على إقامة عدد من أمراء بلاد الشام معه في مصر.
- يعترف بسيادة نور الدين محمود وينفِّذ أوامره.

مقابل مساعدته في استعادة منصبه والقضاء على منافسه ضرغام[(١)].

كان من الطبيعي أن يرحِّب نور الدين محمود بتلك الفرصة التي تسمح له بالتدخل في شؤون مصر، بعد أن توضَّحت نيَّة عموري الأول في امتلاكها، غير أنه تردَّد في بادىء الأمر بقبول العرض رغبة منه في درس الموقف درساً مستفيضاً ودقيقاً حتى يزن الأمور، ويقف على حقيقة قوة خصمه في مصر خشية أن يغامر بجيش على امتداد الطريق الذي يسيطر عليه الصليبيون وراء الأردن، فتتعرَّض قواته لخطر الهجوم عليها من قِبل صليبيي بيت المقدس الذين تقع أراضيهم بين دمشق ومصر، كما لم يشأ أن يظهر بمظهر الطامع في مصر، الراغب في امتلاكها، أو المتطلع إلى الإطاحة بالدولة الفاطمية[(٢)].

وقد وصف المقريزي موقف نور الدين محمود بقوله: «فبقي نور الدين محمود يقدِّم إلى هذا العرض رِجْلاً ويؤخر أخرى، فتارة يقصد رعاية شاور لكونه التجأ إليه، وكون ما قاله زيادة في ملكه وتقوية له على الفرنج، وتارة يخشى الطريق وكون الفرنج فيه، ويخاف من شاور أنه إذا استقرت قدمه في مصر خاس (غدر) في قوله، ويخلف بما وعد به، ثم قوي عزمه على إرسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها وإزاحة عِللها»[(٣)].

ويعود الفضل إلى أسد الدين شيركوه، أحد قادة نور الدين محمود وهو الرجل الثقة، في تبديد مخاوفه وتشجيعه على الإقدام على غزو مصر. فقد أوضح له أن المصريين يفضِّلون حاكماً مسلماً على بلادهم، على السيطرة الصليبية، مما يدل على أن هذا القائد كان على دراية بالأوضاع السياسية في مصر آنذاك، كما أنه يُعدُّ من أبرز الشخصيات التي وجَّهت سياسة نور الدين محمود في وقت عصيب[(٤)].

لذلك قرر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادته لتحقيق هدفين:

الأول: إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع، إلى منصبه.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٥. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٣٨، ٣٤٦.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٩٤. حبشي: ص ١٠٥.

(٣) اتعاظ الحنفا: جـ ٣ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٥ ـ ٨٨٦. الحويري: ص ١٣٠. Stevenson: p. 186.

الثاني: الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمِّها[1]، وبخاصة أن شاور وعده، إن هو عاد إلى منصبه، سيتحمَّل نفقات الحملة، ويؤمِّن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.

ويبدو أن شاور استاء من تعيين أسد الدين شيركوه قائداً للحملة، وكان يأمل بقيادتها بنفسه نظراً لقوة شخصية شيركوه ومهارته القيادية والعسكرية التي سوف تطغى على نفوذه في مصر[2].

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود، وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك الصليبي، كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين[3]، وأجبر الإمام العاضد على توقيع هذا الاتفاق.

كان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر، وهو الهدف الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعدَّ على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر.

وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر (جمادى الآخرة ٥٥٩هـ/ نيسان ١١٦٤م) يصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره، وسار على الطريق المحدَّد للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون[4].

وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً على حياة أفرادها، تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر[5].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٥. أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن...: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: جـ ١ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٢) Ehrenkreutz: pp. 23 - 24.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٦. Elisséef, N: Nur AD-Din: II. p. 580.

(٤) ابن شداد، بهاء الدين؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٦. Ehrenkreutz: p. 24.

(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء بصحبة شاور، فعبر الكرك[١]، ومرَّ بالشوبك، ثم أيلة، فالسويس، قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل. فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخيه ناصر الدين، للتصدي لزحفه، وأسفر لقاء الطرفين في بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه.

تراجع ناصرالدين منهزماً إلى القاهرة، فطارده أسد الدين شيركوه، ووصل في أواخر جمادى الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة، لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة.

وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة. اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلَّى الجيش والناس والإمام العاضد عن ضرغام، وقُتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة في (شهر رجب ٥٥٩هـ/ شهر حزيران ١١٦٤م)، كما قُتِل أخوه ناصر الدين. ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً، وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[٢].

وزارة شاور الثانية

بعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة، عاد إلى طبيعته التي اتصفت بالسيئة، ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس، وتناسى وعوده لنور الدين محمود، بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر، فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية[٣].

لم يسع شاور إلا أن يستنجد بعموري الأول الذي كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يخوِّفه من نور الدين محمود، وعرض عليه أن:

- يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

---

(١) الكرك: قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم (البحر الأحمر) وبيت المقدس، وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. الحموي: جـ ٤ ص ٤٥٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٦. Elisséeff: II. pp. 582 - 584. Stevenson: p. 187.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٢١ ـ ١٢٢. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ ١ ص ١٣٩. أبو شامة: جـ ١ ص ٣٣٠.

- يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.
- يتكفَّل بنفقات علف أفراسهم.

مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر[١].

وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار محاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة.

ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحَّب بها، وبذلك لم تضع الفرصة عليه لدخول مصر، وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء، فكل ما يعنيه هو دخول مصر.

حملة عموري الثانية على مصر

بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرَّر فيه تلبية دعوة شاور، بعد أن أوضح للمجلس أن في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يُضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذٍ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي، وأمل في أن يتمكَّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهيموند الثالث أمير أنطاكية إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[٢].

وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في (شهر رمضان عام ٥٥٩هـ/ شهر آب عام ١١٦٤م)، واتصل فور وصوله إلى فاقوس[٣]، بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس. وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه[٤]. وفجأة قرَّر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٧.

(٢) المصدر نفسه. ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٩ ص ٣٠٦.

(٣) فاقوس: اسم مدينة في جوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى. الحموي: جـ ٤ ص ٢٣٢.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٦.

الواقع أن عموري الأول تلقَّى أنباء مزعجة من بلاد الشام، بتعرُّض ممتلكاته لضغط نور الدين محمود[1]، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مقضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بلبيس.

وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاد، فضلاً عن تفوق القوات الفاطمية ـ الصليبية المشتركة في العدد، وأن الوضع العسكري ليس في صالحه، لذلك قَبِل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[2].

وفعلاً، تمَّ الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في (شهر ذي الحجة/ شهر تشرين الأول). وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء، بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم، وكان أسد الدين شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه[3].

كان شاور هو الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلَّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء، كما تخلَّص من ضرغام، وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي، والمتحكِّم في مقاليد البلاد[4].

ووضع أسد الدين شيركوه نفسه، بعد عودته من مصر، بتصرف نور الدين محمود، فكافأه بأن أقطعه مدينة حمص[5]. ويبدو أنه لم يستطع الانعتاق من القضية المصرية، فكانت مصر حديث مجالسه، ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يُزوِّدونه بأخبارها.

وأرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء، بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ـ ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ـ ١١٧٠م) حيث راح يقصُّ عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجَّعه على العودة إليها.

نتائج حملة عموري الثانية على مصر

الواضح أن الحملة الصليبية الثانية، التي قام بها عموري الأول ضد مصر،

---

(١) الواضح أن الأنباء التي حملت عموري الأول يعجل بالعودة إلى بيت المقدس جاءت من أنطاكية، ذلك أن نور الدين محمود حينما علم بتوجهه إلى مصر، مع ما تركه من فراغ عسكري، حيث خلت بلاد الشام من القوة الصليبية، هاجم إمارة أنطاكية، وبالتحديد حصن حارم الذي يُعدُّ معقلها الرئيسي.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٧.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٩٥.

(٤) سيد: ص ٢٢٦.

(٥) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٢٨.

كسبت جولة في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين. ذلك أن هذا الملك تمكَّن من إرغام أسد الدين شيركوه على الانسحاب من هذا البلد، والتخلِّي عن المواقع التي دخلت تحت سيطرته، هذا في الوقت الذي أضحى للصليبيين قدر كبير من النفوذ المادي والمعنوي عند شاور، فهم الذين ساندوه، وأجبروا أسد الدين شيركوه على الانسحاب.

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعَّمت في بلاد الشام، وارتفع شأنه في العالم الإسلامي، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل، واستبدَّ اليأس بهم[1].

ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر، وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية، وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجِّح كفة من يضع يده عليها.

وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبقَ للعاضد الفاطمي معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه، كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلِّصه منه[2].

الحملة النورية الثانية على مصر

دوافع الحملة

لم يتوقف التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول حول مصر عند هذا الحد، وبخاصة أن أياً منهما لم يحقق أهدافه، وهو يعلم أن فوزه بهذا البلد يعني انتصاره الحاسم على خصمه، وأن من شأن ذلك أن يتيح له السيطرة على مفاتيح الشرق الأدنى.

ويلاحظ أن نور الدين محمود كان مدفوعاً بالعوامل نفسها التي جعلته يرسل حملته الأولى، مع دخول كل من الخليفة العباسي والإمام الفاطمي على الخط السياسي هذه المرة، وهي:

- الحصول على ثروة مصر وتسخيرها لخدمة الجهاد الديني.
- الخوف من امتلاك الصليبيين لمصر.

---

(١) الحويري: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤٨.

- توحيد العالم الإسلامي من النيل إلى الفرات.
- القضاء على الدولة الفاطمية مع ما تمثل من المذهب الشيعي، وبخاصة أنه لمس شيئاً من المعارضة للفاطميين في مصر.
- معاقبة شاور لخيانته، واستعانته بالصليبيين.

ويحتمل أن تكون قد دارت مباحثات واتصالات بينه وبين أسد الدين شيركوه من جهة، وبين الخليفة العباسي من جهة أخرى، عهد على أثرها إلى قائده بمهمة غزو مصر للمرة الثانية، كما كان للعاضد دور في تشجيعه على الاهتمام بمصر. إذ أنه أرسل يستنجد به ضد استبداد شاور، في الوقت الذي لم يكن يعلم بأهدافه الحقيقية، مع العلم أن نور الدين محمود كان حاقداً على شاور بسبب غدره بشيركوه واستنجاده بالصليبيين[١].

أما أسد الدين شيركوه فلم يستطع، بعد عودته قهراً، أن ينسى مصر، وظل يفكِّر في كيفية العودة إليها مرة أخرى ليتملَّكها، فلا يزال يتحدث بها وهو حريص على ذلك[٢]. ويبدو أنه تطلع إلى الاستئثار بحكمها، بعد أن تعرَّف على أوضاعها، بدليل أنه ما إن عاد إلى بلاد الشام حتى أخذ يحرِّض نور الدين محمود على غزوها، بل كان من غير شك، يتجهز للقيام بحملة أخرى، ولو تُرك له الأمر لعاد إلى مصر على وجه السرعة. ولكن يبدو أن نور الدين محمود خشي أن يقوم بمحاولة أخرى لغزو مصر في عامي (١١٦٥ و ١١٦٦م) خشية تشتيت جهوده، وتقسيم قواته، في الوقت الذي كان الموقف في بلاد الشام يستدعي شيئاً من اليقظة والحذر[٣].

زحف الحملة

أعدَّ نور الدين محمود القوات اللازمة، وأرسلها إلى مصر في (شهر ربيع الأول عام ٥٦٢هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٦٧م)، بقيادة أسد الدين شيركوه، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين، على كره منه، وسيَّر معه جماعة من الأمراء[٤]، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس[٥] ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرُّض الصليبيين له[٦].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤٨. وليم الصوري جـ ٢ ص ٨٩٤ ـ ٨٩٥. Grousset: II. pp. 478 - 479.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٧.
(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٦٨٨.
(٤) ابن شداد: ص ٧٧.
(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٧.
(٦) المصدر نفسه.

سار أفراد الحملة في طريق محفوف بالأخطار. فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكِّلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيِّروا طريق سيرهم أحياناً للتَّخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد، وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر.

وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدَّداً بعموري الأول، إذ أيقن، من استقراء الأحداث، أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك، فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر. رحَّب عموري الأول بدعوة شاورة طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود[١].

كان عموري الأول آنذاك في نابلس، فدعا باروناته للاجتماع به، وقد أوضح لهم في هذا الاجتماع ما تتعرض له المملكة الصليبية من خطر إذا استولى نور الدين محمود، السنِّي المذهب، على مصر. وبعد مناقشات مستفيضة، وافق المجلس على توجيه حملة كاملة العدة والعدد لإنقاذ شاور، ولا بد أن تشترك في الحملة كل القوة الضاربة للمملكة، فضلاً عن اتخاذ مواقعها على الحدود تحسباً لما قد يجري من هجمات من جانب نور الدين محمود أثناء غياب الملك، وانعقد الإجماع على أن يلتزم كل فرد بأن يؤدي عشر دخله من أجل إنقاذ المملكة[٢]. وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء متأخراً[٣].

وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية كما ذكرنا، عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ١٤٩.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٩٥. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠١ ـ ٦٠٢.

(٣) المصدر نفسه.

السويس في (شهر ربيع الآخر/ أوائل شهر شباط)، وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذٍ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكِّرة مع الصليبيين، حتى بلغ نهر النيل عند إطفيح، على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة[1]، ثم عبر إلى الضفة الغربية، والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة، وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرَّف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً[2].

حملة عموري الثالثة على مصر

المفاوضات الصليبية ـ الفاطمية

خرج عموري الأول من بيت المقدس في (شهر ربيع الأول عام ٥٦٢هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٦٧م) متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بِلبيس.

ارتاع شاور من ظهوره المفاجىء، وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع[3]. عندئذٍ خرج لاستقبال الملك الصليبي، والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[4].

والراجح أن عموري الأول وقف على نزعات شاور المتقلِّبة، فأراد أن يقيِّده ليضمن الحصول على مغانم، قبل أن يقوم بمحاربة أسد الدين شيركوه، فأجرى معه مباحثات تعهَّد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يُقسم عموري الأول على ذلك[5].

ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صفة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من هيو، سيد قيسارية، وجفري، مقدم فرسان الداوية، إلى الإمام الفاطمي للحصول منه

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٧. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٩٥ ـ ٨٩٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٢. وإطفيح بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء في شرقيه. الحموي: جـ ١ ص ٢١٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٧.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٩٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص ٨٩٩.

على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتمَّ التصديق على المعاهدة[١].

كان من الطبيعي أن يرحِّب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمِية، وتُبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد.

معركة البابين

استعدَّت القوات الصليبية وقوات شاور المتحالفة معها، بعد التوقيع على الاتفاقية، للالتحام بقوات أسد الدين شيركوه، وإجبارها على مغادرة مصر. وظل الجيشان مدة شهرين يراقب كل منهما الآخر، ثم حدث أن اجتازت قوى التحالف النيل إلى جزيرة الوراق في رأس الدلتا على الضفة الغربية، وفاجأت وحدة من جيش أسد الدين شيركوه[٢].

وبعد دراسة الوضع العسكري، أدرك أسد الدين شيركوه حرج موقفه بعد أن تبين له تفوق قوى التحالف، وبخاصة بعد أن انضمت إليها قوات صليبية وصلت حديثاً من بيت المقدس. فقد وصل كل من همفري، صاحب شقيف تيرون، وفيليب، صاحب نابلس بقواتهما، مما شجَّع عموري الأول على الثبات[٣]. وحتى يتخلَّص من هذا الموقف المحرج، انسحب أسد الدين شيركوه من المنطقة وتوجَّه إلى الصعيد ملتزماً النيل في سيره حتى بلغ ملوى، فاقتفى عموري الأول وشاور أثره، وتركا قبل مسيرهما قوة عسكرية لحماية القاهرة بقيادة الكامل بن شاور وهيو أبلين[٤].

على أن دخول هيو إلى القاهرة، والسماح للقادة الصليبيين بالتردد على القصر، أقلق الدوائر الإسلامية الحاكمة[٥]، عندئذٍ لم يسع أسد الدين شيركوه إلا أن يدخل في معركة، فعقد اجتماعاً مع قادته لدراسة أفضل السبل لخوضها، إلا أن هؤلاء خشوا من تفوق العدو في العدد، وظنوا أن لا مجال للانتصار في ظل هذا الوضع، فأشاروا عليه بمغادرة مصر والعودة إلى بلاد الشام، إلا أنه كان له رأي آخر، فهو لم يدخل مصر ليخرج منها دون أن يحقق إنجازاً، وسفَّه أحد الأمراء، ويدعى

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٩٩ ـ ٩٠٢. (٢) المصدر نفسه: ص ٩٠٦.

(٣) المصدر نفسه. وشقيف تيرون: حصن وثيق بالقرب من صور يطلُّ على نهر الليطاني. انظر الحموي: جـ ٣ ص ٣٥٦.

(٤) وليم الصوري المصدر: نفسه ص ٩٠٨. (٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٤.

شرف الدين بزغش، رأي الداعين إلى الرحيل، وخوَّفهم من أن يسترجع نور الدين محمود منهم إقطاعاتهم حتى لا يأخذوا أموال المسلمين ويفرون من عدوهم، وعيَّرهم بتسليمهم مصر إلى الصليبيين، عندئذٍ نهض أسد الدين شيركوه وقال: «هذا الرأي وبه أعمل» ووافقه أيضاً ابن أخيه صلاح الدين[1]، وما لبث القوم أن قرَّروا وجوب الاستمرار في القتال.

واستعدَّ أسد الدين شيركوه لعبور النيل من جديد على مسافة غير بعيدة من مدينة المنيا في مصر الوسطى، وعسكر في الأشمونين، في خرائب مدينة هيرموبوليس القديمة، وجرى اللقاء بينه وبين قوى التحالف في البابين القريبة من الأشمونين حيث حشرت القوى المتحالفة جيشه وضيقت الخناق عليه[2]. والواضح أن الحامية في القاهرة لم تشترك في القتال.

وتألف جيش أسد الدين شيركوه أساساً من الفرسان الترك، بينما تألف جيش شاور من الرجالة، ولم يكن لدى الصليبيين سوى بضع مئات من الفرسان[3].

وعلى الرغم من الفارق في العدد بين القوتين، عزم أسد الدين شيركوه على الدخول في معركة. فعبَّأ جيشه متبعاً أسلوباً مرناً، منتهجاً ما هو مألوف عند الترك من خطط عسكرية، وقسَّمه إلى ميمنة وميسرة وقلب، وجعل الأثقال في القلب وعليه صلاح الدين، وأمره أن لا يصدق العدو في القتال، بل يتظاهر بالانهزام حتى يغترَّ عموري فيتبعه، بينما تسلَّم هو الميمنة.

أما عموري الأول، فقد أظهر التردد في الدخول في معركة بعد أن تهيَّب فرسان الترك، لكن شجَّعه القديس برنارد الذي ظهر له في رؤية. والتحم الخصمان في رحى معركة رهيبة في (٢٥ جمادى الآخرة عام ٥٦٢هـ/ ١٨ نيسان عام ١١٦٧م). وكرَّ الصليبيون على قلب العسكر النوري في محاولة لضربه وزعزعة الجناحين، فتقهقر صلاح الدين متظاهراً بالهزيمة، وفق الخطة الموضوعة، وتخلَّى عن مواقعه، فتبعه الملك الصليبي وفرسانه في عملية مطاردة، عندئذٍ قذف أسد الدين شيركوه بجناح جيشه الأيمن في المعركة لقتال الجناح الأيسر لجيش التحالف الذي تبدَّد وتحطَّم. وألفى عموري الأول نفسه محصوراً من جميع الجهات، ولقي عدد كبير من فرسانه مصرعهم، بينما وقع آخرون في الأسر ومنهم هيو، سيد قيسارية،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١١.

وأرنولف، صاحب تل باشر، واضطر الملك الصليبي وشاور إلى التراجع بمن تبقَّى من جيشيهما إلى القاهرة، وانضما إلى حاميتها(1).

حصار الإسكندرية

أحرز أسد الدين شيركوه انتصاراً باهراً، وكان من المحتمل أن يمتلك القاهرة لو سار خلف القوات المتحالفة التي تضعضعت إثر هذه الضربة، وهاجم المدينة؛ لكنه آثر أن يتوجَّه شمالاً بغرب على الضفة الغربية للنيل، فوصل إلى الفيوم، ومنها تابع زحفه إلى الإسكندرية، ويبدو أنه علم بمجيء إمدادات صليبية من بيت المقدس فآثر تجنُّب الدخول في معركة حتى تنجلي صورة الوضع العسكري، ورأى أن يتوجَّه إلى الإسكندرية لامتلاكها والتحصُّن فيها وبخاصة أن سكانها الذين كرهوا شاور، وأنفوا من استعانته بالصليبيين أعداء دينهم ووطنهم، فضلاً عن أنَّ بُعدهم عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبي عن طريق البحر، جعلهم أكثر إحساساً بالخطر، وأكثر حرية في التعبير عن شعورهم؛ فكاتبوه، وأبدو استعداداً لمساندته. وفعلاً، لم يكد أسد الدين شيركوه يقترب من الإسكندرية حتى تلقَّاه أهلها طائعين، ففتحوا له أبواب مدينتهم، فدخل إليها بغير قتال(2).

وأعاد عموري الأول تنظيم صفوف قواته بعد معركة البابين، وتقوَّى بما وفد عليه من إمدادات، منها مائة وخمسين فارس بقيادة جيرار دي بوجي، وعدد من المشاة بقيادة جوسلين الثالث صاحب سميساط، بالإضافة إلى جيش شاور الذي لم يساهم أفراده مساهمة جدية في القتال تؤدي بهم، أو بالكثير منهم، إلى القتل والأسر(3)، والراجح أن هذا الإحجام كان نتيجة خطة وضعها شاور ونفَّذها على الأرض لإضعاف قوة الطرفين النوري والصليبي، والمحافظة على قوة جيشه تحسباً لتطور الأحداث.

ولم تمضِ أيام قليلة حتى ظهر عموري الأول أمام أسوار الإسكندرية، وألقى الحصار على المدينة، وساندته السفن الصليبية التي حاصرتها من جهة البحر(4). وخشي أسد الدين شيركوه أن يحصره الصليبيون مع جميع قواته داخل الإسكندرية، فترك ابن أخيه صلاح الدين نائباً عنه فيها وفصل معه ألف جندي، وتوجَّه هو، على رأس القسم الآخر من الجيش، عائداً إلى الصعيد وذلك في (شهر شعبان/ شهر أيار)،

---

(1) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٨. وليم الصوري جـ ٢ ص ٩١١ ـ ٩١٢. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٤ ـ ٦٠٥.

(2) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٢٩.

(3) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٣ ـ ٩١٤.

(4) المصدر نفسه ص ٩١٤ ـ ٩١٦.

مجتازاً معسكر عموري الأول، الذي اشتد غضبه، وأراد أن يمضي لمطاردته، غير أن شاور نصحه بالتَّروي، وترْك شيركوه وشأنه، إذ أنَّ استعادة الإسكندرية لأكثر أهمية[١].

وفي الوقت الذي توغَّل فيه أسد الدين شيركوه في الصعيد حتى قوص[٢]، اشتد حصار الصليبيين للإسكندرية، وشعر السكان بوطأته، إذ قلَّت الأقوات، وأشرفت المدينة على المجاعة. وضاعف عموري الأول حصاره ليفتَّ في عضد المحاصَرين، ويُضعف روحهم المعنوية، ويصرفهم عن صلاح الدين[٣].

ولم ينته (شهر رمضان/ شهر حزيران) حتى وجد صلاح الدين نفسه في موقف عصيب، فأرسل إلى عمه يلتمس منه النجدة العاجلة، واضطر أسد الدين شيركوه، نتيجة هذا التطور في الوضع العسكري، إلى العودة شمالاً، وعسكر في بركة الحبش في ظاهر الفسطاط بهدف مهاجمتها وامتلاكها لتخفيف الضغط عن الإسكندرية، غير أن مقاومة هيو أبلين أفسدت عليه الخطة، وإذ ذاك، أدرك صعوبة امتلاك مصر وأنه لم يعد بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل، فقرَّر الدخول في مفاوضات مع الجانب الصليبي للاتفاق على حل معين للقضية المصرية[٤].

المفاوضات النورية ـ الصليبية بشأن الجلاء عن مصر

أرسل أسد الدين شيركوه أسيراً صليبياً، هو أرنولف من تل باشر، إلى معسكر عموري الأول يعرض عليه عقد الصلح، هذا وقد اختلفت المصادر الإسلامية والصليبية المعاصرة لهذه الأحداث بشأن ظروف عقد هذا الصلح وشروطه، إذ كان لكل منها نظرتها الخاصة في نتائج الاحتكاك الحربي الذي جرى بين الطرفين.

فقد ذكر ابن الأثير، الذي يمثل وجهة النظر الإسلامية في هذه القضية، أن الصليبيين كانوا البادئين في طلب الصلح، إذ أنه لما اشتد حصار الصليبيين لصلاح الدين سار شيركوه من قوص إليهم فجاءته رسلهم «يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام»[٥].

ويعرض وليم الصوري، الذي يمثل وجهة النظر الصليبية، ظروف عقد الصلح

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٤. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٩.

(٢) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر. الحموي: جـ ٤ ص ٤١٣.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٦ ـ ٩١٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٩١٨ ـ ٩١٩.

(٥) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٣٢٩.

وشروطه على الشكل التالي: لما وصل شيركوه إلى بابليون وجد أن الملك كان قد أرسل هيج دي أبلين ليتولى حراسة القاهرة والجسر الذي بها، أي أنه وجد الأمور على غير ما تصوره، لذلك بعث في استخدام صاحب قيصرية الذي كان أسيراً عنده، ودعاه إلى حديث ودي، وأفضى إليه بنيته في عقد الصلح وكلفه القيام بدور الوسيط بينه وبين عموري الأول بشأن عقد صلح بين الطرفين على الأسس التالية:

- رفع الحصار عن الإسكندرية.
- تبادل الأسرى.
- إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.
- يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.
- عدم التعرض لهم في الطريق من قِبَل القوات الصليبية.

تدارس الملك وقادته، بحضور شاور، هذه الشروط التي عرضها أسد الدين شيركوه، ورأوا فيها توافقاً مع بنود الاتفاقية المبرمة بين عموري الأول والعاضد، وقرروا قبول العرض.

وتحدَّدت الشروط النهائية على الشكل التالي:

- وضع المدينة (الإسكندرية) في يد الملك.
- تبادل الأسرى بين الجانبين.
- إطلاق سراح الجند النوري الموجودين داخل الإسكندرية.
- تغادر جميع القوات النورية أرض مصر[1].

إن قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح، وما حدث بعد إبرام الاتفاقية، يمكن رصد الملاحظات التالية:

وافق الجانبان النوري والصليبي ـ الفاطمي على:

- خروج القوات النورية والصليبية من مصر.
- تبادل الأسرى.
- يتعهد شاور بألّا يُعاقب رعاياه في الإسكندرية، وفي غيرها من الجهات، الذين ساندوا أسد الدين شيركوه[2].

---

(١) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ ٢ ص ٩١٩ ـ ٩٢٠.

(٢) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٢٨.

- كان لكل طرف من الأطراف الثلاثة دوافعه ومبرراته للإقدام على عقد الصلح:
فقد رحَّب عموري الأول بشروط الصلح نظراً لحرج موقفه في بلاد الشام، نتيجة مهاجمة نور الدين محمود حصني العريمة وصافيتا، كما خرَّب قلعة هونين، وتوجَّه إلى بيروت، ولعل هذه الأخبار كان فيها ما يكفي لأن يتعجَّل إبرام الصلح والعودة إلى بلاد الشام ليكون قريباً من مسرح العمليات العسكرية. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاتفاقية حالت دون تملك أسد الدين شيركوه، وبالتالي نور الدين محمود لمصر.
ورحَّب شاور بالاتفاقية لأنها أتاحت له الاستقلال بمصر بمعزل عن القوتين الكبيرتين في بلاد الشام.
ورحَّب أسد الدين شيركوه بها، لأنه أدرك استحالة امتلاك مصر في ظل الوضع الراهن، مع الضعف الملحوظ الذي اعترى قواته.
ولعل نور الدين محمود لم يشأ التسرُّع في خطته لضم مصر التي كان الحكم الفاطمي فيها يعيش أيامه الأخيرة، مؤثراً إكساب عمليته شيئاً من الشرعية بالنسبة إلى حكامها وبعض سكانها، حتى لا يستثير دخوله القسري مشاعرهم، وهم على غير مذهبه، فانتظر فرصة أخرى أكثر ملاءمة، وما أسرع ما جاءته حين استنجد به العاضد، كما سنرى.

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية في (شهر شوال/ شهر آب)، في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله. والتقى الرجلان، وأُعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام[1].

على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين، وقد احتجَّ هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى[2]، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه بألا يتعرض شاور للرعايا الذين ساندوا صلاح الدين، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يغدر فيها شاور، وقد علَّمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٢٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٢٨. المرجع نفسه.

لم يتركها تتكرر، واقتصَّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، كما سنرى.

وغادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر في (شهر ذي القعدة/ شهر أيلول) في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مرَّ بالقاهرة ليثبِّت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

- دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.
- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرَّر محاولة الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم.

والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت لا تزال ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[1]، وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول.

التعاون الصليبي ـ البيزنطي

أضحى مستقبل مصر، بعد هذه الأحداث، في الميزان بين الدولة الزنكية في بلاد الشام ومملكة بيت المقدس الصليبية، مع رجحان كفة هذه المملكة، لأن عموري الأول لم يغادر مصر بعد حملته الثالثة عليها، إلا بعد أن ركَّز فيها حامية عسكرية من فرسانه، لتحمي القاهرة من هجوم فوري من ناحية، ولتراقب ما يجري في داخلها، وتستكشف إمكاناتها العسكرية والمادية، ولتكون مقدمة لقوات احتلال صليبية من ناحية أخرى[2].

والحقيقة أن فكرة العودة إلى مصر لم تغب عن ذهن عموري الأول التي داعبت خياله وخيال أسلافه، لكنه أدرك، بعد فشل محاولاته المتكررة، أنه بحاجة إلى قوة خارجية تساعده على تحقيق حلمه الكبير. وكانت الحامية التي تركها في مصر قد اقترحت عليه العودة لاحتلال هذا البلد بمساعدة أوروبية، غير أن عموري

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤٩، وليم الصوري: جـ٢ ص ٩١٩ ـ ٩٢٢. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٧.

(٢) الدجاني هادية، وشكيل برهان: صلاح الدين بين التاريخ والملحمة والأسطورة، في كتاب الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى. ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

الأول لم يُرد أن يستنفر ملوك وأمراء أوروبا، لعلمه بشدة أطماع فرسانهم في تكوين إمارات صليبية جديدة في الشرق، لذلك آثر الاستنجاد بالدولة البيزنطية، وإقامة تحالف معها[١].

والواضح أن التفكير في غزو مصر بالتعاون بين الصليبيين والبيزنطيين لم يكن وليد تلك الساعة، فقد سبق أن تبودلت عدة رسائل بين الملك عموري الأول وبين الأمبراطور مانويل حول هذا الموضوع، ومن المحتمل أن يكون عموري الأول هو الذي أشار على مانويل بفكرة غزو مصر، وأنه طلب منه مساعدته بالقوات البحرية والأسطول، والأموال الضرورية لإنجاز هذا الأمر، مقابل اقتسام مصر بين الصليبيين والبيزنطيين[٢].

أما دوافع الأمبراطور من وراء غزو مصر فواضحة، فقد كان يرى أن هذه البلاد كانت من ضمن أملاك الأمبراطورية البيزنطية فيما مضى، أي قبل الفتح الإسلامي لمصر، وأن للأمبراطورية حقوقاً في مصر يجب أن تعود مرة أخرى للحكم البيزنطي.

واتجه عموري الأول إلى الأمبراطورية البيزنطية، وسعى إلى الزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات على أمل تقوية الروابط بين الصليبيين والبيزنطيين وليجد في الأمبراطورية سنداً ضد نور الدين محمود.

وبدأ تنفيذ الفكرة في عام (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) أي بعد معركة حارم. فأعدَّ سفارة توجهت إلى القسطنطينية بهدف عرض أمر هذا الزواج. وظلت هذه السفارة في العاصمة البيزنطية مدة عامين أنجزت خلالها المهمة التي كُلِّفت بها، وعادت في عام (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) ومعها مارية ابنة عم الأمبراطور مانويل لتكون عروساً لملك بيت المقدس[٣]. وجرت مراسم الاحتفال بالزواج في كاتدرائية صور في (شهر ذي القعدة عام ٥٦٢هـ/ شهر آب عام ١١٦٧م) بعد عودة الملك من مصر.

ورافق العروس اثنان من كبار موظفي القصر هما جورج باليولوغوس ومانويل سباستوس، وقد خوَّلهما الأمبراطور بأن يناقشا مع عموري الأول أمر التحالف بينهما وتعاونهما في غزو مصر[٤]، وفي ذلك دلالة واضحة على أن مانويل كان يريد

---

(١) حبشي: ص ١١٨.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٢٧. عمران: ص ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٩٢٣.

(٤) المصدر نفسه. Chalandon: Les Commnènes Jean II et Manuel, P 536.

المساهمة في مشروع الاستيلاء على مصر لخدمة المصالح البيزنطية البحتة، ولذلك أراد أن يكسب دون غرم من خلال اتخاذ عموري الأول مخلباً لتحقيق أطماعه، ولم يغب ذلك عن الملك الصليبي الذي اشتهر بالشجاعة والمكر والدهاء[1].

وهكذا كان للتقارب الأسري أثر بعيد في السياسة البيزنطية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، وأهم ما ترتب عليه تعاون الصليبيين والبيزنطيين بهدف غزو مصر[2].

ولما كان الأمر يتطلب مزيداً من الدرس وتبادل وجهات النظر، أرسل عموري الأول إلى مانويل، مع مبعوثه جورج باليولوغوس، اقتراحاً يقضي بالقيام بعمل مشترك لاحتلال مصر، غير أن موقف الصليبيين لم يكن واضحاً ومحدَّداً، لذلك قام الأمبراطور بإرسال سفارة أخرى إلى بيت المقدس في (أواخر عام ٥٦٣هـ/ صيف عام ١١٦٨م) تألفت من إسكندر كونفيرسانو كونت جرافينا، وميخائيل أوف أوترانتو، حملت إلى عموري الأول بنوداً محددة تدعو إلى أن:

- تقوم القوات الصليبية والبيزنطية المشتركة بغزو مصر واحتلالها.
- يكون للأمبراطور نصيب من الغنائم.
- التنازل للأمبراطور عن بعض الأملاك الصليبية[3].

إلا أن الملك عموري الأول رأى في هذه الشروط كثيراً من التطرف، لذلك اختار صديقه المؤرخ وليم الصوري، كبير شمامسة صور، وأرسله إلى القسطنطينية لاستئناف المباحثات مع الأمبراطور، وخوَّله صلاحية الموافقة على ما يُبرم من اتفاق بينهما[4].

ولما وصل وليم إلى القسطنطينية، علم أن الأمبراطور يحارب في بلاد الصرب في البلقان. ولما كان الأمر من الأهمية، ولا يحتمل التأجيل، من وجهة النظر الصليبية، فقد توجه وليم إلى حيث يوجد الأمبراطور الذي قابله بحفاوة في مدينة بوتيلا، وشرح له وليم مشروع المعاهدة الصليبية ـ البيزنطية، وكان يصغي بكل

---

(1) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٧. حبشي: ص ١١٩. (2) عمران: ص ١٥٧.

(3) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٢٦ ـ ٩٢٧. ذكر هذا المؤرخ أن مانويل سوف يكون له نصيب في هذه المملكة (مصر) وفي جميع الغنائم التي يمكن الاستيلاء عليها لقاء تعاونه مع عموري الأول.
راجع تعليق حسن حبشي في الهامش رقم ٧ ص ١٦٣ من الجزء الرابع لكتاب وليم الصوري. وقارن بـ:
Chalandon: p. 536. Shlumberger: Campagnes du Roi Amaury de Jerusalem en Egypt, p. 185.

(4) وليم الصوري: المصدر نفسه.

اهتمام، وفي نهاية المباحثات وافق الأمبراطور مانويل على شروط المعاهدة، وَوُضِعت في صيغتها النهائية، وتتلخَّص في قيام البحرية البيزنطية، بالتعاون مع القوات البرية الصليبية، بغزو مصر، على أن تحصل الأمبراطورية على جزء معين من أرضها، واقتسام الغنائم التي تسلبها الحملة، كما اتفق الطرفان أن تكون القيادة العليا للجيشين الصليبي والبيزنطي بإمرة عموري الأول(١).

التمهيد لغزو مصر

حالت الظروف السياسية المستجدة دون تطبيق الاتفاقية المبرمة بين الصليبيين والبيزنطيين، فور توقيعها. إذ في الوقت الذي بدأ فيه الأمبراطور البيزنطي يجهِّز الجيش الذي سيشارك في العمليات العسكرية، نهض الملك عموري الأول فجأة بجيشه الصليبي وزحف إلى مصر تحت إلحاح مَنْ بها من الحامية الصليبية. ذلك أنه ترامى إلى مسامع أفرادها ما تمَّ من الاتفاق، بين عموري الأول ومانويل بشأن احتلال مصر، فخشوا أن يشاركهم البيزنطيون في ثرواتها وخيراتها. وأتاحت لهم إقامتهم في القاهرة الوقوف على مدى ما تعانيه مصر من تدهور شديد، فكتبوا إلى عموري الأول يستدعونه للاستيلاء عليها وأعلموه «خلوَّها من موانع، وهوَّنوا أمرها عليه»(٢).

تردَّد عموري الأول، في بادىء الأمر، في الزحف على مصر، لأن الجزية التي كان يحصل عليها من هذا البلد تكفيه للوقوف في وجه نور الدين محمود في بلاد الشام، وخشي إن توجه إلى مصر ليملكها «فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، ولئن صار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام»(٣).

غير أن عموري الأول ما لبث أن بدَّل رأيه، والراجح أنه لم يشأ أن ينتظر فراغ الأمبراطور مانويل من مشاكله في البلقان، وقد يبدو لأول وهلة أن السبب في ذلك التحول السياسي المفاجىء، إنما يرجع إلى عدم رغبته في أن يشاركه البيزنطيون اقتسام مصر، وأراد أن ينفرد بحكمها، ولكن الواقع أنه وجد نفسه مضطراً إلى الإسراع في العمل نتيجة عوامل عدة لعل أهمها:

---

(١) وليم الصوري جـ ٢ ص ٩٢٧ ـ ٩٢٨. حبشي: ص ١١٩ ـ ١٢٠. عمران: ص ١٦٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه.

- أنه نزل أخيراً على رأي أفراد الحامية الصليبية في القاهرة الذين ألحُّوا عليه مجدداً وشجعوه على الإقدام على هذه الخطوة وبدَّدوا خشيته من تدخل نور الدين محمود بقولهم «وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنى نور الدين منا السلامة»[١] وفي ذلك إشارة واضحة إلى انهماك نور الدين محمود ببعض المشكلات في بلاد الشام.

- النزاع الذي نشب بين نور الدين محمود وبين شهاب الدين مالك العقيلي، صاحب قلعة جَعْبَر، حيث انتهى الأمر بضم الأول للقلعة. وقد استغل عموري الأول هذا النزاع وانهماك نور الدين محمود ليزحف إلى مصر.

- في أواخر فصل الصيف قدم إلى فلسطين كونت نيفر في جماعة كبيرة من الفرسان للدفاع عن النصرانية، ومع أنه توفي مبكراً إلا أنَّ الدافع له على المجيء ظل في نفوس رجاله، مما شجع بارونات مملكة بيت المقدس الذين أرادوا القيام بإجراء مباشر، ووجدوا في مصر لقمة سائغة، فضغطوا على الملك للقيام بالحملة بعد أن ظل يتردد في الإقدام على هذه الخطوة.

- انقلاب شاور على الصليبيين، ذلك أن هذا الرجل الذي كان دائماً هو البادىء بالاستعانة بالصليبيين، اشتهر بأنه كان يكره الحامية الصليبية في القاهرة، فأخذ يتخوف من وجودها عندما شعر أن المساعدة الصليبية تحولت إلى حماية، وأن الضريبة السنوية التي فرضها عليه عموري الأول، وهي مائة ألف دينار، أثقلت كاهل المصريين في الوقت الذي نضبت فيه موارد الدولة، ثم إن وجود الحامية الصليبية التي تحرس أبواب القاهرة، أزعج أعيان الدولة والمتشددين المسلمين، بفعل أن أفرادها أساؤوا معاملة أهل البلاد «وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم»[٢] فأضحى موقفه الداخلي ضعيفاً، وبخاصة بعد أن رفض المصريون تصرفه المهين، وانفضُّوا من حوله، وفقد الخليفة ثقته به، فعيَّن ابنه الكامل نائباً له، وهي المرة الأولى التي يُعين فيها نائب لأحد الوزراء في مصر أثناء وجوده ومباشرته الحكم[٣]. وتردَّدت الشائعات أيضاً بأن ابنه الكامل أخذ يتفاوض مع أسد الدين شيركوه، وأنه طلب أن يتزوج من أخت صلاح الدين[٤].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٩.
(٣) أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى... نص التقليد والتولية. جـ ١٠ ص ٣٠٨ ـ ٣٢٥.
(٤) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٠.

وقد دفعت هذه التطورات شاور إلى التوقف عن دفع الجزية المقررة، ولما احتج عموري الأول على ذلك أجابه «إن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك، وإذا قدم عليَّ عدو، فأما مع خلو بالي من الأعداء، فلا حاجة إليك ولا لك عندي مقرر»[١].

- كاتبت جماعة من أعيان مصر، ممن هم على عداء مع شاور، الملك الصليبي للقدوم إلى مصر، ووعدوه بتقديم المساعدة، كان من بينهم ابن النحاس وابن الخياط يحيى وابن قرجلة[٢].

نتيجة هذه التطورات السياسية، دعا الملك عموري الأول المجلس إلى الانعقاد للتشاور في هذا الأمر، وقد تباينت آراء الزعماء الصليبيين خلال جلسات المناقشة.

فرأى الملك عموري الأول الاكتفاء بسياسة الحماية ما دامت مصر تدفع الجزية التي يتقوَّى الصليبيون بها على نور الدين محمود في بلاد الشام، كما خشي من انتفاضة المصريين، بالإضافة إلى أن نور الدين محمود سوف لا يقف مكتوف الأيدي، وسيحاول التدخل.

وأصرَّ جيلبرت الأسيلي، مقدم الأسبتارية، على القيام بالحملة فوراً مدفوعاً بطمعه للحصول على إقطاع كبير في بلد خصب كمصر، ولم يجد من الأسباب ما يدعوه إلى ضرورة اشتراك البيزنطيين في الغنائم، ووافقه معظم البارونات.

وعارض الداوية توجيه حملة صليبية إلى مصر، وأعلنوا، صراحة، أنهم لن يشتركوا فيها، ويبدو أن معارضتهم ناجمة عن منافسة الأسبتارية الذين اشترطوا أن تكون «الفرما»[٣] من نصيبهم مقابل حصن غزة الذي كان بيد الداوية، بالإضافة إلى ارتباطهم تجارياً ومالياً بالمسلمين في مصر، وقد زادت على تجارتهم مع النصارى في بلاد الشام.

وكان أن انتصر رأي جيلبرت، واضطر الملك إلى الموافقة، على أنه لا بد من التعجيل باتخاذ إجراء ما نظراً لضعف شاور وعدم الاطمئنان إليه[٤].

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣١.

(٢) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٨.

(٣) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر. الحموي: جـ ٤ ص ٢٥٥.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٢٨ ـ ٩٢٩. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٣ ـ ٦١٤.

حملة عموري الرابعة على مصر

زحف الحملة

عاد وليم الصوري إلى بيت المقدس حاملاً معه المعاهدة المبرمة مع البيزنطيين ليجد أن الملك عموري الأول قد غادر البلاد فعلاً على رأس الحملة التي جهَّزها لاحتلال مصر. وأراد الملك الصليبي أن يموِّه على حملته، ويصرف نظر نور الدين محمود عما اعتزم عليه، فأشاع بأنه سوف يهاجم حمص[1].

والواقع أن نور الدين محمود كان حريصاً آنذاك على أن يتجنب الاشتباك مع الصليبيين نظراً لانهماكه في مشاكل خاصة في شمال شرقي بلاد الشام[2]، إلا أنه اضطر، تحت ضغط الأحداث المستجدة، إلى القيام بالتعبئة العامة، «فكاتب الأمراء بالقدوم عليه، واستقدم العساكر للنهوض إلى عموري ودفعه عن قصده»[3]. حصل ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحملة الصليبية برئاسة الملك عموري الأول تشق طريقها إلى مصر للمرة الرابعة.

لم يدرك شاور ما يجري فعلاً إلا بعد أن غادرت الحملة الصليبية عسقلان في (شهر محرم عام ٥٦٤هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٦٨م) باتجاه دلتا النيل. ولم يكن يتوقع مطلقاً أن يقوم الملك عموري الأول بنقض المعاهدة التي عقدها معه، كما لا يوجد ما يبرر قيامه بمهاجمة مصر لا سيما وأنه قائم بالمحافظة على تعهداته له، بالإضافة إلى أنه ارتضى بأن يكون تابعاً له؛ فأرسل أحد مستشاريه ممن يثق به، وهو الأمير بدران، إلى عموري الأول، قبل أن يصل إلى القاهرة للاستفسار عما دعاه إلى المجيء، عسى أن يتدارك هذا الخطأ كي لا يدع مجالاً لتدخل نور الدين محمود.

التقى الأمير بدران بالملك عموري الأول عند الداروم على الحدود مع مملكة بيت المقدس، ويبدو أنه كان ضعيف الإرادة أو يطمع في الحصول على بعض الإقطاعات، وقد وقف عموري الأول على هذه النزعة عنده، فاستماله بما بذل له من الرشوة، ووعده بإقطاعه ثلاث عشرة قرية[4].

ولما أبطأ بدران في العودة، تسرب الخوف إلى نفس شاور، فبعث برسول ثانٍ، هو شمس الخلافة محمد بن مختار، فاجتمع بالملك عموري الأول في الصحراء قبل أن يصل إلى بِلبيس، وجرى لقاء ساخن، حيث لام شمس الخلافة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٧.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦١.

(٤) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٠.

ملك بيت المقدس على قيامه بهذه الحملة، ورأى في تصرفه خيانة للمعاهدة المبرمة بين الطرفين، فردَّ عليه الملك مبرراً موقفه بما أجراه الكامل بن شاور من مفاوضات مع نور الدين محمود، كما أن شاور أوقف دفع الجزية المقررة عليه للصليبيين، ثم حاول طمأنته حين زعم أنه أراد التوسط بين المصريين وبين جماعة أوروبية جاءت من وراء البحار، قاصدة غزو مصر، وأن محبَّته لسكان مصر ولحليفه شاور تحتم عليه النهوض لدفع هذا الخطر الأوروبي عن مصر، ثم أضاف، أنه سوف ينسحب إذا أدَّى شاور له مبلغاً آخر من الدنانير، لكنه تابع تقدمه حتى وصل إلى بِلبيس في (شهر صفر/ شهر تشرين الثاني)[1].

احتلال بِلبيس

ارتاب شاور في صدق الملك الصليبي، وتأكد له بما كان قد تناهى إلى سمعه من خيانة بعض أمراء مصر الذين شجعوه على غزوها، وصمَّم على المقاومة. وفوجىء الملك عموري الأول عندما أغلقت الحامية أبواب المدينة في وجهه، ولم تسمح له بدخولها ليعسكر فيها بجيشه، عندئذٍ ضرب الحصار عليها. وإذ كانت الحامية المدافعة عنها قليلة العدد، فقد دخل الجيش الصليبي المدينة بعد ثلاثة أيام من الحصار والمقاومة الشديدة، تلى ذلك حدوث مذبحة مروعة، وأسرف الصليبيون في الانتقام من سكان بِلبيس فهدموا منازلهم ونكَّلوا بهم وقتلوا كل من صادفوه من النساء والشيوخ والأطفال[2].

الزحف نحو القاهرة

مكث عموري الأول في بِلبيس مدة خمسة أيام حاول أثناءها أن يعيد الأمن إلى نصابه بعد أن وقع الضرر على الناس، ثم خرج منها متوجهاً نحو القاهرة، غير أنه أضاع بذلك الفرصة للاستيلاء عليها فجأة، لأنه، خلال هذه الرحلة البطيئة التي استغرقت عشرة أيام، تناهى إلى أسماع سكانها ما أصاب سكان بِلبيس، فأحدث ذلك موجة من الخوف والقلق دفعهم إلى التصميم على الدفاع عن مدينتهم والقتال دونها حتى لا يصيبهم ما أصاب سكان بِلبيس، ولو أن الملك الصليبي أحسن السيرة مع أهل بِلبيس لملك مصر والقاهرة بسرعة[3].

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٠ ـ ٤٣١. حبشي: ص ١٢٢ ـ ١٢٣. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٤ ـ ٦١٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣١ وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٠.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٨. وليم الصوري: المصدر نفسه.

ويبدو أن سبب الإبطاء تمثَّل في أن المفاوضات كانت دائرة بين عموري الأول وجماعة المصريين الموالين له، أو بينه وبين رسل شاور، للوصول إلى تفاهم حول حلِّ المشكلة[1]. ومهما يكن من أمر، فقد وصل الجيش الصليبي إلى مكان قريب من القاهرة، وعسكر عند بركة الحبش جنوبي الفسطاط، إلا أنه لم يتلقَّ أية مساعدة من المصريين الذين هجروا منازلهم بناءً على دعوة شاور، الذي فَقَدَ الأمل في إمكان حصول تفاهم مع عموري الأول، وارتاب في قدرته على الاحتفاظ بالفسطاط نظراً لضعف قواته، فعمد إلى حرقها، وأرسل، في الوقت نفسه، رسوله شمس الخلافة مرة أخرى، يحذِّر عموري الأول بأنه سوف يقدم على إشعال النار في القاهرة حتى لا تقع في أيدي الصليبيين، وظلَّت النار متأججة مدة أربعة وخمسين يوماً حتى أتت على كل شيء، واضطر عموري الأول إلى نقل معسكره، ونزل على القاهرة مما يلي باب البرقية، ولاصق أسوارها[2].

ووصل، أثناء ذلك، أسطول صليبي إلى بحيرة المنزلة، كان معظم بحارته من الغرب الأوروبي يحدوهم الحماس للدفاع عن النصرانية فانقضوا على مدينة «تنيس»[3]، فأصاب أهلها الرعب والخوف، غير أن هذا الأسطول لم يتمكَّن من مواصلة التقدم لمساندة الصليبيين المعسكرين حول القاهرة، فقد اعترضته الحواجز الملقاة في عرض النهر، مما فتَّ في عضد الملك عموري الأول الذي كان قد علَّق عليه الآمال لحصار القاهرة من جهة البحر[4].

ونظر عموري الأول بعين الأسى إلى تلك المدينة الزاهية والنار تلتهمها، وأدرك أنه لن يستطيع امتلاك مصر وأن الحملة أخطأت السبيل، وبناءً على نصيحة صنجيله ميلز بلانسي، أبلغ شاور بأنه يقبل المساومة على مغادرة البلاد.

والواقع أن شاور انزعج من أعمال الصليبيين الوحشية فمال إلى استعمال الحيلة معهم، فأرسل إليهم يُذكِّرهم بمودته لهم ويلقي بالتبعة على العاضد، وفي الوقت نفسه تلكَّأ بعض الوقت قبل أن يساوم على المبلغ الذي بوسعه أن يؤديه، آملاً بأن يصل أسد الدين شيركوه بقوات من بلاد الشام بعد أن استنجد به العاضد، وعرض عليه

---

(١) حبشي: ص ١٢٤.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٨. أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٣) تنيس: جزيرة في بحر مصر، قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. الحموي: جـ ١ ص ٥١.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٢ ـ ٩٣٣. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٦.

أربعمائة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار، يُدفع منها مائة ألف دينار معجلاً، لقاء الرحيل عن مصر، لكن شاور لم يستطع أن يجمع منها سوى خمسة آلاف دينار بفعل الحالة المتردية التي أضحى عليها سكان القاهرة بعد هذه الأحداث[١].

في هذه الأثناء، وردت الأنباء فجأة بأن أسد الدين شيركوه اتخذ طريقه إلى مصر بناءً على دعوة العاضد.

الحملة النورية الثالثة على مصر

العاضد يستنجد بنور الدين محمود

طالبت بعض الفئات في القاهرة بدعوة القوات الشامية بعد أن تبين لها أن مصر ستقع في أيدي الصليبيين هذه المرة، وكان على رأس هذه الفئات الكامل، ابن شاور، الذي خرج على سياسة والده، والقاضي الفاضل رئيس ديوان الإنشاء، الذي قام بدور في تحويل دفَّة السياسة المصرية باتجاه بلاد الشام، وتولى المفاوضات والمراسلات مع نور الدين محمود، وأخيراً العاضد المغلوب على أمره، وقد بعث بخصل من ضفائر نسائه وغدائر بناته، وهو أقوى مظهر من مظاهر إثارة الشعور، وعرض على نور الدين محمود، مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

- منحة ثلث بلاد مصر.
- منح قادته الإقطاعات.
- يسمح لشيركوه بأن يقيم في مصر[٢].

ومع استدعاء القوات من بلاد الشام بدأت كفة نور الدين محمود ترجح في الميزان، ذلك أنه لم يكن بإمكانه أن يترك الصليبيين يحتلون مصر. فلم يكد يسمع بعودة الملك عموري الأول والصليبيين إلى هذا البلد حتى أخذ يتخوَّف من هذا التردد عليه بين حين وآخر، وأدرك أن شاور يتلاعب بهم تارة وبه تارة أخرى، فاستقر رأيه على اتخاذ موقف حاسم من المسألة المصرية وشجَّعته دعوة الاستغاثة على الإسراع في تجهيز قوة عسكرية لإرسالها إلى مصر، حيث حرَّكت فيه عوامل الشفقة والرحمة إلى جانب طموحه الشخصي في ضمِّ مصر بعد إنقاذها من أيدي الصليبيين والذين يتعاونون معهم من أبنائها، والراجح أنه تطلع إلى إعادة المذهب السنِّي إليها،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٩. البنداري: سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني ص ٧٤ ـ ٧٥. أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣١ ـ ٤٣٢، ابن واصل: جـ ١ ص ١٥٨.

فاستدعى أسد الدين شيركوه من حمص وكلَّفه بمهمة إنقاذ مصر من الصليبيين وضمِّها إلى أملاكه في بلاد الشام وأعطاه مائتي ألف دينار بالإضافة إلى الأسلحة والثياب والدواب، وأذن له أن يختار ألفي فارس، منح كلاً منهم عشرين ديناراً غير جامكيته[1]، وأمدَّه بستة آلاف فارس، ومجموعة من الأمراء، كما ندب معه ابن أخيه صلاح الدين[2]. وتدل نوعية التجهيزات التي جهَّزه بها على أن نور الدين محمود مصمِّم، هذه المرة، على إنهاء المسألة المصرية بشكل قاطع.

أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة

خرج أسد الدين شيركوه في (شهر ربيع الأول عام ٥٦٤هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٦٨م) إلى مصر وكان شاور يستغل كل فرصة ممكنة لتهديد الصليبيين لإخراجهم من مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه، استغل ذلك لصالحه، وعندما اقترب الجيش النوري من حدودها الشرقية ووصل إلى الصدْر[3]، أرسل شمس الخلافة إلى الملك عموري يطلب منه التخلِّي عن جزء من المبلغ المتفق عليه، وينذره في الوقت نفسه بتقدم أسد الدين شيركوه[4].

نتيجة هذا التطور العسكري اضطر عموي الأول لأن يتحرك مع جيشه نحو برزخ السويس في خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس[5] إلى بِلبيس حيث ترك هناك قوة عسكرية تحمي الطريق المؤدي إلى القاهرة، ثم التقدم نحو فاقوس لمباغتة أسد الدين شيركوه، وقد راوده الأمل في الانقضاض عليه عند خروجه من الصحراء والقضاء على قواته قبل أن تتمكن من دخول مصر[6].

لكن هذه الخطة، التي وضعها الملك عموري الأول، انهارت تماماً عندما علم أن أسد الدين شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة بعد أن تجاوزه من ناحية الجنوب. وفعلاً دخل القائد النوري القاهرة في (السابع من ربيع الآخر عام ٥٦٤هـ/ الثامن من كانون الثاني عام ١١٦٩م) دون مقاومة، وسط ترحيب السكان بقدومه، وعسكرت قواته في باب اللوق، ولعل سكان مصر رأوا في حملته هذه خلاصاً لهم من الصليبيين ومن استبداد شاور الذي استاء الجميع من تصرفاته. أما العاضد فكان

---

(١) الجامكية: يعني الراتب.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣٩.
(٣) الصدر: قلعة بين القاهرة وأيلة. الحموي: جـ ٣ ص ٣٩٧.
(٤) أبو شامة: جـ ١ ص ٣٣٤.
(٥) سرياقوس: بليدة في نواحي القاهرة بمصر. الحموي: جـ ٣ ص ٢١٨.
(٦) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٤.

يراقب تطور الأحداث السياسية والعسكرية بحسرة، فقد توقع أن تذهب بعرشه الذي ورثه عن آبائه[١].

وتوجه أسد الدين شيركوه إلى العاضد الذي غمره بالتشاريف ووعده ببذل الأموال والمؤن لعساكره. أما شاور الذي وجد نفسه وحيداً، فأخذ يتودَّد إليه، ويتقرَّب منه، فكان يتردد عليه كل يوم للتشاور في التدابير المالية واقتسام أعمال الوزارة[٢].

الملك الصليبي يعود إلى بيت المقدس خائباً

رأى عموري الأول استحالة استيلائه على مصر في ظل هذه الأوضاع المستجدة، وأنه بات من الضروري أن يتراجع عن القاهرة خشية أن يهاجمه أسد الدين شيركوه، وأن يثب عليه سكان مصر من الخلف، فتراجع إلى بِلبيس، وأمر أسطوله بالعودة إلى عكا، ثم رحل عن مصر بعد أن يئس من احتلالها، مدركاً في الوقت نفسه الخطأ الجسيم الذي ارتكبه والذي أفقده ما كان له من مظاهر ملكية[٣].

مقتل شاور

كان من الطبيعي، بعد خروج الصليبيين من مصر، أن يحقد شاور على أسد الدين شيركوه الذي نافسه على النفوذ، وبخاصة بعد أن طالبه مجدَّداً بتنفيذ اتفاقه القديم الذي تنكَّر له، بالإضافة إلى ميل العاضد إليه، وتردد الناس إلى خدمته[٤]. فأرسل مرة أخرى يستدعي الصليبيين لمساعدته، وحدَّد لهم مدينة دمياط كمكان لدخولهم الديار المصرية من البر والبحر، كما دبَّر مؤامرة للتخلص من أسد الدين شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم إليها، مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي، غير أنه انصرف عن تنفيذ تلك المكيدة خشية مما هو أشد. ويبدو أن ابنه الكامل كان له دور في ذلك حين هدَّده بكشف المؤامرة لأسد الدين شيركوه[٥]، لكن هذا الأخير علم بما بيَّته له عدوه، ومع ذلك لم يتخذ أي إجراء مباشر ضده، ويبدو أنه كان للعاضد رأي آخر بينما أصرَّ صلاح الدين على اتخاذ تدابير رادعة بحقه، ونفرت العامة من حكمه.

خرج شاور في (السابع عشر من شهر ربيع الآخر عام ٥٦٤هـ/ الثامن عشر من

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٣٣٤. حبشي: ص ١٢٧.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٤٠. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٨.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٤.

(٤) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٥. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٠١.

(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٤٠.

شهر كانون الثاني عام ١١٦٩م)، للاجتماع بأسد الدين شيركوه، ولما وصل إلى مقر قيادته استقبله صلاح الدين وعز الدين جورديك في جمع من العساكر، لكن أسد الدين شيركوه كان في زيارة لضريح الإمام الشافعي، فقرر الذهاب إليه. ولم يكد شاور يتحرك حتى انقضَّ عليه صلاح الدين وعز الدين جورديك وبعض الأمراء وأسروه بعد أن جردوه من سلاحه، ثم أصدر العاضد أمراً بقتله[١].

ضمُّ مصر إلى بلاد الشام

الواقع أن مقتل شاور كان آخر حلقة من سلسلة المتاعب التي تعرَّضت لها مصر في أواخر العصر الفاطمي، إذ لم يعد للصليبيين من مناصر في البلاد، وكان خروجهم منها، في نظر نور الدين محمود فتحاً جديداً وحفظاً لسائر بلاد الشام[٢]، ففرح فرحاً شديداً «وواصل الحمد والثناء على الله تعالى، إذ كان الفتح في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده»[٣]، وأرسل إلى الخليفة العباسي في بغداد يعلمه بذلك، فزُينت عاصمة الخلافة، وأُغلقت الأسواق، وفرح المسلمون فرحاً شديداً.

وفاة أسد الدين شيركوه

تقلَّد أسد الدين شيركوه مقاليد الوزارة في مصر بعد مقتل شاور وفقاً للعادة المتبعة في تلك الأيام، والتي تقضي بأن يحل محل الوزير من يتولى القضاء عليه، وبلغ به الحرص على مراعاة الصفة الشرعية للحكم مما منع حكام الأقاليم من معارضة النظام الجديد، فأضحى في أسابيع قليلة حاكماً على الديار المصرية بأسرها، وحاز أمراؤه ما كان بيد شاور وأسرته من إقطاعات، واتخذ لقب «الملك المنصور أمير الجيوش»[٤].

لم يعش أسد الدين شيركوه طويلاً بعد أن تولَّى الوزارة، إذ توفي بعد شهرين في (٢٢ جمادى الآخرة عام ٥٦٤هـ/ ٢٣ آذار عام ١١٦٩م)، نتيجة إفراطه في الأكل، على أن شهرته في التاريخ طغت عليها شهرة نور الدين محمود، وشهرة ابن أخيه صلاح الدين الذي سيخلفه ويجني ثمرة غرسه، ومع ذلك فإنه فاق غيره من

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٤١. البنداري: ص ٧٨. أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٦. راجع فيما يتعلق بملابسات قتل شاور: حبشي: ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٩.

(٣) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٧.

(٤) ابن واصل: جـ ١ ص ١٦٣.

المسلمين في إدراك أهمية ضمِّ مصر بوصفها خطوة تمهيدية وضرورية لاسترجاع فلسطين من أيدي الصليبيين[١].

صلاح الدين يخلف عمه

أدَّت حملة عموري الأول على مصر في عام (٥٦٤هـ/١١٦٨م) إلى خلق موقف جديد بالنسبة للصليبيين، مغاير تماماً للوضع السابق. ذلك أن الحملة عندما قدمت إلى مصر، كان الانقسام المذهبي على أشدِّه بين مصر وبلاد الشام، كما كانت الدولة الفاطمية في طور الاحتضار وفي حالة تبعية فعلية لمملكة بيت المقدس، وتدفع لها الأموال رمزاً لهذه التبعية، ثم خرجت حملة عموري الأول من مصر، وقد نجح أسد الدين شيركوه في ضمِّ هذا البلد إلى الدولة النورية التي غدت تمتد من الفرات إلى النيل، وباتت مصر دولة قوية بعد أن كانت ضعيفة منذ مجيء الحملة الصليبية الأولى في عام ١٠٩٧م لتصبح مركز المقاومة الإسلامية في الشرق الأدنى الإسلامي ضد الخطر الصليبي[٢].

أيقظت خلافة أسد الدين شيركوه في منصبه الكثير من الطموحات، إذ حدثت إثر وفاته خلافات وتنافسات على الوزارة بين:

- المؤسسة العسكرية الفاطمية التي أرادت وزيراً مدنياً مصرياً تتحكم به.
- بعض أمراء نور الدين محمود الأتراك الذين رافقوا الحملة مثل قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وعين الدولة الياروقي، وسيف الدين بن أحمد المشطوب، وغيرهم.
- شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين.

تطلع هؤلاء إلى اعتلاء منصب الوزارة عقب وفاة أسد الدين شيركوه بينما ظل صلاح الدين صامتاً، لكن سانده الفقيه عيسى الهكاري مقترحاً ترشيحه لهذا المنصب، ونجح في استقطاب المشطوب والحارمي[٣]. لكن العاضد اختار صلاح الدين، وقد قام الحارمي بدور نشط في إقناعه، على الرغم من إحجام الأول وتمنعه عن استلام المنصب لاعتقاده أن صغر سنه وافتقاره للتجربة سوف يرغمانه على الاعتماد على موظفي الدولة الفاطمية وسيجعلان منه أداة سهلة في يد العاضد يستغلها في القضاء على بقية أعوان أسد الدين شيركوه.

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٧٠١. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٩.

(٢) عاشور: المرجع نفسه ص ٧٠٦. (٣) ابن واصل: جـ ١ ص ١٦٨.

وخلع العاضد الوزارة على صلاح الدين وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وأمر القاضي الفاضل بإنشاء سجل بتوليته الوزارة، ولقَّبه بـ «الملك الناصر» وذلك في (٢٥ من شهر جمادى الآخرة عام ٥٦٤هـ/ ٢٦ من شهر آذار عام ١١٦٩م)[1].

وبتولي صلاح الدين منصب الوزارة، كآخر وزير سنِّي في الدولة الفاطمية، وصل المد السنّي الذي بدأه السلاجقة قبل نحو مائة عام، وأكمله ورثتهم الزنكيون، إلى مصر[2].

الصعوبات التي واجهت صلاح الدين في بداية حياته السياسية

مؤامرة مؤتمن الخلافة

وجرى من الأحداث في مصر، بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها. فالدولة الفاطمية، لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار رجال الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبِّت أقدامه في الحكم، ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية. ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة وهو عازم على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخص منصب الخلافة، ونفَّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

- استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال، فأحبوه.
- أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند، بعد أن أحسن إليهم.
- قوَّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية، وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية[3].

وقد أدَّت التدابير التي نفَّذها صلاح الدين، إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد وبالتالي مركز الإمامة وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج

---

(١) القلقشندي: جـ ١٠ ص ٨٠ ـ ١٠٠.
(٢) سيد: ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٣) ابن واصل: جـ ١ ص ١٧٤.

صلاح الدين في الحكم سوف يقضي، في حال استمراره، على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً، ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين وحاول الاتصال بعموري الأول، ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً، في حال الاستجابة، أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويثب على منصب الوزارة ويتقاسم البلاد مع الصليبيين.

غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتَّخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتهما، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤتمن الخلافة وترقب الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر(١).

رد الفعل الصليبي

الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على دمياط ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م

تجدُّد التعاون الصليبي ـ البيزنطي

أدرك عموري الأول مغزى نجاح نور الدين محمود في توحيد بلاد الشام ومصر تحت سلطانه، وعدَّ ذلك ضربة أليمة وُجِّهت إلى مملكة بيت المقدس، مما خلق جواً جديداً من القلق والرعب. وشعر الصليبيون أنهم وقعوا فعلاً بين فكي الكماشة، وأن القوات الإسلامية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي، كما أن سيطرة نور الدين محمود على الثغور البحرية في شمال مصر، مثل الإسكندرية ودمياط وغيرهما من موانىء الدلتا، من شأنها أن تهدِّد سيادة الصليبيين البحرية، بحيث ينتقل الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى سيادة المسلمين.

وتفاقم الخطر إلى الحد الذي دفع عموري الأول إلى الاستعانة بالغرب الأوروبي؛ فأرسل سفارة في أوائل عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م) إلى كل من فريدريك بربروسا أمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك إنكلترا،

---

(١) البنداري: ص ٨٢ ـ ٨٣. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦. أبو شامة: جـ ١ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٢.

وليم الثاني ملك صقلية، وغيرهم من كبار حكام أوروبا الغربية، يطلب منهم الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة تنقذ الموقف الصليبي المتدهور في الشرق[1]، والجدير بالذكر أن طلب الاستغاثة لم يخف على المسلمين[2].

على أن الأوضاع السياسية في غربي أوروبا، آنئذٍ، لا سيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والأمبراطورية، حالت دون تحقيق السفارة الصليبية أهدافها، فاضطر عموري الأول عندئذٍ إلى الالتفات مجدداً نحو الأمبراطورية البيزنطية طالباً مساعدة الأمبراطور مانويل، ومقترحاً عليه تجديد اتفاقية عام (١١٦٨م) التي أبرمها وليم الصوري، بهدف غزو مصر.

والواقع أن الأمبراطور مانويل كان أشد حماساً من الصليبيين لتنفيذ مشرع غزو مصر، ولا يزال راغباً في القيام بدوره في ذلك. إذ لم يكن أقل انزعاجاً لاتحاد بلاد الشام ومصر تحت راية نور الدين محمود، ما أدّى إلى انقلاب خطير في توازن القوى بالشرق، فعرض على عموري الأول تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية[3].

وقَبِل الملك ما عرضه الأمبراطور، إذ لم يفقد الأمل بعد في استرداد مصر، كما أن نور الدين محمود كان فيما يبدو منهمكاً في أمور الشمال. فما حدث من وفاة قرا أرسلان الأرتقي، أمير ديار بكر في عام (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، وما وقع من نزاعات حول اقتسام إرثه، أوقعه في شقاق شديد مع أخيه قطب الدين مودود أمير الموصل، ولم تلبث أن اندلعت ثورة غازي بن حسَّان أمير منبج، ولم تخمد إلا بعد شهور عديدة، على أن قطب الدين مودود أشرف على الموت، ولم تلبث أن ظهرت مشكلة ولاية حكومة الموصل[4].

استعدادات التجهيز

جهَّز الأمبراطور البيزنطي في (أواخر عام ٥٦٤هـ/ صيف عام ١١٦٩م) أسطولاً بحرياً ضخماً تألف من مائة وخمسين سفينة حربية من نوع الشواني، مسلحة تسليحاً جيداً، وستين سفينة كبيرة لنقل الخيول وهي من النوع المعروف بالطريدة، وما بين عشرة إلى عشرين سفينة من نوع الدرمونة لنقل المؤن وآلات الحرب[5].

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٥٠.
(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٨.
(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢١.
(٥) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٨ ـ ٩٣٩.

وحمل الأسطول من المؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر، وهي المدة التي قدَّرها الأمبراطور لإنجاز المهمة، ثم خرج من مياه الدردنيل في (منتصف شوال عام ٥٦٤هـ/ تموز عام ١١٦٩م) متوجهاً إلى قبرص بقيادة أندرونيقوس - كونتوستيفانوس، ويعاونه موريس الذي كان يتمتع بثقة الأمبراطور، فوجد في طريقه سفينتين مصريتين، فأسرهما، وعندما وصل إلى قبرص، أرسل قائده عشر سفن إلى عكا عن طريق ميناء صور تحمل الأموال المتفق عليها للإنفاق على جند عموري الأول، ولتخبره بتجمُّع الأسطول البيزنطي في قبرص، وأن بحارته على استعداد للإقلاع إلى مصر عندما يصبح الملك وقواته مستعدين للرحيل، وظل الأسطول في الجزيرة حتى شهر أيلول دون أن يصل ما يفيد باستكمال استعدادات القوات الصليبية للرحيل[١].

والواقع أن الملك عموري الأول أبطأ في تجهيز قواته، إذ أن حملة عام (٥٦٣هـ/ ١١٦٨م) أدَّت إلى الإخلال بنظامها، واحتاج إلى بعض الوقت لتنظيم شؤون دولته أثناء غيابه في مصر، وكان عليه أن يجهِّز بعض القوات لحمايتها، كما كان عليه أن يُغري الأسبتارية للاشتراك في الحملة بعد الخسائر الفادحة التي تكبدوها في الحملة الأخيرة، وبخاصة أن الداوية ما زالوا مصرِّين على رفض الاشتراك في الحملة. أما البارونات الذين لم تشجعهم تجربتهم السابقة، فإنهم افتقدوا ما توافر لهم من حماس من قبل[٢]. ولعله خشي عندما علم بضخامة الأسطول من التفوق العسكري البيزنطي، مما قد ينتج عنه انفراد البيزنطيين في السيطرة على مصر[٣]، مما دفعه إلى التردد بعض الوقت في الانضمام إلى الحملة.

لكن عموري الأول، أدرك أن سقوط مصر في أيدي البيزنطيين لا يهدد أمن الإمارات الصليبية بالقدر الذي تهددها به القوات الإسلامية التي أصبحت تحكم بلاد الشام ومصر، لذلك رأى الانضمام للحملة حتى لا تبقى مصر في أيدي حكام بلاد الشام المسلمين، أو تقع في أيدي القوات البيزنطية[٤]، لذلك دعا الأسطول للقدوم إلى عكا في (شهر محرم عام ٥٦٥هـ/ أواخر شهر أيلول عام ١١٦٩م)، ولم تستعد كل الحملة للمضي إلى مصر إلا في منتصف شهر تشرين الأول، وأعطى أوامره لجميع القوات بالتجمع في عسقلان، ثم ما لبث الأسطول البيزنطي أن وصل إلى

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٩.
(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣.
(٣) عمران: ص ١٦٣.
(٤) المرجع نفسه.

ميناء صور ثم تقدم نحو عكا، ومنها إلى عسقلان، وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط[1].

الوضع الداخلي في مصر

كان صلاح الدين قد تلقَّى تحذيراً مبكراً بالغ الكفاية عن الحملة، فتصرف على محورين احترازيين لمواجهتها:

الأول: أنه توقع أن تتعرض بِلبيس للهجوم، فشحنها بالعساكر، كما قام بتحصين الإسكندرية والقاهرة ظناً منه أن هذه الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها الحملات السابقة[2].

الثاني: أنه بقي في القاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده. وحتى يكفل الأمن لنفسه، أمر في (أواخر شهر ذي القعدة عام ٥٦٤هـ/ ٢٠ آب عام ١١٦٩م) بإلقاء القبض على مؤتمن الخلافة، وأعدمه، ثم عزل موظفي القصر من السودان المعروفين بولائهم للعاضد، وأحلَّ مكانهم رجالاً من أتباعه، وعيَّن على الجميع بهاء الدين قراقوش، وهو خصي أبيض[3].

نتيجة لهذه التدابير الاحترازية التي نفَّذها صلاح الدين لتحصين مصر وحماية نفسه، عزَّ على الجند السودانيين استبعادهم، وضياع نفوذهم، كما غضبوا لمقتل مؤتمن الخلافة فثاروا بتحريض من الموظفين المفصولين، وأدَّى ذلك إلى التصادم بين الطرفين، ودارت المعركة بينهما، فرجحت كفة جيش صلاح الدين، واضطر السودانيون إلى طلب الأمان منه فأجابهم إلى ذلك[4].

تراوح موقف العاضد الذي شهد هذه الأحداث، بين الإحجام عن مساعدة صلاح الدين وتأييد خطوته وفقاً لتطور الأحداث. ذلك أنه ظنَّ، في بادىء الأمر، أن الجند السودانيين سوف ينتصرون، وينقذونه من قبضة صلاح الدين، فأمر مَنْ في القصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة. ولما هدَّده توران شاه، أخو صلاح الدين بإشعال النار في القصر، لم يسعه إلا أن يُغيِّر موقفه، فخرج من القصر وقال: «أمير المؤمنين يسلم على شمس الخلافة توران شاه ويقول دونكم العبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم»[5].

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤٠.
(٢) عمران: ص ١٦٤.
(٣) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢. ابن واصل: جـ ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٧.
(٤) المصدران نفساهما.
(٥) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٥٢.

كان الجند السودان يعتمدون على تأييد العاضد، فلما رأوا تغير موقفه منهم فتَّ ذلك في عضدهم فتخاذلوا عند اللقاء.

وقضى صلاح الدين كذلك على حرس العاضد من الأرمن، إذ أشعل النار في ثكناتهم، وقبض عليهم، حتى لا يستغلوا الفرصة للقيام بما قام به الجند السودان[1].

وهكذا نجح صلاح الدين في تصفية جيوب المقاومة والخيانة الداخلية التي وقفت حائلاً دون تنفيذ مشاريعه، فتفرغ لمواجهة الزحف النصراني الذي كان قد بدأ على مصر، وهو مطمئن.

حصار دمياط ـ فشل الحملة

خرج الجيش الصليبي من عسقلان في (شهر محرم عام ٥٦٥هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٦٩م)، واتخذ طريقه إلى مصر عن طريق الفرما، فوصل إلى بحيرة تنيس حيث كان الأسطول البيزنطي بانتظاره.

ومضت الحملة والأسطول بمحاذاة الشاطىء إلى مدينة لم تكن في خلد صلاح الدين، تلك هي دمياط، فوصلا إليها في (الأول من صفر/ ٢٥ تشرين الثاني)، وعسكرت القوات البرية في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة، لكن الأسطول لم يتمكَّن من التوغل في النيل بسبب وجود السلسلة الحديدية التي تمتد من دمياط إلى برج السلسلة، وبالتالي لم يكن بوسع أفراده أن يمضوا إلى دمياط ليمنعوا ما يرد إليها من القاهرة من عساكر ومؤن عن طريق فرع النيل[2].

وما إن علم صلاح الدين بوصول القوات المتحالفة إلى دمياط، حتى أرسل إليها الرجال والسلاح والمؤن بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر، وخاله شهاب الدين الحارمي، كما أرسل عدداً من السفن اتخذت طريقها نحو الشمال في فرع دمياط لنجدة المدينة، وبعث في الوقت نفسه رسالة إلى نور الدين محمود في دمشق يخبره بما حدث، ويلتمس منه المساعدة، فسيَّر إليه نور الدين محمود العساكر تباعاً، كما قام بالإغارة على معاقل الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف الضغط عن دمياط جرياً على عادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي[3].

ومع كل هذه الاستعدادات النصرانية، فإن القوات المتحالفة تريَّثت في شنِّ

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٤.

(٢) عمران: ص ١٦٣ ـ ١٦٤، ١٦٧. Grousset: II. p. 544.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٥٠. ابن شداد: ص ٨٣.

هجومها مدة ثلاثة أيام[1] مما أثّر سلباً على الحملة حيث ستظهر آثارها فيما بعد، لأن المدينة قد امتلأت بالرجال والمؤن وآلات والحرب في الوقت الذي أخذت فيه مؤن البيزنطيين بالتناقص لأنها كانت تحمل معها المؤن التي تكفيها لمدة ثلاثة أشهر منذ أن أبحرت من مضيق الدردنيل في منتصف شهر تموز، ولم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تمد القوات البيزنطية بالأقوات اللازمة بعد التخريب الذي لحق بها من جراء غارات رينولد شاتيون، والتدمير الذي أصابها من جراء زلزال عام (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) كما لم تستطع الحصول على المؤن اللازمة من ميناء عكا، وبذلك أوشكت مؤن هذه القوات على النفاد[2].

نتيجة لذلك، حثَّ القائد البيزنطي كونتوستيفانوس على اتخاذ إجراء سريع لكن عموري الأول، الذي ارتاع لما شاهده من الاستحكامات الضخمة للمدينة وسرعة التدابير المتخذة لشحنها بالجند والمؤن؛ أبطأ في اتخاذ قرار بالهجوم الفوري وأراد أن يشيد أبراجاً للحصار، وبذلك ضاع أمل المتحالفين في الاستيلاء على دمياط بسهولة، وكان عليهم بذل جهد أكبر حتى يتمكّنوا من اقتحامها[3]، لذلك قاموا بإعداد برج خشبي ضخم مكوَّن من سبعة طوابق حتى يتمكَّنوا من مشاهدة ما يجري داخل المدينة من أعلاه[4].

لم تقف القوات الإسلامية المدافعة عن المدينة مكتوفة الأيدي تجاه محاولات القوات المتحالفة لاقتحامها، فقامت بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي، وشحنه المسلمون بالعساكر لمقاومة الجهود النصرانية بالفكرة نفسها، كما ردَّت هذه القوات على اعتداءات المهاجمين بعنف، وأبدى أفرادها تفوقاً ملحوظاً، في الوقت الذي انهارت فيه الروح المعنوية للمتحالفين، وأصبحوا لا يلتزمون بجدِّية القتال[5].

أما الأسطول البيزنطي، فلم يتمكَّن من الدخول في فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدينة، وبذلك أصبح عاجزاً عن تقديم المساعدة العسكرية المطلوبة للقوات الصليبية البرية[6]. وتوالت الاجتماعات بين القيادتين الصليبية والبيزنطية بشأن مناقشة القيام بهجوم عام على جميع الأسوار.

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤١.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٥. عمران: ص ١٦٦. (٣) عمران: المرجع نفسه ص ١٦٥.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤١. (٥) المصدر نفسه: ص ٩٤١ ـ ٩٤٢.

(٦) عمران: ص ١٦٦.

وبينما أيّد كونتوستيفانوس هذه الفكرة، أحجم عموري الأول، لأن مثل هذه المغامرة تنطوي برأيه على خطر شديد. وساور القادة الصليبيون الشك في أن اندفاع كونتوستيفانوس مردُّه إلى رغبته في أن تكون دمياط من نصيب الأمبراطور في الغنائم. وما لبثت أن نفدت أقوات البيزنطيين تماماً، ولم تجد القوات البيزنطية ما تأكله سوى ثمار النخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار نفدت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام، وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعاً في الوقت الذي توافرت فيه المؤن في المعسكر الصليبي، لكن هذه القوات ضنَّت على القوات البيزنطية، لأن الصليبيين كانوا يخشون من طول مدة القتال فيتعرضون للمجاعة[1].

وزاد من سوء الوضع العسكري أن هبَّت رياح شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة، أغرقت المعسكر الصليبي وحوَّلته إلى مستنقع، فاستغل المسلمون هبوب هذه الرياح الجنوبية فأنزلوا سفينة نفَّاطة بين قطع الأسطول البيزنطي المكدَّس في النيل شمالي دمياط، فأنزلت به خسائر فادحة على الرغم من تدخل عموري الأول لمنع استفحال الضرر، حيث حاول إيقاظ البحارة الذين عملوا على فصل السفن وإبعادها عن بعضها[2]. وبدأ شبح الهزيمة يحوم حول القوات المتحالفة وتجلّى آنذاك فشل الحملة.

وعندما لاحظ المسلمون الحالة السيئة التي تعاني منها القوات المتحالفة، شعروا بالثقة، وتحولوا للهجوم على القوات البيزنطية التي انهارت قواها، ولم يعدْ لها القدرة على الحرب، في الوقت الذي تراخت فيه القوات الصليبية في الدفاع عن المعسكر البيزنطي[3]. وتوافر لدمياط وقتئذٍ الرجال المدافعون والمؤن، كما أن جيشاً إسلامياً من بلاد الشام أخذ يقترب من مصر. وشعر عموري الأول أن انتظاره قد طال أمام دمياط دون جدوى في الوقت الذي أخذ فيه نور الدين محمود يهاجم أملاكه في بلاد الشام[4].

وبدأت القوات المتحالفة تشعر بضرورة العودة إلى بلادها حتى لا يهلكوا جوعاً أو قتلاً، لذلك بدأ التفكير في عقد الهدنة مع المسلمين. وليس محققاً ما إذا

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤٣ ـ ٩٤٤. عمران: ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٤٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٩٤٤ ـ ٩٤٥.

(٤) المصدر نفسه.

كان عموري الأول، أو كونتوستيفانوس، هو الذي بدأ المفاوضات مع المسلمين، وليس معروفاً ما تمَّ عليه الاتفاق من شروط[1]. والراجح أن عموري الأول كان هو البادىء بالمفاوضات ليقطع الطريق على تقارب إسلامي - بيزنطي محتمل، وليستطيع العودة إلى بلاده سريعاً بعد تفاقم الوضع نتيجة هجمات نور الدين محمود[2]. ومن الثابت أن عموري الأول كان يأمل في إظهار الصداقة لصلاح الدين ليبعده عن نور الدين محمود[3].

وعادت القوات المتحالفة إلى بلادها عن طريق عسقلان في (٢٨ ربيع الأول ٥٦٥هـ/ ٢١ كانون الأول ١١٦٩م)، أي بعد أن مكثت أمام دمياط أكثر من خمسين يوماً دون أن تحقق شيئاً من أهدافها. وجرى حرق كل أدوات الحصار حتى لا تقع في أيدي المسلمين، على حد قول المؤرخ ابن الأثير، الذي تهكم على هذا الفشل حين شبَّه الحملة في خذلانها بالمثل القائل «خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين»[4].

أسباب فشل الحملة على دمياط[5]

يعود فشل الحملة الصليبية - البيزنطية على دمياط إلى أربعة عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

ففيما يتعلق **بالجانب الإسلامي** يمكن رصد العوامل التالية:

- صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.
- سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصَرين.
- التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.
- القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق.
- موقف نور الدين محمود الداعم، وإرساله المساعدات تباعاً إلى مصر وقيامه بالضغط العسكري على الصليبيين في بلاد الشام.
- استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم. فقد استغلوا فرصة معاناة

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٦.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٣٥١.
(٥) راجع: عمران، سعيد محمود: محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط ص ١٦٩ - ١٧٣.

البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم، جاء فعّالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حرَّاقة.

وأما فيما يتعلق **بالجانب الصليبي**، فيمكن ملاحظة العوامل التالية:

- لقد أخَّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد(١).
- إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن، عندما تعرَّضت للجوع، مما أدَّى إلى تراجع نشاطها العسكري.
- إحجام القوات الصليبية عن مساعدة القوات البيزنطية، عندما تعرَّضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج.

وأما فيما يتعلق **بالجانب البيزنطي** فيمكن تدوين العوامل التالية:

- عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً، وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.
- اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.
- افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهَّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.
- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أثناء العمليات العسكرية.
- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

وهناك أسباب مشتركة تتعلق **بالجانبين الصليبي والبيزنطي**، منها:

- سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرَّضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها، وللعواصف التي كانت تُبعد قطع الأسطول عن الشاطىء.
- سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي ميل واحد، فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً، حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤١.

- أدَّى سوء اختيار المكان أن أضحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.
- عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسبَّب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة.

نتائج الحملة على دمياط

- يُعد فشل الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على دمياط نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين وإخراجهم من المنطقة.
- يُعد فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، أيضاً، في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكِّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية، المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الجميع[١].
- بات المسلمون يهدِّدون، بشكل خطر، الإمارات الصليبية، بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين.
- إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية، فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكَّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة، حيث تطلع العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الذين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي، وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية، وأضحى سيد مصر دون منازع.

(١) زيادة، محمد مصطفى: الدولة الأيوبية ص ٤٦١، مقالة في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، القاهرة.

سياسة صلاح الدين العامة في مصر

التمهيد للتغيير المذهبي

عندما استقر صلاح الدين في منصب الوزارة في مصر شرع في اتخاذ موقف استقلالي عن نور الدين محمود، والواضح أنه كان يُعِدُّ نفسه لإحداث تغيير جذري وشامل داخل مصر في كافة مجالات الحياة.

كانت مهمته هي التصدِّي للمشكلات التي أثارها مركزه في مصر. فالتناقض الظاهر من وجود وزير سنِّي لدى خليفة فاطمي لم يكن بالوضع الجديد، لأنه طيلة قرن تقريباً كان هناك وزراء سنيُّون على مراحل متقطعة في مصر، لكن حركة الجهاد الإسلامي التي قادها نور الدين محمود تحت راية دولة الخلافة العباسية، بالإضافة إلى قيام وحدة فعَّالة بين بلاد الشام ومصر، تقف في وجه الصليبيين، حتَّمت على نور الدين محمود، وبالتالي صلاح الدين، الالتزام في إعادة مصر إلى حظيرة الولاء للعباسيين[١]، لكن الضرورة دعته إلى تمهيد السبيل أمام التغيير، رغم إلحاح نور الدين محمود وعتاب الخليفة العباسي، لأنه أدرك أن التغيير السريع لا بد أن يولد ردَّة فعل فورية معاكسة لا يمكن تدارك نتائجها.

وضمنت الخطوات التمهيدية والعسكرية والاقتصادية والدينية التي نفَّذها، إحكام قبضته على البلاد، بحيث إذا أقدم على إسقاط الدولة الفاطمية «فلا ينتطح عنزان».

فمن حيث التدابير العسكرية؛ فقد كمن الخطر الرئيسي في الجيش المصري المؤلف من فرق عديدة من الفرسان البيض والمشاة من السودان. فبدأ صلاح الدين على الفور ببناء جيشه الخاص على حساب الضباط المصريين، فكانت الفرقة الصلاحية، وانضمت إليه الفرقة الأسدية التي أنشأها أسد الدين شيركوه، كما استعان بالمماليك الأتراك، لأنه وجد نفسه بأمس الحاجة إلى من يشد أزره، وينصره على أعدائه عندما تشتد الأزمة. وعندما اندلعت ثورة السودان كان قد أصبح لديه من القوات النظامية ما يكفي للقضاء على القسم الأكبر منهم، وطرْدهم خارج القاهرة إلى الصعيد[٢]. إلى جانب هذه القوات النظامية، استفاد صلاح الدين من نظام الإقطاع العسكري الذي أخذه عن الزنكيين، وطبَّقه في مصر، فكانت البلاد توزع إقطاعات بين السلطان وجنده. ومن خصائص هذا الإقطاع الأيوبي أنه يجيز أن ينتقل الإقطاع من مقطع إلى آخر دون الأخذ بالمبدأ الوراثي، حيث كان لزاماً على المقطَع

---

(١) سيد: ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

(٢) Ehrenkreutz: pp. 73 - 74.

عدة التزامات مقابل الموارد التي يحصِّلها من الإقطاع ومعظمها التزامات عسكرية، مثل تقديم الجند وقت الحرب، والإنفاق عليهم[(١)].

ومن حيث التدابير الاقتصادية، فقد استقدم صلاح الدين والده وإخوته للتعويض عن الفراغ الذي تركته تنحية الأشخاص الموالين للدولة الفاطمية، فعيَّن والده على الخزانة مما أتاح له السيطرة على موارد الدولة[(٢)].

والتفت صلاح الدين إلى إصلاح النظام الاقتصادي ليكسب محبة المصريين، فأبطل المكوس الديوانية التي كانت الدولة تجبي منها سنوياً مائتي ألف دينار، فمال المصريون إليه، وأطلق حرية التجارة[(٣)].

ومن حيث التدابير الدينية فقد نفَّذ صلاح الدين منذ (أواخر عام ٥٦٥هـ/ صيف عام ١١٧٠م) عدة إجراءات أدَّت إلى إضعاف المؤسسة الفاطمية، والمذهب الشيعي الإسماعيلي من جهة وتقوية المذهب السنِّي في مصر من جهة أخرى.

فأبطل في (العاشر من شهر ذي الحجة/ أواخر شهر آب) من الأذان «حي على خير العمل»، وأمر بأن يُذكر في خطبة الجمعة أسماء الخلفاء الراشدين، ونزع المناطق الفضية، التي كانت بمحاريب مساجد القاهرة والتي تحمل أسماء الأئمة الفاطميين، وأثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين[(٤)].

وأمر في (شهر محرم عام ٥٦٦هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٠م) بهدم دار المعونة[(٥)] المجاورة للجامع العتيق في مصر، وأعاد بناءها كمدرسة خصَّصها للشافعية، كما بنى دار الغزل المجاورة لباب الجامع العتيق وخصَّصها للمالكية، وقد عُرفت بالمدرسة القمحية[(٦)]، وحوَّل دار سعيد السعداء الواقعة شمالي القصر الفاطمي الشرقي، إلى خانقاه للصوفية، وهي أول خانقاه تنشأ في مصر، وأبطل مجالس الدعوة من القصر والجامع الأزهر[(٧)].

استتبع التغيير المذهبي، تغييرَ في رجال القضاء؛ فعزل جميع القضاة الشيعة

---

(١) خليل، فؤاد: الإقطاع الشرقي ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

(٢) ابن شداد: ص ٨٥. المقريزي: خطط جـ ٣ ص ٤٠٥. Ehrenkreutz: pp. 73 - 75.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢. أبو شامة: جـ ١ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

(٤) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٨٨. المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٣، ٤٥.

(٥) كان في مصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يُسجن فيها من يراد سجنه.

(٦) البنداري: ص ١٠٧.

(٧) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٤١٥ ـ ٤١٦. اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٢٠.

الإسماعيليين، وفوَّض قضاء مصر إلى القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني الشافعي، فاشتهر منذ ذلك الوقت، المذهب الشافعي في مصر[١]. ومن أشهر مظاهر تحول مصر إلى المذهب السنِّي، نشر المذهب الأشعري، فقد كان صلاح الدين يتعصب لهذا المذهب متأثراً بالسلاجقة.

وبهذه الإجراءات ذات الطابع الديني، ضمن صلاح الدين سيطرته على النواحي الدينية، كما ضمن مراسلات الدولة بعد أن عيَّن القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء[٢].

وهكذا توضحت أهداف صلاح الدين مع نهاية عام (٥٦٦هـ/ ١١٧١م)؛ فهو بحكم عقيدته السنيَّة التي كان يعتنقها، أو بدافع حبه في السيطرة والاستغلال، كان يرغب في إسقاط الدولة الفاطمية في مصر، ليكوِّن لنفسه ولأسرته دولة فيها، ومن خلال هذه المنطلقات تحددت علاقته بنور الدين محمود.

إقامة الخطبة للعباسيين

الحقيقة أن صلاح الدين الذي توضَّحت نيته في إحداث تغيير مذهبي في مصر راح يتمهَّل في التنفيذ لسببين:

الأول: أن التغيير السريع قد يؤثر على مصالحه ومصالح أسرته في الوقت الذي حرص فيه على تجنب إراقة الدماء، وكان العاضد لا يمتلك من القوة ما يمكِّنه من التخلص من الوضع الجديد.

الثاني: أنه خشي الانصياع لطلب نور الدين محمود في قطع الخطبة للفاطميين فوراً، لأن ذلك قد يدفعه إلى انتزاع مصر منه، فاعتذر له بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاستجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين[٣]. إذ أنَّ المؤثرات الشيعية كانت قوية في مصر في ظل الحكم الفاطمي، الذي استمر قرنين من الزمان، يضاف إلى ذلك أنه على الرغم من أن صلاح الدين عدَّ نور الدين محمود سيداً له، فإنه استمدَّ سلطته من الإمام الفاطمي.

والواقع أن نور الدين محمود الذي رأى في صلاح الدين كنائب عنه في مصر، كان متلهفاً إلى تحقيق وحدة المذهب الإسلامي بين بلاد الشام ومصر، بالإضافة إلى

---

(١) البنداري: ص ١٠٧ ـ ١٠٨. ابن الجوزي المعروف بالسبط: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.
(٢) القلقشندي: جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١.
(٣) ابن الأثير: الباهر ص ١٥٦.

تطلعاته السياسية بضمِّ مصر إلى بلاد الشام لتحقيق الوحدة الإسلامية، والاستفادة من إمكانات مصر الاقتصادية والبشرية في جهاده ضد الصليبيين، وأنه متى أراد سحب صلاح الدين لا يمتنع عليه.

إنطلاقاً من اختلاف النظرة السياسية بين الرجلين، رفض نور الدين محمود حجة صلاح الدين، وأرسل إليه إنذاراً نهائياً في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٦هـ/ شهر آب عام ١١٧١م) يأمره بإسقاط الخطبة للإمام الفاطمي العاضد، وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته[١].

وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين أمرين:

الأول: الوقوع في أزمة مع نور الدين محمود.

الثاني: التعرض لخطر ثورة الشيعة في مصر.

ويبدو أنه وجد الأمر الثاني أخف وطأة، لأن غالبية السكان في مصر لم تعتنق المذهب الشيعي، باستثناء فئة قليلة العدد نسبياً ممثلة في الأقليات الأجنبية التي دخلت مع الفاطميين، أو استعانوا بهم طوال مدة حكمهم من أجل تحقيق سياستهم، وما زالت نسبة كبيرة من أهل مصر ترفض التشيع، في حين أن الدولة الفاطمية قد ضعفت ولم يعد لديها القدرة على التحرك بعد القضاء على الجند السودان[٢].

وجاءت الخطوة الحاسمة في (السابع من شهر محرم عام ٥٦٧هـ/ العاشر من شهر أيلول عام ١١٧١م)، عندما قطع صلاح الدين الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي وأقامها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وأعاد السواد شعار العباسيين[٣].

وقد تمَّ هذا التحول في هدوء «دون أن ينتطح فيها عنزان»[٤]. وبذلك أعيدت الوحدة المذهبية في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، والوحدة السياسية بين مصر وبلاد الشام، وتسلم صلاح الدين القصر الفاطمي، وقبض على أولاد العاضد، وحدَّد إقامتهم في القصر بعدما أجرى عليهم ما يموِّنهم[٥]. وكان العاضد أثناء ذلك مريضاً، فلم يشأ صلاح الدين إزعاجه، فأمر رجاله بألا ينهوا إليه بالأنباء وقال: «فإن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته»[٦].

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٣٦٥.
(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٧٢٣.
(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦٥.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٥٦.

نهاية الدولة الفاطمية

ولم تكد تمضي أيام على قطع الخطبة للفاطميين حتى توفي العاضد (ليلة العاشر من محرم/ الثالث عشر من أيلول)، فأمر صلاح الدين بإرسال الكتب إلى البلاد تعلن عن وفاته، وإقامة الخطبة رسمياً للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[1].

وبذلك وضع صلاح الدين نهاية للدولة الفاطمية في مصر لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخها، عادت فيها هذه البلاد، إلى العالم الإسلامي السنِّي، ولتؤدي تحت قيادة الأيوبيين دوراً هاماً في توحيد الجبهة الإسلامية، ومواجهة الخطر الصليبي، وانتهى دور الدولة الفاطمية السياسي في التاريخ.

---

(١) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٦٥. ابن شداد ص ٨٦. البنداري: ص ١١١.

الخاتمة

إن تاريخ الفاطميين كان باهتاً إلى عهد قريب جداً. فقد كانت معظم الدراسات التاريخية لا تُستقى من منابعها أو أن مصادرها لا تزال مخطوطة أو غير متوافرة أو مضطربة أو مختصرة، فضلاً عن أن معظمه مصادر أدبية لا تعطي صورة مفصلة وواضحة عنه. والجدير بالذكر أن قلَّة الوثائق تحكم دوماً وأبداً، بالفشل على كل محاولة لإقامة دراسة متماسكة. ولا شك بأن بعض الدراسات التي أُجريت منذ عهد قريب، لا سيما خلال السنوات الأخيرة، قد كان لها الفضل في تبديد بعض الظلام الذي أحاط بهذا التاريخ، وبفضل ما حصلنا عليه من وثائق أو مخطوطات منشورة تمكَّنا من أن نكوِّن تاريخاً هو أقرب إلى الصحة والواقع. والمعروف أن تاريخ الفاطميين ينقسم إلى قسمين أساسيين: القسم الإفريقي والقسم المصري ـ الشرقي. وقد أمدتنا المصادر الفاطمية المعاصرة للأحداث، مثل مؤلفات القاضي النعمان وسيرة جوذر، بمعلومات دقيقة عن القسم الأول. ولا شك بأن القاضي النعمان هو رجل قانون يتحاشى، من حيث المبدأ، تشويه الحقيقة التاريخية، ويمكن أن يميل إلى تحريفها، لكنه سيحرص في النهاية على عدم تزييف الواقع، وبناءً على ذلك يُحتمل أن تكون المعلومات التي يقدمها صحيحة، ومع ذلك فإنا حرصنا، أثناء تدوين التاريخ الفاطمي في مرحلته الإفريقية، أن نُجري مقابلة بين أطروحاته والمصادر السنيَّة التي تتخذ موقفاً معادياً للفاطميين. كما غَلب على تاريخ القسم المصري ـ الشرقي المعلومات المستقاة من المصادر ذات الاتجاه السنِّي، وقد حرصنا أيضاً على إجراء المقابلة بين المصادر المتناقضة، حتى تنجلي الحقيقة التاريخية ولا نُتهم بالنظر بعين واحدة.

إن الموقف المعادي أو المؤيد الذي اتخذته بعض الدراسات الحديثة التي أجريت على عجل، والتي تدَّعي أنها علمية؛ يبدو الانحياز عليها واضحاً، إذ أنها اعتمدت على المصادر التي تخدم هدفها، كما أن التاريخ الإسلامي العام يتمثل دائماً في كونه تاريخ الإسلام السنِّي بصورة شبه مطلقة، وهذه ظاهرة تغري الباحثين بالنهل من مصادره دون العودة إلى المصادر المقابلة على قلَّتها.

إن تأسيس الدولة الفاطمية في إفريقية، لم يكن مجرد تغيير في النظم المذهبية

والسياسية أو الأسر الحاكمة، إذ أضحت هذه البلاد مقر إمامة مذهبية خاصة ودولة سياسية شيعية، وضعت حداً للوصاية الشرقية المباشرة، إذ لم تعد البلاد محكومة باسم دمشق أو بغداد. وأتاح انهيار الدولة الأغلبية، للدولة الجديدة الناشئة أن تبسط سيطرتها على شمال إفريقية باستثناء بعض الجيوب في المغرب الأقصى، وتهيمن على جزيرة صقلية، ولتمتد نظرياً، بعد ذلك، إلى المشرق الإسلامي في خطوة لا مفر منها للقضاء على العباسيين المغتصبين للسلطة من آل البيت استناداً للتعاليم الإسماعيلية، بالإضافة إلى جهاد النصارى أعداء الدين. وتنطوي هذه النزعة على سياسة توسعية صريحة دفعت الفاطميين للاستيلاء على مصر والعبور منها إلى الشرق والانتشار في ربوع بلاد الشام والتطلع نحو العراق. إنها لمغامرة كبرى فعلاً ولكنها محاولة ضخمة، تفوق الوسائل المتوفرة في الدولة الإفريقية، وسيعهد بالقيام بهذه المهمة إلى البربر الكتاميين من أهل جبال القبائل الصغرى.

وتحقَّق الاستيلاء على مصر في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م)، وانطلقت الجيوش الفاطمية باتجاه بلاد الشام، وسيطرت عليه لمدة قصيرة، لكن آمال الفاطميين تحطمت في هذه البلاد التي كانت ستستخدم قاعدة انطلاق للهجوم النهائي على عاصمة الخلافة العباسية لتضع حداً لحكم العباسيين والبويهيين. إذ أن السيطرة على بلاد الشام استغرقت وقتاً طويلاً، ولم تخلص لهم هذه البلاد التي قامت فيها الثورات باستمرار ضد الوجود الفاطمي، وقنع الفاطميون، في النهاية، أن يتقاسموا نفوذهم مع البيزنطيين. وإذا استثنينا محاولة البساسيري وداعي الدعاة هبة الله الشيرازي، فإن فكرة مواجهة العباسيين والقضاء عليهم والحلول محلهم، قد ظلت في إطار الهدف، وأدى ذلك إلى تبنِّي سياسة شرقية جديدة تقضي بالتحول نحو جنوب وشرق الجزيرة العربية. وعمل الفاطميون على نشر دعوتهم على طول طرق التجارة الشرقية التي تخلَّى عنها العباسيون.

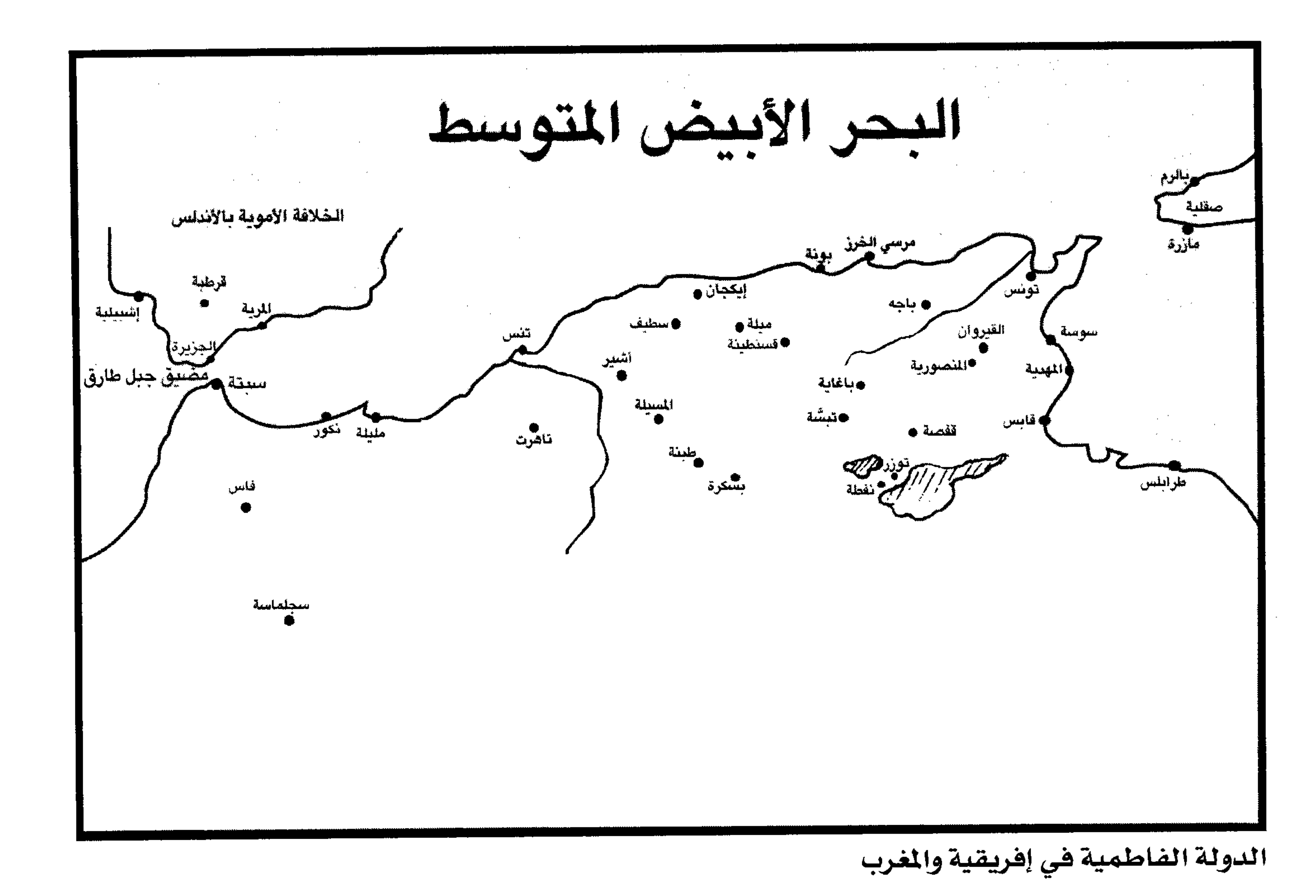
نتج عن تركيز الفاطميين على الجانب الشرقي، إلى فقدانهم ممتلكاتهم في إفريقية وصقلية، كما لم يلبثوا أن فقدوا ممتلكاتهم في بلاد الشام أمام ضغط السلاجقة والصليبيين، وانحصروا داخل مصر التي لم تلبث أن سقطت في أيدي أتابكة دمشق الزنكيين بعد صراع مع الصليبيين لامتلاكها.

ويبقى أن نذكر أن التاريخ الفاطمي، على الرغم مما اعتراه من زلَّات، يُعدُّ جزءاً من التاريخ الإسلامي العام.

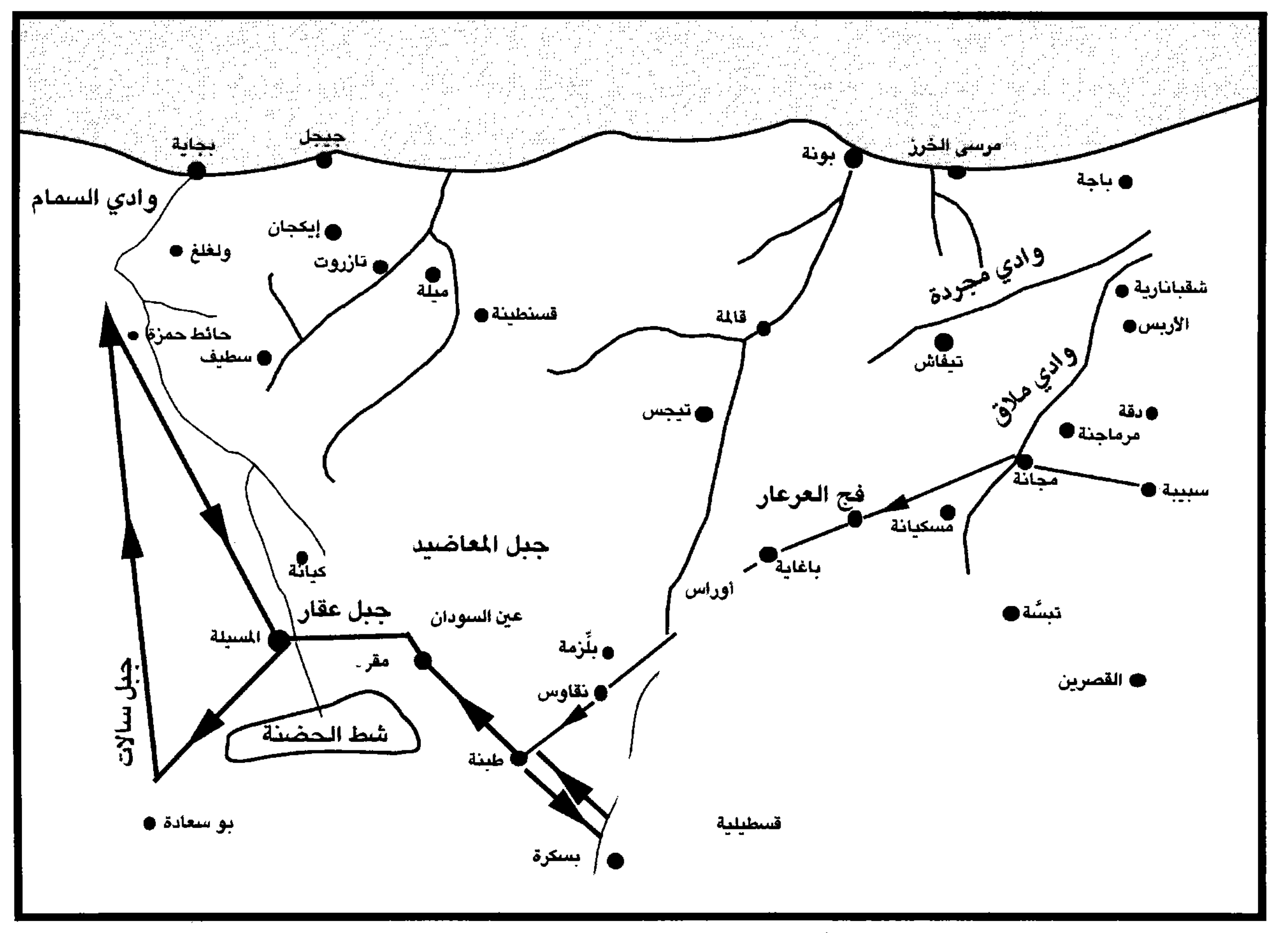
أسماء الحكام الفاطميين

ومدة حكم كل منهم

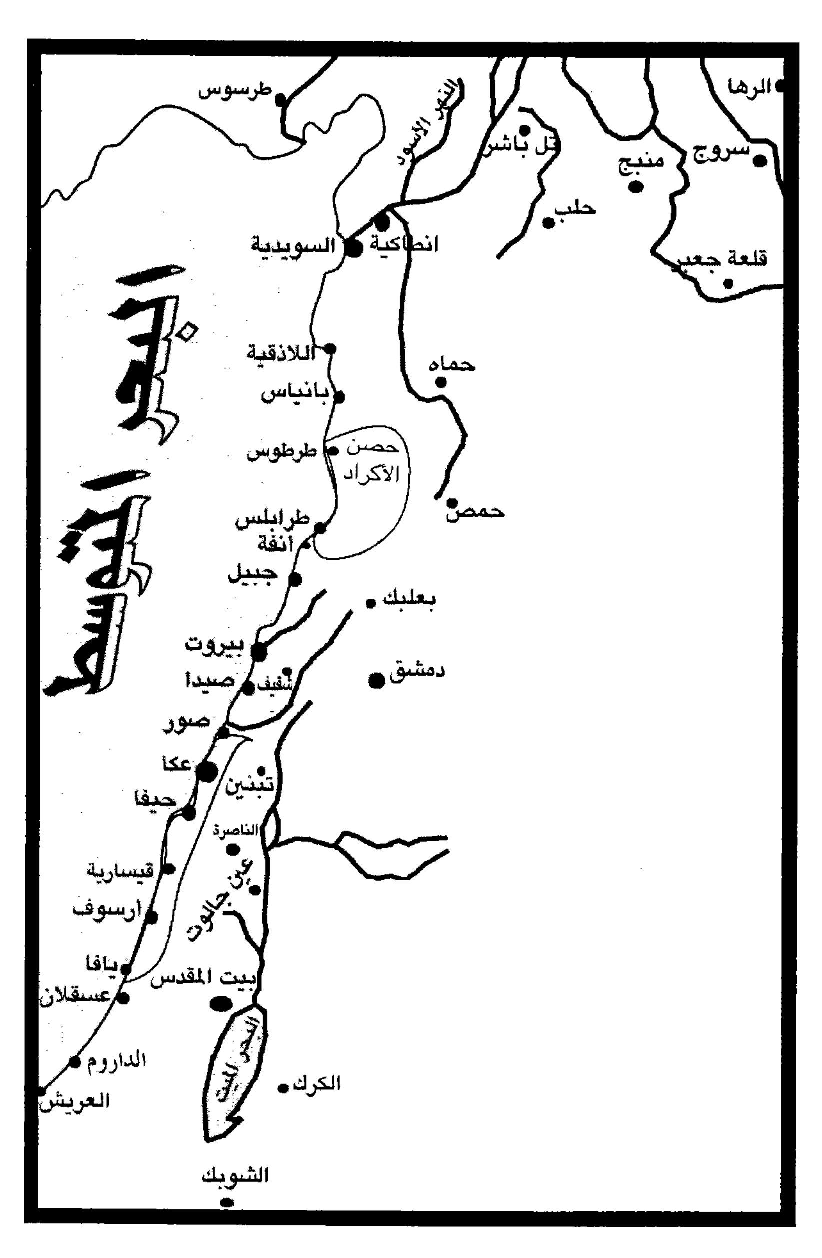
عبيد الله المهدي	(٢٩٧ - ٣٢٢هـ/ ٩١٠ - ٩٣٤م)
أبو القاسم محمد، القائم بأمر الله	(٣٢٢ - ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٦م)
أبو طاهر إسماعيل، المنصور بنصر الله	(٣٣٤ - ٣٤١هـ/ ٩٤٦ - ٩٥٣م)
أبو تميم معد، المعز لدين الله	(٣٤١ - ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ - ٩٧٥م)
أبو منصور نزار، العزيز بالله	(٣٦٥ - ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م)
أبو علي منصور، الحاكم بأمر الله	(٣٨٦ - ٤١١هـ/ ٩٩٦ - ١٠٢١م)
أبو الحسن علي، الظاهر لإعزاز دين الله	(٤١١ - ٤٢٧هـ/ ١٠٢١ - ١٠٣٦م)
أبو تميم معد، المستنصر بالله	(٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ - ١٠٩٤م)
أبو القاسم أحمد، المستعلي بالله	(٤٨٧ - ٤٩٥هـ/ ١٠٩٤ - ١١٠١م)
أبو علي المنصور، الآمر بأحكام الله	(٤٩٥ - ٥٢٤هـ/ ١١٠١ - ١١٣٠م)
أبو الميمون عبد المجيد، الحافظ لدين الله	(٥٢٦ - ٥٤٤هـ/ ١١٣١ - ١١٤٩م)
أبو المنصور إسماعيل، الظافر بالله	(٥٤٤ - ٥٤٩هـ/ ١١٤٩ - ١١٥٤م)
أبو القاسم عيسى، الفائز بنصر الله	(٥٤٩ - ٥٥٥هـ/ ١١٥٤ - ١١٦٠م)
أبو محمد عبد الله، العاضد لدين الله	(٥٥٥ - ٥٦٧هـ/ ١١٦٠ - ١١٧١م)



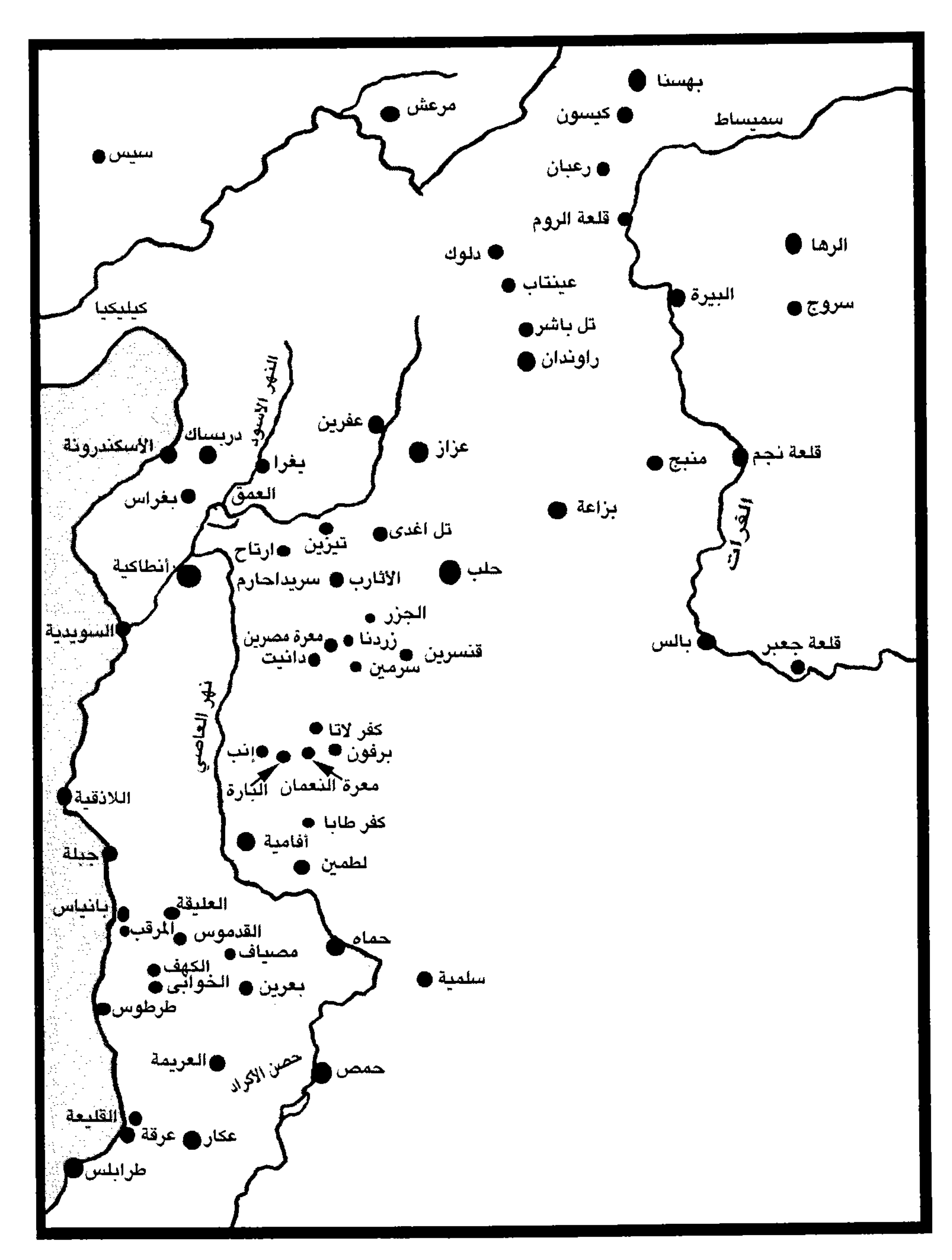
الدولة الفاطمية في إفريقية والمغرب



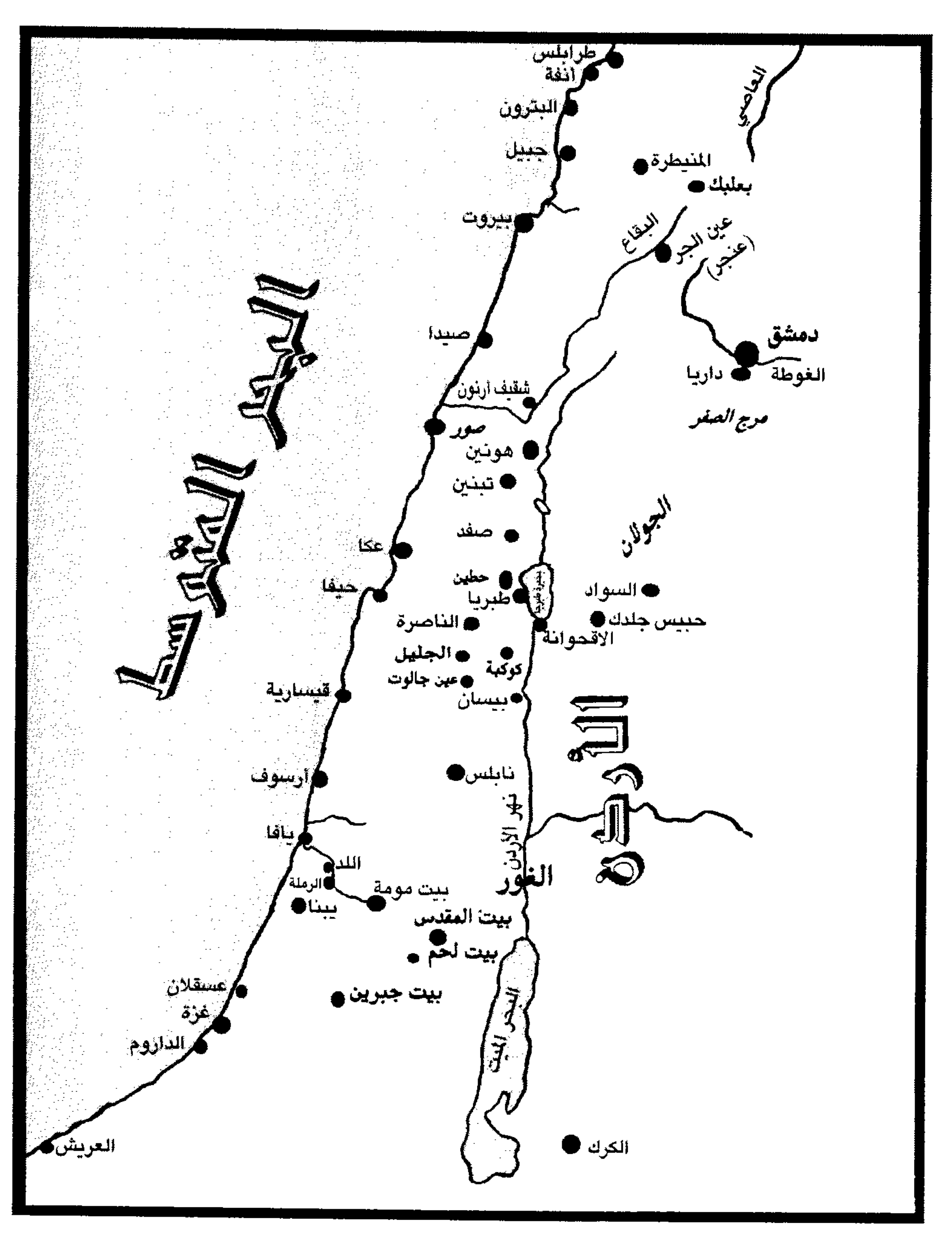
مطاردة المنصور لأبي يزيد في المغرب الأوسط



ساحل بلاد الشام



القسم الشمالي من بلاد الشام



القسم الجنوبي من بلاد الشام

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

ـ ابن الأثير أبو الحسن علي... المعروف بابن الأثير الجزري:

- **الكامل في التاريخ**: تحقيق عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**: تحقيق: عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ومكتبة المثنى ببغداد، بدون تاريخ.

ـ الإدريسي:

- **وصف إفريقية الشمالية والصحراوية، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.** تحقيق هنري بيريس، الجزائر، ١٩٥٧م.

ـ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين:

- **مقاتل الطالبيين**: تحقيق أحمد صقر. منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م.

ـ الأنطاكي، يحيى بن سعيد:

- **تاريخ الأنطاكي (صلة تاريخ أوتيخا)**: تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٨٩م.

ـ ابن أيبك الدواداري، أبو بكر عبد الله:

- **كنز الدرر وجامع الغرر**. الجزء السادس المسمى: **الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**: تحقيق: صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للآثار، ١٩٦١م.

ـ البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد:
- **الفرق بين الفرق**: تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبح، القاهرة.

ـ البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز:
- **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**: باريس، ١٩١١م.
- **المسالك والممالك، جغرافية مصر**: الجزائر، ١٩١١م، وطبعة ثانية ١٩١٣م.

ـ البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر:
- **فتوح البلدان**: تحيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

ـ البنداري، قوام الدين الفتح بن علي:
- **سنا البرق الشامي**، وهو مختصر **البرق الشامي** للعماد الأصفهاني: تحقيق: رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ١، ١٩٧١م.
- **تاريخ دولة آل سلجوق**: دار الآفاق الجديدة: بيروت: ط ٣، ١٩٨٠م.

ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

ـ توديبو، بطرس:
- **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**: ترجمة وتعليق حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٩٨م.

ـ الجزيري، زين الدين عبد القادر محمد:
- **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**: تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ط ١.

ـ الجوذري، أبو علي منصور العزيزي:
- **سيرة الأستاذ جوذر**: تحقيق: محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

ـ ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي التركي المعروف بالسبط:
- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**: الجزء الثامن، دائرة المعارف الإسلامية، الهند، بدون تاريخ.

ـ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد:

- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**: دار المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، ١٣٥٧هـ.

ـ الجويني، عطا ملك:

- **تاريخ قاهر العالم (جهانكشاي)** ترجمة محمد السعيد جمال الدين في كتابه **دولة الإسماعيلية في إيران**: الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٩م.

ـ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي:

- **جمهرة أنساب العرب**: تحقيق: عبد السلام هارون: القاهرة: دار المعارف: ١٩٧٧م.

- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: تحقيق. أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.

ـ الحسيني، صدر الدين بن علي:

- **أخبار الدولة السلجوقية**: باعتناء عباس إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٤م.

ـ الحمادي، محمد بن مالك اليماني:

- **كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة**: مطبعة الأنوار، ١٩٣٩م.

ـ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:

- **معجم البلدان**: دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

ـ ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي:

- **صورة الأرض**: دار الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.

ـ الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي:

- **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**: جـ ٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد:

- **أعمال الأعلام ـ القسم الثالث**: تحقيق: أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكناني، الدار البيضاء، ١٩٦٤م.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن محمد:

- **تاريخ ابن خلدون**، المسمى **بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**: مؤسسة جمّال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

ـ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر:
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨ـ ١٩٧١م.

ـ داعية إسماعيلي قديم:
- **نصوص من كتاب التراتيب**: تحقيق: سهيل زكار في كتابه **الجامع في أخبار القرامطة**.

ـ الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري:
- **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**: تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٨م.

ـ ابن أبي دينار، أبو عبد الله الرعيني:
- **في أخبار إفريقية وتونس**: تونس: ١٨٦٩م.

ـ الراوندي، أبو بكر محمد بن علي:
- **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**: تعريب: الشعراوي، الصياد وحنين، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠م.

ـ ابن زولاق، أبو محمد الحسن بن إبراهيم:
- **أخبار سيبويه المصري**. نشر: محمد سعد وحسين الديب، القاهرة، ط ١، ١٩٣٣م.

ـ ساويروس بن المقفع، أسقف الأشمونين:
- **تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية**، المعروف بـ «**سير البيعة المقدسة**»: نشر: يسِّي عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأزولا بومستر وأنطوان ضاهر، القاهرة، جمعية الآثار القبطية، ١٩٥٩ـ ١٩٧٤م.
- **السجلات المستنصرية**: تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة.

ـ ابن سعيد، علي بن موسى المغربي:
- **المغرب في حلى المغرب**: السفر الرابع، القسم الخاص بمصر، تحقيق: زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة، ١٩٥٣م.
- **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة**: تحقيق: حسين نصار، القاهرة، مركز تحقيق التراث، ١٩٧٢م.

ـ السلاوي، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري:
- **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**: الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

ـ السمهودي، نور الدين علي بن عبد الله بن أحمد الحسني:
- **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**: دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ السيوطي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان:
- **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
ـ أبو شجاع، الروذراوري:
- **ذيل تجارب الأمم**. تحقيق، آمدروز القاهرة، ١٩١٦م.
ـ ابن شداد، بهاء الدين:
- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين**: تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٤م.
ـ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي:
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**: تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
ـ الشدياق، طنوس:
- **أخبار الأعيان في جبل لبنان**: بيروت، ١٩٥٤م.
ـ الشهرستاني، محمد عبد الكريم:
- **الملل والنحل**: تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٨م.
ـ الصابىء، ثابت بن سنان بن قرة:
- **تاريخ أخبار القرامطة**: تحقيق: سهيل زكار، في كتابه **الجامع في أخبار القرامطة**، دار حسان، دمشق.
ـ الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب:
- **القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة**: تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية ـ اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٠م.
ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:
- **تاريخ الرسل والملوك**: تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠ م.

ـ ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا:
- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**: دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
ـ ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني:
- **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**: تحقيق: أيمن فؤاد سيد، شتوتغارت، ١٩٩٢م.
ـ ابن ظافر، جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدي:
- **أخبار الدول المنقطعة**: تحقيق: أندريه فرِّيه، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٢م.
ـ ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد القرشي:
- **فتوح مصر والمغرب**: تحقيق: عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١م.
ـ ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل:
- **الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة**: تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م.
ـ ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
- **تاريخ الزمان**: دار الشروق، بيروت، ١٩٨٦م.
ـ ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة:
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب**: تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق - القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م.
ـ ابن عذارى المراكشي:
- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: تحقيق: كولان وليڤي بروڤنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٩٨م.
ـ العرشي، حسين بن أحمد الزيدي:
- **بلوغ المرام في شرح مسك الختام**: نشر: الأب أنستاس الكرملي.
ـ عريب بن سعيد:
- **صلة تاريخ الطبري**: القاهرة.
ـ العظيمي، محمد بن علي:
- **تاريخ حلب**: تحقيق: إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤م.
ـ أبو العلاء المعري:
- **رسالة الغفران**: تحقيق: فوزي عطوي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

ـ عماد الدين، إدريس:
- **عيون الأخبار وفنون الآثار السبع ٤ـ٦**: تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت.
ـ عمارة اليمني، أبو محمد:
- **تاريخ اليمن**: نشر هنري كاسيل.
ـ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد:
- **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**: تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦م.
ـ أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن شاهنشاه أيوب:
- **المختصر في أخبار البشر**: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط ١، ١٩٩٧م.
ـ ابن فهد، عمر بن محمد المكي:
- **نسب الخلفاء الفاطميين**: تقديم: حسين فيض الله الهمذاني، الجامعة الأميركية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**: تحقيق: فهيم شلتوت، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٣م.
ـ فوشيه الشارتري:
- **تاريخ الحملة إلى القدس**: ترجمة: زياد العسلي، دار الشروق، عمان ـ الأردن، ط ١، ١٩٩٠م.
ـ ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي:
- **تاريخ دمشق**: تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٣م.
ـ القلقشندي أحمد بن علي:
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
ـ القمي، أبو القاسم سعد بن عبد الله الأشعري:
- **المقالات والفرق**: تحقيق: محمد مشكور، طهران، ١٩٦٣م.
ـ ابن كثير، الحافظ:
- **البداية والنهاية**: مكتبة المعارف، بيروت، ط ٣، ١٩٧٨م.

ـ الكرماني، أحمد حميد الدين بن عبد الله:
- **الرسالة الواعظة في الرد على الأخرم والفرغاني**: نشر: محمد كامل حسين بمجلة كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول، شهر أيار، عام ١٩٥٢م.
ـ الكندي، محمد بن يوسف:
- **ولاة مصر**: تحقيق: حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩م:
- **كتاب الولاة وكتاب القضاة**: مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.
ـ المسبحي، عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد:
- **أخبار مصر** ـ الجزء الأربعون: تحقيق: وليم ميلورد، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٨٠م.
ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن:
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: دار الأندلس، بيروت.
ـ مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد:
- **تجارب الأمم**: طبعة آمدروز، القاهرة، ١٩١٤ـ ١٩١٩م.
ـ المقدسي، محمد بن أحمد البشاري:
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: نشر: دي خويه، ليدن، نيسان، ١٩٠٦م.
ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:
- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.** ١ـ ٣: الأول: تحقيق جمال الدين الشيال، الثاني والثالث: تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- **إغاثة الأمة بكشف الغمة**: تحقيق: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٧م:
- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**: تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
ـ ابن منقذ، أسامة:
- **كتاب الاعتبار**: تحقيق: قاسم السامرائي، الرياض، دار الأصالة، ١٩٨٧م.
ـ المؤرخ المجهول:
- **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**: ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨م.

ـ مؤلف مجهول:
- **الاستبصار في عجائب الأمصار:** تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.
ـ المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي:
- **سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة:** ترجمة حياته، بقلمه ـ تحقيق: عارف تامر، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.
ـ ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب:
- **أخبار مصر ـ الجزء الثاني:** باعتناء هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩١٩م.
ـ ناصر خسرو:
- **سفرنامه:** ترجمة: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧م.
ـ ابن النديم:
- **الفهرست:** تحقيق: الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤م.
ـ النعمان، القاضي محمد:
- **المجالس والمسايرات:** تحقيق: الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٧م.
- **رسالة افتتاح العدوة:** تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٧٠م.
ـ النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى بن الحسن:
- **فِرق الشيعة:** تحقيق: هيلموت ريتر، إستانبول: ١٩٣١م.
ـ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
- **نهاية الأرب في فنون الأدب:** الجزء ٢٤: تحقيق: حسين نصار، وعبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م. والجزء ٢٨: تحقيق: محمد أمين، ومحمد حلمي محمد أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
ـ ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعي:
- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:** تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ـ ١٩٥٧م.

ـ وليم الصوري:
- **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**: تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.
ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب:
- **كتاب البلدان**: ليدن، ١٨٩٢م.

ب ـ المراجع

ـ أحمد، حسن خضيري:
- **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**: مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١.
ـ تدمري، عمر عبد السلام:
- **لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين**: دار الإيمان، طرابلس - لبنان، ١٩٩٤م.
ـ حبشي، حسن:
- **نور الدين والصليبيون**: دار الفكر العربي، القاهرة.
ـ حسن، إبراهيم حسن:
- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٦٤م.
- **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسوريا، وبلاد العرب**: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٤م.
ـ حسن، إبراهيم حسن، وشرف، طه أحمد:
- **عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب**: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
ـ الحمد، عادلة علي:
- **قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب**: دار المستقبل، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
ـ الخربوطلي، علي حسني:
- **العزيز بالله الفاطمي**: دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.
ـ الخليفة، مي محمد:
- **من سواد الكوفة إلى البحرين، القرامطة من فكرة إلى دولة**: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.

- **دائرة المعارف الإسلامية:** دار المعرفة، بيروت، ومركز الشارقة للإبداع الفكري، ط ١، ١٩٩٨م.
ـ الدجاني، برهان وهادية شكيل:
- **الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى:** مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.
ـ الدشراوي، فرحات:
- **الخلافة الفاطمية بالمغرب:** ترجمة: حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.
ـ دفتري، فرهاد:
- **الإسماعيليون في العصر الوسيط:** ترجمة: سيف الدين القصير، دار المدى، دمشق، ط ١، ١٩٩٩م.
ـ دي غويه، ميكال بان:
- **القرامطة:** ترجمة: حسني زيني، دار ابن خلدون، بيروت، ط ١، ١٩٧٨م.
ـ رنسيمان، ستيفن:
- **تاريخ الحروب الصليبية:** ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة. بيروت، ط ٢، ١٩٨١م.
ـ زكار، سهيل:
- **الجامع في أخبار القرامطة:** دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.
- **إمارة حلب:** دار الكتاب العربي، سوريا.
ـ زيادة، محمد مصطفى:
- **الدولة الأيوبية:** مقالة في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، القاهرة.
ـ سالم، عبد العزيز:
- **المغرب الكبير (العصر الإسلامي):** القاهرة، ١٩٦٦م.
ـ سرور، محمد جمال الدين:
- **الدولة الفاطمية في مصر، سياستها الداخلية، ومظاهر الحضارة في عهدها:** دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م.
- **سياسة الفاطميين الخارجية:** دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٣م.
ـ سيد، أيمن فؤاد:
- **الدولة الفاطمية:** الدار المصرية ـ اللبنانية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢م.

ـ الشيال، جمال الدين:
- **مجموعة الوثائق الفاطمية**: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة، ١٩٥٨م.
ـ صبحي، أحمد محمود:
- **نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩١م.
ـ صبحي، عبد المنعم محمد:
- **العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين**: العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.
ـ الطالبي، محمد:
- **الدولة الأغلبية**: تعريب: المنجي الصيادي: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.
ـ طقوش، محمد سهيل:
- **تاريخ الدولة الأموية**: دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- **تاريخ الدولة العباسية**: دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- **تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام**: دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.
ـ عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- **الحركة الصليبية**: مكتبة الأنجلو مصرية: القاهرة، ط ٢، ١٩٦٣م.
- **شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية**: بحث في كتاب: **بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى**: جامعة بيروت العربية، ١٩٧٧م.
ـ العبادي، أحمد مختار:
- **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**: الإسكندرية، ط ١، ١٩٦٨م.
ـ العريني، السيد الباز:
- **الدولة البيزنطية**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.
ـ عمران، محمود سعيد:
- **محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط**: مؤسسة كريدية، بيروت.
ـ عنان، محمد عبد الله:
- **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية**: مكتبة الخانجي، ط ٣، القاهرة، ١٩٨٣م.

ـ فامبري، أرمينيوس:
- **تاريخ بخارى من أقدم العصور حتى العصر الحاضر**: ترجمة: محمود الساداتي، المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
ـ فياض، نبيل:
- **الطائفة الإسماعيلية، جسر يربط الدين بالعقل**: مجلة الموسم، العددان ٤٣ و ٤٤، ١٩٩٩م.
ـ القاضي، أحمد عرفات:
- **الفكر السياسي عند الباطنية وموقف الغزالي منه**: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.
ـ كاشف،سيدة إسماعيل:
- **مصر في عصر الأخشيديين**: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.
ـ لويس، أرشيبالد:
- **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**: ترجمة: أحمد محمد عيسى ومحمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية.
ـ لويس، برنارد:
- **أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة**: ترجمة: خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب، منشورات مكتبة المثنى، بغداد.
ـ ماجد، عبد المنعم:
- **الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه**: القاهرة، ١٩٥٩م.
- **المستنصر بالله الفاطمي**: الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦م.
- **ظهور الخلافة الفاطمية، وسقوطها في مصر**: دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٤م.
ـ محمد، صبحي عبد المنعم:
- **العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين**: العربي للنشر والتوزيع، بدون تاريخ وبدون بلد النشر.
ـ محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم:
- **العالم الإسلامي في العصر العباسي**. دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٥.

ـ مؤنس، حسين:
- **تاريخ المغرب وحضارته**: العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م.
- **معالم تاريخ المغرب والأندلس**: القاهرة، ١٩٨٠م.

ـ النشار، علي سامي:
- **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**: دار المعارف، مصر، القاهرة.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- Albirt d'Aix:
  - **Liber christianae Expeditions pro Ereptione,** Emondation et restitutiono Sanctae Hieroso lymitanae, Ecclesiane, in R.H.C occ. IV paris 1841 - 1966.
- Camb Med. History. vol V.
- Canard: Histoire Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie. Paris 1963.
- Chalandon, F:
  - Les comnènes Jean II et Manuel. Paris 1913.
  - Histoire de la Première Croisade. Paris 1925.
- Dozy R.P.A:
  - Essai sur L'Histoire des L'Islamisme. Chauvin. Paris. 1979.
- Ehrenkreutz, A:
  - Saladin. State Univestity of New-York, 1972.
- Elisséeff, N:
  - Nur Ad-Din'Un Grand Prince Musulman de Syrie Au Temps des Croisades. Damas, 1967.
- Fournel, H:
  - Les Berbères. Paris 1875 - 1881.
- Grousset, R:
  - Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem. Paris 1935.
  - L'Empire du levant. Paris 1946.
- Haskins, C.H:
  - The Normans in European History. New-York 1959.
- Ivanov, V:
  - The Alleged Founder of Ismailism. Bombay, 1946.
  - The Rise of Fatimids. Calcutta, 1942.
- Michaud, J.F:
  - Histoire des Croisades. Paris 1922, and The English Edition by: W. Robson, London 1952.
- Oman. C.W.C:
  - A History of the Art of war in the Middle Ages. London 1924.

- Psellus, M:
  - Chrono graphia. Trans. by: Sewter.
- Rambau, A:
  - L'Empire Grec au dixièm Siécle, Constantine Porphyrogenèt. Paris 1870.
- Raymond d'Aguilers.
  - Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem. in R.H.C. occ vol III.
- Robert the Monk:
  - Historia Hieroso lymitana, in R.H.C occ vol III.
- Sclumberger:
  - Un Empereur Byzantine au dixiéme Siècle. Nicephore phocas. Paris 1890.
  - L'Epopeé Byzantine à la Fin du dixièm siècle. Paris 1896 - 1905.
  - Campagnes du Roi Amaury de Jerusalem en Egypt. Paris 1906.
- Setton. K.M:
  - A History of the Crusades. Pennsylvania. 1958.
- Stern, S.M:
  - Fatimid Decrees. London. 1964.
- Stevenson, W.B:
  - The Crusaders in the East. Cambridge 1907.
- Vasiliev, A:
  - Byzance et les Arabes. Bruxell 1930.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

القسم الأول
الدولة الفاطمية في إفريقية
(٢٩٧ ـ ٣٦٢هـ/ ٩١٠ ـ ٩٧٣م)

الفصل الأول
الوضع السياسي في شمالي إفريقية قبل قيام الدولة الفاطمية

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

قيام الدولة الفاطمية في إفريقية

الفصل الثالث

عبيد الله المهدي: (٢٩٧ـ٣٢٢هـ/ ٩١٠ـ٩٣٤م)

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

أبو القاسم محمد: القائم بأمر الله: (٣٢٢ـ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ـ٩٤٦م)

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس

أبو طاهر إسماعيل المنصور بنصر الله: (٣٣٤ـ٣٤١هـ/ ٩٤٦ـ٩٥٣م)

الموضوع | الصفحة

الفصل السادس

أبو تميم معد: المعز لدين الله: (٣٤١ـ٣٦٥ هـ ـ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م)

القسم الثاني

الدولة الفاطمية في مصر والمشرق الإسلامي

(٣٦٢ ـ ٥٦٧ هـ/٩٧٣ ـ ١١٧١م)

الفصل السابع

أبو تميم معد: المعز لدين الله: (٣٤١ـ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م)

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن

أبو منصور نزار: العزيز بالله: (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م)

الموضوع	الصفحة

الفصل التاسع

أبو علي منصور: الحاكم بأمر الله: (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢١م)

الموضوع	الصفحة

الفصل العاشر

أبو الحسن علي: الظاهر لإعزاز دين الله: (٤١١ ـ ٤٢٧هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٣٦م)

الفصل الحادي عشر

أبو تميم معد: المستنصر بالله: (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م)

الموضوع | الصفحة

الفصل الثاني عشر

تدهور الدولة الفاطمية وتراجعها في ظل حكم الوزراء

الفصل الثالث عشر

الأوضاع الخارجية في عهد نفوذ الوزراء

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الفصل الرابع عشر
الأوضاع الخارجية في عهد نفوذ الوزراء

الموضوع	الصفحة

رقم: 385 – 2001



تضاربت الآراء في الدولة الفاطمية ، لقلّة الوثائق والمراجع العلمية الحيادية ، فالأبحاث المتوافرة اعتمدت إما آراء أعداء الفاطميين ، والذين شكّكوا في نسبهم ، وطعنوا في تصرفاتهم ، أو آراء المغالين في التشيع لهم ، والوثائق الرسمية الصادرة عنهم .

ومعظم المؤرخين نقل المعلومات من دون مناقشة ، وقليل منهم من درس التاريخ الفاطمي دراسةٍ أكاديمية ، من بدايته إلى نهايته ، بينما ظفر الحاكم بأمر الله الفاطمي بكثير من الكتب والدراسات المتناقضة، والخيالية أحياناً .

وهذا ما جعل من الضروري تزويد المكتبة العربية ببحث تاريخي علمي، يتناول الدولة الفاطمية من نشأتها حتى زوالها . وهذا ما حاوله مؤلف الكتاب بتجرد وإخلاص. وقد قسم بحثه إلى قسمين: بحث في الأول تاريخ الفاطميين في افريقية والمغرب، وعالج في الثاني تاريخهم بعد انتقالهم إلى مصر وتمّددهم في الشرق الإسلامي حتى نهاية حكمهم.

والمؤلف محاضر جامعي، متخصص في التاريخ الإسلامي بعامة، والتاريخ العثماني بخاصة، وله مؤلفات عدة، وأبحاث كثيرة في هذا المضمار .

الناشر


ISBN 978-9953-18-100-4
9 789953 181004